الدكتور أحمد خالد جيده

المدارس ونظام التعليم في بلاد الشام في العصر المملوكي



المدارس ونظام التعليم
في بلاد الشام في العصر المملوكي

د. أحمد خالد جيده

المدارس ونظام التعليم
في بلاد الشام في العصر المملوكي

(٦٤٨ ــ ٩٢٣ هــ / ١٢٥٠ ــ ١٥١٧ م)

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١ م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت - الحمراء - شارع اميل اده - بناية سلام - ص.ب: 113/6311 لبنان
هاتف: 791123/4 / (01)802428 - (03)220924 - فاكس: (01)803654
المصيطبة - شارع بارودي - بناية طاهر - هاتف: 311310 - (01)301030

الإهـــداء

إلى ولدي ووالديَّ
أعز ما لديَّ
وإلى كل طالب علم

المقدمة

لعل سائلاً يسأل لماذا اخترت «المدارس ونظام التعليم في العصر المملوكي ببلاد الشام» عنواناً للبحث ـ عن هذا السؤال يحصر في الأمور التالية:

١ ـ إن هذا الموضوع لم يبحث في شكل مستقل ووافٍ كي نراه مبعثراً في المصادر القديمة وبعض المراجع الحديثة ـ فعقدت العزم على إنشائه بحثاً شاملاً مستوفياً شروط البحث العلمي عن تحقيق وتدقيق وجمع وتحليل ـ معتمداً في ذلك على مصادر تاريخية وحضارية وأدبية وجغرافية ودينية. فالبحث يتناول جديداً قائماً من ناحية على المزج التاريخي والحضاري والأدبي والتعليمي ـ ومن ناحية أخرى على النتائج الهامة التي تمحو ما في الأذهان من مفاهيم خاطئة عن عصر المماليك على أنه:

١ ـ عصر انحطاط.

٢ ـ عصر لم تكن فيه مدارس علمية وثقافية ودينية.

٣ ـ عصر قائم على العنصرية والتعصب الديني.

فالبحث في رأيي سيقدم فائدة علمية عن طرق التعلم والتعليم في هذا العصر ويكشف بدوره عن طبيعة التربية العسكرية المميزة للمماليك الذين لم يعرفوا الهزيمة بخلال ثلاثة قرون تقريباً.

وأريد أن ألفت إلى أني انتهج في هذا البحث منهجاً تكاملياً يأخذ من محاسن المناهج جميعاً وخصوصاً المنهج التاريخي لتأصيل قضايا البحث. والمنهج الوصفي في عرض آراء المؤرخين والكتاب. والمنهج التحليلي في دراسة أسباب الظواهر التاريخية واستخلاص النتائج.

وبعد فحسبي أن أجتهد ما وسعني من الجهد وأن يكون مشروع هذا البحث خطوة جادة على طريق طويل...

وكان لقيام الدولة المملوكية في مصر وبلاد الشام في العصور الوسطى أهمية خاصة من الناحية السياسية والعسكرية والاجتماعية والثقافية في الفترة الممتدة من سنة ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م أي زهاء ثلاثة قرون وانتهى حكمهم بمجيء الدولة العثمانية.

والملفت للنظر أن حكام هذه الدولة وجيشها من الرقيق، وهو نظام لم يسبق له أن يقوم إلا في ظلا الإسلام.

هذه الدولة قامت في مصر امتداداً لنظم سابقة كالأيوبيين ثم عمّت أرجاء المشرق العربي.

ولاحظ المؤرخ السيوطي[1] أن نظام المماليك في عهد بيبرس يختلف عن ذي قبل، فأراد هذا السلطان أن يسلك بتنظيم هذه المملكة مسلك مملكة جنكيزخان في بلاد المغول، لأن الترك الذي ينتسب اليهم المماليك مجاورين للمغول منذ القدم.

وقد عرفت مصر وبلاد الشام حكم المماليك في عصرين أو دولتين:

١ ـ **الأولى، المماليك البحرية**: ٦٤٨ ـ ٧٨٣ هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٣٨٢م.

وهذه التسمية نسبة إلى أن غالبية سلاطينها من المماليك الذين اشتراهم الأيوبيون واسكنوهم قلعة الجزيرة (جزيرة الروضة في النيل) حيث قضى هؤلاء المماليك على دولة الأيوبيين وتولوا الحكم بعدهم، وأبرز عناصر المماليك البحرية هم الذين أتوا من بلاد القبجاق في بحر قزوين حول نهر الفولجا بعد أن زال سلطانهم هناك ابان الغزو المغولي.

٢ ـ **والثانية، المماليك البرجية**: ٧٨٤ ـ ٩٢٣هـ/ ١٣٨٢ ـ ١٥١٧م.

وهذه التسمية نسبة إلى أن غالبية سلاطينها من المماليك الذين كانوا يسكنون بروج القلعة على جبل المقطم وقت حكم المماليك البحرية وقد قاموا بإنقلاب عسكري ضد هؤلاء واستولوا على زمام الحكم منهم[2]. هؤلاء المماليك البرجية أتوا من بلاد الجركس «القوقاز» بجوار بحر قزوين وهم ترك أيضاً. بيد أن لفظة المماليك تعني ما يملك بقصد التربية على عكس لفظة العبيد التي تعني العبودية.

وكان هناك تجار من اليهود والاوروبين يقومون بإعداد هذه التجارة بأسواق متعددة في أنحاء مصر وسوريا حتى صار هناك مماليك سلطانية ومماليك الأمراء يضعوهم في خشداشيات يعلموهم أصول الدين والفروسية ثم يعدوهم للقتال. وكان يشرف على هذا الاعداد مقدم يدعى مقدم المماليك.

إن المملوك لا يحصل على الإمارة إلّا بعد أن ينتقل من مرتبة إلى مرتبة بعد أن تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وامتزج بروح الإسلام وبرع في الفنون الحربية.

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة ٢/ ٣٩ (ج٢ ص٣٩).

(٢) المقريزي: الخطط ج٢ ص ٢٣٧.

(٣) عبد المنعم ماجد: نظم دولة المماليك ج١ ص١٠.

وكانت لغة المماليك[1] هي اللغة التركية . وهي لغة غنيّة بالفارسية والعربية .

ولقد قسمت هذه الأطروحة إلى مقدمة وثلاثة أبواب:

١ ـ وتناولت في **الباب الأول** ثلاثة فصول في **الفصل الأول** أنواع المدارس في العصر المملوكي ببلاد الشام.

مثل: مدارس الكتاتيب ومدارس الخوانق والربط والزوايا ومدارس المساجد والجوامع ومدارس المكتبات ومدارس الترب ومنازل العلماء ومجالس العلم والجمعيات والصالونات الأدبية ـ والتعليم في القصور وفي حوانيت الوراقين ودور الشيوخ والفقهاء وفي مدارس المارستان والمدارس النظامية.

وفي **الفصل الثاني**: تحدثت عن إتجاهات التعليم في العصر المملوكي في بلاد الشام إذ تناولت الإتجاه الديني الذي يبحث ـ في **أصول الدين**: مثل قراءة القرآن وشرح الحديث بالإضافة إلى المدارس الصوفية من ناحية الموقع والمؤسس.

ـ والمدارس التي تبحث في فروع الدين (علم الفقه) مثل المدارس الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية.

وفي **الفصل الثالث**: تناولت المدارس الدنيوية مثل المدارس الطبية والمدارس الحربية.

٢ ـ وفي **الباب الثاني**: الذي قسمته إلى فصلين الفصل الأول حيث تحدثت عن المدرسين في المدارس المملوكية الدينية.

وفي الفصل الثاني تحدثت عن المدرسين الدنيويين وتناولت في هذا الفصل طرق التدريس والتعليم في المدارس المملوكية وعن نقابة المعلمين وكفاءة الأستاذ وشروط تعيينه.

٣ ـ وفي **الباب الثالث**: تناولت في **الفصل الأول** منه دور الأوقاف في التعليم، واهتمام الطالب في المدرسة مع تكافؤ الفرص له بالإضافة إلى عددهم ونشاطاتهم الأخلاقية والعلمية كما تناولت موضوع تعليم المرأة مع وصف هذه المدارس من حيث شكلها وهندستها الخارجية. أما في الفصل الثاني تناول موضوع الطلاب الداخليين في المدارس المملوكية ببلاد الشام ثم تحدثت عن أنواع الشهادات التي تمنحها هذه المدارس لطلابها. ثم تناولت مصير هذه المدارس في نهاية الحكم المملوكي وبداية الحكم العثماني ـ ثم انهيتها بالخاتمة والملاحق والمصادر والمراجع.

وبعد كتابة هذه الأطروحة أرجو أن أكون قد وفقت في عملي هذا ـ ولا بدّ لي

(١) الظاهري: زبدة كشف الممالك ـ ٩٩.

من أن أشكر أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور عمر تدمري لما قدمه لي من عون وإرشاد وكان خير السند لي في كتابة هذا البحث ـ كما أشكر الأساتذة القراء: الأستاذ الدكتور ناصر الجميل، والأستاذ الدكتور أحمد حطيط، والأستاذ الدكتور الياس القطار، والأستاذ الدكتور انطوان ضومط لما قدموه لي من ملاحظات وإرشادات قوّمت مسير البحث وأفدت منها كثيراً وأن سقط منها شيء سقط بدون قصد ـ وإلى هؤلاء الأساتذة الأكارم كل تقدير واحترام ومحبة احملها في صدري مدى الحياة. . . وأن كل ايجابية في هذا البحث يعود الفضل فيها إلى استاذي المشرف والأساتذة القراء. وكل نقص جاء في هذا البحث يعود إليّ لأني طالب أتجه نحو الكمال والكمال وحده لله.

وشكراً.

تمهيد

لمحة عن واقع البلاد السياسي والإجتماعي والإقتصادي والثقافي في ظل المماليك

الحالة السياسية

(أ) السلطة التنفيذية :

١) السلطان ووظائفه .

٢) الوزير .

٣) نائب السلطان .

٤) الأتابك .

(ب) النظام الإداري :

١) الولاة في الأقاليم .

٢) الدواوين .

لمحة عن واقع البلاد السياسي والإجتماعي والإقتصادي والثقافي في ظل المماليك في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي

بلغ السلاطين المماليك في مستهل القرن الرابع عشر الميلادي من العظمة والمنعة مبلغاً لم يضاهم فيهما ملك من ملوك العرب لا في الشرق ولا في الغرب فإنهم كانوا قد طردوا الصليبيين، وصدّوا غزوات التتار، وسحقوا شوكة الطوائف التي خرجت عن معتقداتهم في طول البلاد وعرضها، واثبتوا سيادة المذهب السنّي فيها، وعندما استتبّ لهم الأمر في ملكهم الشاسع الذي كان يضم مصر وبلاد الشام (سورية ولبنان وفلسطين والاردن) وشرعوا في تطبيق سياستهم الخاصة التي كان قد أملاها عليهم تغيّر الحال.

فقسّم المماليك ممتلكاتهم في سوريا إلى ست نيابات أو (ممالك) وذلك لمنع الوحدة والاستقلال[1]. وهذه النيابات هي حسب تقسيمها بدولة المماليك البحرية:

١ ـ **نيابة طرابلس**: شملت شمالي لبنان والمنطقة الساحلية من شمالي اللاذقية إلى نواحي جبيل.

٢ ـ **نيابة صفد**: شملت لبنان الجنوبي وصور.

٣ ـ **نيابة دمشق**: شملت صيدا وبيروت وبعلبك والبقاع. ثم أن البقاع قسّم إلى قسمين إداريين: الشمالي أو البقاع البعلبكي والجنوبي إلى البقاع العزيزي. وكان حكام هذه المقاطعات من أرباب السيوف ـ مقابلة لهم بأرباب القلم هم في الأصل من الموالي عند السلطان وكان هؤلاء النواب والحكام مستقلين الواحد عن الآخر في إدارة نيابته.

٤ ـ **نيابة حماة**: وتضم هذه النيابة الأقسام الداخلية بالإضافة إلى مدينة حمص.

٥ ـ **نيابة حلب**: تضم الأقسام الشمالية حتى ديار بكر شرقاً وانطاكية غرباً.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص١٦٣ وما يليها (القاهرة ١٩١٤).

٦ ـ نيابة الكرك: وهي في الجنوب من الاردن اليوم وأحياناً نجد النائب أو الوالي ليس مستقراً بولايته، وكان أسلوب الحكم يشبه إلى حدّ ما حكم السلطان في القاهرة(١). وكانت مدة النيابة القصيرة إلى جانب التنابذ والتحاسد بين النواب من جملة العوامل التي كانت تحول دون توسع أحدهم على حساب غيره، أو اتحادهم ضد السلطة المركزية في القاهرة. فقد كان الموظف الكبير لا يشغل وظيفته أكثر من ثلاث سنوات. وكان السلطان برقوق مثلاً (١٣٨٢ ـ ١٣٩٨م) لا يتردد لحظة في عزل نائب دمشق وتعيين نائب ليحلّ محله(٢).

أ ـ الحالة السياسية ومنها

أ ـ السلطة التنفيذية يتألف من:
١ ـ السلطان.
٢ ـ الوزير.
٣ ـ نائب السلطان.
٤ ـ الاتابك.

ب ـ والنظام الإداري يتألف من:
١ ـ الولاة.
٢ ـ الدواوين.
٣ ـ البريد.

١ ـ السلطان:

وكان السلطان يعدّ رئيس الدولة الأعلى وهو رئيس السلطة التنفيذية في البلاد الخاضعة لسلطانه وهو زعيم أمراء المماليك والمهيمن على شؤونهم الخاصة والعامة وصاحب الحق في تدرجهم في مراتب الرقيّ وكان الأمراء يتدرجون من أمير خمسة إلى أمير عشرة إلى أمير أربعين إلى أمير متين... وكان للسلطان وظائف عامة في الدولة لتوزيع الإقطاعات وقيادة الجيوش في الحروب وعقد المعاهدات برئاسته مع الدول الأخرى وتعيين كبار الموظفين وعزلهم وحق اصدار المراسم، ورئاسة مجلس السلطنة.

وكان مطلق الحكم والتصرف، وإذا أراد البت في مشروع من مشروعات الدولة الحيوية أو إعلان الحرب أو إبرام صلح عقد مجلس السلطة وهو المجلس المعروف بإسم «المشور»(٣) برئاسته وعضوية اتابك العساكر والخليفة، والوزير، وقضاة المذاهب الأربعة، وامراء المئين وعددهم ٢٤ أمير. وكان السلطان يقيم هو وأسرته وحاشيته ورجال بلاطه في قلعة الجبل في القاهرة وكانت تشتمل على خزانة السلطان ومطابخه وبيوته واصطبلاته ودور للمماليك السلطانية الخاصة وهم «أعظم الأجناد شأناً

---

(١) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص٤٠٠.
(٢) نقولا زيادة: Urban Life in Syria Under the Earby Mamluks, PP 12-14.
(٣) Zetterateen: تاريخ سلاطين المماليك ص١٤٦.

وأرفعهم قدراً وأشدهم إلى السلطان قرباً[١]. وهم الحرس الذين يختارهم من المماليك الذين تولى تربيتهم منذ الطفولة[٢].

٢ ـ الوزير:

ويلي السلطان بالرتبة الوزير مباشرة وأحياناً يتقدمه نائب السلطان فالوزارة بنظر المؤرخين أمثال العمري والقلقشندي والمقريزي:

«أعلى الوظائف وأسناها بعد السلطنة وهو باب المملكة المقصود ولسانه الناطقة ويده الباسطة»[٣]. وأصل الوظائف وأرفعها رتبة[٤].

وكان لكل من نيابات الشام وزير يتمتع في نيابته بما يتمتع به الوزير في مصر. بل كان يطلق عليه في الولايات الشامية بناظر المملكة الشريف أما في دمشق فيسمى ناظر النظار[٥]. وإن منصب الوزير أصبح مزاجياً بالنسبة للسلطان أحياناً يعين وزير بهذه النيابة وأحياناً يلغيه وهذا يتوقف على مدى نشاط الوزير وأخلاصه للسلطان.

٣ ـ نائب السلطان:

أما نيابة السلطنة أوجدها الأيوبيون وأحياناً بيبرس وكما يقول القلقشندي «سلطاناً مختصراً بل هو السلطان الثاني»[٦].

ومن أعمال النائب توقيع المراسيم والمنشورات وتنفيذ القوانين[٧]. أما نواب السلطنة في بلاد الشام فقد كان كل منهم ينوب عن السلطان ويمثله في حدود اقليمية فحسب. وكانت بلاد الشام أهم الولايات التابعة لمصر في دولة المماليك وكانت دمشق أكبر هذه النيابات وأعظمها شأناً. وكان نظام الحكم في هذه النيابات يماثل نظام الحكم في مصر. كل نيابة من نيابات بلاد الشام عبارة عن مملكة مستقلة بتنظيم الدواوين الحكومية والموظفين الذين يتولون شؤونها ولكن بصورة مصغرة. والنقود المضروبة باسم السلطان في مصر مضروبة في حماة ودمشق وطرابلس[٨].

«وقائم بدمشق مقام السلطان في أكثر الأمور المتعلقة بنيابته ويكتب عنه التواقيع

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص١٥.
(٢) (Demombgnes: La Syrie, PXXXIII,XeIX).
(٣) العمري: مسالك الأبصار ج٥ ص٤٣٩.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص٢٨.
(٥) القلقشندي: صبح الأعشى ج٥ ص٤٦٥.
(٦) القلقشندي: صبح الأعشى ج١١ ص١٣٥ ـ ١٣٨.
(٧) العمري: التعريف ص٦٥ ـ ٦٦. المقريزي: الخطط ج٢ ص٢١٤.
(٨) Heri La voix: Catalogue des monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, Egypte Syrie, pp. 323 - 336.

الكريمة»[١]. وقد ضعفت نيابة السلطنة ثم ألغيت مع الوزارة سنة ٧٢١ هـ ثم أعيدت في عهد السلطان أبي بكر سنة ٧٤٢ هـ[٢]. ثم زالت نهائياً أثناء حكم السلطان برقوق في الدولة البرجية. وقد شغل منصب نائب دمشق في العصر المملوكي ٧٨ نائباً[٣].

٤ ـ ثم منصب الأتابك:

وهي أعلى رتبة عسكرية بالسلطنة وهو يسمى أبو العساكر ـ وهو الذي يدير الشؤون المالية القتالية في كل أنحاء السلطنة في مصر وبلاد الشام مع العدو وهو الذي يأخذ القرارات العسكرية الهامة بعد موافقة السلطان. وهو يعتبر القائد الأعلى للجيوش ـ ويقول القلقشندي «أن هذا اللقب لا يمنع عندما لا يكون هناك نائب للسلطنة»، وكان يليه في الأهمية نائب السلطنة، وغايته «رفعة المحل وعلو المقام»[٤].

وإننا نتحدث باختصار شديد عن النيابات الشامية في ظل حكم المماليك البرجية حتى الفتح العثماني:

١ ـ نيابة حلب[٥]: تضم نيابة حلب ثلاثة مناطق كبرى هي:

أ ـ ما هو داخل البلاد الشامية ويشمل ٢٨ عملاً هي: حلب العاصمة ـ قلعة المسلمين ـ مهني ـ عيتاب ـ كركر ـ الكختا ـ الرواندان ـ الدرباك ـ بغراس ـ القصير ـ الشغر ـ شيزر ـ شغلان ـ قلعة ابي قبيس ـ قلعة حارم ـ كفرطاب بين المعرة وشيزر.

ب ـ البلاد المعروفة باسم بلاد الأرمن وقد ضمت إلى حلب بعد أن استخلصت من أيدي الأرمن زمن المماليك وتشمل: إياس ـ سيس قاعدة بلاد الأرمن ـ درندة ـ وهناك طرطوس وآونه وشرفند كار ـ وملطية ـ وقيسارية والمصيصه ويتبعها عدد من القلاع الهامة[٦].

٢ ـ نيابة طرابلس[٧]:

حدها من الغرب من شمال مدينة بيروت إلى اللاذقية ومن الشمال من اللاذقية

---

(١) ابن اياس: بدائع الزهور ج٢ ص١٦٥ و ٣١٩.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج٨ ص١٣٤. المقريزي: الخطط ج٢ ص٢١٤.
(٣) المقريزي: السلوك. ج٢ ص٢١٥.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص١٨.
(٥) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص٢،١١٦ ـ الخالدي: المقصد ص٩٠ ـ ٩٣. العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص١٨٠ ـ ٢،١٨١ ـ ابن شاهين: زبدة الفكر ص٥٠.
(٦) الخالدي: المقصد ص٩٣.
(٧) الخالدي: المقصد ص٩٤ ـ ٤،٩٥ ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص١٤٢ ـ ١٥٧. العمري: التعريف ص١٨١.

إلى العاصي الذين يحدها من الشرق أيضاً ومن الجنوب من بشري إلى الساحل وتضم: طرابلس المدينة ـ طرطوس واللاذقية وجبّة المنيطرة وبشري وجبلة وانفه وجبيل. ومجموعة من القلاع والحصون هي: حصن الأكراد وحصن عكار ـ وقلعة شماء ـ وبلاطنس ـ وصهيون. ثم قلاع الدعوة الإسماعيلية وقد بقيت طرابلس بأيدي الصليبيين حتى سنة ٦٨٨ هـ ـ ١٢٨٩م أي حوالي ١٨٥ سنة حتى فتحها المنصور قلاوون وكانت تسمى نيابة الساحل أو «الفتوحات الساحلية»[(١)].

٣ ـ نيابة حماة:

وهي من النيابات الصغيرة ولكنها غنية بإنتاجها الزراعي ويتبعها: معرة النعمان في الشمال وبارين في الغرب[(٢)] وكانت المعرة في عصر المماليك تتبع حماة تارة وحلب تارة أخرى ضُمّت لحماة نهائياً.

٤ ـ نيابة صفد[(٣)]:

«حدها من الشمال يافا إلى جنوب صيدا من الغرب، وإلى مرجعيون شمالاً، وبحيرة الحولة وطبريا شرقاً، ومدينة نابلس وغور الاردن جنوباً. وتضم مدينة صفد والشقيف وولاية جنين وولاية عكا والناصرة وولاية صور. وكان السلطان يسمح أحياناً لنائب دمشق بتعيين نائب صفد.

٥ ـ نيابة الكرك:

يحدها جنوباً العقبة، وشرقاً بلاد البلقا، وشمالاً بحيرة لوط، وغرباً صحراء سيناء، وهي من المعاقل الحصينة بناها الملك العادل وتعرف باسم «كرك الشوبك» ولها قلعة عظيمة يولي نائبها السلطان مباشرة وتضم معان والعقبة فكانت منفى للسلاطين المخلوعين أو العاصين وتضاءلت أهميتها في أواخر عهد الدول[(٤)].

٦ ـ نيابة دمشق:

يفترض أن توضع النيابة الأولى وتسمى نيابة الشام والممالك الشامية، وحدّها من العريش جنوباً إلى السلمية شمالاً ومن الرحبة شرقاً إلى المتوسط غرباً يخرج من ذلك نيابات صفد والكرك وطرابلس. وتقسم إلى خمس مناطق رئيسية كبرى هي:

أ ـ **منطقة دمشق**: وتضم المنطقة بين قرية الكسوة جنوباً والنبك شمالاً ـ وبين

---

(١) أبو الفدا: المختصر في اخبار البشر ج٤ ص٢٤ و ٦٢.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص١١٤٠ ـ ١٠ وابن فضل الله العمري: التعريف ص١٨١.

(٣) ابن طولون: مفاكهة الخلان ج١ ص٧٣.

(٤) ابن طولون: مفاكهة الخلان ج١ ص٢٨٦.

بادية الشام شرقاً والتربواني غرباً ويدخل في هذه المنطقة مرج دمشق وغوطتها بالإضافة إلى المدينة.

ب ـ **منطقة غزة:** وتضم سبعة أعمال رئيسية هي:

١ ـ مدينة غزة وبرّها وكانت أحياناً ولاية مستقلة(١).

٢ ـ الرمله وتضم يافا.

٣ ـ عمل اللد.

٤ ـ عمل فاقون.

٥ ـ عمل القدس.

٦ ـ عمل الخليل.

٧ ـ عمل نابلس.

ج ـ منطقة حوران(٢):

يحدها من الجنوب جبال الغور الجنوبية ومن الشرق منطقة الحماد ومن الشمال حدود دمشق ومن الغرب الأغوار وتضم عشرة أعمال هي: بيسان ـ بانياس الجولان ـ الشعرا (القنيطرة) نوى ـ اذراعات ـ عجلون ـ البلقاء ـ صرخد ـ بصرى ـ زرع وتسمى اليوم (ازرع).

د ـ منطقة بعلبك(٣):

تمتد من حدود الولاية حتى نهر العاصي ومن منطقة حمص شرقاً حتى جنوب صور غرباً وتضم خمسة أعمال هي: بعلبك ونواحيها ـ بيروت ونواحيها ـ صيدا ـ البقاع العزيزي ـ البقاع البعلبكي.

هـ ـ منطقة حمص(٤):

تمتد من النبك جنوباً إلى السلمية شمالاً ومن الفرات شرقاً حتى العاصي غرباً وتضم ستة أعمال هي: حمص وضواحيها ـ مصياف ـ قارا شمال النبك ـ تدمر في الشرق ـ السلمية ـ الرحبة على الفرات قرب الرقة.

وتعتبر نيابة دمشق من أهم النيابات في بلاد الشام هذه هي التقسيمات الإدارية لبلاد الشام حتى أواخر العصر المملوكي وكان حكم المماليك في بلاد الشام شبه

---

(١) الخالدي: المقصد ص١٤٦ ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص٩٨ ـ الكتبي: عيون التواريخ ج١٢ ص٢٥٨.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص١٠٣ ـ الخالدي: المقصد ص٨٨ ـ ٨٩.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص١٠٨ ـ ابن شاهين: زبده الفكر ص٤٧.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص١١٢ ـ ابن شاهين: الزبدة ص٤٧.

مباشر عن طريق الحاميات العسكرية. وأن الحدود الشمالية غير ثابتة مما شجع العثمانيين على الفتح. وكذلك في لبنان فقد أبقى المماليك الأمراء المحليين في مراكزهم[١] ولكنهم خاضعين للسلطان.

ب ـ النظام الإداري

١ ـ الولاة:

إن شؤون الإدارة والحكم استلزمت تعيين موظف كبير عرف باسم الوالي. كما النائب ويعد من أهم الموظفين الإداريين الذي يستعلم عن مجلدات ولايته من قتل أو حريق وتحمل إلى السلطان صبيحة كل يوم فيوقع عليها[٢]. وهو الذي ينفذ الأحكام ويقيم الحدود ويتعقب المفسدين ومثيري الفتن ومدمني الخمر. وكان يكتب له مرسوم بالولاية[٣]. وكان هذا الوالي في معظم الأحيان مستقلاً عن نائب السلطنة في الإقليم وتابعاً للحكومة المركزية. وكان لكل قلعة أو حصن والي كقلاع القاهرة ودمشق وحلب وصفد والكرك[٤].

٢ ـ الدواوين:

وكان أهم الدواوين عند المماليك هو:

ـ ديوان الإنشاء ـ ديوان الأحباس ـ ديوان النظر ـ ديوان الخاص.

وكان صاحب ديوان الإنشاء أو كاتب السرفي نيابات الشام يماثل كاتب السرفي مصر في علوّ منزلته ورفعة مكانته وسعة اختصاصاته ويُولّى بمرسوم سلطاني. وكان يطلق على كاتب السرّ بدمشق وحلب، أما في حماة فقد كان يلقب (صاحب ديوان المكاتبات، وفي طرابلس وصفد يطلق عليه اسم كاتب السر، وفي غزّه وسيس والكرك يعرف باسم كاتب الدرج[٥].

ـ **وديوان الأحباس** يشبه وزارة الأوقاف اليوم، ويتولى صاحبه الإشراف على الجوامع والمساجد والربط والزوايا والمدارس والعقارات المحبوسة.

ـ **أما ديوان النظر** فهو أهم الدواوين في الدولة إذ ذاك وكان يشبه وزارة المالية اليوم ترجع إليه سائر الدواوين فيما يتعلق بالمتحصل والمنصرف من أموال الدولة.

ـ **أما ديوان الخاص** يتعلق بشؤون السلطان المالية عرف باسم «ديوان الخاص»

---

(١) ابن شاهين: زبدة الفكر ص١٠٥.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص٦٠.

(٣) الخالدي: المقصد ص١٢٨.

(٤) Van Berhem; Corpus, Egypte 1-pp.210 - 211.

(٥) ابن شاهين: كشف الممالك ص١٣٠ ـ ١٣١.

يشرف عليه موظف كبير أطلق عليه «ناظر خاص بأموال السلطان»[١]. وهناك دواوين أخرى. . . لا مجال لذكرها.

الحالة الإجتماعية

المجتمع المدني في بلاد الشام بالعصر المملوكي

صدر نفوذ المماليك في مدن مصر وسوريا عن السلطات الإقتصادية والسياسية الهائلة للحكام والأمراء المماليك، وساهمت ممارسة هذه السلطات في تشكيل العلاقات بين المماليك وبقية المواطنين المدنيين، لكن من الضروري أن نتدارس في البداية تنظيم حياة الشعب المدنية كي نفهم مضمون هذه العلاقات للتنظيم السياسي للمدن.

كانت حلب والقاهرة ودمشق مدناً معقدة اجتماعياً وكبيرة بالنسبة للأزمان التي سبقت الحضارة الحديثة، فقد قرر الزوار الذين زاروا دمشق في أواخر القرن الرابع عشر وأوائل القرن الخامس عشر أن عدد سكان هذه المدينة كان يقارب مئة الف نسمة وأن عدد سكان مدينة القاهرة أكبر بكثير من عدد سكان دمشق. وقدرت الأحصائيات الأولى والتي اعتمدت على الأحصاء العثماني الرسمي الذي أجرى بعد قرن أي بين ١٥٢٠ ـ ١٥٣٠م أن عدد سكان دمشق كان يقارب (٥٧٠٠٠) نسمة وعدد سكان حلب حوالى (٦٧٠٠٠) نسمة في عام ١٥٢٠م ثم بلغ (٥٧٠٠٠) بعد عقد من الزمن ولا توجد احصائيات دقيقة لباقي مدن بلاد الشام[٢].

وقسمت الأسوار في هذه المدن إلى قطاعين رئيسين: داخل الحصون وخارجها، إضافة إلى ذلك فقد وجدت ضواحي رئيسية في دمشق مثل الصالحية الواقعة على مسافة قصيرة من المدينة الرئيسية، وجدت أيضاً قرى كبيرة في الواحة المنتجة للفواكه التي تحيط بالمدينة المسماة باسم الغوطة، فهذه لم تكن وحدات ريفية بل وحدات مدنية مصقولة فعلى سبيل المثال كانت المزّة وداريا امكنة للمساجد والمدارس، وسكنت هناك العائلات الدمشقية البارزة من العلماء والتجار وأصحاب الأراضي[٣].

طبقات السكان:

كان المجتمع المملوكي مقسماً إلى أربع طبقات في بلاد الشام:

١) الصفوة الحاكمة.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص٣٠٧ ـ ٣٠٩.

(٢) فردنا ويرودل: مراتيء البحر المتوسط ص٢٦٩ نمت هذه المدن في القرن السادس عشر بشكل كبير وتدهورت كل من دمشق وحلب.

(٣) ابن بطوطه: الرحلة ج١ ص٢٢٩ ـ ٢٣٧.

٢) الوجهاء.

٣) العامة من الشعب.

٤) طبقة الرعاع.

بالنسبة للأولى وهي نخبة المماليك وهي من أهم طبقات المجتمع وكانت تسمى النخبة الحاكمة باسم «الخاصة» مقابل طبقة «العامة» من الشعب.

وتكونت طبقة الخاصة من السلطان وحاشيته وأمراء المماليك ذوي المراتب العالية والموظفين. والعامة هي الرعية من العمال والمزارعين[١] وهناك طبقة إجتماعية ثانية واقعة بين الخاصة والعامة سميت طبقة الأعيان (الوجهاء) واستعملت إلى الزعماء الأكثر بروزاً مثل أعيان المماليك، أعيان العلماء، أعيان التجار وأشارت هذه بشكل خاص عبارة الأعيان إلى العلماء والقياديين والزعماء الدينيين والأساتذة والمعلمين والقضاة والشيوخ والوعاظ حيث كانوا أكثر أفراد الشعب احتراماً واجلالاً[٢] وإن أعيان الناس لتشمل التجار والأغنياء، واستعملت في بعض السياقات لتشير إلى المماليك. وكانت المناصب أو النفوذ الحكومي مع نظام المماليك عناصر أساسية للوجاهة وكانت المنزلة الدينية من ناحية أخرى أساساً مستقلاً للتقدير الإجتماعي ونال احترامها الأساتذة والمعلمون وعلماء الدين الذين جسدوا المثل العليا للمواطنين وأخيراً أعتبر الثراء والنسب الكريم وأسلوب الحياة اساساً للوصول إلى المراتب العالية[٣].

ـ أما بالنسبة للطبقة الثالثة وهي العامة سميت أحياناً «بعامة الناس» للتأكيد على درجة من الإحترام، فقد كانت هذه الطبقة مؤلفة من سكان المدن من العمال الذين يعملون بالتجارة ومن أصحاب الحوانيت وبائعي المفرق والحرفيين ودافعي الضرائب والتجاريين والبنائين... شكلوا هذه الطبقة العاملة من السكان.

ـ أما بالنسبة لعناصر الرعاع كما تظهر في البيانات المنتشرة في جميع التواريخ عناصر مواطن الرذيلة والإجرام المحتقرة وعموماً فقد أشير لهذه الجماعة المنبوذة على أنها «أرذال العامة» أو «أوباش العامة» أي رعاع الشوارع في المدينة وهم: عمال القمامة والمغنون وعمال الجنائز والجباة المهملون، وكان المتصارعون والمهرجون ورواة القصص والنساء المغنيات الذين الهوا العامة من الشعب في الطرقات وأخذوا يبحثون عن فرص للعمل هنا وهناك وانضموا إلى الرذيلة والتسول[٤]. وأكتظت المدن

(١) المقريزي: السلوك ج٢ ص٤ ـ ١١٤.

(٢) المقريزي: السلوك ج٢ ص١٥٤.

(٣) ايرا مارفين لابيدس (نقله إلى العربية سهيل زكار) مدن الشام في العصر المملوكي ص١٣٧.

(٤) المقريزي: السلوك ج٢ص١٨٠.

باعداد هائلة من المتسولين والمعوزين والمرضى والعجز والمعوقين في الشوارع والمساجد.

وساعدت ظروف معينة على تضخم عدد سكان المدن مضيفة عدداً من اللاجئين المتشردين ونشد اللاجئون من حلب وحماة وحمص الأمان والهدوء من مدن دمشق وبعلبك منذ زمن غزوات المغول في القرن الثالث عشر وغالباً ما رحل اللاجئون من سوريا إلى مصر.

وطلب أهالي القرى المحيطة الأمان في المدن المحاطة بالأسوار، وذلك ببقائهم مع أصدقائهم إذا كانوا محظوظين، غير أنهم غالباً ما ناموا وعاشوا مع عائلاتهم في الطرقات وسبّب عدد اللاجئين الضخم أزدياداً في الأسعار المحلية وانتشرت صعاب حروبهم داخل الأسوار في المدن[١].

وهكذا قسمت المدن في بلاد الشام إلى هذه الطبقات، غير أن علاقاتها بعضها مع بعض شكلت نماذج متماسكة للحياة العامة، فقد قامت تكتلات متكافلة قوية على أسس الأحياء السكنية للمدن، وهو شكل للاتحادات المهنية والنقابية في الأسواق، وشكل مبسط أيضاً لعصابات الرعاع النشيطة والمؤسسات الدينية الرئيسية حيث أرقفت التقسيمات الطبقية لخلق حياة مشتركة أوسع وأشمل.

تنظيم الأحياء:

قسم المدن الشامية إلى مناطق سميت حارات ومحلات أو «خطط ـ أخطط» وكان هذه أحياء سكنية قامت فيها أسواق محلية صغيرة وجدت فيها الورشات وخاصة ورشات الحياكة لكنها انعزلت بشكل متميز عن نشاط اسواق المدن الرئيسية وكانت أحياء دمشق وحلب مساوية لحجم القرى الصغيرة تقريباً وتروي مصادر[٢] أواخر القرن الخامس عشر وجود ما يقارب خمسين حيّاً في مدينة حلب، مشيرة بذلك إلى حجم وسطي يلغ الف نسمة كانت تربطهم علاقات جيدة داخل حدود المودة وجهاً لوجه مع جميع السكان. وخصصت القوائم ما يقارب سبعين حياً لدمشق وثلاثين حيّاً لضاحية الصالحية مشيرة إلى حجم وسطي يلغ من خمسمائة إلى ستمائة شخص... وهكذا كانت الأحياء مناطق مجاورة تقع داخل الوحدة المدينة المتكاملة، ولا تتضمن القوائم بالضرورة أن كل حي وحدة حقيقية للتنظيم الإجتماعي. كانت المنطقة الكبرى التي تتضمن أحياء عديدة هي وحدة

(١) ايرا مارفين لابيدس: مدن الشام في العصر المملوكي ص١٤١ (نقله إلى العربية سهيل زكار)..

(٢) ايرا مارفين لابيدس: مدن الشام في العصر المملوكي ص١٤٣ (تعريب سهيل زكار).

العمل الإجتماعي الفعال، فقد بلغ مجموع الأحياء في القدس أربعين حياً غير أن تسعة أحياء منها كانت ذات أهمية فقط[١].

وكان العديد من الأحياء عبارة عن وحدات متجانسة ومرتبطة بإحكام وليس من الضروري أن كل واحد منها متضامناً في حد ذاته. وكان ميل الجماعات البحث عن الراحة والحماية لأعضائها بالوقت الذي لم يكن المرء يشعر فيه بالأمان الحقيقي إلّا بوجوده مع أنسبائه وأقربائه.

وكان لكل طائفة مسيحية ويهودية شارع خاص بها ووجدت بعض الأحياء الدينية اليهودية التي حصلت على موافقة أقامتها في دمشق واحتل الأرمن والموارنة أحياء في الجزء الشمالي الغربي لمدينة حلب، وأنشأت الأحياء اليهودية والمسيحية في القدس ومع تأكيد بأن نقول أنهم عاشوا في مناطق منفصلة لكن مجاورة لشوارع المسلمين وأنه وجد بعض الفصل بين الأشخاص من قبل الوحدة الإجتماعية؛ لكن لم توجد المجتمعات المشابهة لأحياء اليهود ابداً[٢] وعاش اليهود أيضاً في عجلون وصفد وغزة ونابلس والخليل والرملة وطرابلس ولكن كان من المؤكد أن يكون لديهم أحياء خاصة بهم لجانب الطوائف الأخرى ووجدت بعض الجماعات المختلفة عرقياً بين المسلمين وعاشت بمعزل عنهم ووجدت أحياء للتركمان في مدينة حلب خارج الأسوار وحي للأكراد وشارع للفرس وأشتملت العديد من المدن الصغرى على أحياء للأكراد والأتراك والبدو في عملية الإستقرار أو اشتملت على وحدات صغيرة من اللاجئين القادمين من الخارج[٣].

أما بالنسبة للسكان العرب المسلمين المهيمنين فقد توحدت بعض القرى ذات المنشأ المشترك مع بعض المناطق المدنية وتجمع القرويون مع أبناء عمومهم وحافظوا على الإتصال مع الناس في الموطن وبعثوا الحياة القديمة داخل الأسوار واحتفظ المهاجرون من حران بهويتهم في دمشق، وبشارعهم الخاص بهم في مدينة حلب، ووجد في مدينة القدس احياء عديدة سكانها اتوا من قرى مختلفة إضافة إلى وجود جماعات قبلية، واشتمل توسع المدن أحياناً القرى التي تقع خارجها في تكتل مدني مستمر وذاب حي القبيبات الواقع خارج مدينة دمشق فيها عندما خصص له مسجد جديد وقنوات للري في عام ٧٢١ هـ/ ١٣٢١م وكان في القرن الثالث عشر لا يزال قرية وجاء ذوبانه بسبب تطور المدينة ومع هذا احتفظت

(١) المقريزي: الخطط ج٢ ص٢ ـ ٤٦.

(٢) ابن الأثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١٠٣.

(٣) ايرا مارفين لابيدس: مدن الشام بالعصر المملوكي ص١٤٤ (ترجمة سهيل زكار).

هذه المناطق المدموجة بشخصية خاصة طوال الفترة، واعتمد تضامن بعض هذه الأحياء الإسلامية على الإندماج الديني الطائفي احياناً فمثلاً إنضمت ضاحية الصالحية في دمشق إلى مدرسة الفقه الحنبلي بينما كان معظم سكان المدينة من الشوافع، ولم تخلق الأولوية ووحدة العرف والأصل والنسب مركزاً قوياً للشعور، بل خلقت الوحدة الناتجة عن قيادة الشيوخ والإتحاد النهائي للحي بأكمله مع المدرسة هذا الشعور[1] ومع ذلك فليس لدينا دليل يشير إلى أن التحكم بالطبقات الإجتماعية كان أساساً للتضامن، فقد فضل الأثرياء بعض المناطق للسكن على غيرها بسبب موقعها الصحي أو قربها عن القلعة وأعطوا هذه المناطق صبغة الطبقة العليا، لكن لم تسيطر أي طبقة من الطبقات على أي منطقة من المناطق، بالرغم من أن العلماء قصدوا التجمع قرب القلعة وفي الأحياء الرئيسية، فقد كانت هذه الأحياء مراكز للأسواق والمعاهد الدينية أيضاً، ووجد فيها سكان مختلفون من العلماء والتجار والحرفيين والموظفين والعاملين. ومع ذلك لم تخلُ هذه الأحياء بمجملها من الوجهاء المقيمين، ولم تختلف الحياة الإقتصادية والدينية والإجتماعية كثيراً من حي لآخر، ليخلق الحي الأساسي اللازم لأي فصل جذري للطبقات، لقد كانت الأحياء عبارة عن تجمعات من الفقراء والأغنياء.

وخلق التضامن في بعض المناطق العداءات الشديدة بين الأحياء التي اشتدت كلما زاد ضعف دولة المماليك، ولقد كانت المشاجرات الكردية والتركمانية والبدوية العربية التي وقعت في مدن فلسطينية والتي كان فيها لمشائر البدو الأعراب روابط قرابة واحلاف مع القرويين في الخارج سبباً للصراع الداخلي فمثلاً تحاربت أطراف من الأكراد مع اشخاص لقبوا «الدارية» في الخليل في عام ٨٧٨هـ/ ١٤٧٤م. واندلع القتال في القدس في عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م. لأن الحاكم أعدم عدداً من بني يزيد - واقتتلت أحياء التركمان والبشكير بعضها مع بعض في مدينة الرملة في عام ٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م. وانقسمت دمشق في الحروب الأهلية التي حدثت عام ٧٩١هـ/١٣٨٩م، في مساندة السلطان برقوق والأمير الثائر منطاش إلى صفوف تذكر بالنزاعات الريفية وكانت تساعد منطاش القيسية وبرقوق اليمانية. وهي نزاعات قديمة بين هاتين القبيلتين - وتقاتل أهالي الشاغور مع سكان الميدان الأخضر والقبيبات في أواخر ١٤٨٥، ونزلت الكوارث على حلب أيضاً من جراء المعارك المتقطعة التي حصلت بين الزمر المتصارعة وانقسمت مدينة حلب بين منطقة بانقوسا خارج الأسوار والجماهير في الداخل واندلع القتال بشكل جدي في الحرب الأهلية التي وقعت في عام ٧٩١هـ/

---

(١) ايرا مارفين لابيدس: مدن الشام بالعصر المملوكي ص١٤٤ (ترجمة سهيل زكار).

١٣٨٩م، عندما ساندت منطقة بانقوسا الأمير منطاش بينما ايدت بقية مدينة حلب السلطان برقوق[١].

ونسمع في نهاية عهد المماليك أي في عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، بوجود أفخاد متحاربة من القبائل وقد سمّوا هذه المرة باسم «حرّا» و «حاس» ويعتقد أنهم أنتموا إلى القيسية واليمينية ولا نعرف عنهم شيئاً سوى أنهم كانوا خطراً على يهود حلب، وتحول عدد كبير من اليهودية إلى الإسلام ليحموا أخوانهم السابقين في الدين اليهودي، وتقرر الرواية في أحسن الأحوال وجود الأنواع نفسها من تضامن الرعاع المعادية للنظام[٢] أمام هذا الواقع وبعد تاريخ ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م، فإن شدة الحروب ضد التركمان والعثمانيين وشدة عنف البدو والقرويين في سوريا بأجمعها الأمر الذي تطلب وجود حملات تأديبية دفعت المماليك ولأول مرة إلى فرض رسوم شاملة على سكان أحياء كاملة وسميت هذه الرسوم بإسم «رماية» وكانت هذه الرسوم شيئاً إضافياً للضرائب المرهقة. **وأعتدوا بشكل مباشر على مساعدة الوجهاء ورجال الدين ليجيزوا شرعية الضرائب، وكانت هذه الضرائب طبقت على الأحياء التي تكررت مقاومتها للنظام وفرضت الضرائب ثانية على الشاغور والصالحية عام ٩٠١هـ/ ١٤٩٥ ـ ١٤٩٦م**[٣].

وهكذا كان العديد من أحياء المماليك عبارة عن وحدات صغيرة مندمجة بعضها مع بعض، وبوجود العزلة الشبه مادية، والروابط الأسرية، والتجانس العرقي والديني وتضامن الجماعة القومي، والوحدة الإقتصادية والإدارية، والنخبة الإجتماعية الناطقة باسم الجماعات، كانت هذه الأحياء مماثلة للوحدات الفردية داخل التكتل المدني.

ومهما كان مجتمع الأحياء كثيفاً فإنه لم يستوعب كلياً الوجود الإجتماعي لاعضائه وشكلت الأسواق التي ركز فيها على حياة المدن الإقتصادية بالمقابل مع حياة الحارات العائلية والمشتركة ميداناً تنافسياً للحياة الإجتماعية، وتشكلت المناطق التجارية الرئيسية من صفوف من الحوانيت والورشات والخانات والقيسارات للبيع بالجملة والتصنيع، أضف إلى أنه تمّ انشاء المدارس والمساجد والزوايا والحمامات والتسهيلات العامة الأخرى من منطقة السوق، وكان للنساخ والشهود الرسميين وجامعي الضرائب والقضاة حجرات هنالك أيضاً، وجاورت الأسواق القلعة ومساكن امراء المماليك القياديين، ومكن الموظفون وكبار رجال الدين، وعائلات التجار في

---

(١) ايرا مارفين لايدس: مدن الشام في العصر المملوكي ص١٤٨ (نقله إلى العربية زكار).
(٢) لايدوس: مدن الشام ص١٤٩ (نقله إلى العربية سهير زكار).
(٣) ابن طولون: مفاكه الخلان ج١ ص١٦٠ ـ ٣٧٧.

المنازل المجاورة، فهنا أديرت شؤون المدينة كلها من قبل أهالي الأحياء الذين جاؤوا اليها وانفصلوا عن اسرهم وبانوا من أدوارهم البسيطة[١].

ومن ناحية أخرى كان سكان الأسواق منظمين تنظيماً غير كامل بالمقارنة مع الأحياء، وبالفعل لم تكن النقابات الحرفية والتجارية والمهنية موجودة. وخلقت الدولة أشكالاً أولية من التنظيم لتحقيق أهدافها الخاصة. والشيء الذي كان يسمى نقابات الأطباء والجراحين والكحالين، إنما سمي بهذا الأسم لأن الزعماء الذين كانوا يدعون رؤوساء انتخبتهم الدولة للحفاظ على مستويات التعليم والممارسة والتنظيم في المهن ولا يوجد دليل يشير إلى أن هؤلاء الموظفين مثلوا نقابة متضامنة[٢] وأوكل النظام المملوكي إلى المحتسبين أو مفتشي الأسواق مهمة التوجيه الأساسي للتجارات والمهن في جميع المدن الشامية، واعتبرت أعمالهم في الإشراف جزءً من الواجب العام المشترك في (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وكانت واجباتهم الإقتصادية امتداداً للرغبة في تحقيق حياة أخلاقية مشتركة، وكان مفتشو السوق مسؤولين عن دعم مزاولة الأعمال الشريفة والنظيفة، والإشراف على مستوى جودة الصناعات وازالة أعمال الإحتيال والمنافسات الجائرة، وتنظيم أسواق الحبوب. والأكثر من ذلك كان لهم دور هام في جمع ضرائب السوق من كل مدن المماليك[٣] وهكذا جسد المحتسبون اهتمام العلماء لتحقيق النظام الأخلاقي واهتمامات الدولة المالية، وتمّ اختيارهم من بين العلماء والتجار والموظفين غير أن أهمية المنصب المالي غالباً ما سادت في القرن الخامس عشر وعليه غالباً ما آل هذا المنصب إلى المماليك[٤].

وكانت نزعات الشعور الديني بين الجمهور ستةً قويمة في بعض الأحيان، وبدون سيطرة السلطات، وكانت خطرة بسبب المعتقدات الدينية القوية التي كانت بإمكانها أن تطالب ضد العلماء الذين انضموا للدولة وتعايشوا معها، فعلى سبيل المثال أتهم أحد الصوفي قاضي حلب المالكي بالكفر وذلك في عام ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣ ـ ١٤٧٤م، وكان هذا الإتهام ثنائي الخطر حيث كانت علاقات الجماهير الحميمة مع الشيخ معروفة، وكانت الطريقة الوحيدة لتخليص القاضي من غضب الجماهير هي أن يضرب ويشهر به ويتعرض للخزي والمهانة[٥].

---

(١) لابيدوس: مدن الشام ص١٥٧ (نقله إلى العربية سهيل زكار).

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج٥ ص٤٦٧.

(٣) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص١١٦ ـ ١٢٦.

(٤) ابن طولون: مفاكهة الخلان ص٣١ و ١٢١. ـ ابن اياس: بدائع الزهور ج١ ص١٢٢ ـ ١٢٣.

(٥) ماسينون: (لويس) طوائف المهنة والمدينة الإسلامية ج٤ ص١٧١ ـ ١٩٨.

وهكذا كانت المقاومة بالنسبة للإتحاد نضالاً لمنع الحياة الإقتصادية والسياسية والإجتماعية والدينية من السقوط في ايدي الطبقات الأولى. وعندما أمر النويري وابن تيمية رجال الحسبة بقمع اتحادات العمال كانا ينقلان أوامر الدولة والعلماء[1].

وعلى الرغم من أن المدارس كانت منظمة في المرتبة الأولى لدراسة الفقه الإسلامي، فقد كانت مراكز للتوحيد الشامل، واستلزم أن يكون الجميع أعضاء في هذه المدارس كما هو الشائع في المسائل الدينية، فقد نقلت العضوية في المدارس وفق مزاولة قرية العضو أو حيه أو منطقته، وكانت المذاهب شارحاً رسمياً للفقه الإسلامي للأشخاص الذين طبقوا الإسلام حسب قواعد المدرسة، والذين اعتمدوا على أساتذتها للإرشاد وحسب السلوك الإسلامي الموائم، وعلى شهودها لتسجيل العقود والزيجات على قضاتها للتوسط في الخلافات، وهكذا ارتبط التجار والموظفون والمماليك مع المدارس كحماة لها، ومع العامة من الشعب معتبرين أنفسهم الأعضاء الذين أعتمدوا على العلماء للنصح والتمثيل والقيادة، وكانت هذه الروابط شكلية، وعلى أية حال قامت زعامة العلماء لأغراض سياسية، وخدمت المدارس لتكون سبلاً لبسط نفوذهم، وتبادل آرائهم، وإقناع العامة من الناس، وكانت مدارس الفقه أكثر الوحدات المدنية المتداخلة شمولاً لكن من الضروري أن نلاحظ أنها لم تشمل جميع السكان وبالتالي لم تشكل منظمات واسعة شاملة من أي نوع في المدن المملوكية الإسلامية. ومن هنا نرى بأن المجتمع المملوكي إنقسم إلى وحدات صغيرة متعددة ابقاها العلماء مرتبطة بعضها مع بعض، وجعلتها ثناءاتهم وسلطتهم القضائية والإدارية والقانونية والتعليمية والثقافية والمالية والتجارية والعائلية ـ التي نشأت في الأبعاد ـ على تماس مع جميع أمور المدينة. وكان العلماء جزءً من المصالح الإقتصادية والسياسية والإجتماعية بقدر ما انتموا إلى الطبقات المختلفة.

ونجا حقلان حيويان من حياة المدينة من سلطة العلماء كما نرى:

أولهما الدفاع عن المدن وقمع العنف الداخلي حيث فقدت القوة العسكرية الكافية.

والثاني السيطرة على الموارد الريفية لمساندة المدن، ولإزدياد رأس المال للإستثمارات المكلفة في التسهيلات الإجتماعية والتي كانت الإقتصاديات المدنية فقيرة لتدبرها وكان تدخل المماليك ضروري في كلا المجالين: العسكري ـ والإقتصادي. وكان على الوجهاء أن يتعاونوا مع سادة الدولة من المماليك لإكمال دورهم في المدن وللمشاركة في العمل السياسي لتنظيم سياسة المدن.

---

(١) النويري: نهاية الارب ج٨ ص٢٤٨.

علاقة السلاطين بأهل الذمة في دمشق: (إزاء اليهود والنصارى)

١ ـ أهل الذمة: اليهود.

كان يقيم في قرية جوبر ـ قرب دمشق ـ وفي القسم الجنوبي الشرقي من المدينة طوائف من اليهود في حين كان يقيم النصارى في شرق البلد بالإضافة إلى إنتشارهم في العديد من قرى النيابة.

وكان لكل طائفة منهم بطرك أو رئيس ينتخبه جماعته، ثم يعينه السلطان أو نائبه، وذلك بعد موافقة الرئيس الأعلى في القاهرة على هذا الترشيح[١]. وقد كان يهود الشام يضمون فئتين متمايزتين:

أولهما: اليهود القراءون والربانيون وهم المتفق عند المسلمين على يهوديتهم وإن كان بعضهم يختلف عن البعض الآخر في أمور طفيفة وهؤلاء يشير إليهم مؤرخو العصر المملوكي الأخير بكلمة «يهود» ولهذه الطائفة رئيس خاص.

وثانيهما: فرقة من فرق اليهود ويتردد إسمها كثيراً في كتابات ذلك العصر ونعني بها فئة (السامرة) وهم أتباع السامري الذي أضل اليهود وجعلهم يعبدون العجل.

وقد اختلف مؤرخو المسلمين في أمرهم ذلك لأن اليهود القرائين والربانيين كانوا ينفون أن يكون السامرة يهوداً لأن لهم توراتهم الخاصة التي تختلف عن تورات القرائين والنصارى وهم يتميزون عن القرائين بأنهم ينكرون نبوة من بعد موسى بإستثناء هارون ويوشع، ويستقبلون طور نابلس بدل بيت المقدس وذلك لزعمهم أن الله تعالى كلمّ موسى عليه[٢] ولذلك يقيم رئيسهم بمدينة نابلس وله نائب بدمشق ويرأس هؤلاء بدمشق رئيس يسمى «الربيس»[٣]. ومع ذلك فقد اعتبرهم المماليك فئة متميزة من اليهود ولذلك الزموهم بوضع «العمامة الحمراء» في حين الزموا اليهود الآخرين بوضع «العمامة الصفراء».

٢ ـ النصارى: أما النصارى فقد كانوا في نيابة دمشق يضمون فئتين هما:

١ ـ الكاثوليك وهؤلاء يدينون بالولاء للبابا.

٢ ـ اليعقوبية وهم الشرقيون، ومذهبهم منتشر أيضاً في مصر والحبشة[٤].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص١٩٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج١٣ ص٢٥٦ ـ ٢٧٠. ـ الخالدي: المقصد ص١٤٠.

(٣) الخالدي: المقصد ص١٤٧. الموسوعة الإسلامية باللغة الفرنسية: M.Gaire طبعة أولى الجزء الرابع الصفحة ١٢٧ ـ ١٣٤.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج١٣ ص٢٧٦ ـ ٢٨٠.

٣ ـ وأما النسطورية: وهم أتباع بطرك القسطنطينية فلم يكن لهم وجود في النيابة لأنه لم يذكر لهم رئيس كسابقيهم[(١)].

«وقد كان يوصي زعماء اليهود والنصارى بجملة وصايا لا تخرج في مضمونها عن روح الدين وجوهره، كما أنها تبين ـ من طرف خفي ـ الأخطاء التي كان يقع فيها بعض «رجال الدين» النصارى في النيابة. فمن جملة الوصايا التي كانت توجّه لبطرك النصارى عند تعيينه:

ـ مراعاة روح الدين وذلك «بتنظيف الصدور من الغلّ قبل تنظيف الأجسام بماء المعمودية.

ـ ضرورة الإهتمام بالبيع والأديرة، فلا تتخذ مكاناً للنزهة ولا وسيلة للتجارة ولا وكراً للخلوة والفساد.... أو مصائد للمال.

ـ عدم إيواء الغرباء بدون أعلام الحكام.

ـ عدم الإتصال بملوك الدول الأجنبية أو استلام رسائلهم بدون أعلام السلطان[(٢)].

وقد شدد السلاطين على أن تضع نساء أهل الذمة له آزرها، ومنعوا من إظهار المنكر والخمر والناقوس[(٣)].

ولقد كانت للمماليك سياسة ثابتة تجاه أهل الذمة نابعة من قواعد الشرع الإسلامي ونادراً ما كانوا يحيدون عنها ويمكن تلخيص مضمونها فيما يلي:

١ ـ حرية التعبد للرهبان وعدم التعرض لهم في زيارة الأماكن المقدسة، وإعفاؤهم من أي مكوس تجبى عند زيارة كنيسة القيامة.

٢ ـ معالجة شؤون حياتهم ومعاشهم وتقرير الإعفاءات المالية لهم وحرية سفرهم وتنقلهم في فلسطين.

٣ ـ ميراث من يموت منهم يعود إليهم.

٤ ـ عدم مسؤوليتهم تجاه ما يقوم به الفرنج من غارات في البحر على سفن المسلمين أو على ثغور مصر والشام.

٥ ـ السماح لهم بترميم الكنائس التي يشرفون عليها وهي كنيسة القيامة، وكنيسة

---

(١) الخالدي: المقصد ص١٣٩ ـ ١٤٠.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج١٢ ص٤٢٦ و ٤٢٧.

(٣) النويري: نهاية الإرب ج٨ ص٢٤٢ ـ ابن طولون: مفاكهة الخلان ج١ ص٨٧. ـ القلقشندي: صبح الأعشى ج١٣ ص٢٢.

صهيون، وكنيسة المهد بيت لحم، ودير ببروت، ودير الرملة، ودير لنسوة راهبات الفرنج بالقدس وكان ذلك سنة ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م[١].

أما اليهود: فكانوا يستمتعون أيضاً بحقوقهم وحريتهم إلى أبعد الحدود. أما عن وضع أهل الذمة داخل مدينة دمشق فقد كانوا يتمتعون بحماية السلطان المباشرة، ذلك أنه كثيراً ما كان ينادي بدمشق على لسان السلطان بأنه من ظلم اليهود والنصارى فعليه «بالأبواب الشريفة» كما طلب أخذ الجزية منهم بالمعروف وبدون إجحاف[٢].

ج ـ الحالة الإقتصادية في بلاد الشام

١ ـ الزراعة في بلاد الشام

١ ـ طرق الري وأنواع الأرض:

الزراعة هي المصدر الرئيسي للحياة في كل منطقة الشرق العربي إلى اليوم، ولما كانت الزراعة تعتمد على الأمطار بالدرجة الأولى فقد تميزت في بلاد الشام ثلاث مناطق زراعية متفاوتة المياه:

الأولى: وهي أجودها وأغزرها مياهاً وتضم غوطة دمشق، وسهول حمص، وفلسطين والأغوار بالإضافة إلى سهول الساحل فيما يسمى اليوم بلبنان. فهذه الأراضي غزيرة المياه ترتوي من عدة أنهار كالعاصي، والليطاني، وبردى، واليرموك، والأعوج وعشرات الأنهر الصغيرة. وتعتبر هذه المناطق فيها كثافة سكانية مرتفعة، وزراعة الأشجار.

الثانية: وهي أدنى من هذه تشتمل سهول دمشق، والزبداني، والبقاع، وحورن، والجولان، والقلمون، فهذه المناطق لزراعة الحبوب بالدرجة الأولى.

الثالثة: وهي أفقر المناطق الثلاثة وتشمل بادية الشام، ومرج دمشق، والمناطق القصية من حدود النيابة الشرقية (وهذه المنطقة تزرع شعيراً) ومعظمها بوادي يقطنها البدو. وإن مردود الأرض في بلاد الشام لا يمكن مقارنته بمثيله في مصر.

«أما من حيث ملكية الأرض الزراعية في عهد المماليك في نيابة دمشق كانت على خمسة أنواع:

١ ـ أراضي الملك أو «الخاص» كانت هذه ملكاً لأصحابها حصلوا عليها عن طرق الشراء أو الوراثة ولا علاقة للدولة بها إلا فيما يتعلق بما تفرضه عليها من الضرائب.

---

(١) احمد دراج: وثائق دير صهيون ص٤٥ ـ ٤٧.

(٢) ابن طولون: فاكهة الخلان ص١ ـ ١٠٠.

٢ ـ أراضي السلطان، وكانت ملكاً خاصاً للسلطان. يشرف عليها موظف يقيم بدمشق.

٣ ـ إقطاعات المماليك وكان يزرعها الفلاحون، ويديرها أمراء المماليك وأجنادهم وكان هؤلاء يؤثرون أن تكون أراضيهم في مصر ولو كانوا في الشام (رداءة المحاصيل، واتساع الإقطاعية).

٤ ـ أراضي الوقف، وهذه لا يجوز بيعها بحال وكانت تؤجر ضمن شروط يعينها الواقف نظراً لكثرة الوقف، لقد شملت أراضيه جانباً كبيراً من أراضي النيابة[١].

٥ ـ ويمكن أن ملحق بهذه الأقسام الأربعة أراضي البدو فهي ليست ملكاً لهم، ولا يد السلطان يمكن أن يعمل إليها ويمكن اعتبارها مشاعاً.

ب ـ الأوضاع الإقتصادية للفلاح: لما كانت الأرض هي المورد الأساسي للسكان والمصدر الرئيسي للثروة من دولة المماليك، فقد وضعت قوانين دقيقة لإلزام الفلاحين بزراعة أرضهم وإلا اعتبروا متهربين من دفع الضريبة. لذلك لم يكن الفلاح بقادر على التهرب من زراعة الأرض أو إهمالها وهذه ناحية هامة[٢].

٢ ـ الصناعة:

بعض أنواع الصناعات: ولقد عني المماليك بصناعة المنسوجات على أنواعها[٣]: كالفرش والبسط، ومن فرش المنازل بشتى أنواع الصناعات: كالطنافس والبسط، وتزيين الأبواب والسقوف بالعاج وتطعيم أواني الشراب والطسوت بالذهب والفضة أو تكفينها بالفنون الإسلامية ـ وهناك صناعات ثقيلة وخفيفة كصناعة السفن... وأهتموا بصناعة الخزف وخاصة في القرن الثامن الهجري (ولا تزال بعض الصناعات الخزفية المصرية محفوظة بالمتحف البريطاني في لندن).

وإن صناعة السكر قد إزدهرت واتسعت كثيراً في هذه الحقبة بسبب إقبال الأوروبيين على شراء هذه المادة. وإن الساحل الشامي لم يزرع أهله قصب السكر فحسب بل إنهم صنعوا السكر وعرفوا الغربيين به، وقد كانت طرابلس وبيروت وصيدا وعكا المدن الرئيسية حيث كان يصنع السكر، وقد أخذ أهالي جزيرة قبرص صناعة السكر من الصليبيين الذين كانوا في سوريا ولبنان قبل أن يلتجأوا إلى الجزيرة حيث

---

(١) ابن طولون: مفاكهة الخلان ج٢ ص٣٦.

(٢) النويري: نهاية الإرب (١٨ جزء) ج٨ ص٢٥٧.

(٣) تأليف الاستاذ فييت. Wiet (دليل موجز لمعروضات دار الآثار العربية ـ ترجمة الدكتور محمد حسن ص٨٣ ـ ٨٩.

أقاموا لهم دولة صغيرة[١]. وقد ظلت دمشق وطرابلس المدينتين الرئيسيتين اللتين تمونان أوروبا حتى أواخر العصور المتوسطة بالسكر بجميع أشكاله المعروفة آنذاك: بشكل رقائق أو ناعم بشكل دقيق أو بشكل حلوى[٢].

واحتفظت مدينة صيدا بقسط ضئيل مما كانت قد أشتهرت به سابقاً نعني الزجاج والخزف.

وكانت الصناعات الوطنية الرئيسية في المنطقة الساحلية كما كانت في عهدها السابق تشمل صناعة النسيج القطني والحريري والسكر والزجاج والفخار ويخبرنا بولندي (أو لعله الماني) زار طرابلس سنة ١٤٢٢م[٣] إن في المدينة ألفا ومئتي حائك ميصنعون الأنسجة الحريرية والمخملية بينما كانت طرابلس في أواخر الحروب الصليبية تباهي بان في المدينة أربعة آلاف نول[٤].

أما بعلبك في داخلية البلاد فقد أشتهرت بأنها مركز صناعي. فقد كانت تصنع نوعاً من القماش من القطن والصوف يعرف بالنسيج البعلبكي الذي كان يقبل على شرائه الملوك والأشراف. وكان ولاة الشام عندما يبعثون الهدايا إلى سلاطين القاهرة يرسلون من هذا القماش. وقد أبى هؤلاء السلاطين أن يتقبل ثوباً بعلبكياً ينقص ثمنه عن الثلاثين دينار[٥].

وكان أهل بعلبك يصدرون الأغطية إلى أماكن قصية مثل مراكش واسبانيا ويروي ابن بطوطة: أن من جملة ما كانوا يفاخرون بصناعته الملاعق الخشبية والآواني الخزفية والفخارية التي لا نظير لها في البلاد وربما صنعوا الصحفة... وصنعوا الدبس المنسوب إليها «الدبس البعلبكي»[٦].

أخذت معظم المدن والبلدان الشامية حظها من هذه الصناعات في هذا العصر: «فكان يعمل في صفد من الثياب ما يقال لها الصفدية. وأشتهرت حمص بمصنوعاتها من ثياب وفوط وقيل إن حمص تتلو اسكندرية مصر فيما يعمل فيها من الثياب على اختلاف الأنواع ـ وقيل أن اسم الدمشقي مشتق من اسم مدينة دمشق ونقل الشاميون إلى الغرب صنعة الثياب المزركشة بالرسوم من الحرير والكتان وأشتهرت حلب

(١) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص٤١٤.

(٢) Heyd, histoire du commerce du levant au moyen-âge, tr.F.Raymond, 2nd imp (Leip zig, 1936) Vol. 11, p.686.

(٣) John, poloner, description of the Holy yanf, tr Aubery steuârt (London, 1894) p.33.

(٤) المقريزي: السلوك ج١ ص٥٨.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧ ص٧٦٠.

(٦) ابن بطوطة: الرحلة ج١ ص١٨٦ ـ ١٨٧.

بالمناديل الحريرية والمقصبة المعروفة بالبوشية وفيها ٥٣ معملاً كما فيها ١٢٤ للخام و٢٤٧ لمنسوجات الغزل و١٥٩ للحرير وأشتهرت أيضاً باقمشة الجوخ المعمولة بالسيم والثياب المفصصة بالجوهر[١]. «وتعمل الأحذية في جميع المدن ومنها ما تستخدم فيه الجلود الأفرنجية المعروفة بلمعانها. وكانت زراعة القطن وتصنيعه من أهم الصناعات في دمشق وحلب وأشتهرت حلب الشهباء بصناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والمرفوع والممدود والمرصوع[٢]. وهناك صناعات كثيرة في بلاد الشام لا مجال لحصرها في هذا الموضوع.

وخاصة تربية دودة القز الذي انتشر حول بيروت وطرابلس منذ نهاية القرن السادس الهجري على حين أن الكتان كان ينمو في سهول فلسطين وجرت صناعة الحرير الشامي في عكا، والصباغ الأرجواني الذي عرفت به صور في تكوين الملابس[٣].

٣ ـ التجارة:

١ ـ التجارة الداخلية: كانت القاهرة هي المدينة الأولى التي ترتبط مع دمشق بروابط اقتصادية متينة لا لأنها عاصمتا دولة المماليك فحسب، بل لأن لهذه العلاقة جذوراً تاريخية بعيدة تعود إلى عصور أبعد بكثير من عصر المماليك.

وقد كان يربط دمشق بالقاهرة طريق دولي يبدأ من باب الجابية ويمتد على خمسة عشر مركزاً رئيسياً، ثمانية منها تقع ضمن حدود الشام، والسبعة الباقية في مصر. وأول هذه المراكز الصنمين، ثم طفس، فاربد، فجنين، فقاقون، فاللد، فغزة، فالعريش وهي آخر حدود الشام.

وبعد العريش تبدأ محطات مصر وهي: الوزادة، فالمطيلم، فقطيا، (فالصالحية، فبلبيس، وأخيراً قلعة الجبل بالقاهرة، ويذكر القلقشندي: هذا الطريق بتفصيل أدق يشمل خمسين مركزاً تقريباً)[٤]. وكانت هذه الطريق تقطع بمدن مختلفة أقصرها وأسرعها خمسة أيام، وقد قطع سيباي المسافة بستة أيام[٥]. وقد أمكن قطع المسافة بيومي ونصف.

---

(١) محمد كردعلي: خطط الشام ج٤ ص٢٠٤ ـ ٢٠٥.
(٢) محمد كردعلي: خطط الشام ج٤ ص٢٠٥.
(٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص٦٠٣.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج١٤ ص٣٨٠ ـ الظاهري: زبدة كشف الممالك ص١١٨. ـ العمري: التعريف بالمصطلح الشريف ص١٩٠ ـ ١٩٣.
(٥) ابن طولون: اعلام الورى ص٦٠.

«وأن الأمير شهاب الدين السيفي البريدي قطع المسافة من القاهرة إلى دمشق في يومين سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م فسمي بالطيار»[١]. أما القوافل والجيوش فكانت تقطع المسافة بمدة تتراوح بين ثلاثة أسابيع وخمسة، فقد غادر السلطان الغوري القاهرة يوم الأثنين ١٠ ربيع الآخر سنة ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦ ـ ١٥١٧م، ووصل دمشق يوم الثلاثاء ١٨ ربيع الآخر[٢] وبشكل عام فإن المسافة بين القاهرة ودمشق كانت تقطع بمدة اسبوع واسبوعين.

وكانت دمشق تصدر إلى القاهرة: قصب الذهب والقرطاس، واللحوم، والحبوب، والفواكه، والجوز واللوز، والنسيج الحريري والعنب وغيره[٣].

«وكان السلاطين يجلبون الثلج من جبال الشام (لبنان) بين يونيو واكتوبر وكانت تصل إلى القاهرة احدى وسبعون (نقلة) كل منها مؤلف من ستة جمال وكان يجهز مع كل نقلة بريدي بيده تذكرة ومعه ثلاج خبير بحمل الثلج ومداراته[٤] وفي الفترة الأولى من عهد المماليك كان الثلج ينقل بحراً إلى بولاق ويحمل منها إلى القلعة».

وبالمقابل كانت دمشق تستورد من القاهرة: السكر، البطيخ، الكتان الملون والأرز، الحصر، الأبقار، القلقاس، والسمك. وبالإضافة إلى القاهرة كانت دمشق تقوم بحركة تجارية نشطة مع بقية نيابات الشام ومع العراق وكانت دمشق تستورد منه التمور بالدرجة الأولى بالإضافة إلى النيلة والفلفل والزنجبيل والشاش والقماش[٥]، وكانت التوابل تأتي للعراق عن طريق الخليج فسعرها في دمشق أدنى من القاهرة.

٢ ـ التجارة الخارجية: كانت التوابل في مقدمة المواد التي يصدرها المماليك إلى أوروبا، وكانت أرباح المماليك من هذه التجارة تتراوح بين ٥٠ ـ ١٠٠٪ من قيمتها، ولما كان حجم التجارة السنوي بين دولة المماليك ودول أوروبا لا يتعدى المليون دينار فإن أرباحهم السنوية من تجارة التوابل لم تكن لتزيد على نصف مليون دينار في أحسن الأحوال ونحن إذا عرفنا أن متوسط إيراد الإقطاعة الواحدة لأحد الأمراء المماليك كان يصل إلى حوالي ٢٠٠،٠٠٠ دينار في السنة أدركنا ذلك بسهولة[٦].

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزهرة ج١٢ ص١٨٠.
(٢) ابن طولون: مفاكهة الخلان ج٢ ص٧ ـ ١٢.
(٣) البدوي: نزهة الانام في محاسن الشام ص٣٦٤.
(٤) الظاهري: زبدة كشف الممالك ص١١٧.
(٥) ابن طولون: مفاكهة الخلان ج٢ ص١٠٢.
(٦) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص٥٠ ـ ٥١.

وقد أورد ASHTOR خلاصته لكتابه Les métaux précieux يبين فيها ما يمكن تسميته بالميزان التجاري لدولة المماليك مع أوروبا[١] فهو يقول: «إن ما يجلبه الأوروبيون سنوياً معهم إلى موانىء مصر والشام يبلغ حوالي ٤٠٠،٠٠٠ دوقة على شكل نقد و٢٦٠،٠٠٠ دوقة على شكل بضائع مختلفة يشترون بها توابل بمبلغ ٥٣٠،٠٠٠ دوقة ومنتجات شرقية بـ ١٠٠،٠٠٠ ويدفع لهم ٣٠،٠٠٠ دوقة نقداً. وبعملية بسيطة نجد أن الميزان التجاري كان يميل لصالح المماليك الذين كانوا يدفعون ١٨٠،٠٠٠ دوقة نقداً ويقبضون مقابلها ٤٠٠،٠٠٠ دوقة، وأما بالنسبة لتجارة دمشق مع دول أوروبا لم تصل إلى حجم تجارة القاهرة ففي سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م، أنزلت سفن البندقية في ميناء بيروت بضائع بقيمة ١٨٠٠٠ دوقة مقابل ١٢٠٠٠٠ في الأسكندرية».

وفي سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م أنزلوا في ميناء بيروت بقيمة ١٠٠،٠٠٠ دوقة[٢] وقد كانت البندقية تجهز إلى شواطىء الإسكندرية وبيروت مجموعتين من السفن تنطلق الأولى في الربيع والأخرى في يناير. وبالإضافة إلى ذلك كانت تصل على مدار العام سفن كثيرة وقد قدر «برورمارتير» حمولة السفينة الواحدة بـ ٥٠٠،٠٠٠ رطل[٣].

وبالإضافة إلى التوابل كان المماليك يصدرون القطن والأشنان (رماد بيروت) والمصنوعات الحريرية والمعدنية والجلدية، وماء الورد والبخور والصمغ الفارسي والشبر. كما كانوا يعيدون تصدير بعض ما كانوا يستوردونه من أوروبا كالنحاس والفضة إلى بلاد فارس والهند ويستوردون الأجواخ والفراء الفاخرة والرصاص والذهب والحلي وطيور الصيد والمرجان والكستناء[٤]. يضاف إلى ذلك أن الإيطاليين حققوا مزايا عديدة وأرباحاً من الموانىء التي تمَ فتحها. وأنهم أهتموا بألآ تتوقف تجارتهم، على أن مشاكلهم الوحيدة نبتت من التنافس بين الإيطاليين انفسهم لا من العداء مع الحكام المحليين. ولموانىء الفرنج ميزة أخرى تزايدت أهميتها. ذلك أن أهم مشكلة واجهها الإيطاليون هي أن يحصلوا من أوروبا على سلع يفيدون من بيعها في شراء ما يودّون من السلع الشرقية.

---

(١) المعرفة تفاصيل دقيقة عن طبيعة تجارة التوابل وحجمها وارباح المماليك منها انظر: 1 - Les meteaux p.80. 2 - Heyd, pp. 449 - 451 - 519 - 520. 3 - La mer rouge par Kammerar. 4 - Le caire 1935 T.L.L p,l.

(٢) ASHTOR: Les Meteaux. pp. 66-70 البندقية ـ شارل ديل ترجمة احمد عبد الكريم القاهرة ١٩٤٧ ـ ص ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٣) مغارة برروما انرد/ حسين مؤنس: منشورات الندوة الدولية لتاريخ القاهرة ج١ ص٤٤٤.

(٤) ASHTOR: Hezid. 11. p.440.

وحدث في الشطر الأخير من القرن الثالث عشر الميلادي أن أحيا الجنويون تجارة الرقيق، فحملوا من موانىء البحر الأسود الرقيق من الترك والتتار، ليبيعوه إلى المماليك في مصر، بالإضافة إلى المعادن والأخشاب التي تعتبر أهم السلع التي يصدرها الغرب. ونظراً لأن هذه المواد كانت تستخدم في صناعة الأسلحة، فمن الطبيعي ألّا تقرّ السلطات الكنيسة بيعها للمسلمين[١].

على أن الإيطاليين تعلموا رويداً رويداً أن الحركة الصليبية وبقاء الشرق الفرنجي، قد جذبا إلى الشرق أعداداً كبيرة من العساكر، والدبلوماسيين، فضلاً عن الحجاج الذين يفوقونهم عدداً، فإذا تولى الإيطاليون نقلهم فإن ما يؤدونه لهم من المال في هيئة أجور ونفقات المعيشة على ظهر السفن، هيأ لأرباب السفن من النقد ما يصح أن ينفقوه في الموانىء السورية على السلع المستوردة من الجهات القاصية إلى الشرق. وبلغت التجارة في الشرق الفرنجي ذروة نشاطها أثناء السنوات العشرة السابقة لاستيلاء صلاح الدين على بيت المقدس وأثناء العشراوات الأولى من القرن الثالث عشر. إذ اتحد العالم الإسلامي وساد به الرخاء واكتشف الإيطاليون ميزات التجارة في الموانىء المسيحية.

وفي تلك الأثناء تعلم النزلاء الفرنج كيف يعقدون الصداقات مع جيرانهم المسلمين، فابن جبير الذين ارتحل سنة ١١٨٤م في قافلة تجار المسلمين من دمشق إلى عكا شرح كيف إن هذه القوافل لم تكن طارئة بل كان حدوثها أمراً مألوفاً وأعرب عن تأثره بالتدابير الهينة التي تجري لجباية رسوم الديوان[٢]. وتعتبر عكا انشط موانىء الساحل في التجارة وكانت الميناء الطبيعي لدمشق فلم تستخدم لمنتجات مصانع دمشق وأراضي حوران الخصيبة فحسب بل أفاد منها التجار القادمون من اليمن الذين سلكوا طريق الحجاج على إمتداد حافة ساحل بلاد العرب، والمسافرون إلى الأماكن المقدسة يؤثرون النزول فيه (أي ميناء عكا) لا بيافا. على أن العيب الوحيد بميناء عكا بأنه لم يتسع للسفن الكبيرة ناهيك عن ميناء صور الذي يفوقه ميناء عكا اتساعاً وامناً[٣]. وتعتبر اللاذقية خير ميناء في شمالي سوريا نظراً لأنه صالح لكل مناخ وطقس. وأن السويدية الواقعة على مصب نهر الأورنت كانت أكثر منالاً لأنطاكية وحلب، وتستخدم للسفن الصغيرة[٤].

---

(١) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص٦٠٨.

(٢) ابن جبير: رحلته ص٣٠٦ ـ ٣٦٧.

(٣) ابن جبير: رحلته ص٣٠٧ ـ ٣٠٨/اشار.

(٤) أشاد الجغرافيون العرب بميناء اللاذقية، لما يتمتع به من الجودة والصلاحية. انظر (الادريسي: ص٢٣). على حين تضاءل استخدام ميناء السويدية، إلا في تجارة انطاكية ذاتها ـ يشير (ياقوت ج٣ ص٣٨٥) كتابته قبل استيلاء بيبرس على انطاكية ـ (والسويدية ميناء انطاكية).

وتورد وثائق بيت المقدس مقادير المتاجر الشرقية التي اجتازت دور الديون (الجمارك) في الشرق الفرنجي فبالإضافة إلى المنسوجات الحريرية وغيرها من المنسوجات اجتازتها التوابل المختلفة، أمثال القرفة، الحبهان، القرنفل، جوز الطيب والزنجبيل، النيلة، الند، والعاج. وعلى أنه لم يكن للفرنج أنفسهم في هذه التجارة إلا نصيب ضئيل[(١)].

إذ أن التاجر يجلبها من الداخل إلى الساحل تجار مسلمون أو مسيحيون وطنيون، وفي شمالي سوريا تقلها إلى الساحل من انطاكية تجار يونانيون وأرمن، ولقي التجار الزائرون معاملة دمثة وكان بعكا من الخانات ما يصلح للتجار المسلمين أن ينزلوا بها كما أن من الأسرات المسيحية من أنزلت المسلمين في دورها. واشترى التجار الإيطاليون سلعهم مباشرةً من المستوردين المسلمين. وبالإضافة إلى الإيطاليين، يبدو أنه قدم إلى عكا بحراً عددٌ من المسلمين ليشتروا سلعاً من داخل البلاد ومن هؤلاء المغاربة القادمون من شمالي غربي أفريقيا الذين يودون مواصلة السير حتى دمشق أو غيرها من المدن الإسلامية الداخلية[(٢)].

وكما ذكرنا كان للأوروبيين قناصل في الشام منذ الزمن الأطول. وأول قنصل كان للبنادقة في مدينة دمشق سنة ١٣٨٤م، بالعهد المملوكي واسمه (فرنسيسكو داندللو) وكانت دمشق مستقر القناصل إلا أن لامنس يقول: «إن أول من ورد اسم القنصل في حملة التزالة الجنوية التي كانت في عكا أواسط القرن الثاني عشر ميلادي ودعوه أولاً بنائب القمص ثم انتشرت هذه الرتبة في النصف الثاني من ذلك القرن وعرف أصحابها بالقناصل واطلق مثلاً على الإيطاليين وبعد زمن طويل صار للفرنسيس قنصل»[(٣)].

وكانت حلب من أول المدن التي اتجرت مع الطليان، وقد أقام لهم البنادقة فيها منذ عهد المماليك قناصل من الدرجة الأولى وكان البنادقة يتاجرون من مليونين إلى ثلاثة ملايين دوكا مع حلب كل سنة.

وكان لمرور التجارة الهندية إذ ذاك عن طريق مصر أثر كبير في رواج تجارة مصر في عصر المماليك وزيادة ثروتها، وهذه الثروة التي تدفقت على خزائن المماليك تفسر لنا حياة البذخ والترف والنعيم في ذلك العصر.

وكان سلاطين المماليك في القرن الرابع عشر الميلادي يشجعون التجارة في

---

(١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٣ ص٦١١.
(٢) ابن جبير: رحلته ص٣٠٧ ـ ٣٠٩.
(٣) محمد كردعلي: خطط الشام ج٤ ص٢٤٦.

داخل البلاد وخارجها: فقد عقدوا المحالفات الودية والتجارية مع اباطرة القسطنطينية وملوك اسبانيا وأمراء نابلي وجنوه وسلاجقة آسيا الصغرى، وكانت نتيجة ذلك انتشار التجارة بين مصر وتلك الأقاليم في الشرق والغرب ويتبين لنا بوضوح رواج التجارة في مصر إذ ذاك نتيجة تلك الأسواق العامرة بالغراء على اختلاف أنواعها وأثمانها وأصناف ثياب القطن، وحوانيت الرسامين (أي حوانيت التطريز) والخياطين[١]. ولا غرو فقد عني المماليك بصناعة المنسوجات والفرش والبسط حتى حذق المصريون في هذه الصناعات وغدت لهم شهرة عالمية بتجارتها في ذلك العصر[٢]. أما في بلاد الشام فقد كانت كبار الأسر في البندقية توجه نشاطها للتجارة في هذه المنطقة منها الـ Quirini وآلـ Barbarigo وآلـ Storlado وكان هؤلاء يختارون دمشق مركزاً لأعمالهم[٣]. وقد كان هؤلاء في استقبال الغوري عندما دخل دمشق، وفرشوا له الجوخ ونثروا عليه الدراهم[٤].

أثر موقع طرابلس الاقتصادي بين مدن بلاد الشام بالعصر المملوكي:

كان لموقع طرابلس الجغرافي أثر كبير على الناحية الإقتصادية في بلاد الشام وذلك لمقومات ثلاث:

أولاً: موقعها على الساحل البحري مما جعلها تتمتع بعرفاً كبير.

ثانياً: أرضها الخصبة وسهولها الواسعة التي تروى من نهر أبو علي الذي يبلغ طوله ٤٢ كيلومتراً.

ثالثاً: طبيعة موقعها السهلية والجبلية مما يساعد على تنوع المزروعات والثمار فيها:

١ ـ الزراعة:

وقد اشتهرت طرابلس على مختلف العصور بوجود أنواع مختلفة من المزروعات والثمار. وأول المزروعات التي هي قديمة العهد بطرابلس هي أشجار النخيل، كما كانت أشجار التوت بدليل عناية أهلها بتربية دود القز منذ العهد البيزنطي، وإن بساتين طرابلس لا مثيل لها في العالم[٥]، ويذكر بصورة خاصة

(١) المقريزي: الخطط ج١ ص٨٥ ـ ١٠٥.

(٢) زكي محمد حسن: كنوز الفاطميين ص١١٠ ـ ١٤٦ ـ الاستاذ فييت/ (معروضات دار الآثار العربية) وترجمة زكي محمد حسن ص٨٣.

(٣) المشرق العدد ٣٤ ص١٩٦.

(٤) ابن طولون: مفاكهة الخلان ج٢ ص١٦.

(٥) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص٤١١.

قصب السكر والجميز واشجار الحمضيات والقلقاس، والجبل غني بالنباتات التي تستخرج منها الأدوية. وقد زار ابن بطوطه طرابلس البرية فوجد أن أقنية عديدة تخترق شوارعها وأن البساتين تحيط بها من كل صوب[١]. وكانوا يشبهون طرابلس بأنهارها وبساتينها بمدينة دمشق. «وأن البلاد التي تحيط بمدينة طرابلس جنة لما فيها من الكروم الجميلة التي لا تحصى ومن بساتين الزيتون والتين وقصب السكر التي لا أظن أني رأيت بها مثيلاً في أي جزء من أجزاء المعمورة»[٢]. وتجمع طرابلس بين ثمار الشام ومصر[٣]. وأشاد كل زائر لطرابلس بخصوبة أرضها وكثرة مياهها. ويقول الإدريس في القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي «ولها رساتيق وأكوار وضيع جليلة وبها من شجر الزيتون والكروم وقصب السكر وأنواع الفاكهة وضروب الغلات الشيء الكثير»[٤]. وأما الخروب والزيتون والقطن والسماق والفستق والجوز واللوز والارز، فإن الوكلاء تستمر على حفظ ذلك إلى أن يصير في بيادره، ويُقسم على حكم الضريبة وليحصّل ويُورد على المتحصل[٥]. وتقاس الأرض الزراعية بطرابلس بالفدان الإسلامي والفدان الرومي كما في دمشق وغيرها من البلاد الشامية[٦] وكانت زراعة قصب السكر في بساتين طرابلس تعتبر من أهم زراعاتها في العصور الوسطى. وتكاد النصوص التي تركها الجغرافيون والرحالة لا تخلو من الإشارة إلى تلك الحقيقة، وظلت زراعة القصب مزدهرة في عصر المماليك في ساحل طرابلس وبيروت وعكا، وقد أشار النويري إلى كيفية إعتصار القصب بطرق مختلفة فمنها ما يعتصر بحجارة الماء ومنها ما يعتصر بالأبقار ومنها ما يعتصر بالسهام وهي أعواد من الخشب[٧].

أما الزيتون فهو يكثر عند المرتفعات المحيطة بطرابلس شرقاً وخصوصاً في المنطقة بين الكورة وعكار وتعتبر هذه المنطقة من اوسع مناطق الزيتون في العالم، وزراعة الزيتون قديمة في نواحي طرابلس، فقد ورد أن البيزنطيين والصليبيين خرّبوا اشجار الزيتون عند مرورهم في اقليم طرابلس[٨].

(١) ابن بطوطة: الرحلة ج١ ص١٣٧ ـ ١٣٨.
(٢) بوركهارت: A Description of the Holy land tr. Aubrey stewart (London, 1896) p.16.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص٢١٣.
(٤) الادريس: نزهة المشتاق ص١٧.
(٥) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي ص٣٩١.
(٦) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص٢٣٣.
(٧) النويري: نهاية الإرب ج٨ ص٢٧١ ـ ٢٧٢.
(٨) عمر كمال توفيق: مقدمات العدوان الصليبي ص١٥٥ ـ تدمري: تاريخ طرابلس ص٣٩٣.

٢ ـ الصناعة والتجارة في نيابة طرابلس:

قامت في طرابلس عدة صناعات، وأول صناعة وردت الينا كانت صناعة السفن حيث كانت هذه الصناعة تقام في الميناء لقربها من منطقة الأرز المشهورة بأشجارها[١]. والغابات الجبلية المحيطة بطرابلس. أما في عصر المماليك فقد وجدت صناعة السفن، وخاصة الحربية منها، لبعض الإهتمام من نواب السلطنة وأحياناً من سلاطين المماليك، وتشهد هذه الصناعة نشاطاً متزايداً كلما ازداد خطر الإفرنج في البحر[٢].

ومن أمثلة ذلك تجهيز «استدمر كرجي» لمركب حربي خرج لمقاتلة الأفرنج في جزيرة ارواد[٣]. وعمارة «آقوس الأشري» لمركب انفق فيه من ماله الخاص أربعين الف درهم برسم للجهاد في سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٥م[٤].

وصدور أمر اتابك العساكر في مصر ببناء السفن الحربية في سواحل مصر والشام حيث كتب إلى طرابلس ونحوها من بلاد الساحل بإنشاء مراكب حربية، وجمع رجالها فكان عملاً جليلاً في سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م[٥]. وقد حافظت طرابلس على شهرتها في هذه الصناعة الثقيلة حتى الآن، إذ ما يزال ميناؤها يقوم بصناعة السفن التجارية وإصلاحها على أيدي ابناء المدينة.

وبما أن طرابلس إشتهرت بقصب السكر والزيتون وشجر التوت والليمون والبرتقال فقد أدى ذلك إلى قيام صناعات مثل صناعة السكر والصابون والزيت والحرير وماء الزهر والمربيات والحلويات، حيث كانت هي ودمشق المدينتين الرئيستين اللتين تموّنان أوروبا حتى أواخر العصور المتوسطة بالسكر بجميع أشكاله بشكل رقائق أو ناعم بشكل دقيق أو بشكل حلوى[٦].

وكانت الصناعات الوطنية الرئيسية في المنطقة الساحلية كما كانت في عهدها السابق تشمل صناعة النسيج القطني والحريري والسكر والزجاج والفخار. ويخبرنا بولندي[٧] زار طرابلس ١٤٢٢م: «إن في المدينة الفا ومئتي حائك يصنعون الأنسجة

(١) هنري لامنس: تسريح الأبصار فيما يحتويه لبنان من آثار ج٢ ص١٣٨.
(٢) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي ص٣٩٦.
(٣) النويري: نهاية الإرب ج٣٠ ص٤.
(٤) المقريزي: السلوك ج٢ من ٢ ص٣٧٩.
(٥) المقريزي: السلوك ج٣ من١ ص١١٣.
(٦) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ص٣٩٧.
(٧) John Poloner, Pescriftion of the Holy Land, tr. Aubery Stewert (London 1894) p. 32-33.

الحريرية والمخملية، بينما كانت طرابلس في أواخر الحروب الصليبية تباهي بأن في المدينة أربعة آلاف نول ـ أما بعلبك داخل البلاد فقد إشتهرت بأنها مركز صناعي فقد كانت تصنع نوعاً من القماش من القطن والصوف يعرف بالنسيج البعلبكي الذي يقبل على شرائه الملوك والأشراف[١]. وكانت بيروت وصيدا تصدران الفاكهة إلى مصر وبعض الصناعات ـ وكانت صناعة الورق في طرابلس تعتبر صناعة مهمة فقد ذكر ناصر خسرو أن أهلها يصنعون بها الورق الجميل[٢] وأشاد بجودته وحسن صناعته فقال أنه مثل الورق السمرقندي بل أحسن منه.

أما على الصعيد التجاري:

والحديث عن التجارة يجب أن لا ننسى موقع طرابلس الجغرافي على البحر المتوسط إسوة بباقي المدن الساحلية التي لعبت دوراً هاماً على الصعيد التجاري تاريخياً وخاصة بالعهد المملوكي، وبعد خروج الصليبيين، تنشطت الحركة التجارية بشكل ملموس وبخاصة عندما أصبحت جميع السواحل الشامية بيد المماليك وأخذت طرابلس دورها بهذا المضمار وكان يشرف على الحركة التجارية ناظر للديوان يساعده عدد من الكتاب والموظفين[٣].

وكانت الحركة التجارية مع البلاد الأوروبية تتأثر أحياناً بالإجراءات الصارمة التي يتخذها سلاطين المماليك نتيجة غارات الأفرنج على موانىء مصر والشام[٤].

وكان ميناء طرابلس في عصر المماليك هو الثغر الرئيسي مع ميناء بيروت في نقل القطن إلى الموانىء الأوروبية، وكان للبنادقة عندها أوقار القطن الآتي من أنحاء بلاد الشام الشمالية، «وكلما تفاقم الخطر بين المماليك والجنوبيين، لم يكن على البنادقة إلا المحافظة على حسن العلائق مع سلاطين مصر بل وتحريضهم في بعض الأحيان على تسيير الحملات لقتال منافسيهم حتى يستأثروا دون غيرهم بتجارة مصر والشام، ومع ذلك فقد كانت السفن التجارية الجنوبية تصل بين الحين والآخر إلى طرابلس لشحن البضائع»[٥].

ويصف القلقشندي ميناء طرابلس (بأنها مينا جليلة تهوي إليها وفود البحر الرومي وتباع بضائعهم)[٦].

(١) فيليب حتي: تارخ لبنان ص٤١٤.
(٢) ناصر خسرو: سفر نامة ص٤٧.
(٣) تدمري: التاريخ السياسي والحضاري ص٤٠٩.
(٤) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ص٤٠٩ ـ ٤١٠.
(٥) المقريزي: السلوك ج٤ من٢ ص٩١٩.
(٦) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص١٤٣.

«أما الزيت والصابون فقد كانت بيروت وطرابلس تصدرانه إلى مصر (تجارة داخلية) وكانت سوريا تصدر القطن من سهولها إلى أماكن بعيدة قبل البلاد الإسبانية ـ وبالإضافة إلى المراكب الشراعية ـ فإن اسطولاً تجارياً كبيراً يأتي إلى هذه الشواطىء (بيروت وصيدا وطرابلس) كل سنة في شهر حزيران ليشحن غلة القطن»[١].

أما الواردات إلى هذه البلاد فقد كانت في معظمها من الأقمشة الصوفية والكتانية من البلاد الغربية. وقد كان في بيروت جالية من أهل البندقية، وكذلك الحال في مدينتي دمشق وحلب وفي أسواق هاتين المدينتين كان التجار الأوروبيين يتصلون مباشرة بالتجار من الواق وفارس والهند[٢].

وقد وجد(دي لابروكير)[٣] سنة ١٤٣٢م في دمشق تجاراً من البندقية وجنوا وفلورنسا وتجاراً فرنسيين وهو يقول: إن أهل دمشق يبغضون هؤلاء التجار وقد ظلت الصناعة والتجارة مزدهرة في هذه البلاد ازدهاراً مطرداً حتى القرن الخامس عشر الميلادي عندما غزا تيمورلنك البلاد بجحافله في بداية القرن المذكور[٤].

وقد تمتعت طرابلس بحق إصدار النقود في هذا العصر إلى جانب القاهرة ودمشق وحلب وحماة. وقد كان بطرابلس دار لضرب النقود[٥].

د ـ القضاء في بلاد الشام

وقد صار منصب قاضي القضاة بين أربعة في بلاد الشام كما حدث في مصر، وكان القاضي الشافعي هو الذي يولي القضاة على البلاد الشامية كما كان المتبع في مصر فقد كان في كل نيابة من النيابات الشامية الست التي أشرنا إليها آنفاً أربعة قضاة من المذاهب الأربعة أعظمهم الشافعي، ويفصل في المسائل المتعلقة بالميراث والأوقاف، ويليه في الرتبة الحنفي، ثم المالكي، ثم الحنبلي وكان قضاء العسكر موجوداً كذلك في بلاد الشام فقد كان بها قاضياً عسكرياً أحدهما شافعي والآخر سني، وبذلك لم يوجد قضاة عسكر من المذهب المالكي، والحنبلي، وكان يصدر بتعيينهما مرسوم سلطاني. ووجد نظام الإفتاء في نيابات الشام، حيث كان في كل منها

---

(١) W.Hedy, vol. 11, pp.460-1

(٢) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص٤١٥.

(٣) De la Broequiere p.32.

(٤) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص٤١٦.

(٥) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ج٢ ص٤١٦.

مفتيان أحدهما شافعي والآخر حنفي كما هو متبع في قضاء العسكر، ويعينهما نائب السلطنة في النيابة التابع لها المفتيان[١].

اختصاص القضاة: ولم يكن عمل قاضي القضاة في ذلك الوقت مقتصراً على النظر في قضايا الأحوال الشخصية بل كان يتناول النظر في جميع القضايا المدنية والجنائية وإمامة المسلمين في الصلاة والإشراف على دار الضرب وعلى نوابه في الأقاليم[٢].

وما لبث أختصاص قاضي القضاة وقضاة الأقاليم أن زاد واتسع نفوذهم فتناول: النظر في دعاوى إثبات الحقوق والأموال التي ليس لها وارث، كما تناول النظر في أوصياء اليتامى وأموال المحجور عليهم من المجانين والمفلسين وأهل السفة وفي وصايا المسلمين وتزويج الأيامى عند فقد أوليائهن. وتعرف أحوال الشهود والأمناء والنواب وكان القضاة ينظرون في الأوقاف ويعملون على تنمية مواردها واستلام ريعها وصرفه في وجوهه. وعهد إلى القضاة في تسلم أموال المواريث المتنازع عليها وأموال من يموتون من الغرباء ويحفظونها وديعة أو أمانة لديهم حتى يحضر ورثتهم[٣].

وكان القضاة يقومون أحياناً بمهام أخرى زيادة على ما كانوا يطلعون به من شؤون القضاء، وقد كان القاضي تقي الدين عبد الرحمن الشافعي ابن بنت الأعز يتولى الوزارة مضافة إلى القضاء (٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م) في عهد السلطان قلاوون[٤].

ولما صرف عن الوزارة في عهد السلطان خليل بن قلاوون بقي في يده سبعة عشرة منصباً من أهمها: قضاء القضاة، وخطابة الجامع، ونظر الخزانة، ونظر الأحباس، ومشيخة الشيوخ، ونظر التركة الظاهرية للظاهر بيبرس، وأولاده وأوقافه وأملاكه، والتدريس في عدة مدارس[٥].

وكانت جلسات المحاكم في دولة المماليك تنعقد في المساجد عادة أول النهار وفي آخره وإذا أراد القاضي مشاورة أعضاء المحكمة في الأحكام أنصرف الحاضرون. وكانت الجلسات تنعقد أحياناً في دور القضاة وكان للقضاة بعض مميزات في لباسهم عند الجلوس للنظر في القضايا. وإذا جلس القاضي للفصل في الخصومات، رتب القضايا على حسب حضرر الخصوم، فمن حضر أولاً نظر قضيته، ثم نظر قضية من يليه وهكذا[٦].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص١٩٢.
(٢) القلقشندي: نفس المصدر ج٩ ص٣٤ ـ ٣٥ ـ ابن اياس: بدائع الزهور ج١ ص١٠١.
(٣) المقريزي: الخطط ج٢ ص٩٢. ـ عرنوس: تاريخ القضاء في الإسلام ص ١١٢ و ١١٣ و ١١٨.
(٤) ابن حجر: رفع القاصر ص١٤٩. ـ الصيوطي: حسن المحاضرة ج٢ ص١٠١.
(٥) النويري: نهاية الإرب (مخطوط) ج٢٩ ص٢٩٩. ـ المقريزي: السلوك ج١ ص٢٧٧ ـ ٣٧٧.
(٦) عرنوس: تاريخ القضاة ص١٦٣.

وقد جرت العادة أن ينظر القضاة في القضايا المتعلقة بالغرباء أولاً، أما إذا كثر عددهم فقد كانت تنظر قضاياهم بحسب ترتيب حضور أصحابها، وكان الرجال يجلسون إلى ناحية والنساء إلى ناحية أخرى ولم يكن هناك تمييز أو مفاضلة بين المتقاضيين في المعاملة مهما علا مقامهم، بل كانوا يجلسون في مجلس واحد على بعد ذراعين من القاضي الذي كان يقوم أعوانه بين يديه بتنظيم مجلس القضاء[١]. وقد عني سلاطين المماليك عناية خاصة بمعاملة المتقاضين، معاملة تنطوي على المساواة حتى أنهم كانوا ينصّون على ذلك في تقاليد القضاة.

مساعدو القاضي: وإذا جلس القاضي للحكم ساعده على تنظيم قاعة الجلسة عدد من الموظفين نذكر منهم: الجلواز(الشرطي) وحاجب القاضي والأعوان والعدول والأمناء والكاتب والترجمان.

فالجلواز: يقوم بحفظ النظام وترتيب الخصوم بحسب حضورهم ومنعهم من التقدم إلى القاضي من غير دورهم ويلزمهم بمراعاة الآداب في مجلس القضاء، وكانت الأمانة أهم صفاته حتى لا يجد الخصوم سبيلاً إلى التأثير فيه عن طريق الرشوة[٢].

حاجب القاضي: وهو من أعوان القاضي ومهمته حراسة باب القاضي وطلب الأذن منه للزائرين سواء كانوا من أرباب القضايا أم من غيرهم[٣].

الأعوان: وكان للقاضي موظفون يطلق عليهم الأعوان ومهمتهم إحضار الخصوم. وأن يكونوا من أهل الصلاح والتقوى حتى يعاملوا الناس بالرفق واللين في غير ضعف ولا تقصير.

العدول: ويقومون بالشهادة ويراجعون السجلات والعقود للوقوف على مبلغ دقتها ومطابقتها للشرع وتزكية الشهود الذين يشهدون عند القاضي.

الأمناء: ويقوم الأمناء بحفظ أموال اليتامى والغائبين ـ وكانوا يبالغون في القيام بهذه الوظيفة فيراعون حق اليتامى ويحفظون أموالهم ويدفعون نفقاتهم إلى أمهاتهم.

ويقول السبكي: «ومن أحوج من أم اليتيم إن ترددت إلى بابه لأخذ نفقة اليتيم من ماله فقد ظلم ظلماً عظيماً»[٤]. وكان الدافع إلى استحداث نظام «الأمناء» في الدولة المملوكية أن أيدي بعض القضاة امتدت إلى مال اليتامى. وقد روى ابن بطوطة: أن شرف الدين عبد الرحيم قاضي اسيوط كان يلقب (حاصل ماثم) أي لم يبق من المال المتحصل بإسمه شيء فلزمه ذلك اللقب[٥]. ومن أعوان القاضي أيضاً.

(١) عرنوس: نفس المصدر ص١٢٧ ـ ١٣٩.
(٢) عرنوس: نفس المصدر ص١٢٨ ـ ١٢٩.
(٣) تاج الدين السبكي: معيد النعم ص٨٦.
(٤) عرنوس: تاريخ القضاة ص١٢٩.
(٥) السبكي: معيد النعم ص٨٧.

كاتب المجلس: ويقوم بكتابة الدعاوى ويجب أن يتوافر فيه الشروط الآتية: العلم بالفقه الإسلامي، والفقه، والصلاح، والأمانة حتى لا يحذف أو يختصر في كلام الخصوم[١].

كما كان يعاون القاضي أيضاً (ترجمان) ينقل إليه أقوال المتقاضين الذين لا يتكلمون اللغة العربية، كما ينقل إليهم أقوال القاضي وأسئلته، ويشترط أن يكون مسلماً أميناً لا يحرّف الكلم عن مواضعه بل ينقله بحفظ ودقة وأمانة[٢].

السلطات القضائية الأخرى: إن سلطة هؤلاء القضاة الأربعة ونوابهم كانت مقصورة على المدنيين. أما الجيش المملوكي فكان له قضاة مختصون بشؤون العسكر وكان القاضي منهم يعرف بإسم «قاضي العسكر» وكان عددهم ثلاثة: أحدهم شافعي والثاني حنفي والثالث مالكي. وأحياناً كان يوجد قاضي حنبلي. ولكن الغالب خلو منصب قاضي العسكر من الحنبلي، وكان هؤلاء القضاة يحضرون مع القضاة الأربعة بدار العدل ولكن مجلسهم كان دون هؤلاء القضاة وكان يصحبون السلطان في أسفاره[٣]. ولم يكن لهؤلاء القضاة ولاية على غير العسكر، فقد كانوا يفصلون في القضايا الخاصة بالعسكر أو التي تقوم بين العسكر والمدنيين.

ويلي قضاة العسكر في الأهمية مفتو دار العدل وهم أربعة: يختار كل واحد منهم من مذهب ويختلف اختصاص هؤلاء عن اختصاص القضاة. فإنهم لا يفصلون في خصومات المدنيين والعسكريين وإنما يبينون حكم الشرع فيما يسألون فيه من المسائل كل على حسب مذهبه كما يتبين أفراد الشعب أحكام دينهم ويعرفون ما أشكل عليهم من مسائله[٤].

ولسنا نعرف هل كان مفتو دار العدل يجلسون مع القاضي عند النظر في القضايا أو كان لهم مقر خاص يرسل إليه القاضي ما يشكل عليه من المسائل طالباً رأيهم فيها، ولكننا نرجح الرأي الآخير.

أما القضاة للطوائف غير الإسلامية في مصر والأقاليم في دولة المماليك فكان موكولاً إلى رجال من طوائفهم يفصلون في أحوالهم الشخصية من زواج وطلاق ووقف ونحو ذلك على حسب شرائعهم ونحلهم.

ولا تحكم بينهم المحاكم الشرعية الإسلامية إلا إذا طلبوا التحاكم إليها والقضاء طبق مبادئها[٥].

---

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار ج١ ص٢٨. (٢) عرنوس: نفس المصدر ص١٣٩.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص٣٦.
(٤) احمد تيمور باشا كتاب: «نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة».
(٥) علي ابراهيم حسن: تاريخ المماليك ص٣٨٢.

وكان راتب القاضي في الشهر يبلغ خمسين ديناراً عدا ما كانوا يحصلون عليه من الأوقاف التي كانوا يتولون إدارتها. وما يجري عليهم من الغلال والشعر والخبز واللحم والكساوي[(١)]. أما بالنسبة للوظائف الدينية فقد كان لها بطرابلس: أربعة قضاة على المذاهب الأربعة يوليهم السلطان بنفسه[(٢)]. وكانت تولية بعضهم بالبذل ففي سنة ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م استدعى السلطان (الناصر فرج بن برقوق) قضاة طرابلس وحلب وخلع عليهم بخلعة الإستمرار في وظائفهم بعد أن أخذ منهم مالاً كان ثمناً لبقائهم في وظائفهم[(٣)]. وفي سنة ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م استقر صدر الدين محمد النويري في قضاء طرابلس على ١٣ الف دينار[(٤)]. ونتبين مرتبة القضاة الأربعة من كيفية جلوسهم بدار العدل مع النائب حسب الترتيب التالي: قاضي القضاة الشافعي، ثم الحنفي، ثم المالكي، ثم الحنبلي[(٥)]. وكان القاضي الشافعي هو الوحيد بطرابلس منذ فتحها المنصور قلاوون حتى سنة ٧٤٤هـ، حيث تعين فيها للمرة الأولى قاضٍ حنفي فأصبح بها قاضيان[(٦)]. وأول قاضي حنفي هو محمد بن أحمد بن تمير الحنفي وجرى تعيينه في سنة ٧٤٤هـ. وأول من تولى قضاة قضاء المالكية فكان (محمد البقاعي المالكي) المتوفي سنة ٧٧٦هـ[(٧)]. أما الحنابلة في طرابلس فقد كان جمعهم أقل من غيرهم ولذا كان قاضيهم أقل مرتبة من أصحابه[(٨)]. كما شغر منصبه قبل غيره، فقد قيل أن آخر القضاة الحنابلة هو: «محمد بن أحمد بن نصرالله الحنبلي الذي قتل في فتنة سنة ٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م»[(٩)]. وكان لكل من القضاة الأربعة نواب ينوبون عنهم في الفصل بالقضايا. وبطرابلس قاضيان عسكريان، أحدهما شافعي والآخر حنفي ومفتيا دار العدل يوليهما النائب[(١٠)]. وهما: شافعي وحنفي أيضاً، وبها ناظر الحسبة، وشاهد الجيوش، وناظر الأوقاف[(١١)]. وخطيب الجامع المنصوري الكبير[(١٢)]، وقارىء الحديث الشريف فيه، وخطيب الجامع الناصري المعروف بجامع التوبة[(١٣)]، وكانوا يعينون بموجب مراسيم يصدرها نائب السلطنة بطرابلس[(١٤)]، ونقيب الإشراف[(١٥)]، وإمام كافل المملكة[(١٦)].

---

(١) المقريزي: الخطط ج٢ ص٢٢٤.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج٢ب ص١٨٢.
(٣) المقريزي: السلوك ج٤ ص١٣٧.
(٤) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي ص٢١.
(٥) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي ص٢١.
(٦) ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص٤٦١.
(٧) ابن حجر: الدرر الكامنة ج٥ ص٨٦.
(٨) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي ص٢١.
(٩) السخاوي: الضوء اللامع ج١١ ص١٦٦.
(١٠) القلقشندي: صبح الأعشى ج٩ ص٢٥٥.
(١١) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص٣٥٠.
(١٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج١٤ ص٨٦.
(١٣) تدمري: تاريخ طرابلس ص٢٢.
(١٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج١٢ ص٤٧٢.
(١٥) القلقشندي: صبح الأعشى ج١٢ ص٤٥٥.
(١٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج٨ ص٩٥.

هـ ـ الحالة الأدبية: (الشعر والنثر)

١ ـ الشعر

المقدمة:

قبل البدء بالكتابة عن الحالة الثقافية وخاصة الأدبية لهذا العصر لا بدّ من أن نذكر بأن المفاهيم النقدية السائدة عند النقاد الحديثين تعتمد على الأعتقاد أن عصر الإنحطاط على امتداد الزمن كله، كان فترة العقم والجمود والإنحدار في أدبنا العربي، ونراهم يتخبطون حتى في التسمية التي استحدثوها فيطرق آذاننا قولهم: «عصر الإنحطاط» أو «عصر الإنحدار» أو «عصر الأتراك» أو «عصر الأعاجم» أو «عصر المغول والتتار» ولا أدري كيف يسمّى عصر بإسم الغزاة وهل خلا عصر من حروب وغزوات كما سماه (نائل المرصفي) منذ مطلع القرن العشرين[١].

وهذه التسميات عرفناها عند النقاد والأدباء في العصر الحديث، وإنما حاولوا أن يدخلوا هذه المفاهيم الخاطئة في أذهان المثقفين والشداة من طلاب العلم والمعرفة ويطمسوها من صفحات الآداب العربية.

ونشير أن لفظة إنحطاط لم يعرفها القدماء إطلاقاً وإنما هي تسمية استحدثت في أوائل عصر النهضة وبواكير العصر الحديث عند بعض النقاد والمؤرخين الذين تصدّوا لتاريخ أدب هذه العصور. ويظهر أن إطلاق هذه التسمية كان في الأصل كما نرجح تقريباً للفظة الفرنسية (Decadence) والمعروف أن لهذه اللفظة مرادفات متعددة في اللغة الفرنسية، وتطلق أصلاً على تأخر الحياة الأدبية والفكرية والعلمية، وقد خصص هذا اللفظ المعرب بانحطاط الآدب اللاتيني والقرون الأخيرة من العصر الروماني، وفي معجم «اندري لالاند» «André laland»[٢] مادة (Decadence) ما يلي:

«مجموعة من التحولات التي تحدّث في الإتجاه المخالف لذلك الإتجاه الذي يشكل التقدم أنه الحالة التي تنتج عن ذلك»[٣].

وتحدث الدكتور شوقي ضيف «ولعل عصوراً لم تظلم كما ظلمت العصور المتأخرة وبخاصة عصري الأيوبيين والمماليك، إن الشعراء جُمدّوا وجُمدّ معهم حينئذ الشعر وجّفت ينابيعه... والحق أنه لم يكن هناك ركود ولا جمود ولا تعطل ذهني

---

(١) نائل المرصفي: أدب اللغة العربية المطبعة الحسينية المصرية سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م.

(٢) نقلاً عن مجلة «الفكر العربي المعاصر» ص٨٩ ـ ٩٠ العددان ٨ و ٩ كانون أول ١٩٨٠ و ٨١ ص٨٩ من مقالة André lalan Vocabulaire technique et ecritique, p.202, Edition P.U.F. 1968 Paris.

(٣) شوقي ضيف: البحث الأدبي ص٥٣.

إنما كانت هناك محافظة قوية بدافع الإحتفاظ بالشخصية العربية أمام أعدائها ونعرض رأي الدكتور طه حسين عميد الأدب العربي. فقد أشاد بأهمية العصر المملوكي، وأبرز ما فيه من نشاط ثقافي بالنسبة لإزدهار دوائر المعارف فيه وقال: «ويمكن أن يقال عن عصر المماليك بأنه عصر دوائر المعارف، وهكذا يكفيه»[(١)]. وأستطرد قائلاً: «في هذا العصر ظهر للنويري (نهاية الأرب) وظهر لابن فضل الله العمري «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» وظهر القلقشندي (صبح الأعشى في صناعة الإنشاء) وظهر (لسان العرب) لابن منظور و...»[(٢)].

ونجد بعد البحث أن لشعراء العصر المملوكي والأيوبي أغراض شعرية متقاربة واتجاهات أدبية موحدة من قديم (مدح الرسول) والملوك والأمراء، وغزل، وزهديات، وخمريات، بإسلوب مفهوم وخال من الصنعة مع الوصف والموشحات.

ـ ومن أبرز ممثلي الإتجاهات الشعرية، والمذاهب الأدبية السائدة:

١ ـ **الصاحب شرف الدين الأنصاري** شيخ شيوخ حماة وشاعرها[(٣)] (٥٨٦ ـ ٦٦٢هـ/ ١١٩٠ ـ ١٢٤٦م).

٢ ـ **التلعفري** (الشاعر المقامر ابن بركة الشيباني)[(٤)] (٥٩٣ ـ ٦٧٥هـ/ ١١٩٧ ـ ١٢٧٧م).

٣ ـ **البوصيري** (شرف الدين أبو عبدالله)[(٥)] (١٦١٨ ـ ٦٩٧هـ/ ١٢٢٠ ـ ١٢٩٦م) وقد مثل البوصيري ثورة شعرية استطاع من خلالها أن يرتفع بالمدائح النبوية إلى أعلى منزلة بين أغراض الشعر في هذا العصر.

٤ ـ **عفيف التلمساني**: كوفي الأصل[(٦)]. (٦١٠ ـ ٦٩٠هـ/ ١٢١٣ ـ ١٢٩١م).

٥ ـ **الشاب الظريف**: (الشاعر المشهور شمس الدين)[(٧)] (٦٦١ ـ ٦٨٨هـ/ ١٢٦٣ ـ ١٢٨٩م).

٦ ـ **صفي الدين الحلي**:[(٨)] (٦٧٧ ـ ٧٥٠هـ/ ١٢٧٨ ـ ١٣٤٩م).

---

(١) مجلة المصور، العدد رقم ٢٢١ نيسان ١٩٦٩ بمناسبة عيد القاهرة الالفي.
(٢) المصدر السابق.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧ ص٢٥٥. ـ ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٤٩.
(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات ج٣ ص١٥٠. ـ المقريزي: الخطط ج٤ ص٩٠.
(٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٨ ص٢٩. ـ ابن شاكر: فوات الوفيات ج١ ص٣٩٣.
(٧) الصفدي: الوافي بالوفيات ج٢ ص١٢٩.
(٨) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج١٠ ص٢٣٨.

٧ ـ **ابن نباتة المصري**:[١] (امير شعراء المشرق وهو عربي أصيل كان أجداده يقيمون في بلاد الشام.

٨ ـ **ابن مليك الحموي**:[٢] (٨٤٠ ـ ٩١٧هـ/ ١٤٣٦ ـ ١٥١١م).

٩ ـ **عائشة الباعونية**:[٣] (شيخة العالمة العاملة الصوفية الدمشقية) (٠٠٠ ـ ٩٢٢هـ/ ٠٠٠ ـ ١٥١٦م).

وقد تكلم الدكتور ياسين الأيوبي في كتابه (آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي) الذي نشر بطبعته الأولى ١٩٩٥م/ ١٤١٥هـ؛ عن نشأة المماليك البحرية والبرجية. وتكلم عن الوضع السياسي والإجتماعي وبصورة خاصة عن الإطار الثقافي. والمدرسون الذين جاءوا إلى هذه الدولة وفدوا من الشرق والغرب ليدرسوا بمدارسها ومعاهدها وجوامعها. واستشهد ببعض المصادر والمراجع التاريخية وبخاصة الدكتور تدمري عندما تكلم عن مدارس طرابلس ومشايخها ثم عاد المؤلف إلى حركة التصنيف والموسوعات في العصر المملوكي من كتب تفسير، وسيرة وعلم سياسة، وكتب لغة.

وتناول في موضوعات الشعر للعصر المملوكي: المدح والثناء والغزل، والرثاء، والهجاء، والوصف، والفخر والنقد الإجتماعي، وشعر الزهد، والخمرة وجميع أساليب الشعر وأشكاله التي كانت سائدة في ذلك العصر[٤].

٢ ـ النثر:

لقد استعرضنا في المرحلة الأولى أصحاب الشعر في العصر المملوكي، ولقد حاولنا في هذه المرحلة الأدبية من دراسة النثر في هذا العصر من خلال دراسة أعلام الكتاب وتبيان آثارهم وتوضيح مذاهبهم الفنية من خلال فنونهم النثرية.

ويبدو لنا أن الكتابة في هذا العصر أصبحت صناعة فنية قائمة بذاتها، وليس من باب المصادفة أنه يستخدم الكتاب مثلاً (صناعة الإنشاء) و(صناعة الأدب).

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن معظم مؤرخي الأدب العربي ونقاده قد تحدثوا كثيراً عن النثر الديواني وفنونه، وأبرزوا السجع والإلتزام فيه وأهملوا كلياً النثر الذاتي والنثر المطلق.

وعند إبراز السجع كانوا يستخدمون فنونه فيما يلي:

١ ـ لا بد من التزام السجع عند خطبة كل الكتاب.

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص٢١٦.
(٢) بروكلمان: الاعلام ج٥ ص١٦٤ مرح: Brock.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٨ ص١١١. ـ الزركلي: الاعلام ج٤ ص٧٢٦.
(٤) د. ياسين الايوبي: اقامة الشعر العربي بالعصر المملوكي.

٢ ـ كذلك في الخطب المنبرية والمقامات والمنامات.

٣ ـ الرسائل الديوانية من تقاليد وتواقيع ومناشير وغيرها.

٤ ـ ضرورة سجع العنوان، وذلك نرى الطول في عناوين الكتب لتتم السجعتان أو أكثر في نص العنوان، في معظم الأحيان.

وقد توضحت طرائق هؤلاء الكتاب والتطور الذي لحق بالكتابة على ايديهم بهذ العصر، ومن هؤلاء:

١ ـ **ابن غانم المقدسي**: (٠٠٠ ـ ٦٧٨هـ/ ٠٠٠ ـ ١٢٨٠م). هو عز الدين عبد السلام بن حسن الأنصاري المقدسي[(١)(٢)].

٢ ـ **محيي الدين بن عبد الظاهر الروحي**:[(٣)] (٦٢٠ ـ ٦٩٢هـ/ ١٢٢٣ ـ ١٢٩٣م).

٣ ـ **شهاب الدين محمود**:[(٤)] (٦٤٤ ـ ٧٢٥هـ/ ١٢٤٧ ـ ١٣٢٥م).

٤ ـ **ابن نباتة الكاتب**: (٦٨٦ ـ ٧٦٨هـ/ ١٢٨٧ ـ ١٣٦٦م).

٥ ـ **شهاب الدين بن فضل الله الدمشقي الشافعي**:[(٥)] (٧٠٠ ـ ٧٤٩هـ/ ١٣٠١ ـ ١٣٤٩م).

٦ ـ القلقشندي هو شهاب الدين أحمد الفزاري القاهري الشافعي:[(٦)] وهو عربي له كتابان في العصر المملوكي عن انساب العرب أولهما وهو (نهاية الأدب في معرفة انساب العرب) وثانيهما عن قبائل العرب وهو (قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان) وعنده جرأة أدبية كبيرة وله أهمية عظمى عند المستشرقين والعرب في العصر الحديث ومصدر تاريخي مهم وبخاصة كتابه صبح الأعشى.

٧ ـ **ابن حجة الحموي**: هو تقي الدين أبو بكر محمد[(٧)] ولد في حماة سنة (٧٦٧ ـ ٨٣٧هـ/ ١٣٦٦ ـ ١٤٣٣م).

---

(١) اليافعي: مرآة الجنان ج٤ ص١٩٠. ـ وابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٦٢.

(٢) حاجي خليفة: كشف الظنون ص٤٦٣. ـ والزركلي: الاعلام ج٤ ص١٢٨. ـ وبروكلمان: ج١ ص٤٥٠.

(٣) ابن شاكر: فوات الوفيات ج١ ص٤٥١. ـ ابن اياس: بدائع الزهور ج١ ص١٠٥.

(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج٣ ص٣٤١. ـ ابن حجر: الدرر الكامنة ج٨ ص١٠٨.

(٥) ابن حجر: الدرر الكامنة ج١ ص١٣٢. ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص٢٢٩.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع ج٢ ص٨. ـ ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص١٤٩. ـ الزركلي: الاعلام ج٦ ص١٧٢

(٧) السخاوي: الضور اللامع ج١١ ص٥٣. ـ ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٢١٩.

هذه صورة موجزة عن الحالة الأدبية بما فيها نثراً وشعراً في العصر المملوكي صادرة عن أدباء وكتّاب كبار مدينون لهم بالفضل حتى هذا التاريخ على امتداد عالمنا العربي.

٨ ـ **شيخ الإسلام الحافظ الذهبي** (محمد بن أحمد بن عثمان) عالم محقق ومؤرخ ولد بدمشق وعاش في ميافا رقين رحل إلى القاهرة فقرأ ودرس وأخذ من علمائها الشيء الكثير (كتب والفّ وصنف وأرخ وصحح وبرع في الحديث وعلومه وقرأ القراءات السبع على جماعة من مشايخ القراءات، مات عن عمر يناهز الخامسة والسبعين عاماً سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م وله من التصانيف قرابة المائة أشهرها: تاريخ الإسلام الكبير ٣٦ مجلداً، وسير أعلام النبلاء وغيرهما[1].

٩ ـ **صلاح الدين الصفدي**: توفي سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٣م وكان من أهم كتبه **الوافي بالوفيات** يقع في ثلاثين مجلداً لعله أكبر المصنفات في بابه حيث ترجم فيه لكل الأعيان الذين وقع على أسمائهم والقضاة والقراء والمحدثين والفقهاء والأولياء والأطباء والحكماء وأصحاب النحل والبدع. ويعتبر هذا الكتاب من أهم كتب التراجم. ثم **التذكرة الصلاحية** تقع في ثلاثين مجلداً نهج فيها نهجاً جديداً، وفيها فوائد جمة في التاريخ والأدب والأخلاق والمجتمع، ترجم فيها الكثير من الأدباء والشعراء وجمع فيها لطائف الأشعار والأدبيات ونوادر الأخبار نظماً وشعراً «ويظهر من أسمها وترتيبها أنه ألفها كالمذكرة للكاتب، يرجع إليها إذا أراد اقتباس الأقوال أو الأشعار في موضوع يريد الكتابة فيه»[2].

ثم عنده كتاب **تشنيف السمع في انسكاب الدمع**: كتاب خاص في الدمع لغة ونتاجاً أدبياً لأجله وأسبابه نقلاً وعقلاً، وهو سبعة وثلاثون باباً يتضمن كل باب فيه: شعراً ونثراً وأمثالاً وحكماً.

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج١٠ ص١٨٢.
ـ ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص٣٣٦.
(٢) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج٣ ص١٧١.

لمحة عن العصر الأيوبي

الفصل الأول

أنواع المدارس
واتجاهاتها في العصر المملوكي

الأنواع:

١ ـ مدارس الكتاتيب.
٢ ـ مدارس الخوانق والربط والزوايا.
٣ ـ مدارس المساجد.
٤ ـ المدارس والجوامع.
٥ ـ مدارس المكتبات.
٦ ـ مدارس الترب.
٧ ـ منازل العلماء ومجالس العلم.
٨ ـ الصالونات الأدبية.
٩ ـ البادية.
١٠ ـ التعليم بالقصور.
١١ ـ حوانيت الوراقين.
١٢ ـ دور الشيوخ والفقهاء.
١٣ ـ المارستان.
١٤ ـ المدارس النظامية

الفصل الثاني

تعريف مدارس بلاد الشام بالعصر المملوكي ـ الإتجاهات في العصر المملوكي

أ ـ مدارس دينية.

ب ـ مدارس دنيوية.

١ ـ المدارس الدينية التي تبحث وتدرس في أصول الدين: (القرآن ـ الحديث)

أ ـ دور القرآن: من جهة الموقع والمؤسس.

ب ـ دور الحديث: من جهة الموقع والمؤسس.

ج ـ التصوف (الخوانق ـ الربط ـ الزوايا) من جهة الموقع والمؤسس.

٢ ـ المدارس الدينية التي تبحث وتدرس في فروع الدين: (علم الفقه)

أ ـ المدارس الحنفية من جهة الموقع والمؤسس.

ب ـ المدارس الشافعية من جهة الموقع والمؤسس.

ج ـ المدارس المالكية من جهة الموقع والمؤسس.

د ـ المدارس الحنبلية من جهة الموقع والمؤسس.

هـ ـ بقية المدارس الدينية في بلاد الشام من جهة الموقع والمؤسس (حلب ـ القدس ـ طرابلس).

و ـ مدارس المسيحية.

الفصل الثالث

أ ـ المدارس الدنيوية:

١ ـ مدارس طبية من جهة الموقع والمؤسس.

٢ ـ مدارس حربية (في الطباق) موقعها ومنشئها.

لمحة عن العصر الأيوبي

قبل أن نتكلم عن المدارس ونظام التعليم فيها بالعصر المملوكي لا بدّ وأن نرجع إلى الوراء قليلاً لنرى واقع التعليم بالعصر الأيوبي ومدى تأثيره على المدرسة المملوكية ومدى تأثره بالمدرسة الفاطمية، والجميع مرتبط بمنهج واحد هو القرآن والسنة. وإن تاريخ التعليم في العالم الإسلامي كان منذ البداية قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالمسجد ذلك لأن الدراسات آنذاك كانت دينية خالصة تعني بشرح وتوضيح تعاليم الدين وأحكامه، وأسسه، ومراميه، وكلها من اختصاصات المسجد الأولية لهذا أضحى المسجد المركز الأول لنشر العلوم والثقافة الإسلامية إلى جانب كونه مكاناً للعبادة وداراً للإحتكام، وملتقى للتشاور، ومقراً لأستقبال الوافدين من أولي الأمر من المسلمين والغرباء، وذلك على نمط ما كان عليه وضع كنائس النصارى وبيع اليهود. وكثر بناء المساجد في العالم الإسلامي وتعددت حلقاته وزواياه وأعدّ لأستقبال الطلاب وتعليمهم بالمجان غنيهم وفقيرهم سواسية ودون تمييز بالمعاملة. وبعد أن كانت الدراسة تقتصر على تلقين القرآن، وتعليم بعض مبادىء القراءة والكتابة أصبحت تتناول فنوناً عديدة من قرآن وحديث، وفقه، ولغة إلى غير ذلك مما له صلة بالدين «ثم أصبح الكثير من المساجد فيما بعد مراكز علمية هامة»(١).

وأثناء ضعف الخلافة العباسية وانهيار دولة السلاجقة وقيام دويلات الأتابكة في البلاد الشامية استأثر نور الدين محمود بن زنكي بحكم دمشق ورغب هذا السلطان أن يضم إلى سمعته الطيبة مكانة علمية، فاقتدى بالوزير السلجوقي، نظام الملك صاحب المدارس النظامية في رعاية العلم والعمل على نشره وتعميمه وأهتم نور الدين بدمشق فصاوت في أيامه مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية وذلك صرف همته إلى إنشاء المدارس والربط والخوانق والمساجد والمستشفيات التي لا تزال ماثلة آثارها إلى الآن. ويذكر أنه كان أول من بنى دار العدل لكشف الظلامات، وأكثر من دور الحديث والفقه فقصده العلماء والفقهاء والأدباء، وكان يتواضع لهم ويظهر لهم التوقير

---

(١) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي - ج٤ ص٤٢٤ القاهرة مكتبة نهضة مصر ١٩٦٧م.

والإحترام والتعظيم كما كان يغدق عليهم الأموال لحملهم على البحث والنظر. «ولولاه لخيف على هذه النهضة أن تفنى وتضيع»[1].

هذا وتعد المدرسة النورية التي بناها في مدينة دمشق ومن ثم البيمارستان مفخرة لعهده ورمزاً لحكمه كما تُعدّ الأوقاف التي وقفها في دمشق وفي حلب وفي سائر البلاد الشامية على أبواب البر والخير مثالاً لفضله وكرمه.

واستولى على الأمر بعد نور الدين زنكي السلطان صلاح الدين، وأقام الدولة الأيوبية التي تعتبر وليدة الحروب الصليبية، ولم ينس هذا الرجل رغم همومه ومشاكله خطة سلفه نور الدين في البناء والتعمير ونشر العلم والمعرفة وقيادة النهضة العلمية والفكرية التي سلمه إياها فسار على خطاه مكملاً ومشى من ورائه أبناؤه وأخوته حاملين مشعل هذه الحركة «حيث كانت تهون عليهم وعلى صلاح الدين بالذات بيوت المال في سبيل الفضل والعلم»[2].

فما من عين من أعيان بني أيوب إلا وكان له في دمشق وأقاليمها أو في مصر وأرياضها أثر أبقت الأيام على بعض منه نموذجاً حسن الهندسة والإتقان ومثالاً ينم عن ارادة الخير والفضل.

فدمشق هذه المدينة الوثيقة بماضيها لم تسعد سعادة حقيقية مثل سعادتها على عهد الأيوبيين فمعظم ما تراه من بقايا عمرانية فيها الآن هو من وضع ملوكهم وأمرائهم ومن وضع خدامهم وعتقائهم. لقد تمتعت هذه المدينةرغم الحروب الصليبية آنذاك بأزهى حلقة من تاريخها تمثل بأسبقيتها في تأسيس المدارس واجراء الأرزاق والمعاليم على مدرسيها وطلابها والقائمين عليها. فنظرة نلقيها على كتاب «**الدارس في تاريخ المدارس / للنعيمي**» يتضح لنا أنه كان في هذه المدينة خلال القرنين السادس والسابع الهجري ما ينوف عن مئة وخمسين مدرسة على المذاهب الفقهية الأربعة إلى جانب دور القرآن والحديث والمساجد والربط والخوانق ومدارس الطب وهذ المدارس كان قد درّس فيها ما يزيد عن الف من كبار العلماء المشاهير الذين تركوا بعد وفاتهم أثراً يذكر ومذهباً يعرف أو فضلاً ينوّه به.

وابن جبير في رحلته الشهيرة إلى دمشق أتى على ذكر لمدارسها ومساجدها وما كان فيها من ربط وخوانق وأثنى على المعاملة التي يلقاها المدرسون والطلاب على السواء وكان ذلك في الربع الأخير من القرن السادس للهجرة.

وابن شداد كان قد خصص جزءاً كبيراً من كتابه المعروف بإسم «الأعلاق

---

(١) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٥١.
(٢) ابن جبير: رحلة ابن جبير ص٥٢.

الخطيرة» للتحدث عن مدينة دمشق وما فيها من آثار ومدارس وخوانق وربط وزوايا ومساجد كانت لا تزال الربع الأخير من القرن السادس للهجرة.

وابن طولون صاحب كتاب القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية كان قد ذكر في كتابه هذا، المدارس التي انشئت في الصالحية أكبر نواحي مدينة دمشق ووصفها وصفاً مفصلاً.

وكذلك ابن تغري بردي (يوسف الأتابكي) كان قد ألمح في مؤلفاته إلى مدارس دمشق وقال عن هذه المدينة: أنها أجمل مدن العالم وأغنى مدينة بالمدارس. وقد ذكر المقريزي في خططه للقاهرة أنه كان يوجد فيها في العهد الأيوبي ما يقرب من خمس وسبعين مدرسة، وذكر آخرون أنه لم يكن في مدينة بغداد من المدارس ما يقارن العدد الذي كان لدمشق والقاهرة وعلى هذا يمكن القول أن مدينة دمشق تفردت عن الحاضرتين الشهيرتين القاهرة وبغداد بهذا المجد العلمي الذي دام إلى أواسط القرن التاسع الهجري وبعد ذلك أخذ هذا المجد بالأفول والتلاشي وكان العهد الأيوبي من أسعد العهود علمياً على دمشق بعد العهد الأموي وعلى كافة مدن بلاد الشام وبخاصة مدينة حلب ودمشق والقدس.

«وسلاطين بني أيوب لم تشغلهم الحروب عن رعاية العلم والأدب، والإهتمام بالعلماء والأدباء والشعراء فقربوهم لمجالسهم واستمعوا إلى كتاباتهم وشجعوهم، وكان هؤلاء السلاطين ومن ثمّ الأمراء والوزراء. يعقدون الندوات ويستمعون فيها إلى القصص والفكاهات، ويطربون بتغريد المغنيات ويتبارون مع الشعراء في مدارسة الشعر والنثر ونقدهما، ولقد كان لبعضهم ميل فطري إلى الكتابة وقول الشعر حتى أن بعضهم كان يجيد قرضه، حتى أن نور الدين بن صلاح الدين كان شاعراً...»[1]. «وقد ذكر عن الملك الكامل بن الملك العادل أنه كان يشارك في المناظرات، وأنه كان ينصب لأهل العلم أسرّة ينامون عليها إلى جانب سريره في قلعة القاهرة»[2].

وقد اتصف الشعر آنذاك بالرقة والسهولة وابتعد عن التكلف، وتناول الشعراء الحياة الفكرية وتغنوا بالنهضة العلمية واثنوا على منشيء المعاهد والمدارس، وإلى جانب الشعر شهد العصر الأيوبي نشاطاً كبيراً في علوم اللغة وأشتهر بذلك علماء كبار منهم ضياء الدين بن الأثير وعلم الدين السخاوي، والحافظ بن عساكر، والبرزالي، وابن الصلاح وأبو شامة، والنابلسي[3]. كما راجت الكتابات التاريخية وأتجه بعض

---

(١) ابن خلكان: وفيات الاعيان وابناء ابناء الزمان ج١ ص١٣٢.

(٢) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج٣ ص١٩.

(٣) الذهبي: تذكرة الحفاظ ج٤ ص١٣٣٨، ٤.

المؤرخين نحو كتابة الموسوعات في تاريخ الدولة الإسلامية وأتجه آخرون نحو شرح تراجم العظماء وتدوين مآثرهم في حين مال القسم الأكبر منهم إلى ذكر الصراع الإسلامي الصليبي، ونذكر من المؤرخين: بهاء الدين بن شداد صاحب سيرة صلاح الدين. ثم شهاب الدين أبو شامة صاحب كتاب الروضتين والملك المعظم عيسى وابن عساكر صاحب تاريخ دمشق ومن مؤلفين المعاجم التاريخية نذكر ياقوت الرومي صاحب معجم الأدباء وابن خلكان صاحب وفيات الأعيان وفي مجال الطب والهندسة نذكر مهذب الدين الدخوار، وعماد الدين الدنيسري، ونجم الدين اللبودي. وهكذا تنوعت في العصر الأيوبي ألوان الثقافة بين دينية ولغوية وفلسفية وإجتماعية ما تفخر به المكتبة العربية[١].

وازدهرت بلاد الشام في عهد الأيوبيين وكثرت فيها المدارس لنشر الثقافة الإسلامية وما يتصل بها من العلوم العربية وأسس هذه المدارس ملوك بني أيوب، وأمراؤهم، وولاتهم، وأزواجهم وبناتهم، وأخواتهم من الأميرات، والخواتين، والنساء العالمات وعلماؤهم، وقضاتهم، وموسروهم، وتجارهم، ووقفوا عليها جميعاً أوقافاً من الأموال والضياع والبساتين والخانات والحوانيت حتى أصبحت هذه المدينة وضواحيها وباقي المدن الكبرى كحلب والقدس وحمص وحماة عليها أوقافاً ثابتة كتلك المدارس الموجودة في كل حي من أحياء المدن المذكورة. وأخذت هذه الأوقاف تدر المال فتُرغب الطلاب في التعلم والمدرسين في التعليم حتى لا يشغل بالهم أمر الدنيا أو طلب المعاش.

قلت بأن العلوم الدينية كانت هي الشغل الشاغل لمدارس المسلمين وبتقادم الزمن وتمشياً مع متطلبات التطور الحضاري، ازدهرت الحياة العلمية في الربوع الإسلامية وبلغ هذا الإزدهار ذروته في أيام الدولة الأيوبية وصارت العلوم الدنيوية تماشي العلوم الدينية في مختلف معاهد العلم ومدارسه وإن كانت الأفضلية آنذاك تعطى لكل علم له صلة بالدين لما اتصف به الأيوبيون من تدين وورع.

المدارس الخاصة

وكان لكل مدرسة خاصة في هذا العصر:

١ ـ منشيء أو مؤسس هذا المؤسس.

أ ـ يعيّن لها الموقع.

ب ـ ثم يُعين لها أساتذة ويحدد أجر الأستاذ.

---

(١) زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج٣ ص١٧١.

ج ـ ثم يحدد عدد الطلاب فيها وعلى أي مذهب والمبلغ الذي يعطى للطالب من الوقف.

د ـ ثم يبين بكتاب الوقفية الضيع والأراضي والطواحين والخوانيت التي تستفيد منها المدرسة والعاملين فيها ويعين ناظر لإستلام المحصول والمال ليوزع بما هو مكتوب. ثم يعين من له حق الإستفادة من الوقف بعد موته.

٢ ـ ويحق لمن استطاع ويستطيع أن يؤسس مدرسة ويوقف عليها ابتداءً من السلطان حتى القادر من الطبقة العامة على نفقته الخاصة.

٣ ـ هناك مدارس للدولة ويوزع لمدرسيها من مال الدولة (رسمية) وكان هذا العمل سائداً في جميع أرجاء السلطنة الأيوبية واستمر على نفس الطريقة بالعصر المملوكي الذي هو موضوع رسالتنا.

الفصل الأول

أنواع المدارس واتجاهاتها في العصر المملوكي

أولاً ـ أنواع المدارس أو أمكنة التعليم قبل المدارس النظامية الحديثة حتى هذا العصر

١ ـ الكتاب لتعليم القراءة والكتابة:

يقول البلاذري[١]: «إن أول من تعلم الكتابة العربية من أهل مكة هو سفيان بن أمية بن عبد شمس، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، وقد تعلماها من بشر بن عبدالملك الذي تعلمها من الحيرة».

ويروي ابن خلدون[٢] «أن الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب بن أمية وأخذها من أسلم بن سدرة».

وبدأت القراءة تنتشر مع الكتابة في جزيرة العرب ولكن انتشارها بطيئاً حتى لما جاء الإسلام كان عدد القرشيين الذين يستطيعون القراءة والكتابة سبعة عشر رجلاً فقط[٣] فقد استخدمهم الرسول كلهم أو جلهم الكتابة بين يديه[٤].

وأكثر صراحة من هذا ما يسجله العالم الأندلسي أبو بكر بن العربي (٥٤٢هـ) في ما يتعلق بالتعليم[٥]: «وللقوم في التعليم سيرة بديعة وهي أن الصغير منهم إذا عقل بعثوه إلى المكتب فيتعلم الخط والحساب والعربية فإذا حذقه كله أو حذق منه ما قدر له خرج إلى المقرىء فلقنه كتاب الله فحفظ منه كل يوم ربع حزب أو نصفه أو حزباً».

ثم يجيء ما شاهده الرحالة العظيم ابن جبير (٦١٤هـ) وسجله في الرحلة وهذا نصه[٦]: «وتعليم الصبيان للقرآن بهذه البلاد المشرقية كلها إنما هو تلقين، ويعلمون

(١) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٧.
(٢) ابن خلدون: المقدمة ص٢٩٣.
(٣) البلاذري: فتوح البلدان ص٤٥٧.
(٤) أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٤٥.
(٥) أبو بكر بن العربي: أحكام القرآن ج٣ ص٢٩١.
(٦) ابن جبير: الرحلة ص٢٧٢.

الخط في الأشعار وغيرها تنزيهاً لكتاب الله عزّ وجل عن إبتذال الصبيان له بالإثبات والمحو، وقد يكون في أكثر البلدان الملقّن على حدة والمكتب على حدة. فينفصل من التلقين إلى التكتيب.

ولذلك يأتي لهم حسن الخط لأن المعلم له لا يشغل بغيره، فهو يستفرغ جهده في التعليم والصبي من التعليم كذلك. ويقول ابن خلدون[1] (٨٠٨هـ) «ولتعليم الخط عند أهل المشرق قانون خاص ومعلمون له على إنفراد كما تتعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان».

ومثل هذا سجله ابن بطوطه[2] (٧٧٩هـ) إذ يقول: «ومعلم الخط غير معلم القرآن يعلمهم بكتب الأشعار وسواها ولا يكتبون القرآن في الألواح تنزيهاً له فينصرف الصبي من التعليم إلى التكتيب لأن معلم الخط لا يعلم غيره».

١ ـ كتاتيب أولية كان يتعلم الأطفال فيها القراءة والكتابة ويحفظون القرآن ومبادىء الدين وأوليات الحساب. انواع المدارس والكتاتيب

٢ ـ كتاتيب قانونية، كان لتعليم الأطفال والشباب علوم اللغة والآداب وكانوا يتوسعون فيها بعلوم الدين والحديث وسائر صنوف العلوم الأخرى بصورة عامة[3].

نستنتج من هذا بأن كان هناك نوعان من الكتاتيب أحدهما لتعلم القرآن ومبادىء الدين الإسلامي، وثانيهما لتعليم القراءة والكتابة والحساب. كذلك ظهر نوع من الكتاتيب إختص بالإيتام وكان الغرض من إنشائها تعليم الأيتام وأبناء الفقراء وأبناء الجند، وقد وفر هذا النوع من التعليم الرعاية العلمية والإجتماعية لهذه الفئة غير القادرة، والذين لم يكن في وسع ذويهم إرسالهم إلى المكاتب الخاصة وإحضار مؤدبين لهم إلى المنازل[4]. ولقد كثر الإهتمام بكتاتيب الإيتام خلال جهود الزنكيين والأيوبيين والمماليك. واختلفت أحجام الكتاتيب كبراً وصغراً. فكتاب ابن القاسم البلحي كان يتعلم فيه ٣٠٠٠ تلميذ، وكان المكان المخصص للكتاب يختلف بإختلاف المعلمين ومشار بهم فمن مكان متسع طلق الهواء يساعد الصبية على الإقبال على الدرس إلى مكان مظلم لا تدخله الشمس يحدّ من استعداد الصبية للحفظ والإفادة من التعليم. أما أثاث الكتاب فكان يفرش بالحصر غالباً يجلس عليها الصبيان متربعين حول معلمهم وكانت أدوات الدراسة تتضمن مصحفاً شريفاً، وعدّة ألواح، وعدداً من

(١) ابن خلدون: المقدمة ص٣٩٨.

(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار ج١ ص٢١٣.

(٣) محمد طلس: التربية والتعليم في الإسلام ص٧٠.

(٤) عبد الغني عبد العاطي: التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك ص١٢١.

الدوي والأقلام، وقد يختص المعلم بسرير أو كرسي مرتفع وربما عوض عن الكرسي بمصطبة مبنية ليس عليها من الرياش سوى بساط صغير[١].

أما سن ذهاب الصبي إلى الكتاب "إن هناك إتجاهاً نحو التبكير في التعليم بالكتاب، فمنذ سنين الخامسة والسادسة والسابعة ينتقل الطفل إلى بيئة جديدة هي الكتاب، حيث يبقى إلى أن يتم حفظ القرآن بأكمله أو يحفظ جزءاً منه إلى جانب تعلمه القراءة والكتابة وبعض النحو والعربية وشيئاً من الحساب وما إلى ذلك من الأمور التي كانوا يعتبرونها وسائل للإحاطة بالدين"[٢].

ولما كان الصبيان يأتون إلى الكتاب صغار السن، كان على الأهل أن يؤمنوا من يرافقهم في غدوهم ورواحهم إلى الكتاب، وأطلق على هذا المرافق إسم السائق واشترط فيه أن يكون "أميناً وثقة متأهلاً لأنه يتسلم الصبي في الغدو والرواح وينفرد به في الأماكن الخالية يدخل على النسوان فيلتزم أن يكون كذلك"[٣].

وكان الأهل يبذلوا جهدهم في انتخاب المعلم الذي يتولى تعليم صبيانهم ممن تتوفر فيه حسن الأخلاق والخصال الرشيدة والإستقامة والعفاف والعدالة والخبرة العامة بالقرآن وعلومه.

وكانت الحياة في الكتاتيب أحياناً ما تبدأ فيها أوقات الدراسة بشروق الشمس وتنتهي بآذان العصر، وأما بالنسبة للراحة والعطل المدرسية فقد لوحظ بإعطاء الصبي قسطاً من الراحة بعد عناء الدراسة. فهذا ابن الحاج العبدري (ت: ٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م) يقول: "إن ذلك مستحباً لقوله عليه الصلاة والسلام (روحوا القلوب ساعة بعد ساعة) فإذا استراحوا يومين في الجمعة نشطوا لباقيها"[٤] وهناك تعطيل في أيام الأعياد وحالات المرض والرياح والعواصف والبرد والمطر الشديد. ويبدو أن التعليم الإبتدائي لم يكن مختصاً بالصبيان دون الإناث بل أنه كان شاملاً للجنسين لا سيما عند الأغنياء وأصحاب المناصب العالية والعلماء.

وغالباً ما كانت تقوم هذه الكتاتيب إلى جانب المسجد ثم أريد لها أن تكون بعيدة عنه مسافة وذلك لتفادي الإزعاج الذي يسبب الأطفال لرواد المسجد من طلبة ومتعبدين وهي المكان الذي يتعلم فيه التلميذ الكتابة. وكان على التلميذ أن يسأل تفقهاً لا تعنتاً[٥] ولا رياءً[٦] وكان يشرف على هذه الكتاتيب معلمون،

(١) حسن عبد الوهاب: مقدمة كتاب آداب المعلمين لابن سحنون ص٥٠.
(٢) احمد الاهواني: التربية في الإسلام ص١٣٠.
(٣) عبد الرحمن الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص١٠٤.
(٤) العبدوي: المدخل ج٢ ص٣٢١. (٥) ابن قتيبة: عيون الأخبار ج٢ ص١٢٣.
(٦) الاصفهاني: محاضرات الأدباء ج١ ص٢٧.

مقرؤن، حافظون، مثقفون كانوا قد اتخذوا من التعليم حرفة للتكسب والعيش.

وكثيراً ما كان أولياء التلاميذ ينتقون لأطفالهم الكتاتيب ذات الشهرة ويتفقون مع مدرسيهم على الأجر إسبوعياً أو شهرياً أو سنوياً.

وكان إتجاه التعليم نحو تعليم القرآن ـ قراءة وتحفيظاً وتفسيراً وترتيلاً وتجويداً ثم الأخذ بمبادىء بعض العلوم والآداب التي تعين على فهم آياته.

وإذا إنتهى الطالب من هذه الحلقة ينتقل إلى حلقة أخرى ثم إلى حلقة أعلى حيث يجلس فيما بعد إلى الشيوخ والمشاهير الذين كانوا يدرّسون كتباً عالية المستوى في علوم مختلفة كثيرة التفاصيل والتعمق والإحاطة[1].

٢ ـ في الربط والخانقاوات:

والربط عدا عن كونه موقعاً دفاعياً، فقد كان المجاهدون فيه يتلقون التدريبات القتالية والفنون الحربية، وعلوم العصر وفنونه. وهو عبارة عن حلقات صوفية زاهدة.

وأما الخانقاوات: وإن كانت قد أعدت بيوتاً للصوفية والدراويش والفقراء وإن كانت قد تركت آثاراً إجتماعية سيئة وخطيرة بما أشاعت من حياة زهد وتقشف فإنها ساهمت في ذلك الوقت بقسط وافر في مجال التثقيف الديني والإنضباط السلوكي الذي إنعكس على أفراد المجتمع قاطبة. وكان صلاح الدين أول من أنشأ خانقاه ٥٦٩ هـ ووقف عليها الأوقاف للإنفاق وخصص لها أرزاق كل يوم[2].

وقد شهدت المؤسسات التربوية الصوفية نوعين من أعداد الصوفيين نوع أصيل سار في طريق العلم سير العلماء واجتهد في الطلب وحصل على العلم الغزير ومالت نفسه إلى الزهد وأحتقار الدنيا فانخلع عنها وخلص للعبادة. والغزالي (ت: ٥٠٥هـ/ ١١١١م)، ومحيي الدين بن عربي (ت: ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م).

ونوع آخر اتجه إلى العلم حتى حصل منه زاداً يسيراً ثم إنصرف إلى المجاهدة الصوفية والسعي إلى كسب الجاه بين الجماهير بمظاهر من التقى والقدرة وأعمال الخارقة فالتف حولهم العوام وتمسكوا بهم تمسكاً شديداً... «وشيئاً فشيئاً تحولت الطريقة إلى شيء أشبه بجمعية دينية إجتماعية»[3].

وهكذا أصبحت المراكز الصوفية تؤدي خدمات إجتماعية ودينية وثقافية كالوعظ والإقراء والتحديث والإفتاء، ومنح الإجازات العلمية وتصنيف الكتب.

---

(١) احمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٣٧٦.
(٢) المقريزي: الخطط ج٤ ص٣٧٣.
(٣) حسين مؤنس: عالم الإسلام ص٢١٥ ـ ٢١٦.

ولقد لعبت الربط دوراً تربوياً حيث برزت كمؤسسات للتربية العسكرية والدينية. فالناحية العسكرية ظهرت من خلال وجود دول متربصة على حدود الدول الإسلامية وتوافد المسلمين يرابطون فيها يتدربون ويتربون تربية عسكرية. أما الناحية التربوية فظهرت من خلال ما ينفقه المريدون من التعبّد ولما يتلقون من الإرشاد وتوجيه من شيوخهم.

ولعل هذه الربط تذكرنا في تاريخنا المعاصر بما يقوم به كيان العدو الإسرائيلي من إقامة مستعمرات في فلسطين على الحدود العربية مع الفارق بين الدولة الإسلامية الإنسانية ودولة العدو الإسرائيلي المغتصبة.

وصفوة القول بالنسبة للمتصوفة وناحية دورهم التربوي وإسهاماتهم الطيبة في هذا الميدان، لا يسعنا إلا أن نقول بأن المتصوفة تركوا أبوابهم مشرعة لأفكار وعادات واتجاهات دخيلة على المجتمع الإسلامي، واستغلتهم قوى غريبة فشجعت فيهم الصور المنحرفة عن الدين والتي عن طريقها رسخت هذه العناصر جذورها وقوت قواعدها ـ فإننا نرى بأن المماليك لم يشجعوا كثيراً على الحلقات الصوفية كما كان في العهد الأيوبي الذي سبق، وكثرة الزوايا بالعهد العثماني الذي لحق.

٣ ـ المسجد:

يعتبر المسجد هو المكان الرئيسي لنشر الثقافة الإسلامية، وقد قامت حلقات الدراسة فيه منذ نشأ واستمرت كذلك على مر السنين والقرون، لأن أحساس المسلمين بأن البيوت الخاصة تضيق بإجتماعاتهم ولا تمنحهم حرية العبادة واللقاء كما يشتهون. وربما جارى المسلمون جيرانهم من اليهود والنصارى. أو قلدوا العرب قبل الإسلام فقد كان لهؤلاء متعبدهم (البيت الحرام) الذي رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل قبل الإسلام[١]، وعند الإسلام كعبة يحج لها العرب من كل أصقاع الجزيرة العربية ويتعبدون فيها[٢]. وبمرور الزمن زاد عدد المساجد زيادة كبيرة حتى بلغ عددها في بغداد وحدها على ما ذكر اليعقوبي ٣٠،٠٠٠ مسجد ثلاثون الف مسجد[٣].

ويقول ابن جبير عن مساجد الإسكندرية بقوله: «وهي أكثر بلاد الله مساجد ومنهم من يقول أن مساجدها ١٢ الف مسجد وتكون الأربعة والخمسة في موضع»[٤].

---

(١) احمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص١٠٢.
(٢) الشهرستاني: الملك والنحل، ص٤٤٢ ـ ٤٤٣.
(٣) اليعقوبي: البلدان ص٢٥٠.
(٤) ابن جبير: الرحلة ص٤٣.

وعن الجامع الأموي يحدثنا ابن جبير ويقول: «فيه حلقات للتدريس للطلبة وللمدرسين منها إجراء واسع، وللمالكية زاوية للتدريس في الجانب الغربي يجتمع فيها الطلبة المغاربة ولهم إجراء معلوم ومرافق هذا الجامع للغرباء وأهل الطلب كثيرة واسعة، وأغرب ما به أن سارية من سواريه وهي بين المقصورتين القديمة والحديثة، لها وقف معلوم يأخذه المستند إليها للمذاكرة والتدريس... وعن يمين الخارج من باب البريد مدرسة للشافعية في وسطها صهريج يجري الماء فيه. وفي الجانب الغربي بإزاء الجدار مقصورة برسم الحنفية يجتمعون فيها للتدريس وبها يصلون... وفي الجامع عدة زوايا يتخذها الطلبة للنسخ والدرس والإنفراد عن إزدحام الناس وهي من جملة مرافق الطلبة»[1].

وكان للخطيب البغدادي بهذا المسجد حلقة كبيرة سنة ٤٥٦هـ وكان الناس يجتمعون إليه في بكرة كل يوم فيقرأ لهم... وكان إذا قرأ الحديث في جامع دمشق سمع صوته في آخر الجامع[2].

وقد دُرّس في المساجد الطب والميقات، ويروي السيوطي[3] أن دروساً مختلفة رتبت في الجامع الطولوني وقد شملت التفسير والحديث والفقه على المذاهب الأربعة والقراءات والطب والميقات.

ويقول البغدادي: «إن درساً في الطب كان يلقى في الأزهر في منتصف النهار من كل يوم»[4].

ولقد أصبحت بعض المساجد وحلقاتها مطمحاً ومطلباً لبعض العلماء، ربما لما تعطيه للعالم من مكانة علمية أو إجتماعية ورغبة في نشر العلم بين أكبر مجموعة من طلاب العلم كالجامع الأموي مثلاً وكان المسجد مركزاً للتعليم العالي، وقد أثر في نمو العلوم وإنتشارها لإتصاله بالدين وكونه مكاناً للعبادة، وكذلك فتح أبوابه ليتلقى الجميع العلم فيه، على إعتبار أن بيوت الله ليس لأحد عليها سلطان، ولا يحتاج الدخول إليها إلى استئذان ويشعر الطالب فيها بالحرية واليسر أكثر مما هو الحال في منازل العلماء والحكام ومجالسهم الأدبية والخاصة، فالمنازل محجوزة على الناس إلا من أبيح له دخولها، ولها مكانتها وإحترامها وأدبها.

ولقد عدّ المسجد بمثابة مدرسة عالية وقسم طلبته إلى قسمين:

١ ـ طلاب منتظمون في الدراسة لا ينقطعون عن الدرس إلا بعد إتمام المنهج

---

(١) ابن جبير: الرحلة ص٢٦٦ ـ ٢٧٣.

(٢) ياقوت: معجم الأدباء ج١ ص٢٥٥.

(٣) السيوطي: حسن المحاضرة ج٢ ص١٣٨.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء ج٢ ص٢٠٧.

والحصول على إجازة من الأستاذ المختص وهؤلاء يتفرغون للعمل سنوات عدة فيحضرون إلى الجامع من الصباح الباكر طيلة النهار ويقضوه بالدرس.

٢ ـ وطلاب مستمعون غير منتظمين، وهؤلاء يذهبون لإستماع بعض الدروس كما تذهب نحن لإستماع بعض المحاضرات العامة دون تقيد بمنهج معين[١].

ويذكر القلقشندي (ت: ٨٢١هـ/١٤١٨م) أن الفقهاء في الجامع.. كانوا يتحلقون فيه يوم الجمعة بعد الصلاة إلى أن تصلى صلاة العصر وكانوا يتكلمون في الفقه، وكان الطالب ينتقل من حلقة إلى أخرى تبعاً لنشاطه وعدد العلوم التي يرغب في دراستها[٢].

أما مصادر النفقات على النفقات والمساجد فقد تعددت، فالأوقاف قامت بدور كبير من أجل تدعيمها وتمكينها إداء رسالتها ويمكن القول: إن قوة الشعور الديني أدت إلى إزدهار الأوقاف وانتشارها كما أن إزدهار الأوقاف أدى إلى تقوية الشعور الديني ولقد تعددت الأمور الموقوفة من ضياع وأملاك وحوانيت وتعدد المنتفعين من أئمة وخطباء وفقهاء ومدرسين وعلماء وطلبة ومؤدبين وقوام وفقراء»[٣].

وفي تلك العصر كما سبق وتكلمنا عنه يعتبر المسجد من أهم أنواع وأعظم معاهد الثقافة لدراسة القرآن والحديث والفقه وانصرف بعض طلاب العلم إلى المسجد كونه مكان للعبادة كانوا يتلقون تعاليمهم الدينية ـ والمكان الذي يؤم فيه الخليفة الناس في الصلاة: وكان مركزاً أيضاً لإدارة شؤون الدولة أو الولاية وفي المسجد تزاع القرارات الهامة التي تتعلق بالصالح العام.

والمسجد هو المكان الذي يتخذه علماء التفسير والحديث مقراً لهم وهو المعهد الذي يتلقى فيه الأطفال اللغة العربية وأصول الدين[٤].

وهو المكان الذي اتخذه القضاة لعقد جلساتهم. ولقد إتخذ بعض المساجد أماكن يلجأ إليها المسلمون ويصدون منها الأعداء.

وسرعان ما فقدت المساجد أهميتها وأقتصرت على إقامة الصلوات الخمس وذكر اسم الخليفة بالخطبة، وذلك بعد انتشار المعاهد والجامعات، على أن بعض المساجد ما يزال حتى الآن معاهد دراسية تدرس فيها العلوم الدينية. ويقوم بذلك أئمة المساجد.

---

(١) اسماء فهمي: مبادىء التربية الإسلامية ص٢٧.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج٣ ص٣٦٧.

(٣) ابن هشام: سيرته ص٢١٨.

(٤) احمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص١٠٢.

وبالجوامع تقوم الزاوية:

ومن معاهد العلم أيضاً: «الزاوية» وهي إتخاذ ركن من أركان المسجد للإعتكاف والتعبد وانشأوا لهم مساكن ملحقة بالمسجد ويعقدون فيها حلقات دراسية في علوم الدين وما يتصل به من العلوم النقلية والعقلية[١]. وكانت الزاوية تحل في أكثر الأحيان محل معاهد الربط والخانقاوات.

٤ ـ المساجد والجوامع:

المسجد هو البيت الذي يسجد فيه وكل موضع يتعبد فيه فهو مسجد ويقال مسجد الجامع، فالمسجد قد يكون صغير الحجم والمساحة والجامع مسجد عظيم يجمع المصلين أيام الجمع والأعياد وأول المساجد التي بنيت في الشام على ما يظهر كانت في البلدان التي سبق فتحها غيرها من أمهات المدن مثل مؤتة ـ والجرباء ـ واذرح ـ وفحل ـ واجنادين وبصرى. بقيت المساجد على حالة ابتدائية حتى تولى معاوية أمر الشام فأخرج المساجد من دور التأسيس ويدخلها في مظهر مدني فيه الجمال ظاهر. واختط سليمان بن عبد الملك لما ولي جند فلسطين مدينة الرملة واختط المسجد وبناه ثم أتمه عمر بن العزيز ـ وأكبر جامعين مسجد الجامع الأقصى وجامع دمشق (الأموي) ثم تعرض الجوامع لمصائب طبيعية. فالزلازل ضربت جوامع الساحل بأجمعها ـ كما تعرض لمصائب بشرية. كالحروب الصليبية وغيرت معالمها فأصبح القسم الأكبر منها كنائس ثم لما عادت البلاد لسلطان المسلمين أعيدت ـ وكان للملوك والأمراء يد طولى في كثرة المساجد ليكسب ود الشعب ويجاوره في أفكاره. ولنلقي نظرة سريعة على مساجد بلاد الشام ودور الجامع في تعليم أبناء المسلمين:

١ ـ مساجد حلب: في حلب اليوم ١٦٩ جامعاً و١٨٢ مسجداً وأعظمها المسجد الجامع مسجد زكريا في غربي القلعة، وقيل أن بانيه الوليد بن عبد الملك وكان عصر هذا الخليفة عصر بناء وعمران واشتهر ببناء المساجد والحصون والقلاع. وكان هذا الجامع من أحسن الجوامع وأجملها وكان فيه ما يتيف عن الخمسين باباً، ثم جامع الصالحين جنوبي المدينة انشىء سنة ٤٧٩هـ أنشأه أحمد بن ملكشاه[٢] وعدّ ابن الشحنة من أحسن الجوامع التي بنيت على أجمل الوجوه جامع منكلي بغا نائب حلب ٧٧٨هـ، وعدّ ابن شداد في باطن حلب ٢٠٠ مسجد وذكر المساجد التي بارباض حلب مائة مسجد وعشرة مساجد وذكر مساجد الرابية فعدها مائة وثمانية وستين مسجداً. والمساجد التي بالظاهرية فعدها تسعة وتسعين مسجداً وقامت في

---

(١) احمد بدران: مناومة الاطلال ص٢٩٩/٣.   (٢) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٤٩.

أنحاء حلب مساجد كثيرة منها مساجد قنسرين وانشأت في أنطاكية عدة جوامع أهمها جامع حبيب النجار والجامع الكبير. وأنشأت منذ الفتح جوامع في مدينة المعرة في أواخر منتصف القرن الخامس جامعها الأعظم: «إنه مبني على أكمة قامت وسط المدينة ومن أي جهة اتجهت إلى هذا الجامع عليك أن ترتقي سلماً ذات ثلاثة عشرة درجة»[١]. ومن الجوامع القديمة جامع أعزاز عرف بالجامع الكبير (٧٤٨).

٢ ـ مساجد الساحل وجوامعه: لما كانت مدن الساحل معرضة لهجمات الأعداء، وكانت الزلازل قد توالت عليها كثيراً وظلت مرسماً للجيوش الصليبية مدة قرنين أصاب الجوامع والمساجد فيها ما أصاب غيرها من الخسائر فليس في الإسكندرون اليوم سوى جامعين وكذلك الحال في السويدية واللاذقية والمرقب وطرطوس وجبلة وبانياس وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وصور وعكا وحيفا ويافا وغزة خربت جوامعها ومساجدها وعمرت غير مرة[٢].

وفي طرابلس عدة جوامع ومساجد ومعظمها من آثار المماليك البحرية والجراكسة ولم يزل حتى الآن كثير من قبول المماليك الرخام محفوظاً في المساجد التي أقاموها على الطراز المخصوص بهم. ومن أعظم جوامع هذا الثغر (طرابلس):

- الجامع الكبير: بناه السلطان صلاح الدين خليل الأشرفي ٦٩٣هـ.
- جامع طينال: وتسمية العامة طيلان بناه سيف الدين طينال ٧٣٦هـ.
- جامع ارغون شاه: على الطريق الآخذة لجبانة باب الرمل ٨٨٠هـ.
- جامع التوبة: وهو على نهر ابي علي بناه المماليك وجدد ١٠٢٠هـ.
- جامع المعلق: بني على أيام الدولة العثمانية سنة ٩٦٧هـ.
- جامع عبد الواحد: بني على أيام السلطان قلاوون ٧٠٥هـ.
- وفي جبيل جامع قديم اتخذ جامعاً بعد الحروب الصليبية.

ـ وفي بيروت فيها جوامع صغيرة بعد الفتح ولم تكن بالثغر العظيم ولم يكن للمسلمين جامع فيها أيام استيلاء الصليبيين عليها.

ـ وفي صيدا سبعة جوامع ومساجد أهمها الجامع الكبير (جامع يحيى).

ـ وفي صور جامع واحد وفي عكا بضعة جوامع أهمها تجامع الجزار وفي حيفا عدة جوامع ومساجد وفي يافا عدة مساجد وجوامع قديمة. وفي غزة عدة جوامع قديمة وحديثة.

---

(١) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٥١.

(٢) محمد كرد علي: خطط الشام ج٦ ص٥١.

جوامع المدن الداخلية:

ـ وفي الخليل جامع فيه مقام الخليل إبراهيم في مغارة تحت الأرض ومن المباني القديمة مقام الخليل عليه السلام طوله ثمانون ذراعاً وعرضه خمسون ذراعاً[١].

ـ وفي القدس عدا المسجد الأقصى ثمانية جوامع.

ـ وفي الرملة عدة جوامع ومساجد.

وكانت المدن القديمة غاصة بالجوامع مثل قيسارية وآرسوف وطبرية وفي صفد عدة جوامع وفي قلعة الشقيف بني الظاهر بيبرس جامعاً وكانوا يقيمون الصلوات في القلاع كما بنوا جوامع لهم في قلعة دمشق وفي قلعة حلب وفي صرخد عمّر الظاهر بيبرس جامعاً وكذلك فعل في بصرى وعجلون والصلت وفي عمان... كذلك لا تخلو أكثر قرى المتاولة (الشيعة) في جبل عامل من مساجد صغيرة ما يسمونه (حسينية) نسبة للحسين بن علي رضي الله عنهما.

وكذلك الجوامع في حمص وكانت مهمة للغاية وذلك «من عجائب بنيان العالم»[٢]. وفي حماة ٣٤ جامعاً و ١١ مسجداً وأهمها الجامع النوري بناه نور الدين زنكي (سنة ٥٥٩هـ ومنها جامع أبي الفدا وجامع السلطان في محلة الدباغة.

جوامع دمشق:

إذا صرفنا النظر عن الكلام على الجامع الأموي مفخرة دمشق على توالي الأيام والمعدود من المصانع العظيمة في العالم وعمدنا إلى تعداد بعض جوامع العاصمة ومساجدها حسب إحصاء ديوان الأوقاف ٥٨ مسجداً[٣] وجامعاً نجدها تتناقص عما كانت عليه أيام المماليك فقد أوردها النعيمي بكتابة الدارس ٣٩٧ مسجداً. وهذه أسماء بعضها[٤].

١ ـ مسجد القسطين.
٢ ـ مسجد الصهرجتي.
٣ ـ مسجد ابن طغان.
٤ ـ مسجد العجمي.

٢٢ ـ مسجد الجلادين.
٢٣ ـ مسجد الكف.
٢٤ ـ مسجد ابن المقانعية.
٢٥ ـ مسجد الزبيب.

(١) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٥٥.
(٢) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٥٩.
(٣) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٦٢.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٢٣٣ ـ ٢٨٣.

٥ ـ مسجد الأمير حسن.
٦ ـ مسجد ابن البيطار.
٧ ـ مسجد ايمن.
٨ ـ مسجد ابن حميد.
٩ ـ مسجد ابن هشام.
١٠ ـ مسجد ابن حفاظ.
١١ ـ مسجد الفرجة.
١٢ ـ مسجد النرجة.
١٣ ـ مسجد الديوان.
١٤ ـ مسجد القلانسيين.
١٥ ـ مسجد ارماحين.
١٦ ـ مسجد ابن العميد.
١٧ ـ مسجد الجلادين.
١٨ ـ مسجد ابن القصيفة.
١٩ ـ مسجد ابن ابي العود.
٢٠ ـ مسجد القطانين.
٢١ ـ مسجد المزين.
٢٦ ـ مسجد ابن العرباض.
٢٧ ـ مسجد ابن عنقود.
٢٨ ـ مسجد الطباخين.
٢٩ ـ مسجد الحدادين.
٣٠ ـ مسجد سوق اللؤلؤ.
٣١ ـ مسجد سوق الطير عدد(١)
٣٢ ـ مسجد دار البطيخ.
٣٣ ـ مسجد الإجابة.
٣٤ ـ مسجد الخشابين.
٣٥ ـ مسجد السكاكينين.
٣٦ ـ مسجد التاشي.
٣٧ ـ مسجد الكشك.
٣٨ ـ مسجد دوس.
٣٩ ـ مسجد صدقة.
٤٠ ـ مسجد التلاج.
٤١ ـ مسجد عقيل.

وهناك مسجد الشهرزوري ـ ومسجد كليلة ومسجد درب الحجر ومسجد ابن الحسطاء ومسجد ابن الأعمى ومسجد موسى الكروي ـ ومسجد الوزير ومسجد ابن يافي ومسجد الحراقلة ومسجد النيبطون ومسجد ابي الصرف ومسجد ابن عطاف ومسجد الظلم ومسجد صعلوك ومسجد النوري ومسجد الغراف ومسجد ابن عمير ومسجد ابن الذاش ومسجد ابن البياغه ومسجد الشريف ومسجد ابن عوف ومسجد فيروز ومسجد الأذوعي ومسجد ابن خمار ومسجد العباسي ومسجد خواجا يعقوب ومسجد رحبة البصل ومسجد نميس ومسجد الرأس ومسجد عمر ومسجد باب الفراديسي ومسجد ابن عبدان ومسجد درب العميان ومسجد عائشة ومسجد حجر الذهب ومسجد عطية ومسجد الضحال بن قيس ومسجد شجاع ومسجد عبد الملك ومسجد العناية ومسجد الصفصافة ومسجد السماقة ومسجد كنانة ومسجد عطاء ومسجد ابي صالح ومسجد خالد بن الوليد ومسجد الأوزاعي ومسجد الكنيسة ومسجد التبكير ومسجد السبعة انابين ومسجد النبي ومسجد القاعة ومسجد العصب ومسجد

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٢٣٣ ـ ٢٨٣.

القجمي ومسجد النحاس ومسجد الجوزة ومسجد الزيتونة ومسجد ام البنين ومسجد مغارة الدم ومسجد بروس ومسجد ارزه ومسجد الكهف ومسجد الشاطبي ومسجد النيرب ومسجد المرج ومسجد البسطامي ومسجد الريس ومسجد الديلمي ومسجد زمرد خاتون ومسجد معاوية ومسجد منصور المؤذن ومسجد الكرامية ومسجد الكشك ومسجد الحجر ومسجد الحديد[1] ومسجد كالمدرسة تمّ بناؤه من قبل أشخاص أو الدولة ووقفوا عليه أراضي كثيرة لتقوم بالمصارف لتغطي نفقات العاملين والمدرسين..

وتعتبر الترب والمساجد هما أول مدرسة بدائية كان يجتمع فيهما طلاب المسلمون ليأخذوا تعاليم دينهم ومعتقداتهم ويبدأون الكتابة والقراءة وكان الجامع ملتقى الفكر والأدب ورجال السياسة والقانون ومنه تؤخذ قرارات الحرب ومركز السلطان والأمراء والقادة ومنه يعطوا القضاة أحكامهم في أمور الميراث والطلاق ـ وقد لعب المسجد دوراً مهماً على كل صعيد حتى تطور التعليم وانتقل منه إلى المدرسة التي أصبحت حاجة ملحة لكثرة القادمين على التعليم ولتكاثر المدارس لا زال الجامع يأخذ دوره وله طلابه. وله نفقاته من مال الوقف والواقفين لأن الوقف يعتبر عصب الحياة للمؤسسات التعليمية في الدولة الإسلامية.

٥ ـ المكتبات العامة والخاصة:

إننا لا نستطيع أن نحكم على العصور التي سبقت الإسلام في الشام في أمر الكتب والخزائن فلا إنطاكية نطقت بما كان فيها من علوم القدماء وانتقلت إليها من حران والإسكندرية، ولا بيروت ولا مدارس التعليم التي كانت فيها قبل الإسلام. فإن أخبارها بين المدينتين إنطاكية وبيروت إنطمست منذ القديم كما إنطمست معالمها بالزلازل المدهشة التي قضت على دور العلم فيهما، وثبت أن العرب لم يدونوا في الجاهلية شيئاً من مآثرهم بالعربية ولكنهم كانوا أول من أسرع إلى التدوين خارج جزيرتهم ولا سيما في العراق والشام أوائل الإسلام.

ومن أهم الكتب القديمة في الشام مصحف سيدنا عثمان الذي أرسله عام ثلاثين للهجرة إلى دمشق ليكون الإعتماد عليه كما أرسل مثله إلى الأمصار وكثرت النسخ بعد ذلك.

وثبت أن أول خزانة كتب في الإسلام إنشئت في دمشق أو في حلب أنشأها حكيم آل مروان خالد بن يزيد الأموي المتوفي سنة خمس وثمانين للهجرة. ولا شك

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٢٣٣ ـ ٢٨٣.

أنها كانت تحوي بعض العلوم التي نقلها من القبطية واليونانية والسريانية، في الكيمياء والطب والنجوم (الفلك) وفيها كتب من الجغرافيا وقد ورد في سيرة الزهري المتوفي سنة (١٢٤هـ) أنه كان إذا جلس في بيته وضع كتبه حوله مشتغلاً بها عن كل أحد «فقالت له زوجته يوماً: والله لهذه الكتب أشدّ علي من ثلاث ضرائر»[١].

ولم يعرف قبل عهد الرشيد والمأمون أن جمعت الكتب في خزانة وسميت دار الحكمة أو بيت الحكمة أو بيت المعرفة وكانت أشبه بجامعة فيها دار كتب يجتمع فيها رجال يتفاوضون ويطالعون وينسخون ويدير شؤون تلك الدور من يثق الخليفة بعقلهم وأمانتهم وعلمهم وظل بيت الحكمة في القرنين الرابع والخامس في بغداد مفتح الأبواب.

وأنشأ أحد الوزراء بالدولة العباسية في بغداد أبو نصر سابور بن أردشير في القرن الخامس داراً بالكرخ (دار علم) وقفها على العلماء ونقل إليها كتباً كثيرة، وأنشأ الفاطميون في القاهرة دار العلم في القرن الرابع الهجري ولم تعهد بلاد الشام دار حكمة إلا في القرن الخامس أنشأها بنو عمار في طرابلس وكانت تقدر كتبها بألف ألف كتاب. وقد زارها أبو العلاء المعري وأنتفع بخزانتها وكتبها الموقوفة، وكانت بجامع حلب خزانة كتب مهمة أسمها خزانة الصوفية. وقد ظلت هذه الخزانة في حلب عامرة إلى القرن السابع الهجري وهي مسبلة على المطالعة ولم يعلم إذا كانت هذه الخزانة قد أنشأها سيف الدولة الحمداني أولاً.

وقد قلّت عناية الملوك بخزائن الكتب لما كثرت المدارس في هذه الديار في القرن الخامس «إكتفاء بخزائن كتب المدارس التي أثبتوها بحيث أنها بذلك أمس»[٢] ولم تكد تخلو مدرسة من المدارس في بلاد الشام من خزانة كتب، وكان لحلب ودمشق والقدس الحظ الأوفر من ذلك لو لم تنازعها طرابلس وساعد على كثرة الكتب في طرابلس ما كان فيها من معمل الورق الجيد. ومن أشهر خزائن الملوك والأمراء في القرن السادس والسابع خزانة الكتب التي وقفها بحلب نور الدين محمود بن زنكي على مدرسته ثم وقف كتبه على أصحاب الحديث توفي سنة (٥٥٣هـ) ووقف على اليمارستان الذي أنشأه بدمشق جملة كثيرة من الكتب الطبية كما وقف كتباً كثيرة على أهل العلم في أرجاء مملكته.

وأعطى صلاح الدين يوسف المؤدب ولده الأفضل أبي سعيد البندهي كتباً كثيرة من خزانة كتب حلب أباح له أن يأخذ منها ما شاء وهذا جمعها وحصل من الكتب التي لم تحصل لغيره ووقفها بخانقاه السميساطي بدمشق، ومن الخزائن التي كانت

(١) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٨٥. (٢) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٨٦.

بالشام خزانة علي بن طاهر السلمي النحوي كانت له حلقة بالجامع بدمشق ووقف فيه خزانة كتب، وكان لتاج الدين الكندي في الجامع الأموي خزانة كتب فيها كل نفيس، ووقف شرف الدين بن عروة الموصلي المنسوب إليه مشهر ابن عروة في الجامع الأموي خزائن كتبه فيه[1].

ومات موفق الدين ابن المطران وفي خزانته من الكتب الطبية وغيرها ما يناهز عشرة آلاف مجلد خارجاً عما استنسخه وكان في خدمته ثلاثة نساخ يكتبون له أبداً وله منه الجامكية والجراية، وكان مهذب الدين الدخوار صاحب مدرسة الطب بدمشق من أهل القرن السابع أقتنى كتباً كثيرة وأقتنى من آلات النحاس التي يحتاج إليها في علم الهيأة والنجوم ما لم يكن عند غيره، أي أنه كان عنده مرصد فلكي وخزانة كتب.

ومن الخزائن في هذه الحقبة خزانة ناصر الدين العسقلاني ٧٢٣هـ، فقد خلف ثماني عشرة خزانة مملوءة كتباً نفيسة. وأقتنى ابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية خزانة مهمة وملك عمر القرشي الدمشقي ٧٩٢هـ، من نفائس الكتب شيئاً كثيرة، وحصل شمس الدين المبعلي كتباً وكتب بخطه المليح شيئاً كثيراً ٧٧٤هـ[2]. وكانت خزانة أرغون نائب حلب ٧٣١هـ، عامرة بالكتب النفيسة ومن الخزائن المشهورة خزانة ابن فضل الله العمري وابن مالك النحوي وابن خلكان المؤرخ.

وبعد فقد كانت الوراقة أو صفة الكتب من نسخ وتجليد وتذهيب صناعة رائجة ومن أهم الصناعات في العهد القديم، والناسخ يرزق بقدر إجادته الخط أو الخطوط التي يعرفها ويحسنها، وكذلك المجلد والمذهّب يكافأ واحد منهما بحسب غنائهما. وكان كثير من العلماء يكتبون الخط المنسوب أي الخط ذا القاعدة وينسخون نسخاً لا بأس بها ويعيشون من نسخهم أو الإتجار بالكتب وكان في كل حاضرة من حواضر الشام سوق لبيع الكتب يختلف إليه العلماء والأدباء، ومن العلماء من نسخوا المئة بل المئات من الكتب ومنهم من نسخ ألف مجلد في حياته. وقد جاء زمن على دمشق من القرن السابع إلى القرن الحادي عشر وكل مدرسة من مدارسها الكثيرة، لا تخلو من خزانة وافية يستفاد منها المعلم والمتعلم، ومن أهم المدارس التي حوت خزائن ذات شأن هي: المدرسة العمرية، والعروية والنصارية والعادلية، والأشرفية، وجاء في فتاوي السبكي صك وقف دار الحديث الأشرفية هذا: «ويصرف إلى خازن الكتب ثمانية عشر درهماً في كل شهر وعليه الإهتمام بترميم الكتب، وإعلام الناظر أو نائبه ليصرف فيه من فعل الوقف ما يفي بذلك، وكذلك إذا مست الحاجة إلى تصحيح كتاب أو مقابلته. وجاء فيه: وجعل جزءاً من الوقف يصرف على مصالح المدرسة

---

(١) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٨٧. (٢) محمد كردعلي: خطط الشام ج٢ ص١٨٨.

النورية ومن ذلك أن يصرف في شراء ورق وآلات نسخ من مركب (حبر) وأقلام ودوي ونحو ذلك ما يقع به الكفاية لمن ينسخ في الديوان الكبير أو قبالة الحديث أو شيئاً من علومه أو القرآن العظيم أو تفسيره، ويصرف إلى من يكتب في مجالس الإحلاء، وإلى من يتخذ لنفسه كتباً ولا يعطي من ذلك إلا لمن ينسخ لنفسه لغرض الإستفادة والتحصيل دون التكسب والإنتفاع بثمنه. قال: وللشيخ الناظر أنه يستنسخ للوقف أو يشتري ما تدعو الحاجة إليه من الكتب والأجزاء ثم يقف ذلك أسوة ما في الدار من كتبها"[1].

وكان رهبان الموارنة في لبنان منذ القرن الخامس عشر يصرفون أوقات فراغهم في نسخ المخطوطات الدينية والعلمية وكان بعض بطاركتهم وأساقفتهم يحملون الشمامسة الرهبان وغيرهم على نسخ الكتب يزودون بها مجاميع الأديار والبيع في الجبل ويتقبلون في ذلك مثال أخواتهم علماء المسلمين في المدن. وبهذه الطريقة كانت تنمو الكتب والأيدي تتناولها على أيسر وجه كأنها بعض المقدسات. وكان القوم كانوا يتعبدون الله بحفظها وإحاطة الأذى عنها وتجليدها وتخليدها، ووضع الفهارس لها بحسب عرفهم لها في تلك الأيام، يتخيرون لها ما يبقى ويخلد طويلاً من الورق المتين والمركب الجيد والجلد النفيس الجيد الدبغ لتدركها، والنادر موضع وهو خليق بأن تشد عليه يد الضنانة وتحتفظ النفوس به وتختبط بتعاور الأيدي عليه من دون أن يناله سوء من عوادي الدهر.

ونجد بالأصل هناك مكتبات خاصة ومكتبات عامة فالمكتبات الخاصة هي ملك أفراد ومكتبات عامة هي ملك الجميع. فأكثر المكتبات الخاصة يقفها أصحابها إما للمدارس والمساجد لينتفعوا من قراءتها الطلاب والمدرسون وتصبح في عداد المكتبات العامة. وهذه خير طريقة تحفظ بها ثمالة تركة السلف الصالح أن يعمد كل من حوت رفوفهم وخزاناتهم كتباً إلى كتبهم المخطوطة فيودعوها في الخزائن العامة لأنها أقل عرضة للحريق والتلف، ولكارثة أو وارث، وأن يستعاض عنها بالكتب المطبوعة في الخزائن الخاصة، وتجعل المخطوطات ملك الجماعات يرجع إليها العلماء الباحثون، وتسبّل عليهم وبذلك يزيد النفع منها ويحيا بالطبع والنشر ما لم تساعده الحال أن يعرف كيف. وبذلك تجتمع فائدتان بذلك.

ـ **الفائدة الأولى**: الإنتفاع بما كتبه أسلافه الصالحون في شؤون الدنيا والدين.

ـ **الفائدة الثانية**: حفظ هذا الكنز العظيم من التلف والضياع. ولا قيمة لأمة بدون تراث وثقافة وتاريخ.

---

(١) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٩٠.

٦ ـ الترب في بلاد الشام:

إن أكثر مراقد العظماء من الصحابة والتابعين والعلماء العاملين والزهاد أشبه بزوايا وتكايا يقصدها الناس للزيارة والتبرك وإن كان منها ما لم يثبت إن فلاناً بعينه. فمن المقامات والمزارات قبر يحيى بن زكريا والحسين بن علي في الجامع الأموي بدمشق وقبر صلاح الدين يوسف بن أيوب شمالي هذا الجامع ومقام زين العابدين وبلال الحبشي، وخديجة ورقية وأم كلثوم وأم حبيبة وزينب الكبرى والسيدة سكينة في مقبرة باب الصغير بدمشق وقبر أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل في الغور، ومقام جعفر ابن أبي طالب وعبدالله بن رواحة وزيد بن حارثة قرب قرية مؤتة في المزار من عمل الكرك[١].

ومقام الأوزاعي في بيروت ومقام يوشع وشمعون من صور ومقام هارون ويعقوب في صفد ومقامات صالح وأبي عتيبة في عكا ومقامات العزيز ولوط ويونس في الناصرة ومقامات يعقوب وأولاده في نابلس ومقامات زكريا ويوسف وأنبياء بني اسرائيل وغانم المقدسي في المشاريق ومقامات خالد بن الوليد وعمر بن عبد العزيز وأبي إمامة الباعلي وأبي ذر الغفاري في حمص ومقامات الشيخ أبي الليث السمرقندي والشيخ علوان في حماة كما أن للخضر عدة مقامات في كثير من الأرجاء ويشترك في تعظيمها النصارى والمسلمون غالباً. ومما ذكره ابن الشحنة من المقامات القديمة في حلب مسجد النور بالقرب من باب قنسرين كان أبو نمير عبدالرزاق بن عبد السلام يتعبد فيه تُنذر له النذور ويزار، وهناك مقام إبراهيم الخليل في قرية نوابل كلتاهما من عمل حلب[٢].

ومعظم هذه المزارات ما زالت معروفة يختلف إليها الناس وقام عليها شبه زوايا أو تكايا يقيمون الدروس ويؤدون الفروض.

وفي عبيه من شوف لبنان مزار الأمير جمال الدين عبدالله التنوخي يزوره معظم الطوائف الإسلامية وعليه مدرسة.

وإذا كان للتربة دور ثقافي وتعليمي ففي مدينة دمشق وحدها حوالي مئة وثلاث وثلاثون تربة بالعصر المملوكي. وكل تربة بها دور قرآن أو دور حديث وفيها العالم والمتعلم كما فصلها لنا النعيمي في كتابة الدارس في تاريخ المدارس[٣] وهي الآتي أهم أسماؤها:

١ـ التربة الأسدية. ٢ ـ التربة الإفريدونية.

---

(١) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٥٤. (٢) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٥٥.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٧٥ ـ ٢٣٢.

٣ ـ التربة الأيدمرية .
٤ ـ التربة الأكزية .
٥ ـ التربة الأستدارية .
٦ ـ التربة البزورية .
٧ ـ التربة البهادرآحية .
٨ ـ التربة البلبانية عدد (٣) .
٩ ـ التربة البصية .
١٠ ـ التربة البدرية عدد (٢) .
١١ ـ التربة الهنسية .
١٢ ـ التربة الناصرية .
١٣ ـ التربة البهائية .
١٤ ـ التربة التكرينية .
١٥ ـ التربة التنكرية .
١٦ ـ التربة الثوريزية .
١٧ ـ التربة الجمالية عدد (٢) .
١٨ ـ التربة الجو كندارية .
١٩ ـ التربة الحافظية .
٢٠ ـ التربة الخطابية .
٢١ ـ التربة الخاتونية .
٢٢ ـ التربة الروباجية الجيلانية .
٢٣ ـ التربة الرحبية .
٢٤ ـ التربة الزاهرية .
٢٥ ـ التربة السنقرية الصلاحية .
٢٦ ـ التربة السلامية .
٢٧ ـ التربة السنبلية .
٢٨ ـ التربة الشهيدية .
٢٩ ـ التربة الشهابية .
٣٠ ـ التربة الشرابيشية .
٣١ ـ التربة الصوابية .
٣٢ ـ التربة الصارمية .
٣٣ ـ التربة العزية .
٣٤ ـ التربة العديمية .
٣٥ ـ التربة العمادية .
٣٦ ـ التربة العادلية (٢) .
٣٧ ـ التربة الغرلية .
٣٨ ـ التربة القراجية الصلاحية .
٣٩ ـ التربة القيمرية .
٤٠ ـ التربة القطينية .
٤١ ـ التربة الكمارية .
٤٢ ـ التربة الكركية .
٤٣ ـ التربة الكوكباتية .
٤٤ ـ التربة الكندية .
٤٥ ـ التربة الكاملية عدد (٢) .
٤٦ ـ التربة المختارية الطواشية .
٤٧ ـ التربة المؤيدية الشيخية (٢) .
٤٨ ـ التربة المراغية .
٤٩ ـ التربة الكبائية .
٥٠ ـ التربة المزلقية .
٥١ ـ التربة الملكية الأشرفية .
٥٢ ـ التربة المحمدية الأمينية العيشية الأنصارية .
٥٣ ـ التربة المنجكية .
٥٤ ـ التربة النجمية .
٥٥ ـ التربة الشابية .
٥٦ ـ التربة اليونسية عدد (٢) .

ودائماً ما تكون المقابر في المساجد لرجالات عظام في أمور الدنياوالدين وهذا تاج الأمناء أبو الفضل أحمد بن حمد بن عساكر جدّد مسجد القدم في سنة سبع عشرة وخمسمائة وفيه قبره وقبر أمه ودفن هناك طائفة كبيرة من العلماء[1]. ولعبت هذه الترب دوراً هاماً في التعليم الديني كما لعبت باقي المدارس في بلاد الشام.

٧ ـ منازل العلماء ومجالس العلم، والجمعيات العلنية والسرية:

لقد ساهمت منازل العلماء بنصيب كبير في الحركة التعليمية عند العرب المسلمين فعلى الرغم من توافر الأوعية الثقافية المتخصصة في التعليم والتثقيف، وامتياز التعليم فيها بالسهولة والمرونة، وعدم تقيدمها بمكان معين سواء كانت مساجد أو مدارس أو كتاتيب أو دور علم أو مكتبات إلى غير ذلك، فقد عقدت الحلقات العلمية في بيوت العلماء وقصور الخلفاء والسلاطين يحضرها الطلاب والراغبون في العلم يصنفون ويكتبون عن الأساتذة والأطباء والفلاسفة والأدباء، ويستمتعون بالمناظرات والمناقشات الدينية والعلمية والطبية.

«ولم يقنعوا بأنهم بشر لهم حاجاتهم الخاصة ولهم شؤونهم ومطالبهم التي يجب أن يلتفتوا إليها خارج قاعات العلم، وأن وقتهم كله فيما عدا ساعات النوم قد جعلوه للتعلم والتعليم ومن هنا وجدناهم يتخذون من بيوتهم أيضاً أماكن يتجمع فيها حولهم مريدو العلم وطلاب المعرفة لينهلوا المزيد، فالعقل الإنساني نهم لا يشبع وخاصة في المعرفة بل أنه يشعر بالجوع كلما زودناه بالزاد»[2].

ولما كان البيت مكاناً خاصاً يحس رواده بالوحشة والإنقباض تطلب ذلك من صاحبه أن يتسم بالخلق الحسن من مقابلة لرواده بالبشاشة والترحيب وإشعارهم أنهم يعيشون اسرة واحدة، وكذلك فإن للبيت حرمته مما يتطلب من رواده الخلق الكريم والوقار والهدوء، وإن البعض لا يجدون الراحة واليسر في التوفيق بين هدوء المنزل وجلاله وبين حلقة الدرس وما تستدعيه من حركة ونشاط. وقد شرح العبدري بذلك: «إن المنازل مكان للدرس عند الضرورة»[3].

وكان للتعليم في المنازل بعض الفوائد حيث أتاح الفرصة أمام الطلبة لدراسة علوم قد لا تدرس في المدارس كالرياضيات والفلسفة والمنطق... وكذلك استفاد منه بعض المدرسين وبخاصة إذا قاموا بتدريس بعض أبناء رجال السلطة مما يوصل المعلم بواسطتهم إلى بعض الوظائف التي يرغبون فيها. تميز هذا النوع من التعليم

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٢٣٢.

(٢) سعيد اسماعيل علي: معاهد التربية الإسلامية ص٥١٣.

(٣) العبدري: المدخل ج٢ ص٩٧.

«بحرية أكثر عن الدراسة في المدارس نظراً لأن الطالب يختار له العلوم التي تناسبه كذلك كان يختار المدرس أو المؤدب ذا الشهرة العلمية والخلقية كما أنها غير مقيدة بالإقامة في المدارس والتردد عليها في الأوقات المعينة للدراسة»[١].

لم تكن الديانة عائقاً بالنسبة لمزاولة المعلم هذه المهنة الحرة فكان بعض الناس يحضرون معلمين نصارى لتعليم أبنائهم العلوم الدنيوية.

ويبدو أن الوزراء والحكام كانوا يعطفون مادياً وأدبياً على أصحاب هذه المنازل. لقد كانت مجالس العلم والمناظرة وسيطاً تربوياً هاماً أسهم مساهمات رائعة فيما قدمه للتربية الإسلامية ولفكرها التربوي على وجه العموم. خاصة وأن هذه المجالس كان ميدان عملها واسعاً بحيث تطرق إلى مجالات مختلفة من الثقافة الإسلامية من تفسير وحديث وتشريع ولغة وأدب وفلسفة.

ولقد انتشرت هذه المجالس بشكل واسع «يتذاكرون أصناف العلوم وما كان مجلس يخلو من علماء أو عالم، ينصت الحضور له، ويأخذون عنه ومنهم من كان يستصحب العلماء في غزواته أو يصحب أحمالاً من الكتب في رحلاته، لأن نفسه تعظم عن كل شيء إلا عن الأبحاث العلمية وغيرها»[٢]. «وكانت هذه المناظرات والبحوث فرص عديدة للنمو الثقافي واحتكاك الأفكار وتبادل الآراء، وفي هذا تعليم مفتوح يقوم على مراعاة المواهب وتنوع القدرات، ويسهل طريقه إلى القلوب والعقول معاً»[٣].

ويشبه عمل هذه المجالس عمل المجامع العلمية أو معاهد التخصص أو دور النشر في أيامنا هذه. ولقد تكونت الجماعات من مجموعة من العلماء «تلتف حول أكثرهم علماً وأغزرهم مادة ويؤلفون وحدة واحدة يكمل بعضهم بعضاً، حيث يتباحثون ويتناقشون فيما يعرض لهم من مسائل وأمور، ويمكن أن نعتبر جماعة أخوان الصفا إحدى هذه الجماعات العلمية إلا أنها جماعة عمدت إلى الإستار والتخفي نتيجة أسباب عديدة»[٤]. وسعت هذه الجمعية لكسب الأنصار... وسهلت لهم الإطلاع على خفايا الشرائع.

٨ ــ الصالونات الأدبية:

يبدو أن الصالونات التي ظهرت بسيطة في العصر الأموي، وأنتشرت غنية في

(١) عبد الغني عبد العاطي: التعليم في مصر زمن الايوبيين والمماليك ص٣٠٧.
(٢) محمد كردعلي: الإسلام والحضارة العربية ج١ ص١٩٣.
(٣) سعيد اسماعيل علي: معاهد التربية الإسلامية ص٤٩٦.
(٤) ناديا جمال الدين: فلسفة التربية عند اخوان الصفا ص٧٣.

العصر العباسي. فالخليفة في الإسلام كان ينظم أعمال الدنيا ويفتي في شؤون الدين كان من أهم شروطه العلم المؤدي إلى الإجتهاد[١]. أما الصالونات الأدبية فقد وضحت فيها التقاليد والحضارات الأجنبية التي اقتبسها الخلفاء العرب من الممالك العظيمة التي خضعت لسلطانهم فأصبح الصالون يؤثث أثاثاً رائعاً تحدث عنه ابن عبد ربه[٢]، والمقري[٣]، والمقريزي[٤].

ولم يكن الصالون يستقبل كل الراغبين وإنما كان يسمح لطبقة معينة من الناس بالدخول[٥] وهناك قصر سيف الدولة الذي يحدثنا عنه (Gibf-Prefessor) فيقول: «وأنتقل تيار الأدب العربي إلي مدينة حلب عاصمة الدولة الحمدانية وأستطاع سيف الدولة أن يجمع حوله، بفضل كرمه الفائق، ذوو الرياسة من أدباء العصر وعلمائه فأحاطوا اسمه بإطار من السمعة الخالدة»[٦]. ورتب يعقوب بن كلس مجلساً في داره في يوم الثلاثاء من كل أسبوع يجتمع فيه العلماء والفقهاء والقضاة وتجري بينهم المناظرات وتصرف لهم المنح والأرزاق[٧].

وكانت طرابلس مدينة العلماء وملتقى الأدباء إذ اجتذبت مكتباتها ومدارسها كثيراً من طلاب العلم وأكتظت المدينة في عهد بني عمار كثيراً من العلماء والأدباء والشعراء وقصدهم الطلبة من كل حدب وصوب ليأخذوا عنهم ما يعلمونه[٨]، «وتعتبر المجالس التي كان يدور فيها التعليم الديني، وخاصة علم الحديث هي أكثر المجالس التي شهدتها طرابلس في العصر الإسلامي عدداً وكثافة وهذا ما يلاحظ من مطالعتنا لتراجم أعلام طرابلس في تلك الفترة إذ تأتي طبقة المحدثين في مقدمة الطبقات الأخرى. لذا فإن علم الحديث كان يأتي في طليعة العلوم الأخرى لأن الحديث هو المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن[٩].

وكان بين سلاطين الأيوبيين ووزرائهم سادة وأعلام لهم قدم راسخة من العلم والفضل. من أمثال المعظم عيسى ملك دمشق وفلسطين وفرخشاه بن شاهنشاه وهذا الأخير أعجب بتاج الدين الكندي وأصرّ أن يأخذه ليه ليكون زينة صالونه[١٠].

---

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٥.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٤ ص١٠١ ـ ١٠٨.

(٣) المقريزي: نفح الطيب ج٢ ص١٢٨.

(٤) المقريزي: الخطط ج٢ ص٣٨٥ ـ ٣٨٦.

(٥) الجاحظ: التاج ص١١.

(٦) Gibf Professor: Arabic litteratur p.61.

(٧) المقريزي: الخطط ج٢ ص٣٤١.

(٨) الدكتور تدمري: الحياة الثقافية في طرابلس ص٢٦.

(٩) الدكتور تدمري: الحياة الثقافية في طرابلس ص٣٤.

محمود دهان: المقصورة الناجية ص١١.

(١٠) عبد الوهاب عزام: مطبعة لجنة التأليف بالقاهرة سنة ١٩٤١.٢. ـ أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٩٦.

وقد ظل نشاط الصالونات الأدبية واضحاً في عهد المماليك وأن الدكتور عبدالوهاب عزام جمع نخبة ونشرها من «مجالس السلطان الغوري»[(١)].

٩ ـ البادية:

تركزت ثقافة العرب في العهد الجاهلي في الأدب العربي من شعر ونثر وخطابة فكان الرجل يُعدُّ مثقفاً ما كان شاعراً جزلاً أو ناثراً حكيماً أو خطيباً مفوهاً ثم جاء الإسلام وكانت اللغة العربية تسير مع جيوش المسلمين فكان انتصار الجيش يتبعه انتصار اللغة، ثم أصبحت عواصم الأمبراطورية دمشق ثم بغداد مدناً عامة يهرع الناس لها من كل فج. وحفلت مدن أخرى كالكوفة والبصرة بعددٍ كبير من الأجانب[(٢)].

ويعطينا ابن النديم فكرة واضحة عن البدو الذين جاءوا الحضر وأتخذوا التعليم مهنة لهم ومن هؤلاء ابو البيدا الرياحين[(٣)] وأبو جاموس ثور بن يزيد الذي تعلم الفصاحة منه عبدالله ابن المقفع[(٤)].

وبينما قنع بعض الناس بالجلوس إلى البدو في القرى والمدن ليتعلموا منهم نجد آخرين لا يكتفون بذلك وإنما يهجرون الحضر ويضربون في البادية ليتعلموا اللغة من منبعها الأصيل وليتحاشوا سماع لغة المولدين والبلديين وعلى هذا نجد البادية في القرنين الأولين للهجرة تقوم بدور المدرسة في الوقت الحاضر ويقول (Hitti) في ذلك: «إن صحراء سوريا كانت مدرسة الأمراء الأمويين فإليها أوفد هؤلاء ليتعلموا اللغة الفصيحة النقية وليتذوقوا فنون الشعر والأدب»[(٥)]. ولم تكن الصحراء مدرسة الأمراء فحسب وإنما قصدها عدد كبير من العلماء الأعلام نذكر منهم: الخليل بن أحمد (١٦٠هـ)، بشار بن برد (١٦٧هـ)، الكسائي (١٨٢هـ)، الشافعي(٢٠٤هـ)[(٦)]. وكان الذين يغدون إلى البادية يتعلمون من جمهرة الناس إذ أن اللغة الفصحى كانت وحدها اللغة المستعملة في هذه البقاع حتى وصلت اللغة نقية يتقنها مدرسو المدارس المملوكية في جميع المدارس الشامية على طلابهم حتى برعوا بعلوم الدنيا والدين.

١٠ ـ التعليم بالقصور:

كان من الجلي الواضح عند المسلمين أن يتلون مناهج التعليم تبعاً لمستقبل المتعلمين وما ينتظرهم من مهام[(٧)]. وفي ضوء هذه الفكرة وجد نوع من التعليم

---

(١) Wellhausem: Arab Kingdom and its fall p.71.

(٢) ابن النديم: الفهرست ص٦٦.

(٣) ابن النديم: الفهرست ص٦٧.

(٤) Hitti: History of the Arabs. p.253.

(٥) ياقوت: معجم الأدباء ج٦ ص٣٦٩.

(٦) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج١ ص٢٦٣.

(٧) ابن خلدون: المقدمة ص٢٣٩٩. ـ البيهقي: المحاسن والمساوىء ص٦١٧.

الإبتدائي بقصور الخلفاء والعظماء يجد أبناء هؤلاء ما يؤهلهم لتحمل الأعباء التي سينهضون بها في المستقبل، ولكن التعليم بالقصور يجاوز هذا الحد، فالمنهاج هنا يضعه أو يشارك الأب في وضعه ليكون ملائماً لأبنه.

ومن أحسن المناهج التربوية التي قدمها الآباء المؤدبين ذلك المنهج الذي تقدم به الرشيد للأحمر معلم ولده الأمين ولي عهده والخليفة من بعده وفيه يقول: «يا أحمر أقرئه القرآن، وعرفه الأخبار، ورَوِّه الأشعار، وعلمه السنن، وبصره بمواقع الكلام وبدئه، وأمنعه من الضحك إلا في أوقاته، ولا تحزنه فتميت ذهنه، وقومه ما أستطعت بالقرب والملاينة فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة»[1].

وقد خطا الفاطميون في هذا المجال خطوات أوسع فأنشئوا في قصورهم مدارس خاصة يلتحق بها أولاد علية القوم وسراتهم، ويسير المؤدبون في تثقيف هؤلاء الصبيان على منهاج خاص، يرمي إلى إعدادهم لخدمة الخلفاء وشغل المناصب الرئيسية في دولة الخلافة[2] وكذلك سار الأيوبيون والمماليك خطوات في هذا المجال يعلمون أولادهم في القصور لأستلام مهامهم المستقبلية.

١١ ـ حوانيت الوراقين:

لعل من الممكن أن نربط بين أسواق العرب في الجاهلية: عكاظ، ومجنة، وذي المجاز وبين دكاكين بيع الكتب في الإسلام ففي تلك الأسواق كان العرب يقوموا بنشاط رائع في الناحية الأدبية، فينشدون الأشعار ويعقدون المناظرات ويلقون الخطب الرنانة[3]. وهذه الدكاكين التي فتحت في الأصل أعمال تجارية تصير مسرحاً للثقافة والحوار العلمي، عندما أمّها المثقفون والأدباء وأتخذوا منها مكاناً لاجتماعاتهم وأبحاثهم وأحياناً تدور فيها المناظرات[4].

وقد تعرّض المقريزي في مواضع كثيرة من كتابه الخطط للحديث عن هذه الحال[5]. ولم يكن بائعو الكتب مجرد تجار ينشدون الربح وإنما كانوا أدباء ذوي ثقافة يسمون للذة العقلية من وراء هذه الحرفة التي كانت تتيح لهم الإطلاع وتجذب لدكاكينهم العلماء والأدباء، وعلى هذا فقد حفلت قائمة أسماء الوراقين بشخصيات لامعة كابن النديم صاحب الفهرست[6].

---

(١) المقريزي: الخطط ج١ ص٤٤٣ ـ ٤٤٤. (٢) الاصفهاني: كتاب الأغاني ج٤ ص٣٥.

(٣) ابن زولاق: اخبار سيبويه العرب ص٣٣ و ٤٤.

(٤) المقريزي: الخطط ج١ ص٣٦١ ج٢ ص٩٦.

(٥) ياقوت: معجم الأدباء ج٦ ص٤٠٨. (٦) ابن الجوزي: مناقب بغداد ص٢٦.

وقد وصف ابن الجوزي (٥٩٧هـ) سوق الوراقين في زمنه بقوله: «إنها سوق كبيرة وهي مجالس العلماء والشعراء»[1].

ويعتبر دكاكين الوراقين هي إحدى الوسائط التربوية التي لا يمكن إغفالها عن التكوين العلمي لأنواع مدارس المسلمين، وأمتازت هذه الدكاكين عن غيرها بمرونتها وبعدها عن التعصب الذي ساد بعض هذه الوسائط وخاصة أن الكتاب يحمل البراءة من هذا التعصب، حين يحطم الحدود الموضوعية، ويصل بين الأقطار المختلفة. بحيث إذا ظهر كتاب في مكان اجتذبه مكان آخر وأقبل عليه الوراقون ينسخونه وينشرونه بين رواد العلم من طلاب وعلماء لقد فتحت هذه الدكاكين في الأصل لأسباب تجارية، ثم ما لبثت أن تحولت إلى مراكز ثقافية يؤمها الأدباء والشعراء والعلماء يجتمعون فيها فيتحاورون ويتناظرون ويتباحثون ويلتقي فيها طلاب العلم من كل مكان.

وترى سيجريد هونكه «إن تجارة الكتب هي من إختراع العرب، فتاجر الكتب رسول من رسل الثقافة كما أن مكان بيعها مركز ثقافي هام في المدينة فهذه التجارة وجدت أولاً ولزمن طويل فقط عند العرب»[2].

وما ساعد على إنتشار الكتاب لأن الحياة العقلية وثيقة الصلة بالشعب ولم يقتصر الكتاب على طبقة معينة بل كان أمره شائعاً في طبقات الشعب كله.

وهكذا انتشرت دكاكين الوراقين بسرعة انتشاراً ملحوظاً في العواصم والبلدان المختلفة في العالم الإسلامي، وحفلت كل مدينة وكل محلة بعدد وافر منها وبالتالي بعدد من العلماء القيمين عليها والوافدين إليها من علماء وطلاب وبخاصة في كل مدن الشام بالعصر المملوكي. وقد أخذت طرابلس حيزاً مهماً في هذا المجال «وإن مدينة كان عدد سكانها لا يتجاوز ٥٠و٠٠٠ الف نسمة على أبعد تقدير أثناء حكم بني عمار تحتوي على مكتبة فيها ثلاثة ملايين كتاب فهي مفخرة حقاً لطرابلس على مرّ تاريخها»[3].

١٢ ـ دور الشيوخ والفقهاء:

ويأتي بعد ذلك دور الشيوخ والفقهاء المدرسون الذين جعلوا من بيوت سكنتهم أماكن للتدريس يقصدهم العامة والخاصة وذوي الجاه والنفوذ. وذكر إن فئة من هؤلاء المدرسين ممن إتصف بالتقي والورع والزهد كانوا يتزهون أنفسهم عن أخذ الأجر

(١) سيجريد هونكه: فضل العرب على اوروبا ص٢٦٩.

(٢) د. تدمري: الحياة الثقافية في طرابلس الشام ص٥٨.

(٣) محمد اسعد طلس: التربية والتعليم في الإسلام ص٧٧ بيروت ـ دار العلم للملايين ١٩٧٢م.

وذلك تقرباً لله تعالى وخوفاً من عذاب الآخرة لأنه ورد على لسان الرسول ﷺ أحاديث تنهي عن أخذ الأجر[١].

«وكان الرجل يحفظ من القرآن عشر آيات ثم لا يتجاوزها حتى يحفظ معناها»[٢].

١٣ ـ المارستان:

وقد أهتم العرب المسلمون الأوائل بنشر العلوم الطبية فأسسوا المدارس الطبية والمستشفيات ودعوا إلى عقد المؤتمرات الطبية التي يجتمع فيها الأطباء من كافة البلاد في موسم الحج حيث يعرضون نتائج أبحاثهم كما يعرضون نباتات البلاد الإسلامية ويصفون خواصها الطبية. وقد أصبحت بغداد في الشرق وقرطبة في الغرب من أهم المراكز الطبية ثقافة ونجاحاً.

وقد أقتبس المسلمون العرب فكرة البيمارستان عن السريان الذين تفوقوا في مهنة الطب في العصر العباسي الأول. وقد وضع بعض الخلفاء والسلاطين والأمراء في المساجد خزائن للأدوية والأشربة وعينوا لها الأطباء لإسعاف المصلين، وبنوا المارستان للمرضى وأباحوها للناس من غير تمييز في الأديان والمذاهب وقدموا لهم العلاج والطعام بدون مقابل.

وفي سنة ٣١١هـ، أسندت إمارة مارستان الري إلى محمد بن زكريا الرازي أشهر أطباء عصره ثم أسندت إليه إمارة مارستان بغداد في عهد الخليفة المكتفي سنة (٣١١هـ) وقد بنى عضد الدولة البويهي (٣٦٧ ـ ٣٧٢هـ) كثيراً من المارستانات. وأسس الأيوبيون والمماليك في مصر وبلاد الشام كثيراً من المارستانات التي لا تزال قسم منها ماثلاً حتى الآن في أكثر مدن بلاد الشام.

وقد أشتهرت بيمارستانات متعددة عند المسلمين وبخاصة في مصر والعراق والشام وخاصة البيمارستان الذي أنشأه صلاح الدين الأيوبي في مصر والبيمارستان الذي أنشأه نور الدين زنكي في دمشق. وتألفت هذه البيمارستانات من أقسام منفصلة منها ما هو خاص بالذكور ومنها ما هو خاص بالإناث ويحتوي على قاعات لمختلف الأمراض ويرأس البيمارستان رئيس وكل قسم من أقسامه رئيس وللبيمارستان صيدلية تسمى شرابخاناه ويتناوب الأطباء العمل في البيمارستان وهذا النوع هو من النوع الثابت.

---

(١) السيوطي: الاتقان في علوم القرآن ج٢ ص٢٠٨.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص٤١٨.

وهناك أنواع من البيمارستانات تنتقل من مكان إلى آخر «نقالة» إلى البلدان الخالية من بيمارستانات ثابتة أو التي يظهر فيها وباء أو مرض معدٍ[١].

ويقول ابن ابي اصيبعة: «بعد ما يفرغ الحكيم مهذب الدين الدخوار والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين في البيمارستان وأنا معهم، أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحبي فأعاين كيف استدلاله على الأمراض ومداواتها»[٢].

ويبدو أن الأطباء في بداية الأمر كانوا يمارسون المهنة عن طريق بعض المؤلفات الطبية لأحد الأطباء المشهورين، ولم يطالب الطبيب بتأدية امتحان في نهاية دراسته. ويبدو أنه مع تطور الزمن تطور الإمتحان بحيث إذا ما أتم الطالب دراسته يتقدم إلى رئيس الأطباء وطلب إليه «إجازته لمعاناة صنعة التطبيب وكان الطالب يتقدم إليه برسالة الفن الذي يريد الحصول على الإجازة في معاناته وهذه الرسالة أشبه بما يسمى اليوم أطروحة (تيز Thèse) وتكون هذه الرسالة له أو لأحد مشاهير الأطباء المتقدمين أو المعاصرين يكون قد أجاد دراستها فيمتحنه فيها ويسأله في كل ما يتعلق فيها من الفن فإذا أحسن الإجابة أجازه الممتحن بما يطلق له التصرف فيه من الصناعة»[٣].

وخلاصة القول هذا هو البيمارستان أو دار المرض التي بدت على خير صورة من التنظيم والتجهيز وبرز فيها الطبيب العالم المتخصص الإنسان، يمارس عمله على جانبين: جانب نظري في البيمارستان أو في دور خاصة، وجانب عملي يمارسه في البيمارستان، وقد تمتع هذا الطبيب بأخلاقيات كان عليه الإلتزام بها.

١٤ ـ المدارس النظامية:

فهذه الدور من جهة والخوانق والربط والكتاتيب وحلقات المساجد والمارستانات من جهة أخرى كانت هي المؤسسات الأولى عند العرب المسلمين لنشر العلم والمعرفة حيث كان العلماء والمتعلمون يتذاكرون بين ربوعها ضروباً من دين وأدب وتاريخ وسير وأستمرت هذه المؤسسات فيما بعد تؤدي رسالتها تماشي ما استحدث من مؤسسات علمية بدأت طلائعها بالظهور في أواسط القرن الخامس الهجري وأعني بذلك المدارس المنظمة ثم تطورت في العصر المملوكي عن باقي أنواع المدارس.

وتميزت هذه المدرسة عما سبقها من مؤسسات تعليمية بعدة خصائص انفردت بها ومنها:

١ ـ احتواؤها على الأيوان أو ما يعرف اليوم بقاعة المحاضرات وهو من أبرز

---

(١) احمد عيسى: تاريخ البيمارستانات ص١١.

(٢) ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٧٣٢.

(٣) احمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٤٣.

مرافقها في تلك العصر ـ حيث لا تقام فيها منابر للخطابة كالمسجد، كما نجد بعض المدارس لها مؤذنون[١].

٢ ـ احتواؤها على مساكن للمدرسين والطلبة المنتسبين إليها وعلى مرافق أخرى كالمطبخ، وحجرة الطعام، والحمام وما شابه ذلك.

لقد تبين من خلال البحث أن المدرّس في هذه المدرسة يعيّن من قبل منشئها أو من قبل واقفها بنص صريح كان يرد في كتاب الوقف أو يعيّن من قبل الدولة، بخلاف الحلقة أو الكتاتيب أو الدور التي كثيراً ما نذر بعض مدرسيها أنفسهم للإفادة بغية نيل الثواب بدون أجر أو تعيين من أحد.

كذلك تبين إن عدد الطلاب في المدرسة كان يحدد من قبل الواقف أو المنشىء أو الدولة. وكان ينال كل من المعلم والتلميذ نصيب من الأوقاف أو من الدولة وحيث أن المدرسة كانت أبوابها مفتوحة للجميع[٢].

وإن أقدم النصوص التاريخية التي نجد فيها ذكر للمدرسة وكما أحصاه الألماني المستشرق (وستفلد) في كتابه الذي ألفه عن الإمام الشافعي وحسب ما ذكره محمد طلس في كتابه (التربية والتعليم في الإسلام)[٣].

يقصد بالمدارس تلك الأماكن التي أسست لنشر نوع خاص من المعرفة، تحت إشراف الدولة التي تنفق عليها الأموال وتحبس عليها الأوقاف، تراقب التعليم فيها، تعهد لفئة صالحة من الناس وهم المعلمون ليدرسوا المتعلمين ويثقفوهم، ويختارون حسب لوائح خاصة يضع الواقف فيها شروطه وتقدم لهم الجرايات والأرزاق، ويجاز فيها المتعلمون بما تعلموا من ضروب المعارف النقلية والعقلية. والمدرسة كفكرة ذات هدف معين ونظام خاص تميزت به وسارت عليه وكان لها في خدمة التعليم الإسلامي العالي دور بارز له مميزاته وخصائصه.

أما عن نشأة المدرسة الإسلامية فيرى ابن خلكان (ت: ٦٨١هـ ـ ١٢٨٢م) أن نظام الملك بنى المدارس والربط والمساجد في البلاد وهو أول من أنشأ المدرسة فاقتدى به الناس فتعددت مدارسه في كل مكان...»[٤].

ووردت إشارة إلى المدرسة الصادرية بدمشق «في رسائل الهمذاني وهو المتوفى سنة (٣٩٨هـ ـ ١٠٠٧م)[٥].

---

(١) المقريزي: الخطط ج٢ ص٣٧٤ ـ ٤٠٠. (٢) احمد شلبي: تارخ التربية الإسلامية ص١٠٠.

(٣) طلس: التربية والتعليم في الإسلام ص١٢٢ و ١٢٣.

(٤) ابن خلكان: وفيات الاعيان ج١ ص٣٦٩.

(٥) احمد فكري: مساجد القاهرة ومدارسها ج٢ ص١٥١.

وقد جرت العادة أن تنسب المدرسة إلى منشئها فنقول «المدرسة النظامية نسبة إلى الوزير نظام الملك والمدرسة المستنصرية نسبة إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله، والمدرسة النورية بدمشق نسبة إلى نور الدين الزنكي...

ولقد كان لبعض العلماء موقف رافض من بناء المدارس، وتبنّي الدولة للعلم والإشراف عليه خوفاً من أن تفرض الأدعياء والدخلاء على التعليم ويرى حاجي خليفة (ت: ١٠٦٧هـ ـ ١٦٥٦م) صاحب كشف الظنون «إن العلماء والفقهاء كانوا بين آسف ومستنكر رافض لأن العالم الفقيه يرى طلب العلم لذاته وليس للإحتراف والتكسب والعيش منه، ولذلك فإن من يتخذ العلم حرفة يخرج من صفوف العلماء لأنه لا يتحلى بأخلاقهم. فلقد كوشف علماء ما وراء النهر بهذا الأمر ونطقوا به ولما بلغهم بناء المدارس ببغداد أقاموا مأتم العلم وقالوا كان يشتغل به أرباب الهمم العليّة والأنفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم وإذا صار عليه أجرة تدانى إليه الأخساء وأرباب الكسل فيكون سبباً لأرتفاعه، ومن ههنا حجرت علوم الحكمة وإن كانت شريفة لذاتها»[١].

ولم يكن قيام المدرسة وليد نفسها أو نتاج تأمل يحدث في فراغ من جانب الكبار، وإنما المدرسة منظمة إجتماعية إنشئت وتطورت في كل مجتمع نتيجة ما بذله أفراده من جهود لتوجيه حياة الناشئين ومساعدتهم على مواجهة ظروف الحياة في المجتمع وذلك في ضوء ما اختاره هؤلاء الأفراد من قيم وأنظمة ومعارف وأحكام وطرق، وهذه الطرق وتلك الأحكام تتأثر بظروف الزمان والمكان...

ومن هنا ننطلق في هذا المجال لنتعرف إلى الأسباب والدوافع التي أدت إلى ظهور المدرسة عند المسلمين، حيث تضافرت الأسباب السياسية والدينية والثقافية والتربوية والشخصية في نشوء وظهور المدرسة وما فيها من معاني لا داعي لشرحها.

وكذلك لا ننسى دور المدرسة لا ماضياً ولا حاضراً بإمداد أجهزة الدولة بالعاملين في الجهاز الإداري والتعلمي ولا نستطيع أن نتصور بأن الجهاز الإداري الحاكم ظل على بساطته منذ نشوء المدرسة ولكننا نجده بأنه تطور مع تطور الزمن، ودخل عدد كبير في الأعمال الحكومية من بين خريجي المدارس، والمؤسسات والمعاهد التربوية الأخرى كانت تؤدي دوراً مماثلاً نظراً لنسبة تفقد الأعمال المطلوبة.

وأما بالسنبة لتمويل المدارس فقد لعبت الأوقاف دوراً كبيراً في تغذيتها مادياً حتى انتشرت بشكل واسع. وبرزت في تنظيم الوقف وثائق خاصة به حتى أنه يمكننا القول إن وثيقة الوقف أو كتاب الوقف كان أشبه ما يكون باللائحة الأساسية للمؤسسة

(١) حاجي خليفة: كشف الظنون ـ ج١ ص٢٢.

التعليمية أو النظام الداخلي للمدارس، ويتضمن الشروط الواجب توفرها في القائمين بالتدريس، ومواعيد الدراسة وغيرها من التنظيمات الإدارية والمالية. فالأوقاف كانت المورد الرئيسي للصرف على المدارس وباقي المؤسسات العلمية واستمرار هذه الأوقاف في أداء رسالتها، مرهوناً بما تغله للصرف على هذه المؤسسات، وتحتاج هذه الأوقاف لتبقى معطاءة لما خصصت له أن يحسن الإشراف عليها وتسودها الأمانة، لأنها إذا صودرت أو خربت فيكون ذلك بداية لتدهور هذه المؤسسة وتوقفها عن عملها.

ويحاول أحد الباحثين حصر مصادر الأموال الخاصة بالتعليم عند المسلمين بالنواحي الآتية[١]:

١ ـ عطاءات الخلفاء والحكام والسلاطين.
٢ ـ الأجور الخاصة التي يتم الإتفاق عليها بين الأساتذة والطلاب.
٣ ـ الأوقاف.
٤ ـ الهبات والإعانات والصدقات.
٥ ـ الزكاة الشرعية.

ـ ولا بدّ أن نعلم أن إدارة المدرسة سواء كانت منشأة دولة أو منشأة أفراد، لا تتدخل في شؤون هيئة التدريس، ووظيفتها تنظيم الشؤون الإدارية والإشراف على شؤون الطلاب من خلال المساكن الداخلية وتأمين حاجاتهم، والجرايات الخاصة بالموظفين.

ـ ولقد تعددت العناصر المشرفة على المدرسة من مدرسين ومعيدين ونظار وكتبة، تنحصر مسؤولياتهم في تحرير الرسائل وتنظيم السجلات الإدارية، وقيمون مهمتهم القيام على حراسة المدرسة وحفظ مفاتيح أبوابها، ونفاطون يزودون مصابيح الطلاب بالنفط وينظفون مصابيح المدرسة وغرف الفقهاء[٢]، والمباشرون الذين يهتمون بعمل حسابات الوقف، والجباة الذين يقومون بجباية ريع الأوقاف، والصيارفة الذين يتولون صرف مستحقات الموظفين والشاوية. وهناك وظائف فنية مهمة على أصحابها المحافظة على مبنى المدرسة وصيانة ما يخصها من الأوقاف.

وكان المعلمون في المدارس مختلفي الإختصاصات: يدرسون الفقه، وعلوم الحديث وأصوله وشيوخ مقرئون، ومعلمو العلوم اللغوية العربية، والأطباء وغيرهم.

ويحاول الواقفون تحديد اعداد الطلبة في مدارسهم إنطلاقاً من مدخول الوقف

(١) محمد عبد الرحيم غنيمة: تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى ص٢٣٧.
(٢) حسين أمين: المدرسة المستنصرية ص٩٧ ـ ٩٨.

على المدرسة، وفي حدود الإمكانات المتاحة، ولذلك اختلفت هذه الأعداد من مدرسة إلى أخرى بحسب الوارد من الوقف كثرة أو قلة ليصرف عليها، وإذا جمعت المدرسة أكثر من مذهب فغالباً ما كان الواقف يزيد في عدد طلبة المذهب الذي يتبعه.

وتتم هذه الزيادة وفقاً لميوله الشخصية، ولم تقتصر على العدد بل تعدته إلى المعلوم الذي يتقاضاه الطالب. لم تعش المدرسة المملوكية في جزيرة منعزلة لا تربطها بما حولها من بيئات مادية وإجتماعية وإنما أهتمت كثيراً بما يجري في هذه البيئات، فكان لعلمائها ولطلابها دور كبير في الريادة الإجتماعية في البيئة، فقد استخدمت كمراكز يجلس فيها القضاة لإصدار الأحكام وحتى السكن فيها.

يقول ابن بطوطه في هذا المعنى «كان للمالكية بدمشق ثلاث مراتب إحداها الصمصامية، وبها سكن قاضي القضاة المالكي وقصدوه للأحكام»[1].

وساعدت هذه المدارس على تحقيق الوحدة الإسلامية، فنشرت الثقافة والعلم، فأمدت أجهزة الدولة بالعناصر المتعملة المثقفة وخرجت علماء وأساتذة من الأندلس والمغرب ومصر والشام والعراق يتولون التدريس في مدارس مهمة بكاملها.

١٥ ـ دار العلم والمعهد الأكاديمي في طرابلس (خلال العصور الوسطى):

ينحدر بنو عمار في الأصل من قبيلة كتامة المغربية الأفريقية، وقد أعتنقت هذه القبيلة المذهب الشيعي، وعندما قامت الدولة الفاطمية في مصر تولى شيوخ هذه القبيلة مراكز قيادية في مصر والشام فكان منهم «أبو محمد الحسن بن عمار» وقد ظهر على مسرح الأحداث في عهد الخليفة الفاطمي «العزيز بالله» سنة ٣٨١هـ، ويبدو أنه فتح الطريق لأبناء قبيلته ليتنقلوا إلى الشام[2]. وتوالى على حكم طرابلس بنو عمار حتى مجيء القاضي أمين الدولة الذي أستمر على ولآته للدولة الفاطمية من سنة ٤٥٧ حتى سنة ٤٦٢هـ ـ ١٠٧٠م، حيث أعلن استقلال طرابلس عن الفاطميين وأتخذ موقفاً محايداً بينهم وبين السلجوقيين في العراق[3]، ولم يطل حكمه إذ توفي سنة ٤٦٤هـ ثم جاء جلال الملك ابن أخيه وأنفرد بحكم طرابلس وطالت مدته فيها حتى توفي سنة ٤٩٢هـ[4]. وقد شهدت طرابلس بعهده إزدهاراً ورخاء عظيمين، فاتسعت رقعة إمارة طرابلس المستقلة ودخلت جبلة وعرقة وطرطوس وجبيل في حوزته، وكانت طرابلس تبعث الحكام والقضاة والخطباء إلى تلك البلاد[5]. وجلال الملك هو الذي قام بتجديد دار العلم بطرابلس وبنى جامعاً بإسمه وقد «ضبط البلد أحسن ضبط ولم يظهر

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة ص٩٧.

(٢) تدمري: الحياة الثقافية في طرابلس ص٣٩.

(٣) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٩١/ دمشق.

(٤) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة ص١٠٨.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٥ ص١١٦.

لفقد عمه أثر لكفايته»[١]، ثم خلفه أخوه فخر الملك الذي سطرت طرابلس في عهده سجلاً من الصمود تفخر به طرابلس ضد الصليبيين عشر سنوات حتى سقطت بأيديهم سنة ٥٠٢ هـ ـ ١١٠٩م.

وقد بلغ المستوى الحضاري والثقافي أوجه في طرابلس على عهد هذه الأسرة التي فاقت شهرتها في العلم «كل ما كان لها من صفات حربية»[٢] وأهتم رجالها ببناء المساجد في طرابلس وحلب وغيرها من مدن الشام. «وإن القضاة بني عمار أصحاب طرابلس الشام هم الذين بنوا الجهة الشرقية في الجامع الكبير بحلب وهو المعروف الآن بالجامع الأموي»[٣].

وكان أمين الدولة، وهو من فقهاء الشيعة، رجلاً عاقلاً فقيهاً سديد الرأي ألف كثيراً من الكتب النفيسة، وأتخذ له دار علم جمع فيها ما يزيد على مائة الف كتاب وقفاً[٤]، وكان يرسل المراسلات إلى أقطار البلاد ويبذل الأثمان الباهظة، ويجلب الكتب النادرة لهذه المكتبة، ويهتم بالعلم ويحنو على العلماء، ويستميل طلاب العلم إلى عاصمته وأقتفى كل من جلال الملك ثم فخر الملك آثاره، فقام جلال الملك بتجديد دار العلم سنة ٤٧٢ وكان مقصد الشعراء من أنحاء الشام، وأوقف على طلبة العلم جرايات من الذهب، كان المتولي على دار العلم يقوم بتوزيعها على طلبة الدار[٥].

وكان فخر الملك أيضاً مقصد الشعراء والأدباء ومحباً للمجالس العلمية والمناظرات الأدبية.

وكان الهدف من إنشاء هذه الدار سياسياً ودينياً، إلى جانب كونه عملاً إنسانياً وحضارياً لنشر العلم والمعرفة، لتكون قاعدة سياسية ودينية وعلمية لنشر مذهبهم الشيعي وبث أفكارهم الدينية[٦] ولتوطيد سلطانهم السياسي في طرابلس ونواحيها بعد أن استقلت ثقافياً وفكرياً وسياسياً عن مصر.

ويذكر محمد كرد علي أن مكتبة طرابلس كانت قبل بني عمار لأن بني عمار لم يستولوا على طرابلس إلا بعد الأربعين وأربعمائة للهجرة، وإن أبا العلاء زار طرابلس

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج١٠ ص٧١.
(٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ج٢ ص٣٨٠.
(٣) ابن الشحنة: الدر المنتخب في تاريخ حلب ص٦٣.
(٤) تدمري: الحياة الثقافية في طرابلس ص٤٣.
(٥) ابن الخياط: ديوانه ص١٢١ دمشق ٥٨.
(٦) المقريزي: اتعاظ الحنفا في تاريخ الأئمة الخلفاء ص٨٣٦

وانتفع بخزانتها وكتبها الموقوفة[١]. ويقول ابن العديم الحلبي في «الأنصاف والتحري»[٢] أن جلال الملك ابن عمار قد أوقف بدار العلم بطرابلس من تصانيف ابي العلاء هذه الكتب: «الصاهل والشاحج» ومقداره أربعون كراسة «السجع السلطاني» ومقادره ثمانون كراسة «الفصول والغايات» ومقداره مائة كراسة.

وكان يوجد في المكتبة كتب عديدة ومؤلفات كثيرة لأشهر المؤلفين لا عدّ لها ولا حصر حتى قيل أنها تحوي أكثر من ثلاثة ملايين كتاب تفوق مكتبة سابور في بغداد ومكتبة الحلم في قرطبة وخزائن القصور ودار الحكمة بالقاهرة.

أما عن مصير هذه الدار يقول ابن الأثير: «إن الصليبيين نهبوا ما فيها وأسروا الرجال وسبوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال، وكتب دور العلم الموقوفة ما لا يعد ولا يحصى، فإن أهلها كانوا من أكثر أهل البلاد أموالاً وتجارة»[٣].

وفي العصر الصليبي: يجمع المؤرخون على أن معابر الحضارة العربية الإسلامية إلى اوووبة كانت عن طريق:

١ ـ الأندلس العربية الإسلامية.

٢ ـ صقلية الإسلامية.

٣ ـ حركة القوافل.

٤ ـ وإتصال الغرب بالشرق عن طريق الحروب الصليبية.

لقد أثروا وتأثروا بهذه الحضارة وكانت دار العلم من أهم المباني العلمية التي أقيمت في طرابلس وإلى جانب شهرتها في هذا المضمار كانت هذه الدار بمثابة معهد الأكاديمي يتلقى فيه الطلبة دراسة الطب على أيدي علماء متخصصين وأشتهرت هذه الدار شهرة واسعة حتى كان يقصدها الطلاب من كل الأنحاء، وأصبحت أعظم مدارس الطب في الإمارات الصليبية على الإطلاق[٤]. وكان من تلاميذ هذا المعهد ابن العبري على يد أشهر طبيب مدرس هو يعقوب التسطوبي وإلى جانب يعقوب كان باسيليوس الحلبي المشهور بالطب. وظل الطب من إختصاص طائفة اليعقوبيين وهم من المسيحيين العرب وقد إشتهر منهم الأسقف اليعقوبي (ميشيل الحلبي) اللذي مارس الطب محاطاً بتقدير رجال الدين وطبقة إشراف الفرنجة وقد أشار أحد اليعاقبة الأنطاكيين إلى وجود عدد كبير من الأطباء اليعاقبة والملكانيين والمسلمين في طرابلس

---

(١) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٩١.

(٢) ابن العديم: الانصاف والتحري ص٥٠.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج١٠ ص٤٧٦.

(٤) تدمري: طرابلس الشام ص٢٣٢.

كان يتردد عليهم في معاملهم وعالجوه في المستشفيات. وبهذا يتضح أن الطب كان متقدماً عند العرب مسلمين ومسيحيين في هذا العصر. وإن هذه النهضة العلمية والطبية لم تكن بفضل الصليبيين وحدهم فقد ذكر المؤرخ «وليم الصوري» أسقف صور الذي عاصر الحروب الصليبية «إن الأمراء الصليبيين الشرقيين بناء على رغبة نسائهم وتحت تأثيرهم لا يعتقدون في الأدوية ولا يثقون في وسائل وطرق علاج الأطباء الصليبيين لكنهم يثقون بالأطباء اليهود واليعاقبة والمسلمين»(١).

وعرف من الأطباء العرب في هذا العصر بطرابلس طبيب يدعى «بركة Baraca» وكان الطبيب الخاص لكونت طرابلس ريموند الثالث. وقد قام بتطبيب الملك بلدوين الثالث الذي توفي سنة ١١٦٢م وقيل أنه مات مسموماً(٢).

ذاعت شهرة طرابلس في مختلف العلوم خلال هذا العصر كالطب والصيدلة والرياضيات والعلوم الطبيعية والفلسفة والفلك والأدب، إسوة بباقي مدن بلاد الشام. لأنه من غير الممكن إذا ما تقدمت مدينة أو إمارة حضارياً أو علمياً دون أن تصيب هذه الحضارة باقي الإمارات مع ما يوحدهم ويجمعهم من أرض ولغة ودين وتاريخ.

أدباء وعلماء العصر المملوكي

١ ـ العلم والأدب في القرن السابع(٣):

لما قرُب التتر بغداد سنة (٦٥٦هـ) انتقلت الحركة الأدبية بحكم الطبيعة إلى بلاد الشام ومصر. وفي هذا القرن كثر الإخصائيون وتنوعت العلوم وتوفر المشتغلون بها وأنبغ الشام طبقة عالية عدّت تآليفهم من الأمهات في خزانة الأمة العربية ومرجعاً ثقة للأخلاق إقتبسوها من أعمال الأسلاف. فعلى سبيل المثال من المؤرخين: عمر بن أبي جرادة المعروف (بابن العديم صاحب تاريخ حلب ٦٦٠هـ) ومن مفاخر هذا القرن بحلب أيضاً (علي بن يوسف القفطي أحد الكتاب المشهورين وله تآليف في التاريخ والأدب ٦٤٦هـ وكان يقوم بعلم اللغة والنحو والفقه والحديث وعلوم القرآن والأصول والمنطق والهندسة ـ ثم ياقوت الحموي والمؤرخ الرحالة صاحب معجم البلدان ومعجم الأدباء ٦٢٦هـ، وفي حماة إبراهيم بن أبي الدم صاحب التاريخ الكبير في الملة الإسلامية ٦٤٢هـ، وفي حماة أيضاً علم الدين قيصر وابن واصل كان اماماً في علوم كثيرة مثل المنطق والهندسة والأصول والف تاريخاً في أخبار بني أيوب ونبغ في حماة الملك المنصور بن أيوب خلّف عدة مصنفات مثل طبقات الشعراء، ثم الأمجد

A history of deeds one beyond the sea-William of Tyre - Vole 2 - p.395. (١)

(٢) تدمري: الحياة الثقافية ص٧١.

(٣) محمد كردعلي: خطط الشام ص٣٧ و ٣٨ و ٣٩ و ٤٠ و ٤١ و ٤٢ و ٤٣ و ٤٤.

بهرام صاحب بعلبك كان شاعراً له ديوان ٦٢٩هـ، ونبغ في دمشق أحمد بن خلكان قاضي قضاتها الفقيه المؤرخ صاحب وفيات الأعيان ٦٨١هـ، ابن أبي أصيبعة الدمشقي الطبيب الأديب مؤلف طبقات الأدباء ٦٨٨هـ، وأبو شامة له عدة تصانيف في التاريخ ٦٦٥هـ، ومنها تاريخ الروضتين وذيله، وسبط بن الجوزي صاحب مرآة الزمان في التاريخ ٦٥٤هـ، وعبد المنعم الجلياني الملقب بحكيم الزمان علامة في الطب والكحل والأدب والشعر ومن نوابغ دمشق أيضاً عز الدين الأرجلي الفيلسوف الضرير ٦٦٠هـ. ثم الآمدي سيد العلماء وله عدة مصنفات في أصول الفقه والدين وكتاب الأحكام مات في دمشق ٦٣١هـ، ثم الشيخ المتصوف محيي الدين بن عربي له عدة مصنفات في الأخلاق منها الفتوحات المكية ٦٣٨هـ، ثم شمس الدين الخلوي العالم في الحكمة والشرع والطب ٦٣٧هـ، ورفيع الدين الجيلي عالم بالعلوم الحكمية وأصول الدين والطب وله تآليف ٦٤١هـ، وشرف الدين بن الرحبي الطبيب الشاعر له تآليف ٦٦٧هـ، ومهذب الدين يوسف طبيب متحيز في العلوم الحكمية شرح التوراة ٦٢٤هـ، ومهذب الدين الدخوار عالم بالطب وهو صاحب المدرسة الطبية المعروفة بالدخوارية بدمشق، ونجم الدين يحيى بن اللبودي عالم في الحكمة والهندسة وله عدة مصنفات ٦٢١هـ، وشمس الدين بن المؤيد الدمشقي من علماء الفلك وعلي بن محمود اليشكري المنجم له يد طولى في علم الفلك، وبدر الدين بن قاضي بعلبك عالم بالطب له تصانيف طبية ٦٥٠هـ، ويعقوب السامري عالم بالطب له مؤلفات ٦٨١هـ، وعلي بن أبي أصيبعة عالم بالطب وله كتب في الطب ٦١٦، وعبد العزيز بن رفيع من تلاميذ فخر الدين الرازي وعفيف الدين التلمساني أديب له في كل علم مصنف ٦٩٠هـ، وعبد الرحمن بن عساكر صاحب تاريخ دمشق وكان فقيهاً ٦٢٠هـ، وابن عساكر مسند دمشق ٦٩٩هـ، وفاطمة... بنت صلاح الدين المحدثة ٦٧٨هـ، وفاطمة بنت عساكر المحدثة ٦٨٣هـ، وعبد الوهاب بن سحنون طبيب وله شعر وأدب ٦٩٤هـ، وعلم الدين السخاوي النحوي والأديب والفقيه له تصانيف ٦٥٧هـ، وإبراهيم بن أحمد التميمي شيخ القراء بدمشق ٦٧٦هـ، والحرستاني خطيب الشام وعبد السلام الدمشقي له تصانيف ٦٦٠هـ.

وجاء من العلماء في الشام عبدالله الجماعيلي الإمام في الأصول والفقيه والنحو والنجوم ٦٢٠هـ، ويعقوب المقدسي قرأ الحكمة على الفيلسوف الأنطاكي ٦٢٦هـ، وأبو الفضل بن يامين الحلبي عالم الرياضيات ٦٠٤هـ، ومحمد بن مياس العرّماني الشاعر الأديب وموسى القمراوي الفقيه والأديب ٦٢٥هـ، والرشيد البصروي أحد أئمة المذهب الحنفي النحوي الشاعر ٦٨٤هـ، وعبد العزيز الأنصاري شيخ شيوخ حماة وقد برع بالفقه وحدّث كثيراً ٦٦٢هـ، ونبغ في حماة ابن بركات له تآليف في التاريخ، وعبد العزيز الحموي الشاعر الأديب، والتلمساني الشاعر ٦٨٨هـ، وأبو المحاسن

الشواء الشاعر الحلبي ٦٣٥هـ، وعبد العزيز السلمي الفقيه المجتهد له تصانيف ٦٦٠هـ، ويحيى بن حميدة المعروف بابن أبي طي صاحب التاريخ وطبقات العلماء ٦٣٠هـ.

وكانت حلب عندما دخلها ابن خلكان في هذا العصر ٦٢٦هـ للإشتغال بالعلم أمّ البلاد مشحونة بالعلماء والمشتغلين على صورة لم يسبق لها مثال: «أنشاء ثلاث مدارس للطب فيها ومدرسة للهندسة في دمشق في هذا القرن. فكانت دمشق أعظم جامعة إسلامية عربية حوت العلوم الدينية والدنيوية فلم تكن دون القاهرة بأزهرها ولا بغداد بمدرستها النظامية.

٢ ـ العلم والأدب:

ونبغ أفراد في هذا العصر ولا سيما في الفلك والتاريخ والجغرافيا والحديث ومنهم بدمشق البرزالي صاحب التاريخ والمعجم الكبير ٧٤٠هـ، والحافظ جمال الدين المتري صاحب التصانيف ٧٤٢هـ، والحافظ ابن كثير المفسر والمؤرخ والفقيه صاحب التآليف ومنها تاريخه المطول ٧٧٤هـ، وابن قيم الجوزيه من أكبر أنصار شيخ الإسلام ابن تيمية ٧٥٢هـ ومن كتبه أعلام الموقفين.

وأحمد بن فضل الله العمري أمام أهل الأدب والتاريخ والجغرافيا والإصطرلاب وصور الكواكب وله عدة مصنفات منها مسالك الأبصار، والتعريف بالمصطلح الشريف ٧٤٩هـ، وصلاح الدين خليل بن ايبك الصفدي الأديب المؤرخ صاحب الكتب منها الوافي بالوفيات (أجزاء) وشرح قصيدة ابن زيدون... ٧٦٤هـ، والملك المؤيد اسماعيل أبو الفدا وكان عالماً فقيهاً مؤرخاً جغرافياً فلكياً منها كتابه تقويم البلدان ٧٣٢هـ.

ثم جاء في هذا العصر أبو بكر محمد الأنصاري المعروف بشيخ الربوة وهو صاحب نخبة الدهر ٧٢٧هـ، ومحمد بن مفلح الفقيه المؤرخ ٧٦٤هـ. ومحمد بن شاكر الكتبي صاحب التصانيف منها فوات الوفيات وعيون التواريخ ٧٦٤هـ، وعمر بن الوردي صاحب التاريخ وديوان الشعر.

والمقامات كان فقيهاً أديباً ٧٤٩هـ، وعلي بن إبراهيم ابن الشاطر الفلكي ٧٧٧هـ عالماً بالهيئة والحساب والهندسة ومن المهندسين محمد بن إبراهيم والمعلم عمر بن نجيم والمعلم محمد الصفدي والمعلم علي بن محمد المهندس وشهاب الدين الحموي كتب الختمة الشريفة من أولها لآخرها مفصلة الأجزاء والسور.

ومن المحدثين الحافظ اليونيين ٧٠١هـ، وحسن بن حبيب الحلبي له عدة تآليف منها درّة الأسلاك في دولة الأتراك وأكثر كتبه مسجعة ٧٧٩هـ، وقاضي القضاة بدمشق عبدالله المقدسي ٧٣١هـ، والجلال القزويني امام البيان صاحب المصنفات

٧٣٩هـ، وشيخ قراء دمشق محمد بن السلعوس ٧٣١هـ، وشيخ القراء الجبري له تصانيف كثيرة ٧٣٢هـ، وعثمان بن الحموي شرح الحاوي في الفقه ٧٣٠هـ، واسماعيل بن الحموي ٧١٥هـ العالم بالقراءات العربية، وشهاب الدين السبكي الفقيه له تآليف ٧٧١هـ، وابن الزملكاني العالم بالعربية ٧٢٧هـ، وسليمان الأذرعي الفقيه ٧٠٧هـ، وقاضي قضاة دمشق إبراهيم بن عبد الباعوني ومحمد بن يعقوب ٧٦٣هـ فقيه أديب كاتب. وأسمى بنت محمد حصري المحدثة ٧٣٣هـ، وزينب بنت الكمال محدثة قرأ عليها كبار العلماء. ومن الأطباء سليمان بن داود كبير الأطباء بدمشق ٧٣٢هـ، ومن الشعراء والكتاب علاء الدين بن غانم كاتب شاعر ٧٣٧هـ، والحسن بن علي الكتاب ٧٣٢هـ، والصائغ والعروضي الأديب له تآليف ٧٢٢هـ، ومن كتاب هذا القرن الشهاب محمود الحلبي صاحب حسن التوسل في معرفة صناعة الدسل ٧٥٥هـ وأحمد الأنصاري.

ويلاحظ أن أعلاماً من العلماء أشتهروا في هذا القرن وكثير منهم نشأ من قرى الجنوب والشمال، والقرى ما زالت مادة المدن في العلم والأدب كما هي في الزرع والضرع. وتوشك بعض تلك القرى أن تؤثر في بلاد الشام وأعمال النابغين فيها خالدة خلود الدهر أمثال زملكا وحرستا والعزه ويلدا وداريا وأزرع ويبدود والبقاع وعجلون وحرفد وصفد وبعلبك والمصرة وشيزر[1].

العلوم في القرن التاسع الهجري[2]

بدأت طلائع الإنحطاط في القرن التاسع الهجري، فلم ينبغ في الشام رجل أحدث عملاً علمياً عظيماً أو دل على نبوغ في فرع من فروع العلم، وكثر في هذا القرن المختصرون والشارحون في المؤلفين، والسبب أن حكومة المماليك البوجية والبحرية كانت تشتد في إرهاق المتفلسفة والمتفقهة على غير الأصول المتعارفة: الحنفي والشافعي والمالكي والحنبلي.

ومع هذا نشأ في هذا القرن أفراد قلائل في العلم ذكر التاريخ تراجمهم منهم: أبو بكر ابن قاضي شهبة صاحب الطبقات ٨٥١هـ، وأحمد بن علاء الدين الحسباني المؤرخ له كتاب سمّاه الدارس في أخبار المدارس ولعله الأصل لكتاب النعيمي في المدارس، وله ذيل على تاريخ ابن كثير ٨١٥هـ، وأحمد بن حمد بن عربشان له عدة مصنفات في الأدب والتاريخ من تآليفه عجائب المقدور في أخبار تيمور ٨٥٤هـ، وصالح بن يحيى صاحب تاريخ بيروت كان في أواسط القرن التاسع.

(١) محمد كردعلي: خطط الشام ص٤٦ و ٤٧ و ٤٨.
(٢) محمد كردعلي: خطط الشام ص٤٩ و ٥٠.

ومن الفقهاء إبراهيم بن محمد العجلوني الفقيه ٨٢٥هـ، وإبراهيم النووي متميز في الفرائض والحساب له تآليف ٨٥٠هـ، وإبراهيم البقاعي له مصنفات في الفقه والنحو المنطقة وإبراهيم بن محمد بن مفلح فقيه ٨٠٣هـ، وعبدالله بن مفلح رئيس الحنابلة ٨٣٤هـ، وتقي الدين الحصني عالم له مصنفات في الفقه ٨٢٩هـ، وأبو بكر محمد الدمشقي الفقيه ٨٣٢هـ، وعلاء الدين البهائي عالم دمشق ٨٨٥هـ، له كتاب مطالع البدور في منازل السرور، وإبراهيم البقاعي ترك مائة مؤلف كان إماماً بالعربية والدين والتاريخ (له نظم الدرر في تناسب الآية والسور). وعبدالله التنوخي الأمير اللبناني فقيه وأديب شارك في الطب والفلك ٨٨٤هـ، ومحمد بن أحمد الباعوني ٨٧١هـ له مؤلفات في التاريخ.

ونشأ في هذا القرن أحمد الطولوني كبير المهندسين، وخليل بن جمال الدين المؤرخ المدمشقي ٨١٥هـ، ومحمود العيني ٨٥٥هـ الفقيه المؤرخ له عدة مصنفات بالتاريخ، وأحمد المقدسي صاحب تاريخ دول الأعيان ٨٥٦هـ، وأحمد بن حجر العسقلاني الفقيه المحدث المؤرخ ٨٥٢هـ صاحب «تاريخ الدرر الكامنة... وأبناء العمر» وأحمد بن خليل المعروف بابن اللبودي أدب وشعر ٨٩٦هـ، وأحمد بن محمد الكشك ٨٣٧هـ عالم فقه. وزين الدين بن رجب الحنبلي له عدة مصنفات. وعبدالله بن قاضي عجلون فقيه عالم بالمعقولات ٨٦٥هـ، ونور الدين أبو الثناء استوطن حماة له تآليف كثيرة، ومحمد الجزري صاحب المصنفات منها كتاب الطبقات ٨٣٣هـ. وأبو بكر بن حجة الحموي الأديب الشاعر صاحب الخزانة وثمرات الأوراق وكان رئيس أدباء عصره ٨٣٧هـ، وزين الدين ابن الشحنة الفقيه والمؤرخ ٨١٥هـ وله اراجيز في الفقه والدين والتصوف والأحكام.

ومحمود بن الشحنة الفقيه الشاعر الأديب ٨٩٠هـ له عدة تآليف منها الدر المنتخب في تاريخ حلب. وأمد السرميني الحلبي الفلكي ٨٢٤هـ كان إماماً في الهيئة وعمل التقاويم. وعبد الملك البابي الحلبي ٨٣٩هـ علم بالقراءات له نزهة الناظرين في الأخلاق وعز الدين بن عبدالسلام السعدي المقدسي العالم صاحب التآليف ٨٥٠هـ، وعلي بن خليل الطرابلسي ٨٤٤هـ وله كتاب في الفقه اسمه معين الحكام. وابن حبيب الحلبي الحلبي ٨٠٨هـ له عدة مصنفات. وعبدالله بن جماعة المقدسي صاحب التآليف ٨٦٥هـ والبرهان الحلبي المحدث ٨٤١هـ، وعبدالله توقشندي عالم زمانه في الأرض المقدسة ٨٦٧هـ.

ومن علماء السريان في هذا القرن نوح البقوفاوي بطريرك اليعاقبة في حلب. وقد إمتاز هذا القرن بكثرة المدارس في لبنان قال الدويهي في حوادث ٨٧٥هـ: وقد أحصينا أسماء من كان من النساخ في ذلك العهد ممن وقفنا على كتبهم فإذا هم ينيفون

على مئة وعشرة، وفي ذلك الوقت أهملوا الخط الإسترنكالي المربع وتمسكوا بالسرياني المدور. ثم أزاد انحطاط العلم في القرن العاشر، فلم تكن أيام الترك العثماني ميمونة على المعارف في بلاد الشام قبل القرنين السالفين، وذكر المقدسي: إن أهل الدولة العثمانية كانوا لا يولون المدارس في الشام أحداً من أبناء العرب. وحصر الترك عنايتهم بالأستانة، وكان العلماء بعد الفتح العثماني يأتون إلى القسطنطينية زرافات، ولم يكن للولايات البعيدة حظ من عناية الدولة العثمانية لترتقي في مجال العلم والأدب كما كان مزدهراً في القرون الماضية[١].

(١) محمد كردعلي: خطط الشام ص٥٠ و ٥١.

الفصل الثاني

تعريف مدارس بلاد الشام
(بالعصر المملوكي)

قبل البدء بتعداد هذه المدارس الدينية والدينوية في العصر المملوكي لا بدّ من التعريف بها وإبراز صفاتها:

كانت المدرسة في بلاد الشام بالعصر المملوكي تتألف من إيوان للمحاضرات. وبيوت للمدرسين، وسكن للطلبة، بالإضافة إلى المرافق العامة.

وقد كانت المدارس ـ من حيث التخصص بصفة عامة ـ موزعة بين مختلف العلوم: كمدارس القرآن الكريم، والحديث الشريف، وعلوم الفقه، والطب.

١ ـ قصبة الوسط دمشق:

أ ـ وأما بالنسبة لدور القرآن كان عددها في دمشق وحدها سبعاً وهي:

١ ـ دار القرآن الخيضرية بالقصاعين.

٢ ـ ودار القرآن الدلامية بالجسر الأبيض.

٣ ـ ودار القرآن الصابونية قرب مقبرة الباب الصغير من جهة الغرب وجميع هذه المدارس ما تزال قائمة إلى اليوم لكنها تحولت إلى مساجد.

٤ ـ وهناك دار القرآن الجرزية التي كانت قائمة في منطقة بابا توما.

٥ ـ والرشائية قرب ضريح صلاح الدين.

٦ ـ والسنجارية تجاه الباب الشمالي لجامع الأموي وقامت مكانها الأختائية.

٧ ـ ودار القرآن الوجيهية التي كانت قائمة في العصرونية قرب البيمارستان النوري.

وجميع هذه الدور لم يعد لها الأثر اليوم[(١)] وكان ثمة ثلاث دور مشتركة لتعليم القرآن الكريم والحديث الشريف. هي دار القرآن والحديث التنكزية والصبابية، والمعبدية. وقد كان لكل من هذه الدور العشرة إمام، وقيم وعدة أنفار من الفقراء والغرباء المهاجرين ليتعلموا القرآن الكريم، وكانت مهمة الشيخ أن يقرىء الطلاب القرآن كل شهر، بالإضافة إلى قراءة البخاري في الشهور الحرم الثلاثة.

---

(١) النعيمي: الدارس ج١ ص٢ ـ ١٨/ تحقيق المنجد دمشق ١٩٤٦.

ب ـ **وإلى جانب دور القرآن هذه** فقد كان بدمشق ست عشرة داراً للحديث الشريف هي: دار الحديث الأشرفية في العصرونية وكان الإمام النووي ممن درس فيها ثم دار الحديث الأشرفية البدائية بسفح قاسيون، والبهائية بباب توما، والحمصية في الجامع الأموي، وكذلك القوصية، ودار الحديث الدوادارية داخل باب الفرج، والسارية في مئذنة الشحم، والسكرية بالقصاعين، والشقنقية بدرب البانياس، والعروية ضمن الجامع الأموي في مشهد عروة، والفاضلية بالكلاسة والقلانسية في الصالحية، والكروسية في مئذنة الشحم، والنورية جنوبي العصرونية، والنفيسية قرب حمام القيشاني والناصرية بسفح قاسيون[١].

وقد كان المسؤول عن دار الحديث يسمى شيخ دار الحديث، وتسمى الوظيفة نفسها «مشيخة دار الحديث» وكان الفقه يدرس في هذه المدارس إلى جانب الحديث[٢].

ج ـ **أما مدارس الفقه فقد كانت** موزعة بين المذاهب الأربعة: الشافعي، فالحنفي، فالحنبلي، وأخيراً المالكي.

وقد كان بدمشق وحدها ثلاث وستون مدرسة للشافعية سنلقي الضوء عليها لاحقاً وكان أهمها المدرسة البادرائية، والأمينية، والركنية، والشامية البرانية ولما كانت الأخيرة أكبرها وأشهرها نتكلم عنها لأخذ فكرة عن هذه المدارس. تقع هذه المدرسة ـ التي لا تزال إلى اليوم ـ في منتصف الطريق الممتد من سوق صاروجا إلى العقيبة التي كانت تعرف بمحلة العونية، بنتها «ست الشام» الأيوبية أخت صلاح الدين والعادل، وتعرف هذه المدرسة أيضاً بالحسامية لأن حسام الدين لاجين ابن ست الشام قد دفن فيها مع والدته المذكورة[٣]. وقد أوقف على هذه المدرسة ثلاث مئة فدان وأشترط ألا يجمع المدرس بينها وبين غيرها ولكن هذا الشرط لم يراعى، وقد حضر التدريس فيها الإمام العالم نجم الدين بن حجي وقد خلع عليه نائب الشام الذين كان حاضراً مع أركان حكومته والفقهاء وقد جلس النائب على يسار الإمام المذكور في حين جلس القضاة عن يمينه[٤]. وكانت الدروس تلقى بها مرتين في اليوم الأولى في الصباح والثانية بعد العصر. وقد بقيت هذه المدرسة عامرة بالطلبة طوال العهد

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٩. بدران: منادمة الاطلال ص٢٣.

(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣١. (حيث يذكر أن الزملكاني باشر مشيخة دار الحديث الأشرفية، وأخذ في التفسير والحديث والفقه).

(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٧٧. ـ بدران: منادمة الاطلال ص١٠٤.

(٤) النعيمي: الدارس ج١ ص٢٨٨.

المملوكي وعندما ثار جانبردي الغزالي جعل نفسه قيماً عليها، ومن ثم إضمحل أمرها شأنها في ذلك شأن معظم دور العلم في العصر العثماني[(١)].

وكان للاحناف اثنتان وخمسون مدرسة، منها الجهاركسية، والجوهرية، والخاتونية، والظاهرية، والنورية.

وقد كانت المدرسة النورية مشتركة بين الحنفية والشافعية[(٢)].

أما مدارس الحنابلة فكانت إحدى عشرة منها «الجوزية» في سوق البذورية، والشريفة في العمارة، والمدرسة الصدرية وقد درّس بها عالم الشام ابن قيم الجوزية وأخيراً المدرسة العمرية بالصالحيه وهي أكبر مدارس الحنابلة وأهمها[(٣)]. وقد كان بها سبع يُقرأ كل يوم في الإيوان القبلي، وبها قراءة الثلث، وبها المقصورة يقرأ فيها طوال الليل.

ولم يكن للمالكية بدمشق إلا أربع مدارس هي الزاوية المالكية في الجامع الأموي، والمدرسة الشرابيشية بدرب الشعارين، والصمصامية بالعصرونية، وأخيراً المدرسة الصلاحية قرب البيمارستان النوري[(٤)].

مدارس الصوفية:

وإلى جانب هذه المدارس الدينية كان هناك الخوانق والربط والزوايا (وهي دار الصوفية يتعلم فيها المتصوفون العلوم الدينية. وكان بدمشق تسع وعشرون خانقاه، وأماالرباط فقد بني أصلاً ليكون مركزاً للجهاد الديني، ولما كان المماليك هم الذين يتولون الدفاع عن البلاد، فإنه لم يعد الرباط يختلف عن الخانقاه والزاوية وكان بدمشق وحدها ثلاث وعشرون رباطاً. وأما المساجد وهي مراكز التعليم الهامة فقد بلغ عددها في دمشق حوالي ثلاثة مئة وأربعين مسجداً منها حوالي أربعين مسجداً تقام فيه صلاة الجمعة وتلقى فيها الدروس ومن أهمها جامع العقيبة المعروف بجامع التوبة، وجامع يلبغا، وجامع تنكز، وكانت تقام فيها الجمع على أساس أنها (خارج البلد).

وعندما جاء العثمانيون توسع الناس في إقامة الجمع في المساجد الصغيرة، فضاع بذلك معنى الجمع والجماعة.

---

(١) ابن طولون: مفاكهة الخلان ج٢ ص١٠٢.

(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٧٣ ـ ٦٥١.

(٣) النعيمي: الدارس ج٢ ص٢٩ ـ ١٢٠. وتقع هذه المدرسة بجانب قصر العظم وقد تحولت لمسجد.

(٤) النعيمي: الدارس ج٢ ص٣ ـ ١٠.

المدارس الدنيوية:

أ ـ مدارس الطب:

كان يوجد في دمشق إلى جانب المدارس الدينية ثلاث مدارس للطب هي:

١ ـ المدرسة الدخوارية: التي كانت قائمة جنوبي الجامع الأموي، وقد بناها الطبيب مهذب الدين دخوار الذي كان رئيساً للأطباء في مصر والشام، وممن درّس بها الطبيب العربي ابن النفيس، تلميذ دخوار.

٢ ـ المدرسة الدنيسرية: تقع غربي البيمارستان النوري بناها الطبيب عماد الدين الدنيسري.

٣ ـ المدرسة اللبودية: النجمية التي أنشأها يحيى اللبودي وتقع في طريق المزة مقابل حمام الفلك[١].

وكان بدمشق ثلاثة بيمارستانات يشرف عليها أطباء المدارس وتلاميذهم هي:

١ ـ البيمارستان الصغير قرب الجامع الأموري.

٢ ـ البيمارستان القيمري غرب الجامع.

٣ ـ البيمارستان النوري جنوبي العصرونية وهو أشهر هذه البيمارستانات الذي بناه نور الدين الزنكي وهو لا يزال موجوداً حتى الآن.

ب ـ المدرسة الحربية:

تختص هذه المدارس بتربية المملوك وهو صغير في طباق انشئت له خصيصاً ـ ليتعلم أصول الدين ويشرف عليه أساتذة حتى سن البلوغ ـ ليتعلم ويتدرب على شؤون السلاح بكل أنواعه ويتخرج ليقاتل في صفوف الجيش. .

ج ـ ولم نعثر على مدارس استقلت بتعليم الرياضيات ـ والعلوم ـ والتاريخ وباقي العلوم الإنسانية.

٢ ـ قصبة الشمال حلب:

ـ خوانق حلب وربطها وزواياها ومدارسها في العصر المملوكي.

لقد أنشئت هذه الخوانق والربط والزوايا والمدارس في مدينة حلب في العصر الذي نشأت فيه بدمشق والقدس وطرابلس وباقي المدن الشامية. ومن حيث الشكل والمضمون متقاربة وكانت متشابهة أيضاً من حيث التخصص: القرآن الكريم،

---

(١) النعيمي: مختصر الدارس في تاريخ المدارس ص١٣٨. نفسه: الدارس ج٢ ص١٢٧. بدران: منادمة الاطلال ص٢٥٢.

الحديث الشريف علوم الفقه، والطب. وكانت المدرسة تأوي المعلم والمتعلم معاً. حيث كانت أوقات التعليم متقاربة زمنياً مع مدارس الدولة ومتفاوتة مع المدارس الخاصة حسب شروط الواقف.

وكان يوجد في مدينة حلب وحدها ما يقارب ستة وثمانون مدرسة ـ من الخوانق والربط والزوايا وهو ما أنشيء ابتداءً من عصر نور الدين الزنكي مروراً بالعصر الأيوبي حتى المملوكي. وما انشيء جديداً في العصر المملوكي أحد عشر داراً من الخوانق والزوايا. أهمها خانقاه السحلولية ـ رباط قراسنقر ـ زاوية التسيمي ـ الزاوية الجوشنية ـ زاوية الأطعافي ـ زاوية خضر ـ زاوية القادرية ـ زاوية قطليجا ـ زاوية الشيخ يبرق ـ زاوية بابا بيرم ـ زاوية تغري برمش. وهناك خانقات ومدارس وزوايا اندثر معظمها.

ـ أما بالنسبة للمدارس فكان يوجد في حلب سبع وتسعون مدرسة. منها ما بني في العصر المملوكي أثنا عشر مدرسة، مع إهتمام المماليك على بقية المدارس وتحسين وضعها وبنائها والإعتناء بطرق التدريس فيها ومن أهم المدارس فيها[١] «مدرسة القطيسة ـ المدرسة الألجانية ـ المدرسة الناصرية ـ المدرسة الطرنطانية ـ المدرسة البلاطية وهي على المذهب الحنفي. والمدرسة الدلغادرية بناها ناصر الدين محمد بن دلغادر ووقفها على الحنفية وقرر لها شهاب الدين المرعش وأما ابن الشحنة يقول: «فبلغ عدد المدارس المسجلة بحلب في العهد المملوكي سبع مدارس (٣٥٧ ـ ٩٢٢هـ/ ١٢٥٨ ـ ١٥١٦م)[٢].

٣ ـ قصبة الجنوب القدس:

مدارس بيت المقدس كمدارس حلب ودمشق من حيث البناء والوقوف عليها ومعظم هذه المدارس من عمل الملوك والأمراء والأغنياء والعلماء. ولم يكتب لهذه المدارس البقاء كثيراً لأنها من عمل الأفراد ودائماً عمل الأفراد مهدد بالوهن في كل قرن. وأقدم مدارس بيت المقدس هو ما بني في عهد صلاح الدين عندما أستخلص المدينة من أيدي الصليبيين.

وكان عدد مدارس القدس يزيد على خمس وأربعين مدرسة بنيت كلها في عهد المماليك وكانت تدرس الفقه على المذاهب الأربعة أسوة بمدارس بلاد الشام قاطبة ومن أهم مدارسها: المدرسة التنكزية، والمدرسة الأشرفية بناها الملك الأشرف قايتباي ٨٨٥هـ وكانت قبتها ثالث القباب بعد قبة الصخرة وقبة الأقصى.

المدرسة الخاتونية، والمدرسة المنجكية، والجاولية، والمدرسة المالكية،

(١) محمد كردعلي: خطط الشام ص٦٤٤ ـ ١٤٦.

(٢) ابن الشحنة: الدر المنتخب ص٢٣٣ ـ ٢٣٤.

والمدرسة الطولونية، والمدرسة الكاملية، والمدرسة الوجيهية، وسيأتي ذكرهما بالتفصيل لاحقاً.

وكان بناء هذه المدارس من الحجر الجيد وفيه يتجلى جمال الهندسة العربية ـ وإلى جانب هذه المدارس في القدس ودمشق وحلب كان يوجد مدارس في طرابلس بنيت في العصر المملوكي كالمدرسة القرطائية أفخم مدارس طرابلس كلها وهي بقرب الجامع الكبير بنيت ١٣٢٧م، مدرسة تغري برمش.

المدرسة الزريقية على نهر أبو علي ـ المدرسة السقرقية ـ المدرسة الخاتونية ـ المدرسة الشمسية ـ والمدرسة الهندية (المشهد) على مدخل الجامع الكبير.

ويوجد في طرابلس مدارس وزوايا وخوانق لا نعلم اسم بانيها ولا زمن بنائها والبعض مهجور متداع، ويمكنني القول أن أكثر من ١٠٠ مدرسة يوجد في طرابلس موزعة تحت الأنقاض وبعضها أطلال.

ومن مدارس الشام أيضاً:

١ ـ مدرسة حصن الأكراد.

٢ ـ مدرسة غزه.

٣ ـ مدارس حمص.

٤ ـ مدارس حماة.

٥ ـ وهناك مدارس للنصارى في طرابلس والقدس ودمشق. نشأت هذه المدارس وإلى جانب المدارس الدينية في بلاد الشام كانت هناك مدارس طبية.

١ ـ بيمارستان حران ـ بيمارستان الرقة ـ بيمارستان نصيبين ـ بيمارستان انطاكية ـ بيمارستانات حلب ـ بيمارستان صفد ـ بيمارستان غزة ـ بيمارستان الكرك[١] ـ بيمارستان حصن الأكراد ـ بيمارستان الرملة ـ بيمارستان نابلس ـ المارستان النوري في حماة ـ ومارستانات في طرابلس وهناك مدارس حربية تخص تربية الفارس المملوكي بالطباق على شؤون السلاح وعلى التعليم الديني معاً.

وبعد استعراضنا لمدارس بلاد الشام الدينية الدنيوية وقبل الكتابة التفصيلية عنها لاحقاً نسوق عدة استنتاجات هي الآتي:

ـ إذا قارنا عدد مدارس الفقه، بعدد مدارس القرآن الكريم والحديث الشريف نجد أن عدد الأولى كان كبيراً على العكس من عدد الأخيرة، في كل بلاد الشام. ومرد ذلك ـ برأينا ـ يعود إلى الأسباب التالية:

---

(١) ابن حجر: الدر الكامنة ج٣ ص٢١.

١ ـ إن الأيوبيين والمماليك كانوا ـ كما المحنا سابقاً ـ حريصين ـ على إنشاء مدارس الفقه والإكثار منها لمحو آثار المذهب الفاطمي في مصر والشام وتثبيت المذهب السني. ولا سيما أن الخطر الفارسي لم يكن عنهم ببعيد.

٢ ـ إن مدارس الفقه كانت بمثابة مدارس رسمية، تخرّج القضاة وأصحاب المواريث، ووكلاء بيوت المال... وهذا يتطلب معرفة تامة بالأحكام، ولذلك أقبل الطلبة على مدارس الفقه.

٣ ـ إن التعصب المذهبي دفع ببعض المتحمسين لهذا المذهب أو ذاك من مذاهب الفقه إلى إقامة المدارس الفقهية على مذهبهم رغبة في نصرته ونشره.

٤ ـ وإذا اخصصتُ دمشق عن غيرها من مدن بلاد الشام بالدراسة المطولة، لأن دمشق تأتي بعد القاهرة لوفرة مصادرها ومراجعها من جهة ـ ولغناها بالمدارس ورجال الفكر والدين من جهة ثانية. وللأمانة العلمية لا أميز بلد عن آخر من بلاد الشام ببحثي إلا بمقدار ما يتوفر من مصادر ومراجع لهذا الموضوع.

وإليكم صورة مفصلة عن إتجاهات هذه المدارس في بلاد الشام.

ثانياً ـ إتجاهات المدارس في العصر المملوكي في بلاد الشام

١ ـ مدارس دينية.

٢ ـ مدارس دنيوية.

١ ـ **المدارس الدينية**: هي التي تبحث وتدرّس في أصول الدين.

أ ـ دور القرآن / الموقع والمؤسس.

ب ـ دور الحديث / الموقع والمؤسس.

ج ـ التصوف / الخوانق والربط والزوايا.

أ ـ دور القرآن

كان في دمشق وحدها سبع دور للقرآن وكانت كلها قد انشئت بالعهد المملوكي وهي الآتي:

١ ـ **دار القرآن الخيضرية**: موقعها: شمالي دار الحديث السكرية بالقصاعين في دمشق(١). وتنسب إليها اليوم محلة الخيضرية(٢). وهي معروفة مشهورة في زمننا تقام

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٧.

(٢) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٦٩.

فيها الصلوات الخمس ويتعاهدها في بعض الليالي جماعة من المتصوفة الشاذلية الفاسية فيقيمون بها الأذكار ويقرؤون بالخيضرية الأوراد وبعضاً من الكتب[١]. وأما نعتها: فإنها واقعة في الجانب الشرقي من الزقاق المسمى بالخضيرية المتصغير ويصعد إليها بمرقايين، وجدارها الغربي بني بالحجر الأبلق وتحته سقاية، وفيه الباب وقنطرته من الحجر الأبلق أيضاً وهو متين وفي وسطه صحيفة من النحاس مستديرة[٢].

منشئها: أنشأها في سنة ثمان وسبعين وثمانمائة هجري قاضي القضاة قطب الدين أبو الخير محمد بن محمد بن عبدالله بن خيضر الخيضري الدمشقي الحافظ[٣]، ورتب فيها الفقراء والجوامك والخبز، ووقف على تربيته، لصيق المنجكية بمحلة مسجد الذبان وعلى مطبخ باب الفراديس ومطبخ بني عديسة بالمدينة النورة، أوقافاً دارة. ولد سنة إحدى وعشرين وثمانمائة بدمشق ونشأ يتيماً في حجر والدته وحفظ القرآن والتنبيه واشتغل بالحديث وسمع بمكة المشرفة والقدس وبعلبك ومصر وتفقه بالتقي ابن قاضي شهبة[٤]. أخذ النحو عن البصروي وخرج له التحرر وفهرس مشيخة وله مؤلفات منها طبقات الشافعية، وشرح الألفية أي الفية العراقي[٥] وشرح التنبيه وولي تدريس دار الحديث الأشرفية ووكالة بيت المال وكتابة السر وقضاء الشافعية. توفي رحمه الله تعالى سنة أربع وتسعين وثمانمائة ودفن بتربة القاهرة[٦]. «ووقف على هذه الدار أوقافاً جمة وقد بقي اليوم جزء صغير منها استحال زاوية للشاذلية»[٧].

٢ ـ دار القرآن (الجزرية):

موقعها: تقع بدرب الحجر[٨]. وهو في أواخر السوق الكبير من الباب الشرقي إنها صارت داراً للسكن فصارت مراتع غزلان بعد أن كانت مراتع علماء وطلاب[٩]. (ولعل درب الحجر هو طريق الجركسية قرب الدلامية فتكون دار الشيخ محمد في حارة الشرباتي)[١٠].

منشئها: أنشأها محمد بن محمد بن يوسف الحافظ الإمام المقري شمس الدين بن الجزري[١١].

(١) عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٥. (٢) عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٥.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٧ ـ ٣. ـ كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٦٩.
(٤) هو تقي الدين أبو بكر بن شهاب الدين أحمد بن محمد بن قاضي شهبة توفي سنة ٨٥١هـ: ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٢٦٩. (٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٥٥.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٧.
(٧) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٦٩. (٨) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص٢١٩.
(٩) عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٩ ـ ١٠.
(١٠) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٠. (١١) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٢٠٤.

ولد ليلة السبت الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة إحدى وخمسين وسبعمائة بدمشق وتفقه بها ولهج بطلب الحديث والقرآن وبرز في عالم القراءات وعمّر مدرسة للقراء وسماها دار القرآن وأقرأ الناس وعُيّن لقضاء الشام مدة، ثم عرض عارض فلم يتم ذلك وقدم القاهرة مراراً وكان مثرياً وشكلاً حسناً وفصيحاً بليغاً توفي في أوائل سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة(١).

٣ ـ دار القرآن الدلامية:

موقعها: بالقرب من المارداتية بالجسر الأبيض بالجانب الشرقي من الشارع الآخذ إليه بالصالحية وفيها تربة الواقف(٢).

منشئها: أنشأها الجناب الخواجكي الرئيسي الشهابي أبو العباس أحمد بن المجلس الخواجكي زين الدين دلامة ابن عز الدين نصرالله البصري أجل أعيان الخواجكية بالشام إلى جانب داره ووقفها سنة سبع وأربعين وثمانمائة ورتب لها إماماً(٣) وله من المعلوم مائة درهم وقيماً وله مثل الإمام وستة إنفار من الفقراء الغرباء المهاجرين في قراءة القرآن ولكل منهم ثلاثون درهماً في كل شهر. وستة أيتام ولكل منهم عشرة دراهم في كل شهر أيضاً وقرّر لهم شيخاً وله من المعلوم ستون درهماً في كل شهر(٤) وناظراً له من المعلوم في الشهر ستون درهماً وعاملاً وله من المعلوم كل سنة ستمائة درهم، ورتب للزيت في كل عام مثلها وللشمع لقراءة البخاري والتراويح مائة درهم، ولأرباب الوظائف خمسة عشر رطلاً من الحلوى ورأسي غنم أضحية، ولكل من الأيتام جبّة قطنية وقميصاً ومنديلاً، وقرر قارىء يوم الثلاثاء من كل أسبوع وله في الشهر ثلاثون درهماً وشرط على أرباب الوظائف حفظ حزب الصباح والمساء لابن داود(٥) يقرؤونه بعد صلاة الصبح والعصر، وأن يكون الإمام هو القارىء للبخاري والقارىء على ضريح الواقف، والقيم هو البواب والمؤذن ثم توفي رحمه الله تعالى من ثامن عشر محرم سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة وقد قارب الثمانين وأول من باشر الإمامة والمشيخة الشيخ شمس الدين البانياسي وقراءة الميعاد الشيخ شمس الدين بن حامد(٦).

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٨.

(٢) النعيمي: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٣) النعيمي الدارس ج١ ص٤٠٨. ـ كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٠.

(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٨ ـ ٩. ـ كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٠.

(٥) زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي بكر توفي سنة ٨٥٧هـ ـ ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٢٨٨.

(٦) محمد بن عيسى بن ابراهيم توفي سنة٧٧٨هـ ـ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٩.

ويقول العلّامة عبد القادر بدران: «أخبرني أحد المقيمين بها أن أيدي المختلسين تناولتها قديماً فجعلوا نصفها داراً، والنصف الآخر جنينة للورد والأزهار التي يزرعها أهل الصالحية ويبيعونها. فلما كانت سنة ثلاثمائة وألف للهجري أنتدب لها الثري المحسن علي بك ابن مردم باشا المؤيد العظمي فاستخلصها من يد مختلسيها، وبنى على الطراز الذي هي عليه الآن»[١].

٤ ـ دار القرآن الرشائية:

موقعها: تقع بدرب الخزاعية شمالي الخانقاه السميساطية بباب الناطفانيين[٢] الملاصقة للجامع الأموي.

منشئها: أنشأها رشأ بن نظيف بن ما شاء الله أبو الحسن الدمشقي في حدود سنة أربعمائة هجري وله دار موقوفة على القراء توفي رحمه الله سنة أربع وأربعين وأربعمائة[٣].

ويقول العلامة عبد القادر بدران: بأنها قد أنشئت سنة خمس وثلاثين وسبعمائة بيان الناطفانيين ثم تغير اسمها وبقي المكان على حاله[٤] مأخوذ عن البرزالي.

٥ ـ دار القرآن السنجارية:

موقعها: تقع تجاه باب الجامع الشمالي المسمى الناطفانيين[٥].

منشئها: علاء الدين علي بن اسماعيل بن محمود السنجاري سنة خمس وثلاثين وسبعمائة[٦] وواقف دار القرآن عند باب الناطفانيين شمالي الأموي بدمش، وكان أحد التجار الصدق الأخيار ذوي اليسار المسارعين إلى الخيرات.

وقال الحافظ البرزالي: «في سنة خمس وثلاثين وسبعمائة وصل الخبر إلى دمشق بموت علاء الدين السنجاري التاجر المشهور وكانت وفاته بالقاهرة ودفن عند قبر القاضي شمس الدين ابن الحريري وكان رجلاً جيداً فيه ديانة وبر وأنشأ دار القرآن السنجارية قبالة باب الناطفانيين أحد أبواب الجامع الأموي بدمشق ورتب فيها جماعة يقرؤون القرآن ويتلقونه وله مواعيد حديث. . . وأنه مات فجأة وكانت جنازته حافلة»[٧].

---

(١) بدران: منادمة الاطلال ص١٦.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٩.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٩.
(٤) العلامة عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص١٦.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١١ـ٥. ـ كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٠.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١١ـ٦. ـ بدران: منادمة الاطلال ص١٧.
(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٨٨.

٦ ـ دار القرآن الصابونية:

موقعها: تقع خارج دمشق قبلي باب الجابية غربي الطريق العظمى ومزار أوس الصحابي رضي الله عنه، وبها جامع حسن بمنارة تقام فيه الجمعة وتربة الواقف وأخيه وذريتهما.

منشئها: أنشأها المقر الخواجكي أحمد الشهابي القضائي ابن علم الدين ابن سليمان ابن محمد البكري الدمشقي المعروف بالصابوني[(١)]. ابتدأ في عمارة ذلك الجامع في شهر ربيع أول سنة ثلاث وستين وثمانمائة وفرغ منه في سنة ثمان وستين وثمانمائة وخطب به قاضي القضاة جمال الدين يوسف ابن قاضي القضاة الدين أحمد الباعوني[(٢)]. ثم توفى فتولاها ابن الجبرتي[(٣)]. وقال النعيمي: «وشرّط الواقف النظر في ذلك لنفسه ثم لذريته ثم نصف النظر لحاجب دمشق كائناً من كان والنصف الآخر للإمام وشرط قراءة البخاري في الثلاثة أشهر وشرط في الخطيب أن يكون شافعي المذهب والإمام أن يكون من الطائفة الجبرتية وأن يكون حنفياً وأن يكون معه عشرة فقراء من جنسه يقرئهم القرآن الحكيم وجعل للإمام في المكان المذكور قاعة لسكنه وعياله، وجعل للفقراء خلاوي عدة عشرة، وجعل للمنارة عدة ستة مؤذنين وجعل قيماً وبواباً وفراشاً وجابياً للوقف، وبنى أيضاً تجاه المكان المذكور بشرق مكتباً لأيتام عشرة بشيخ يقرئهم القرآن، بمعاليم شرطها لهم معلومة تصرف عليهم من جهات عديدة منها: عدة قرى غربي مدينة بيروت وتعرف هذه القرى بالصابونية، ومنها جميع قرية مذّيري بالغوطة من المرج الشمالي، ومنها قرية ترحيم بالبقاع عدة فدان ونصف فدان ومنها بقرية الصويرة أربعة فدادين ومنها القرعون بالبقاع ربعها ومنها بقرية كحيل بحوران ستة فدادين... ومنها جوار الجامع الأموي قاعتين ومنها جوار المارستان النوري أربع طبقات... ومنها بالقضمانية أربعة حوانيت ومنها بباب الجابية ستة حوانيت ومنها بمحلة سوق الهواء خان. وما وقفه أيضاً يوسف الرومي مملوك الواقف غربي مصلى العيدين بستان، وبقرية كفرسوسية معصرة زيتون وقاعة واحدة لصيق الجامع والتربتين وطبقة أخرى قبلي ذلك»[(٤)]. ولا

(١) السخاوي: الضوء اللامع ج٢ ص١١٣.١. ـ بدران: منادمة الاطلال ص١.١٧. ـ كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٠.

(٢) هو يوسف بن احمد بن ناصر توفي سنة ٨٨٠هـ. ـ ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٣٣٠.

(٣) هو معروف الجبرتي (بعد عبد الصمد الجبرتي) توفي سنة ٩٠٥هـ. ـ ابن العماد: شذرات الذهب ج٨ ص٢٦٦.

(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٢ ـ ١٣. ـ عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص١٨ ـ ١٩.

تزال هذه الدار باقية إلى اليوم وهي مدفن السادة بني البكري[١].

٧ ـ دار القرآن الوجيهية:

موقعها: تقع قبلي المدرسة العصرونية والمسرورية وغربي الصمصامية التي هي شمال الخاتونية وإلى زقاقها يفتح بابها[٢].

منشئها: أنشأها الشيخ وجيه الدين محمد بن عثمان بن المنجا التنوخي رئيس الدماشقة، توفي سنة إحدى وسبعمائة للهجري وكان صدراً محترماً ديناً محباً للأخيار صاحب أملاك ومتاجر وبرّ وأوقاف، أنشأ داراً للقرآن الكريم بدمشق ورباطاً بالقدس الشريف وعمل ناظراً لجامع الأموي تبرعاً وكان مع سعة ثروته مقتصداً في ملبسه وتوفي بدار القرآن في التاريخ المتقدم[٣]. ويقول عبد القادر بدران: «فلما فتحت سوق الحميدية أدخل هذا البناء في السوق ولم يبق له رسم ولا طلل. ومهما يكن فإنها إما أن تكون قد صارت دوراً للسكنى. وأخبرني بعد التقات أنه كان يعرف زقاقاً بجانب العصرونية الجنوبي، وفي التنصيص على إنها كانت أثراً في محلها وذخراً لواقفها»[٤].

ويقول كرد علي: «درست وأصبحت مخازن ودوراً»[٥].

ب ـ دور الحديث

عني المسلمون أي عناية برواية الحديث الشريف لفهم السنة والكتاب وللتبرك والتفقه. وأول من بنى دار حديث في الشام وربما كانت مدرسته الأولى من نوعها في بلاد الإسلام نور الدين محمود بن زنكي وكثرت دور الحديث بعد ذلك. وكان في دمشق وحدها ستة عشر داراً للحديث[٦].

ومن دور الحديث التي أنشئت في العصر المملوكي هي التالي:

١ ـ دار الحديث الأشرفية: جوارباب القلعة ـ فاشترى الملك الأشرف الدار من الأمير قايماز وبناها دار حديث. وسيأتي ذكرها عن المدرسين.

(١) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧١.

(٢) النعيمي: الدارس ج١ ص١٣.١. ـ بدران: منادمة الاطلال ص٣.٢٢. ـ كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧١.

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص٣٨ ـ ٣٩.

(٤) بدران: منادمة الاطلال ص٢٢.

(٥) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧١.

(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤.٥٠١. ـ النعيمي: الدارس ج١ ص٥.

١ ـ دار الحديث البهائية:

موقعها: داخل باب توما[١] في دمشق.

منشئها: بهاء الدين أبو محمد القاسم ابن الشيخ بدر الدين أبي غالب المظفر ووقف آخر عمره داره المعروفة (دار حديث)[٢]. وتوفي منشئها سنة ٧٢٣هـ وليس لها اليوم أثر[٣].

٢ ـ دار الحديث الحمصية:

موقعها: المعروفة بحلقة صاحب حمص، لم تقف له على ترجمة[٤]. وهذه لم تكن دار حديث مستقلة وإنما كانت حلقة في الجامع الأموي لإقراء الحديث، وكان لها وقف يقوم بمصالحها[٥]، وإنها كانت في سويقة صاروجا أمام جامع الشامية بدىء بإختلاسها منذ سنة (٩٠٠هـ)[٦].

٣ ـ دار الحديث الدوادارية والمدرسة والرباط:

موقعها: داخل باب الفرج وهو باب المناخلية اليوم وهي غير معروفة لعهدنا ولعلها الدار الكائنة أمام بحرة الدفاقة فظاهرها يدل على ذلك[٧].

منشئها: وفي سنة ثمان وتسعين وستمائة للهجري وقف الأمير علم الدين سنجر الدوادار رواقه داخل باب الفرج دار حديث ومدرسة وولي مشيخته الشيخ علاء الدين العطار[٨]. والأمير سنجر هذا كان من نجباء الترك وشجعانهم وعلمائهم وله مشاركة جيدة في الفقه والحديث، وفيه ديانة وكرم وسمع الكثير من الزكي المنذري[٩] والرشيد العطار[١٠] وطبقتهما له معجم كبير وأوقاف دمشق والقدس، تحيز إلى حصن الأكراد فتوفي في شهر رجب عن بضع وسبعين سنة.

ويحدثنا النعيمي في كتابه الدارس عن هذا الأمير فيقول[١١]: «سنجر الأمير

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٣.٥. ـ عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٣٤.

(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٣.

(٣) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٢. (٤) النعيمي: الدارس... ج١ ص٤٥.

(٥) عبدالقادر بدران: منادمة الاطلال ص٣٥. (٦) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٢.

(٧) النعيمي: الدارس ج١ ص٤.٤٩. ـ كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٢.

(٨) النعيمي: الدارس... ج١ ص٤٩.

(٩) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٧٧.

(١٠) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣١١.

(١١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٠.

الكبير العالم المحدث أبو موسى الدواداري، ولد سنة نيف وعشرين وستمائة وتوفي سنة تسع وتسعين وستمائة وقدم من الترك في حدود سنة أربعين وستمائة وكان مليح الشكل مهيباً كبير الوجه خفيف اللحية، صغير العينين، ربعة من الرجالة حسن الخَلق والخُلق، فارساً شجاعاً، ديناً خيّراً عالماً فاضلاً، مليح الخط حافظاً لكتاب الله تعالى، قرأ القرآن على الشيخ نجيب الدلاصي وغيره وحفظ الإشارة في الفقه للشيخ سليم الرازي، وحصل له عناية بالحديث وسماعه سنة بضع وخمسين، وسمع الكثير وكتب بخطه وحصّل الأصول وخرّج له المزي جزئين عوالي وخرّج له البرزالي معجماً، في أربعة عشر جزءاً، وخرّج له ابن الظاهري قبل ذلك معجماً. سار بكسوة البيت الشريف بعد أن أخذ بغداد من الديار المصرية وقبل ذلك كان نائبها الأشبادار من الخليفة وحجّ مرة هو وإثنان من مصر على الهجن. وكان من الأسرى في أيام الظاهر بيبرس ثم أعطي أمرة حلب ثم قدم دمشق ووُلي الشدمرة، ثم كان من أصحاب سنقر الأشقر ثم أُمسك ثم أعيد إلى رتبته وأكثر، ثم أُعطي خبزاً وتقدمة على الألف، وتقلبت به الأحوال وعلت رتبته في دولة الملك المنصور حسام الدين لاشي وقدمه على الجيش في غزوة سس. وكان لطيفاً مع أهل الصلاح والحديث يتواضع لهم ويحادثهم ويؤانسهم ويصلهم وله معروف كثير وأوقاف بدمشق والقدس، وكان مجلسه عامراً بالعلماء والشعراء والأعيان، وسمع الكثير بمصر والشام والحجاز وروى عن الزكي عبدالعظيم والرشيد العطار وابن عبد السلام وطائفة بدمشق وهبة الله ابن رزين وأحمد بن النحاس بالأسكندرية وعبد الله بن علي بن معن وبإنطاكية وحلب المحمية وبعلبك والقدس وقوص والكرك وصفد وحماة وحمص وطيبة والفيوم وجدّة وقلّ من أنجب من الترك مثله، وسمع منه خلق كثير بدمشق والقاهرة وشهد الوقعة وهو ضعيف ثم التجأ بأصحابه إلى حصن الأكراد فتوفي به ليلة الجمعة، ثالث عشر رجب بتاريخ تقدم».

٤ ـ دار الحديث السامرية:

موقعها: وهي إلى جانب الكروسية بدمشق، وكانت قديماً تعرف بدار ابن قوام بناها من حجارة منحوتة كلها[١]. وهي موجودة اليوم ولم يبق منها غير المدفن ويقال للحي زقاق السلمي[٢]. وهو مقابل للزقاق الذي وراء سوق البزورية من جهة الشرق، وقد صارت اليوم دوراً للسكنى فإنمحى أثرها وأندرست أطلالها ولم يبق منها سوى أحجار في أساس جدار تشير إليها[٣].

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٥.
(٢) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٢. (٣) عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٤٤.

منشئها: وبها خانقاه أوقفها الصدر الكبير سيف الدين أبو العباس أحمد بن محمد ابن عليّ بن جعفر البغدادي السامرّي نسبة إلى مدينة سرّ من رأى وهي بلدة على الدجلة وينسب إليها أيضاً بلفظة السرمري وهي إلى جانب الكروسية كما ذكرت وكانت داره التي يسكن فيها فدفن بها بعد أن وقفها دار حديث وخانقاه وكان قد إنتقل إلى دمشق وأقام بها بهذه الدار مدة[١].

وكان السامرّي كثير الأموال حسن الأخلاق معظماً عند الدولة جميل المعاشرة له أشعار رائعة ومبتكرات فائقة توفي رحمه الله تعالى يوم الأثنين ثامن عشر شعبان سنة ست وتسعين وستمائة للهجري وقد كان له خطوة ببغداد عند الوزير ابن العلقمي[٢].

وامتدح المستعصم[٣] وخلع عليه خلفه سوداء أو سنية. ثم قدم دمشق في أيام الناصر صاحب حلب فحظي عنده أيضاً، فسعى فيه أهل الدولة فصنف فيهم أرجوزة فتح عليهم بسببها باب مصادرة الملك لهم بعشرين الف دينار، فعظموه جداً وتوسلوا به إلى أغراضهم[٤].

٥ ـ دار الحديث السكرية:

موقعها: «بالقصاعين داخل باب الجابية وبها خانقاه لم أقف لواقفها على ترجمة»[٥].

ويقول كرد علي: «بالقصاعين وهو أول سوق الخلق داخل باب الجابية وهي ما يظهر داخل الدخلة شرقي جامع شركس وقد درست»[٦].

منشئها: لم نحصل على واقفها من ترجمة ويقول العلامة عبد القادر بدران: «ونحن لم نقف لها على أثر! ولقد وقفت حذاء باب الجابية، فرأيت بجانبه من القبلة زقاقاً يسمى الآن زقاق البرغل ثم مشيت شرقاً نحواً من سبعين خطوة فرأيت بالجانب القبلي مسجداً سقفه معقود بالحجر وهو قديم قد بدا لأعلاه أن يسقط. وفي جانبه قبر، مكتوب على الشباك المقابل له: هذا قبر سيدي سركس، بخط حديث. وأمام هذا الجامع من الشمال بركة ماء عليها آثار القدم. فلعل هذا الجامع هو الخانقاه، والمدرسة هي الدور التي بجانبه. ويمكن أن تكون المدرسة والخانقاه في جانب تلك

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٤ ـ ٥٥.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٧٢.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٧٠.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٥.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٦.
(٦) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٣.

البركة، ثم أختى عليها الزمان ودخلت في السوق فصارت حوانيت. والحاصل أنها إندرست آثارها وذهبت رسومها وأخنى عليها الذي أخنى على لبد[١].

٦ ـ دار الحديث الشقيشقية:

موقعها: بدرب البانياس[٢]. وهي تقع في ظاهر المدينة[٣].

منشئها: ابن الشقيشقية المحدث نجيب الدين أبو الفتح نصرالله بن أبي العزّ مظفر بن عقيل الشيباني الدمشقي الصفار الشاهد توفي سنة ست وخمسين وستمائة للهجرة وسمع من حنبل وابن طبرزو وروي مسند احمد[٤]. كان أديباً ظريفاً مليح البزه رماه أبو شامة بالكذب ورقة الدين توفي في جمادي الآخرة ووقف داره بدمشق دار حديث ويضيف وهو أحد الشهود المقدوح فيهم ولم يكن بحال أن يؤخذ عنه[٥]. وقال النعيمي: «ولم أقف على أحد وليّ مشيختها»[٦].

٧ ـ دار الحديث العُرْوِيّة:

موقعها: تقع بمشهد ابن عروة بالجانب الشرقي من صحن الجامع الأموي قبلي الحلبية، ويعرف قديماً بمشهد علي رضي الله تعالى عنه[٧].

منشئها: ابن عروة شرف الدين محمد بن عروة الموصلي المنسوب إليه مشهد ابن عروة بالجامع الأموي لأنه أول من فتحه وكان مشحوناً بالحواصل الجامعية. وبنى فيه البركة ووقف على الحديث دروساً ووقف خزائن كتبه فيه، وكان مقيماً بالقدس الشريف فانتقل إلى دمشق إلى أن توفي بها وقبره عند قباب طغتكين[٨] قبلي المصلى.

٨ ـ دار الحديث الفاضلية:

موقعها: بالكلاسة كذا رأيته بخط الشيخ تقي الدين الأسدي[٩].

ويقول العلّامة عبد القادر بدران: «كانت أيام مجدها بالكلاسة وأما الآن فقد

---

(١) اصل البيت هو للنابغة الذبياني:

اضحت خراباً واضحى اهلها احتملوا   اخنى عليها الذي أخنى على لبد.

ـ بدران: منادمة الاطلال ص٤٥.

(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٦٠.

(٣) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٣.

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٢ ص٩٦.

(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٩١.

(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٦١.

(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٦١.

(٨) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص١١٥.

(٩) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٦٧.

صارت بيوتاً للسكنى. وقد شاهدت من آثارها الأيوان وقاعتين بجانبه والمطبخ من ضمنه»[(١)].

منشئها: قال ابن العماد في كلامه على وفاة صلاح الدين[(٢)]: «إن تربية جوار المكان الذي زاره الفاضل في المسجد» والفاضل هو عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد ابن الفرج بن أحمد القاضي محيي الدين وقيل مجير الدين أبو علي ابن القاضي الأشرف ابي الحسن اللخمي العسقلاني المولد المصري المنشأ صاحب العبارة والفصاحة والبلاغة والبراعة[(٣)]. وهي الآن مساكن[(٤)]. ويقول بدران: «نحن الآن لم نر إلا زقاقاً بين التربة المذكورة والجامع يوصل إلى دور معدة للسكن. والوقف عليها مزرعة برتايا لصيق أرض حمورية يفصل بينهما النهر ثم أصبحت بيد الزعني عبد الغني ابن المزلق ثم صارت بيد محب الدين ناظر الجيش سنة خمس عشرة وتسعمائة للهجري[(٥)].

٩ ـ دار الحديث القلانسية:

موقعها: غربي مدرسة أبي عمر رحمه الله تعالى وجامع الأسماء يكون مبارك[(٦)].

ويقول العلامة بدران: «فتشت عنها أثناء كتابتي هذه الأسطر وذهبت إلى الصالحية فدللت على مكانها، فرأيت جيرانها قداختلسوا أكثرها وبقي منها بقية من جهة نهر يزيد! وتلك البقية كانت سابقاً خربة ترمى بها الزبالة، فتهيأ الله لها الشيخ اسماعيل بن علي التكريتي الصالحي فعمّر تلك الخربة وجعل لها مسجداً لطيفاً، وعمّر الدرج الذي ينزل منه إليها، ثم إلى نهر يزيد بالحجر. فكان النهر تحت مسجدها، ينزل إليه المصلون من طرف المسجد من الشرق فيتوضؤون منه. وجعل لها صحناً لطيفاً، وبجانبه مطبخ، وعمّر بالعلو من الجانب الغربي والشمالي ثماني غرف، وأعدها لسكنى الفقراء الذين لا مأوى لهم وكان هذا التجديد بالبناء ستة عشرة وثلاثمائة والف وأسمها الآن خانقاه»[(٧)].

منشئها: أنشأها الصاحب عز الدين أبو ليلى حمزة ابن مؤيد الدين أبي المعالي

(١) بدران: منادمة الاطلال ص٤٨.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٢٩٨.
(٣) النعيمي: الدارس... ج١ ص٦٧.
(٤) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٣.
(٥) العلامة عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٤٩.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٧١.
(٧) العلامة عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٥١ ـ ٥٢.

اسعد بن عز الدين غالب بن المظفر ابن الوزير مؤيد الدين أبي المعالي ابن... التميمي الدمشقي ابن القلانسي أحمد رؤساء دمشق الكبار ولد سنة تسع وأربعين وستمائة للهجري وسمع الحديث من جماعة ورواة(١).

وقال النعيمي: توفي سنة تسع وعشرين وسبعمائة للهجري، وسمعنا عنه، وله رياسة باذخة، وأصالة كبيرة، وأملاك هائلة كافية لما يحتاج إليه من أمور الدنيا، ولم تزل معه صناعة الوظائف إلى أن ألزم بوكالة بيت السلطان ثم بالوزارة في سنة عشرة ثم عزل. وقد صودر في بعض الأحيان. وكانت له مكارم على الخواص والكبار، وله إحسان على الفقراء والمحتاجين، ولم يزل معظماً وجيهاً عند الدولة من النواب والملوك والأمراء إلى أن توفي ببستانه ليلة السبت سادس ذي الحجة وصلي عليه من الغد ودفن بترتبه بسفح قاسيون وله في الصالحية رباط حسن بمأذنة وفيه دار حديث وبر وصدقة(٢).

١٠ ـ دار الحديث القوصية:

موقعها: بالقرب من الرحبة(٣). إنها في الجامع الأموي بجوار الشافعية وهي إحدى حلقات الجامع قديماً وسيأتي الكلام عنها في المدارس الشافعية(٤).

١١ ـ دار الحديث الكروسية:

موقعها: غربي مأذنة الشحم(٥). وهي بجانب المدرسة السامرية(٦).

منشئها: واقف بالكروسية محمد بن عقيل بن كروس جمال الدين محتسب دمشق(٧).

وكان كيساً متواضعاً توفي بدمشق في شوال في سنة إحدى وأربعين وستمائة هجري ودفن بداره التي جعلها مدرسة ـ وستأتي في مدارس الشافعية ـ وله دار الحديث(٨).

١٢ ـ دار الحديث النفيسية:

موقعها: بالرصيف قبلي المارستان الدقاقي وباب الزيادة عن يمنة الخارج منه، شمالي غربي المدرسة الأمينية بالزقاق(٩).

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٧١ ـ ٧٢.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٧٢.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٧٢.
(٤) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٣.٦. ـ بدران: منادمة الاطلال ص٥٧.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٧٣.
(٦) بدران: منادمة الاطلال ص٥٧.
(٧) النعيمي: الدارس... ج١ ص٧٣.
(٨) نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٩) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٨٤.

ويقول بدران: «هذه المدرسة مع البيمارستان دُرسا وأُدخلا في غيرهما فصارا دوراً للسكنى. وبيان موضعها يعسر جداً الآن وباب الزيادة هو باب الجامع القبلي فإذا خرج منه أحد وسار قليلاً كان عن يمينه الآن العنبرانية وهي بيوت خلاء للجامع، ثم تكون الحوانيت ثم بعد العنبرانية سوق قصير من الشرق إلى الغرب في جانبه القبلي الأمينية وفي الشمال زقاق قصير هو الذي سماه العلموي بزقاق الزطي ويقال له الآن (زقاق الأقميم) وفي زمننا كان بجانبه حمام يقال له (حمام القيشاني)، فصار سوقاً وأتصل بهذا الزقاق وفيه كانت المدرسة المذكورة وقد صارت الآن دارين وأخبرني بعض الثقات أن بابها كان ظاهراً وفوقه حجر مكتوب عليه اسم بانيها ولم يزل إلى زمن قريب ثم طين فوقه حتى لا تظهر كتابته، ومحل العنبرانية والأبنية التي بجانبها كان البيمارستان المذكور فتبدلت الأحوال ولله في خلقه شؤون! وأخبرني بعض الثقات أنه سكن داراً لبني اليافي ملاصقة للعنبرانية فرأى به آثار بناء قديم يشبه أن يكون هو البيمارستان المذكور»[1].

منشئها: في سنة ست وتسعين وستمائة للهجرة، أنشأ النفيس إسماعيل بن محمد بن عبد الواحد بن صدقة الحراني ثم الدمشقي ناظر الأيتام وواقف النفيسية بالرصيف وتوفي رحمه الله تعالى «في ذي الحجة منها أو ذي القعدة عن نحو سبعين سنة وقد ولي نظر الأيتام في وقت، وكان ذا ثروة من المال، ودفن بسفح قاسيون بكرة يوم الأحد بعدما صلي عليه بالأموي»[2].

١٣ ـ دار الحديث الناصرية:

موقعها: وبها رباط، بمحلة الفواخير، بسفح قاسيون قبلي جامع الأفرم، الذي انشيء سنة ست وسبعمائة، هذه الناصرية البرانية وستأتي الجوانية[3].

«وأمست حديقة الآن وكانت أنقاضها ظاهرة إلى عهد قريب وأدخلت أحجارها في ترصيف ضفة يزيد وفيها جسر معقود جميل ربما كان الموصل إلى دمشق ويتجاوز عرضه ثلاثين متراً»[4].

منشئها: الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد ابن الملك الظاهر غياث الدين غازي ابن صلاح الدين يوسف بن ايوب بن شادي[5].

---

(١) العلامة بدران: منادمة الاطلال ص٦٠ ـ ٦١.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٨٤ ـ ٨٥.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٨٥.
(٤) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٤.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٨٥ ـ ٨٦.

«وكان كثير البرّ والإحسان والصدقات، محبباً إلى الرعية فيه عدل بالجملة، حسن الأخلاق، محباً لأهل العلم والأدب، وكان سوق الشعر نافقاً في أيامه، وكان يذبح في مطبخه كل يوم أربعمائة كبش من الغنم، سوى الدجاج والطيور والجداء وله نظم حسن، ووقع في قبضة التتار فذهبوا به إلى هولاكو فأكرمه، فلما بلغه أن جيشه قد كسر في عين جالوت غضب وأمر بقتله، فتطلل لهوقال: ما ذنبي؟ فأمسك عن قتله»[١].

١٤ ـ دار القرآن والحديث التنكزية:

موقعها: وهي شرقي حمام نور الدين الشهير بسوق البزورية وتجاه دار الذهب[٢].

منشئها: كانت هذه الدار حماماً يعرف بحمام سويد فهدمه نائب السلطنة تنكز الملكي الناصري وجعله دار قرآن وحديث، وجاءت في غاية الحسن، ورتب فيها الطلبة والمشايخ قاله النعيمي في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة للهجري وقال: «وفيها وفي شهر ربيع الأول توجه نائب السلطنة تنكز الملكي الناصري إلى الديار المصرية لزيارة السلطان فأكرمه وأحترمه وأشترى في هذه السفرة دار الفلوس التي بالقرب من البزوريين والجوزية وهي شرقيهما وقد كان سوق البزوريين يسمى سوق القمح فأشترى هذه الدار وعمّرها داراً هائلة ليس بدمشق دار أحسن منها وسماها دار الذهب، وأجتاز في رجوعه من مصر بالقدس الشريف وزاره وأمر ببناء دار حديث أيضاً فيها خانقاه. ثم قال فيها وفي سادس عشرين في ذي العقدة نقل تنكز حواصله وأمواله من دار الذهب داخل باب الفراديس إلى الدار التي أنشأها وكانت تعرف بدار الفلوس فسميت دار الذهب»[٣].

«وهي الآن مدرسة للصبيان سميت الهاشمية وكان قد هندسها المعمار أيدمر المعني»[٤].

وكان السلطان لا يفعل شيئاً في الغالب حتى يستشيره «أي تنكز» وكان لتنكز كاتب ليس له شغل ولا عمل غير ما يدخل خزائنه من الأموال والنظر في أمور الزكاة وازدادت أمواله وأملاكه، وعمّر الجامع المعروف به بحكر السماق وأنشأ إلى جانبه تربة وحماماً، وعمّر تربة إلى جانب الخواصين لزوجته، وعمّر دار القرآن والحديث

(١) العلامة بدران: منادمة الاطلال ص٦٢.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٩١.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٩١.
(٤) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٤.

إلى جانب داره دار الذهب، وأنشأ بالقدس رباطاً، وعمّر سور القدس وساق إليها الماء وأدخله إلى الحرم، وعمّر على بابه سقاية، وعمّر بها حمامين وقيسارية مليحة إلى الغاية، وعمّر بصفد البيمارستان المعروف به وخاناً وغيرهما وله بجلجولية خان السبيل ويقال له خان المنية وهو في غاية الحسن، وعمّر في الكافوري في القاهرة داراً عظيمة وحماماً وحوانيت. وجدد القنوات بدمشق وكان ماؤها قد تغير، وجدد أبنية المساجد والمدارس، ووسع الطرقات بها وأعتنى بأمرها. وله في سائر الشام آثار وأملاك وعمائر. ثم غضب عليه السلطان وقبض عليه وأقتيد إلى الأسكندرية حيث حبس بها دون الشهر ثم قضى الله فيه أمره وفي أواخر رجب سنة أربع وأربعين وسبعمائة حضر تابوته من الأسكندرية إلى دمشق ودفن في تربة جوار الجامع (تنكز) المعروف بإنشائه»[1].

١٥ ـ دار القرآن والحديث الصبابية:

موقعها: قبلي العادلية الكبرى وشمالي الطبرية[2] وكانت قبل ذلك خوبة شنيعة. «والتعريف بمكانها بالنسبة لزماننا يعسر غاية العسر. بيد أنه إذا وقفت بجانب العادلية وسرت إلى الجنوب أمام المرادية، ونظرت إلى يمينك رأيت أولاً بركة ماء في أول الطريق، وأساساً مبنية بحجارة فخمة فربما كانّ الأساس أساس تلك المدرسة وآثارها وبعدها الطبرية، وعلى كل فإنهما درسا ولم يبق لهما رسم ولا طلل»[3].

منشئها: الصدر الحنبلي شمس الدين محمد بن أحمد بن محمد بن أبي العز الحراني ثم الدمشقي المعروف بابن الصباب، ولد سنة أربع وسبعين وستمائة للهجري وسمع من الشيخ شمس الدين بن أبي عمر وابن البخاري بدمشق[4]. وتوفي سنة أربعين وسبعمائة للهجري، وكان من التجار المشهورين[5]. ودرّس فيها القاضي السعدي ٧٣٢[6].

١٦ ـ دار القرآن والحديث المعبدية:

موقعها: هي داخل دمشق والمنقول أنها دار قرآن فقط[7].

---

(١) عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٦٧.٢. ـ النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٩٣.

(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١.٩٤. ـ كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٤.

(٣) بدران: منادمة الاطلال ص٦٩.

(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٩٤.

(٥) بدران: منادمة الاطلال ص٦٩.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١٥٨.

(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٩٥.

منشئها: علاء الدين علي بن معبد البعلبكي ودفن إلى جانب داره.

«إن التعريفان لم تفدنا عن بيان موضعها الآن شيئاً والغالب على الظن بل المحقق أنها أصبحت أما بيوتاً للسكنى أو حوانيت للبيع والشراء. ولقد راجعت «تاريخ ابن عساكر» وغيره عن ترجمة واقفها فلم أظفر له بترجمة، ولم أجد فيما بين يدي غير ما قدمته»[١].

ج ـ التصوف[٢]:

ويعني العكوف على العبادة، والزهد فيما يقبل عليه الناس من متاع الدنيا. وهي غير معروفة الأصل فهي إما مأخوذة من لباس الصوف الذي يتزيّا به ويعكف على العبادة المخالفة لمن لبسوا الثياب الفاخرة أو من الصفاء وهو صفاء النفس والتصوف. بهذا المعنى كان معروفاً عند أتقياء المسلمين من الصحابة والتابعين. وحضّ القرآن عليه لما فيه من تقرب لله وأطمئنان للنفس.

ولكن إقبال الناس على الدنيا في القرن الثاني الهجري وما بعده جعل جماعة تحل مكان الصحابة والتابعين وأصبحت لها طرق خاصة في الحياة أطلق عليها التصوف ما لبثت هذه الطرق أن تطورت إلى علم مدون، عمل أناس كثيرون على الكتابة فيه. وأقصى ما يصل إليه الصوفي الوله بالله. فكان ذلك بقصد الإتحاد بالله أو الحضرة الالهية[٣] أو أيضاً الفناء في الله أو البقاء بالله، بحيث لا يصبح هناك تعبير بين النفس والله وهو ما عبروا عنه بالوصول إلى الحقيقة وهي صفات الله أو الحق وهو ذاته.

وقد يؤدي بهم الوصول إلى هذه الدرجة إلى ما يعرف بالتجلي أو الكشف أو كشف المحجوب ـ أي تجلي الذات على نفسه ـ مما قد يؤدي إلى الكرامات أو الخوارق وقد نعى المعتزلة على المتصوفة إتحاد المخلوق مع خالقه ـ الحلول.

وقد ظهرت لكل جماعة متصوفة طريقتها في إيجاد الهيام الصوفي، منها: طائفة كان يصحبها التفكير في حجرة مظلمة، وطائفة ترى التصوف بالتعذيب بأن لا ينام أفرادها إلا نادراً وطائفة تقوم بإنشاد الأوراد والأحزاب وهي أدعية دينية. وقد كان للمتصوفة أماكن للعزلة وطمأنينة البال تشبه الأديرة عرفت بأسماء أشهرها:

ـ المصاطب في عهد الفاطميين.

ـ والتكايا والخوانق أو الخوالك في عهد الأيوبيين والمماليك.

---

(١) العلامة عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٧٠.

(٢) تحقيق محمد كامل حسين (مصطفى حلمي، القاهرة ١٩٢٥).

(٣) أنظر .Ency (art Hadra) 12, p.220

أو حتى بإسم الرباط، والزوايا، والصوامع. وقد إنتشرت الصوفية ابتداءً من القرن الخامس الهجري.

ومن الطرق الصوفية المشهورة نذكر:

- القادرية أو الجيلانية نسبة إلى عبد القادر الجلاني (ت: ٥٦٠/١١٦٦).
- والشاذلية نسبة إلى عليّ الشاذلي التونسي (ت: ٦٥١/١٢٥٣).
- والمولوية نسبة إلى الشاعر جلال الدين الرومي (ت: ٦٧٢/١٢٧٣).
- والنقشبندية نسبة إلى بهاء الدين نقشبند (ت: ٧٩١/١٣٨٩).

ولدينا أعداد كبيرة من أسماء المتصوفة حتى أن أحد المؤلفين المتقدمين جمع أسماءهم إلى وقته في عشر مجلدات[1] نذكر منهم وأشهرهم: الحسن البصري (ت: ١١٠/٧٢٨)، ورابعة العدوية (ت: ١٨٥/٨٠١)، وأبو يزيد البسطامي[2] (ت: ٢٦١/٨٧٤)، والحلاج[3] (ت: ٣٠٩/٩٢٣) وابن القارض (ت: ٦٣٢/١٢٣٥) وابن العربي (ت: ٦٨٣/١٢٤٠).

كذلك عمل أناس كثيرون على الكتابة في علم التصوف وأخذ بيده شخصيات إسلامية كبرى فنذكر منهم الحلاج: كتاب الطواسين والطوسي (ت: ٣٧٨/٩٨٨) اللمع في التصوف. والقشيري (ت: ٤٦٥/١٠٧٢) الرسالة القشيرية في علم التصوف. والغزالي (المنقذ من الضلال والسهروردي (ت: ٦٣٢/١٢٣٤) عوارف المعارف. وابن عربي (ت: ٦٣٨/١٢٤٠) نصوص الحكم.

هذه بعض المذاهب الفقهية، وعلم الكلام، والتصوف التي ظلت أساتذة في العصر المملوكي البحري والبرجي.

ج ـ المدارس الصوفية:
(الخوانق والربط والزوايا) بالعصر المملوكي

الخانقاه كلمة فارسية وهي زوايا الصوفية لم تعهد على هذا النمط إلّا في القرن السادس وأول من بناها صلاح الدين ورتب للفقراء أرواقاً معلومة وقال كرد علي: «أول خانقاه بنيت في الإسلام للصوفية زاوية برملة بيت المقدس بناها أمير النصارى حين استولى الفرنج على الديار القدسية وسبب ذلك أنه رأى طائفة من الصوفية

(١) أبو نعيم الاصبهاني (ت: ٤٣٠/١٠٣٨) كتاب: جلية الاولية الاصفياء تحقيق مصر ١٣٥١/١٩٣٢.

(٢) الرسالة القشيرية ط مصر ١٣١٥هـ ص١٤٠.

(٣) نفسه الرسالة القشيرية ص٢٦١ ـ ٢٧١.

والفتهم في طريقتهم، فسأل عنهم ما هذه الألفة والصحبة والأخوة الخاصة بينكم فقالوا له: الألفة والصحبة لله طريقتنا.

فقال لهم: ابني لكم مكاناً لطيفاً تتآلفون فيه وتتعبدون، فبنى لهم تلك الزاوية. وإن معاوية كان يكتب إلى أطرافه وعماله وإلى زياد بالعراق بإطعام السابلة والفقراء وذوي الحاجة وله في كل يوم أربعون مائدة يتقسمها وجوه جند الشام(١).

أ ـ الخوانق في العصر المملوكي: خوانق دمشق عددها عشرون

١ ـ الخانقاه الأسدية:

موقعها: داخل باب الجابية بدرب الهاشميين(٢).

منشئها: أسد الدين شيركوه وهذه المدرسة مشتركة بين الشافعية والحنفية(٣). وسيأتي ذكر مدريسيها بالعصر المملوكي في الباب الثالث. وإن غالبية الخوانق قد إندرس فلا يمكن الوقوف على محلة ولا على تراجم أصحابها في الغالب لعدم الجدوى وصعوبة المنال(٤).

٢ ـ الخانقاه الأسكافي:

أنشأها شرف الدين محمد بن الأسكاف على نهر يزيد بسفح قاسيون(٥).

٣ ـ الخانقاه الأندلسية المشهورة:

موقعها: شرقي العزيزية والأشرفية داخل الكلاسة لصيق الجقمقية غربي السميصاتية(٦).

منشئها: الخانقاه المعروفة بأبي عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف الأندلس. وقفها مختلط ولم يذكر النعيمي وفاته(٧). (وهي الآن موجودة يتولى شؤونها متولي الجامع الأموي)(٨).

---

(١) محمّد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٣١.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٠٩. ـ بدران: منادمة الاطلال ص٢٧٢.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٠٩.
(٤) بدران: منادمة الاطلال ص٢٧٢.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١٠.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١٠.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١٠.
(٨) بدران: منادمة الاطلال ص٢٧٣.

٤ ـ الخانقاه الباسطية :

موقعها : بالجسر الأبيض غربي المدرسة الأسعردية وشمالي الخانقاه العزّية[١]. وهي الآن في البساتين خراب[٢].

منشئها : أنشأها القاضي زين الدين عبد الباسط بن خليل الجيوش الإسلامية والخوانق والكسوة الشريفة، وكانت هذه الخانقاه داراً له، فلما نزل السلطان الملك الأشرف برسباي إلى آمد سنة ست وثلاثين وثمانمائة خاف من نزول العسكر بها، فجدد لها محراباً وأوقفها، ثم أجتمع بهذا السلطان وعظم شأنه عنده، وصار الحل والعقد بيده، ولا يبرم الأشرف المذكور أمراً إلا برأيه، وشرع في عمارة بلاد السلطان فزاد متحصلها بذلك، وكان سعيد الحركات لم يصل أحد من المباشرين إلا ما وصل إليه، عمّر المدارس بالحرمين والقدس وبمصر على باب داره، وبدمشق بالصالحية ووقف على ذلك كله أوقافاً حسنة جيدة ورتب في الركبين الموفدين المصري والشامي سحابتين وما يحتاجان إليه من الجمال والرجال وغير ذلك، وهما خيماتان كبيرتان على صفة الجملون برسم الفقراء والمساكين ورتب أيضاً لكل سحابة ٢٥ قنطاراً من البقسماط وما يكفيها من أحمال الماء جزاه الله خيراً وتقرر مملوكه جاني بك دواداره في استدارية السلطان وأوصى قبل وفاته إلى جماعة منهم مملوكه المذكور ومملوكه الآخر آرغون وأسند النظر عليهما في تركته إلى ناظر الجيوش الإسلامية محب الدين ابن الأشقر وإلى الأمير جانب بك الجركس، وتوفي بمصر ثاني شوال سنة ٥٤ وثمانمائة هجري وقد قارب الستين سنة وصلى عليه بدمشق صلاة الغائبة وكان والده عاقلاً مدارياً، وغبطه السلطان بقريه جسرين من الغوطة، ووالدته جركسية وخلف ولدين ذكرين (بابكر وعثمان) وابنتين إحدهما زوجة إبراهيم بن قجك والأخرى تزوج بها السلطان جقمق وطلب السلطان جقمق من أولاده مائة ألف دينار[٣].

وصارت وظائفه بدمش لناظر الجيش بدر الدين حسن بن المزلق[٤]. وتوفي معه في هذا العام من الأعيان بمصر القاضي ولي الدين الشطي الشافعي وصلى عليه بدمشق صلاة الغائبة، والعالم الفاضل نائب الحكم بدمشق شهاب الدين أحمد بن

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١١.
(٢) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٣١.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١١.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٢٢٣.

عرب شاه[١] وهو الحنفي، توفي بمصر أول من ولي مشيخة هذه الخانقاه قاضي القضاة الباعوني[٢] رحمه الله.

٥ ـ الخانقاه الخاتونية:

موقعها: ظاهر باب النصر المعروف الآن بباب دار السعادة في أول الشرف القبلي على بانياس وهي شرقي جامع دنكز ولصيقة وبابها يفتح للقبلة[٣].

منشئها: الأمير حسام الدين محمد بن عمر بن لاجي وأمه ست الشام بنت أيوب واقفة الشامية الجوانية والشامية البرانية بدمشق[٤] (وسيأتي في الحديث عن مدرسيها في العصر المملوكي) وهي الآن عمائر وبنايات[٥].

٦ ـ الخانقاه الدويرية:

موقعها: المعروفة بدويرة حمد بدرب السلسلة بباب البريد[٦].

منشئها: حمد صاحب الدويرة ابن عبدالله بن علي أبو الفرج الدمشقي المقري[٧]. حكى عنه محمد بن عوف الترسي[٨]: «قال هبة الله الأكفاني في سنة إحدى وأربعمائة وجد حمد وزوجته مذبوحين وصبي قرابته في داره بباب البريد». ولها أوقاف كثيرة لا مجال لتعدادها. وسنتكلم عن مشايخها فيما بعد بما يخص العصر المملوكي.

٧ ـ الخانقاه الروزنهارية:

موقعها: بالبرج المستجد خارج باب الفرادس الأول والذبه به[٩].

منشئها: في سنة عشرين وستمائة للهجري أنشأها الشيخ أبو الحسن الروزنهاري توفي ودفن بالمكان المنسوب إليه بين السورين عند باب الفرادس[١٠].

٨ ـ الخانقاه السميساطية:

موقعها: الشمال الشرقي من الجامع الأموي ويسمى بباب الناطقين[١١].

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٢٨. (٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٣٠٩.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١٣.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١٣.
(٥) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٣١.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١٥.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١٥.
(٨) ابن العماد: شذرات الذهب ج٣ ص٢٤٩.
(٩) العلامة عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٢٧٦.
(١٠) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١٨.
(١١) بدران: منادمة الاطلال ص٢٧٦. ـ كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٣١ ـ ١٣٢.

منشئها: نسبة للسمساطي أبي القاسم علي بن محمد بن يحيى السلمي الحبشي من أكابر الرؤوساء بدمشق المتوفي سنة ٤٥٣هـ. ثم جددها تنكز في سنة (٧٢٨هـ) بناء جميلاً وتنكز هذا جدد عمائر المساجد والمدارس ووسع الطرقات في دمشق وله في الشام عمائر وآثار. وقد نقضت منذ بضع سنين من أساسها وجدة بناؤها على أن تجعل مدرسة راقية للعلوم الدينية فلم يتم لها هذا ورجعت حجرها مأوى البطالين[(١)].

٩ ـ الخانقاه الشهابية:

موقعها: داخل باب الفرج غربي العادلية الكبرى وشمالي المعينية واللافية[(٢)] وصارت الآن دوراً وبابها يدل عليها، خرجت هذه الخانقاه من أيام التيمورلنك وكانت بيد بني العدوي وهي تجاه الطريق الآخذ إلى العصرونية[(٣)].

منشئها: في سنة سبع وسبعين وستمائة هـ توفي واقفها أيدكين بن عبدالله الأمير الكبير علاء الدين الشهابي كان من خيار الأمراء بدمشق وقد ولّاه الظاهر النيابة بحلب المحروسة مدة، وكان من خيار الأمراء وشجعانهم وله حسن ظن بالفقراء والإحسان إليهم. توفي ودفن بتربة الشيخ عماد الرومي بسفح قاسيون[(٤)].

١٠ ـ الخانقاه الشبلية:

تقع في جبل قاسيون وأنشأها الشيخ المعمر نجم الدين إبراهيم بن بركات بن أبي الفضل ابن القرشية البعلبكي الصوفي أحد أعيان الصوفية وأكابر الفقراء القادرية وتوفي سنة أربعين وسبعمائة للهجري[(٥)].

١١ ـ الخانقاه الشريفية:

موقعها: نجاة الهروية التي هي شرقي دار الحديث الأشرفية ولصيق المدرسة الطومانية شرقي باب قلعة دمشق وغربي العادلية الصغرى[(٦)].

منشئها: واقفها السيد الحسيني شهاب الدين أحمد بن السيد المعروف بابن الفقاعي[(٧)] «ولم أر لها كتاب وقف ولا حتى بنيت ولها دار قرآن أوزادية وتُحتمل أن تكون مدرسة»[(٨)].

---

(١) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٣٢.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٢٦.
(٣) بدران: منادمة الاطلال ص٢٨٠.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٢٧.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٢٨.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٢٨.
(٧) بدران: منادمة الاطلال ص٢٨١. (٨) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٢٨.

١٢ ـ الخانقاه الطواويسية:

موقعها: هي الآن معروفة مشهورة بمحلة البحصة وجدرانها الغربية إلى طريق الصالحية وبها قبة شاهقة وإلى جانبها الغربي مسجد وهي غنية بمائها فقيرة مما بنيت لأجله[(١)].

منشئها: منسوبة للملك دقاق أو لأبنه وهو شمس الملوك أبو نصر بن تاج الدولة تتش ابن السلطان الب أرسلان السلجوقي صاحب دمشق توفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة للهجر[(٢)] وأستمرت هذه الخانقاه وعيّن عليها مشايخ بالعصر المملوكي (وسيأتي ذكر مدرسيها فيما بعد).

١٣ ـ الخانقاه العزية:

موقعها: بالجسر الأبيض قبلي دار عبد الباسط وغربي الماردانية ومدرس الخواجا إبراهيم الأسعردي بقرب[(٣)].

منشئها: إنشاء الأمير عز الدين أيدمر الظاهري ونائب السلطنة بالشام ووقفها كما رأيته في مصادقة بني بهاء الدين الباعوني وولده البقاعي إبراهيم، وملخصها أن التربة العزية بصالحية دمشق بالجسر الأبيض والمسجد بها والرباط والوقف على ذلك: الحصة وقدرها إحدى وعشرون قيراطاً من قرية دسيا وهي من وادي بردى، وجميع الخان بمحلة باب الجابية المعروف بخان العميان[(٤)]. وتاريخ وقفها سنة ست وتسعين وستمائة للهجري[(٥)].

١٤ ـ خانقاه القصر:

موقعها: مطلة على الميدان الأخضر المعروف الآن بالمرجة، وهي ظاهر دمشق وقد إنمحت آثارها[(٦)].

منشئها: فخر الدين أبو محمد عبد القاهر بن لاغني بن محمد بن القاسم بن محمد بن تيمية الحراني المتوفي سنة إحدى وسبعين وستمائة للهجري، وبيته معروف بالعلم والخطابة والرياسة[(٧)]. «وقد سمع الحديث من جدّه الخطيب فخر

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٢٩.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٣٠.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٣١.
(٤) بدران: منادمة الاطلال ص٢٨٣.
(٥) بدران: منادمة الاطلال ص٢٨٤.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٣١.
(٧) ابن العماد: شذرات الذهر ج٥ ص١٠٢.

الدين صاحب ديوان الخطب المشهورة توفي ودفن بخانقاه القصر[١].

١٥ ـ الخانقاه القصاعية:

موقعها: كانت تقع بالقصاعين أو سوق مدحت باشا اليوم[٢]. خربت ولم يبقى لها عين ولا أثر.

منشئها: خاتون أبنة خطلجي سنة تسع وأربعين وسبعمائة للهجري[٣].

١٦ ـ الخانقاه الكجحجانية:

موقعها: ظاهر دمشق بالشرف الأعلى بين الخانقاه المعروفة بالطراويس والمدرس العزّية البرانية الحنفية[٤].

منشئها: في سنة إحدى وستين وسبعمائة للهجري: وفي هذا العصر أنشأت الخانقاه الكجحجانية بالشرف الأعلى جوار خانقاه الطواويس ظاهر دمشق، وكانت دار بلاط وقد تهدمت وخربت[٥].

١٧ ـ الخانقاه المجاهدية:

موقعها: كانت على الشرف الأعلى القبلي ولم أعلم محلها، وقد إندرست يقين[٦].

منشئها: مجاهد الدين إبراهيم أخي زين الدين أحمد أمير خازندار الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل[٧]. وقال الأسدي في تاريخه[٨] سنة ست وخمسين وستمائة فيها فتح المجاهد إبراهيم المكان الذي جدّده بالشرف القبلي وجعله خانقاه للصوفية.

١٨ ـ الخانقاه النجيبية:

موقعها: ويقال لها النجيبية البرانية وخانقاه القصر لكونها بحارته وهي مطلة على الميدان[٩].

(١) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٣٣.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٣١.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٣٢.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٣٢.
(٥) العلامة عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٢٨٥.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٣٢.
(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٦٤.
(٨) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٣٤.
(٩) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٣٤.

منشئها: إنشاء النجيبي جمال الدين اقوش الصالحي النجمي[١]. «ولقد أراد بالميدان المرجه. وكان ذلك القصر قصراً للملك الظاهر، ولما عمرت التكية السليمانية خرّب وأقيمت مكانه، فلم يبق أثر للنجيبية ولا القصر اللهم إلّا أن تكون أدخلت في خانقاه المولوية»[٢].

١٩ ـ الخانقاه النهرية:

موقعها: المشهورة بخانقاه عمر شاه، وهي بأول شارع نهر القنوات. ولي مشيختها والنظر عليها.

منشئها: الشيخ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن الحسيني الحنبلي في سنة خمس وعشرين وثمانمائة للهجري[٣].

٢٠ ـ الخانقاه اليونسية:

موقعها: بأول شرف العالي الشمالي غربي الخانقاه الطواويسية[٤].

منشئها: أنشأها الأمير الكبير الشرفي يونس داودار الظاهر برقوق في سنة أربع وثمانين وسبعمائة، كما هو مكتوب على بابها. وشرط في كتاب وقفها أن يكون الشيخ بها، والصوفية حنفية أفاقية، وأن يكون الإمام حنفياً وعشرة من القراء[٥].

ب ـ الرباطات والزوايا

الرباط ويقال له التكية بالتركية، والخانكاه بالكاف يعني الخانقاه وهي بالعجمية دار الصوفية ولم يتعرضوا للفرق بينهما وبين الزاوية والرباط وهو المكان المسبل للأفعال الصالحة والعبادة[٦].

رباطات دمشق: بالعصر المملوكي وعددها تسعة عشر رباطاً

١ ـ الرباط التكريتي:

موقعها: بالغرب من الرباط الناصري بقاسيون[٧]. «قال النعيمي في سنة سبعين وستمائة: وجيه الدين محمد بن علي بن أبي طالب بن سويد التكريتي التاجر الكبير

(١) بدران: منادمة الاطلال ص٢٨٦ ـ ٢٨٧.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٤٧.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٤٨.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٤٨.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٤٨.
(٦) كرد علي: خطط الشام ج٦ ص١٣٤.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥٠.

ابن سويد ذو الأموال الكثيرة، وكان معظماً عند الدولة ولا سيما عند الملك الظاهر بيبرس كان يجله ويكرمه لأنه كان قد أسدى إليه جميلاً في حال أمرته قبل أن يلي السلطنة، ودفن برباطه وتربته بالقرب من الرباط الناصري بقاسيون، وكانت كتب الخليفة ترد إليه كل وقت وكانت مكاتباته مقبولة عند جميع الملوك حتى ملوك الفرنج في السواحل، وفي أيام التتار وهولاكو، وكان كثير الصدقات والبرّ»[1].

٢ ـ رباط صفية:

قال البرزالي: «في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة للهجري في ترجمة بنت قاضي القضاة عبدالله بن عطاء الحنفي: إنها كانت شيخة رباط صفية القلعية جوار بيتنا بالقرب من المدرسة الظاهرية»[2].

٣ ـ رباط زهرة:

بالقرب من حمام جاروخ وهو مقابل الفرن المعروف بفرن خليفة ولم نعلم الآن منه شيئاً[3]. ثم صارت هذه الدار للأمير جمال الدين موسى ابن يغمور[4]. وهناك عدة ربط ذكرها النعيمي:

٤ ـ رباط طمان من أمراء بني سلجوق تحت القلعة.

٥ ـ رباط جاروخ منسوب لجاروخ التركماني.

٦ ـ رباط الفرس خليل كان والياً بدمشق.

٧ ـ رباط المهراني بدرب المهراني.

٨ ـ رباط التجاري عند باب الجابية.

٩ ـ رباط السفلاطوني.

١٠ ـ رباط الفلكي.

١١ ـ رباط بنت السلار، داخل باب السلاح.

١٢ ـ رباط عذراء خاتون داخل باب النصر.

١٣ ـ رباط بدر الدين عمر.

١٤ ـ رباط الحيشية بمحلة قصر الثقفيين يعني بمحلة المعينية.

١٥ ـ رباط القصاعين.

١٦ ـ رباط بنت الدفين، داخل المدرسة الفلكية.

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥١.

(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥١.

(٣) بدران: منادمة الأطلال ص٢٩٦.

(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ ج٢ ص١٥١.

١٧ ـ رباط بنت عز الدين مسعود صاحب الموصل.

١٨ ـ الرباط الدواداري، داخل باب الفرج ولي مشيخته نور الدين بن قوام.

١٩ ـ الرباط الفقاعي، بسفح قاسيون ذكره البرزالي في سنة خمس وثلاثين وستمائة للهجري[١].

ويقول بدران: «هذه الربط قد عسر علي معرفة محالها، ولم أدر من الذي بناها فنقلتها كما وجدتها»[٢].

ج ـ الزوايا: بعد القرن السادس الهجري بدمشق

الزوايا كالخانقاهات والرباطات إلا أنها تقام فيها الأذكار وقد كثرت لكثرة الطرق والمشايخ المعتقدين[٣]. وكان بدمشق على عهد صاحب الدارس أكثر من خمس وعشرين زاوية:

١ ـ الزاوية الأرموية:

موقعها: بجبل قاسيون، إنشاء عبدالله بن يونس الأرموي المتوفي سنة ٦٣١هـ.

منشئها: وهي الآن خراب[٤]. وكان صاحب هذه الزاوية زاهداً، صالحاً متواضعاً مطرحاً للتكلف، يمشي وحده ويشتري الحاجة وله أحوال ومجاهدات[٥] وقوم في الفقر.

٢ ـ الزاوية الرومية الشرقية:

موقعها: بسفح قاسيون، أنشأها شرف الدين محمد بن الشيخ الكبير عثمان بن علي صاحب.

ومنشئها: الزاوية الذي توفاه الله سنة أربع وثمانين وستمائة للهجري. كان عجيباً بالكرم والتواضع ومحبة السماع[٦].

٣ ـ الزاوية الحريرية:

موقعها: بالشرف القبلي ظاهر دمشق[٧].

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥١ ـ ١٥٢.
(٢) العلامة عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٢٩٧ ـ ٢٩٨.
(٣) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٣٦.
(٤) بدران: منادمة الاطلال ص٢٩٩.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥٣.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥٣ ـ ١٥٤.
(٧) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٣٦.

منشئها: الشيخ علي الحريري أبو محمد ابن أبي الحسن علي بن مسعود الدمشقي الفقر، ولد بحوران ونشأ بدمشق وتعلم بها على الشيخ العتابي ثم تمفقر وعظم أمره وكثرت أتباعه وأقبل على المطية والسماعات[١].

٤ ـ الزاوية الحريرية الأعقفية:

موقعها: بالمزّة.

منشئها: شهاب الدين بن حامد بن سعيد التنوخي الحريري ولد سنة أربع وأربعين وستمائة وتوفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة للهجري[٢]. «وأشتغل في صباه على الشيخ تاج الدين المزاري في التنبيه ثم صحب الحريرية وخدمهم ولزم مصاحبة الشيخ نجم الدين بن إسرائيل وسمع الحديث»[٣].

٥ ـ الزاوية الدهستانية:

موقعها ومنشئها: تقع عند سوق الخيل بدمشق. أنشأها الشيخ إبراهيم الدهستاني توفي سنة عشرين وسبعمائة للهجري، وقد أسن وعمّر وكان يحضر هو وأصحابه تحت قبة النسر ودفن في زاويته وله من العمر مائة وأربع سنوات[٤].

٦ ـ الزاوية الحصنية:

أنشأها الشيخ تقي الدين الحصني[٥] بالشاغور.

وقف عليها وعلى ابن أخيه شمس الدين محمد وفقاً الأمير سودون بن عبدالله التنكي الدواداري في فرض موته ثم ترك الأمرة وأقبل على الزراعة والغراس والأشتغال بإستئجار الأرض وشرائها وحصل أملاكاً جيدة وكان عاقلاً متديناً توفي رحمه الله يوم الثلاثاء سادس عشر شوال سنة أربع وعشرين وثمانمائة للهجري ودفن بمقبرة الصوفية[٦].

٧ ـ الزاوية الدينورية:

تقع بسفح قاسيون. أنشأها الشيخ عمر بن عبد الملك الدينوري الزاهد كان صاحب أحوال ومجاهدات وأتباع[٧]. وهو والد خطيب كفربطنا جمال الدين[٨].

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥٤.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥٥.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٥٩.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥٦.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص١٨٨.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥٦.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥٧.
(٨) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٩٢.

وكان الشيخ عمر زاهداً عابداً قانتاً محبياً منقطعاً إلى عبادة الله عز وجل. وتوفي سنة خمس وثمانين وستمائة للهجري.

٨ ـ الزاوية السيوفية:

موقعها: بسفح قاسيون على نهر يزيد غربي دار الحديث الناصرية والعالمة[(١)].

مؤسسها: نجم الدين عيسى بن شاه أرمن الرومي الذين توفي سنة عشر وسبعمائة للهجري ودفن بزاويته التي بسفح قاسيون. وأوقف عليها قريتي عين الفيجه ودير مقرن بوادي بردى الثلث للزاوية والثلثان للذرية وبنى له ولجماعته بيوتاً حولها رحمهم الله[(٢)].

٩ ـ الزاوية الداودية:

موقعها: بسفح قاسيون تحت كهف جبريل[(٣)].

منشئها: أنشأها الشيخ الصالح العالم الرباني زين الدين عبد الرحمن ابن الشيخ أبي بكر بن داود القادري الصوفي الصالحي ميلاده سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة أنشأ هذه الزاوية التي لا نظير لها بدمشق وعمّر خاناً بقرية الحسينية في وادي بردى على طريق بعلبك وطرابلس يأوي إليها المسافرون، وعمّر مدرسة أبي عمر بالصالحية، وكذلك البيمارستان القيمري، يساعد المظلوم والمظلومين، وكان يتردد إليه نائب الشام وأعيانها وتوفي سنة ست وخمسين وثمانمائة للهجري من غير ولد ذكر ودفن بزاويته هذه[(٤)].

١٠ ـ الزاوية السراجية:

موقعها: تقع بالصاغة العتيقة داخل دمشق[(٥)].

منشئها: أنشأها الإمام العلامة الزاهد بهاء الدين أبو الأدب هارون الشهير لعبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن عبد الولي الأخيمي المراغي المصري ثم الدمشقي الشافعي: وكان عارفاً للمعقولات. وروي لنا عن يونس بن إبراهيم الدبابيسي[(٦)]: وألف أشياء عنها (كتاب المنقذ من الزلل في القول والعمل) وكان يؤم بمسجد درب

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ١٥٧، ٦) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٣٧، ٦) بدران: منادمة الاطلال ص٣٠٦.

(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥٧ ـ ١٥٨.

(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥٨.

(٤) النعيمي: الدارس . . . ج٢ ص١٥٨.

(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٩٢.

(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥٩.

الحجر ـ توفي سنة أربع وستين وسبعمائة للهجري ودفن بزاوية ابن السراج بالقرب من شلتة.

١١ ـ الزاوية الشريفية التغاراتية:

شرقي المدرسة الناصرية الجوانية أنشأها محمد الحسيني التغاراتي وكان يقيم وقته فيها ليلة الأربعاء مات رحمه الله ودفن بها(١).

١٢ ـ الزاوية الطالبية الرفاعية:

أنشأها الشيخ طالب الرفاعي بقصر حجاج وله زاوية مشهورة به وكان يزور بعض المريدين فتوفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة للهجري(٢).

١٣ ـ الزاوية الوطية:

يقول النعيمي: «تقع الزاوية الوطية شمالي جامع جراح، برسم المغاربة على اختلاف أجناسهم، بشرط أن لا يكون النازل بها مبتدعاً ولا شريراً، وقفها الرئيس علاء الدين علي المشهور بابن وطية الموقت بالجامع الأموي سنة أثنتين وثمانمائة، ووقف عليها حوانيت وطباقاً حولها، وشرط على شيخها أن لا يكون بأبواب القضاة والحكام كذا وقفت على كتاب وقفها في أواخر جمادي الآخرة سنة إحدى وتسعمائة وتعرف الآن بزاوية المغاربة»(٣).

١٤ ـ الزاوية الطيبية:

تقع شمالي القيمرية الكبرى عند الرحبة التي كانت الصناديق تباع بها عند دار بني القلانس(٤).

منشئها: الشيخ علي المصري أقام مدة في الشام في زاوية له بدمشق شرقي حمام أسامة وكان ظريفاً كيساً زاهداً يتردد إليه الأكابر. مات ودفن بزاويته سنة إحدى وثلاثين وستمائة(٥).

١٥ ـ الزاوية العمادية المقلسية:

موقعها: عند كهف جبريل بسفح قاسيون(٦).

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥٩.
(٢) بدران: منادمة الاطلال ص٣٠٧.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥٩.
(٤) بدران: منادمة الاطلال ص٣٠٧.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٦٠.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٦٠.

منشئها: الإمام عماد الدين ابن الشيخ العماد المقدسي الصالحي، ولد سنة ثمان وستمائة ثم أشتغل وتفقه ثم تمفقر وتجرد وصار له مريدون وأتباع ثم توفي سنة ثمان وثمانين وستمائة للهجري[١].

١٦ ـ الزاوية الفسولية:

قال النعيمي: «موقعها بسفح قاسيون. في سنة سبع وثلاثين وسبعمائة مات بقاسيون شيخ الفقراء أبو عبدالله بن أبي الزهر الفسولي عن ثلاث وثمانين سنة وله زاوية ومريدون[٢].

١٧ ـ الزاوية الفقاعية:

تقع بجبل قاسيون. وفي سنة تسع وسبعين وستمائة توفي الشيخ يوسف الفقاعي الزاهد ابن نجاح بن موهوب المنشيء لهذه الزاوية ودفن فيها بسفح قاسيون وقد نيف على الثمانين وكان عبداً صالحاً خائفاً قانتاً، كبير القدر له أصحاب ومريدون[٣]. وكان كثير العبادة والزهد كريم الأخلاق كثير التواضع والناس فيه عقيدة صالحة[٤].

١٨ ـ الزاوية الغونشية:

موقعها: تقع بسفح قاسيون غربي الخاتونية، وهناك قبة ولها شباك إلى الطريق[٥].

منشئها: الشيخ علي الغونشي الزاهد صاحب الزاوية والأصحاب، وكان صاحب حال وكشف وعبادة وصدق توفي سنة إحدى وعشرين وستمائة للهجري. وأستلم مشيختها أبناؤه وأحفاده من بعده[٦].

١٩ ـ الزاوية القوامية البالسية:

موقعها ومنشئها: غربي قاسيون والزاوية السيوفية، ودار الحديث الناصرية على حافة نهر يزيد. وأنشأها ابن قوام الشيخ الزاهد الكبير أبو بكر بن قوام بن علي بن قوام البالسي جد شيخنا أبي عبدالله محمد بن عمر[٧]. وكان زاهداً عابداً صاحب حال

(١) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٣٧، ٥) العلامة عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٣٠٨.

(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٦٠.

(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٦٠.

(٤) بدران: منادمة الاطلال ص٣٠٩.

(٥) عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٣٠٨.

(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٦١.

(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٦٢.

وكشف وكرامات وله زاوية وأتباع ولد سنة أربع وثمانون وخمسمائة وتوفي رحمه الله في رجب سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة في حلب ثم نقل تابوته إلى دمشق ودفن بسفح قاسيون وقبره ظاهر ويزار[١].

٢٠ ـ الزاوية القلندرية والدركزينية:

موقعها ومنشئها: هذه الزاوية بمقبرة باب الصغير شرقي محلة مسجد الذبان وشرقي مئذنة البصية. لقد أنشأها محمود بن محمد شرف الدين الطالبي الدركزيني[٢]، شيخ الطائفة القلندرية قوم دمشق وقرأ القرآن والعلم وسكن قاسيون في زاوية الشيخ عثمان الرومي. ثم حصل له زهد وفراغ فترك الزاوية وأقام بمقبرة الباب الصغير بقرب موضع القبة التي بنيت لأصحابه[٣].

٢١ ـ الزاوية القلندرية الحيدرية:

هي زاوية ثانية كانت ظاهر دمشق بمحلة العونية بنيت للشيخ حيدره ولأتباعه سنة خمس وخمسين وستمائة. وفي هذه السنة رحلت الفقراء الحيدرية من الشام بعد النفي[٤].

٢٢ ـ الزاوية اليونسية:

موقعها: بالشرق الشمالي بدمشق غربي الوراق والمدرسة العزية البرانية[٥].

منشئها: الشيخ يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني وهذا شيخ الطائفة اليونسية أولى الشطح وقلة العقل أبعد الله شرهم كان رحمه الله صاحب حال وكشف يحكى عنه كرامات[٦]. «وإن الشيخ لم يكن من أولى العلم بل كان من أولى الحال والكشف»[٧].

٢٣ ـ الزاوية العمرية:

موقعها: تقع غربي محلة العقيبة بالقرب من جامع التوبة[٨].

منشئها: أنشأ هذه الزاوية رجل يقال له الشيخ عمر الأمكاف الحموي[٩]. أتى

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٦٤.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص١٣٩.
(٣) النعيمي: الدارس ج٢ ص١٦٤. (٤) بدران: منادمة الاطلال ص٣٠٩.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٦٦.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٦٦.
(٧) بدران: منادمة الاطلال ص٣١٤.
(٨) النعيمي. الدارس ج٢ ص١٧٠.
(٩) ابن العماد: شذرات الذهب ج٨ ص٢٨٩.

دمشق في أواخر قانصوه الغوري[١] وأشتهر من أول تولية السلطان سليم.

وبنى لنفسه هذه الزاوية والدار لسكنه بجانبها في سنة ثمان وعشرين وتسعمائة، وكان يدعي بأنه يربي الفقراء ويأمرهم بأن يلبسوا الفروة مقلوبة...[٢].

٢٤ ـ الزاوية الصمادية:

موقعها: تقع داخل باب الصغير شمالي السور على كتف نهر قليط بالزقاق الآخذ إلى باب الجابية[٣].

منشئها: أنشأها محمد بن الشيخ خليل الصمادي في سنة أثنتين وثلاثين وتسعمائة[٤]. وجعل له دار سكنه شماليها وجعل للزاوية بركة ماء ومرتفعات وعلى بابها سبيل يجري إلى ذلك كله الماء من نهر القنوات توفي يوم الجمعة سنة ثمان وأربعين وتسعمائة للهجري. وصلي عليه بالجامع الأموي إمام شيخ الإسلام وقدوة سائر الأنام[٥].

٢٥ ـ الزاوية السعدية:

موقعها: تقع خارج دمشق برأس العمائر. نزل بها الشيخ حسن الجنائي السعدي. وفي سنة أربع عشرة وتسعمائة توفي الشيخ السعدي. وكان النساء يعتقدون أنه يشفي من الجنون. كان نائب دمشق قديماً[٦].

د ـ خوانق حلب وربطها وزواياها

كان يوجد في مدينة حلب وحدها ستة وثمانون من الخوانق والربط والزوايا مجتمعة ونحن ما يهمنا ما أنشئ بالعصر المملوكي. ونعددها بما جاء في خطط الشام:

١ ـ خانقاه السحلولية: أنشأها علي عبد الرحمن بن سحلول المتوفي سنة ٧٨٢هـ.

٢ ـ رابط قراسنقر: المتوفي سنة ٧٢٨هـ. وله وقف كثير.

٣ ـ زاوية النسيمي: تحت قلعة حلب جددها قانصوه الغوري.

٤ ـ الزاوية الجوشنية: نسبة لمنشئها سنة ٧٤٧هـ علي الشيخ إبراهيم الشهريار الكازاروني.

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ج٨ ص١١٣.
(٢) النعيمي: الدارس ج١ ص١٧٠.
(٣) النعيمي: الدارس ج٢ ص١٧٠.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٨ ص٢٧٥.
(٥) النعيمي: الدارس ج٢ ص١٧١. (٦) النعيمي: الدارس ج٢ ص١٧٣.

٥ ـ زاوية محمد الأطفاني: أنشئت سنة ٧٠٠هـ.

٦ ـ زاوية خضر: أنشأها بدر الدين بن زهرة ثم أغتصبها جليان كافل حلب وجعلها زاوية سنة ٧٧٠هـ.

٧ ـ زاوية للقادرية: تنسب للأمير جليان أنشئت سنة ٧٧٠هـ.

٨ ـ زاوية قطليجا: أنشئت سنة ٧٥٧هـ.

٩ ـ زاوية الشيخ يبرق: أنشئت سنة ٦٧١هـ في داخل الثكنة العسكرية.

١٠ ـ تكية بابا بيرم: أنشئت سنة ٧٦٤هـ.

١١ ـ زاوية تغري برمش: كافل حلب أنشأها سنة ٨٤١هـ(١) قرب جامع الأطروش.

وفي حلب خانقاهات ومدارس وزوايا كثيرة إندثر معظمها.

ربط القدس وزواياها

كان يوجد في مدينة القدس وحدها تسعة وعشرين من الربط والزوايا وما يهمنا منها ما أنشيء بالعصر المملوكي. ونعددها بما جاء فيه كرد علي:

١ ـ الخانقاه الفخرية: واقفها محمد بن فضل ناظر الجيوش وكانت له أوقاف وبر واحسان لأهل العلم ٧٣٢هـ.

٢ ـ الرباط الزمني: واقفه شمس الدين محمد بن الزمن. وكان بناؤه سنة ٨٨١هـ.

٣ ـ رباط كرد: واقفه المقر السيفي كرد في ٦٩٣هـ (وهي الآن دار سكن).

٤ ـ الزاوية الشيخونية: واقفها الأمير قطيشا بن علي وكان تاريخ وقفها سنة ٧٦١هـ.

٥ ـ الزاوية الماريديني: وقفه منسوب لأمرأتين من عتقاء الملك الصالح سنة ٧٦٣هـ.

٦ ـ الزاوية المهمازية: منسوبة للشيخ كمال الدين المهمازي ووقفت على مربع الملك الصالح بن قلاوون سنة ٧٤٥هـ.

٧ ـ الرباط المنصوري: وقف قلاوون الصالحي، بباب الناظر.

٨ ـ الزاوية المحمدية: واقفها محمد بن زكريا الناصري سنة ٧٥١هـ «بحارة البارودية من جهة الغرب».

٩ ـ زاوية الطواشية: واقفها محمد بن جلال الدين سنة ٧٥٣هـ «بحارة الشريف وتعرف بحاوة الأكراد».

---

(١) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٤٤ ـ ١٤٦.

١٠ ـ زاوية المغاربة: وقف عمر بن عبدالله المصمودي سنة ٧٠٣هـ.

١١ ـ زاوية الأزرق: موقعها مظاهر القدس من جهة القبلة نسبتها لإبراهيم الأزرق سنة ٧٨٠هـ وتعرف بزاوية السرائي.

١٢ ـ الزاوية البسطامية: شرقي القدس، واقفها عبدالله البسطامي. وكانت موجودة قبل ٧٧٠هـ[١].

ـ وكانت الربط والزوايا في المدن الصغرى منتشرة قبل العصر المملوكي وأثناءه وبعده:

ـ **في الخليل:** كان يوجد فيها أكثر من ٢٣ زاوية وربط.

ـ **في أنطاكية:** خمس تكايا.

ـ **في أدلب:** خمس عشر تكية وزاوية.

ـ **في حمص:** دار صدقة.

ـ **في طرابلس:** ثمانية تكايا وزوايا للخلونية، والقادوية، والرفاعية، والشاذلية، والنقشبندية.

ـ **وفي عكار:** تكية واحدة ـ وفي اللاذقية ٤ تكايا وزوايا[٢].

وأنفرد كردعلي بذكر هذه الربط والزوايا خارج دمشق في البلاد الشامية.

٢ ـ المدارس التي تبحث في فروع الدين في العصر المملوكي:

ـ علم الفقه في مدارس دمشق.

أ ـ المدارس الحنفية

بعد أن تكلمنا عن المدارس التي تبحث في أصول الدين: كدور القرآن، ودور الحديث والتصوف: الخوانق والربط والزوايا، لا بدّ لنا من أن نبحث في الفروع وبخاصة المدارس الحنفية ـ والمدارس الشافعية ـ والمدارس المالكية ـ والمدارس الحنبلية بهذا العصر أي العصر المملوكي في بلاد الشام:

(بما يختص بالموقع والمنشىء فقط) وعددها عشرون مدرسة:

١ ـ المدرسة الأمدية:

موقعها: بالصالحية العتيقة، جوار الميطورية من الغرب وهي عامرة وعلى بابها طواشية[٣].

منشئها: وبهذا قال الشيخ عبد القادر النعيمي في الدارس: في سنة إحدى

(١) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٤٦ ـ ١٤٩. (٢) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٤٩ ـ ١٥٢.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٦٥.

وعشرين وثمانمائة ما صورته: وغربي الميطورية مدرسة للحنفية يقال لها الآمدية[١].

«وإنَّ الآمدية قرية ولعلها مدرسة، قصد التمويه عنها خوفاً من الفقهاء، وأياماً كانت فقد أندرست وأنطمست آثارها من عهد بعيد ويمكن أن موضعها الآن بستان»[٢].

٢ ـ المدرسة البدرية:

موقعها: قبالة الشبلية التي بالجبل عند جسر كحيل[٣].

منشئها: بانيها الأمير بدر الدين المعروف بلالاً في سنة ثمان وثلاثين وستمائة للهجري[٤]. ولم يبق منها إلّا قبة تهدم أعلاها بجانب نهر ثورا[٥].

ويأتي ذكر مدرسيها في الفصول اللاحقة.

٣ ـ المدرسة البلخية:

موقعها: كانت تعرف قديماً بخربة الكنيسة وتعرف أيضاً بدار أبي الورداء. وهي داخل الصادرية وبابها من حمام باب البريد[٦].

منشئها: أنشأها الأمر ككز الدقاقي للشيخ برهان الدين أبي الحسن علي البلخي[٧]. وكان زاهداً معرضاً عن الدنيا.

٤ ـ المدرسة التاجية:

موقعها: تقع بزاوية الجامع الأموي الشرقية، غربي دار الحديث العروية[٨].

وقال عز الدين محمد بن عمر الأنصاري[٩]: في الأيام المعظمية جددت المقصورة التاجية المعروفة بابن سنان قديماً والآن بالسلارية وفيها توفي العلامة تاج الدين الكندي أبو اليمن زيد بن الحسن البغدادي النحوي اللغوي المقرئ».

«وقد خفي اليوم محلها، وأقفلت أبوابها، ولعلها هي التي بجانب المشهد الذي يقال له مشهد الحسين من الجانب الشمالي. وهي الآن منضمة إلى دار بني الغربي وبابها إلى الجامع»[١٠].

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٦٥.
(٢) بدران: منادمة الاطلال ص١٥٢ ـ ١٥٣.
(٣) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٦٥. (٤) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٦٥.
(٥) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٨٨.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٦٨. ٣) كرد علي: خطط الشام ج٦ ص٨٨.
(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص١٤٨.
(٨) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٧٠.
(٩) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٧٠.
(١٠) العلامة عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص١٥٧.

٥ ـ المدرسة التاشية:

«مدرسة الناشيء وتعرف بمسجد التاشي أنشيء في شهور وفي سنة نيف وخمسين وخمسائة. بانيه الأمير التاشي، الدقاقي أول من درس بها قبل أن تعلم أنها مدرسة»[١].

وقال العلموي[٢]: «هي مجهولة عندي. ولئن كانت مجهولة في القرن التاسع فهي في القرن الرابع عشر أشد جهالة وأكثر خفاء»[٣]. وربما يأتي لبانيها ذكر في القسم السياسي.

٦ ـ المدرسة الجقمقية:

موقعها: وبها التربة وتجاهها من الشمال خانقاهها يفصل بينهما الطريق الآخذ إلى المدرستين الظاهرية والعادلية من جهة الغرب والآخذ إلى الجامع الأموي وغيره من جهة الشرق[٤].

منشئها: أسسها سنجر الهلالي وولده شمس الدين فأنتزعها الملك الناصر حسن سنة (٧٦١هـ) وأمر بعمارتها فبنيت بالحجر الأبلق وجاءت في غاية الحسن وأحترقت في فتنة تيمورلنك فجدد بنيانها سيف الدين جقمق وأضاف إليها مدرسة للأيتام، واليوم خراب[٥].

٧ ـ المدرسة الجوهرية:

موقعها: شرقي تربة أم الصالح داخل دمشق بحارة بلاطه، وكانت داراً للأمير الكبير ممدوح وداراً للست عذراء[٦][٧].

منشئها: أنشأها الصدر نجم الدين أبو بكر محمد بن عياش التميمي الجوهري توفي سنة أربع وتسعين وستمائة لهجري وقد رأيت على عتبة بابها بعد البسملة هذه المدرسة المباركة وقف العبد الفقير إلى الله تعالى أبو بكر بن محمد... على مذهب الإمام أبي حنيفة وكان الفراغ من عمارتها والتدريس بها في سنة تسع وستين وستمائة

(١) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٧٣.
(٢) بدران: منادمة الاطلال ص١٥٨.
(٣) بدران: منادمة الاطلال ص١٥٨.
(٤) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٧٤.
(٥) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٨٩.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٨١.
(٧) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص٢٩٦.

المهجري. وأول من درس فيها القاضي الحنفي حسام الدين الرازي ٦٦٩هـ[١].

٨ ـ المدرسة الحاجبية:

موقعها: قبلي المدرسة العمرية بصالحية دمشق، والخانقاه بها. تهدمت وأستولى الناس على حجارتها وبقيت أرضاً قفراً، ليس بها إلا بعض آثار جدران من الحجرات التي كانت بها. والفضل للذين لم يمتلكوا أرضها فيجعلوها بستان![٢].

منشئها: أنشأها الأمير ناصر الدين محمد ابن الأمير مبارك الأينالي دوادار سودون النوروزي. وقلي نيابة طرابلس وحماة وعنده معرفة ومشاركة توفي سنة ثمان وسبعين وثمانمائة للهجرة ووقف بتربة بالقرب من تربة السبكيين تحت كهف جبل جبريل بسفح قاسيون[٣].

٩ ـ المدرسة الخاتونية البرانية:

موقعها: عند مسجد خاتون على الشرق القبلي عند مكان ليس صفاء الشام المطل على وادي الشقراء. وهي من أعاجيب الدهر يمر بصحنها بانياس، ونهر القنوات على بابها ولها شبابيك تطل على المرجة وبها من ألواح الرخام ما لم يسمح الزمان بمثلها، وبها عدة خلاوي للطلبة، وبجوارها دار الأمير ابن منجك وهذه المحلة عن محاسن دمشق[٤].

منشئها: واقفتها الست خاتون أم شمس المملوك أخت الملك دقاق[٥].

ويأتي البحث عن مدرسيها في فصول لاحقة.

١٠ ـ المدرسة الريحانية:

موقعها: بجوار المدرسة النورية في الجانب الغربي. وقد تغلبت عليها الأيام إلى أن أستقرت في زمننا هذا مكتباً للأطفال، وإنها لم تسلم من الأستيلاء على شيء من أطرافها[٦].

منشئها: خواجا ريحان الطواشي[٧]. ووقف عليها أوقافاً معلومة مثل أرض البستان المعروف بأرض الحواري، والأرض المعروفة بدف العناب، والجورتين البرانية والجوانية، والنصف من الريحانية. وسيأتي ذكر مدرسيها في فصول لاحقة.

---

(١) بدران: منادمة الاطلال ص١٦٥.

(٢) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٨٤.

(٣) بدران: منادمة الاطلال ص١٦٧.

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٣ ص٤٠٥.

(٥) بدران: منادمة الاطلال ص١٧٢.

(٦) النعيمي: الدارس ج١ ص٤٠١.

(٧) النعيمي: الدارس ج١ ص٤٠١.

١١ ــ المدرسة الزنجارية:

موقعها: خارج باب توما وباب السلامة تجاه دار الأطعمة وبها تربة، وهي من أحسن المدارس والذي وجد من أوقافها حانوتان بجوارها، ولها طاحون بالقرب منها، وبجوار الطاحون حانوت[(١)].

منشئها: فخر الدين عثمان بن الزنجيلي فإنه خرج من اليمن قبل قدوم طفتكين إليها فسكن الشام وله أوقاف مشهورة باليمن ومكة وإليه تنسب المدرسة الزنجارية تجاه دار الطعم، وكان قد حصّل من اليمن أموالاً عظيمة[(٢)].

وسيأتي ذكر مدرسيها في فصول لاحقة.

١٢ ــ المدرسة الطرخانية:

موقعها: كانت قبلي المدرسة الباذرائية. وقد عفت رسومها، ومحيت أطلالها وأخنى عليها الزمان، وأمست دوراً للسكنى تنقل من يد إلى يد[(٣)].

منشئها: كان محلها يعرف بدار طرخان، وهي قديماً كانت للشريف أبي عبدالله بن أبي الحسن. فوقفها سنقر الموصلي وجعلها مدرسة لأصحاب أبي حنيفة[(٤)].

١٣ ــ المدرسة الظاهرية الجوانية:

البيبرسية الصالحية وإنها على الفريقين الحنفية والشافعية، أول من درس فيها الشيخ صدر الدين سليمان، ولي قضاء القضاة بالقاهرة في أيام السلطان الملك الظاهربيبرس وكان السلطان يحبه ويعظمه ولا يفارقه في غزواته ثم أستعفاه من القضاء بالقاهرة وعاد إلى دمشق فأقام مدة يدرس بهذه المدرسة. ثم درس فيها جمال الدين بن القلانسي ٧٢٤هـ[(٥)].

١٤ ــ المدرسة العزية الحنفية:

كانت تقع بجامع دمشق واقفها عز الدين أيبك المعظمي (استدار الملك المعظم) وشرّط وقفها أنه بنى مدرسة بالقدس الشريف على أنه متى كان القدس بيد المسلمين يكون الوقف على المكان المذكور، وإن تعطل أي تعطل القدس كان على مدرسته بالجامع الأموي المعمور جوار مشهد علي[(٦)].

١٥ ــ المدرسة القجماسية:

موقعها: داخل باب النصر وباب السعادة[(٧)]. وهذه المدرسة باقية إلى اليوم

---

(١) بدران: منادمة الاطلال ص١٣٣.
(٢) النعيمي: الدارس ج١ ص٤٠٤.
(٣) بدران: منادمة الاطلال ص١٧٩.
(٤) النعيمي: الدارس ج١ ص٤١٥.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١١٣.
(٦) النعيمي: الدارس ج١ ص٤٢٨.
(٧) النعيمي: الدارس ج١ ص٤٣٤.

مشهورة ومعروفة، وليس بها من أثر قديم يستحق الذكر[١].

منشئها: أنشأها نائب الشام قجماس الأسحاقي الشركسي ورتب فيها أربعين مقرئاً بعد العصر كل يوم يقرأ كل منهم جزءاً من الربعة، وأوقافاً دارةً وفي يوم الأربعاء وهو الحادي والعشرين من أيلول من سنة أثنتين وتسعين وثمانمائة م. . . توفي ودفن بالتربة التي أنشأها بالمدرسة المذكورة[٢].

١٦ ـ المدرسة القصاعية:

بحارة القصاعين أنشأتها خطبلسي خاتون بنت ككجا، والذي رأيته مكتوباً في صخرة فوق بابها أن أسمها فاطمة بنت الأمير كوكجا وكذا هو كتاب وقفها كما أخبرني عاملها القاضي بهاء الدين الحجيني وشرط الواقف فيها إذا تعذر الحضور بالمدرسة يخير بالجامع بالرواق الشمالي، وأن شرط المدارس بها أن يكون أعلم الحنفية بالأصليين[٣].

(وتتكلم عن مدرسيها في فصول لاحقة).

«وقد فتشت عن مكانها فلم أظفر به، ولم أجد سوى جدران تدل على أن هناك كان مدارس فأصبحت مأوى لريم أو لكبش».

١٧ ـ المدرسة المعينية:

موقعها: بالطريق الآخذ إلى باب المدرسة العصرونية الشافعية. قال عز الدين: «بحصن الثقفيين»[٤] أنشأها معين الدين أنر كان أتابك مجير الدين[٥] ابن صاحب دمشق في سنة خمس وخمسين وخمسمائة للهجري.

والأمير معين الدين أنر مقدم عسكر دمشق ومدبر الدولة، كان عاقلاً سايساً مدبراً حسن الرياسة، ظاهر الشجاعة كثير الصدقات وهو مدفون بقبته التي بين دار البطيخ والشامية[٦]. ونتحدث عن مدرسيها في فصول لاحقة.

وقد أنمحت آثارها ورأيت في كتاب وقف فضل الله العمري ما يدل على أنها كانت مقابل باب الفرج. وتاريخ الكتاب المذكور سنة ٧٣٢هـ، وشاهدت بعيني آثار مدرسة وراء الحوانيت المقابلة لباب الفرج. فيمكن أن تكون هي[٧].

١٨ ـ المدرسة المنجكية الحنفية:

موقعها: بالخلخال قبلي الصوفية وغربيها[٨]. وبجوار خانقاه الصوفية بالجقمانية[٩].

---

(١) بدران: منادمة الاطلال ص١٩٢.
(٢) النعيمي: الدارس ج١ ص٤٣٤.
(٣) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٩٥.
(٤) النعيمي: الدارس ج١ ص٤٥١.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٢١١.
(٦) النعيمي: الدارس ج١ ص٤٥١.
(٧) العلامة عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٢٠٣.
(٨) النعيمي: الدارس ج١ ص٤٦١.
(٩) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٩٥.

منشئها: أنشأ الأمير سيف الدين منجك اليوسفي الناصري أصله من مماليك. الناصر محمد بن قلاوون وتنقلت به الأحوال إلى أن صار أميراً بمصر ووُلي حجوبة الحجاب بدمشق في سنة ثمان أربعين وسبعمائة مدة يسيره ثم توجه إلى مصر وصار مقدماً ووُلي الوزارة ثم قبض عليه وسجن ثم أطلق... ثم ولي نيابة طرابلس سنة خمس وخمسين، ثم نقل سنة سبع وخمسين إلى نيابة حلب ثم نقل إلى نيابة دمشق من السنة المذكورة ثم نقل إلى نيابة صفد ثم طلب إلى مصر... وأختفى بخوشية ثم ظفر به نائب الشام وأرسله إلى مصر حيث أكرم إكراماً عظيماً وأطلق وأقام بالقدس الشريف وحينئذ عمّر الخانقاه والمدرسة بالقدس الشريف. وقد قتل مع الملك ناصر حسن بعد أن عصى نائب الشام بيدمر ثم دفن بتربته التي أنشأها عند جامع بالقرب من قلعة الجبل عن سبع وستين سنة. وله المآثر الحسان والصدقات والإحسان. وأوقاف على البر على أختلاف الأنواع. وقد أوقف على المدرسة المذكورة حمامه المعروف والفرن إلى جانبه والربع فوقهما[١].

١٩ ـ المدرسة المقصورة الحنفية:

موقعها: كانت هذه المقصورة بالجانب الغربي من الجامع الأموي وكان محراب الحنفية بين باب الزيادة وهذه المقصورة. وهي مدرسة مشتركة بين الشافعية والحنفية ثم تغيرت وأوقف بها درساً القاضي فخر الدين كاتب المماليك وهو محمد بن فضل الله ناظر الجيوش بمصر. وأوقف أوقافاً كثيرة، وجعل جهات إحسان وبرّ إلى أهل العلم وإليه تنسب المدرسة الفخرية بالقدس[٢].

٢٠ ـ المدرسة النورية الكبرى:

موقعها: وهي بخط الخواصين، أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي.

منشئها: ابن أقسنقر في سنة ثلاث وستين وخمسمائة هـ. وهي اليوم تربة الملك العادل نور الدين ومدرسته رحمه الله[٣].

ووقفها على أصحاب الإمام سراج الأمة أبي حنيفة، ووقف عليها وعلى الفقهاء والمتفقهة بها جميع الحمام المستجد بسوق القمح، والحمامين المستجدين بالوراق ظاهر باب السلامة والدار المجاورة لهما، وجسر الوزير، وإحدى وعشرين حانوتاً خارج باب الجابية، والساحة الملاصقة لها من جهة الشرق، والستة حقول بداريا[٤]. ونتحدث عن مدرسيها في فصول لاحقة.

(١) النعيمي: الدارس ج١ ص٤٦٢.
(٢) العلامة بدران: منادمة الاطلال ص٢١٢.
(٣) النعيمي: الدارس ج١ ص٤٦٦.
(٤) بدران: منادمة الاطلال ص٢١٣.

ب ـ المدارس الشافعية بدمشق وعددها ٣٦ مدرسة

١ ـ المدرسة الأسعردية:

«وبها تربته المعروفة بمدرسة الخواجا إبراهيم بالجسر الأبيض»[١].

ويقول النعيمي: «في جمادي الآخر سنة ست عشرة وثمانمائة، وقد خرب في هذه السنة ثلاثة مساكن، وهي أحسن مساكن بساتين دمشق: الدهيشية، وبستان النشوة بالقرب من سربوة، وبستان ابن جماعة بالمزّة، ولكن هذا الثالث نقلت آلته إلى مدرسة الخواجا إبراهيم الأسعردي وأنتفع الناس بها. وقال: في ذي الحجة سنة سبع عشرة فرغت عمارة الخواجا إبراهيم الأسعردي بالجسر الأبيض ومات وهي في غاية الحسن ورتب بها وظائف كثيرة ونال في شهر رجب سنة ست وعشرين وثمانمائة للهجري، توفي فيه من الأعيان الخواجا الكبير برهان الدين إبراهيم الأسعردي كان والخواجا شمس الدين بن المزلق أكبر التجار بدمشق وكان الأسعردي له المتاجر في سائر البلدان وكان عنده كرم وإحسان للفقراء وعمّر المدرسة المذكورة وتأنق في بنائها وعمل بها تربة ورتب بها فقراء ومقرئة وهي من أحسن عمائر دمشق»[٢].

٢ ـ المدرسة الأسدية:

تقع بالشرق القبلي ظاهر دمشق وهي المطلة على الميدان الأخضر وهي على الطائفتين الشافعية والحنفية[٣].

أنشأها أسد الدين شيركوه في سنة أربع وستين وخمسمائة أصلهم من الأكراد وأنكر جماعة من بني أيوب النسبة إلى الأكراد وقالوا نحن العرب نزلنا عند الأكراد وتزوجنا منهم وأسد الدين هو من أمراء نور الدين مسيره إلى مصر عونا لشاور[٤]. «والعجب أن شيركوه له أسديتان برانية وجوانية وأناس كثيرون ينتسبون إليه، ولا تُعرف هذه المدرسة. والوقف عليها قرية برزة»[٥]. وسنتحدث عن مدرسيها في فصول لاحقة. وقد غوت اليوم أطلالها. وأنمحت رسومها وآثارها وذهبت أحاديثها إلا من القرطاس وأنقاضها ماثلة للعيان[٦].

٣ ـ المدرسة الأصفهانية:

ذكرها وقال هي بحارة الغرباء وبالقرب من درب الشعارين وكانت قبل ذلك تعرف بسكن شرف الدين أسماعيل بن البتي بناها رجل من أصفهان تاجر[٧]. لم يذكر

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص١٧٢.
(٢) النعيمي: الدارس ج١ ص١١٣.
(٣) النعيمي: الدارس ج١ ص١١٤.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٢١٢.
(٥) بدران: منادمة الاطلال ص٧٩.
(٦) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٥.
(٧) النعيمي: الدارس ج١ ص١١٨.

تاريخ بنائها «وقد درس بها سنة تسع وثمانين وستمائة فيكون قد تمّ بناؤها قبل هذا التاريخ»[١].

٤ ـ المدرسة الأكزية:

موقعها: غربي الطيبة والتكزية وشرقي أم الصالح وقبالة الشبلية الحنفية[٢].

منشئها: أكز حاجب نور الدين، وقف هذه المدرسة على أصحاب الإمام ابي عبدالله محمد ابن أدريس الشافعي الأمير أسد الدين أكز في ست وثمانين وخمسمائة وتمت عمارتها في أيام صلاح الدين والدنيا، الدكان التي شرقها وقف عليها والثلث من طاحون الوان سنة سبع وثمانين وخمسمائة[٣]. وسيأتي ذكر مدرسيها في فصل لاحق.

واليوم لم يبق لها رسم ولا طلل فصار مكانها دوراً للسكن والدكان المذكور دكت دكاً[٤].

٥ ـ المدرسة الأمينية:

موقعها: قبلي باب الزيادة من أبواب الجامع الأموي المسمى قديماً بباب الساعات لأنه كان هناك بنكاب الساعات يعلم منها كل ساعة تمضي من النهار عليها عصافير من نحاس ووجه حية من نحاس وغراب فإذا تمت الساعة خرجت الحية، وصفرت العصافير، وصاح الغراب، وسقطت حصاة. وهي شرقي المجاهدية جوار قسارية القواسين بظهر سوق السلاح وتعرف هذه المحلة بحارة القباب وهناك دار مسلمة بن عبد الملك[٥].

منشئها: وقل النعيمي: «إنها أول مدرسة بنت بدمشق للشافعية بناها أتابك العساكر بدمشق ويقال له أمين الدولة»[٦]. وسيأتي ذكر مدرسيها في فصل لاحق.

توفي سنة إحدى وأربعين وخمسمائة للهجري وكان نائباً على قلعتي بصري وصرخد وكان أميراً جليلاً كبير الحرمة[٧]. وهي الآن في سوق الحرير جعلت كتاب صبيان واختلس الجيران بعضها[٨].

٦ ـ المدرسة الجاروخية:

موقعها: داخل بابي الفرج والفراديس لصيقة الإقبالية الحنفية شمالي الجامع الأموي والظاهرية الجوانية[٩].

(١) بدران: منادمة الاطلال ص٨٠.
(٢) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٥.
(٣) النعيمي: الدارس ج١ ص١٢٤.
(٤) بدران: منادمة الاطلال ص٨٣.
(٥) النعيمي: الدارس ج١ ص١٣٢.
(٦) النعيمي: الدارس ج١ ص١٣٢.
(٧) بدران: منادمة الاطلال ص٨٧.
(٨) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٦.
(٩) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٦٩.

منشئها: جاروخ التركماني يلقب بسيف الدين[١]. لقد درّس بها ودرّس بعده جماعات سيأتي ذكرها.

٧ ـ المدرسة الحمصية:

موقعها: تجاه الشامية البرانية في سوق صاروجا[٢].

منشئها: قال النعيمي في صفر سنة ست وعشرين وسبعمائة هـ: وفي يوم الأحد رابع عشر ذي القعدة فتحت المدرسة الحمصية تجاه الشامية البرانية[٣]. ثم تركت وهجرت وهي الآن من بيوت الأروام. والغالب إنها درست ولم يبق منها إلا قطعة خربة[٤].

٨ ـ المدرسة الحلبية:

موقعها: هي بخط السبعة أقيمت الجمعة فيها سنة ثلاث عشرة وثمانمائة[٥].

منشئها: قال عبد القادر النعيمي رحمه الله تعالى في صفر سنة أربع عشرة وثمانمائة وفي رجب سنة خمس عشرة وممن توفي فيها شهاب الدين أحمد بن عبد الخالق كان في أول أمره مغنياً يعلم الجواري الغناء ثم تاب عن ذلك وكان ملازماً للصلاة ووقف إلى جانب المدرسة الحلبية مسجداً وإضافة إلى المدرسة المذكورة، ووقف عليها وقفاً ولم يخلف ولداً ووقف ثلث قاعة على الزيت الذي يوقد في الحجرة والثلث على زوجته والثلث على ابن أخيه ووقف على قراءة البخاري بالحلبية وكان شيخاً ديناً[٦].

«ثم أندرست ولم نعلم لها الآن موضعاً ولا أثراً فسبحان الباقي»[٧].

٩ ـ المدرسة الخبيصية:

موقعها: قبلي الزنجاري. «وخان الزنجاري قد بناه الملك الأشرف جامعاً، وصار أسمه جامع التوبة، وكانت هذه المدرسة بالعقيبة قبلي ذلك الجامع وأصبحت خرابة ودخلت في البستان»[٨].

منشئها: بدر الدين حسين المعروف بابن قاضي أذرعات أشتغل في النحو على شرف الدين الأنطاكي وأخذ الفقه عن نجم الدين بن الجابي[٩]. وصحب القاضي

(١) النعيمي: الدارس ج١ ص١٦٩.
(٢) بدران: منادمة الاطلال ص٩٥.
(٣) النعيمي: الدارس ج١ ص١٧٤.
(٤) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٧.
(٥) النعيمي: الدارس ج١ ص١٧٥.
(٦) النعيمي: الدارس ج١ ص١٧٥.
(٧) العلامة عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٩٦.
(٨) نفس المصدر.
(٩) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٢٩٦.

سري الدين بعد أن اشتغل مع الفقهاء ثم صحب قاضي القضاء علاء الدين[١]. «وكان فصيح العبارة ذكياً وكان قليل الأذى بلسانه وفعاله وكان آخر عمره خيراً من أوله وختم له بالشهادة فتوفي بأعلى مدرسة الخبيصية ودفن بتربة الشيخ إرسلان سنة أربع عشرة وثمان مائة للهجرة»[٢].

١٠ ـ المدرسة الخليلية:

قال النعيمي: بدمشق قال الشريف الحسيني في ذيل العبر سنة ست وأربعين وسبعمائة: «مات بحمص نائبها الأمير سيف الدين بكتمر صاحب مدرسة الخليلية بدمشق، ونقل إليها في تابوت فدفن بالقبيبات رحمه الله تعالى»[٣].

١١ ـ المدرسة الدماغية:

موقعها: داخل باب الفرج غربي الباب الثاني الذي قبلي باب الطاحون، وهي قبلي وشرقي الطريق الآخذ إلى باب القلعة وهذا الطريق بينها وبين الخندق وهي أيضاً شمالي العمادية متصقة بين الشافعية والحنفية[٤].

منشئها: جدة فارس الدين بن دماغ زوجة شجاع الدين بن الدماغ العادلي[٥].

في سنة ثمان وثلاثين وستمائة توفي. وفي سنة أربع عشرة وستمائة كان ابن الدماغ من أصدقاء العادل يضحكه، فحصّل أموالاً جزيلة كانت داره داخل باب الفرج فجعلتها زوجته عائشة مدرسة للشافعية والحنفية ووقفت عليها أوقافاً[٦].

ويقول بدران: «إن باب الفرج هو الباب المسمى بباب المناخلية والطاحون لم تزل موجودة والخندق ردم، وبنيت أمامه حوانيت، وقد شاهدت هذا المكان، فرأيت مكان الدماغية قد صار قاعة للنشا، وداراً للسكن ولم يبق أثر يدل على المدرسة»[٧]. وسيأتي ذكر مدرسيها.

١٢ ـ المدرسة الخضرية:

تقع بمقصورة الخضر عليه السلام غربي الجامع الأموي بدمشق والناس صحفوها فسموها مقام الخضر[٨] وهي عبارة عن مكان داخل الجامع أشبه بالحلقات.

وقال عبد القادر النعيمي في سنة أربع وثلاثين وثمانمائة: توفي فيها بهاء الدين محمد قرأ التنبيه في صغره ودرّس بالنجيبية البرانية والحلقة الخضرية بالجامع. وكان

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص١٦٧.
(٢) النعيمي: الدارس ج١ ص١٧٦.
(٣) النعيمي: الدارس ج١ ص١٧٧.
(٤) النعيمي: الدارس ج١ ص١٧٧.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٦١.
(٦) النعيمي: الدارس ج١ ص١٧٧.
(٧) العلامة بدران: منادمة الاطلال ص٩٧.
(٨) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٧٩.

الناس يتهمونه بذهب كثيرة ولم يعمّر شيئاً منها مع أن له وقف جيد، توفي يوم الجمعة يوم تاسع عشر وصلي عليه من الغد ودفن بالصوفية عن نحو ستين سنة ولم أقف على شيء من مدرسيها[١].

١٣ ـ المدرسة الساوجية:

أنشأها جمال الدين الساوجي كان تاجراً وقفها على الشريف كمال الدين حمزة الطوسي وأستمر فيها[٢].

١٤ ـ المدرسة الشاهينية:

هي وظيفة تصدير بجامع التوبة بالعقيبة جدّدها الأمير شاهين الشجاعي دوادار شيخ، وكان من أعظم أعوان أستاذه بالفتن، وعمّر بجامع التوبة، بعد حريقه بالفتنة، من ماله، توفي في شهر رمضان سنة ست عشرة وثمانمائة بطريق مصر وأسف عليه كثير من الناس[٣].

١٥ ـ المدرسة الشريفية:

عند حارة الغرباء وقال الشيخ الأسدي: الشريفية بدرب الشعارين لم أعرف واقفها درس بها الشيخ نجم الدين الدمشقي في سنة تسعين وستمائة هـ، ولم أعرف من درّس بها غيره[٤].

١٦ ـ المدرسة التقطئية:

ورأيت في قائمة بكشف الأوقاف سنة عشرين وثمانمائة: التقطائية من المدارس الشافعية عمّر بعضها وهي داخل الباب الصغير بنحو مائة ذراع شرقيه غربي بيت الخواجا قبلي منارة الشحم[٥]. وقال ابن كثير: «في سنة ست عشرة وسبعمائة وفي شهر رجب نقل نائب حمص الأمير شهاب الدين قرطاي[٦] إلى نيابة طرابلس عوضاً عن الأمير سيف الدين التركستاني بحكم وفاته ووُلي الأمير أرقطاي نيابة حمص وتولى نيابة الكرك سيف الدين طقطاي عوضاً عن سيف الدين يلبغا ولم يذكر له مدرسة». ويقول النعيمي: «رأيت في حرف الطاء المهملة ذكر أثنين: أحدهما طقطاي السلطان صاحب القجاق بن منكو تمر بن سابر خان الطاغية الأكبر جنكيزخان توفي سنة ثلاثة عشر وسبعمائة. وثانيهما طقطاي الأمير عز الدين داوادار الأمير سيف الدين يلبغا اليحيوي كان ممن حمل راية السلطان محمد بن قلاوون»[٧].

---

(١) النعيمي: الدارس ج١ ص٢٠٨.
(٢) النعيمي: الدارس ج١ ص٢٠٨.
(٣) النعيمي: الدارس ج١ ص٢٣٦.
(٤) النعيمي: الدارس ج١ ص٢٣٨.
(٥) النعيمي: الدارس ج١ ص٢٥٢.
(٦) ابن كثير: تاريخ ج١٤ ص١٧٦.
(٧) النعيمي: الدارس ج١ ص٢٥٢ ـ ٢٥٣.

ويقول بدران: «وقفت مكانها فلم ينادني شيء من أطلالها ولم تخاطبني آثارها بشيء من أخبارها فرجعت آسفاً وقد تجلى لي كغيرها من المدارس التي سطت عليها يد الإختلاس»[1].

١٧ ـ المدرسة الطبرية:

موقعها: بباب البريد، وقفها برأس العين، وحوانيت بالنورية داخل دمشق لا نعرف من بناها ولكن أول من درس فيها شرف الدين... ابن ألة سنة سبع وخمسين وستمائة للهجري[2]. تناولتها يد المختلسين وضمت إلى الأملاك الخاصة ومُحي أثرها[3].

١٨ ـ المدرسة الطيبة:

موقعها: قبلي النورية الحنفية وشرقي تربة زوجة تنكز الخواصين داخل دمشق.

منشئها: إنها هي المسماة بالشومانية. وباني الطيبة العابر علي بن أبي بكر وذكر ابن كثير بأن وفاة أول من درس فيها سنة أثنتين وعشرين وسبعمائة للهجري[4]. والذي سيأتي ذكر مدرسيها في فصول لاحقة وهي الآن دار لبني الفطمة وبني كيوان[5].

١٩ ـ المدرسة الظبيانية:

قبلي المدرسة الشامية الجوانية وغربي المدرسة الصالحية التي غربي مدرسة الطيبة من وقفها: المزرعة بقرية يعقوبا والمحاكرات حول الخندق قبلي سور دمشق وشمالي مقبرة باب الصغير وأول من درّس بها في ذي العقدة سنة أربع وسبعين وسبعمائة هـ[6]. (وقد تقدمت ترجمته في المدرسة الأتابكية).

وقد أنطمست الآن آثارها، والمحاكرات شمالي مقبرة باب الصغير ـ وقد ذهبت المدرسة وما وقف عليها أدراج الرياح، وأنطمس رسم بانيها[7]. وسيأتي ذكر مدرسيها.

٢٠ ـ المدرسة الظاهرية الجوانية:

موقعها: داخل بابي الفرج والفرادس بينهما، جوار الجامع شمالي باب البريد وقبلي الأقباليتين والجاروخية وشرقي العادلية الكبرى، بابهما متواجهان، بينهما الطريق، بنيت مكان دار العقيق، وهي كانت دار أيوب[8] والد صلاح الدين.

---

(١) بدران: منادمة الاطلال ص١١٤.
(٢) النعيمي: الدارس ج١ ص٢٥٤.
(٣) بدران: منادمة الاطلال ص١١٥.
(٤) النعيمي: الدارس ج١ ص٢٥٤.
(٥) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٨١.
(٦) النعيمي: الدارس ج١ ص٢٥٦.
(٧) بدران: منادمة الاطلال ص١١٦.
(٨) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٢٢٦.

قال النعيمي في سنة ست وسبعين وستمائة: وفي يوم السبت تاسع جمادي الأول شرع في بناء الدار التي تعرف بدار العقيقي تجاه العادلية لتجعل مدرسة وتربة الملك الظاهر بيبرس، ولم تكن قبل ذلك إلا داراً للعقيقي»[١]. ويقول العلامة بدران: «إن هذه المدرسة باقية إلى الآن وهي مشهورة معروفة، وبابها بناؤه من العجائب يدخل إلى ساحتها فيكون عن يمين الداخل، التربة الظاهرية، وهي في قبة شاهقة في الهواء، وجدرانها من الرخام الأبيض والأسود مزخرفة بالفسيفساء، وفي سنة ست وعشرين ثلاثمائة وألف للهجري غيرت بلاطتها وبركتها الكبير، وأبد ذلك بطراز لطيف. وبالجملة لم يبق في داخلها من البناء الأول إلا الجهة القبلية وأما الباقي فقد غير. وجعل مدرسة لصغار الطلبة سميت بإسم نموذج الترقي. وفي سنة ست وتسعين ومائتين والف، كان المرحوم مدحت باش والياً على سوريا فأهتم بإنشاء المكاتب ثم علم أن دمشق كان بها ما لا يعدّ من خزائن الكتب الموقوفة على المشتغلين بالعلم فمدّت إليها أيدي المختلسين بالنهب والبيع حتى لم يبق منها إلا النذر القليل، فخاف على الباقي من الضياع فكتب إلى مقرّ السلطنة بذلك كتاباً يقول فيه: «لما كانت الكتب الموقوفة، والمشروطة لاستفادة العموم قد حصرت بأيدي المتولين وحرمت الناس من مطالعتها، كان من اللازم جمعها وجعلها في مكان مخصوص ليكون الإنتفاع بها عاماً». فصدر له الأمر في اليوم الخامس عشر من شباط سنة خمس وتسعين ومائتين والف رومية الموافقة للتارخ المذكور بجمعها[٢].

٢١ ـ المدرسة العذراوية:

موقعها: بحارة الغرباء داخل باب النصر المسمى الآن بباب دار السعادة وفيها باب ينفذ إليها وهي وقف على الشافعية والحنفية[٣].

منشئها: أنشاء عذراء بنت أخي السلطان صلاح الدين وهي للفريقين الشافعية والحنفية. وقال النعيمي في سنة ثلاثة وتسعى وخمسمائة: «وفيها توفيت الست العذراء بنت أخي صلاح الدين شاهنشاه بن أيوب ودفنت بمدرستها»[٤].

وقد صارت الآن داراً ولم يبق منها سوى قبر الواقفة[٥]. ويقول كرد علي: «لقد سميت في القرن التاسع عشر دار المشيرية، حيث يقيم مشير العساكر في الدولة

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٦٣.
(٢) العلامة بدران: منادمة الاطلال ص١١٩ ـ ١٢٠.
(٣) النعيمي: الدارس ج١ ص٢٨٣.
(٤) النعيمي: الدارس ج١ ص٢٨٣.
(٥) بدران: منادمة الاطلال ص١٢٨.

العثمانية، وجعل في عهد الإنتداب مركزاً لدواوينه ودمر بالحريق»[١]. وسيأتي على ذكر مدرسيها في العصر المملوكي.

٢٢ ـ المدرسة العمادية:

موقعها: داخل بابي الفرج والفراديس لصيق المدرسة الدفاعية من قبله. وقال ابن شداد المدرسة العمادية الصلاحية بانيها عماد الدين إسماعيل بن نور الدين والواقف عليها صلاح الدين[٢]. وسيأتي ذكر مدرسيها في فصول لاحقة.

وبها من الأوقاف: حانوت بجوار المدرسة وعلوه طبقة، ومحاكرة المزرعة المعروفة بالعمادية بقصر اللباد بالقرب من حارة السليماني، ومحاكرة نصف المزرعة بالوادي التحتاني وتعرف بالدماغية ومحاكرة الجنينة، ومحاكرة حوانيت، وليس الآن لذكرهم فائدة لتغير الأسماء والمسميات[٣].

ـ وهي الآن كتاب للصبيان في زقاق الخندق.

٢٣ ـ المدرسة الغزالية:

تقع في الزاوية الشمالية الغربية شمالي مشهد عثمان المعروف الآن بمشهد النائب من الجامع الأموي[٤]. والزاوية الغزالية منسوبة إلى الشيخ نصر المقدسي وتنسب إلى الغزالي رحمهما الله تعالى لكون الغزالي رحمه الله تعالى دخل إلى دمشق المحروسة وقصد الخانقاه السميساطية ليدخل إليها، فمنعه الصوفية من ذلك لعدم معرفتهم به فعدل عنها، وأقام بهذه الزاوية بالجامع إلى أن علم مكانه وعرفت منزلته فحضر الصوفية بأمرهم إليه وأعتذروا له ثم أدخلوه الخانقاه السميساطية فعرفت الزاوية به وإنما تنسب إلى الشيخ نصر المقدسي بعده[٥].

وهي الآن مشهد من مشاهد الجامع[٦]. وسيأتي ذكر مدرسيها في فصل لاحق.

٢٤ ـ المدرسة الفارسية:

موقعها: والتربة بها غربي الجوزية الحنبلية، تجاه الخارج من باب الزيادة بالبازورية والجوزية في زمننا محكمة[٧]. ثم تناولتها يد المختلسين فجعلتها دوراً، وأعانت الدهر على محو الأثر[٨].

منشئها: واقفها الأمير سيف الدين فارس الدوادار التميمي في سنة ثمان

---

(١) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٨٤.
(٢) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٠٨.
(٣) العلامة بدران: منادمة الاطلال ص١٣٤.
(٤) النعيمي: الدارس ج١ ص٣١٣.
(٥) النعيمي: الدارس ج١ ص٣١٤.
(٦) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٨٥.
(٧) بدران: منادمة الاطلال ص١٣٥.
(٨) نفس المصدر

وثمانمائة، وفي وقفه الجديد، واقف قرية صحنايا وغيرها على مدرّسين وعشرة فقهاء وعشرة مقرية، ويقرىء خمسة عشر يتيماً، إذا حفظ أحدهم القرآن يخرج ويقرر غيره، وتفرقت خبز في كل جمعة زنة ربع قنطار، ومقرئين آخرين فيها أيضاً غير العشرة[1].

٢٥ ـ المدرسة الفتحية:

هي مجهولة المكان.

أنشأها الملك الغالب فتح الدين صاحب ماردين نسيب صاحب حماة وبها قبر الواقف ووقفها بالديار المصرية[2]. وللواقف مدرسة ثانية أتى ذكرها في مدارس الحنفية.

وسيأتي ذكر مدرسيها في فصل لاحق.

٢٦ ـ المدرسة الفخرية:

موقعها: بين السورين، من ثمن العمارة بدمشق ولم يبق لها الآن من أثر ونسي مكانها[3].

منشئها: في سنة إحدى وعشرين وثمانمائة هـ: وفي شهر رمضان تكاملت عمارة الفخرية وقررت فيها الصوفية وعُيّن مدرسيها. . . ولم يستطع بانيها فخر الدين الأستاذ الحضور عند المدرسين لشدة مرضه، وتمادى به الأمر إلى أن مات في سادس شوال، ودفن فيها في فسقية اتخذت له بعد موته[4]. وسيأتي ذكر مدرسيها في فصول لاحقة.

٢٧ ـ المدرسة القليجية:

موقعها: داخل البابين الشرقي وباب توما، شرقي المسمارية وغربي المحراب، والتربة شرقيها، مبنية بحجر مزي منحوت وقد طمست كما ظهر لي أنها هي[5].

منشئها: وقال عبد القادر النعيمي: «المدرسة القليجية المجاهدية، بانيها مجاهد الدين ابن قليج محمد بن شمس الدين محمود وهي في موضع يعرف بقصر ابن ابي الحديد[6]. ولئن كانت مجهولة في عصر التسعمائة للهجري فلأن تكون الآن مجهولة من باب أولى»[7]. ويقول كرد علي: «إن أحمد بن سليمان الدمشقي الصوفي عزّل

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٢٤.
(٢) النعيمي: الدارس ج١ ص١٣٦ ـ ١٣٧.
(٣) كردعلي: الشام ج٦ ص٨٥. ـ بدران: منادمة الاطلال ص١٣٧.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٢٦.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٢٩.
(٦) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٣٠.
(٧) عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص١٣٩.

التراب الذي في المدرسة القليجية الذي كان من بقايا الخراب في فتنة تيمولنك وقطن بهاوأسكن في حجراتها عدة من الفقراء، والمدرسة المذكورة كانت تعرف في القرن الحادي عشر بمزار سيدي سيف الدين من الأمراء النورية»(١).

٢٨ ـ المدرسة القواسية:

موقعها: بالعقيبة الصغرى بحارة البـليماني القرب من مسجد الزيتونة(٢).

منشئها: قال الشيخ عماد الدين في سنة ثلاثة وثلاثين وسبعمائة: «الأمير عز الدين إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن القواس، كان مباشراً للسر فيعض الجهات السلطانية وله دار حسنة بالعقيبة الصغرى فلما حضرته الوفاة أوصى أن تجعل مدرسة ووقف عليها أوقافاً دارة، وجعل تدريسها للشيخ عماد الدين، توفي يوم الأربعاء العشرين من ذي الحجة ودفن بسفح قاسيون ووقف داره مدرسة ظاهر دمشق خارج باب الفراديس(٣)». وقد تأملت هناك فلم أجد لها أثراً سوى حجارة كبيرة في بعض الجدران، وعلى كل فقد صارت دوراً(٤).

٢٩ ـ المدرسة القوصية:

موقعها: وهي الحلقة بالجامع الأموي(٥). وقد خفي علي مكانها وصعب عليّ مشاهدة أثرها بعد الفحص الشديد لأن الزمان إغتالها وأخنى عليها، فدرس أطلالها بيد مختلسي الجوامع والمدارس والأوقاف(٦).

منشئها: الزاوية القرصية لم يعلم لها واقف كما قال ابن شداد. وقال آخرون «لم يحددها النعيمي» إن واقفها مدرسها القوصي وهو الشيخ الفقيه المدرس الأخباري الأديب الرئيس شهاب الدين أبو المحامد وأبو الطاهر وأبو العز اسماعيل... الأنصاري الخزرجي وكيل بيت المال بالشام، ولد بقوص في محرم سنة أربع وسبعين وخمسمائة وقدم القاهرة في سنة تسعين ثم قدم الشام سنة إحدى وتسعين وسكنها وتقدم عند الملوك، ودرس بحلقته وكان يلازم لبس الطيلسان المحيك والبزّة الجميلة ويركب البغلة. وكان فقيهاً فاضلاً مدرساً أديباً أضبارياً حافظاً للأشعار فصيحاً مفوهاً بصيراً بالفقه. وفي سنة ثلاثة وخمسين وستمائة للهجري توفي ودفن في داره التي وقفها دار حديث(٧). وسيأتي ذكر مدرسيها.

٣٠ ـ المدرس القيمرية:

موقعها: بالحريميين التي هي شمالي البلد إلى جهة الشرق، وفي دمشق الآن

(١) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٨٦.
(٢) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٣١.
(٣) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٣٢.
(٤) بدران: منادمة الاطلال ص١٣٩.
(٥) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٣٣.
(٦) بدران: منادمة الاطلال ص١٣٩.
(٧) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٣٣.

محلة تسمى القيمرية والظاهر أنها نسبة للمدرسة المذكورة. وهي مشهورة وبناؤها متين، ولها مساحة كبيرة بها بركة ماء كبيرة وفي الجانبين الشرقي والغربي حجرات متعددة، وهي عظيمة الأثر ولا تزال معروفة[١].

منشئها: الأمير ناصر الدين الحسين بن علي وقفها على القاضي شمس الدين علي الشهرزوري[٢] وهو مستمر بها إلى الآن.

وقال الذهبي في عبرة في سنة خمس وستين وستمائة: «والقيمري الإمام مقدم الجيوش ناصر الدين حسين بن عبد العزيز الذي أنشأ المدرسة بسوق الحريريين كان بطلاً شجاعاً رئيساً عادلاً جواداً وهو الذي ملك دمشق للناصر توفي مرابطاً بالساحل في شهر بيع الأول»[٣]. وسيأتي ذكر مدرسيها.

٣١ ـ المدرسة القيمرية الصغرى:

بالقباقبية العتيقة غربي المقدمية الحنفية وشمالي الحنبلية، وهي بين القيمرية الكبيرة المارة التي عند سوق الحريريين وسوق الصناديق، وغير القيمرية التي هي بطريق الشبلي التي هي قبلي الحافظية، نزل عنها بهاء الدين بن جمال الدين الباعوني سنة أثنتين وتسعين وثمانمائة رحمة الله تعالى عليهم أجمعين[٤].

لقد خرجت ولم يبق فيها إلا مسجدها وأبدل الناس أسمها بالقحفي والديناري. وقد ذهب أكثرها وفي أيامنا هدم قسم منها وأدخل في الطريق[٥].

٣٢ ـ المدرسة الكروسية:

موقعها: إلى جانب السامرية الشافعية. والزمان أفنى المدرسة وأصبحت في خبر كان[٦]. ومن المحتمل أن تكون دار الحديث الكروسية المار ذكرها.

وفي سنة إحدى وأربعين وستمائة، وأقف الكروسية محمد بن عقيل بن كروس بن جمال الدين محتسب دمشق، كان كيساً متواضعاً توفي بدمشق في شوال ودفن بداره التي جعلها مدرسة وله دار حديث[٧].

---

(١) بدران: منادمة الاطلال ج١ ص١٤١.
(٢) ابن كثير: تاريخ ج١٣ ص٢٨٨.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٣٥.
(٤) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٣٩.
(٥) بدران: منادمة الاطلال ص١٤٢ ـ ١٤٣.
(٦) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٨٦.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٣٩ ـ ٣٤٠.

٣٣ ـ المدرسة الكلاسية:

موقعها: لصيق الجامع الأموي من شمالي ولها باب إليه. وكانت أولاً موضع عمل الكلس حين يحتاج الجامع للأعمار، أعدت أيام بنائه، فمن ثم جعلت من الزيادات عليه لما ضاق بالناس ثم سنة سبع وأربعين وستمائة جدد بركتها جمال الدين بن يغمور وبلّط أرضها وأرض دهليزها[١].

منشئها: نور الدين الشهيد في سنة خمس وخمسين وخمسمائة وأحرقت سنة سبعين وخمسمائة ولما ملك صلاح الدين دمشق أمر بتجديد عمارة الكلاسة في سنة خمس وسبعين وخمسمائة وأول من صلى بها أبو جعفر القرطبي[٢]. ولم تزل الإمامة في يده ويد أولاده إلى سنة ثلاث وأربعين وستمائة فانقرضوا ولم يبق لهم عقب[٣]. وسنأتي على ذكر مدرسيها لاحقاً.

ويقول بدران: «إن واقعة تيمورلنك أتلفتها أو جانباً منها حينما أحرق البلد والجامع ثم أعيدت مدرسة. ثم إن هذه المدرسة لم يبق لها إلا الاسم، ثم أحنى عليها الزمان في أيامنا فهدمت كلها، والله يقلب الأمور كيفما يشاء»[٤].

٣٤ ـ المدرسة المجاهدية الجوانية:

بالقرب من باب الخواصين، واقفها الأمير الكبير مجاهد الدين أبو الفوارس بزان ابن يامين بن علي بن محمد الجلالي الكردي أحد مقدمي الجيش بالشام في دولة نور الدين وناب بصرخد[٥]. ولما فتح معين الدين صرخد[٦] وبصرى سلم صرخد للأمير مجاهد الدين بزان بن يامين وسلم بصرى إلى صاحبه فارس الدولة فأقام مجاهد الدين بصرخد إلى أن توفي ليلة الجمعة ثاني صفر سنة خمس وخمسين وخمسمائة هـ.

وسنأتي على ذكر مدرسيها في العصر المملوكي. ولها وقف منها المدرستان المنسوبتان إليه إحداهما التي دفن بها وهي لصق باب الفراديس والأخرى في صف مدرسة نور الدين. وله وقف على من يقرأ بمقصورة الخضر بجانب دمشق. وقد ذهبت هذه الآثار كلها إلّا من القرطاس، والله أعلم من أستولى عليها[٧].

٣٥ ـ المدرسة المجاهدية البرانية:

تقع بين بابي الفراديس، واقفها الأمير مجاهد الدين وقد مرت ترجمته في المدرسة التي قبلها وبها دفن[٨].

---

(١) بدران: منادمة الاطلال ص١٤٤.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٣٢٣.
(٣) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٤١.
(٤) بدران: منادمة الاطلال ص١٤٥ ـ ١٤٦.
(٥) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٤٤.
(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص١٣٨.
(٧) بدران: منادمة الاطلال ص١٤٧.
(٨) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٤٧.

هذه المدرسة موجودة وقد غير الناس أسمها ورسمها. أما أسمها: فهم يسمونها الآن جامع السادات، ولم أدر لأي شيء أخذت هذه النسبة. وأما رسمها: فقد نقص المختلسون أطرافها والباقي منها مسجدها وفي صفتها الشمالية قبور وساحتها موجودة، وبالجانب الغربي منها طباق للسكنى بالأجرة(١).

٣٦ ـ المدرسة المنكلائية:

قال النعيمي في ترجمة سنجر الأمير الكبير علم الدين الشجاعي المنصوري ما عبارته: «وكان قد رُبي أولاً بدمشق عند امرأة تعرف بست قجاجوار المدرسة المنكلائية»(٢) ولا نعلم لها مدرساً ولا واقفاً وهي معروفة قرب القيمرية.

ويقول العلامة عبد القادر بدران(٣): «مررت في أثناء ذهابي إلى محلة باب توما بمسجد له صحن لطيف وحرم مثله، وعن يسار الداخل قبور، ورأيت هناك شيخاً يقرىء القرآن، فسألته عن قبر فقال لي: هو قبر الشيخ محمد المنكلائي. فإذا صحّ الخبر كانت هذه هي المدرسة المنكلائية وهي الآن معروفة ومشهورة ولا يزال إلى اليوم يوجد في تلك البقعة مقام للشيخ المنكلائي».

هذه المدارس الشافعية الموجودة في دمشق والذي أنشىء معظمها في العصر المملوكي وإذا ذكرنا بعض المدارس التي أنشئت في العصر الأيوبي وما قبل في هذا الفصل ما هو إلّا لذكر مدرسيها في فصل لاحق. لأن هذه المدارس استمرت فترة طويلة بمدرسيها وطلابها حتى العصر التركي العثماني.

ج ـ المدارس المالكية بدمشق: وعددها ثلاث

١ ـ الزاوية المالكية:

موقعها ومنشئها: الزاوية بالجامع الأموي، واقفها السلطان صلاح الدين، ملاصقة المقصورة الحنفية من غربي الجامع(٤).

ويقول عبد القادر بدران: «والمقاصير قد تغيرت، والأوضاع تلاشت، وقد جاء زمن غير ذلك الزمن، فلا حاجة إلى كثرة التنقيب من أمثال هذه المواضع بعدما أحترق الجامع مراراً، وأعتراه الهدم والحريق أيام تيمورلنك وغيره»(٥) وقد درس في هذه الزاوية بعض فقهاء المالكية. وسنأتي لاحقاً على ذكر مدرسيها.

---

(١) العلامة بدران: منادمة الاطلال ص١٤٨. (٢) النعيمي: الدارس ج١ ص٣٥٠.
(٣) بدران: منادمة الاطلال ص١٥٠. (٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٣.
(٥) عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٢٢٤.

٢ ـ المدرسة الشرابيشية:

موقعها: بدرب الشعارين لصيق حمام صالح، شمالي الطيوريين، داخل باب الجابية[١].

منشئها: ورأيت بخط الحافظ البرزالي رحمه الله تعالى في تاريخه سنة أربع وثلاثين وسبعمائة (للهجري) وفي يوم الخميس الرابع والعشرين من صفر توفي شهاب الدين أحمد بن نور الدولة علي بن ابي المنجد بن محاسن الشرابيش التاجر السفار ودفن يوم الجمعة بالمكان الذي وقفه والده خارج الباب الصغير، قبالة جامع جراح، وكان له همة ونهضة، وتودد إلى الناس[٢]. وأصبحت محكمة شرعية قبل أن تصبح مدرسة للأيتام وأختلس الجيران بعضها[٣].

٣ ـ المدرسة الصمصامية:

موقعها: تقع بمحلة حجر الذهب شرقي دار القرآن الوجيهية وقبلي المسرورية الشافعية.

منشئها: وأشام الخاتونية العصمية الحنفية[٤].

وقال ابن كثير في سنة سبع عشرة وسبعمائة: «وفي ذي القعدة يوم الأحد درس بالصمصامية التي تجددت للمالكية وقد وقف عليها الصاحب شمس الدين غريال الأسمري درساً»[٥].

وقال المجي في تاريخه أحمد بن سنان صاحب التاريخ المشهور «القرماني»: «قدم أبوه سنان إلى دمشق، وولي نظارة البيمارستان ونظارة الجامع الأموي. وأنتقد عليه أنه باع بسطاً للجامع الأموي وحصراً وأنه خرب مدرسة المالكية بالقرب من البيمارستان النوري، وتعرف بالصمصامية وحصل به الضرر في مدرسة النورية ببعلبك؛ فقتل بسبب هذه الأمور هو وناظر السليمية حسين في يوم الخميس رابع عشر شوال سنة ست وستين وتسعمائة جميعاً معاً بدار السعادة بشاشيهما وعمامتهما على رأسيهما»[٦].

والوجيهية، والمسرورية، والخاتونية، والصمصامية صارت دوراً، وأنمحت

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٦.
(٢) النعيمي: الدارس ج٢ ص٦.
(٣) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٩٦.
(٤) النعيمي: الدارس ج٢ ص٦.
(٥) ابن كثير: تاريخه ج١٤ ص١٧٤.
(٦) بدران: منادمة الاطلال ص٢٢٦. ١) محمد كردطي: خطط الشام ج٦ ص٢٢٦.

آثارها. والتطويل في تراجمها لا يجدي نفعاً[1]. وهذا آخر الكلام على مدارس المالكية.

د ـ مدارس الحنابلة بدمشق وعددها خمس

١ ـ المدرسة الجاموسية:

يقول النعيمي: «هي غربي العقيبة بدمشق لم أعرف واقفها. وقد تواترت الأخبار بذلك، والوقف على المدرسة المذكورة هو ثلث الحانوت بالعقيبة الكبرى، والبستان المعروف بالطبرزية، وجنينة الرصاص، ومحاكرة الجنينة بمصاطب الطرق، ومحاكرة البستان بقرية جسرين، ومحاكرة تمرن الأمير وابن الرملي جوار المدرسة، والمحاكرة جوارها بإسم ابن نور الدين، والبستان فوق حمام الورد بيد أولاد نظام الدين[2].

«قد تسلط عليها محمود ولد تاج الدين السلطي وفكها وطمسها»[3].

٢ ـ المدرسة الحنبلية الشريفية:

موقعها: بالشين المعجمية عند القباقبية العتيقة[4].

منشئها: شرف الإسلام عبد الوهاب بن الشيخ ابي الفرج الحنبلي عبد الواحد بن محمد الأنصاري الشيرازي. وهو واقف المدرسة الحنبلية بدمشق توفي في صفر سنه ست وثلاثين وخمسمائة للهجري[5]. وكان ذا حرمة وحشمة وقبول وجلالة ببلده وهو شيخ الحنابلة الفقيه الواعظ.

«وهي الآن لا أثر لها ولعلها صارت دوراً للسكنى»[6].

قال النعيمي: «والوقف عليها البستان والحصة في الحولة، وأرض في جهة حلبون وعسال»[7].

توفي والد عبد الوهاب وهو صغير فاشتغل بنفسه، وتفقه وبرع، وناظر وأفتى، ودرّس الفقه والتفسير، ووعظ وأشتغل عليه خلق كثير، وكان فقيهاً بارعاً، وواعظاً نافعاً، وصدراً معظماً ذا حشمة وحرمة، وسؤدد ورياسة ووجاهة، وهيبة وجلالة[8]. وسنأتي على ذكر مدرسيها لاحقاً.

---

(١) بدران: منادمة الاطلال ص٢٢٦.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٥٠.
(٣) بدران: منادمة الاطلال ص٢٣٣.
(٤) النعيمي: الدارس ج٢ ص٥٠.
(٥) النعيمي: الدارس ج٢ ص٥٠.
(٦) بدران: منادمة الاطلال ص٢٣٤.
(٧) النعيمي: الدارس ج٢ ص٦١ ـ ٦٢.
(٨) العلامة عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٢٣٤.

٣ ـ المدرسة العالمة:

موقعها: شرقي الرباط الناصري غربي سفح قاسيون تحت جامع الأفرم(١).

منشئها: واقفتها الشيخة الصالحة العالمة أمة اللطيف بنت الشيخ الناصح الحنبلي، وكانت فاضلة لها تصانيف، وهي التي أرشدت ربيعة خاتون بنت نجم الدين أخت الملك صلاح الدين إلى وقف المدرسة الصاحبية بقاسيون على الحنابلة أيضاً، ثم لما ماتت ربيعة خاتون وقعت العالمة المذكورة في المصادرات وحُبست مرة ثم أفرج عنها وتزوجها الأشرف صاحب حمص، وسافرت معه إلى الرحبة وتل باسر، ثم توفيت رحمها الله تعالى سنة ثلاث وخمسين وست مائة ووجد لها بدمشق جواهر وذخائر نفيسة تقارب ست مائة الف درهم غير الأملاك والأوقاف(٢).

والوقف عليها: بستان بجسر البطة، والفيضة الثانية، وحكر ابن صبح عند الشامية. وكان بهذه المدرسة دار حديث. وبالجملة فقد ضاعت هذه المدرسة كما ضاع غيرها وسيلحقها هذا الأثر(٣). وسيأتي ذكر مدرسيها لاحقاً.

٤ ـ المدرسة المسمارية:

موقعها: قبلي القيمرية الكبرى، داخل دمشق، قرب مئذنة فيروز(٤). «جددها علي جلبي دفتردار الشام وجعل لها منارة في سنة سبعين وتسعمائة وتسمى مدرسة شرف الإسلام. والمدرسة اليوم معلومة، ولكنها خربة، والوقف عليها: الحكر المعروف بها وحده من طريق جامع تنكز إلى مقابر الصوفية إلى الطريق الذي فيه القنوات إلى الطريق الآخذ إلى مدرسة شادي بك ويعرف قديماً ببستانها، وحكر وهو المعروف بالساقية بأرض مجد القصب»(٥).

ويقول كرد علي: «جعلت الآن مخفراً للشرطة»(٦).

منشئها: الحسن مسمار الهلالي الحوراني المقرىء التاجر، قرأ بالروايات وسمع الحديث ورحل إلى بغداد وسمع بها من أبي القاسم بن حصين، وكان يصلي بجامع دمشق بحلقة الحنابلة صلاة التراويح، ويقرأ فيها بعدة روايات يخلطها ويردد الحرف المختلف فيه فأنكر ذلك عليه وقالوا: هذا مذهب ترتيب النظم في القرآن الكريم. وكان مثرياً مقتراً على نفسه، بلغني أنه أوصى عند موته بإخراج جملة من زكاة ماله أجتمعت عليه من سنين عديدة على مدة حتى أمر

(١) النعيمي: الدارس ج٢ ص٨٧.
(٢) النعيمي: الدارس ج٢ ص٧٨ ـ ٨٨.
(٣) بدران: منادمة الاطلال ص٢٤٨.
(٤) النعيمي: الدارس ج٢ ص٨٩.
(٥) بدران: منادمة الاطلال ص٢٤٩.
(٦) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص٩٨.

بإخراجها سنة ست وأربعين وخمسمائة[1]. وسيأتي ذكر مدرسيها لاحقاً.

٥ ـ المدرسة المنجائية:

موقعها: هي زاوية بالجامع الأموي تعرف بابن منجا[2].

منشئها: في سنة خمس وتسعين وستمائة: وابن المنجا العلامة زين الدين أبو البركات المنجا بن عثمان ابن اسعد بن المنجا التنوخي الدمشقي الحنبلي أحد من انتهت إليه رياسة المذهب وأصوله مع التبحر في العربية والنظر والبحث وكثرة الصلاة والصيام والوقار والجلالة. ومات عن أربعة وستين عاماً[3].

درّس بعدة مدارس وأخذ عليه الفقه الشيخ تقي الدين بن تيمية وتقي الدين الزريراني، وحدّث فسمع منه ابن العطار والمزي والبرزاني[4]. وسنأتي على ذكر مدرسيها لاحقاً.

فقد عرفنا من مدارس أصحاب المذاهب الأربعة المذكورة فيما وقفنا عليه من كتب التاريخ إلى سنة التسعمائة للهجري (أواخر العهد المملوكي).

٢ ـ مدارس حلب في العصر المملوكي وعددها ١١ مدرسة:

لقد نشأت المدارس في حلب في العصر الذي نشأت فيه بدمشق ولكن على صورة مصغرة ولقد أنفرد كرد علي تقريباً بتعداد هذه المدارس في حلب والقدس. وأنفرد تدمري بمدارس طرابلس. ونتوسع لاحقاً بمدارس حلب ومدرسيها في الباب الثاني.

١ ـ مدرسة القطيسة:

أنشأها سعد الدين مسعود بن الأمير عز الدين ايبك المعروف بقطيس وكانت داراً يسكنها فوقفها سنة ٦٤٩ هـ، أنها درست في الفتنة التيمورية ولم يبق لها عين ولا أثر ولا يعلم اين كانت وما زلت أسمع كان بحلب أربعون مدرسة للحنيفية[5].

٢ ـ المدرسة الألجانية:

لصيق جامع الطواسي نسبة إلى الجاني أمين السلاح زمن أشقتمر أنشئت سنة ٧٤٤هـ.

٣ ـ المدرسة الصاحبية:

تقع بمحلة سويقة. وتعرف الآن بجامع الفستق[6].

(١) النعيمي: الدارس ج٢ ص٨٩.
(٢) النعيمي: الدارس ج٢ ص٩٤.
(٣) النعيمي: الدارس ج٢ ص٩٤.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٨٩.
(٥) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١١٠.
(٦) الغزي: نهر الذهب ج٢ ص٢٧٩.

شمالي الردكية أنشأها شهاب الدين أحمد بن الصاحب سنة ٧٦٥هـ وهي باقية إلا أنها متوهنة وفيها نقوش وآثار تعدّ من النفائس[١].

٤ ـ المدرسة اليشبكية:

بناها الأمير يشبك المؤيدي نائب حلب على أنها مكتب أيتام وبنى له منها مدفناً دفن فيه سنة ٨٢٣هـ ووقف عليها سوقه الذي بناه بالقرب منها ولا أثر لها وإن المسجد الذي بني معها فهو باق في سوق العبي[٢].

٥ ـ المدرسة السفاحية:

بناها القاضي شهاب الدين سبط بن السفاح ووقفها على الشافعية وشرط أن لا يكون لحنفي فيها حظ إلا في الصلاة. «والتغري البرمشية» بناها الأمير تغري برمش نائب حلب[٣].

٦ ـ مدرسة أقجا:

أنشأها أقجا خازن يشبك اليوسفي وهي قبلي السفاحية ولا أثر لها اليوم[٤].

٧ ـ المدرسة الدلغادرية:

بناها ناصر الدين محمد بن دلغادر ظاهر البلد من شماليه على كتف الخندق ووقفها على الحنفية وقرر بها شهاب الدين أحمد بن موسى المرعشي[٥].

٨ ـ المدرسة الأشودية:

أنشأها الأمير عز الدين أشود التركماني دثرت في القرن العاشر.

٩ ـ المدرسة الناصرية:

كانت قديماً كنيسة لليهود تعرف بكنيسة مثقال في سنة ٧٢٧هـ ثبت أنها محدثة في دار الإسلام فقبلت مدرسة وعمل بها منارة وهي معروفة الآن بجامع الحيات لرسوم حيات من الحجر في قنطرة وقد عراها الوهن[٦].

١٠ ـ المدرسة البلاطية:

وهي زاوية مشروط فيها إقامة عشرة من الطلبة الحنفية ولها إمامٌ ومؤذن ومدرّس ولهم طعام وقفها الأمير زين الدين الحاج بلاط الدوادار وهي خارج باب المقام، بقي من آثارها أيوان كبير وست حُجُر يسكنها الفقراء. عُمرت في منتصف القرن التاسع الهجري[٧].

---

(١) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١١٠.
(٢) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١١٢.
(٣) نفسه.
(٤) نفسه.
(٥) نفسه.
(٦) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١١٢.
(٧) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١١٣.

١١ ـ المدرسة القرموطية:

أنشأ عبد القادر بن قرموط ٨٨٢ هـ جددها عبد الرحمن بن قرموط سنة ٩٧٨هـ وهي الآن مكتب[١].

٣ ـ مدارس القدس في العصر المملوكي وعددها ٣٥ مدرسة

١ ـ المدرسة التنكزية:

واقفها الأمير تنكز الناصري نائب الشام وهي مدرسة عظيمة ليس في المدارس أتقن من بنائها عمّرت سنة ٧٢٩هـ وهي بجانب باب الحرم بجوار باب السلسلة مجاورة للسور من جهة الغرب، ولا تزال عامرة، وهي مقر المحكمة الشرعية[٢].

٢ ـ المدرسة البلدية:

بجانب باب الحرم واقفها الأمير منكلي بغا الأحمدي نائب حلب ودفن فيها سنة ٧٨٢هـ وما برحت عامرة ولكنها دار للسكنى[٣].

٣ ـ المدرسة الأشرفية:

داخل المسجد الأقصى بالقرب من باب السلسلة عمرها الملك الأشرف قايتباي وبدىء أساسها سنة ٨٨٥هـ وكانت قبتها ثالث القباب المهمة في القدس ـ الأولى قبة الصخرة والثانية قبة الأقصى[٤].

٤ ـ المدرسة العثمانية:

بباب المتوضأ بجوار الحرم واقفتها أمرأة من أكابر الروم أسمها اصفهان شاه خاتون وتدعى خانم وعليها أوقاف ببلاد الروم وغيرها، وعلى بابها تاريخها في سنة أربعين وثمانمائة وهي لا تزال عامرة وتسكنها اسرة[٥].

٥ ـ المدرسة الخاتونية:

بباب الحديد جوار الحرم واقفتها أغل خاتون بنت شمس الدين القازانية البغدادية ثم أكملت عمارتها ووقفت عليها أصفهان شاه بنت الأمير قازان شاه سنة ٧٨٢هـ وما حبس عليها من المغل غير معلوم، وهي اليوم دار سكن فيها قبر السيدة خاتون القازانية[٦].

٦ ـ المدرسة الأرغونية:

بباب الحديد جوار الحرم واقفها أرغون الكاملي نائب الشام وهو الذي استجد

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١١٧.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١١٧.
(٥) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١١٨.
(٦) المصدر نفسه.

باب الحديد أحد أبواب المسجد أكملت عمارتها سنة ٧٥٩هـ وهي الآن دار سكنى وقد ضاعت أوقافها وأحباسها وفيها قبر أرغون الشاه[١].

٧ ـ المدرسة المزهرية:

بباب الحديد جوار الحرم الشريف، واقفها المقر الزيني أبو بكر بن مزهر الأنصاري صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية ولها مجمع على أروقة المسجد وكان الإنتهاء من بنائها سنة ٨٨٥هـ وقد غدت داراً للسكنى[٢].

٨ ـ المدرسة الجوهرية:

بباب الحديد جوار الحرم الشريف وبعضها على رباط كرد واقفها الصفوي جوهر زمام الأدر الشريفة في سنة ٨٤٤هـ وهي الآن دار للسكنى[٣].

٩ ـ المدرسة المنجكية:

بباب الناظر جوار الحرم وقفها الأمير منجك نائب الشام ونقل مجير الدين أن الأمير كان قد وصل إلى القدس الشريف ليبني المدرسة للسلطان الملك الناصر حسن فلما قتل السلطان في سنة أثنتين وستين وسبعمائة للهجري بناها لنفسه ونسبت إليه ووقف عليها ورتب لها فقهاء وأرباب وظائف ثم تلاشت ثم عمرت ولا تزال معمورة إلى هذا العصر. وقد أتقن بناؤها في العهد الأخير وأقام فيها المجلس الشرعي الإسلامي[٤].

١٠ ـ المدرسة الجاولية:

في الجهة الشمالية واقفها الأمير علم الدين سنجر الجاولي نائب غزة توفي سنة ٧٤٥هـ ضاعت أوقافها وهي اليوم قسم من كلية روضة المعارف الوطنية[٥].

١١ ـ المدرسة النصيبية:

في الجهة الشمالية واقفها الأمير علاء الدين علي بن ناصر نائب قلعة نصيبين وُلي نيابة القدس وعمّر بها المدرسة وتوفي بدمشق سنة ٨٠٩ ونقل إلى هذه المدرسة وهي اليوم قسم من كلية روضة المعارف الوطنية[٦].

١٢ ـ المدرسة الأسعردية:

جوار الحرم إلى الشمال واقفها الخراجة مجد الدين عبد الغني الأسعردي، وتاريخ وقفها سنة ٧٧٠هـ ولا تزال عامرة وقد شرع في ترميمها منذ عهد غير بعيد

(١) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١١٨.
(٢) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١١٨.
(٣) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١١٨.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه.

لنقل دار كتب المسجد الأقصى إليها وإقامة قاعة للمحاضرات فيها[١].

١٣ ـ المدرسة المالكية:

إلى شمالي الحرم عمّرها ملك الجو كندار وكان بناؤها في مستهل الحرم سنة ٧٤١هـ وهي تابعة للأسعردية وما برحت عامرة[٢].

١٤ ـ المدرسة الفارسية:

إلى شمالي الحرم واقفها الأمير فارس البكي ابن الأمير قطلو بن عبدالله نائب السلطنة بالأعمال الساحلية والجبلية ونائب غزة وهو الذي نسبت إليه الفارسية بداخل المسجد الأقصى، وهذه الآن دار سكن وكان يدرس فيها الخالدي[٣].

١٥ ـ المدرسة الأمينية:

بباب شرف الأنبياء جوار الجامع واقفها الصحاب أمين الدين عبدالله في سنة ثلاثين وسبعمائة وهي دار سكن[٤].

١٦ ـ المدرسة الدويدارية:

بباب شرف الأنبياء جوار الجامع واقفها الأمير علم الدين أبو موسى الصالحي النجيمي وتاريخ وقفها سنة ٦٩٦ وفيها اليوم مدرسة البنات الإسلامية[٥].

١٧ ـ المدرسة الباسطية:

بباب شرف الأنبياء بعضها على المدرسة الدويدارية واقفها زين الدين عبدالباسط ناظر الجيوش المنصورة وقفها سنة ٨٣٤هـ لا تزال موجودة تابعة للدويدارية وفيها مدرسة البنات الإسلامية[٦].

١٨ ـ المدرسة الكريمية:

بباب حطة جوار الحرم واقفها الصاحب كريم الدين بن المعلم هبة الله بن مكانس ناظر الخواص الشريفية بالديار المصرية سنة ٧١٨هـ وهي الآن دار سكن[٧].

١٩ ـ المدرسة الدلقادرية:

بباب حطة جوار الحرم واقفها الأمير ناصر الدين بن دلغادر بعد أن عمّرتها زوجته مصر خاتون وقفها سنة ٨٩٧هـ وهي دواسة[٨].

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١١٩.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٢٠.
(٨) المصدر نفسه.

٢٠ ـ المدرسة الطولونية:

داخل المسجد على الرواق الشمالي كان يصعد إليها من السلم الموصل منه إلى منارة باب الأسباط. أنشأها أحمد بن الناصري محمد الطولوني الظاهر زمن الملك الظاهر برقوق سنة ٨٢٧هـ وهي من المدارس الدائرة[١].

٢١ ـ المدرسة الغزية:

مقابل الطولونية من جهة الشرق كان يصعد إليها من السلم المتصل منها إلى منارة باب الأسباط أيضاً وهي من أنشاء الطولوني عمّرها من مدرسته المقدم ذكرها وجعلها للملك الظاهر برقوق فلما توفي الظاهر وآل الأمر لولده الملك الناصر فرج رتب بها قرى وأقام نظامها وجعل لها معاليم تصرف عليها، ثم لما توفي فرج لم يكن لها كتاب وقف فاشتراها بعد وفاته رجل من الترك يقال له محمد شاه بن الغزي الرومي ووقفها ونسبت إليه وقد درست وأصبحت مساكن[٢].

٢٢ ـ المدرسة الحسنية:

على باب الأسباط، وقف شاهين الحسني الطواشي من دولة الملك الناصر حسن المتوفي سنة ٧٦٢هـ هي الآن دراسة[٣].

٢٣ ـ المدرسة الكاملية:

بخط باب حطة بجوار الكريمية من جهة الشمال واقفها الحاج كامل من أهالي طرابلس كتب محضر بوقفها سنة ٨١٠هـ تعد في الدوارس[٤].

٢٤ ـ المدرسة المعظمية:

وقف الملك معظم عيسى مقابل باب شرق الأنبياء المعروف بباب الدويدارية، تاريخ وقفها سنة ستين وستمائة وهي معمورة، وكان يدرس فيها الخالدي خصوصاً الكفاية والهداية[٥].

٢٥ ـ المدرسة السلامية:

بباب شرق الأنبياء تجاه المعظمية وهي بجوار المدرسة الدويدارية من جهة الشمال، واقفها الخواجا مجد الدين أبو الفداء اسماعيل السلامي. والظاهر أنها وقفت بعد السبعمائة وهي دار قرآن ولا تزال دار سكن[٦].

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥)كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٢١.
(٦) المصدر نفسه.

٢٦ ـ المدرسة الوجيهية:

بخط درج المولة. وقف وجيه الدين محمد بن عثمان بن اسعد بن المنجا الحنبلي المتوفي في سنة ٧٥٤هـ وهي الآن دار سكن[١].

٢٧ ـ المدرسة المحدثية:

بالقرب من الوجيهية عند قبو باب الغواضه بجوار الحرم، واقفها عز الدين أبو محمد الأردبيلي سنة ٧٦٢هـ وهي اليوم قسم من مكية روضة المعارف الوطنية[٢].

٢٨ ـ المدرسة الحسنية:

بباب الناظر على رباط علاء الدين البصير، واقفها ناظر الحرمين الشريفين ونائب السلطنة بالقدس وكان بناؤها في سنة ٨٣٧هـ وهي لعهدنا دار سكن[٣].

٢٩ ـ المدرسة التشتمرية:

بباب الناظر بالقرب من الحسنية واقفها الأمير تشتمر السيفي تاريخ وقفها ٧٥٩هـ وهي دار السكن[٤].

٣٠ ـ المدرسة البارودية:

بباب الناظر بالقرب من التشتمرية واقفتها الست الحاجة سفري خاتون ابنة شرف الدين بن محمود المعروف والدها بالبارودي تاريخ وقفها سنة ٧٦٨هـ وهي دار سكن[٥].

٣١ ـ المدرسة الجهاركسية:

بجوار اليونسية من جهة الشمال كانت كنيسة من بناء الروم قسمت نصفين، جعل الأول المدرسة الجهاركسية والثاني الزاوية اليونسية. والجهاركسية نسبة لواقفها الأمير جركس الخليل المتوفي سنة ٧٩١هـ وهي لا تزال معمورة حتى الآن[٦].

٣٢ ـ المدرسة الحنبلية:

بباب الحديد واقفها الأمير بيدمر نائب الشام فرنج من بنائها ٧٨١هـ وهي الآن دار سكن[٧].

٣٣ ـ مدرسة دار الحديث:

بجوار التربة الجالقية من جهة الغرب نسبة لركن الدين الكبير العجمي المعروف

(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) المصدر نفسه.

بالجالق، واقفها الأمير شرف الدين عيسى بن بدر الدين ابي القاسم الهكاري سنة ٦٦٦هـ[١].

٣٤ ـ مدرسة دار القرآن السلامية:

تجاه دار الحديث واقفها سراج الدين عمر بن أبي بكر السلام ٧٦١هـ وهي معروفة[٢].

٣٥ ـ المدرسة الطازية:

بخط داود بالقرب من باب السلسلة وقف الأمير طاز المتوفي سنة ٧٦٣هـ وهي الآن دار سكن[٣].

وهناك المدرسة الأباصيرية والموصلية. وكلها عمّرا ما قبل العهد العثماني وكان في مدينة القدس وحدها أكثر من خمس وأربعين مدرسة. بنيت في عهود متفاوتة وأكثر هذه المدارس من البناء الحجري الجيد وفيها يتجلى جمال الهندسة العربية وبعضها لم يقو على عوادي الأيام فتداعى في عصر واقفه وبعضه مما سلطَ عليه أكلة الأوقاف فأضمحل بالطبيعة وأكثره مما صبر على الأيام وبقي إلى الآن مثالاً ناطقاً بفضل البانين والواقفين لكنه تعطل عما كان وُقف عليه من التدريس والملازمة. وكيف دارت الحال فعدد الباقي من مدارس بيت المقدس بالنسبة لما بقي من نوعه في دمشق وحلب أكثر ولا يعلل ذلك إلا أن أرباب العدوان على الوقوف والأحباس لم يتيسر لهم أن يتسلطوا عليها وكان لهم من عناية غير المسلمين بمدارسهم ودياراتهم بالقدس عبرة وعظة.

٤ ـ مدارس طرابلس في العصر المملوكي:

وفي النهاية لا بدّ من أن نذكر بأن طرابلس لا تزال وبالرغم من كل الصعاب التي مرت بها أجمل مدينة على الساحل بشهادة من المؤرخين السابقين والحاليين.

فيه الوحيدة التي لا تزال تجمع بين القديم والجديد، صحيح أنها أتسعت ولكنها لم تهدم كل قديمها، وإن المدينة القديمة أصبحت جزءاً من المدينة الجديدة لكنها لا تزال موجودة. وهذه ما يميزها عن بقية المدن، وإن شاء الله ستحافظ على هذا الجزء المهم جداً منها لأنه من أهم الشواهد على تراث قديم وماض عريق. ونشير إلى أن المنظمة الدولية للآثار التابعة للأونيسكو والأمم المتحدة زارت مؤخراً طرابلس

(١) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٢١.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

وأدرجتها على قائمة المدن التاريخية العالمية التي تصلح أن تكون متحفاً دائماً.

ومن أهم مدارسها في العصر المملوكي هي:

١ ـ **المدرسة القرطائية**: الموقع والمؤسس والمدرسون.

أفخم مدارس طرابلس على الإطلاق وموقعها ملاصق للجامع الكبير من الجهة الشرقية وقد ذهب اسم بانيها وزمن بنائها مع الكتابة التي طمست لأخفاء أوقافها التي كانت محفورة على ظهر جوارها القبلي، ومن المؤكد أن بانيها «قرطاي» هو الأمير شهاب الدين قرطاي نائب السلطنة بطرابلس وهو الذي بنى منبر الجامع الكبير في سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٢٦م وأنشأ المدرسة المعروفة بإسمه ودفن فيها[١].

وتعتبر هذه المدرسة أجمل آثار طرابلس وأفخمها جميعاً[٢]. ومن أكبر مدارس طرابلس المملوكي ولها ثلاثة أبواب: الباب الرئيسي وهو من الشمال، والباب الثاني من الجهة القبلية عند الزاوية الشرقية من بيت الصلاة، والباب الثالث فيقع في الركن الجنوبي حيث يتصل إلى الحرام المنصوري (الجامع) وهذا الباب يصل صوت خطيب الجامع من يوم الجمعة إلى طلاب المدرسة عند الصلاة فيكون حرمها وحرم الجامع حرماً واحداً[٣].

وهي تمتاز عن بقية مدارس طرابلس الخالية من المنابر بإحياء صلاة الجمعة ولا غرابة إذن أن يطلق عليها المؤرخ «ابن ايبك» اسم جامع الأمير قرطاي[٤].

ويذهب المستشرق «بروس كوندي» إلى أن المدرسة أقيمت في المكان الذي كانت تشغله الكنيسة الأسقفية أيام الصليبيين[٥]. وبنظري هذا القول فيه نوع من الصحة.

وتعتبر الواجهة القبلية الخارجية لمدرسة القرطاوية بمثابة لوحة أعلانات سلطانية كبيرة حيث تزدان بالنقوش والكتابات التاريخية المتضمنة برفع المظالم عن أهالي طرابلس وملحقات نيابتها وهي منقوشة حسب تسلسلها التاريخي من الغرب إلى الشرق، ومنها مرسوم الملك الظاهر جقمق سنة ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م وعليها نقوش وتراجم لنواب طرابلس المماليك.

وكان في المدرسة عدة وظائف ومهام دينية مثل الجامع الكبير إلا الخطابة لعدم

---

(١) فيليب حتي: تاريخ لبنان ص٤٢٠. ١) الدكتور تدمري: آثار طرابلس ص١٨٣.

(٢) سالم: طرابلس الشام ص٤١٨.

(٣) تدمري: آثار طرابلس.

(٤) ابن ايبك: الدر الفاخر ص٣٩١.

(٥) Condé - p.37.

وجود منبر بها، ولم نستطع الحصول على أي مرجع أو مصدر يذكر فيه شيوخ هذه المدرسة بالعصر المملوكي. أما في العصر العثماني فهناك مدرسون كثر ـ ولا تزل المدرسة متماسكة وبناؤها جيد وتقام فيها الصلوات والتدريس حتى الآن.

٢ ـ المدرسة الشمسية: موقعها ـ مؤسسها ـ مدرسوها.

تقع هذه المدرسة على يسار الداخل إلى الجامع المنصوري الكبير من بابه الرئيسي وتلاصق الجامع من جهته الشمالية وتعرف بالشمسية نسبة التي بانيها وصاحبها قاضي طرابلس أحمد بن ابي بكر الملقب بـ«شمس الدين» وهي من أقدم مدارس طرابلس في عصر المماليك قد بنيت قبل الجامع الكبير وصاحبها توفي سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م ودفن فيها[١].

ويقول ابن حبيب الحلبي[٢]: «إن أحمد بن بكر هو باني المدرسة الملاصقة».

وقال ابن حجر[٣]: «كان شمس الدين صاحب المدرسة الشمسية في طرابلس فاضلاً في أنواع من العلوم وكان شجاعاً، وعنده عدد لقتال الأفرنج وكان قد أثرى وكثر ماله، وبنى بطرابلس مدرسة للشافعية وكان كل ما ورد عليه يكرمه، والكلمة مجتمعة في الثناء عليه».

وإن بناء هذه المدرسة قد تمّ في السنة التي تمّ فيها بناء الجامع الكبير أي في سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م. وتلاصق المدرسة الجامع الكبير من جهته الشمالية ولها بابان أحدهما تحت الرواق الشمالي الشرقي للجامع وهو يؤدي إلى بيت الصلاة والباب الآخر عند المدخل الرئيسي للجامع بمواجهة باب مدرسة الهندي والمدرسة مستطيلة الشكل.

ويذكر بأن المؤرخ الذهبي أحد طلابها، وبما أن صاحبها القاضي السكندري «شمس الدين» يعقد مجلس العلم في مدرسته فوصلت شهرته العلمية إلى دمشق ولذا قصده المؤرخ الحافظ الذهبي ونزل عنده في مدرسته وسمع منه في رحلته لطلب العلم ثم رحل إلى حمص وحماه وحلب ونابلس والرمله والقدس والقاهرة، والحجاز وبلغ عدد شيوخه الذي أخذ عنهم (١٣٠٠ شيخ) جمعهم في (معجم شيوخه) في مجلدين وصنف أكثر من ٢٠٠ كتاب[٤].

الشيخ شهاب الدين بن مري البعلبكي الحنبلي أحد أصحاب أحمد بن تيمية كان

---

(١) تدمري: آثار طرابلس الإسلامية ص٢٣٩.

(٢) الحلبي: تذكرة النبيه في ايام الملك المنصور وبنيه ص٢٧٨ ـ ٣٣٤.

(٣) ابن حجر: الدرر الكامنة ج١ ص١٢١.

(٤) راجع اسماء مصنفاته في كتاب (الذهبي ومنهجه في تاريخ الإسلام) د.بشار عواد.

يحضر مع الذهبي دروس القاضي السكندري في الشمسية وبقي ملازماً له حتى وفاته سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧م. ولا تزال المدرسة ماثلة حتى الآن ولا يزال بناؤها جيداً وقام بها مدرسون كثر من الدولة العثمانية ولا تزال أسماؤهم محفوظة في سجلات المحكمة الشرعية في طرابلس.

٣ ـ مدرسة الشيخ الهندي: المعروفة (بمدرسة المشهد) موقعها ومؤسسها ومدرسوها.

تقع هذه المدرسة على يمين الداخل إلى الجامع المنصوري الكبير من الباب الرئيسي تحت مئذنته وبمواجهة المدرسة الشمسية. ويقول «بروس كوندي» أنها بنيت في عصر المماليك البرجية[١].

وبما أن هذه المدرسة تحتوي مشهداً بداخلها، فقد أطلق عليها اسم «مدرسة المشهد» وهكذا تسميها دائرة الآثار الآن إذ وضعت عليها لوحة تحمل هذا الأسم، علماً أن معظم مدارس المماليك في طرابلس وغيرها تضم مشاهد وأضرحة وعلى هذا يمكن أن نطلق على تلك المدارس هذه التسمية. تعتبر هذه المدرسة أصغر مدارس المماليك المحيطة بالجامع الكبير يبلغ طولها ٦،٦٧م وعرضها ٥،٣٥م وهي تمتاز بزخرفة تجويف بوابتها الجميلة[٢]. وعليها لوحة نقش عليها الآية الكريمة:

﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[٣].

لم نقف على مدرسين في هذه المدرسة بالعصر المملوكي ـ وعلى سطح التربة نقشت كلمات لم يستطع القارىء قراءتها وقد دفن فيها شيخ من الهند في وقت غير معروف، ومن المحتمل أنه كان شيخاً للمدرسة أو إماماً فيها ولعله هو الذي أنشأها. وقد ذكره ابن محاسن في رحلته إلى طرابلس سنة ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م. فقال: «والشيخ الهندي بباب الجامع الكبير مقابلة المدرسة الشمسية»[٤].

والمدرسة معطلة الآن وهي تستخدم كمستودع رغم أهميتها وقيمتها التاريخية والجمالية[٥].

وفي هذا التاريخ وجهت وظيفة تعليم القرآن الكريم على المقرىء الشيخ محمد صلاح الدين كبارة، وأتخذ هذه المدرسة مقراً له للإقراء[٦].

---

(١) Condé - p.42.

(٢) عمر تدمري: آثار طرابلس الإسلامية ص٢٦٩.

(٣) قرآن كريم: سورة التوبة. الآية رقم ٢١.

(٤) ابن محاسن: المنازل المحاسنية ص٨٦.

(٥) عمر تدمري: آثار طرابلس الإسلامية ص٢٧٠.

(٦) عمر تدمري: آثار طرابلس الإسلامية ص٢٧٠.

٤ ـ المدرسة الظاهرية:

تقع بباب الحديد على الطريق الآخذة إلى المولوية، في الجنوب الغربي من جامع البرطاسي عند أول الطريق المعروفة بـ«تحت السباط» بناها الأمير «تغري برمش الظاهري» في سنة ٧٩٩هـ[1].

والمشهور عند أهل طرابلس إن بانيها الملك الظاهر بيبرس وليس الأمر كذلك وهذه صورة الكتابة التاريخية التي فوق بابها: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أولاً قوله الحق وله الملك ـ عمّر هذا المكان المبارك المقر السيفي تغري برمش الظاهري أعزّ الله أنصاره مسجداً لله تعالى وتربة لدفن ولديه الأخويين الشقيقين السعيدين سيدي الأمير قالتمر وسيدي الأمير تغري بردي الطفلين المنغصين على الدنيا المتجاورين في دار الآخرة، تغمدهما الله برحمته وأسكنهما فسيح جنانه وجمع بينهما في دار كرامته. وذلك في ثالث شهر محرم سنة تسع وتسعين وسبعمائة للهجري ورحم الله من يترحم عليهما»[2].

وهي معطلة الآن وآيلة إلى الإندثار[3].

ونهيب بالمسؤولين في بلدية طرابلس أن يهتموا بإعادة هذه المدرسة إلى ما كانت عليه حفاظاً على آثارها ونقوشها التاريخية لأنها متداعية ومهددة بالسقوط.

٥ ـ المدرسة العمرية:

وأرجّح أنها كانت تعرف بـ«المدرسة العنبرية» نسبة إلى مؤسسها أسندمر بن بدر الدين صدقة بن سعيد العنبري في سنة ٨٧٠هـ وقد أزيلت في النصف الأول من هذا القرن وضُمّت أرضها إلى مدرسة الفرير[4].

٦ ـ المدرسة التدمرية:

تقع في محلة التربيعة، منسوبة إلى متوليها «عمر آغا التدمري» وهي من وقف القادرية الشهير بـ«علم الدين سنجر الحمصي» وتعرف أيضاً بالمدرسة القادرية وهي قديماً مدرسة «علم الدين سنجر»[5] الذي تولى وظيفة «شاد الدواوين» بطرابلس سنة ٧٢٤هـ[6] وحول هذا التاريخ أو بعده بقليل تمّ بناء المدرسة.

---

(١) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ج٢ ص٣٠٧.
(٢) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٢٦.
(٣) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ج٢ ص٣٠٧.
(٤) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ج٢ ص٢٨٤.
(٥) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ج٢ ص٢٨٥.
(٦) المقريزي: السلوك ج٢ ص٢٥٦.

ويقول تدمري: «إنها مدرسة مربعة البناء بجدران سميكة يصعد إليها بدرجتين عن سطح الأرض وهي ٥ ٥ أمتار تقريباً يبرز محرابها عن واجهتها الجنوبية على الطريق، وتقع بوابتها في الزاوية الجنوبية من واجهتها الشرقية والبوابة في زقاق ضيق يفصل بينها وبين دكان مفروشات وأرض الدكان المذكور من الرخام الأبيض المزخرف. . . مما يوحي أن الدكان كانت في الأصل سكناً لصاحب المدرسة. أما علم الدين سنجر الحمصي فهو أحد أمراء المماليك تنقل في الولايات وباشر نيابة الرحبة فأحسن إلى أهلها وتفق فيهم مستحقاتهم كاملة وحمل منها المال إلى دمشق مبلغ مائة الف درهم في عام واحد. . . ثم طلب إلى مصر فجعل شاداً للدواوين فيها. ثم خرج إلى طرابلس مشدّاً في شهر رمضان سنة ٧٢٤هـ ثم توجه إلى حلب ثم حضر إلى دمشق وأقام بها شاداً للدواوين ثم أستعفى. وخرج منها يدير طرابلس فمات قبل الدخول إليها في أواخر سنة ٧٤٣هـ»[١].

٧ ـ مدرسة سبط العطار:

بناها ابن بنت ناصر الدين العطار (أي سبطة) في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي. لم يبق منها بعد تقويم مجرى النهر سوى بابها الغربي على طريق السوسية وعلى يسار البوابة نقش قسم من مرسوم لقاضي قضاة طرابلس المالكية «كمال الدين ابن الناسخ» يحمل تاريخ سنة ٨٦٢هـ[٢]. وهذه الكتابة لا تزال مطمورة بالردم منذ سنوات[٣].

٨ ـ المدرسة الزريقية:

وهي في محلة السويقة على نهر أبو علي (الضفة الشرقية) داخل طرابلس وهي متسعة ولا تقام فيها الصلوات. وهذه صورة الكتابة التي عليها: «أمر بإنشاء هذه الزاوية المباركة العبد الفقير لله تعالى سيف الدين كرناي السيفي وذلك بتاريخ شهر شوال سنة ٧٣٨هـ»[٤].

وتعتبر هذه المدرسة من أقدم مدارس المماليك في طرابلس كما يقول الدكتور تدمري وقد بناها نائب السلطنة الأمير «عز الدين ايبك الموصلي المنصوري» في سنة ٦٩٧هـ، يعني بعد تحرير طرابلس مباشرة من الصليبيين، مما يدل على أن هناك فرقاً بين المؤرخين على تاريخ الإنشاء. وإني أميل إلى الرأي الأخر لأنها أقدم مدرسة

---

(١) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ج٢ ص٢٨٥.
(٢) تدمري: تاريخ وآثار طرابلس ص٣١٠.
(٣) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ج٢ ص٢٨٧.
(٤) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٢٦.

للمماليك في طرابلس وأزيلت هذه المدرسة بعد تقويم مجرى النهر (أبو علي)[(١)].

٩ ـ المدرسة القادرية:

وهذه المدرسة المعروفة بالعقادين وهي من بناء المماليك، لا تزال قائمة إلى الآن في محلة باب الحديد جنوبي حمام عز الدين[(٢)].

١٠ ـ المدرسة الطواشية:

تقع في وسط سوق الصياغين المعروف قديماً بسوق «عديمي المسلمين» منسوبة هذه المدرسة إلى الأمير «سيف الدين محمد الطواشي» المتوفي سنة ٨٧٥هـ/ ١٤٧١م[(٣)].

١١ ـ مدرسة الشيخ محمد الدهان:

وهي في وسط سوق الصياغين شرقي المدرسة الطواشية تحولت كسابقتها إلى دكان لأحد الصياغين[(٤)].

١٢ ـ المدرسة النورية:

تقع بمواجهة الحمام النوري في أول سوق الصياغين من الجنوب، يعتبر محرابها من أجمل المحاريب في طرابلس. بنيت بالفترة التي بنيت فيها المدرسة القرطاوية حوالي سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م[(٥)].

١٣ ـ المدرسة النارية:

بمواجهة المدخل الرئيسي للجامع المنصوري الكبير منسوبة إلى السلطان الناصر «حسن بن محمد بن قلاوون» الذي بناها بين سنتين ٧٥٥ ـ ٧٦٢هـ. وبوابتها شبيهة ببوابة مسجد السلطان حسن بالقاهرة وإن كانت أقل حجماً منها[(٦)].

١٤ ـ مدرسة الخيرية حسن:

بنيت بين سنتين ٧٠٩ ـ ٧٢٥هـ. ويظهر أنه كان يجاورها مدرسة أخرى ملاصقة لها يفصل بينهما عقد، ويتخذ منها «آل حمزة» اليوم مقراً لدفن الموتى[(٧)].

---

(١) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ج١ ص٦٨ ـ ٦٩.
(٢) تدمري: تاريخ وآثار طرابلس ص٣١٩.
(٣) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ج٢ ص٣٢٥.
(٤) المصدر نفسه ج٢ ص٣١٦.
(٥) تدمري: تاريخ وآثار طرابلس ج٢ ص٢٧٥.
(٦) تدمري: تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس ص٢٧٥.
(٧) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ج٢ ص٣١٧.

١٥ ـ مدرسة الحباك:

تقع في نهاية الدرج المؤدي إلى طريق القلعة من سوق العطارين، وهي لا تزال قائمة، غير أننا لا نملك أية معلومات عن تاريخ بنائها ومؤسسها[(١)]. وعلى الأرجح أن تكون مدرسة عثمانية.

١٦ ـ المدرسة الأحمدية القاسمية: (عثمانية)

المدرسة الأحمدية هذه المعروفة بالجوهرية. في سوق العطارين عند أول طريق الدرج الضيق الذي يصعد إلى القلعة، وهي مرتفعة عن مستوى الطريق أكثر من نصف متر وتتألف من عقدين، الثاني منهما وهو الجنوبي يقوم في وسطه ضريح يُجهل صاحبه، ولا يعرف تاريخ بناء هذه المدرسة، وقد تحولت لفترة مقراً للكشافة[(٢)].

١٧ ـ المدرسة العجمية:

تقع عند منتصف الدرج الموصل إلى القلعة تحت عقد البوابة في محلة المهاترة، عند أول المدخل الجنوبي للزقاق المعروف بـ«زقاق مصبنة عويضة» بناها محمد السكر سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٥م[(٣)].

١٨ ـ مسجد الحجيجية:

في سوق النحاسين كانت في الأصل كنيسة صليبية جرى تحويلها إلى مسجد في عصر المماليك. ورد أسم الحجيجية في حجة شرعية مؤرخة سنة ١٠١١هـ في عهد قاضي القضاة محمد الحلبي أحد قضاتها. وكان من فقهائها الشيخ الخواجة «أبو العز محي الدين» المعروف بفقيه الحجيجية[(٤)].

١٩ ـ المدرسة السقرقية:

تقع في طرق المدينة للجهة الغربية على طريق الآخذة إلى جبانة باب الرمل، بناها آقطرق الحاجب مسجداً لله تعالى وتربة للدفن وعلى حائطها لجهة الجنوب الشرقي، كتب الوقفية بأحرف غليظة ظاهرة فيها أسم بانيها وتعداد العقارات الموقوفة على المسجد وشروط الواقف لصرف ريعها وفيها أن كتاب الوقف مؤرخ بمنتصف ذي القعدة سنة ٧٥٧هـ[(٥)]، وهي بمواجهة المدرسة الخاتونية[(٦)].

---

(١) تدمري: المصدر نفسه ج٢ ص٣٢٧.
(٢) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ج٢ ص٣٢٧.
(٣) تدمري: تاريخ وآثار طرابلس ص٣٠٢.
(٤) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ص٢٩٤.
(٥) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٢٥ ـ ١٢٦.
(٦) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي ج٢ ص٣٣٣.

٢٠ ـ المدرسة الخاتونية:

تقع أمام المدرسة السقرقية، بنتها أرغون خاتون بالأشتراك مع زوجها ومعتقها عز الدين ايدمر الأشرفي والي طرابلس وكان الإنتهاء من بنائها سنة ٧٧٥هـ كما هو مذكور في كتاب الوقف المحفور عند مدخل المدرسة المذكورة وفيها أسماء العقارات الموقوفة عليها وشروط الواقفة لصرف ريعها وأقام الصلوات فيها[١].

وبما أن الزوجة كانت في عصر المماليك تلقب بخاتون فقد عرفت المدرسة بالمدرسة الخاتونية وكان بناؤها سنة ٧٧٥هـ/ ١٣٧٤م[٢]. هناك فرق بالتاريخ بين كودعلي وتدمري.

وفي طرابلس مدارس وزوايا وخوانق لا يعلم أسم بانيها ولا زمن بنائها وبعضها مهجور متداع لكن كله على ما يبدو شبيه بالبناء المملوكي. والخانقاه التي تنسب إلى الست صالحة قد بنتها سنة ٨٧١هـ ١٤٦٧م تقع في الجهة الشرقية من الجامع المعلق[٣].

ومن مدارس الشام المملوكية: كما وردها كردعلي[٤].

١ ـ مدرسة حصن الأكراد:

أنشأها والي هذه البلدية بكتمر بن عبدالله الحر الأشرفي زاوية ومدرسة وبيمارستان بأموال جسيمة على الصاوي والغاوي من أبناء السبيل وذلك في سنة ٧١٩هـ.

٢ ـ رباط خليل الرحمن:

أنشأه قلاوون سنة ٦٧٩هـ صاحب الآثار في دمشق والقدس والخليل.

٣ ـ مدرسة غزة:

أنشأها للشافعية الأمير الكبير علم الدين الجاولي الذي سمع مسند الشافعي بالكرك على دانيال. وعمل نيابة السلطنة في غزة وبنى بها مدرسة وجامعاً حسناً وله عمائر كثيرة وخانات توفي سنة ٧٤٥هـ.

٤ ـ المدرسة السيفية:

بمدينة الصلت لمنشئها الأمير سيف الدين بكتمر والي الولاية سنة ٧٢٤هـ.

---

(١) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٢٦.

(٢) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ج٢ ص٣٣٢.

(٣) المصدر نفسه ص٣٦٦ ـ ٣٦٧.

(٤) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٢٧ ـ ١٢٨.

٥ ـ مدرسة عزاز:

أنشأها اسماعيل بن عبد الرحمن العزازي في حماة وساق إليها القناة الحلوة وأنتفع الجامع وكثير من المساجد بهذه القناة وله آثار حسنة وتوفي ٧٤٨هـ.

ولا تعلم في سائر مدن الشام ساحلها وداخلها شيئاً من تاريخ المدارس وخططها فإن كانت فهي ضئيلة لأن قوة المسلمين في هذه الديار كانت في العواصم الكبرى حيث ينزل الملوك والأمراء والأغنياء.

أما سائر المدن ضعيفة الشأن في هذا المعنى.

الثقافة الأجنبية

فعندما نتكلم عن الثقافة الأجنبية في العصر المملوكي لا بد من الحديث عن ثقافة الصليبيين التي كانت سائدة قبل وإبان هذا العصر والثقافة تعني «كل ما هو مشترك من تراث فكري وعادات اجتماعية وقيم أخلاقية ومثل عليا وكل ما يحمل الجيل القديم بنقله إلى الجيل الذي يليه». والحضارة تعني التطور المادي والمعنوي.

أما بالنسبة لمجيء الصليبيين إلى الشرق الإسلامي، فقد كان بقاء الصليبيين مدة طويلة في هذا الشرق منذ القرن الخامس حتى القرن السابع الهجري، ومنذ القرن الثاني عشر حتى القرن الرابع عشر ميلادي، على إتصال تام بجميع مظاهر الحضارة الإسلامية المتفوقة التي أدهشتهم أن يظهر هذا في أحاديث ملوك أوروبا والرحالين منهم. فإنهم كانوا بالنسبة للمسلمين بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير[١].

ومع أن الحروب كانت مستمرة بينهم وبين المسلمين، فإن الأذكياء منهم كانوا ينقلون جميع مظاهر حضارة المسلمين وإن كان هذا النقل أغلبه بالمشاهدة. هذه الكتب العديدة التي ترجمت من العربية إلى اللاتينية أو الطليانية أو العبرية[٢].

وهي كتب تملأ المكتبات الأوروبية منذ زمن مبكر وتدلّ على تقدّم العلم بجميع فروعه كذلك في عصر النهضة لما أراد الأوروبيون الرجوع إلى العلوم اليونانية القديمة وجدوها مهذبة ومشروحة في كتب المسلمين، هذا مع العلم بأن هذه العلوم اليونانية القديمة كانت مهملة من الأوروبيين في العصور الوسطى، وكان جلّ أهتمامهم بما نقله اللاتين منها[٣].

---

(١) فيليب حتي: العرب، ترجمة ص٢٢٢، نقلاً عن اسامة.

(٢) L'évolution scientifique du haut: Van de Vyvre - Moyen - âge. Archeion XIX, 1937.

ميلر، العلم ص٤٢٧.

(٣) هونكة: شمس العرب ص٤٩٤.

ومما قالته المستشرقة زيغريد هونكة[١]: «وهنا تتسع الهوة بين الشرق والغرب أيضاً فالكتاب المقدس لا يجد الناس إليه سبيلاً إذا استثنينا الكهنة ورجال الدين فهم وحدهم يستطيعون قراءته وفهم لغته ومنذ عام ٨٠٠ ميلادية لم يعد الشعب يفهم المواعظ الملقاة باللاتينية حتى أن مجلس رؤساء الكنائس المنعقد في مدينة «تور» أوصى بوعظ الناس باللغة التي يتكلمون فيها. ولم تكن هناك حاجة تدعو الشعب في تلك العصور إلى تعلم اللاتينية، بل لم تكن هناك أية رغبة في تعليم الشعب وتثقيفه، على خلاف ذلك كانت الحال في العالم الإسلامي، لقد اهتمت الدولة بتعليم الرعية، ولم تلبث أن جعلت من التربية واجباً ترعاه، فالأطفال من مختلف الطبقات يتعلمون التعليم الأولي مقابل مبالغ ضئيلة يقدر على دفعها الناس دون مشقة، ومنذ أن بدأت الدولة تعين المعلمين للمدارس أمكن للفقراء أن يعلموا أولادهم مجاناً، بل أن بعض البلدان الغربية مثل إسبانيا قد جعلت التعليم للجميع مجاناً. وأنشأ المنصور قلاوون مدرسة لليتامى ملحقة بالمستشفى المنصور ومنح كل طفل فيها، يومياً، رطلاً من الخبز وثوباً للشتاء وآخر للصيف، وتعليم العرب لم يقتصر على مراحله الأولى بل تعدّاها[٢]. وكان الطلبة يتناولون طعامهم مجاناً بل يتقاضون مرتباً ويسكنوا في الأدوار العليا في المدرسة دون مقابل، وفي الطبقة الأرضية تلتف الفصول وقاعات المكتبة على شكل دائري خلف ممرات مظللة تزيّنها الأعمدة، وفي الوسط فناء فسيح تتوسطه نافورة ماء. هنا يتعلم شباب العرب الطموح القرآن وقواعد اللغة العربية والديانة والخطابة والأدب والتاريخ والجغرافيا والمنطق والفلك والرياضة، وتساهم الطلاب في المناقشات والمناظرات، ويعيد معهم دروسهم مساعدون من طلبة الصفوف المتقدمة أو من الخريجين، وتبدو هذه المدارس كخلايا النحل تخرج للجميع شهداً حلواً فيه شفاء للناس، ولتقدم قادة للعلم والسياسة[٣].

ويحدثنا أحد أساتذة تلك المدارس عن رحلة رسمية قام بها في أحد البلدان العربية فيقول: «لم أذهب إلى مدينة أو قرية عربية إلا ووجدت فيها طالباً يتبوّأ مركزاً هاماً» وكثيراً من الفلاحين كانوا يسلمون أولادهم إلى معلمين في المدينة، فيأخذ منه الصبي إلى منزله ويتعهد بإعداده حسب ما أوتي من ذكاء لإحدى وظائف الدولة، ويقدم الولد مقابل ذلك مبلغاً من المال أو كمية من المواد التموينية، ويذهب الصبي الذي يطمع في أن يكون يوماً ما قاضياً أو موظفاً من موظفي الدولة ـ ويبقى هذا التلميذ مع معلمه لا يفارقه، يعاونه في أعمال المنزل، وقابل المعلمون هذا الوفاء

(١) المستشرقة زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٩٤.
(٢) المستشرقة زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٩٥.
(٣) المستشرقة زيغريد هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٩٥.

الوفاء من تلاميذهم بمحبة أبوية فإذا مرض التلميذ يركب المعلم حماره ليشتري لتلميذه المريض ما يلزمه من الدواء ويظل يخدمه في مرضه[١].

وبعض الآباء كان يحضر المدرسين إلى منزله لتدريس أولاده، فطفل موهوب كابن سيناء مثلاً ما كانت لتكفيه الدراسة في المدرسة، وهو الذي حفظ القرآن وعدداً من الكتب الدينية ولم يتجاوز العاشرة من عمره فبعد أن تعلم الصبي مبادىء القانون على يد معلم خاص وتعلم الحساب على يد أحد تجار الفحم استدعى له أبوه معلماً يدعى أبا عبدالله، كان يدعي أنه فيلسوف. . . ولكن الفتى كان أذكى من أستاذه، وعندما بدأ معاً في دراسة المنطق ظهر جلياً أن المدرس لا يفقه شيئاً وشرع ابن سينا يدرس على نفسه الكتب فقرأ لأقليدس وعلى معلمين دراسة الطبيعة ثم الطب تحت إشراف عيسى بن يحيى.

أما الطريق الذي يسلكه الراغب في تعلم فرع معين من العلوم، والذي يرغب الطالب أن يقوم هو بتدرسه يوماً من الأيام فكان يبدأ في المساجد، فلم تكن المساجد مجرد أماكن تؤدي فيها الصلوات فحسب، بل كانت منه للعلوم والمعارف وحول أعمدة الجامع كان يجلس الأستاذ ويلتف حوله طلبة، حلقة أبوابها مشرعة لمن يشاء رجلاً كان أم إمرأة[٢]. ولكلٍ الحق في سؤال الأستاذ أو معارضاً، وكان هذا النظام أكبر دافع للأساتذة يدفعهم دائماً للإعداد لدروسهم والتعمق فيها، حقاً لقد كان لأي متعلم الحق في أن يلقي من محاضرات وأن يتخذ مجلس الأستاذ. ولكن الجمهور المثقف الواعي كان يحمي تلك المجالس من أن يتسرب إلى قيادتها مدعي من لم تنضج ثقافته وتكتمل. وحول أعمدة المساجد أتيحت للطلاب دائماً فرصة الإستماع إلى الأساتذة وأتوا من كل أنحاء العالم العربي المترامي الأطراف. ولقد كان المتعلمون وأثناء أداء فريضة الحج في مكة يغتنمون الفرصة فيزورون مراكز الثقافة الإسلامية الواقعة على مقربة من طريقهم فيستمعون لكبار الأساتذة في دمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وهم جميعاً في حلهم وترحالهم يفيدون ويستفيدون ومن شفاه هؤلاء وأولئك كانت الأفكار العلمية الحديثة تنتشر في كل صوب، وكم كان من السهل أثناء نقل مثل تلك الأخبار من فم لآخر أن تسرق النظريات والإكتشافات ولكن الأمانة العلمية الحق منعت هذا، ولم يكن العربي المسلم أن يرضى أن يحرق فمه بأفكار سرقها عن غيره، فمن يرغب من المعلمين أن يحاضر عن كتاب لغيره دون أن يستأذن أستاذه صاحب

(١) نفس المصدر.
(٢) نفس المصدر.

الكتاب نفسه وبذلك حفظ حق المؤلف مرعياً مقدساً ورثته الجامعات الغربية عن الجامعات العربية العليا[١].

لقد قدمّ العرب، بجامعاتهم التي بدأت تزدهر منذ القرن التاسع الميلادي، نظاماً جذبت إليها عدداً من الغربيين وظل يتزايد هذا العدد حتى صار تياراً فكرياً دائماً، فقدم العرب إليهم نموذجاً حياً لأعداد المتعلمين لمهن الحياة العامة وللبحث العلمي، لقد قدمت تلك الجامعات بدرجاتها العلمية وتقسيمها إلى كليات واهتمامها بطرق التدريس، للغرب أهم الأمثال، ولم تقدم هذا المظهر فقط بل وفرت له كذلك اللباب: مادة الدراسة.

فبفضل النقل عن العرب تقدمت الحضارة في أوروبا، كما حدث بالنسبة للحضارة الإسلامية، مما يؤيد أن كل حضارة تقوم على سابقتها.

فالملحوظ أن عدداً كبيراً من مفكري العرب وكتابهم الأوائل كانوا من المسيحيين، الذين هيأوا باعثاً عقلياً نافع[٢]، لأن المسلمين باعتمادهم على كلام الله الوارد في القرآن نزعوا إلى البقاء محافظين في فكرهم ولم يودّوا المخاطرة. «ولم تكن المنافسة بين الخلافة وبيزنطة المسيحية خالية من المودّة، فكان العلماء والصنّاع يتنقلون في كلتا الأمبراطوريتين من أجل المصلحة المتبادلة. على أن الحرب المقدسة التي استهلها الفرنج دمرت هذه العلاقات الطيبة، وما أظهره الصليبيون من تعصب همجي، لم يكن له من رد عند المسلمين سوى ما كان من نمو الإضطهاد بينهم. وما إتصف به صلاح الدين وأسرته من الإنسانية الكبيرة لم تلبث أن أضحت نادرة بين رفاقهم المؤمنين، حتى إذا كان زمن المماليك أضحى المسلمون من ضيق الأفق مثلما كان عليه الفرنج. وكان رعاياهم المسيحيون أول من عانى هذا الإضطهاد. فلم يستردوا مطلقاً ما كان لهم من معرفة سابقة بجيرانهم وسادتهم المسلمين، فأخذت حياتهم العقلية في الذبول. وبإستثناء ما حدث في فارس بما ساد فيها من تقاليد الحادية مضطربة، إقتصر المسلمون على الإحتجاب وراء عقيدتهم على أنه ليس بوسع كل عقيدة متزمتة أن تتقدم[٣].

وما الحقته الحروب الصليبية بالإسلام من ضرر يعتبر ضئيلاً بالقياس إلى ما أنزلته بالعالم المسيحي الشرقي فحينما أستقروا بالشرق لم يعاملوا رعاياهم المسيحيين بما يفضل ما عاملهم به الخليفة من قبل. والواقع أنهم كانوا أشدّ قسوة

---

(١) هونكه: شمس العرب تسطع على الغرب ص٣٩٨.
(٢) ستفين رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (م٣) ص٧٨٨ نقلة الى العربية السيد الباز العريني.
(٣) المصدر نفسه ص٧٨٨.

وعنفاً، لأنهم تدخلوا فيما تمارسه الكنيسة من طقوس دينية[١].

ولما تمّ طردهم لم يعد للمسيحيين المحليين من الحماية ما يجعلهم يتحملون غضب المسلمين، والواقع أن المسيحيين الوطنيين استحقوا قدراً كبيراً من هذا الغضب لإعتقادهم الشديد بأن المغول سوف يبذلون لهم الحرية الدائمة التي لم يحصلوا عليها من الفرنج. وما تعرضوا له من عقاب كان قاسياً وتاماً. وإذ رزحوا تحت القيود والمهانات تلاشت أهميتهم، بل أن بلادهم تعرضت أيضاً للجزاء إذ حلّ الدمار والخراب بالساحل السوري الجميل، وأصاب المدينة المقدسة ذاتها من الإهمال والإغفال ما أدى إلى أن تهوي إلى إنحطاط طويل مضطرب[٢].

والواقع أن الحياة العقلية في الشرق الفرنجي كانت مخيبة للآمال، وعلى أن مجتمع الشرق الفرنجي الذي كاد يتألف بأسره من العساكر والتجار لم يكن في الواقع صالحاً لأن يخلق أو يقيم مستوى فكرياً رفيعاً[٣].

كان من الأمراء والنبلاء كثير من رجال الثقافة، مثال ذلك أننا نعلم أن الملك بلدوين الثالث والملك آرملريك الأول شغفا بالآداب[٤] وساءت سمعة رينالد سيد صيدا عند الفرنج لإهتمامه بالعلم الإسلامي بينما أشتهر همفري الرابع سيد تبنين بدرايته التامة باللغة العربية[٥].

وأنجب الشرق الفرنجي وليم الصوري[٦] الذي يعتبر من أعظم مؤرخي العصور الوسطى، على أننا لا نعلم إلا النزر اليسير عن التعليم في الشرق الفرنجي. ولا شك أنه كان به، مثلما كان بالغرب، مدارس ملحقة بالكاتدرائيات الكبرى.

على أنه من الملحوظ أن وليم الصوري توجه في صباه إلى فرنسا فيما يتعلم وفيما عداه كان كل رجال الكنيسة الذين قاموا بدور كبير في تاريخ الشرق الفرنجي رجالاً نشأوا وشبّوا في الغرب.

وولع بالآداب كثير من هؤلاء الكنسيين مثل إيمري بطريرك أنطاكية أو مثل جيمس متري أسقف عكا الذي أهتم بما يجري حوله من حياة علمية[٧] على أن

---

(١) المصدر نفسه ص٧٨٩.

(٢) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية (م٣) ص٧٨٩ ترجمة الى العربية السيد الباز العريني.

(٣) المصدر نفسه ص٨١٧.

(٤) أنظر ما سبق المجلد الثاني ص٥٨٤ ـ ٥٨٤.

(٥) المصدر نفسه ص٥٨٤، ٥٨٦، ٧٥٨ المجلد الثالث ص١١٥.

(٦) المصدر نفسه ص٧٧٢ ـ ٧٧٤.

(٧) ما أورد جيمس فتري في وصف الأرض المقدسة يدل على اهتمامه بالنظريات الممكنة عن الزلازل، غير أنه انكر في شدة ما للمسلمين والمسيحيين الوطنيين من اتصال مباشر بها.

الخطط المختلفة للحملات الصليبية المتأخرة شجعت الإهتمام الفعلي بجغرافية الشرق[١].

وفي الجملة ظلت ثقافة الفرنج في الشرق الفرنجي مستوردة من الغرب، ولم يحدث إلا إتصال ضئيل بالثقافة المحلية، فيما عدا الفنون، أما الطب فقد ظل بأكمله في أيدي الوطنيين، فالأمراء الصليبيون كانوا فيما يبدو يستخدمون دائماً الأطباء السوريين المسيحيين، فحينما رفض آملريك الأول نصيحة أطبائه السوريين، بأن يستشير أحد الفرنج، مات أثر استشارته بهم.

وما أورده أسامة بن منقذ من أمثلة عن ممارسة الفرنج للطب، تدل على أن الطب كان جافاً غليظاً[٢]. ولم يحاول الفرنج فيما يبدو، مثلما حدث في جنوب إيطاليا، أن يتعلموا شيئاً من الطب المحلي على الرغم من أن استيفن الأنطاكي ترجم عن اللغة العربية سنة ١٢٢٧م رسالة في الطب[٣].

وليس معروفاً أن الفرنج، بإستثناء بعض النبلاء، حاولوا دراسة ما كان في الشرق من فلسفة أو علوم.

وما للفرنج في الشرق الأدنى من إنتاج أدبي يقع في ثلاثة أقسام:

أولهما: الحوليات والتواريخ، وكلها بإستثناء تاريخ وليم الصوري، وتاريخ أحد المذيلين عليه، مثل أرنول، ألفها رجال نشأوا بالغرب، وجروا على تقليد الكتابة التاريخية في الغرب[٤].

ويشمل القسم الثاني الإنتاج الضخم من المؤلفات القانونية والدستورية إذ إشتد إهتمام النزلاء وسلالتهم بالأمور هذه وحرصوا على تدوين آرائهم وأحكامهم القضائية إلى حد لا مثيل له في الغرب على أن ما استنبطوه من قانون كان غربياً خالصاً على الرغم من أنه دل على ما انطوى عليه من تطويعات ضرورية[٥].

أما القسم الأخير: فيتمثل في الشعر القومي والعاطفي. هوى النزلاء بالشرق الفرنجي ما كان سائداً وقتذاك من ملاحم عاطفية إذ توجه مع الحملات الصليبية كثير

---

(١) أنظر Rey: Les Colonies Franques, pp.177-18

(٢) المجلد الثاني ص٥١٤ ـ ٦٤٥.

(٣) أنظر Leclerc, La Medecine Arabe, 11, p.38.

(٤) المجلد الثاني من الحروب الصليبية ص٧٧٢ ـ ٧٧٤. م٣ ص٨٠٣ ـ ٨٠٦.

(٥) استندت قوانين مملكة بيت المقدس، ومؤلفات يوحنا الليبي وفيليب نوفارا إلى القانون في الغرب.

أنظر La monte, Feucial Monarahy Passion

من الشعراء الغنائيين من (التروبادو) و (المنيسنجر) والمعروف أن ريموند أمير أنطاكية لم يكن سوى ابن شاعر التروبادو الكبير وليم التاسع دوق اكيتانيا.

وما أقترنت به الحروب الصليبية من أحداث مثيرة كانت بالغة الأهمية لغزارة الأغراض التي تغنى بها الشعراء، فلم يلبث جودفرن اللورين أن أضحى بطلاً اسطورياً إندمجت مغامراته في حلقة Chevalier au Cygne فالقصائد عن شبابه وأجداده، كانت فعلاً متداولة في الشرق حينما ألف وليم الصوري تاريخه غير أن هذه القصائد جرى قرضها في الغرب وشبيه بذلك القصتان المنظومتان عن الحملة الصليبية الأولى وهما أنشودة أنطاكية وأنشودة بيت المقدس إذ كان تأليفهما قدجرى في الغرب على أساس ما نقله الصليبيون العائدون معهم من معلومات.

أما الملحمة الوحيدة التي جرت في الشرق الفرنجي فهي أنشودة الحقراء: (Chanson des chétifs).

وهي قصة عجيبة عن الصليبيين الذين وقعوا في أسر كربوقا Carforan وأختلطت وتشابكت فيها قصتا الحملة الصليبية الأولى وحملة سنة ١١٠١م. ونظم هذه القصيدة مؤلف مجهول تلبية رغبة عاجلة من ريموند أمير أنطاكية على أنها لم تكتمل حتى وفاة ريموند سنة ١١٤٩م[١].

وما أستندت إليه القصة من أساس تاريخي مضطرب بعيد عن الدقة يوحي بأن مؤلفها كان من القادمين حديثاً إلى الشرق. فالغرض الذي قامت عليه أنشودة الحقراء كان من الأغراض التي حظيت بقبول كبير في الشرق الفرنجي وأوروبا على السواء[٢].

وصدرت آثار شعرية أخرى عن الشرق الفرنجي، غير أنه ما من أحد من المؤلفين المعروفين نشأ في الشرق. إذ أن فيليب نوفارا السياسي والمؤرخ، والمشرع الذي كتب بالفرنسية على الرغم من أنه إيطالي المولد أدخل في تاريخه شعراً من نظمه، أمتاز بالحيوية وإن لم يلتزم قواعد الشعر[٣]. ونظم فيليب نانتيل في أسره بالقاهرة قصائد عن وطنه الفرنسي وكلّها تدور حلو وطنه وحنينه إليه.

ومع أنه يصحّ إعتبار فيليب نوفارا من مؤسسي ثقافة الفرنج الإقليمية في قبرص،

---

(١) Cahen, op. cit, pp. 569-576

(٢) أنظر ما كان من حكايات عن اطلاق سراح بوهمند من اسر، والقصص التي تجعل من «ايدا» ماركيزة استريا اماً لزنكي والتي تشير الى أن اخت برتراند تولوز تزوجت من نور الدين فأنجبت له ابنه الملك الصالح.
أنظر المجلد الثاني ص٦٧ ص٥٣ ص٤٦٣.

(٣) أنظر ما سبق ص٣٤٤، ٨٠٤، ٨٠٥.

فليس الأدب في الشرق الفرنجي إلا فرعاً للأدب الفرنسي، ولم يكن لرعايا الفرنج الوطنيين في سوريا أدب أصيل، على الرغم من أنه نما وترعرع في قبرص وبلاد اليونان ذاتها زمن سيادة الفرنج، أدب يوناني شبه شعبي أشتد تأثره بالعوامل الفرنجية.

والواقع أن الحياة العقلية في الشرق الفرنجي ليست إلا حياة عقلية المستعمرة فرنجية، إذ أختصت قصور الملوك والأمراء بسحر مختلط، على أن عددالعلماء المقيمين بالشرق الفرنجي كان قليلاً. وما نشب من الحروب وما ساد من متاعب مالية منع يام نظام لإنشاء مراكز فعلية للدراسة، حيث يجري إرتشاف علم الوطنيين والمجاورين.

وترتب على إنعدام قيام هذه المراكز، أن ما أسهمت به الحروب الصليبية من ثقافة لغرب أوروبا كان بالغ الضآلة ومخيباً للرجاء.

أما عن الحياة العلمية في إمارة طرابلس خلال العهد الصليبي كانت مزدهرة. لقد وفد إليها عدد كبير من طلاب أوروبا وذاعت شهرة طرابلس في الطب والكيمياء والصيدلة، وكان في طرابلس مدرسة لتعليم الطب واشتهر الأسقف اليعقوبي «ميشيل» الحلبي الذي مارس صنعة الطب ونبغ أيضاً وليم الطرابلسي.

وإن القول بتقسيم تاريخ الدولة الإسلامية إلى عصور يجعل لكل عصر مقوماته التي تميزه من قوة وضعف في النواحي السياسية والعسكرية، لا ينطبق تمام الإنطباق على الحياة الثقافية والعلمية.

فقد تنتهي دولة ما سياسياً لتقوم مكانها دولة جديدة، ولكن الحياة العلمية مستمرة غير متأثرة بالأحداث وهي إن تأثرت فإن هذا التأثر لا يصل إلى درجة اجتثاث الفكر والعلم.

وهذا القول ينطبق على الإمارات الصليبية من حيث إستمرار النهضة العلمية رغم تبدل الحياة السياسية والدينية فيها إذ تحولت من إماوات عربية إسلامية إلى إمارات (صليبية) ومع ذلك فإن جذوة العلم لم تخمد، كما كان متوقعاً، بل إن الحركة العلمية والفكرية وجدت المناخ المناسب للتفاعل بين الفكر العربي والأوروبي، والمعتقدات الدينية، والتنافس الثقافي، والتأثر والتأثير. ونستطيع القول بأن بعض المساجد والمداوس الإسلامية قد بقيت في المدن تؤدي دورها بين المسلمين من أبنائها، حيث أجاز رجال الدين المسيحيين للمسلمين أن يأموا المساجد للعبادة ويعلّموا أبناءعم القرآن في المدارس القائمة، والتي كانت ما تزال في طرابلس وأنطاكية المسيحيتين[١]. كذلك فإن مجيء الصليبيين إلى الشرق وأحتلالهم للمدن الإسلامية في بلاد الشام

(١) قصة الحضارة ـ ول ديورانت ـ ج١٥ ص٣٤.

جعل إتصالهم بالحضارة الإسلامية أشد وثاقاً إذ عايشوا تلك الحضارة طوال إقامتهم في المنطقة. وكانت طرابلس تعيش التقدم الحضاري والفكري والثقافي. فأقام الصليبيون فيها مائة وثمانون عاماً وتأثروا فيها بالعلم والثقافة والمظاهر الحضارية الإسلامية[١] كما تأثر الشاميون بالصليبيين ونتج عن هذا قيام حركة فكرية لا في طرابلس فحسب بل في بلاد الشام كلها ونشطت حركة الترجمة مما أدى إلى قيام مدارس لها إتجاهاتها في الفلسفة والأدب والأديان. وفي هذا العصر أيضاً أي العصر الصليبي كثر دور العلم ومجالسه وتمثلت مظاهر النهضة ببناء الكنائس والأديرة والمكتبات ومعاهد تخصص للطب[٢]. فمن كنائس طرابلس وأديرتها في هذا العصر:

١ ـ كنيسة القديس بهنام:

وهي كنيسة كبيرة أقيمت بإسم هذا القديس وهو شهيد المسيحية وكانت هذه الكنيسة موجودة في العصر الإسلامي منذ منتصف القرن الرابع الهجري وبالتحديد منذ سنة ٩٦١ للميلاد[٣].

٢ ـ كنيسة مار. . .وس:

وهي للسريان ولم يعرف اسم القديس الذي بنيت تيمناً به فقد جاء بمخطوطة محفوظة بالمتحف البريطاني نسخت في سنة ١١٩٦ بخط أغناطيوس مطران القدس وساحل البحر (١١٩٣ ـ ١١٩٦م) وما تعريبه «كتبت هذه الفنقيت في كنيسة الشريف مار. . .وس بمدينة طرابلس»[٤].

٣ ـ دير البلمند:

وهو القائم حتى الآن على الساحل بين أنفه والقلمون. وقد أقيم للروم الأرثوذكس حيث كان يدرس المترشحون للكهنوت من البطريركية الأنطاكية وذلك في ٣٠ أيار سنة ١١٥٧م وتولى بناءه رهبان القديس «برنبروس» المعروفون بالسترسيين[٥]. وبنوه تيمناً بإسم القديسة «سيدة بلمنت Abbatlia Belmontis» (وقد صُحِّف الأسم على مرّ الزمن من بلمنت إلى بلمند وكان بهذا الدير براءات للأحبار الرومانيين منهم غريغوريوس التاسع سنة ١٢٣٨م، وأثيوكنت الرابع سنة ١٢٥٠م، وأوربانيوس الرابع سنة ١٢٦٢م. ومن هذه البراءات يتضح أن هذا الدير كان أكبر أديرة

(١) عمر تدمري: الحياة الثقافية في طرابلس الشام ص٦٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) فيليب حتي: تاريخ لبنان ج١ ص٥٨.
(٤) فيليب حتي: تاريخ لبنان ج١ ص٢٥٨.
(٥) عمر تدمري: الحياة الثقافية في طرابلس الشام ص٦٧.

الفرنج في كونتية طرابلس. ووصفته مجلة المنار الأرثوذكسية في عددها الصادر في ٢٩ كانون الأول سنة ١٩٠١ بما نصه «والبلمند من أعظم أديرة الشرق فخر وأضخمها بناءً وأظرفها موقعاً وأبعدها شهرة» وتذكر كتب الفرنج أسماء بعض رؤساء هذا الدير ورهبانه ومنهم الرئيس «بطرس الأماني ورفيقه سمعان الطرابلسي وترأس على الدير أيضاً أحد أساقفة بيروت اللاتينيين»[١].

٤ ـ دير القديس لعازر:

وقد تأسس في عرقه شمالي شرقي طرابلس قبل القرن العاشر الميلادي، وكانت تعطى فيه الدروس الكهنوتية وممن تخرج منه الراهب أيونيس أسقف الحدث وذلك على عهد «يوحنا الحادي عشر» بطريرك السريان ١٠٤٢ ـ ١٠٥٧م. هذا إلى جانب كنيسة «سان جان» التي أقميت بعد سقوط طرابلس بأيدي الصليبين، وأوائل القرن السادس الهجري (الثاني عشر ميلادي) وهي التي يقوم مكانها الجامع المنصوري[٢]، وكنيسة القديس (سنطماس)التي كانت تقوم فوق إحدى جزر الميناء[٣]. ولعلها كانت تحمل اسم القديس (سان توماس)[٤].

وكنيسة كانت تقوم عند سوق حراج بطرابلس يقال أنها كانت ديراً تعلوه غرف للطلبة الذين يتلقون التعليم فيه ولم يبق من آثاره سوى بعض الأعمدة[٥]. وهكذا قد عمل الصليبيون على الإكثار من بناء الكنائس والأديرة والبيع في طرابلس وغيرها من مدن الشام التي دخلوها لإضفاء الصبغة اللاتينية عليها، وأبرز دليل على كثرة الأبنية الدينية التي شيدت في سهل طرابلس الواقع بالقرب من قلعة صنجيل، فقد أطلق عليها وادي الكنائس[٦].

مدارس النصارى:

أما في المناطق المسيحية فقد كانت أديرة الرهبان مراكز التعليم والتثقيف وكان المعلمون رهباناً وقسيسين. وكان بناء المدرسة هي الكنيسة ذاتها أو البناء الملاصق لها.

وكان التعليم العالي وقفاً على أقلية تهيء ذاتها بالإنخراط في سلك الرهبنة أو

(١) عمر تدمري: الحياة الثقافية في طرابلس الشام ص٦٨. ـ تسريح الأبصار ما يحتويه لبنان من آثار ج١ ص١٥٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ابو الفداء: المختصر في اخبار البشر ج٤ ص٢٣.
(٤) المقريزي: السلوك لمعرفة الدول والملوك ج١ ص٧٤٧.
(٥) تدمري: الحياة الثقافية ص٦٨.
(٦) الدويهي: تاريخ الطائفة المارونية ج١ ص١١٩.

الكهنوت. وكان الرهبان، باستنساخهم المخطوطات القديمة وحفظها ونقل محتوياتها من جيل إلى جيل بالدرس والتدارس، هم الذين حفظوا قبس المسيحية باقياً وكانوا، كما كان زملاؤهم من الأكليروس في أنحاء أخرى، حماة الفكر الوطني والتراث القومي. وقد كانت السريانية اللغة المحكية بين الموارنة في الأماكن النائية المنعزلة. حتى أنه عندما أصبحت اللغة العربية تستخدم في كتاباتهم فإنهم كانوا يكتبونها بالحرف السرياني المعروف بالكرشوني. وهي عادة لا تزال باقية إلى يومنا هذا[١]. وأزدهرت في القرن السادس الهجري مدرسة اليعاقبة في طرابلس ومنها نشأ أبو الفرج بن العبري صاحب التاريخ المطبوع[٢].

ولقد كانت العربية شائعة بين النصارى قبل عصر المماليك وعند مستهل عهد المماليك، في منتصف القرن الثالث عشر ميلادي كانت اللغة العربية موجودة ولكنها قد انتصرت إنتصاراً تاماً وشاعت في جميع أنحاء البلاد وخاصة بين الطوائف المسيحية من يعاقبة ونساطرة وموارنة. والموارنة الذي يشير إليهم ذوي فتري توفي سنة ١٢٤٠م[٣] بقوله: «أنهم يستعملون أحرف الهجاء الكلدانية إنما يتكلمون لغة العرب» فيبدو أنهم موارنة فلسطين والمنطقة الساحلية. والسوريون الوارد ذكرهم في كتاب رحلة (١٣٢٢ ـ ١٣٥٦م) يعزى إلى مونوفيل[٤] الذي يقول عنهم أنهم: «عندما يكتبون يستخدمون حروف الهجاء العربية» والراهب الفرنسكاني غريفون الذي عاش في لبنان من ١٤٥٠ إلى ١٤٧٤ وأمتزج بالأكليروس الماروني امتزاجاً تاماً وجد أنه يجب عليه أن يتعلم اللغتين السريانية والعربية[٥].

وقد أرسل غريفون تلميذين إلى روما كان أحدهما جبرائيل القلاعي توفي سنة ١٥١٦ وقد عاد جبرائيل وأصبح مطراناً ومؤلفاً وفي كتاباته يظهر أثر السريانية في عبرية ذلك العهد[٦].

هذا ما حصلنا عليه من مدارس دينية ودنيوية ومدارس مسيحية بالعصر المملوكي.

---

(١) فيليب حتي: تاريخ لبنان عبر العصور ص٤٢٢ ـ ٤٢٣.
(٢) محمد كردعلي: خطط الشام ج٤ ص٣٤.
(٣) History of Jerusalem, p.81
(٤) In Wright, p. 189Û
(٥) لامنس: مجلة المشرق، المجلد الأول ص١٥، ١٢٧ ـ ١٢٨ وأيضاً: Revue de l'Orient Chrétien, vol. IV (1899), pp. 76,95,8.
(٦) فيليب حتي: تارخي لبنان عبر العصور ص٤٢٢.

الوجود المسيحي في دمشق في العصر السابع هـ / الثالث عشر م

L'Implantation chrétienne à Damas au VIIèmeXIIène siècle

لكي يكون عندنا فكرة عن الوجود المسيحي في دمشق في العصر أو القرن السابع هـ أو الثالث عشر م، فالأماكن الدينية من كنائس وأديرة هي التي تعطينا معلومات واضحة ودقيقة في هذا الموضوع بالنسبة للمساحة والحجم عن هذا الوجود.

عندما احتل المسلمون دمشق سُمح للمسيحيين المقيمين فيها وفي الأحياء المسيحية التقليدية سُمح لهم بخمسة عشر بناءً دينياً من كنائس وأديرة. ومن بين هذه الكنائس المعروفة «كنيسة مريم» وهي للطائفة المسيحية الملكية «Melchite»[١] وكنيسة أخرى للطائفة اليعقوبية السريانية الموجودة في دار أبي زرنق في الجنوب الغربي من حي باب توما.

وقد تم ذلك حسب بنود الصلح Sulh الذي تمّ بين الفاتحين المسلمين والقوى المسيحية المغلوبة. وقد بقيت الحالة هكذا إلى أواخر القرن السابع هـ / الثالث عشر م (١٢٧٥ ـ ٦٧٤) من أخبار «ابن شداد» الذي تابع أخبار الشام ودمشق بعد ابن عساكر.

وكما أن هناك كنيسة تنتمي إلى متبرع مسلم وهي: كنيسة «حميد ابن درة» لا يمكن رصد الطائفة التي تنتمي إليها ونصفها مدمر. وكما وصف لنا ابن عساكر منذ قرن أي سنة ١١٧٥ كان هناك كنيسة موجودة بين باب توما والباب الشرقي وهي كنيسة المصلب التي دمرت في سنة ١١٨٥م ٥٨٠هـ.

أما الأديرة الموجودة في دمشق فقد ذكر لنا ابن شداد في كتابه «الوصف» أنه كان في دمشق خمسة أديرة. واحد منها على جبل قاسيون وأخرى خارج باب الفراديس «وهي تشمل آثاراً دينية مسيحية في دمشق».

ومقارنة بين وجود الكنائس والأديرة والجوامع والمدارس الإسلامية في دمشق يقول أن المساجد الإسلامية تكاثرت وأضمحلت المعابد الدينية المسيحية على حساب المساجد. فكنائس كثيرة حوّلت إلى جوامع ومساجد وابن شداد خصّص في كتابه «الوصف» خمسة وسبعين صفحة يتكلم فيها واصفاً الطابع الديني المسيحي والإسلامي وما يتعلق بالمساجد والجوامع والكنائس والأديرة.

---

(١) لويس بوزا: الحياة الدينية الكبيرة في القرن السابع للهجري، ص٣٠٦.

«التقسيمات حسب الملل والرتبات الكهنوتية داخل الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية» Répartition communautaire et organisation hiérarchque

على صعيد التقسيمة الملية ـ فكنيسة مريم الخاصة للطائفة الملكية الأرثوذكسية تأتي في المقام الأول من حيث الأهمية بين الكنائس المسيحية مما يُفهم بأن الطائفة الملكية تتدرج في المقام الأول والأهم. وغير الطائفة الملكية في دمشق هناك أيضاً الطائفة النسطورية ولهذه الطائفة كنيستين أو أكثر حسب ابن شداد وأهم كنائسها: «كنيسة الحيّاد» (أي كنيسة المؤمنين المتمسكين بتعاليم هذه الطائفة النسطورية ونعرف تماماً أن الأسقف نسطور منشق عن الكنيسة الأرثوذكسية المركزية في القسطنطينية). وكما ذكرنا أيضاً أن أغلبية هذه الكنائس حوّلت إلى مساجد في هذا القرن الذي نحن بصدده.

أما ما يختص بالترتيبات الكهنونية داخل الطوائف المسيحية في هذه المدينة فلا نعرف عنها إلا الشيء اليسير وخاصة ما يخص الطائفة المهيمنة أي «الملكية» «Les Melkitbieh».

أبن العبري مثلاً في كتابه «أخبار الكنائس» (٦٢٢ ـ ٦٨٥هـ/ ١٢٢٥ ـ ١٢٨٦م) يطلعنا عن الجو السائد والعلاقات الطيبة بين الكنيسة اليعقوبية السريانية والحكام المسلمين في عصره. ثم تأثر هذا الجو عندما أحتل المغول دمشق وأسفر عن سوء العلاقات التي بدورها أسفرت عن نتائج دموية.

ثم أنقسمت الطائفة اليعقوبية فيما بينها. قسم يؤيد الأفرنج وقسم يؤيد المسلمين. كما أن هناك قسم يؤيد السلجوقية وقسم يؤيد المغول. وهذه اللعبة السياسية في الشرق الأدنى في سوريا وتركيا خاصة أدى أخيراً إلى دخول المماليك الفاتحين[1] وقضوا على كل من يناوىء حكمهم من مغول أولاً وأفرنج ثانياً ومن معهم وأخيراً حتى على الطائفة الشيعية نفسها (يقال بأن طرابلس وقضاء الضنية كان يحكمهما الشيعة وسكانها شيعة وسنة. وطرابلس ذات الأغلبية سنة كانت تحكمها آل بني عمار الشيعية الأصل).

وأشهر أمرائهم «جلال الملك» الذي دام حكمه ٣٠ عاماً.

كل ما يهمنا هنا: هو التاريخ الذي عاشته هذه الطوائف المسيحية وخاصة

---

(١) وعلى رأسهم الملك أو السلطان بيبرس.

لويس بوزا: الحياة الدينية الكبيرة في دمشق بالقرن السابع الهجري ص٣٠٨.

Louis Pouzet: Damas au VII. XIIIS. Lie et structures religieuses dans une métropolue islamique

الملكية واليعقوبية منها. فاليعقوبية عرفت إنقسامات خطيرة في داخل حظيرتها. فراحت بطاركتها تتسابق في كسب ود الحكام المسلمين في آسيا الصغرى من سلجوقيين وأفرنج وفي دمشق بخاصةً المماليك. وحدثت صداقات دموية فيما بينهم. يحدثنا ابن العبري (وهو أسقف حلب) الذي يعاضد البطريرك دانتين Denys خصم البطريرك يوحنا الخامس عشر قد وجد مقتولاً في دير بار صوما BAr Sauma سنة ١٢٦٣م/ ٦٥٩هـ. وحل محله البطريرك يوحنا أسقف دمشق اليعقوبي. ومع وفاة ابن العبري سنة ١٢٨٦ انتهى تاريخ دمشق وأنتهت أخبار ابن العبري، وأصبح الذي يهمنا في دمشق أخبار الملك بيبرس وأنتصاراته في بلاد الروم ١٢٧٧م/ ٦٧٦هـ. هذه الترتيبات الكهنوتية والتنظيمات الدينية وخاصة اليعقوبية في دمشق والعلاقات الطيبة التي كانت تربط هذه الطائفة بالملك الناصر يوسف الثاني ملك دمشق في ذلك العصر أي القرن السابع هـ/ الثالث عشر م.

أما ما يخص التنظيمات والترتيبات الكهنوتية والظروف الخاصة التي قرب بها الطائفة الملكية لا نعرف عنها إلا الشيء القليل في ذلك العصر في دمشق والتي أصبحت فيه هذه الطائفة من الدرجة الثانية.

وأشهر أساقفتها وبطاركتها هم: حسب أخبار ابن الصقاعي الطبيب: أبو نجم ابن الصافي ابن العرش فوالده أصبح بطريرك الروم من الملكيين في دمشق، وأشهر هؤلاء البطاركة الراهب الصوري اللبناني وكان الراهب الصوري بطريركاً طبيباً وتوفي في دمشق سنة ٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م. لم يحسن إدارة الطائفة ولم يلم شملها بل زادها إنقساماً.

والذي يلفت النظر إلى أن هذه الطائفة الملكية هيمن عليها إثنان من أساقفها أسقف أنطاكية وأسقف دمشق والإثنان في دمشق بالذات كانا متزوجان وهذا يعاكس مبادىء ونظم الطائفة، فالأسقف أو المتروبوليت / المدينة يجب أن يكون بتولاً. مما يشكل خرقاً في عادات الكنيسة الشرقية في ذلك العهد.

هذه هي معالم الوجود المسيحي في دمشق المتبلور وراء أهم طوائفه: الملكية واليقوبية آنذاك المتمثلتان بتنظيمهما الأبرشي وترتيبها الكهنوتي معاً. والطائفة المسيحية ككل في مدينة بعلبك لا تقل أهمية عن سائرتها في دمشق وقد أعطت[١] الكثير من المؤرخين المترجمين كابن لوقا مثلاً وأساقفة كبار لهم المنزلة الهامة في

(١) لويس بوزا: المؤسسات الدينية الكبيرة في دمشق القرن السابع الهجري ص٣٠٨.

Louis Pouzet; Damas au VII. XIII.S Lie et structures religieuses dans une métropole islamique p.308.

الدين والأدب والتاريخ والترجمة ولهم يرجع الفضل في ترجمة فلاسفة اليونان وأدبائهم وأطبائهم إلى اللغة العربية والسريانية.

وعلينا أن نأخذ بالإعتبار كما يقول المؤرخ Louis Poucet مؤلف هذا الكتاب: أن نأخذ بالإعتبار مسيحي جبل لبنان الغير البعيدين عن آراء وأفكار أخوانهم في دمشق خاصة والشام عامةً، هؤلاء الذين شغلوا المناصب الهامة في جسم الدولة الإسلامية الحاكمة والمقربين من حكامها. كما كان لهم اليد الطولى في رفع مستوى المجتمع المسيحي والإسلامي معاً بالرغم من أقليتهم داخل إخوانهم المسلمين ذات الأغلبية الساحقة[1].

الدور الإجتماعي الذي لعبه المسيحيون في المدينة

Rôle social des chrétiens dans la cité

لا نتفاجأ بأن نجد المسيحيين يشغلون مهاماً كبيرة ومشهورة في دمشق وتقليدياً منسوبةً إليهم وخاصة في ميدان الطب والتنظيم المدني في كل بلد من البلاد العربية والإسلامية. هكذا كان في دمشق الأموية قبلاً والمملوكية لاحقاً في بغداد العباسية وبغداد السلجوقية الأتابكية وغيرها من بلاد الشام ومصر والأندلس.

الشخصية الكبيرة المسيحية التي لعبت دوراً مهماً في مجال الطب والبحث الطبي بلا منازع، هو أمين الدولة يعقوب ابن الكوف الأردني الأصل والذي كان يشرف على تنظيم الإدارة في حكم مدينة دمشق الساكنون في القلعة (قلعة دمشق La citadelle التي لا تزال قائمة حتى يومنا هذا).

وقد توفي هذا الطبيب في دمشق وفي نفس السنة التي توفي فيها الأسقف ابن العبري Bar hebrens أي سنة ١٢٨٦م/ ٦٨٥هـ.

كما نجد في دمشق أيضاً طبيبين من الطائفة الملكية أيضاً وقد أشرفا سوية على معالجة أميرين أيوبيين. فالأول: يعقوب صدقان الذي رافق الأمير المعظم عيسى عند دخوله دمشق وقد حظي لدى الأمير معاملة خاصة وعالجه حتى مماته. أما الطبيب الثاني فهو: نفيس الدين بن طليب الدمشقي من سكان دمشق والذي كان رسول الملك الصالح أيوب عام ١٢٤١م/ ٦٣٩هـ لدى أمير حماة المظفر.

وإن هذا الطبيب المسمى: صافي الدين النصراني أصبح بعد والده طبيباً أيضاً، وهناك سلالة من الأطباء المسيحيين شغلوا مناصب هامة في الدولة والبيرمستنات (المستشفيات) في المدينة.

---

(١) لويس بوزا: المؤسسات الدينية الكبيرة في دمشق بالقرن السابع الهجري ص٣٠٨.

Louis Pouzet: lie et structures religieuses dans une métropole islamique p.308.

وفي العهد المملوكي إشتهرت عائلة بنو حليقة المصرية الأصل. ومارس ابناؤها الطب في دمشق: الأب راشد الدين الوهش مات مسيحياً في مصر سنة ١٢٧٧م/ ٦٧٦هـ، أما ابنه علم الدين إبراهيم شعرانه سوف يصبح بطرك مسيحي في مصر رفض المنصب وأعتنق الإسلام. ومن مآثره الطبية خلّص السلطان بيبرس من مرض عضال بجرأة غير معهودة. توفي في مصر سنة ١٣٠٨م/ ٧٠٨هـ. جرى في أواخر هذا العصر تحول في مجال الطب إذ أصبح كثيراً من الأطباء المشهورين من المسلمين أيضاً. وجرى تحول ثان إذ أن المسيحيين لم يقتصر جهدهم فقط في مجال الطب إنما أيضاً في مجال الهندسة والسيمياء أي علم الصيدلة. كما إن هناك الكثير من الأطباء اليهود والسامريين: كداوود بن البيان الإسرائيلي وابن الكوف اليهودي[١].

وفي العهد المملوكي أيضاً أشتهر حسب أخبار المؤرخين التي وصلتنا: المقيم ابن العميد ١٢٧٣م/ ٦٧٢هـ والمفوق فضل الله بن رابي الفهر المعروف: «بابن السقاعي» ١٣٢٦م/ ٧٢٦هـ. صاحب كتاب: «**طلائع كتاب وفيات الأعيان**» وقد شغل في «**ديوان المرتجع**» Bureau des fraudes معناها: المال المحصل بالغش Fraudes.

وقد وقف السقاعي وقفة جريئة في القضاء على الفضائح المالية في مصر ودمشق على السواء فالمقيم ابن العميد وابن السقاعي خدما الدولة في دمشق ومصر خدمة جليلة بأمانة وإخلاص رغم تعرضهما للمخاطر المحيطة بهما.

وهناك مستشاران لعبا دوراً مهماً في عهد السلطان بيبرس: الأول: «**الأسعد**» وكان مستشار لنائب دمشق جمال الدين الكوش.

والثاني قبطي من مصر وهو: صديد الدين هبة الله، توفي في القاهرة سنة ١٢٨٢م/ ٦٨١هـ، وقد كان من المقربين من السلطان بيبرس نفسه.

كما في مجال الطب هكذا في ميدان التوظيف العام والمناصب الرفيعة وأكثر الموظفين المسيحيين كانوا من الطائفة القبطية وفي أواخر العصر أعتنق الكثير منهم الإسلام تلبية لطلب الوزراء والسلطان ومنهم: تاج الدين ابن سعيد الدولة، توفي سنة ١٣٠٩م/ ٧٠٣هـ.

العلاقات المسيحية ـ الإسلامية في القرن السابع هـ / القرن الثالث عشر م[٢]

Les relations islamo chrétiennes à Damas au VIILXIII

كانت هناك حالات خاصة تثير الإشمئزاز من كلا الطرفين الإسلامي والمسيحي

---

(١) لويس بوزا: الحياة الدينية في دمشق بالقرن السابع الهجري ص١٧٣ ـ ١٧٤.

(٢) لويس بوزا: الحياة الدينية في دمشق بالقرن السابع الهجري ص٣١٩.

Louis Pouzet: Lie et strutures religieuses dans une métropole islamique p.319*

ولكن لا تشير الإشمئزاز العام ولكن بالعكس بقيت العلاقات طيبة ومتينة بالرغم من هذه الهزات التي غالباً تجري بين ملوك وسلاطين المسلمين أنفسهم كما تحدث بين ملوك المسيحيين أنفسهم وبين امبراطور مسيحي وبين قداسة البابا. والأمثال على ذلك كثيرة كالمشادة بين الأمبراطور فرادريك الثاني والبابا وكما يحدثنا ابن كثير حدثت وقائع دموية.

أو الرسالة المليئة بالسخرية من قبل السلطان بيبرس إلى بوهمند ملك أنطاكية بعدما أستولى عليها الظاهر بيبرس.

أو الجاسوس الذي أرسله المعظم عيسى ليتجسس على الأمبراطور الفردريك الثاني، وهذا الجاسوس كان راهباً حورانياً. كما أن هناك قصائد هجائية ضد المسيحيين من قبل شعراء من أمثال خطيب شهاب الدين غازي المسكتي بابن الوسيطي توفي في حلب سنة ١٣١٢م/ ٧١٢هـ: «**الرد على أهل الذمة**» وقصيدة «**ابي عمر النابلسي**».

ولكن سؤال يطرح: هل ظلم الإسلام كما يقول أهل الذمة؟ الجواب ليس كما يزعمون البعض. فدار الإفتاء والمفتين به كانوا ينهبون الملوك والحكام على عدم إنتهاك حرمة وشريعة القرآن الكريم ووصية النبي ﷺ بإجبار المسيحيين بالقوة على إعتناق الإسلام.

والمحدث الكبير الشافعي النواوي المتوفي سنة ١٢٧٧م/ ٦٧٧هـ في كتابه: «**الأربعون النوايا**» كان يوصي بالأخوّة بين المسلمين وغير المسلمين، إذاً العلاقات الإسلامية المسيحية كانت علاقات ودية لمصالح شخصية مادية دولية. أما فيما يتعلق بالدين فالتعاليم الدينية الإسلامية التقليدية «كالعلوم القرآنية والأحاديث والفقه لا يمكن أن تجمع حولها بشراً وإناساً تؤمن بغير عقيدتها».

فالمسيحيون واليهود يشكلون أهل الذمة. ولكن اليهود كانت حالتهم تختلف عن المسيحيين. كان اليهود يسكنون في الجنوب الشرقي من مدينة دمشق القديمة ولكن كانوا أقل عدداً من المسيحيين، لهم كنيس واحد في دمشق كما يخبرنا ابن عساكر وابن شداد من بعده. وهناك كنيس آخر حوّل إلى جامع فيما بعد، وحسب ابن شداد الكنيس الثاني كان موجوداً في حيّ «درب البلاغة» ولكن فيما بعد كما يحدثنا ابن كثير حوّل الجامع من جديد إلى كنيس بأمر من السلطان بيبروس بعد أن أستولى

---

(١) لويس برزا: الحياة الدنية في دمشق بالقرن السابع الهجري ص٣٣٤ Louis Pozet.

(٢) المصدر نفسه ص٣٣٨.

(٣) Louis Pozet: Lie et structures religieuses dans une métropole islamique p.334*

على حصن الأكراد، وكان الحكم في دمشق يلعب ورقة الفتنة بين أهل الذمة بالذات.

كما حدث عندما أهتز أهل بعلبك المسيحيون عند سماعهم بأسر لويس التاسع ملك فرنسا من قبل السلطان الكامل بعد سقوط مدينة المنصورة سنة ١٢٥٠م.

وهكذا عندما تحرك الجمهور في دمشق ضد المسيحيين وتركوا أحرار اليهود لأنهم أعتقدوا وكانوا واثقين بأن الصليبيين تحالفوا مع المغول ضدهم.

هناك أمران يربطهما بالمسيحيين: وهي المشاركة الفعالة بين الأطباء المسيحيين واليهود في معالجة المرضى في دمشق والتنظيمات المدنية في المدينة والتراجم عن اللغات القديمة كاليونان واللاتينية والسريانية والعبرانية.

الفصل الثالث

المدارس الدنيوية في بلاد الشام بالعصر المملوكي

١ ـ المدارس الطبية (البيمارستانات) ومدرسوها
٢ ـ المدارس الحربية

المدارس الدنيوية في بلاد الشام بالعصر المملوكي / المدارس الطبية

مقدمة

ويحيّر الباحث تعليل هذه الكثرة من المؤسسات العامة حتى صرت تجد في بقعة صغيرة المساحة حول المسجد الأموي مثلاً ثلاثة بيمارستانات يمرّ الماشي عليها جميعاً في دقيقتين[١]. ونحن مع تقديرنا للرقي العظيم الذي بلغه نظام المماليك فيما بعد نجد ذلك نتيجة منطقية للخطة التي وضعها هؤلاء السلاطين نصب أعينهم وهي إفاضة النعمة على الرعية عامة حتى يتمتع السادة السوقة بدرجات متقاربة من رغد العيش ورفاهية الحياة. وقد تأسست بيمارستانات جديدة في العصر المملوكي ولقد أثرّت هذه المشافي أثراً آخر علمياً خالصاً إلى جانب أثرها الخيري، ذلك هو تقدم علم الطب وقطع شوطاً بعيداً، مما أسدى إليه نوابغ الأطباء الذين نشأوا فيه من أيادٍ وما نال من تشجيع المسؤولين والأمراء.

وإذا ما القينا نظرة عن نظم البيمارستانات والدروس الطبية وامتحانات الأطباء والصيادلة، وترتيبهم وشروط إيجازتهم، ستعلم أن نظم هذه الصنعة لا تقل عما هي عليه الآن في الحيطة والإهتمام ـ وسيتساءل القارىء حين يفرغ من هذه التفاصيل والعجب آخذ من كل مأخذ: أترى أن ما وصلنا إلى ما أنتهوا إليه من الدقة والإهتمام بالخير العام؟

والمشافي كانت في الوقت نفسه جامعات طبية تلقى فيها الدروس النظرية إلى جانب الدروس العلمية وكان لها من الشرف والمكانة بحيث كان السلطان أو نائبه هو الرئيس الأعلى لها فترى أن البيمارستانات النوري مثلاً في دمشق مناط إدارته بنائب السلطنة. ولا غرابة بعد ذلك في أن يولي الناس علوم الطب كل عنايتهم وقد رأوا ما

---

(١) ابن جبير: الرحلة ص٢٤٧.

للأطباء من الأرزاق الوافرة، والمناصب العالية والشأن الإجتماعي العظيم، حتى كان من المكفوفين أطباء مشهورون وأن تلك الحضارة الباهرة أتت من الثمر والنتائج الطبية ما عجزت عنه حضارة القرن العشرين.

وأكدت بعض المصادر والمراجع على أن صناعة الطب كانت مزدهرة ونشطة في العصر المملوكي وإن كانت مدارس هذه الصناعة تبدو قليلة في العصر الأيوبي وما سبق. وأرجعت هذه المصادر سبب هذه القلة إلى أن الطب كان لا يدرس في مدارس خاصة إلا نادراً. شأنه في ذلك شأن ثائر العلوم. كعلم الهندسة والفلك والتاريخ والطبيعيات.

فالبيمارستان كان في ذلك العهد هو المكان الرئيسي لمهنة الطب والصيدلة من حيث التدريس والتطبيق. ففي أيوانه كانت تلقى النظريات والعملية الطبية. وفي حجراته كان طلاب الطب يتسابقون بين صفوف المرضى ويجرون التطبيقات بإشراف أساتذتهم الأطباء.

ومنه كانت تتخرج في أغلب الأحيان جماعات الطلبة في مختلف أصناف الطب:

- فكان منهم الطبيب على إجماله.
- والجراح والفاصد.
- والكحال.
- والأسناني وغير ذلك[١].

وفي أيوان البيمارستان كانت تعقد المناظرات والمناقشات بين الأطباء لبحث مرض أستعصى أو دواء أكتشف، أو لحل سريع أوجد.

وإلى جانب هذه المجالس التعليمية الطبية التي كانت تقوم في رحاب البيمارستان كانت هناك مجالس خاصة يقيمها الموصوفون بصناعة الطب في دورهم مع المشتغلين عليهم كتلك التي كان يعقدها كل من ابي المجد بن الحكم، والرفيع الجيلي ومهذب الدين النقاش بدمشق[٢].

وشجع الأيوبيون العمل بصناعة الطب فأهتموا بمراكزها وعمالها ويسروا للمشتغلين فيها من أطباء وطلاب سبل المعاش، وأعفوا المرضى في كثير من الحالات من دفع النفقات وهذا ما أشار إليه الرحالة ابن جبير حين زار دمشق في أواخر القرن

---

(١) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، ج٣ ص٢٠٣.
(٢) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٥٧.

السادس الهجري ودخل مستشفى النوري فقال: «وجرايته في اليوم خمسة عشر ديناراً وله موظفون مشرفون ومعهم لوائح بإسم المرضى وبالنفقات التي يحتاجون إليها من الأدوية والأغذية بالإضافة إلى الأطباء الذين يبكرون إليه كل يوم ويتفقدون المرضى ويأمرون بإعداد ما يصح لهم من الأدوية والأغذية حسب ما يليق بكل انسان منهم»[1].

هذا وظهر في العصر الأيوبي عدد من المشاهير في العلوم الحكمية والطب تركزا لنا دراسات طبية كانت ذات شأن يذكر منهم:

شهاب الدين الشهروري (ت: ٥٨٦هـ)، أبو الفضل عبد الكريم المهندس (ت: ٥٩٩هـ)، أبو الفضل الطبيب عبد المنعم بن عمر (ت: ٦٠٢هـ)، السيف الآمدي (ت: ٦٣١هـ)، عمران الإسرائيلي (ت: ٦٣٧هـ) ومهذب الدخوار (ت: ٦٢٨هـ) وغيرهم مما سيرد ذكرهم فيما بعد.

ولقد ذكر من مدارس الطب في دمشق في العصر الأيوبي مدرستان هما:

١ ـ المدرسة الدخوارية. ٢ ـ المدرسة الدنيسرية.

ـ فالدخوارية كانت قد أنشئت في عهد الملك المعظم عيسى.

ـ والدنيسرية في عهد الملك الناصر يوسف الأيوبي بن الملك العزيز محمد.

ـ والبيمارستان النوري الكبير والصغير ـ والقيمري / في عهد نور الدين الزنكي.

ـ وهناك بيمارستانات في جميع المدن الشامية سنأتي على ذكرها وتاريخ إنشائها وأطبائها وأستمرار عملها في العصر المملوكي.

١ ـ المدرسة الدخوارية:

موقعها: كان موقعها بالصاغة العتيقة[2] بقرب الخضراء قبلي الجامع الأموي[3]. وهي اليوم دور سكن.

منشئها: أنشائها مهذب الدين عبدالرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار في سنة إحدى وعشرين وستمائة للهجري سنة ٦٢١هـ[4].

مدرسوها:

مهذب الدين الدخوار (٥٦٨ ـ ٦٢٨) منشئها وجعلها مدرسة يدرس فيها من

---

(١) ابن جبير: رحلته ص٢٣٠.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٠٠. ابن شداد: الاعلاق الخطيرة، ج٢ ص٢٦٥.
(٣) ابو شامة: ذيل الروضتين ص١٥٩.
(٤) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة ج٢ ص٢٦٥. النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٠٠.

بعده صناعة الطب ووقف عليها ضياعاً وأماكن يستغل منها ما يتصرف في مصالحها، وفي راتب المدرس والمشتغلين بها. وأوصى أن يكون المدرس بها من بعده شرف الدين علي ابن الرحبي[١] ويعتبر مهذب الدين الدخوار أوحد عصره وفريد دهره وعلامة زمانه أنتهت إليه رئاسة صناعة الطب ومعرفتها وتحقيق كلياتها وجزئياتها، لم يكن في إجتهاده من يجاريه ولا في علمه من يماثله، وكان خاطره طلب العلم. ولد ونشأ في دمشق كحال مشهور كتب في الطب وأشتغل بالعربية على الشيخ الكندي، لازم القراءة والحفظ حتى في سن الكهولة، اشتغل بالطب على الشيخ رضي الدين الرحبي. ثم لازم موفق الدين بن المطران وتتلمذ له وأشتغل عليه بصناعة الطب وأخذ عنه[٢].

وأشتغل على فخر الدين المارديني بدمشق سنة ٥٧٩هـ، بشيء من القانون لابن سينا. خدم الملك العادل بصناعة الطب وخدم بالمارستان الكبير. ولما أشتهر بالطب أطلق له الوزير صفي الدين بن شكر، وزير العادل، جامكيه، وخدم بها وأجتمع عليه خلق كثير بدمشق في تدريس صناعة الطب يقرؤون عليه ومنهم ابن ابي أصيبعة: وقد وقف دار على الأطباء بدمشق مدرسة لهم.

وقد صنف في صناعة الطب كتباً كثيرة قيل بلغت أكثر من مئة مجلد ومنها: مقالة في الإستفراغ ـ كتاب الجنينة. وأختصر كتاب الأغاني وأختصر كتاب الحاوي للرازي المتوفي سنة ٣١١هـ. (وقد ذكرهذا ابن ابي أصيبعة في طبقاته).

قال أبو شامة: «توفي الدخوار شيخ الأطباء بدمشق في سنة ثمان وعشرين وستمائة وهو الذي وقف داره مدرسة للأطباء بنواحي الصاغة العتيقة»[٣].

موفق الدين بن المطران ٠٠٠ــ٥٨٧هـ: هو ابن نصر اسعد بن ابي الفتح الياس بن جرجس المطران: قرأ النحو والآداب واللغة عن الكندي. كان والده طبيباً جوالاً وكان هو حكيماً بارعاً وعالماً فاضلاً. أمير أهل زمانه في صناعة الطب، عارفاً بالعلوم الحكمية معتنياً بالفنون الأدبية[٤].

ابن ابي أصيبعة: هو أحمد بن القاسم... ابن ابي أصيبعة. كان عالماً بالأدب والطب والتاريخ، وله مصنفات عديدة منها (عيون الأنباء في طبقات الأطباء)[٥]، ولد

---

(١) ابن شداد: الاعلاق الخطيرة ج٢ ص٢٦٢.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٧٢٨.

(٣) ابو شامة: ذيل الروضتين ص١٥٩. ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص١٢٧.

(٤) ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص٦٧٢. ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص١٤٧.

(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص١٢٥. زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ج٣ ص١٧١.

في دمشق وكان من أصدقاء ابن البيطار في البحث في الأمور الطبية. توفي بصرخد في سنة (٦٦٦هـ)[١]. وهناك عدة أطباء خدموا في هذا البيمارستان «المدرسة».

٢ ـ المدرسة الدنيسرية الربعية (طبية):

موقعها: غربي باب البيمارستان النوري والصلاحية بآخر الطريق من قبلة[٢]. درست وضاعت معالمها.

منشئها: هي من أنشاء عماد الدين محمد الربعي الدنيسري[٣] وصفه ابن ابي اصيبعة فقال: «هو ذو نفس فاضلة ومروءة كاملة وذكاء وافر ولد بدينسر سنة ٦٠٥هـ وأشتغل بالطب ذو أدب وفقه خدم بالقلعة بدمشق والبيمارستان وكان له شعر جيد»[٤].

المدرسون: علم من مدرسي هذه المدرسة وممن أشتغل بها: القاضي نجم الدين الباجريقي الدنيسري أشتغل بالموصل ثم قدم دمشق وخطب بجامعها ودرس بالمدرسة الدولقية وبالقيمرية ولي قضاء غزة سنة ٦٧٩هـ وتوفي سنة ٦٩٩هـ[٥].

٣ ـ المارستان الصغير بدمشق:

ذكر ابن العماد في شذرات الذهب: المارستان الصغير بدمشق أقدم من المارستان النوري وكان موقعه في قبلة مطهرة الجامع الأموي وأول من عمرّه أبو الفضل الأحناوي وهو تحت المئذنة الغربية بالجامع وينسب إلى أنه عمارة معاوية أو ابنه وهو عبارة عن بيت وخرب ورسوم المارستان منه[٦].

٤ ـ البيمارستان الكبير النوري:

ملك السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي دمشق سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، وهو أحسن ما بني من البيمارستانات بالبلاد ومن شرطه: أنه على الفقراء والمساكين وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه فلا يمنع منه الأغنياء ومن جاء إليه مستوصفاً فلا يمنع من شرابه. وبهذا جاء إليه نور الدين وشرب رحمه الله. ويقول بعض الناس: أنه لم تخمد منه النار منذ بني إلى زماننا (أي زمان ابن كثير الذي ننقل عنه هذا الكلام وقد توفي سنة ٧٧٤هـ)[٧].

---

(١) يوسف الدبس: تاريخ سورية ج٦ ص٣٢٥.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٠٤.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٠٥.
(٤) ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الاطباء ص٧٦٠.
(٥) ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ص٢١٥.
(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج٣ ص٤٠٧.
(٧) ابن كثير: البداية والنهاية حوادث سنة ٥٦٩هـ مخطوط (مأخوذ عن تاريخ البيمارستانات).

وقال ابن جبير[١]، وقد دخل دمشق سنة ٥٨٠هـ: وبها مارستان قديم وحديث والحديث أحفلهما وأكبرهما وجرايته في اليوم نحو ١٥ ديناراً. وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج وهم في سلاسل موثوقون. وهذا المارستان مفخر عظيم من مفاخر الإسلام.

وقال ابن أبي أصيبعة[٢]: لما أنشأ الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي البيمارستان الكبير جعل أمر الطب فيه إلى أبي المجد بن أبي الحكم... الباهلي وأطلق له جامكية وجراية وكان يتردد إليه ويعالج المرضى ويدور عليهم ويتفقد أحوالهم ويعتبر أمورهم، وبين يديه المشارفون والقوام لخدمة المرضى، فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى في ذلك. ثم قال: وبعد فراغه من ذلك وطلوعه إلى القلعة وأفتقاده المرضى من أعيان الدولة يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي بالبيمارستان وجميعه مفروش ويحضر كتب الأشتغال، وكان نور الدين قد وقف على هذا البيمارستان جملة كتب من الكتب الطبية، ثم تجري مباحث طبية ويقرىء التلاميذ الذين يأتون إليه ويقعدون بين يديه ولا يزال معهم من أشتغال ومباحثة ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات. ولما أتى بدر الدين ابن قاضي بعلبك إلى دمشق، ولاه، الملك الجواد مظفر الدين يونس ابن شمس الدين بن الملك العادل بعد أن تملك دمشق في سنة ٦٣٥هـ، الرياسة على جميع الأطباء والكحالين والجرائحيين، فلم يزل مجتهداً حتى أشترى دوراً كثيرة ملاصقة للبيمارستان الكبير النوري... وكبّر بها قاعات كانت صغيرة وبناها أحسن البناء وشيدها وجعل الماء فيها جارياً فتكمل بها البيمارستان[٣].

وذكر كردعلي: ظلّ المستشفى النوري عامراً إلى سنة (١٣١٧هـ) وكان أطباؤه وصيادلته لا يقلّون عن عشرين رجلاً[٤].

الأطباء الذين عملوا في البيمارستان النوري الكبير:

كما ورد في تاريخ البيمارستانات:

١ ـ مهذب الدين بن النقاش: هو الشيخ الإمام أبو الحسن علي... ابن هبة الله النقاش. مولده ومنشؤه ببغداد، عالم بعلم العربية والأدب وأشتغل بالطب وكان له مجلس علم للمشتغلين عليه وكانت وفاته سنة ٥٧٤هـ.

---

(١) ابن جبير: الرحلة ص٢٨٣.
(٢) ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج٢ ص١٥٥.
(٣) ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج٢ ص٢٦٠.
(٤) محمد كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٥٩.

٢ ـ موفق الدين بن المطران: الذي توفي سنة (٥٨٧هـ/ ١١٩١م) بدمشق.

٣ ـ أبو فضل بن عبد الكريم: المهندس الذي توفي سنة (٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) بدمشق.

٤ ـ موفق الدين عبد العزيز: الذي توفي في دمشق سنة (٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م) بدمشق.

٥ ـ كمال الدين الحمصي: الذي توفي في دمشق سنة (٦١٢هـ/ ١٢١٥م).

٦ ـ رشيد الدين علي بن خليفة: مولده في حلب ثم أنتقل إلى الشام وتوفي سنة (٦١٦هـ/ ١٢١٨م).

٧ ـ مهذب الدين عبد الرحيم بن علي: وقد توفي في دمشق سنة (٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م).

٨ ـ مهذب الدين أحمد بن الحاجب: قد توفي في دمشق سنة (٦٢٢هـ/ ١٢٢٤م).

٩ ـ عمران الإسرائيلي: توفي في حمص سنة (٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م).

١٠ ـ سديد الدين بن رقيقة: وله معرفة بصناعة الكحل توفي سنة (٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م).

١١ ـ سعد الدين بن عبد العزيز: ولد بدمشق وتوفي فيها سنة (٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م).

١٢ ـ الجمال المحقق أحمد بن عبدالله بن الحسين الدمشقي توفي في دمشق سنة (٦٤٩هـ/ ١٢٥١م).

١٣ ـ رضي الدين الرحبي وجمال الدين بن الرحبي: فكان الأول مشهوراً بصناعة الكحل وتوفي سنة ٦٣١هـ. أما جمال الدين أشتغل بصناعة الطب ولماوصل التتار سنة ١٢٥٩ توجه إلى مصر وتوفي سنة ١٢٥٩هـ.

١٤ ـ شمس الدين الكللي وعز الدين السويدي ولد بدمشق سنة ٦٠٠ هـ وأشتغل بالطب وكان مدرساً بالدخوارية.

١٥ ـ عماد الدين الدنيسري: الذي درس في البيمارستان النور وولد بدنيصر سنة ٦٠٥هـ.

١٦ ـ بدر الدين بن قاضي بعلبك أتى إلى دمشق وخدم الجواد بن يونس سنة ٦٣٥هـ. وولي رياسة جميع الأطباء والكحالين والجرائميين والبيمارستان النوري وبقي حتى سنة ٦٥٥هـ وقرأ الفقه والتفسير[١].

---

(١) الدكتور أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢١٦ ـ ٢٢٢.

٥ ـ المدرسة اللبودية:

موقعها: مدرسة خارج البلد ملاصقة لبستان الفلك المشري[١].

منشئها: أنشأها نجم الدين يحيى بن محمد بن اللبودي في سنة أربع وستين وستمائة[٢].

وقال الشيخ يحيى الدين[٣]: في سنة تسع وأربعين وتسعمائة صارت تل تراب ثم جعلها مسجداً برسم تأديب الأطفال محمد بك الرومي[٤].

المدرسون (الأطباء):

١ ـ في سنة ثمان وستين وستمائة: الشيخ موفق الدين أحمد بن القاسم الخزرجي الطبيب عرف بابن ابي أصيبعة له تاريخ الأطباء في عشر مجلدات[٥].

٢ ـ بهاء الدين القاسم بن محمود بن عساكر الطبيب[٦]. توفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة وعاش أربعاً وتسعين سنة، وله سماعات وإجازات، وتفرد بأشياء، قرأ عليه البرزالي نحواً من مائة جزء.

البيمارستانات:

١ ـ بيمارستان حرّان:

موقعها: وهي على طريق الموصل والشام، وهي الآن بولاية حلب.

وذكر ابن جبير[٧] الرحالة المغربي في رحلته إلى المشرق حوالي سنة ٥٨٠هـ «أن بلدة حران مدرسة وبيمارستان».

وهذا يعود إلى العصر الأيوبي ثم أستمر تفعيله في العصر المملوكي.

وسيأتي ذكر مدرسيها وأطبائها في فصل لاحق.

٢ ـ بيمارستان الرقة:

موقعها: الرقّة مدينة مشهورة من بلاد الجزيرة على الفرات بالقرب من حران بينها وبين حران مسافة قريبة (حوالي ثلاثة أيام) لأنها من جانب الفرات الشرقي هي وحران تقعان شرقي حلب.

لم نعرف عن هذا البيمارستان شيئاً سوى ما ذكره ابن ابي أصيبعة من أن الحكيم

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٠٦.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٨ ص٣٨٣.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٨ ص٢٨٤.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٠٧.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٠٧ ـ ١٠٨.
(٧) ابن جبير: الرحلة ص٢٤٧.

بدر الدين ابن قاضي بعلبك خدم بالرقّة في البيمارستان الذي بها وصنف مقالة حسنة في مزاج الرقّة وأحوال أهويتها وما يغلب عليها وأقام بها سنين[١].

٣ ـ بيمارستان نصيبين:

قال ابن بطوطه الرحالة المغربي[٢]: «زرنا مدينة نصيبين حوالي سنة ٧٢٠هـ وهي مدينة عتيقة متوسطة قدخرب أكثرها وهي بسبط افيح. فيه المياه الجارية والبساتين الملتفة والأشجار المنتظمة والفواكه الكثيرة وبها يصنع ماء الورد الذي لا نظير له في العطارة والطيب ويدور بها نهر يعطف عليها انعطاف السوار منبعه من عيون في جبل قريب منها، وينقسم إنقساماً فيتخلل بساتينها. ويدخل منه نهر إلى المدينة فيجري في شوارعها ودونها ويخترق صحن مسجدها الأعظم وينصب في صهريجين أحدهما وسط الصحن والآخر عند الباب الشرقي وبهذه المدينة مارستان ومدرستان وأهلها أهل صلاح ودين».

٤ ـ بيمارستان أنطاكية:

جاء في كتاب كنوز الذهب في تاريخ حلب[٣] عن المختار بن الحسن بن بطلان، أنه هو الذي بنى البيمارستان بأنطاكية وقال: «وقفت على مقالة وضعها ابن بطلان في علة نقل الأطباء تدبير الأمراض التي كانت تعالج قديماً بالأدوية الحارة إلى التدبير المبرد كالفالج والقوة ومخالفتهم في ذلك لمسطور القدماء» قال في آخرها: قال المختار بن الحسن: «صنفت هذه المقالة لصديق لي وأنا يومئذ مكدود الجسم منقسم الفكر في جميع الآلات لبناء بيمارستان أنطاكية». وقال جمال الدين القفطي[٤] في سياق كلامه عن أنطاكية ودخول ابن بطلان إليها نقلاً عن ابن بطلان نفسه: وفي البلد بيمارستان يراعي البطريرك المرضى فيه بنفسه. وكذلك قال ابن ابي أصيبعة[٥] عن مقالة ابن بطلان في علة نقل الأطباء: وصنّف ابن بطلان هذه المقالة بأنطاكية وكان في ذلك الوقف قد أهل لبناء بيمارستان بأنطاكية.

٥ ـ بيمارستان آخر بحلب:

على باب الجامع الكبير الشمالي بحلب بيمارستان وله بوابة عظيمة ينسب لابن خرخار والآن قد أغلق بابه[٦].

(١) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار ج٢ ص١٤٠.

(٣) كتاب كنوز الذهب في تاريخ حلب الموفق الدين أبي ذر أحمد بن ابراهيم الشهير الحلبي المتوفي سنة ٨٨٤هـ/ ١٤٣٩م. وهو ذيل كتاريخ حلب لإبن العديم المتوفي سنة ٦٦٠هـ.

(٤) جمال الدين القفطي: تاريخ الحكماء ص٢٩٧.

(٥) ابن أبي اصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ج١ ص٢٤٣.

(٦) أحمد عيسى: البيمارستانات في الإسلام ص٢٣٠.

٦ ـ بيمارستان صفد:

وقال محمد بن شاكر الكتبي: «أن في صفد بيمارستان» عمّره الأمير الكبير سيف الدين تنكز نائب السلطنة في الشام في زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون[١].

٧ ـ بيمارستان الصالحية أو القيمري:

البيماوستان القيمري أو مارستان الصالحية أنشأه وأوقفه الأمير الكبير سيف الدين أبو الحسن[٢] علي بن يوسف القيمري الكندي: أكبر أمراء القيامرة ومن أبطالهم المذكورين وهو ابن اخت صاحب قيمر كانوا يقفون بين يديه كما تعامل الملوك. ومن أكبر حسناته وقفه المارستان الذي بسفح قاسيون بالصالحية وكانت وفاته سنة ٦٥٣هـ ودفن بالسفح في قبته التي تجاه المارستان وكان ذا مال وثروة.

وفي سنة ٦٩٦هـ، في يوم السبت[٣] شرعت التتار في نهب الصالحية وأضربوا أماكن كثيرة ومنها المارستان بالصالحية. وقال ابن العماد[٤]: أنه في سنة ٨٥٦هـ توفي الشيخ زين الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن داوود الحنبلي وكان المتكلم على البيمارستان القيمري فحصل به النفع من عمارة جهاته. وممّن خدم من الأطباء: إبراهيم بن اسماعيل ابن القاسم كان طبيباً بالبيمارستان بالصالحية وتوفي سنة ٧٤١هـ.

٨ ـ بيمارستان غزة:

لما توفي الملك الناصر محمد بن قلاوون وتولى الملك الصالح اسماعيل، رسم للأمير علم الدين سنجر الجاولي الفقيه الشافعي بنيابة غزّة فحضر إليها وأقام بها مدة شرع في أثنائها في عمارة الجاح بغزة، وعمّر حماماً هائلاً ومدرسة للشافعية وعمّر خاناً للسبيل وبنى مارستاناً ووقف عليه أوقافاً جليلة، وجعل النظر فيها لنواب غزّة وتوفي في ٩ رمضان سنة ٧٤٥هـ ودفن الأمير سنجر في تربته التي على جبل الكبش ظاهر القاهرة[٥].

٩ ـ بيمارستان الكرك:

هذا البيمارستان أنشأه الأمير علم الدين سنجر الجاولي أبو سعيد المتقدم ذكره والذي أنشأ بيمارستان غزّة. ولد الأمير سنجر[٦]، سنة ٦٥٣هـ بآمد ثم صار الأمير

(١) محمد شاكر الكتبي: فوات الوفيات ج١ ص٩٢.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٣ ص٣١٣.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية حوادث سنة ٦٥٦.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٣١٤.
(٥) ابن حجر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج١ ص١٩.
(٦) الصفدي: أعيان العصر ج٣/ مخطوط.

يقال له جاول في سلطنة الظاهر بيبرس فنسب إليه ثم انتقل بعده إلى بيت السلطان وأخرج في أيام الأشرف خليل إلى الكرك ثم عمل استادار صحبة السلطان نيابة عن بيبرس الجاشنكير وأستنابه الناصر محمد بعد مجيئه من الكرك سنة ٧١١هـ فعمّر بها قصراً للنيابة وهو أول من مدنها. فبنى فيها القصر والجامع والحمام والمدرسة للشافعية وخان السبيل والمارستان والميدان ثم قدم إلى مصر ليكون نائباً للحوائج خاناه ثم ولي نيابة غزّة وصار من أكبر أمراء مصر وتوفي في تاسع شهر رمضان سنة ٧٤٥هـ.

١٠ ـ مارستان حصن الأكراد: (مع رسم له)

أنشأ هذا المارستان أحد المماليك بهذا الحصن ووجد مكتوباً على عتبة باب هذا المكان ما يأتي[١]: «بسم الله الرحمن الرحيم أنشأ هذا البيمارستان المبارك العبد الفقير إلى الله تعالى بكتمر بن عبدالله الأشرفي نائب السلطنة المعظمة بحصن الأكراد أثابه الله تعالى وأوقفه على مرضى المسلمين المقيمين والواردين وذلك في شهور سنة ٧١٩هـ/ ١٣١٩م).

هذا البيمارستان لم يبق من آثاره إلا هذه الكتابة وبعض الأحجار المستعملة الآن في بناء بعض المنازل الصغيرة المجاورة للبيمارستان، وقد أرصد بكتمر بعض الأوقاف للصرف على هذا البيمارستان وقد قال أحمد عيسى[٢]: «وقد وجدت في بعض البيوت المتخربطة قطعة من نص وقفية بكتمر على البيمارستان فهذا نصها: . . . وبسوق البر وجميع الدار المجاورة للبيمارستان من جهة الشمال والربع والثمن من الحانوت بسوق السمانين ومن شروطه أن يبدأ من ريع ذلك بعمارة المارستان وما هو موقوف عليه أثابه الله تعالى. ووجدت وقفية أخرى مكتوبة فوق حجر في جدار أحد المنازل الصغيرة المقابلة للكتابة السابقة وهذه صورتها ونصها: «أوقفت الحاجة مريم زوجة ابن المسروري أثابها الله تعالى على هذا الوقف المبارك أربعة عشر سهماً من البستان بقرية السحارة» الآن خراب وتبعد بمقدار ساعة ونصف مشياً عن حصن الأكراد.

حصن الأكراد في السهل المسمى البقاعية يحده من الجنوب جبل عكار وجبل لبنان ومن الشمال جبال النصيرية وسبب تسميته بحصن الأكراد أن أحد أمراء حمص

---

(١) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج٢ ص١٧٠. ٢) أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات ص٢٤٧ ـ ٢٤٨.

(٢) Max Van Berchem: materiavx pour un corpus inscriptinnum arabicarum syrie du Nord par maritz sobernheim tome XXV, mémoires de l'institut français d'archéologie oriental.

المرادسيين وهو شبل الدولة نصر ابن فرداس صاحب حمص أسكن فيه جماعة من الأكراد الذين أقاموا به هم وأولادهم لحماية الطريق وذلك سنة ٤٢٢ هـ فنسب إليهم وكان من قبل يسمى حصن الصفح وقد أستولى عليه الصليبيون وبقي في أيديهم إلى سنة (٦٦٩هـ/ ١٢٧١م) ثم استرده منهم الملك بيبرس.

١١ ـ البيمارستان الجديد بحلب: أو بيمارستان أرغون الكاملي (مع رسم له)

أنشأ الأمير سيف الدين أرغون[١] الكاملي في سنة ٧٥٥هـ عمارة البيمارستان المنسوب إليه بحلب داخل قنسرين وأجتهد في أمره ورفل في أثواب ثوابه وأجره، وشيد بنيانه ومهد مجالسه وأيوانه، ورفع قواعده، وهيأ بيوته ومراقده، وأعد له الآلات والخدم. ورتب لتحفظ الصحة فيه أرباب الحكم. وأباحه للضعيف والسقيم، وفتح باب للراحل والمقيم، وروّاه بالمياه الكثيرة وأنفق عليه أموالاً غزيرة، وأجرى عيون معلومة وجرايته، ووقف للقيام بمصالحه ما يزيد على كفايته.

وتابع ابن كثير: قولاً لأرغون الذي معروفة بالعرف قد أحيا النفوس والأرج أنزلك الرحمن خير منزل رحْبٍ ورقّاك إلى أعلى الدرج بنيت داراً للنجاة وللشفاء ليس بها على المريض من حرج. وتوفي الأمير أرغون الكاملي بالقدس الشريف يوم الخميس السادس والعشرين من شوال سنة ٧٥٨هـ، ودفن بتربة أنشأها غربي المسجد بشمال. وكان قد ناب بدمشق مدة ثم صار إلى نيابة حلب ثم سجن بالأسكندرية مدة ثم أفرج عنه فقام في القدس الشريف إلى أن كانت وفاته، وكان سلطان مصر إذ ذاك الملك الناصر حسن ابن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون.

وهذا البيمارستان[٢] هو من البيمارستانات الإسلامية الموجودة إلى اليوم في سوريا ومصر التي حفظت آثارها، فجميع نظامه بتفاصيله لا يزال سليماً وله بوابة عظيمة ذات نخاريب، ودهليز ذو أعمدة وأيوانات، وبهو يشتمل على خلوات للمرضى. وبوجهته شقوق وحالة القبة من الداخل رديئة. وأول شيء يجب اجراؤه إخلاؤه من ساكنيه الذين أزالوا من أخشابه القديمة الشيء الكثير ثم إصلاحه وترميمه وإصلاح بابه وتكميل ما نقص من قطعه. ومكتوب على باب البيمارستان عند باب قنسرين: «بسم الله الرحمن الرحيم أمر بإنشاء هذا البيمارستان الملك الناصر مولانا السلطان الملك الصالح ابن السلطان الناصر محمد بن قلاوون خلد ملكه الله والفقير إلى ربه أرغون الكاملي نائب السلطنة المعظمة بحلب المحروسة

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية حوادث سنة ٧٥٥هـ.

(٢) Cahier 1; inventaire des monuments musulmans de la ville d'Alep Revue des études islamiques année 1931.

غفر الله له وأثابه الجنة في شهور سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م[١].

وفي أعلام النبلاء: «أن محلة هذا البيمارستان كانت بيتاً لأمير فتوصل إليه بطريق شرعي لم يغير بوابة تلك الدار عن حالها وإنما كتب عليها وهي معمورة وهذا المارستان له أوقاف كثيرة منها قرية بنش من عمل سرمين وغيرها وكتاب وقفه موجود وقد رتب فيه القراء يقرؤون القرآن طرفي النهار، وخبزا يتصدق به، ورتب له جميع ما يحتاج إليه من أشربة وكحل ومراهم ودجاج وجميع الملطفات، وكان هذا المارستان بكفالة (تغري برمس) على أتم الوجوه وشرط واقفه أن يكون النظر فيه لمن يكون كافل حلب. ولما كان بتاريخ ربيع الأول سنة ٨٢٥هـ، أطلع مولانا المقر الأشرف السيفي المالكي الصالحي[٢] مولانا الملك الآمر عزّ نصره وهو الناظر الشرعي على البيمارستان السيفي أرغون الكاملي بحلب المحروسة على ما شرط الواقف أثابه الله في كتاب وقفه فمنع من هو بغير شرط الواقف. ويأتي على وصف مسهب لهذا البيمارستان وقال: «تدخل إلى البيمارستان فتجد عن يمينك حجرة هي الآن خربة ثم تدخل الباب الثاني فتجد عن يمينك حجرة أخرى كانت هاتان الحجرتان لعقود الأطباء ووضع ما يحتاجون إليه من الأدوية والأشربة، ثم تجد صحناً واسعاً يحيط بطرفيه الجنوبي والشمالي رواقان ضيقان مرفوعان على أعمدة عظيمة ووراءهما حجرة صغيرة هي محل حبس المجانين فيها. ثم تدخل من الجهة الشمالية في دهليز وبعد خطوات تجد دهليزين: الذي على اليمين يأخذ إلى باب آخر للمارستان تخرج منه إلى بوابة صغيرة وهو مغلق الآن، والدهليز الذي على اليسار يأخذك إلى صحنين حولهما حجرة صغيرة وهي معدة أيضاً لحبس المجانين. وهناك يأخذك الهول ويداخل قلبك الروع للظلمة المخيمة على هذه الأمكنة ولا منافذ لها وروائح العفونة منتشرة فيها. وأنه كان في أطراف الصحن الخارجي وعلى أطراف الحوض الذي في وسطه أنواع الرياحين ليناظرها المجانين. وكانوا يأتون بآلات الطرب وبالمغنيين فيداوون المجانين بها أيضاً، وكان أمره جارياً على الإنتظام إلى أواخر القرن العاشر الهجري». وبعد هذا التاريخ أهمل أمره وزالت تلك الأوضاع منه وكان بلاط الصحن متوهناً جداً فأهتم جميل باشا سنة ١٣٠٢هـ وبتبليطه وتجديد حوضه وترميمه. والآن يسكنه بعض الفقراء وحولت وارداته إلى أوقاف الجامع ١٨٦٧م[٣].

---

(١) هو الملك الصالح ناصر الدين محمد بن خطر من ملوك الشراكسة وكان سلطان مصر والبلاد الشامية سنة ٨٢٥هـ في ايام الخليفة المعتضد بالله.

(٢) بيشوف تيودور الجرماني: كتاب تحف الأبناء في تاريخ حلب الشهباء ص١٤٠. طبع بيروت سنة ١٨٨٠.

(٣) احمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص٢٥٥.

١٢ ـ البيمارستان الدقاني:

منسوب إلى دقان بن «تتش السلجوقي» أحد حكام دمشق في عصر السلاجقة قال ابن كثير[١]. «في ليلة الجمعة الحادي والعشرين من صفر سنة ٧٦٤هـ عملت خيمة حافلة بالبيمارستان الدقاني جوار الجامع بدمشق بسبب تكامل تجديده قريب السقف مبنياً باللبن حتى قناطره الأربع بالحجارة البلق وجعل في أعاليه قمريات كبار مضيئة وفتق في قبلته أيواناً حسناً زاد في أعماقه أضعاف ما كان وبيضة بالجص الحسن المليح وجددت فيه خزائن ومصالح وفرش ولحف جدد وأشياء حسنة فأثابه الله وأحسن جزاءه وحضر الخيمة جماعات من الناس من الخواص والعوام ولما كانت الجمعة الأخرى دخله نائب السلطنة بعد الصلاة فأعجبه وما شاهده من العمارة وأخبره عما كان حاله قبل هذه العمارة فأستجاد ذلك من صنع الناظر وهو الصاحب تقي الدين[٢] بن مراجل وذلك في سنة ٧٦٣هـ، والسلطان بالديار المصرية والشامية والحجازية الملك المنصور صلاح الدين محمد بن الملك المظفر جاحي ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي ومدير للممالك بين يديه وأتابك العساكر الأمير سيف الدين يلبغا الخاصكي ودخله السلطان يوم الجمعة الثاني والشعرين من المحرم بعد العصر خوفاً من المطر.

١٣ ـ بيمارستان الرملة:

١٤ ـ ذكر ابن حجر العسقلاني: «أن محمد بن فضل الله القبطي فخر الدين ناظر الجيش كان قد أسلم وتسمى محمداً وحج عشر مرات وزار القدس، وأحرم مرة من القدس إلى مكة وكانت صدقته في كل يوم ألف درهم وبنى عدة مساجد وعدة أحواض لسقي الماء في الطرقات وله مارستان بالرملة وآخر بنابلس من أعمال فلسطين أتصل بخدمة الناصر محمد ومات في رجب سنة ٧٣٢هـ[٣].

١٥ ـ المارستان النوري في حماه[٤]:

وهو الآن شبيه بالمندرس يستعمله بعضهم للسكنى وذهبت أوقافه إلا قليلاً. وقد وجد على حجر في المارستان بالجانب الغربي من أعلى البنيان كتابتان الأولى سنة خمس وسبعمائة وهي: رسم الملك لآمر بختشاوي الكاملي بحماة بإبطال ما كان يؤخذ من

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية حوادث سنة ٧٦٤هـ.

(٢) في يوم الثلاثاء ١٨ ذي القعدة سنة ٧٦٤هـ توفي الصاحب تقي الدين بن مراجل ناظر الجامع الأموي وغيره. وكانت له همة ويشب إلى أمانة وصرامة ومباشرة مشكورة ودفن قبرية أنشأها تجاه داره بالقبيات وقد جاوز الثمانين.

(٣) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج٤ ص١٣٨.

(٤) كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٦١ ـ ١٦٢.

البيمارستان بغير طريقة وأن وقفه يصرف على ما وقفه الواقف على السكر والأشربة وذلك بأمر السيفي. والثاني سنة ثلاث وثمانمائة حضر الجناب العالي السيفي المارستان النوري بحماة داود بن المقر السيفي درداس الخاصكي كافل المملكة الحموية وتبرع بمعلومه على الضعفاء والمقيمين به وهو في كل شهر مائة درهم لإغتنام الأجر والدعاء.

١٦ ـ مارستانات طرابلس:

بيمارستان الأول أو «المارستان» كما يسميه العامة. كان قائماً تجاه الجامع «البرطاسي» يفصل بينهما طريق جسر «السويقة القديمة وقد أزيل بناؤه بعد تقويم مجرى النهر»[1]. وكان في عصر المماليك بيمارستانات هذا واحد منهما.

وكان نائب السلطنة «عز الدين ايبك الموصلي المنصوري» أول من بنى بطرابلس بيمارستاناً للمرضى، وذلك خلال فترة نيابته (٦٩٤ ـ ٦٩٨هـ). ونعتقد أن البيمارستان عند جسر السويقة كان من بنائه. وكانت أوقاف هذاالبيمارستان تصرف حتى توقفت في ٣١/ ١٢/ ١٩٧٢م، وكان يحمل رقم العقار ٣٠ و ٦٤/ ٩٦ الحديد[2].

البيمارستان الثاني بطرابلس فقد بناه الأمير «بدر الدين محمد ابن الحاج ابي بكر» المتوفي سنة ٦٧٤هـ. وهو أحد الأمراء بحلب، كان من رجال الدنيا[3].

وقال أبو الفداء: بنى المارستان في طرابلس وأرتفع الدهر به وأنخفض وتوفي سنة ٧٤٢هـ. ودفن بتربة في جامع أنشأه بحلب عند باب أنطاكية[4].

لا تستطيع أمة أن تقطع الصلة بينها وبين ماضيها خصوصاً إذا كانت ذات غابر عظيم كغابر الأمة العربية، قام على أساس متين، وتقاليد جميلة، ومقدسات متسلسلة، أما نحن لا نرقى بدون القديم والأخذ من نافع الحديث، فواجب العقلاء أن يفكروا في أقرب الطرق إلى هذه الغاية وهذا لا يتم بغير إحياء دور العلم ومعاهد الفضل وإحياؤها موقوف على قليل من العناية وكثير من الدراية.

٢ ـ المدارس الحربية بالعصر المملوكي

مقدمة

١ ـ القوات الشامية في الدفاع عن دولة المماليك:

إن من الأخطاء الكبيرة التي وضع فيها سلاطين المماليك التي أدت في النهاية

---

(١) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ص٢٩٨.

(٢) المصدر نفسه ص٢٩٩.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابو الفدا: المختصر في أخبار البشر ج٤ ص٣٧. ـ كردعلي: خطط الشام ج٦ ص١٦٧.

إلى سقوط دولتهم هو عدم الإحتفاظ بقوات عسكرية كافية في بلاد الشام لإستخدامها في صد الطامعين أكثر في دولة المماليك.

وتعود أسباب عدم الإحتفاظ بقوات مملوكية كبيرة في بلاد الشام إلى أسباب شتى، منها خوف السلطان من أن تتحالف هذه القوات مع أحد الطامعين وتتوجه للإطاحة به بدل القضاء على أعدائه الخارجين.

ومن هذا المنطلق، فقد كان السلطان الغوري، ومن سبقه، يؤثرون إرسال «تجريدات» محدودة تؤدي مهمتها على عجل ثم تعود. وقد ظهرت هذه السياسة بوضوح فيعهد الأشرف قايتباي الذي أرسل دواداره «يشبك» في حملتين كبيرتين: أولاهما سنة ٨٧٥هـ/ ١٤٧٠م، والأخرى سنة ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م، وقد أنتهت الأولى بالقبض على شاه سوار وشنقه مع أخوته على باب زويله سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م. في حين أنتهت الحملة الثانية بكارثة كبيرة لحقت بالجيش المملوكي[1].

وقد تتابعت الحملات حتى وفاة الأشرف قايتباي سنة ٩٠١هـ/ ١٤٩٦م. وقد كلفت هذه الحملات أموالاً باهظة دون أن تحقق الغاية المرجوة منها، لأنها ما تكاد تغادر البلاد حتى تثور الفتن من جديد.

وفي عصر قايتباي بالذات قامت القوات المملوكية في الشام بدور هام في الدفاع عن دولة المماليك. لأن قايتباي لم يكتف بإرسال دواداره «يشبك» بل أمر جميع نواب الشام بالإنضواء تحت لوائه بما لديهم من جند وعتاد. لكن خوف السلطان من إجتماع القوات المملوكية كان يدفعه دوماً إلى بعثرتها وتشتيتها وعلى هذا نستطيع القول: أن القوات المملوكية قد ساهمت في الدفاع عن الدولة بقدر ما كان يسمح لها ولو أطلق لها العنان لكان لها شأن آخر.

وعندما قامت الفوضى السياسية في دولة المماليك في السنوات الخمس بين سنة ٩٠١هـ وسنة ٩٠٦هـ/ ١٤٩٦ ـ ١٥٠١م. وتحطمت معظم القوة المملوكية على أسوار دمشق وفي بقية نيابات الشام حاول الغوري إنشاء قوات من المماليك «الجلبان» وأبقاها على مقربة منه ليستعين بها في الوقت المناسب، ولما جاء هذا الوقت، واستغاث خايربك نائب حلب وسيباي نائب دمشق بالسلطان الغوري لإدراكهما بالجند «قبل أن يتمكن عسكر ابن عثمان من البلاد»[2] رفض مماليك الغوري «الجلبان» أن يتحركوا لأنهم ألفوا جو القاهرة. وعندما أنفذ الغوري حملته إلى حلب بعدما أقنع مماليكه بالرحيل، فتك جنود الحملة بأهل حلب، فأستغاث

(١) ابن اياس: بدائع الزهور ج٣ ص١٧٠ ـ ١٧٣.
(٢) ابن اياس: بدائع الزهور ج٤ ص٤٦٦.

هؤلاء بالغوري[١] وغادرها نائبها خايربك فما وسع السلطان إلا سحبها. وهكذا فشل الغوري في إرسال الحملات العسكرية إلى بلاد الشام، كما رفض السماح ـ أصلاً ـ بتواجد قوات مملوكية فيها، الأمر الذي أدى إلى سهولة وقوع البلاد بأيدي العثمانيين.

٢ ـ دور الشعب:

تمثل دور السكان في بلاد الشام في دفاعهم عن دولة المماليك في ثلاث مواقف:

ـ الموقف الأول منها: تجلى في الأحوال التي كانوا يدفعونها ـ طوعاً أو كرهاً ـ لتصرف على الحملات المتوجهة لقتال العثمانيين.

يعث نائب حلب كتاب استغاثة إلى دمشق فجمع «قجماس» نائب دمشق علماءها وأعيانها في المصلى وقرأ عليهم الكتاب وهو يتباكى ومما جاء في الكتاب أن ابن عثمان جمع في جيشه ما لا يحصى من الأرض والكفار لمقاتلة جيش الإسلام.

ـ ولذلك تدخل علماء دمشق لدى سكانها وأعتبروا الدفع لهذه الغاية فرضاً، فجمع بذلك مبلغ كبير.

ونبين وصف الآلات الحربية التي كان يستعملها المماليكي وأساليب الحروب في ذلك العصر مما ذكره المؤرخ أبو الفدا عن فتح السلطان الأشرف خليل سنة ٦٩٠هـ لمدينة عكا، وقد رافق هذا المؤرخ قريبه المظفر صاحب حماة في هذه الحملة وإليك هذا الوصف بنصه: «في هذه السنة في جمادي الآخرة فتحت عكا وسبب ذلك أن السلطان الملك الأشرف سار بالعساكر المصرية إلى عكا وأرسل إلى العساكر الشامية وأمرهم بالحضور وأن يحضروا صحبتهم المجانيق، فتوجه الملك المظفر صاحب حماة، وعمّه الملك الأفضل وسائر عسكر حماة صحبته إلى حصن الأكراد وتسلمنا منه منجنيقاً عظيماً يسمى المنصور، حمل على مائة عجل ففرقت العسكر الحموي وكان المسلّم اليّ منه عجلة واحدة لأني كنت إذ ذاك أمير عشرة، وسرنا من حصن الأكراد إلى حصن عكا شهواً، وخرج الفرنج في أثناء هذا الحصار بالليل وتعلقوا بالأطناب وتكاثروا عليهم العسكر، فولى الفرنج منهزمين إلى البلد، وقتل عسكر حماة عدة من رؤوس الفرنج وأحضر ذلك إلى الملك الأشرف... وأشتدت مضايقة العسكر لعكا حتى فتحها الله تعالى في يوم الجمعة السابع عشر من جمادي الآخرة بالسيف[٢] وهكذا ضاع حصن عكا آخر معقل للصليبيين سنة ٦٩٠هـ.

---

(١) ابن اياس: بدائع الزهور ج٤ ص٤٠٠.

(٢) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر ج٤ ص٢٥ ـ ٢٦.

وإليك لمحة موجزة عن تربية الفارس المملوكي بالمدارس الحربية أو الخشداشيات التي تؤهل هذا الجندي وترقيه في هذه الطباق حتى يصير أمير مائة ومقدم الف وأتابك.

تربية الفارس المملوكي: يمر بمراحل متعددة:

ـ **الطباق**: يرسل السلطان مشترياته من المماليك إلى الطباق حيث ينزل كل منهم في طبقة جنسه «برسم الكتابة» على قول المقريزي[(١)].

وقامت هذه الطباق بساحة الإيوان بالقلعة، لسكنى المشتريات من المماليك لتعليمهم وربما ظلَّ المملوك مقيماً بها بعد عتقه وأشتملت كل طبقة على عدة مساكن تتسع لألف مملوك[(٢)].

ـ **زمن إنشائها**: يقول المقريزي أن السلطان الناصر محمد بن قلاوورن هو الذي بنى الطباق بساحة الإيوان بالقلعة وأسكنها المماليك السلطانية سنة ٧٢٩. وذلك بعد أن أمر بهدم السجن الذي أنشأه أبوه قلاوون ليسجن فيه الأمراء وهو سجن الجب[(٣)].

غير أن من المعروف أن الظاهر بيبرس بنى بالقلعة طبقتين مطلتين على رحبة الجامع، وأنشأ برج الزاوية المجاورة لباب القلعة، وأنشأ جواره طبقة للمماليك[(٤)]. ومن المعروف أن السلطان قلاوون كثيراً ما كان يخرج إلى هذه الطباق في موعد حضور الطعام للمماليك ليختبر طعامهم بنفسه وأن السلطان خليل أجاز للمماليك النزول من القلعة في النهار على ألّا يبيتوا إلا بها[(٥)]. وأمر الناصر محمد سنة ٧١٢ بهدم رفرف بالقلعة وأقام مكانه برجاً بجوار الإصطبل. وفي سنة ٧١٥ تشب حريق في أطباق المماليك الواقعة بالقرب من البرج المنصوري[(٦)]. فعزم السلطان الناصر على بناء الطباق الجديدة بحيث تكون كلها في مكان واحد وجمع فيها فئات المماليك السلطانية جميعها، فبلغ عدد الطباق بذلك اثنتي عشرة طبقة[(٧)].

ـ **عدد الطباق**:

وأنفرد خليل ابن شاهين الظاهري دون غيره من المؤرخين بتحديد عدد الطباق

---

(١) المقريزي: الخطط ج٣ ص٣٢٧.
(٢) المقريزي: الخطط ج٣ ص٣٤٦ ـ ٣٤٧.
(٣) المقريزي: الخطط ج٣ ص١٨٩، ١٣.
(٤) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧ ص١٩٠ ـ ١٩١.
(٥) المقريزي: الخطط ج٣ ص٣٤٦ ـ ٣٤٧.
(٦) المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج٢ ص١٥٧.
(٧) الظاهري: زبدة كشف الممالك ص٢٧.

في القرن الخامس عشر الميلادي، غير أن المصادر المملوكية المعاصرة أوردت أسماء ثماني عشرة طبقة، مما يرجح أن هذه الأطباق لم توجد كلها في وقت واحد، بل طرأ عليها كثير من التعديل والتغيير وربما تغير اسم بعضها إلى اسم آخر. وهذه الطباق هي:

١ ـ طبقة الرفرف[١]. ٢ ـ طبقة الطازية[٢]. ٣ ـ طبقة الزمام[٣]. ٤ ـ طبقة الأشرفية[٤]. ٥ ـ طبقة الحوش[٥]. ٦ ـ طبقة الغور[٦]. ٧ ـ طبقة المقدم[٧]. ٨ ـ طبقة الصندلية[٨]. ٩ ـ طبقة الخازندار[٩]. ١٠ ـ طبقة الميدان[١٠]. ١١ ـ طبقة المستجدة[١١]. ١٢ ـ طبقة القاعة[١٢]. ١٣ ـ طبقة قراجا[١٣]. ١٤ ـ طبقة الأربعين[١٤]. ١٥ ـ طبقة الطواشي مرجان الخازندار[١٥]. ١٦ ـ طبقة فيروز الخازندار[١٦]. ١٧ ـ طبقة الخروب[١٧]. ١٨ ـ طبقة البرانية[١٨].

ومن هذه القائمة يتبين أن عدداً كبيراً من الأطباق حمل اسم طواشية أو أسماء وظائف تولاها أشخاص معينون على شؤون هذه الأطباق والأمثلة على ذلك، طبقة

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٦ ص٢١٧.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧ ص١٧٨.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧ ص٣٤، ٣٥. ص١٧٦. المنهل الصافي ج١ ص٢٢٣. ابن اياس: بدائع الزهور ج٢ ص٢١٦ ـ ٢٨٧.
(٤) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ج٩ ص١٠٩. الظاهري: زبدة كشف الممالك ص٢١، ٢٢، ٢٣. ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٣٠٨. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٥ ص٤٩٩، ج٦ ص١٨٤.
(٥) ابن اياس: بدائع الزهور ج٤ ص١٨٨، ٢٧٤.
(٦) السخاوي: الضوء اللامع ج٧ ص٢١٠.
(٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧ ص٢٩٢. ـ السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص٢٤.
(٨) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٦ ص١٤٠. ـ ابن اياس: بدائع الزهور ج٤ ص١٦٦.
(٩) ابن اياس: بدائع الزهور ج٥ ص٤٩.
(١٠) ابن اياس: بدائع الزهور ج٤ ص٤٢٨.
(١١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧ ص١٩٥.
(١٢) السخاوي: الضوء اللامع ج١٠ ص٢٨١. ـ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ج٩ ص٢٦، ٤١.
(١٣) ابن تغري بردي: منتخبات من حوادث الدهور ص١٦٦.
(١٤) ابن اياس: بدائع الزهور ج٣ ص٣٠٩، ٣١٠.
(١٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج٢ ص٩٢.
(١٦) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧ ص٣٨٧.
(١٧) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ج٩ ص٦.
(١٨) السخاوي: الضوء اللامع ج٦ ص١٤٨.

الزمام، طبقة الخازندار، وطبقة الطواشي مرجان الخازندار، وطبقة فيروز الخازندار، أما طبقة الصندلية فتنتسب إلى الأمير الطواشي صندل المنجلي المتوفي سنة ٨٠١هـ وهو خازندار السلطان برقوق[(١)]، كما تنتسب الطبقة الأشرفية إلى مماليك السلطان الأشرف شعبان وأنتسبت طبقة قراجا إلى الأمير قراجا الخازندار، وكان أميراً لا طواشياً وأنتسبت طبقة صواب إلى الطواشي صواب الله السهيلي الخازندار المتوفي سنة ٧٠٦هـ وهو من أخصاء الظاهر بيبرس[(٢)].

أما طبقة المقدم فلعلها تنسب إلى مقدم المماليك أو مقدم الطبقة وكل منهما طواشٍ على كل حال.

ـ المماليك الكتابية:

ويكاد يكون المقريزي ينفرد بشرح تربية المماليك في الطباق بالقلعة: «وخلاصته أن الرسم كان في أول عهد السلاطين المماليك إلا تجلب التجار سوى المماليك الصغار. فأول ما يبدأ به فيما أصطلح العرف على تسميته برسم الكتابة، هو أن يحفظ أجزاء من القرآن الكريم، ولكل طائفة فقيه يحضر إليها كل يوم، ويأخذ في تعليمها القرآن والخط وآداب الشريعة والصلوات والأذكار.

فإذا شبّ الواحد من المماليك علّمه الفقيه شيئاً في الفقه وأقرأه فيه مقدمة فإذا صار إلى سنّ البلوغ أخذ معلم في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك، وإذا ركبوا إلى لعب الرمح لا يجسر جندي ولا أمير أن يحدثهم أو يدنو منهم. وينقل المملوك بعد تمرينه وعتقه إلى الخدمة وينتقل في أطوارها رتبة بعد رتبة حتى يصبح من الأمراء. فيبلغ ذلك بعد أن تهذبت أخلاقه وكثرت آدابه وأمتزج تعظيم الإسلام وأهله بقلبه، وأشتد ساعده في رماية النشاب. وجنح بعض المماليك إلى الدراسة الفقهية أو غيرها من الدراسات المدنية، وصار منهم الفقيه والأديب والشاعر والحاسب[(٣)].

وكيفما كان الأمر أعتنى السلاطين بتربية المماليك في هذه الأدوار الأولى من حياته فجعلوا عليهم أزمّة في الخدم وأكابر من رؤساء النواب يفصحون عن حال الواحد منهم، ويؤاخذونهم أشد المؤاخذة، ويناقشونه على حركاته وسكناته. فإذا عُلم أحد منهم اقترف ذنباً أو أخلّ برسم أو ترك أدباً من آداب الدين والدنيا قابله على ذلك بعقوبة على قدر جرمه. وأجرى السلاطين لطباق المماليك الرواتب

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٦ ص١٤٠.
(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج٢ ص٢١٧.
(٣) المقريزي: الخطط ج٣ ص٣٤٧ ـ ٣٤٨.

الكثيرة، من اللحوم والأطعمة والحلاوات والفواكه والكساوات.

وتكون كسوة المملوك عند نزوله بالطباق من الثياب القطني البعلبكي، ومن الثياب الكتان الخام المتوسط فضلاً عن المعاليم من النقود. ثم رخص السلطان برقوق للمماليك في سكنى القاهرة، وفي التزوج، فنزلوا من الطباق إلى المدينة وتزوجوا من نسائها. غير أنهم لم يلبثوا أن أخلدوا إلى البطالة والعافية ونسوا حياة الطباق وصرامتها، ثم تلاشت الأحوال وأنقطعت الرواتب من اللحوم وغيرها لتفضيل المماليك للراتب النقدي أيام السلطان فرج بن برقوق، إذ جعل لكل واحد منهم في اليوم عشرة دراهم من الفلوس، فصار غذاؤهم في الغالب الفول المصلوق عجزاً عن شراء اللحم وغيره[١]. ثم تطور جلب المماليك فأصبح منهم ما بين ملاح ووقاد وفلاح، فمن ضاق به العيش في بلاده. وهبط مستوى تعليم المماليك سواء في الدين أو الفنون الحربية ـ ورأى السلطان فرج أن يترك أولئك المماليك الكبار وشأنهم، فتغيرت الأحوال وصار المماليك السلطانية أرذل الناس وأدناهم فكان ذلك من عوامل خراب مصر والشام[٢].

ـ أعمارهم:

أما رسم الكتابة الذي ذكره المقريزي من وضعه لطباق المماليك، فالمقصود به تعليم المماليك، والسر في ذلك أن أكثر المشتروات في هذا العصر الأول من المماليك الصغار، ولذلك سمو المماليك الكتابية[٣].

غير بن المصادر لم تهتم بإيراد أعمار هؤلاء المماليكي عند قدومهم ما عدا الإشارة إلى الواحد منهم على أنه صغير أو «في جملة مماليك صغار»[٤]. أما الحالات التي وردت فيها الأعمار فهي قليلة، لأشخاص صاروا من المماليك الكتابية، ثم صاروا ذوي مكانة فيما بعد في الدولة. فالسطلان خشقدم جاء إلى مصر وهو ابن عشرة[٥]، والسلطان شيخ الحمودي وهو ابن اثني عشر سنة[٦]. أما الأمير تغري برمش ابن عبدالله الجلالي المؤيدي، نائب قلعة الجبل فكان في السابعة من عمره حين وصل إلى القاهرة[٧]، ولم يكن قايتباي يتجاوز السادسة عشرة حين جاء إلى مصر سنة

(١) المقريزي: الخطط ج٣ ص٣٤٧ ـ ٣٤٨. ـ المقريزي السلوك: ج٢ ص٥٢٤ ـ ٥٢٥.
(٢) المقريزي: الخطط ج٣ ص٣٤٨.
(٣) المقريزي: الخطط ج٣ ص٣٤٧.
(٤) ابن اياس: بدائع الزهور ج٢ ص٧٠ ـ ٨٠.
(٥) السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص٣٠٨ ـ ٣٠٩.
(٦) السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص٣٠٨ ـ ٣٠٩. ـ العيني: عقد الجمان مجلد ٦٥ ص٥٠٧.
(٧) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٤٠٤.

٨٣٩ والملحوظ أن المماليك الكتابية لم يكونوا جميع مشتروات السلطان، بل عاشت بعض هذه المشتروات، دون أن تدخل مرحلة الكتابية بسبب تجاوزهم سن التعليم.

ـ أطباق الكتابية:

هل كان للكتابية طباق خاصة يقيمون بها ويتلقون تعليمهم فيها؟ جواباً على ذلك إن المصادر المملوكية المعاصرة تؤدي إلى الإعتقاد بوجود هذه الطباق الخاصة ملحقة ببعض الطباق الكبرى ولا سيما طبقة الزمام وطبقة الطازية. فالمملوك برسباي الذي تسلطن فيما بعد نزل في طبقة الزمام مع جملة مماليك الأطباق الكتابية(١). وأقام قايتباي كذلك بين الكتابية بطبقة الطازية، وأستقر غيرهما من المماليك الذين أصبحوا أمراء بين المماليك الطباقية(٢).

ـ كتابية الأمراء والمتعممين:

ثم لم يقتصر إقتناء المماليك الكتابية على السلاطين فحسب بل أقتنى بعض الأمراء وغيرهم أعداداً منهم، فكان برقوق من جملة المماليك الكتابية التابعين للأمير يلبغا العمري زمن السلطان الناصر حسن(٣) وأقتنى كل من الأميرين حجاسودون أحد أمراء الألوف على عهد السلطان برسباي(٤)، والزيني استادار السلطان جقمق عدداً من الكتابية فضلاً عما كان عندهم من المماليك غير الكتابية. ولم يكن من المألوف أن يقتني أحد المتعممين من أمثال الزيني شيئاً من المماليك الكتابية أو غير الكتابية، ولذا تعجب ابن تغري بردي وقال: «فإن ذلك شيء لم نعهده لمتعمم»(٥).

ـ التعليم الديني بالطباق:

أما تفصيل الدراسات التي يتلقاها المملوك في الطباق، فالمعروف أن بعض المماليك الكتابية حفظ القرآن الكريم كله على ظهر قلب وحرص على تجويده، فاشتهر الأمير أزدمر الإبراهيمي الظاهري جقمق بتلاوة القرآن والقراءة مع قراء الجوق «رياسة مع فهم في الجملة وطول نفس»(٦). ومن الذين أشتهروا بحسن الخط والتأنق فيه، والأمير قجماسي الأسحاقي الظاهري جقمق الذي يقال أنه كتب بخطه قصيدة

---

(١) ابن اياس: بدائع الزهور ج٢ ص١٥،١٦و٩٠. ـ السخاوي: الضوء اللامع ج٦ ص٢٠١.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٦ ص٥٠٩. ـ السخاوي: الضوء اللامع ج١٠ ص٢٧١.
(٣) السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص١٠ ـ ١١.
(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج٢ ص١٦٢.
(٥) ابن تغري بردي: منتخبات من حوادث الدهور ص١٦٧. ـ السخاوي: الضوء اللامع ص١٦٥ ج٢ ص٩٩.
(٦) ابن حجر: الدرر الكامنة ج١ ص٢٢٩.

البردة للبوصيري، وقدمها لأستاذه جقمق فاستحسنها[١]، وأعتبرت الإجادة في الخط مبرراً لزيادة ثمن المملوك. إذ طلب أحد التجار من الظاهر بيبرس ثمناً مرتفعاً في مملوك لأنه يكتب خطاً مليحاً، فأستكتبه فكان ذلك، فزاد في ثمنه[٢].

وأما العلوم الدينية فالمعروف أن الأمير تنكز المتوفي سنة ٧٤٠هـ سمع صحيح البخاري غير مرة من ابن الشحنة، وسمع كتاب الآثار للطحاوي، وصحيح مسلم[٣]. وسمع الأمير أرغون شاه الدوادار صحيح البخاري كذلك، وبرع في الفقه، وأذن له بالإفتاء والتدريس[٤]، وأشتهر الأمير تغري برمش بمعرفة الفقه والحديث والتاريخ والأدب ونظم الشعر باللغتين العربية والتركية[٥]. وصنّف العينين شرحاً لطيفاً على المختصر المعروف بتحفة الملوك في الفقه إجابة لرغبة شيخ الخاصيكي المتوفي سنة ٨٠٧هـ ويبدو أن هذا المختصر كان شائع الإستعمال في الطباق، إذ أفاد منه كثير من المماليك[٦]. وأشتهر الأمير محمد بن جنكلي بن البابا المتوفي سنة ٧٤١هـ بأنه درّس الحديث والطبقات وقارف النظم[٧].

أما يعقوب شاه الأرزنجاني مهمندار برسباي، فأشتهر بقراءة المطالعات من الروم والتتر، والعجم والهند، كما عرف بإجادة اللغتين التركية والعربية[٨].

وأشتغل الأمير يلباي الدمرداش بعلم الهيئة[٩] وأهتم على من أمير صاحب بجمع المدائح النبوية إذ وجد في تركية عند موته خمسة وتسعون مجلداً كلها مدائح[١٠].

غير أنه يبدو من هذا التوسع في الدراسة والتبحر في الإطلاع أن أولئك المماليك واصلوا دراستهم بعد مرحلة التعليم في الطباق الكتابية.

ولم يختلف تعليم أبناء السلاطين، أو تعليم أبناء الأمراء عن مناهج الطباق الكتابية، بل تعلم بعض المماليك الكتابية. فعلاً مع أبناء السلاطين والأمراء في مكتب خاص في بيوتهم. ومن الأدلة على ذلك ما كان للأمير سيف الدين كوندك الساقي من

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص١٨١ ـ ٣٣٨. السخاوي: الضوء اللامع ج٦ ص٢١٣.
(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٣٨٢.
(٣) العيني: عقد الجمان مجلد ٦٤ ص١٣٨.
(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص١٨٦.
(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٤٠٤.
(٦) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج٢ ص٢٠٧.
(٧) السخاوي: الضوء اللامع ج١ ص٢٤٦. ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج٣ ص١٤١.
(٨) السخاوي: الضوء اللامع ج١٠ ص٢٨١.
(٩) السخاوي: الضوء اللامع ج٢ ص٩٩.
(١٠) ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص٣٠.

المكانة عند السلطان السعيد بن بيبرس لأنه ربي معه في المكتب[١].

وكان بزلار بن عبدالله العمري من مماليك السلطان الناصر حسن قربان مع أولاده وتأدب وكتب الخط المنسوب. ومن أبناء السلاطين الذين أشتهروا بالتبحر في العلوم الدينية محمد بن جقمق الذي حفظ القرآن وأشتغل بالفقه والفرائض والحديث والمنطق والعربية. فلما تسلطن أبوه زاد طلبه للعلم فقرأ على ابن حجر العسقلاني وحضر على سعد الدين في الفقه والتفسير، وأثنى عليه ابن حجر بالفهم والحفظ[٢].

وحين قدم بيبرس المنصوري صاحب التاريخ إلى الديار المصرية سنة ٦٥٩هـ، اشتراه الأمير سيف الدين قلاون وأنزله في بيته حيث رتبه في المكتب الخاص بتعليم أولاده[٣]. وكذلك شأن بيبرس العلائي الذي مات والده وهو طفل ابن سنتين فنشأ في كفالة تحت وصاية الأتابك أنزبك بن ططخ فأستدعى له مربياً خاصاً[٤].

ونستخلص من المدارس الدنيوية في هذا الباب من العصر المملوكي.

- بأن المماليك أهتموا ببناء البيمارستانات وجهزوها بأحدث الأجهزة الممكنة في كل الأقسام وأدخلوا عليها العنصر الطبي المتخصص في كل المجالات والناجح بعمله وإن لم يتوفر يبحثوا عنه ويأتوا به من خارج السلطنة حتى بدت البيمارستانات منتشرة في جميع مدن بلاد الشام وهذا إن دل على شيء فيدل على أن الدولة المملوكية بحالة حرب دائمة سواء مع المغول أو الصليبيين أو جيرانها من البويهيين أو العثمانيين، وهذا يستدعي إقامة هذه المؤسسات لتعالج فيها من يتعرض أثناء الحروب والغزوات.

- وكان الإهتمام الثاني عند الدولة المملوكية هو تربية الفارسي في ظل طباق معينة فريدة من نوعها يعلموه أصول الكتابة وهو صغير، في سن السادسة حتى الخامسة عشر، ثم يعلموه الفروسية على أنواعها حتى بدا هذا الفارس مخلصاً، عند التخرج لدولته. لأن المماليك كما نعلم كلهم أجلاب من الخارج ومشتروات من تجار يأتون بهم من بلاد القبجاق وبحر قزوين وظلت هذه الطبقة التي وصلت إلى الحكم بعيدة إلى حد ما عن المجتمع المدني وتعمل من أجل أستمرارها.

- وبقي بعض الإختصاصات كعلم الفلك والفلسفة والتاريخ والجغرافيا لم يعتنوا بها المماليك كثيراً ولم تنشىء لهم مدارس خاصة تخرّج طلاباً بهذه

(١) العيني: عقد الجما مجلد ٥٦ ص٦٦.
(٢) السخاوي: الضوء اللامع ج٧ ص٢١٠.
(٣) العيني: عقد الجمان مجلد ٥٥ ص٤٧٣.
(٤) السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص٢١.

الإختصاصات بل أقتصر هذا الإختصاص والتنوع به على دور العلماء. وكان تشجيع الدولة قائماً على بناء المدارس الدينية على كل المذاهب، والإكثار منها في كل المدن، ويقفوا عليها الأوقاف الدارة والغنية لأن لها مصلحة بتثبيت وجودها وهذا يأتي بدفع العلماء والأساتذة والفقهاء الذين يوجهوا طلابهم نحو الدفاع عن الدولة والعمل على محبتها.

الباب الثاني

الفصل الأول:

المقدمة: معنى طرق التعليم في المدارس المملوكية

المدرس في المدرسة المملوكية

١ ـ مدرسو المدارس الدينية في بلاد الشام

أ ـ مدرسو دار الحديث

ب ـ مدرسو (الصوفية) الخوانق والربط والزوايا

ج ـ مدرسو المدارس الشافعية

د ـ مدرسو المدارس الحنفية

هـ ـ مدرسو المدارس المالكية

و ـ مدرسو المدارس الحنبلية

ز ـ أهم مدارس حلب ومدرسوها

ح ـ أهم مدرسو مدارس طرابلس

الفصل الثاني:

تمهيد:

أ ـ مدرسو المدارس الحربية

ب ـ الطريقة التي يدرس بها المدرسون

ج ـ النقابات

د ـ كفاءة الأستاذ وكيفية تعيينه

هـ ـ التقاعد والإحالة على المعاش.

الفصل الأول

معنى طرق التعليم في المدارس المملوكية

١ ـ آداب المعلم مع طلبته في العصر المملوكي:

إذا لمح المعلم في المتعلم خيراً وأنس فيه رشداً ينبغي له أن يؤدبه على التدريج بالآداب السنية والشيَم المرضية ولدقائق الخفية ويعوده الصيانة في جميع أموره على الإخلاص والصدق وحسن النيات وأن يداوم على ذلك حتى الممات. . . وأن يرغّبه في العلم ويذكره بفضائله وفضائل العلماء وأنهم ورثة الأنبياء، ومن ذلك أن يزجره عن سوء الأخلاق وأرتكاب المحرمات والمكروهات مما يؤدي إلى فساد حال أو ترك أشتغال أو إساءة أدب أو عشرة من لا يليق ونحو ذلك بطريقة التعريض والتلميح لا بطريق التصريح وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ والنقمة، فإن التصريح يرفع حجاب الهيبة، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف. . .

وأن لا يتعاظم على المتعلمين بل يلين لهم القول وأن يتواضع لهم[١]. والأحاديث في التواضع ولين الجانب بالنسبة للمعلمين فهي كثيرة، وهذا التواضع لمطلق الناس فكيف بهؤلاء الذين كأولاده مع ملازمتهم وأعتمادهم عليه في طلب العلم، وحق الصحبة، وحرمة التردد، وشرف المحبة، وصدق التودد، وعن الرسول الكريم بهذا الموضوع «علموا ولا تعنفوا فإن المعلم خيرٌ من المعنف» وأيضاً «لينوا لمن تعلمون ولمن تتعلمون منه». وأن لا يمتنع من تعليم الطالب لعدم خلوص نيته فإن النية الحسنة ترجو له ببركة العلم[٢]. وعلى المعلم أيضاً أن يوقر طلبته ويعظهم ويحسن خلقه معهم إذا لقيهم ويعاملهم بالبشاشة وطلاقة الوجه ويحسن إليهم بعلمه وملله وجاهه بحسب التيسير، وينبغي أن يخاطب كل منهم لا سيما الفاضل للتمييز بكنيته ونحوها من أحب الأسماء إليه، وما فيه من تعظيم وتوقير[٣].

ومع ذلك ينبغي أن يستعلم أسماء طلبته وحاضري لمجلسه وأنسابهم ومواطنهم وأحوالهم وأن يكون سمحاً ببذل ما حصله من العلم، سهلاً بإلقائه متلطفاً في إفادة

(١) الشيخ عبد الباسط العلموي: المعيد في أدب المفيد والمستفيد ص٤٧.
(٢) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم ص٤٧.
(٣) الشيخ عبد الباسط العلموي: المعيد في أدب المفيد والمستفيد ص٤٨.

طالبيه مع إرشاد إلى المهمات وتحريض على حفظ ما يبذله لهم من الفوائد، ولا يدّخر عنهم ما يحتاجون إليه أو يسألون عنه لأن ذلك ربما يوحش صدورهم وينفر قلوبهم وكذلك لا يلقي لهم شيئاً لم يتأهلوا له لأن ذلك يبدد أذهانهم ويفرق إفهامهم، فإن سأله الطالب من ذلك شيئاً فيعرفه أن ذلك يضرّه، وأنه لم يمنعه شحابل شفقة ونصحاً ثم يرغبه في التحصيل ليتأهل لذلك[1]. ويرغبه على التحصيل قدر الميسور والكفاية والقناعة من الدنيا[2].

وبالإضافة إلى ذلك أن يكون حريصاً على تعليم الطلبة مهتماً بذلك مؤثراً ذلك على حوائجه ومصالحه، ويفهم كل واحد بحسب فهمه، ولا يبسط له الكلام بسطاً لا يضبطه حفظه، ويخاطب كلاً على قدر درجته وفهمه وهمته، فيكتفي للحاذق بالإشارة، ويوضح لغيره بالعبارة ويكررها لمن لا يفهمها إلا بتكرار، ويبدأ بتصوير المسألة، ثم يوضحها بالأمثلة ويقتصر على ذلك من غير دليل ولا تعليل، فإن سهل عليه الفهم فيذكر له الدليل والتعليل، والمأخذ منه والمدرك، ويبين الدليل المعتمد ليعمد... ويبين أسرار حكم المسألة وعللها وتوجيه الأقوال ويبين الفرق بين المسألتين فيقول مثلاً: هذا هو الصواب وأما ما ذكره فلان فغلط...[3].

ومع ذلك يحرض طلابه على الإشتغال في كل وقت، ويطالبهم بإعادة محفوظاتهم فمن وجده حافظاً مراعياً لمحفوظاته ومهماته وقواعده أثنى عليه وأشاع ذلك ومن وجده مقصّراً عنفّه وأعاده له ليحفظه حفظاً راسخاً.

وإذا فرغ المعلم من شرح درس فلا بأس بطرح مسائل تتعلق به على الطلبة، وإعادة ذكر ما أشكل منه ليمتحن بذلك فهمهم وضبطهم لما شرحه لهم، فمن ظهر استحكام فهمه شكره، ومن لم يفهم تلطف في إعادته، والمعنى أنه ربما استحى في قوله لم أفهم وسبب هذا: إما رفع كلفة الإعادة على المعلم أو الشيخ أو لضيق الوقت، أو حياء من الحاضرين، ولذلك قيل: لا ينبغي للشيخ أن يقول للطالب هل فهمت إلا إذا أمن من قوله نعم قبل أن يفهم، وينبغي للشيخ أو للمدرس أن يأمر الطلبة بالمرافقة في الدروس وإعادة ما وقع من التقرير بعد فراغه ليثبت في أذهانهم، وإذا فهم الشيخ فائدة من البعض في البحث وإن كان من صغير فينصفه بها ويشكره عليها فإن ذلك من بركة العلم ولا يظهر الشيخ للطلبة تفضيل بعضهم على بعض لا سيما إذا تساوو في الصفات: من سن أو فضيلة أو تحصيل أو ديانة. فالترجيح بعضهم على بعض مما يوغر الصدور، فإذا ظهرت فضيلته يثني عليه في حد ذاته من غير تصريح

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٤٨.

(٣) العلموي: المعيد في أدب المفيد والمستفيد ص٤٩.

بأن فلاناً أفضل من فلان فأعلم ذلك[١]. ومن ذلك أن يقدم المعلم في التعليم الأسبق فالأسبق إذا أزدحموا ولا يقدمه أكثر بدرس إلا الباقين، ويختار إذا كانت الدروس في كتاب واحد باتفاق وهو المسمى بالتقسيم أن يبدأ في كل يوم بدرس واحد منهم، فإن الدرس الأول ربما حصل فيه من النشاط والتقرير ما لا يحصل في الباقي إلا إذا علم من نفسه عدم الملالة، وبقاء النشاط، فيرتب الدروس ترتيب الكتاب وإن رأى مع ذلك تقديم الأسبق ليحض المتأخر على التقدم كان حسناً، ويحرص على تعليمه وتفهيمه ببذل جهده[٢]. وإذا سلك الطالب فوق ما يقتضيه حاله وخاف ضجره أوصاه بالرفق بنفسه، وكذلك إذا ظهر له منه نوع سآمة أو ضجر أمره بالراحة ولا يشير عليه بتعلّم ما لا يحتمله فهم أو سنه، ولا بكتاب يقصر عنه ذهنه...[٣]. وإن رأى فهمه جيداً نقله إلى كتاب يليق بذهنه، لأن نقل الطالب الذكي يزداد فهمه وأجتهاده وأنبساطه، ونقل الطالب غير الذكي يكلُّ فهمه ونشاطه، ولا يمكّن الطالب من الإشتغال في فنين أو أكثر إذا لم يضبطهما بل يقدم الأهم فالأهم، وإذا غلب على ظنّه أنه لا يفتح عليه في ذلك الفن أشار عليه بتركه والإنتقال إلى غيره مما يرجى فلاحه فيه، وإذا كان المعلم متكفلاً ببعض العلوم، فلا يقبّح للطالب باقي العلوم التي لا يحسنها، إذ من عادة معلم اللغة تقبيح الفقه، ومعلم الفقه تقبيح علم الحديث والتفسير، بل يوسّع على الطالب طريق التعلم بالمطلق ومن ذلك أن لا يتأذى ممّن يقرأ عليه إذا قرأ على غيره[٤].

وأن ينزّه المعلم علمه عن جعله سلّماً يتوصل به إلى الأغراض الدنيوية من جاه أو مال أو سمعة أو شهرة أو خدمة أو تقدم على أقرانه[٥]. وأن يتنزّه عن دني المكاسب ورزيلها وعن مكروهها عادة وشرعاً كالحجامة والدباغة والصياغة وكذلك يتجنب مواضع التهم وإن بعد، ولا يفعل شيئاً يتضمن نقص مروءة أو ما يستنكر ظاهراً فإنه يعرّض نفسه للتهمة[٦] وإذا لم ينتفع العالم بعلمه فغيره أبعد عن الإنتفاع به «ويجب على المعلم أن يتقيد بما هو مرسوم له» ويقول ابن حجر: «أفتى بعض أكابر العلماء أن المدرس إذا ذكر الدرس في مدرسة قبل طلوع الشمس أو آخره إلى بعض الظهر لم يستحق معلوم التدريس ألا أن يقتضيه شرط الواقف بمخالفة العرف المعتاد

---

(١) العلموي: المعيد في أدب المفيد والمستفيد ص٥١.
(٢) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٥٢.
(٣) العلموي: المعيد في أدب المفيد والمستفيد ص٥٢.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) ابن جماعة: تذكرة السامع ص١٩.
(٦) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٢٠.

في ذلك»[١]. وعلى المعلم أو الشيخ مراقبة أحوال الطلبة في آدبهم وهديهم وأخلاقهم باطناً وظاهراً فمن صدر منه مكروه أو ما يؤدي إلى إفساد حال أو إساءة أدب في حق الشيخ أو غيره أو كثرة كلام بغير توجيه ولا فائدة أو معاشرة من لا تليق عشرته، عرض الشيخ بالنهي عن ذلك فإن لم ينته نهاه عن ذلك سراً أو يكتفي بالإشارة فإن لم ينته نهاه عن ذلك جهراً ويغلظ عليه القول ليزجره وغيره وليتأدب كل سامع فأن لم ينته فلا بأس حينئذ من طرده[٢]. هذه كانت حالة المعلمين حيال المتعلمين في العصر المملوكي الذين وجهوا لهم النصائح والطرق الصحيحة بالتدريس، والإرشادات التي لا تخلو من الشفافية في معاملتهم تجاه طلابهم، وهذا الجديد من الطرائف ضمن مناهج التعليم والأخلاق، قد خلقت جيلاً عمل في كل مجالات العلم والأدب والدين ولهم مؤلفات عديدة أغنوا مكتبات العالم شرقاً وغرباً.

٢ ـ آداب المتعلم مع المعلم بالعصر المملوكي:

على الطالب أن ينقاد لشيخه أو معلمه في أموره ولا يخرج عن رأيه وتدبيره بل يكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر فيشاوره فيما يقصد ويتحرى رضاه فيما يعتمده ويعلم إن ذلّه لشيخه عزّ وخضوعه له فخر وتواضعه له رفعة[٣].

وأن ينظر إلى معلمه بعين الإحترام والإجلال والإكرام ويعتقد فيه كمال الأهلية فإن ذلك ينفعه وكان بعض الطلاب إذا توجهوا إلى شيخهم قالوا: «اللهم استر عيب معلمي عني ولا تذهب بركة علمه مني»[٤].

وأن يصبر الطالب على جفوة تصدر من شيخه أو سوء خلقه ولا يصده ذلك عن ملازمته وحسن عقيدته... ويبدأ هو عند جفوة الشيخ بالإعتذار والتوبة مما وقع والإستغفار وينسب الموجب إليه والعتب عليه فإن ذلك أبقى لمودة شيخه وأحفظ لقلبه وأنفع للطالب في دنياه وآخرته[٥] وعن بعض السلف من لم يصبر على ذل التعليم بقي عمره في عماية الجهالة ومن صبر عليه آل أمره إلى عز الدنيا والآخرة.

وأن لا يدخل على الشيخ في غير المجلس العام إلا بإستئذان سواء كان الشيخ وحده أو كان معه غير، فإن استأذن ولم يأذن له أنصرف وإن أذن وكانوا جماعة تقدم أفضلهم وأسنهم للدخول ثم يسلم الأفضل فالأفضل[٦].

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة ج٢ ص٦٩. (٢) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٦١.
(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٨٧.
(٤) العلموي: المعيد في أدب المفيد والمستفيد ص٦٣ ـ ٦٤. ـ ابن جماعة: تذكرة السامع ص٨٨.
(٥) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٩١.
(٦) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٩٤. ـ العلموي: المعيد في أدب المفيد ص٦٦.

وعلى الطالب أن يجلس بين يدي الشيخ جلسة الأدب، بتواضع وخضوع وسكون وخشوع ويصغي إليه ناظراً إليه ويقبل بكليته عليه متعقلاً لقوله بحيث لا يحوجه إلى إعادة الكلام مرة ثانية ولا يلتفت من غير ضرورة ولا ينظر إلى يمينه أو شماله أو فوقه أو قدامه بغير حاجة ولا سيما عند بحثه له أو عند كلامه معه. ولا يضطرب لضجة يسمعها أو يلتفت إليها، ولا ينفض كميه ولا يحسر عن ذراعيه، ولا يضرب الأرض براحته ولا يشبك بيديه أو يعبث بأزراره، ولا يعطي الشيخ جنبه ولا يكثر كلامه من غير حاجة، ولا يحكي ما يضحك منه أو ما فيه بذاءة أو يتضمن سوء مخاطبة أو سوء أدب ولا يضحك لغير عجب، وإن كان ما يضحك فعليه أن يبتسم تبسم بدون صوت البتة[1].

وأن يحسن خطابه قدر الإمكان. ولا ينبغي للطالب أن يكرر سؤال ما يعلمه ولا إستفهام ما يفهمه فإنه يضيع الزمان وربما أضجر الشيخ، وأن لا يسبق الشيخ إلى شرح مسألة أو جواب سؤال منه أو من غيره ولا يظهر معرفته به أو ادراكه له قبل الشيخ، فإن عرض الشيخ عليه ذلك فلا بأس، وينبغي أن لا يقطع على الشيخ كلامه ولا يسابقه فيه بل يصبر حتى يفرغ الشيخ أو المعلم من كلامه عندئذ يتكلم، ولا يتحدث مع غيره والشيخ يتحدث معه[2]. وأن يكون ذهنه حاضراً وإذا ناوله شيئاً تناوله التلميذ باليمين وإذا تناول هو شيئاً تناوله باليمين[3].

وعندما استعرضنا آداب المعلم نحو طلابه وآداب الطلاب أمام معلميهم ما هو إلا شيء من الأحترام المتبادل الذي يحفظ لكل مكانته. فالطالب له واجباته نحو معلميه من اتباع الأصول وكيفية معاملة معلميه من حسن الآداب والتواضع والأخذ بما يمليه عليه معلموه من سماع الدروس وحفظها وكتابة الفروض ونسخها. وإذا قارناها في عصرنا الحديث لا تختلف بالجوهر ولكننا نقول أننا نعيش الماضي بأخلاقيته وحسن آدابه.

٣ ـ آداب الطالب في دروسه:

فهو يبتدىء أولاً بحفظ كتاب الله حفظاً متقناً فهو أصل العلوم وأهمها. وكان السلف لا يعلمون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن وإذا حفظه فليحذر من الإشتغال عنه بغيره من العلوم والحديث والفقه اشتغالاً يؤدي إلى نسيان شيء منه أو تعرضه للنسيان، بل يتعهد دراسته وملازمة وردٍ منه كل يوم أو أيام أو جمعة دائماً أبداً كما تقدم[4].

---

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٩٨. ـ العلموي: المعيد في أدب المفيد ص٦٧.
(٢) ابن جماعة: تذكرة السامع ص١٠٧.
(٣) العلموي: المعيد في أدب المفيد ص٧١. ـ ابن جماعة: تذكر السامع ص١٠٨.
(٤) العلموي: المعيد في أدب المفيد ص٧٣.

ويقول ابن جماعة: «ويجتهد بعد حفظه على اتقان تفسير سائر علومه لأنه أصل العلوم وأمها وأهمها»[١]. ثم يحفظ من كل فنٍّ مختصراً يجمع فيه بين طرفيه من الحديث وعلومه والأصوليين والنحو والتصريف ـ ويشتغل بشرح تلك المحفوظات على المشايخ وليحذر من الأعتماد في ذلك على الكتب أبداً[٢].

وأن يحذر في ابتداء أمره من الإشتغال في الإختلاف بين العلماء أو بين الناس مطلقاً في العقليات والسمعيات فإنه يحير الذهن ويدهش العقل بل يتقن أولاً كتاباً واحداً في فن واحد أو كتباً في فنون إن كان يحتمل ذلك على طريقة واحدة يرتضيها له شيخه فإن كانت طريقة شيخه نقل المذاهب والإختلاف ولم يكن له رأي واحد فليحذر منه فإن ضرره أكثر من النفع به، وكذلك يحذر من التنقل من كتاب إلى كتاب من غير موجب فإنه علامة الضجر وعدم الإفلاح[٣]. وعلى الطالب أن يذاكر بمحفوظاته ويديم الفكر فيها ويعتني بما يحصل منها من الفوائد. ويقسم أوقات ليله ونهاره ويغتنم ما بقي من عمره. وكان العلموي يقسم الوقت بالنسبة للطالب: «أجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الإبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل»[٤]. وحديث عن الرسول ﷺ: «بورك لأمتي في بكورها».

ثم تابع يقول: «وقت الجوع أنفع من وقت الشبع، وأجود أماكن الحفظ الغرف وكل موضع بعيد عن الملهيات، وليس بمحمود الحفظ بحضرة النبات والخضرة والأنهار وقوارع الطرق وضجيج الأصوات لأنها تمنع من خلو القلب غالباً»[٥].

ثم على الطالب أن يصحح ما يقرؤه قبل حفظه تصحيحاً متقناً أما على الشيخ أو على غيره مما يعنيه ثم يحفظه بعد ذلك حفظاً محكماً ثم يكرر عليه بعد حفظه تكراراً جيداً، ثم يتعاهده في أوقات يكررها لتكرار مواضيعه، ولا يحفظ شيئاً قبل تصحيحه لأنه يقع في التحريف والتصحيف، وينبغي أن يحضر معه الدواة والقلم للتصحيح وضبط ما يصحبه لغةً وإعراباً[٦].

وليحذر الطالب من نظر نفسه بعين الجمال والإستغناء عن المشايخ المدرسين فإن ذلك عين الجهل وقلة المعرفة وما يفوته أكثر مما حصله، ولا يزال الطالب عالماً

(١) ابن جماعة: تذكر السامع ص١٢٢ ـ ١١٣.
(٢) ابن جماعة: تذكرة السامع ص١١٤. ـ العلموي: المعيد في أدب المفيد ص٧٣.
(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع ص١٨٨ ـ ١١٩.
(٤) العلموي: المعيد في أدب المفيد ص٧٤.
(٥) المصدر نفسه ص٧٤ ـ ٧٥.
(٦) ابن جماعة: تذكرة السامع ص١٢٣ ـ ١٢٤.

ما تعلم فإذا ترك التعلم وظن أنه قد أستغنى أسوأ جهل ما يكون[١]. وأن يلزم حلقة شيخه في التدريس والإقراء بل وجميع مجالسه إذا أمكن فإنه لا يزيده إلا خيراً أو تحصيلاً وأدباً وتفضيلاً، ولا يقتصر في حلقة الدرس على سماع الدرس فقط بل يعتني بسائر الدروس المشروحة ضبطاً وتعليقاً ونقلاً وإن احتمل ذهنه ذلك ويشارك أصحاب الحلقة حتى كان كل درس منها له فإن عجز عن ضبطه جمعها أعتنى بالأهم فالأهم منها، وينبغي أن يتذاكر مواظباً مجلس الشيخ وما وقع فيه من الفوائد والقواعد فإن في المذاكرة نفعاً عظيماً[٢]. وإن لم يجد الطالب من يذاكره ذاكر نفسه بنفسه، وكرر معنى ما سمعه ولفظه على قلبه ليعلق ذلك على خاطره فإن تكرار المعنى على القلب بتكرار اللفظ على اللسان سواء بسواء.

وقد جرت العادة في مجالس التدريس بجلوس المتميزين قبالة وجه المدرس أو المبجلين من معيد أو زائر عن يمينه أو يساره وينبغي للرفقاء في درس واحد أو دروس أن يجتمعوا في جهة واحدة ليكون نظر المدرس إليهم جميعاً عند الشرح ولا يخص بعضهم في ذلك دون بعض. وإذا أساء بعض الطلبة أدباً على غيره لم ينتهره غير الشيخ والإنتصار بالنتيجة له وفاء لحقه[٣].

وينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكنه شراء وإلا فإجارة أو إعارة لأنها الة التحصيل، وإذا أمكن تحصيلها شراء لم يشتغل بنسخها ولا يمكن أن يشتغل بدوام النسخ إلا فيما يتعذر عليه تحصيله لعدم ثمنه أو أجرة استنساخه. وينبغي للمستعير أن يشكر للمعير ذلك ويجزيه خيراً، ولا يطيل مقامه عنده من غير حاجة بل يرده إذا قضى حاجته ولا يحبسه إذا طلبه المالك وأستغنى عنه، ولا يجوز أن يصلحه بغير إذن صاحبه[٤].

في آداب سكنى المدارس للطلاب والمدرسين

على الطالب أن يختار لنفسه من المدارس بقدر الإمكان ما كان الواقف أقرب إلى الورع وأبعد عن البدع، ووقفها من جهة أن يكون حلالاً وأن المعلوم الذي يتناوله مرفعاً عن الشبه والحاجة إلى الإحتياط في المسكن كالحاجة إليه في المآكل والملبس وغيره. ومهما أمكن التنزه عما أنشأه السلاطين من مدارس أنه قلّ أن يخلو جميع أعوانهم عن ظلم وعسف[٥].

---

(١) المصدر نفسه ص١٣٥.

(٢) ابن جماعة: تذكرة السامع ص١٤٣.

(٣) العلموي: المعيد في أدب المفيد والمستفيد ص٧٨.

(٤) ابن جماعة: تذكرة السامع ص١٦٨.

(٥) ابن جماعة: تذكرة السامع ص١٩٦.

قلت ولا ريب في أن بناء أكثر المدارس كان للشهرة العامة والمعرفة بين الخاصة والسطوة الكاملة للسلاطين والأمراء، وإن كانت الغاية من بنائها لحفظ الأديان ومكارم الأخلاق ونشر العلوم وإبقاء الفنون وترويج سنن الأولين وإقماع بدع الآخرين وتحفظ آداب أكابر الأمم وتعهد آثار السلف الصالح وإنشاء النشأة الجديدة في الخلف، فعلى العالم أن يتحرز زمن المدارس التي كان بناؤها على مظلمة أو خبث نية أو إظهار شوكة فيجب إجتناب الدخول على مثل هكذا مدرسة، بل يجب الدخول إلى مدارس فيها مدرسين ذات رياسة وفضل وعقل ومهابة وجلالة وعدالة ومحبة وعطف على الضعفاء يقرب المحصلين ويرغب المشتغلين ويعد اللفائين وينصف البحائين حرصاً على النفع مواظباً على الإفادة. قال أبو زكريا التبريزي: «كنت أقرأ على الخطيب بحلقته بجامع دمشق كتب الأدب وكنت أسكن منارة لجامع فصعد إليّ وقال أحببت أن ازورك فتحدثنا ساعة ثم أخرج ورقة وقال الهدية مستحبة اشتهر بهذه أقلاماً فإذا خمسة دنانير ثم صعد نوبة أخرى ووضع نحواً من ذلك»[1].

وينبغي للمدرس الساكن بالمدرسة أن لا يكثر البروز والخروج من غير حاجة، فإن كثرة ذلك يسقط حرمته من العيون، وينبغي أن يجلس كل يوم في وقت معين ليقابل معه الجماعة الذين يطالعون دروسه من كتبهم ويصححونها ويضبطون مشكلها ولغاتها. قال ابن خلكان[2]: «أبو الحسن السخاوي المقري النحوي وكان متعيناً، لا بيته بدمشق والناس يزدحمون عليه في الجامع الأموي، لأجل القراءة ولا يصح لواحد منهم نوبةً إلا بعد زمان ولم يزل مواظباً على وظيفته إلى أن توفي بدمشق سنة ٦٦٣هـ».

ونعلم أن المدرس كان يتنزه عن المعلوم قدر الإمكان وبموجب تعالي الدين، وبما أن أصبح التعلم حرفةً ولا عمل له غيره ليعيل من معلومه عياله لا بأس بأن يتقاضى من عمله أجراً «ومن أعجب أعمال العلماء إشتغالهم بالحرف والصناعات والتجارات مع الإعتناء الحقيقي بالإفادات العلمية والتعليمات الشرعية فطابت لهم هذه الأشغال الثنية وحسنت لهم المقامات العلية»[3].

وحذّر ابن جماعة الطلاب الذين يتنقلون من مدرسة إلى مدرسة والرجوع من أستاذ إلى أستاذ وترك بلدة وأختيار بلدة أخرى ومثل هذه الأمور كلها مشوشة لخواطر الطالبين وموحشة لأذهان المتوقدين ومهلكة لأوصاف الخائضين في العلم[4].

وأما إقامة الشيوخ الأساتذة في المدارس والزوايا المتصلة بها ليلاً ونهاراً

---

(١) التبريزي: تذكرة ج٣ ص٣١٥.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص٤٣٥.
(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٢١٠.
(٤) المصدر نفسه ص٢٢١ ـ ٢٢٢.

والمتعاهدين على أحوال الطلبة والمعيدين والمبتدئين جميعاً والملاحظين آداب المدارس العالية والمتوسطة والمكاتب الصغيرة والمثبتين بأصول الدين وأحكام الشرع والمعاونين للآخذين من سكان المدرسة خاصة والمتعلمين عامة في العلم والأدب والخلق وتزكية النفس ومحافظين على خدم المدرسة والمهتمين بها والناظرين إلى الخارجين والداخلين فيها والقائمين لحفظ العمارات والزوايا والأيوانات والجوامع وغيرها من الأوقاف والجرايات أمر عظيم تتحير به العقول وتتعجب منه النفوس[(١)].

ويحدثنا ابن بطوطة بهذا الموضع: «ويوجد مدارس لكل مذهب أيوان من المذاهب الأربعة ويكون موضع التدريس وجلوس المدرس في قبة خشب صغيرة على كرسي عليه البسط ويقعد المدرس وعليه السكينة والوقار لابساً ثياب السواد وعلى يمينه وعلى يساره معيدان يعيدان كل ما يمليه وهكذا ترتيب كل مجلس من المجالس الأربعة[(٢)]».

وكانت الطلبة تقيم إلى جانب المدارس بالحوانيت والزوايا المتصلة بالمدارس الكبيرة وهذه الزوايا كانت معمورة مزينة كدور الأقامات في المعالم الجديدة على نظم حسن وترتيب عجيب[(٣)].

وإلى جانب الطلاب كانت الشيوخ تقيم في المدارس مع التعهد على الفرائض العلمية والدينية والمنصبية. وقال ابن خلكان: «تولى العلامة ابن الصلاح التدريس بالمدرسة الناصرية بالقدس وأقام بها مدة وأشتغل الناس عليه وأنتفعوا به[(٤)]».

ومن الملاحظ أنه لم يكن هناك في العصور الوسطى حد فاصل بين العلماء المدرسين والعلماء الذين لم يتخذوا التدريس مهنة لهم، إذ كان الجميع يعملون بأجر أو تطوع لتثقيف الناس وتعليمهم، أما عن طريق حلقات تعليمية أو بتأليف الكتب ونشرها. وعلى هذا فستشمل دراستنا في هذا الفصل الصنفين معاً دون أن قصر حديثنا على أولئك الذين أتخذوا التدريس مهنة وصناعة.

عُني المسلمون بتلقي العم عن المدرسين عناية ملحوظة، وكرهوا كراهة شديدة أن يتلقى الطالب العلم عن الكتب وحدها، وكان بعضهم يقول: «من أعظم البلية تشيخ الصحيفة»[(٥)]. أي أن يتعلم الناس من الصحف.

---

(١) المصدر نفسه ص٢٢٤.
(٢) ابن بطوطة: رحلته ج١ ص١٦٧.
(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٢٢٦.
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص٣٩٣.
(٥) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم ص٨٧.

وورد في كتاب الشكوى[(١)]: «من لا شيخ فله فلا دين له، ومن لم يكن له أستاذ فإمامه الشيطان». وروي عن مصعب بن الزبير أنه قال: «إن الناس يتحدثون بأحسن ما يحفظون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويكتبون أحسن ما يسمعون، فإذا أخذت الأدب فخذه من أفواه الرجال فإنك لا تسمع إلا مختاراً ولؤلؤاً منثوراً»[(٢)].

وروي عن الإمام الشافعي قوله: «من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام»[(٣)].

وفي رسائل إخوان الصفا[(٤)]: «أنه ليس في وسع كل انسان معرفة العلوم في أول مرتباته ومن أجل هذا يحتاج كل إنسان إلى معلم أو مؤدب أو أستاذ في تعلمه وتخلقه وأقاويله وأعتقاده وأعماله وصنائعه».

ولا يكتفي ابن جماعة بأن ينصح الطالب بتلقي العلم عن مدرس بل يزيد على ذلك بأن ينصح الطالب أن يختار مدرساً يكون له مع من يوثق به من مشايخ عصره كثرة بحث وطول إجتماع، لا ممّن أخذ من بطون الأوراق. ولم يعرف بصحبة المشايخ الحذّاق[(٥)].

ـ وأن المسلمين أدركوا أن العلم وحده لا يكفي ليكون سلاح المعلم، وعرفوا أن لا بد من أن يضاف إلى العلم فن التربية، ليتمكن المدرس من دراسة نفسية الطفل، والنزول إلى مستواه، والإتصال العاطفي به ليكون ذلك جسراً يوصل خلاله العلم إلى عقل التلميذ. وقد عقد ابن خلدون[(٦)] فصلاً شرح فيه هذه النظرية وجعل عنوانه «فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع» وهو يقول فيه: «مما يدل على أن تعليم العلم صناعة إختلاف الإصطلاحات فيه؛ فلكل إمام من الأئمة المشاهير إصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها، فدل على أن ذلك الإصطلاح ليس من العلم وإلا لكان واحداً عند جميعهم... وملازمة المجالس العلمية، وكثرة الحفظ، والعناية بتحصيل العلم ليست جميعها بمانحة ملكة التصرف في العلم وتعليمه... ومن أهم ما يلزم في المعلم فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة، والعمل على تحصيل الملكة التي هي صناعة التعليم».

ـ وتحدث الشلبي أيضاً عن علاقة البيت بالمدرسة، وأهمية الدور الذي يلعبه

---

(١) كتاب لم يعرف مؤلفه نشر في: Journal Asiatique 1940, pp.284-285.
(٢) محي الدين بن العربي: محاضرات الابرار ص٣.
(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٨٧.
(٤) اخوان الصفا: ج٤ ص١٨.
(٥) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٨٧.
(٦) ابن خلدون: المقدمة ص٣٠٢ ـ ٣٠٩.

البيت ليترتب على ذلك نجاح الطالب: «فالطفل صورة عائلته فكل ما فيها من خير وشر، وكل ما رآه وسمعه ينطبع فيه، ولهذا كان جهد الأمهات من أهم الأمور في تربية الأبناء، ومن ربى ماله ولم يربِّ ولده فقد ضيع الولد والثروة»[١]. وتربية الفضائل لا يمكن أن تكتسب في المدارس بل يجب ممارستها مع الطفل من يوم يعي ويفهم الكلام، وأول من يطلب منهم القيام بهذه الوظيفة هم طبعاً الذين يعاشرون الطفل من نشأته معاشرة مستمرة. والذين يؤثرون عليه بأعمالهم وأقوالهم وسلوكهم، وقد عبر الزرنوجي[٢] أدق تعبير وأوجزه عن العلاقة التي يجب أن تقوم بين البيت والمدرسة بقوله: «يُحتاج في التعلّم إلى جدّ الثلاثة: المتعلم والأستاذ والأب».

والتربية الإسلامية التي عُني بها المسلمون ليست هي فقط العلم والتعلّم وإنما هي التربية بمعناها الحديث، أي أنها تشمل رياضة الجسم ورياضة النفس وكل ذلك قد احتوته هذه الدراسة.

ثم أصبح الفقهاء من المسلمين يصحبون الجيش الإسلامي أنّى يسير، فكان جيش المسلمين العرب كما يصفه Professor Gibb[٣] «ليس مجرد معسكر حربي وإنما كان مع ذلك مركزاً تنبعث منه الدعوة للدين الجديد» إلا أن هناك معلمين بالعصر المملوكي لم يكونوا معينين من قبل الدولة للقيام بعملهم وإنما كانوا يؤدون هذا العمل طلباً للثواب، وكان كثير منهم يسعون من تلقاء أنفسهم هنا وهناك حيث يجلسون لتثقيف الناس وتعليمهم. وأتخذ هؤلاء من المسجد في شتى البلاد الشامية مكانهم المختار فكانوا يجلسون فيه ويلتف حولهم الناس فيأخذون من علمهم ويستفيدون من ثقافتهم.

وكانت المساجد بدورها مفتوحة دائماً يقصدها من يأنس في نفسه الكفاءة لتعليم الناس، ولم يكن على المدرّس بطبيعة الحال أن يعلّم موضوعاً بذاته، بل كان يحظ الناس بما يعرف ويفتيهم ما أستطاع إلى ذلك سبيلاً، وقد ظلّ العلماء يقصدون المساجد ليؤدوا هذا العمل دون إنتظار من يحثهم على الذهاب، وظلّ الناس يلتفون حولهم ويأخذون عنهم، من غير أن تتدخل الحكومات في ذلك، فقد كان هذا العمل غير داخل في دائرة سلطاتها، فما دام العلم غير معين منها، وما دام لا يتقاضى من الدولة على عمله أجراً، فقد ترك له أن يدرس ما شاء ووقتما شاء.

وقد بدأ تدخل الحكومات في التعليم عندما أقترن القائمون بالأمر موضوع معيناً

(١) احمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٢١١.

(٢) الزرنوجي: تعليم المتعلم ص١٥.

(٣) Muhammadanism pp.4-5.

ليُدرس، أو عندما شيّدت الحكومات معاهد تعليمية فعينت لها المدرسين ونظمت لهم الأجور وبهذا بدأ تدخل الحكومات في التعليم. وهكذا فعل نور الدين بالشام وصلاح الدين والمماليك في مصر وبلاد الشام. فكل منهما أنشأ المدارس وحدّد لكل منها المذهب الفقهي الذي تسير الدراسة عليه، وعيّن لها أحد شيوخ هذا المذهب ليدرس بها. كما أنشأت الدولة المملوكية مدارس في بلادالشام لها إيوان أو أثنين أو ثلاثة أو أربعة منفصلة لتعقد فيه حلقات على المذاهب الأربعة وعينت لكل يوان شيخاً من شيوخ المذهب ليدرّس فيه فقه ذلك المذهب: «وعينت لكل شيخ من هؤلاء الشيوخ عدداً معيناً من الطلاب يتراوح بين خمسين وخمسة وسبعون، ورتبت الرواتب للمدرسين والطلاب»[1].

وينبغي أن يكون واضحاً أن تدخل الحكومات كان خاصاً بالمدرسين الذين عينتهم وحددت عملهم ودفعت لهم أجورهم، ولم يمس هذا التدخل آلاف المدرسين الذين ظلّوا يجلسون في المساجد ويفد إليهم لناس فيتعلمون منهم ويغترفون من علمهم وثقافتهم.

وهناك أمثلة ونماذج كثيرة لتراث ضخم يتحدث عن قدر العلماء ومكانتهم السامية، تدلّ بوضوح على المنزلة الرفيعة التي كان ينزلها في نفوس الناس هؤلاء العلماء المدرسون في العصر المملوكي وما قبل...

أما بالنسبة لمرتبات المدرسين إن كان بالعصر الأيوبي أو المملوكي لم يعد هناك مستوى منتظم، بل أصبحت هذه المرتبات تتأثر تأثراً واضحاً لظروف متعددة كمقدار الوقف على المدرسة، وكمكانة المدرّس وسمعته «ثم تأثرت بشكل خاص بالأخلاق التي أضطرب مستواها في هذه الفترة»[2] فإذا كان ولي الأمر كريماً أو عفيفاً أغدق على المدرسين، وإذا كان شحيحاً أو شرهاً قلّ المرتب الذي يمنحه للمدرسين مهما كان ريع الوقف أو شرط الواقف وأياً ما كان مركز المدرس العلمي، مما إنعكس سلباً على أوضاع بعض المدارس (كالصلاحية مثلاً) وأضطربت المعاليم تبعاً لذلك، فمرة تخلو من المدرسين ويكتفي فيها بالمعيدين ومرة يعين فيها مدرس بنصف المعلوم وأخرى يعين بها مدرس بربع المعلوم: وكان مرتب الأستاذ أو المدرس ١٠٠ دينار شهرياً مثله مثل قاضي القضاة وصل بهذه المدرسة إلى ٤٠ ديناراً شهرياً. وكانت الرواتب تتماشى مع ظروف الدولة الإقتصادية إذ كانت بحالة حرب مع الأعداء أو بحالة سلم.

(١) ابن العبري: ص٢٤٥.

Huda Bukhaah islamic civilization, p.287- p.288. k.

(٢) احمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٣٤٦.

مدرسو المدارس الدينية في بلاد الشام بالعصر المملوكي

١ ـ القضاء الأعلى La Magistrature suprême

هذه المؤسسة الأولى التي لها الأهمية الأولى والقصوى في مدينة إسلامية كدمشق في عهد وصلت أهميتها وأهمية الرجل المشرف عليها إلى شهرة لم يسبق لها مثيل. طبقاً للمقام الأعلى والسلطة مع أوسع صلاحياتها التي يتحلى بها هذا الرجل وهذه الصلاحيات تجعله بإتصال مباشر مع السلطا والوزير في عهد الأيوبيين والإمبراطورية الإسلامية في النصف الثاني من القرن السابع (هـ) / القرن الثالث عشر (م) عهد سلاطين المماليك الأولين.

فصلاحيات سلطة القاضي الأعلى لا تتوقف على الأمور الفردية كالزواج والإرث أكثر ما تتوقف على الأمور المدنية في المدينة في الشرع والعدل والقانون والخطر المداهم وفي أحلق ساعات الحسم.

فمقام القاضي الأعلى ووظيفته تشكلان رمزاً من رموز الحكم المدني والمركزي معاً تجعل منه صاحب السلطة الحقيقية والمدافع عنها. وعندما نتكلم عن القاضي الكبير أو عن القضاء الأعلى نتكلم عن المبادىء الأخرى الداخلة في القضاء الأعلى.

ففي دمشق مثلاً القضاء الأعلى متلاحم مع التغيرات السياسية التي حدثت في القرن السابع (هـ) / الثالث عشر (م) عندما تأسست السلطة الموحدة في دمشق ومصر وكان لها الأثر الكبير على القضاء في تلك العاصمة إبان هذا القرن. وفي نصفه الثاني أصبحت السلطة القضائية في رجل واحد القاضي الأعلى الشافعي ومساعديه النواب المنتمين إلى مذاهب أخرى والعارفين بأمور القضاء والحكم[١]. ويعتبر قاضي القضاة أعلى سلطة دينية وتعليمية في الدولة المملوكية.

إصلاحات بيبرس

وإبان حكم السلطان الظاهر بيبرس سنة ١٢٦٥/٦٦ طرأ تغيير في القضاء الأعلى

(١) لويس بوزا: الحياة الدينية في دمشق ص١٠٧ (مترجم مني).

Louis Pouzet: Vie et structures religieuses dans une métropole islamique p.107.

والذي كان يعطي المقام الأعلى والأولوية للطائفة الشافعية في القاهرة ودمشق على السواء. وهذا التغيير جرّد الشافعية من الهيمنة على القضاء فعين السلطان ثلاثة قضاة آخرين ينتمون إلى مذاهب سنية مختلفة: الحنفية والحنبلية والشافعية. فأصبح القاضي الأعلى واحد لا يجزأ من أربعة «Unus inter pares» نفس السلطة ونفس الصلاحيات.

الإصلاحات التي حدثت في عهد بيبرس سنة ١٢٦٥، حدثت أولاً في القاهرة حاضرة السلطة المركزية للمماليك ثم أعقبتها دمشق ونجهل تاريخ تطبيقها. إنما «ابن كثير» والمقريزي يقولون بأن الإصلاحات طبقت سوية في القاهرة ودمشق سنة ١٢٦٥. وأصل هذه الإصلاحات ترجع إلى الأمير الأيدوقحي الذي أشار إلى السلطان بيبرس بأن: «يعطي لكل مذهب قاضي يقوم بمهام السلطة في مذهبه». ويؤكد ذلك «ابن كثير» مدعوماً بابن السقاعي الذي عاش في دمشق وتوفي فيها. وكان معاصراً لبيبرس. إنما المحرض الأول والدافع إلى التغيير هو القاضي الكبير قاضي القاهرة «ابن بنت المعز» الذي نفخ في أذن الأمير اليدوقحي المقرب من السلطان والمسموع منه. وما كان من السلطان إلا الإنصياع الكامل لمشورة الأمير الذي يجد فيه الحلم وسداد الرأي.

فالقاضي الكبير في القاهرة ابن المعز كان يتمتع بحب الشعب أيضاً بالرغم من تزكر الأمير ايدوقحي ضده. ولكن معاصرو ابن المعز حملوا عليه باللائمة لأنه جمع كل السلطات بيده: كل الوظائف الأربعة عشر أحيطت بشخصيته والتزم بها. ابن كثير يتكلم عن ١٤ وظيفة وأهمها الوزارة. نظار الدواوين، مشيخة الشيوخ، تدريس الشافعي، وبالرغم من تأليب السلطان ضده فالسلطان كان ينظر إليه نظرة عطف واحترام. ذلك أن الوزير ابن حنية يخاف ابن بنت المعز لأنه كان ممسكاً بزمام الحكم.

والسؤال؟ لماذا بيبرس وزع القضاء الأعلى بين أربعة قضاة؟

الجواب: تقوية سلطته. والمثل القائل: «فرق تسد»

بدلاً من أن تكون السلطة الدينية متجسمة بالقاضي الأعلى الشافعي فرقها على جميع المذاهب، فكان للقرار صدى في دمشق أن المذهب الحنفي يسيطر كما يوجد المنصب المالكي والشافعي والحنبلي.

وهؤلاء كان يهمهم اللقب أكثر مما يهمهم الراتب والكثير منهم لقبوا بشمس الدين «Soleil de la religion»[1].

---

(١) لويس بوزا: الحياة الدينية في دمشق ص١٠٨.

Louis Pouzet: Vie et structures religieuses dans une métropole islamique. p.108.

ممارسة الوظيفة

من القضاة الأربعة كان ثلاثة منهم يلقبون «شمس الدين» ولكن كثرة النور خيم على سماء القضاء سحاب من العتمة والظلم. ومنذ اصلاحات ١٢٦٦م والقضاء يتخبط معها كما اصطدم معها شعب دمشق.

وهناك أقوال شعرية شعبية من كتاب التراجم لابن عساكر تخص أهل وشعب دمشق:

شيء غريب ظهر لشعب دمشق وكلما عيّن قاضي زادت الظلمة حلكة

أو بعبارات أخرى:

قضاتنا كلهم شمس ونحن لا نعرف نورها قابعين في العتمة

الدمشقيون متحيرون أمام العداء الهائل بين الحكام. وكل واحد منهم شمس... أما هم فقابعون في الظلمة الظلماء...[١].

وهكذا، ومنذ ١٢٦٦م قسمت السلطة القضائية إلى مذاهب أربعة تقليدية في الإسلام. وبقي الإسلام يتابع سيره في داخل كل مذهب بالرغم من هذا القرار السلطاني ضمن المذهب الشافعي المهيمن.

التعهد في القيام بالعمل

الحدث المهيب في دمشق هو: كلّما عيّن قاضي أعلى جديد يستقبله الدمشقيون بأبهة وجلال. وبعد أصلاحات بيبرس سنة ١٢٦٥م يأتي مرسوم من السلطان من القاهرة إلى دمشق بواسطة الجياد البريدية يحمل اسم القاضي الجديد. ويقرأ المرسوم في الجامع الكبير بعد صلاة الجمعة وتسمى «التقليد» على يمين شباك كما جرى مثلاً تتويج القاضي الكبير «إمام الدين القزويني» الواصل من القاهرة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م. ويقرأ المرسوم شخصية شافعية كبيرة في المدينة وهو إمام الجامع الكبير والخطيب المفوّه من أمثال الخطيب «شرف الدين أحمد الفزاري» ٧٠٥/ ٦٣٠هـ ـ ١٣٠٦/ ١٢٣٣م[٢].

التعليم والمدارس Cadres et Hommes d'enseignement

بغداد حملت لواء التعليم في عهد الخلفاء العباسيين وعصر الأمراء البويهيين بعد عهد الأمويين في الشام ودمشق.

كان التعليم وأغلب الأحيان ديني يقام في باحات الجوامع والمساجد.

---

(١) ابن عساكر: التراجم.

(٢) ابن عساكر: التراجم ص٢١٤ ـ ٢١٥.

ففي عهد المماليك شهدت المدارس نمواً سريعاً في القاهرة ودمشق. أقتصر التعليم الديني على الحديث والقرآن والفقه في الجامع كما في المدارس أما الآداب والفلسفة لا تدرس في المدارس. وفي دمشق كما في غيرها من العواصم الإسلامية العلاقة كانت متينة بين الجامع والمدرسة وبكل حي لم تر جامعاً إلا وبجانبه مدرسة[١].

والمدرسة التي عرفت شهرة واسعة في دمشق هي المدرسة «الغزالية» القديمة نسبة للإمام الغزالي مؤسسها. ويقول أبو شامة: «في هذا المضمار مشيراً بأن هذه المدرسة سميت أولاً «زاوية» كزاوية «الكتب» نظر المقدسي أو زاوية «الدهلوي»»[٢].

وكنيت هذه المدارس بإسم «المقصورة» اسم مكان في الجامع الكبير كمقصورة الهدير الشافعية ومقصورة شرق القبلي للحنفيين، كما أن هناك مدرسة بإسم «ماجد خاتون»[٣].

المقصورة هي بمثابة مدرسة صغيرة وتسمى «الحلقة» من أساتذة وطلاب جالسين على السجاد بشكل حلقة.

تمويل المدارس

يرجع الفضل إلى بعض المتمولين المحسنين للأوقاف. وإذا استثنينا بعد الأماكن البعيدة عن دمشق أو القاهرة كان التعليم يزاول في الجامع كالعادة القديمة التي يدرس علم الحديث والفقه.

وهنا نذكر على سبيل المثال «الشيخ الفقيه» كمال الدين مودود الشاغوري (٦١٢هـ/ ١٢١٥م) الذي كان يدرس الفقه في الجامع الكبير أمام مقصورة الوعظ كما كان يدرس كتاب «التنبيه» للشيرازي الإيراني الأصل والفقيه الشافعي توفي في بغداد (٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م).

وأشتهرت في هذا العصر في القاهرة كما في دمشق مؤسسات علمية مخصصة لعلوم الحديث سميت «بدار الحديث».

فالمدرسة إذاً لها الطابع الخاص المهم والأساسي في رفع العلوم الدينية في دمشق في العصر السابع الهجري والثالث عشر ميلادي. وأنتشرت هذه المدارس

---

(١) لويس بوزا: الحياة الدينية في دمشق ص١٥٠.

Louies Pouzet: Vie et structures religieuses dans une métropole islamique, p.150.

(٢) ابن عساكر: التراجم ص١٥٩.

(٣) ابن عساكر: التراجم ص٢١٨.

إنتشاراً سريعاً بعد وفاة نور الدين الزنكي سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م. فأصبح هذا العصر يسمى عصر «التألق العلمي».

وفي أواخر هذا العصر وصل عدد المدارس في دمشق يتجاوز المئة موزعة ما بين الجامع الكبير والقلعة وضواحي العاصمة. وأشهر هذه المدارس: القمرية - الجوانية الشافعية - المسمارية - الحنبلية - البدرية.

المسؤولون في المدرسة

عدا مؤسس البناء الواقف ثم يليه المدرس المهتم بالتعليم وهو المعلم الأول، ثم الناظر. المدرس لا يهتم بالتعليم فقط بل بالتوجيه الأخلاقي.

المدرسة هي مرتع الصداقة:

ولما يقول أبو شامة: «لم أجد أبداً صديقاً أقرب إليّ مثل الذي وجدته في المدرسة ولم أعرف معنى للهم عند لقائه وإذا وجد الهم فعند لقائه يزول»[(١)].

وعلينا أن ندرك بأن المدارس كانت أساس للتعليم الديني في دمشق في القرن السابع الهجري، لقد تعددت هذه المدارس وتكاثرت بشكل ملحوظ بعد موت نور الدين. لقد زاد عدد المدارس المالكية ثلاثة أضعاف، كما زادت أربعة أضعاف للشافعية والحنابلة لدرجة بأننا نستطيع أن نقول بأن القرن السابع الهجري قد وصل إلى أعلى قمة من التقدم في المجال العلمي في دمشق، ويجدر بنا الذكر بأن هذا التقدم حصل في أواخر القرن السادس وبداية القرن السابع الذي يتطابق مع نهاية العصر الأيوبي. وكل مدرسة لها مذهبها بهذا العصر بإستثناء مدارس الحنابلة التي تأسست في الربع الأخير من القرن السابع الهجري وتابع «لويس بوزا»[(٢)]: وأولى المدارس الموجودة خارج المدينة هي المدرسة السديرية الحنفية وعلى سبيل المثال بأن المدارس زاد عددها بشكل ملحوظ ففي أيام نور الدين كان عدد المدارس في دمشق ٢٠ مدرسة فوصل عددها أيام المماليك وبتاريخ سنة ١٢٧٤م إلى ٩٠ مدرسة. وكما يقول سوفاجيه أن عدد المدارس النهائية في دمشق قد وصل إلى مئة مدرسة في نهاية القرن الثالث عشر.

وكما قال «بوزا» كانت المدرسة الأولى رمزية متصلة بالجامع الكبير وفيما بعد تعدّت الجامع لتصبح بين الجامع والقلعة ثم انتشرت إلى أسوار المدينة لتحتل الضواحي الشمالية والجنوبية للمدينة الجديدة والقديمة. وكان لهذه المدارس أوقاف

(١) ابن عساكر: التراجم ص٣٧ - ١٠٦.
(٢) ابن عساكر: التراجم ص١٥٧.

متعددة يحددها الواقف الذي بدوره يلعب دوراً أساسياً لتأمين الوقف، عدا ذلك كان عليه أن يحدد فيها التوجيه التربوي، وعند تدشين كل مدرسة فعلية أن يقرأ شروطه بكتاب الوقفية. ثم يخصص مكاناً خاصاً ليقوم بعملية الإشراف التنظيمي. وأحياناً تقع المدرسة بعجز مادي لم تستطع أن تفي حاجة الموظفين فيها كالمدرسة AlGarachiyya ولكن الذي ينقذ هذه المدارس من الإفلاس والعجز هو مساعدة الأثرياء لها لتبقى مستمرة في عملها التربوي. بالإضافة إلى العاملين في المدرسة هناك وظيفة المحتسب الذي يلعب دوراً لتأمين تغطية النفقات في المدرسة وكل مدرسة فيها محتسب يعنيه الواقف ليجمع أموال الوقف المخصص لهذه المدرسة ويوزعه بموجب شروط الواقف.

وكان المدرس يعتبر على اللائحة الأولى بين العاملين في المدرسة وله مهمتان:

الأولى: مهمة إدارية

الثانية: مهمة التعليم الديني، من قرآن وحديث وفقه.

وكان المدرس يتقاضى راتباً ثابتاً وكان يحق له أن يعلم بمدارس بالإضافة إلى مدرسته. وكان يجوز له أن يعلم بغير إختصاصه (معلم الفقه محل معلم الحديث) وكان في المدرسة أحياناً مدرسون زائرون أو موقتون أعطوا دروساً مهمة مثل الكندي الذي جاء زائراً من بغداد إلى دمشق[(١)].

وغالباً ما يحتدم الصراع بين المعلمين أنفسهم ليحظوا بالتعليم في المدرسة مثل الصراع الذي حدث بين ابن خلكان وLes Banu Saniad Dawla[(٢)] علماً أن المدرسين لم يتمتعوا بنفس الشهرة وليس لهم نفس المواظبة على العمل. كما أن قسماً كبيراً من الأساتذة والطلاب يهملون المدارس أثناء القطاف والحصاد ليجنوا دخلاً يساعدهم في الحياة الإجتماعية[(٣)].

لم تكن المدارس في ذلك العصر «أي العصر المملوكي»لتوزيع المعرفة العلمية والدينية بل كانت مكاناً لسكن الطلاب الوافدين من القرى أو من بلاد بعيدة بالإضافة إلى سكن المدرسين، وكانت مكاناً للعبادة يقيموا فيها الصلاة وفيها إمام يؤم المصلين. وكانت المدارس تخلق جواً من الصداقة والإحترام المتبادل أثناء تواجدهم في أجوار الدراسة. وكان علم القرآن والحديث كان يدرسا شفهياً وبدون كتابة.

---

(١) لويس بوزا: الحياة الدينية في دمشق ص١٥١.

Louies Pouzet: Vie et structures religieuses dans une métropole islamique. p151*

(٢) لويس بوزا: الحياة الدينية في دمشق بالقرن السابع الهجري ص١٥١.

(٣) المصدر نفسه ص١٦٤ ـ ١٦٥.

وعندما دعت الضرورة لكتابة الحديث والقرآن والفقه أنتشهرت المكتبات وكثرت الكتب وأبدع المؤلفون[١]. وزاد عدد المتعلمين والمعلمين.

أ ـ مدرسو دور الحديث الشريف في دمشق به

وإذا ما تكلمنا عن مدرسي المدارس الدينية لا بدّ من الكلام عن مدرسي دور الحديث الشريف لأنه أساس علم الأصول بعد دور القرآن.

١ ـ مدرسو (دار الحديث الأشرفية):

في سنة ثمان وعشرين وستمائة للهجري ومنها أمر الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل[٢] بعمل دار الأمير قايماز دار حديث وجعل شيخها الشيخ الأول.

١ ـ تقي الدين بن الصلاح شيخاً عليها[٣]: ووقف عليها الأوقاف. ومن شرط الملك الأشرف في الشيخ أنه إذا إجتمع من فيه الرواية، ومن فيه الدراية قدّم من فيه الرواية. والشيخ تقي الدين بن الصلاح المذكور هو الإمام العلامة مفتي الإسلام أبو عمرو عثمان بن الشيخ الإمام البارع الفقيه المفتي صلاح الدين بن القاسم. . . الكردي الشهرزوري.

٢ ـ المدرّس شهاب الدين أحمد بن الفقيه العفيف محمد بن عمر الصقلي[٤] ثم الدمشقي الحنفي ـ إمام مسجد الرأس، وهو آخر من حدث عن ابن الصلاح في الأشرفية وتوفي سنة خمس وعشرين وسبعمائة للهجري عن عمر ناهز الثمانون سنة وثلاثة أشهر. ثم ولي بدار الحديث المذكور.

٣ ـ الشيخ الإمام العالم القاضي خطيب الشام عماد الدين أبو الفضائل. . . ابن ابي الفضل الأنصاري الخزرجي الدمشقي ابن الحرستاني ولد في شهر رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة بدمشق وسمع من والده ومن الخشوعي[٥] وابن عساكر، وحنبل[٦].

وأشتغل على أبيه في المذهب وبرع فيه، وتقدم وأفتى وناظر ودرّس وناب عن أبيه في الحكم وأشتغل بالقضاء ودرّس بالغزالية، وباشر الخطابة مدة. وكان من كبار

---

(١) المصدر نفسه ص١٦٩.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص١٧٥.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٢١.

(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٧.

Louis Pouzet: Uie et structures religieuses dans une métropole islamique. p.169.

(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٠٧.

(٦) المصدر نفسه ص٢٦.

الأئمة وشيوخ العلم، وولي مشيخ الأشرفية بعد ابن الصلاح فباشرها إلى أن توفي بدار الخطابة في التاسع والعشرين من جمادي الأولى سنة اثنتين وستين وستمائة. ودفن مع أبيه بسفح قاسيون. ثم ولي دار الحديث.

٤ ـ شهاب الدين أبو شامة. وقال تلميذه ابن كثير: «في سنة خمس وستين وستمائة وفي جمادي الآخر منها درّس الشيخ شهاب الدين أبو شامة عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي بدار الحديث الأشرفية بعد وفاة عماد الدين بن الحرستاني الخزرجي وحضر عنده القاضي شمس الدين بن خلكان وجماعة من الفضلاء والأعيان»[١]. ولد بدمشق في سنة تسع وتسعين وخمسمائة وختم القرآن وله دون عشر سنين وسمع الكثير من الشيخ الموفق[٢]. وكتب الكثير من العلوم وأتقن الفقه ودرّس وأفتى وبرع في فن العربية وولي مشيخة القراءة بالتربة الأشرفية ومشيخة الحديث بالدار. وكان متواضعاً وطرحاً للتكلف قرأ عليه القرآن جماعة توفي سنة خمس وستين وستمائة هجري[٣].

٥ ـ ثم ولي بعده سنة خمس وستين وستمائة المذكورة الإمام العلامة ولي الله شيخ الإسلام الفقيه الزاهد الحافظ محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن حسن بن حسين. . . ابن حزام الحزامي النواوي[٤] ثم وليها بعده.

٦ ـ الشيخ زين الدين أبو محمد عبدالله بن مروان بن عبدالله بن قيراني الحسن الفارقي[٥] خطيب دمشق ومدرس الشامية والناصرية الجوانية ولد في محرم سنة ثلاث وثلاثين وستمائة وسمع الحديث، وأشتغل وأفتى مدة طويلة ودرّس في عدة مدارس. قال الذهبي: في معجمه كان عارفاً بالمذاهب وبجملة حسنة في الحديث، وله سطوة على الطلبة وفيه تعبد وحسن معتقد وهو الذي عمر دار الحديث هذه بعد خرابها في فتنة قازان وقد باشرها سيماً وعشرين سنة بعد النواوي إلى حين وفاته سنة ٧٠٣هـ[٦]. ودفن بالصالحية بتربة أهله.

٧ ـ وقد أستقرت دار الحديث بعد الفارقي لصدر الدين بن الوكيل الذي توفي سنة ٧١٦هـ[٧] وهو الشيخ الإمام العلامة ذو الفنون أبو عبدالله محمد. . . ابن زين الدين عمر المعروف بابن الوكيل شيخ الشافعية في زمانه وأشهرهم في وقته بالفضيلة

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص٢٤٨.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٨٨.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٩.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٠٤.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٨.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٠.
(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٤٠.

وكثرة الإشتغال والمطالعة والتحصيل. ولد بدمياط سنة خمس وستين وستمائة وسمع الحديث على جماعة من المشايخ من ذلك مسند أحمد علي بن علان والكتب الستة[١]. وكان يتكلم على الحديث بكلام مجموع من علوم شتى من الطب والفلسفة وعلم الكلام وليس ذلك بعلم، وعلم الأوائل[٢].

وقال ابن كثير في هذه الترجمة: «في سنة ست عشرة وسبعمائة توفي ابن الوكيل وكان يكثر الشعر ويقوله جيداً وله ديوان يشتمل على أشياء لطيفة كما علم فيها وبالغزالية علم الدين السبكي سنة ٧٣٠هـ[٣].

٨ ـ وقال النعيمي في سنة ست عشرة وسبعمائة وفي يوم الخميس سادس عشر شعبان باشر الشيخ كمال بن الزملكاني مشيخة دار الحديث الأشرفية عوضاً عن ابن الوكيل وأخذ بالتفسير والحديث والفقه، فذكر من ذلك دروساً حسنة ثم لم يستمر فيها سوى خمسة عشر يوماً حتى أنتزعها منه كمال الدين بن الشريشي[٤].

٩ ـ وفي سنة ست عشرة وسبعمائة وفي يوم الأحد ثامن شهر رمضان باشر الشيخ كمال الدين بمذهب الشافعي فبرع وحصل علوماً كثيرة وكان خبيراً بالكتابة، وسمع الحديث ورحل وكتب الطباق بنفسه، وحدث عن النجيب[٥] وأفتى ودرس وباشر وناظر عدة مدارس ومناصب.

١٠ ـ ثم جاء عمدة الحفاظ وأعجوبة الزمان جمال الدين يوسف بن الزكي[٦]... القضاعي الحلبي الدمشقي ميلاده سنة أربع وخمسين وستمائة قرأ الفقه على مذهب الإمام الشافعي وبرع في التصريف واللغة ثم شرع في طلب الحديث بنفسه وله عشرون سنة. ثم ولي بعده مشيخة دار الحديث.

١١ ـ الشيخ الإمام الفقيه المحدث الحافظ المفسر المقري الأصولي المتكلم النحوي اللغوي الحكيم الأديب المنطقي الجدلي الخلافي النظار شيخ الإسلام وقاضي القضاة، تقي الدين أبو الحين علي بن القاضي زين الدين أبي محمد السبكي الأنصاري الخزرجي[٧] ولد سنة ثلاث وثمانين وستمائة وتوفي في جمادي الآخرة سنة ست وخمسين وسبعمائة[٨].

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٦٩.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٢.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١٤٨.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٤.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٣٦.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٦ ـ ٢٧.
(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص١٨٠.
(٨) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٧.

وهذا آخر ما انتهى إلينا فمن ولي مشيخة دار الحديث هذه على لترتيب ثم وليها جماعات لم أتحقق الترتيب بينهم فمنهم الحافظ العلامة عماد الدين أبو الفدا أسماعيل... القرشي البصروي الدمشقي ميلاده سنة إحدى وسبعمائة. ثم توفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية. ومنهم العلامة قاضي القضاة تاج الدين ابو نصر عبد الوهاب... ابي الحسن الأنصاري الخزرجي السبكي ميلاده ثمان وعشرين وسبعمائة. ومنهم قاضي صدر مصر والشام بهاء الدين أبو البقاء محمد بن القاضي الخزرجي السبكي المصري الدمشقي مولده سنة سبع وسبعمائة وتفقه على قطب الدين السنباطي وقرأ الأصول على جده صدر الدين ثم على ابن عم ابيه شيخ الإسلام السبكي. ثم ولي قضاء الشام، وقدمها في أوائل سنة سبع وخمسين قاضياً ومدرساً بالغزالية والعادلية والناصرية وشيخاً بدار الحديث الأشرفية. ثم وليها ولده قاضي القضاة ولي الدين أبو ذر عبدالله وولد في سنة خمس وثلاثين وسبعمائة وأفتى ودرّس بالشامية والرواحية والأتابكية والقيمرية وولي وكالة المال ثم ولي القضاء والخطابة ومشيخة دار الحديث إلى أن توفي سنة خمس وثمانين وسبعمائة ودفن عند والده بتربة السبكين بالسفح[(١)].

ومنهم الإمام العلامة الفقيه المحدث المفسر الواعظ زين الدين أبو حفص عمر بن مسلم... القرشي الملحي[(٢)]. ولد سنة أربع وعشرين وسبعمائة وأشتغل في الفقه والحديث كان شجاعاً كثير المساعدة لطلبة العلم يقول الحق من غير مداراة ولا محاباة. وملك من نفائس الكتب شيئاً كثيراً. وتوفي معتقلاً بقلعة دمشق سنة اثنتين وتسعين وسبعمائة ودفن بالقبيبات[(٣)].

وأستقر أخيراً الشيخ علاء الدين بن الصيرفين[(٤)] في مشيخة دار الحديث الأشرفية وتفرقت بقية جهاته ولم يحصل لأحد من الطلبة منها شيء. والشيخ علاء الدين هذا هو العلامة الفقيه علي بن عثمان... الدمشقي الشافعي. ميلاده سنة ثمان وسبعين وسبعمائة هـ، لقد سمع من البدر بن قوام بعض الموطأ[(٥)] روية ابن مصعب. وله مؤلفات منها كتاب (الوصول لما وقع في الرافعي من الأصول)، (وشرح المنهاج للنواوي) وقد درّس في دار الحديث هذه وكان صالحاً متواضعاً توفي بدمشق سنة أربع

(١) المصدر نفسه ص٢٨، ٢٩، ٣٠.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٣٢٣.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٢.
(٤) المصدر نفسه ص٣٣.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٣٨.

وأربعين وثمانمائة ودفن بمقبرة باب الصغير[١]. هؤلاء مدرسو دار الحديث الأشرفية.

٢ ـ مدرسو (دار الحديث البهائية):

لقد ولي التدريس فيها:

١ ـ الشهاب الأذرعي هو أول من قام بالتدريس فيها كما قال الحافظ برهان الدين الحلبي[٢]. مولده سنة ثمان وسبعمائة بأذرعات ونشأ بدمشق وسمع علي القاسم بن عساكر وأحمد بن الشحنة[٣]. وكانت وفاته سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة ثم درس بالمدرسة البلدقية قرب الكلاسة وبالمدرسة الظاهرية وبالمدرسة الأسدية وبدار الحديث البهائية.

٢ ـ ثم ولي مشيختها السيد شريف المؤلف شمس الدين أبو المحاسن ويقال أبو عبدالله الحسيني الدمشقي[٤] ميلاده سنة خمس عشرة وسبعمائة. وقال النعيمي: جمع أشياء مهمة في الحديث، وكتب أسماء رجال مسند أحمد، وولي مشيخة دار الحديث التي وقفها في داره بهاء الدين[٥]. ومن مؤلفاته (اختصار الأطراف للمزي) و (كتاب رياض الزاهدين في مناقب الخلفاء الراشدين) وكتاب (العرف الذكي في النسب الزكي) و (ذيلاً على العبر) ثم قد توفي في شعبان سنة خمس وستين وسبعمائة ودفن في قاسيون[٦].

٣ ـ مدرسو (دار الحديث الحمصية):

١ ـ أول من درس بها الحافظ صلاح الدين العلائي. وفي كتاب الدارس: في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة درس العلائي بحلقة صاحب حمص بحضرة القضاة فأورد درساً باهراً نحو ستمائة سطر. وقال تلميذه ابن كثير في تاريخه سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وفي يوم الأربعاء ثاني المحرم درّس بحلقة صاحب حمص الشيخ الحافظ صلاح الدين العلائي[٧]. ولد في سنة أربع وتسعين وستمائة ثم أنه سمع صحيح البخاري على ابن مشرف[٨] ومن تصانيفه أيضاً كتاب (النفحات القدسية) في مجلد كبير يشتمل على تفسيرات آيات وشرح أحاديث وكتاب (الأربعين في أعمال المتقين) في ستة وأربعين جزءاً و (برهان التيسير في عنوان التفسير)..

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٦.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٢٣٧.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٩٣.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٢٠٥.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٥.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١٣٢.
(٨) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص١٦.

وألف كتباً كثيرة لا داعي لذكرها. ثم إنتقل لتدريس المدرسة الصلاحية بالقدس سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، وتولى مشيخة دار الحديث السيفية بالقدس. وتقل عنه بخطه خطبة أنشأها لدرس الحديث بحلقة صاحب حمص وهي قوله: «الحمد لله الذي رفع متن العلماء وجعل لهم من لدنه سنداً، وأبقى حديثهم الحسن على الإملاء أبداً، وأمدهم بمتابعات كرمه المشهور بوصل ما كان مقطوعاً وأعزّ من كان مفرداً، وحمى ضعيف قلوبهم من الإضطراب حتى غدت ثابتة الأفكار، وأطاب بألسنة الأقلام وأفواه المحابر مشابهة ثنائهم المسموع، وجعل شرفهم موقوفاً عليهم وشرف من عداهم من جملة الموضوع، أنهم في فضل الدنيا والآخرة نعم السادة الأفراد[١].

وفي سنة إحدى وستين وسبعمائة مات شيخاً خليل بن كيكلدي العلائي عن سبع وستين سنة وكان إماماً في الفقه والنحو والأصول، مفتناً في علوم الحديث ومعرفة الرجال علامة في المتون والأسانيد ومصنفاته تنبيء عن إمامته في كل فن[٢].

٢ ـ علي بن أيوب بن منصور الشيخ الإمام علاء الدين المقدسي الشافعي معيد المدرسة الباذرانية ودرّس بالأسدية وبحلقة صاحب حمص، وسمع من الفخر ابن البخاري وعبد الرحمن الزين[٣] وحدث بدمشق والقاهرة، وكتب بخطه المليح في أول أمره كثيراً من كتب العلم، ولما بيعت في حياته تغالى الناس فيها لصحتها، وكان قد عني بالحديث، وقرأ بنفسه وحرّر وجود الألفاظ وضبطها ـ ثم أنه سكن القدس بآخره وقاسى فقراً شديداً وفاقه وتوفي بالقدس سنة ثمان وأربعين وسبعمائة في شهر رمضان[٤].

٤ ـ مدرسو (دار الحديث الدوادارية والمدرسة والرباط):

١ ـ أول من ولي مشيخة هذا الدار الشيخ علاء الدين بن العطار وحضر عنده القضاة والأعيان وعمل لهم ضيافة. وهو كما قال الصلاح الصفدي في وافيه: علي بن إبراهيم بن داود الشيخ الإمام المفتي علاء الدين أبو الحسن ابن العطار الطبيب الشافعي شيخ دار الحديث النورية ومدرس القوصية والعلمية[٥]. ولد يوم عيد الفطر سنة أربع وخمسين وستمائة وتوفي في سنة أربع وعشرين وسبعمائة وحفظ القرآن وسمع من ابن عبد الدائم وابن ابي اليسر[٦]. وعبد العزيز بن عبدالله والجمال

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٧ ـ ٤٨.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٤٠٨.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٩.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٢.
(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٣٨.

الصيرفي[١]. ومحمد بن عمر[٢]. وسمع بمكة من يوسف ابن اسحاق الطبري وابي اليمن بن عساكر[٣].

ومن تصانيفه (شرح العمدة) ومصنف (في فضل الجهاد) وآخر في (حكم البلوى وابتلاء العباد) وآخر (في حكم الأخبار والإحتكار عند فقد غلاء الأسعار). وممن درس بهذا الدار بعده.

٢ ـ الشيخ الكبير ابي بكر بن قوام بن علي البالسي الأصيل الدمشقي المعروف بابن قوام[٤]. «ولد في شهر رمضان سنة سبع عشرة وسبعمائة وسمع من جماعة وتفقه ودرّس بالناصرية البرانية مدة سنين بعد أبيه، وبالرباط الدواداري داخل باب الفرج وكان يحب السنّة ويفهمها جيداً توفي في ربيع الآخر سنة خمس وستين وسبعمائة ودفن بسفح قاسيون بزاويتهم»[٥].

٥ ـ مدرسو (دار الحديث السامرية):

وممن وُلي مشيختها الشهاب بن قوام قال الشيخ عبد القادر النعيمي في الدارس في جمادي الآخرة سنة خمس وعشرين وثمانمائة شهاب الدين أحمد بن علاء الدين علي بن قوام الشافعي، حفظ المنهاج للنواوي وطلب الحديث وأفتى وولي مشيخة الحديث بالسامرية قبل الفتنة ثم أنه أصابه وجع في صلبه وأقعد وأفتقر وصار يشهد وتُلُلِّم في شهادته، وكان حسن المحاضرة له عقل جيد، توفي في يوم الأحد السادس وعشرين رجب سنة التاريخ المتقدم ودفن بالروضة رحمه الله تعالى[٦].

٦ ـ مدرسو (دار الحديث السكرية):

١ ـ وقد تولى مشيختها الشيخ الإمام العالم الفقيه شهاب الدين عبد الحليم ـ ابن تيمية ـ الحراني[٧]. (في سنة اثنتين وثمانين وستمائة قال ابن كثير لوالد شيخنا العلامة العالم تقي الدين بن تيمية مفتي الفرق، والفارق بين الفرق).

٢ ـ ثم قال النعيمي بالدارس في سنة ثلاث وثمانين وستمائة وفي يوم الإثنين ثاني محرم منها درّس الشيخ الإمام العالم العلامة تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٦٣.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٩٣.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٩٥.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٤.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه ص٥٦.
(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٧٦.

الحليم بن تيمية الحراني بدار الحديث السكرية التي بالقصاعين[١]د وحضر عنده قاضي القضاة بهاء الدين يوسف الشافعي والشيخ زين الدين بن المرحل والشيخ زين الدين المنجا الحنبلي[٢] وكان درساً هائلاً أطنب الحاضرين في شكره على حداثة سنه وصغره، كان عمره إذ ذاك اثنا وعشرون سنة، ثم جلس الشيخ تقي الدين كان والده بالجامع الأموي بعد صلاة الجمعة لتفسير القرآن وكان يجتمع عنده الخلق الكثير والحجم الغفير، ومن كثرة ما كان يورد من العلوم المتنوعة المحررة مع الديانة والزهادة والعبادة، سارت بذكره الركبان في سائر الأقاليم والبلدان وأستمر على ذلك مدة سنتين متطاولة[٣]. ومات بدمشق في القلعة معتقلاً سنة ثمان وعشرين وسبعمائة وأخرج إلى جامع البلد وكان الجمع أعظم من جمع الجُمع.

٣ ـ ثم جاء الحافظ بن عبدالله الذهبي وهو محمد بن أحمد بن قايماز الدمشقي الشافعي وهو الإمام العلامة شيخ المحدثين قدوة الحفاظ والقراء مؤرخ الشام ومفيده شمس الدين ولد سنة ثلاث وسبعين وستمائة بدمشق وجمع القراءات السبع على الشيخ أبي عبدالله بن جبريل المصري نزيل بيت المقدس، ونظم حرز الأماني لأبي محمد القاسم الشاطبي[٤] وعني بالحديث من سنة أثنين وتسعين وهلم جرّا. . . فسمع من أحمد بن عساكر[٥] صحيح مسلم ومن الإمام مالك الموطأ[٦]. وصنّف الكتب المفيدة (تاريخ الإسلام عشرين مجلداً) و (ميزان الإعتدال في نقد الرجال) مجلدين و (طبقات الحفاظ) مجلدين. وولي مشيخة الظاهرية قديماً ومشيخة المدرسة النفيسية والفاضلية والسكرية هذه. ولم يزل يكتب ويحاضر ويصنف حتى أضرّ في سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ومات سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ودفن بمقبرة الباب الصغير بدمشق رحمه الله[٧].

٤ ـ ثم ولي مشيخة السكرية هذه بعده الصدر السالكي سنة تسع وأربعين وثمانمائة. والإمام صدر الدين سليمان بن عبد الحكيم المالكي مدرس المدرسة الشرابيشية وشيخ السكرية. وكان مولده سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ووفاته يوم الأحد خامس جمادي الآخرة سنة تسع وأربعين وثمانمائة ودفن بالشرابيشية[٨].

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٦.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٤٣٣.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٥٧.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٣٠١.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٤٤٥.
(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج١ ص٢٨٩.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٦٠.
(٨) المصدر نفسه.

٧ ـ مدرسو (دار الحديث الشقيشقية):

يقول النعيمي: «لم أقف على أحد وُلي مشيختها»[١].

٨ ـ مدرسو (دار الحديث العروية):

١ ـ أول من وُلي مشيخة هذه الدار الفخر بن عساكر أبو منصور الدمشقي.

قال النعيمي في الدارس في سنة عشرين وستمائة: «فخر الدين بن عساكر عبد الرحمن بن محمد ابن عساكر الدمشقي شيخ الشافعية إشتغل منذ صغره بالعلم على شيخة قطب الدين النيسابوري وتزوج بابنته ودرّس مكانه بالمدرسة الجاروخية، ثم وُلي تدريس الصلاحية الناصرية بالقدس الشريف ثم تولى التدريس بالمدرسة التقوية وكانت الفتاوى تفد إليه من كل الأقطار، وكان يحضر مشيخة دار الحديث النورية، ومشهد ابن عروة. (وكان كثير الورع وافر التواضع، كثير التهجد قليل الهجوع، مبرزاً في علم الأصول والفروع جمعت له العلوم والزهاد وعليه تفقهت فأحرزت الإفادة)[٢].

٢ ـ ثم وليها بعده الحافظ الرحال زكي الدين أبو عبدالله البرازلي. مولده تقريباً سنة سبع وسبعين وخمسمائة. قدم دمشق سنة خمس وستمائة. وقد وُلي مشيخة مشهد عروة ولم يفتر عن السماع، حدث بالكثير وتوفي سنة ست وثلاثين وستمائة.

٣ ـ قال ابن كثير في تاريخه سنة ثمان وثمانين وستمائة: الشيخ فخر الدين أبو محمد عبد الرحمن ابن يوسف البعلبكي الحنبلي شيخ دار الحديث النورية ومشهد ابن عروة وكان يفتي ويفيد الناس مع ديانة وصلاح وعبادة ولد سنة إحدى عشرة وستمائة وهذا آخر من وُلي مشيختها[٣].

٩ ـ مدرسو (دار الحديث الفاضلية):

١ ـ لعل أول من درس بها التقي اليلداني[٤].

قال النعيمي في سنة خمس وخمسين وستمائة: «وبها توفي الشيخ تقي الدين عبد الرحمن بن أبي الفهم اليلداني في ثامن شهر مشتغلاً بالحديث سماعاً وكتابةً وأسماعاً إلى أن توفي وله من العمر مائة سنة، قلت وأكثر كتبه ومجاميعه التي بخطه موقوفة بخزانة الفاضلية في الكلاسة. ثم وليها بعده النجم أخو البدو وكان شيخ

---

(١) المصدر نفسه ص٦١.

(٢) المصدر نفسه ص٦٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص٣١٦.

(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٦٩.

الفاضلية بالكلاسة وكانت له إجازة من السلفي، ثم وليها بعده الحافظ المتقن وقد تقدمت ترجمته في دار الحديث السكرية»[١].

والحافظ المتقن هو تقي الدين أبو المعالي محمد بن الشيخ المحدث المقري. . . ابن شافع السلامي المصري المولد والمنشأ ثم الدمشقي ميلاده سنة أربع وسبعمائة أحضره والده على جماعة وأسمعه على آخرين ورحل والده إلى الشام في سنة أربع عشرة وسبعمائة وأسمعه من طائفة ورجع، وتوفي والده فطلب بنفسه في حدود سنة إحدى وعشرين وتخرج في علم الحديث بالحافظ قطب الدين الحلبي وسمع وكتب بنفسه ثم رحل إلى الشام أربع مرات وسمع بها وأخذ من حفاظها المزي، والبرزالي، والذهبي. وأستوطنها ودرس بها بدار الحديث النواوية وبها بعد وفاة المزي سنة ثلاث وأربعين. وتولى الفاضلية هذه بعد وفاة الذهبي وعمل لنفسه معجماً في أربع مجلدات وهو في غاية الضبط والإتقان يشتمل على أكثر من الف شيخ[٢]. ثم وليها بعده.

٣ ـ الإمام العالم المفتي شمس الدين أبو عبدالله محمد. . . المعروف بابن الموصلي ميلاده سنة تسع وتسعين وستمائة وسمع من جماعة وتفقه بحماة على الشيخ شرف الدين بن البارزي وغيره[٣]. وأقام بطرابلس وصار من فضلائها بالمدرسة الشمسية ثم أقام بدمشق وكان يجلس عند باب مئذنة العروس يشتغل هناك في العلم وله تصدير على الجامع ويواظب على سوق الكتب، ووُلي مشيخة الفاضلية هذه بعد ابن رافع، ونظم مطالع الأنوار وفقه اللغة والمنهاج النواوي[٤].

وقال الحافظ شهاب الدين السعدي: كان يحفظ علماً كثيراً من لغة وحديث ومذاهب العلماء ويفتي على المذهب الشافعي رحمه الله تعالى، ونظمه حسن وجيد وخطه فائق منسوب، توفي في جمادي الآخرة سنة أربع وسبعين وسبعمائة[٥].

١٠ ـ مدرسو (دار الحديث القلنصية):

قال النعيمي: «لم أقف على أحد مما وُلي مشيختها»[٦].

١١ ـ مدرسو (دار الحديث القوصية):

قال النعيمي: «ولم نعلم ممن وُلي مشيختها سوى الشيخ علاء الدين بن العطار

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٧٠.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص١١٩.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٧١.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) المصدر نفسه ص٧٢.

وقد مرت ترجمته في دار الحديث الدوادارية وسوى الشيخ تقي الدين بن رافع كما قال الشهاب بن حجي»[١].

١٢ ـ مدرسو (دار الحديث الكروسية):

قال النعيمي: «لم أقف أيضاً على أحد ممن وُلي مشيختها والله أعلم»[٢].

١٣ ـ مدرسو (دار الحديث النورية):

وقال النعيمي في الدارس في ترجمة نور الدين: «وبقي بدمشق أيضاً دار الحديث ووقف عليها وعلى من بها من المشتغلين بعلم الحديث وقوفاً كثيرة وهو أول من بنى دار حديث في ما علمناه»[٣] وأول من تولى مشيختها.

١ ـ الحافظ الكبير أبو القاسم علي بن الحسن... ابن عساكر الدمشقي الشافعي إمام أهل الحديث في زمانه وحامل لوائهم مولده في سنة تسع وتسعين وأربعمائة. فسمعناه في سنة خمس وخمسمائة وما بعدها من الشريف أبي القاسم النسيب[٤]. وأبي طاهر الحنائي[٥] وغيرهما. وسمع منه أبو سعد السمعاني[٦] وقال عنه: «هو حافظ متقن جمع بين معرفة المتون والأسانيد ورحل في طلب الحديث وجمع ما لم يجمعه غيره».

وقد صنف كتاب (المستقصي في فضائل المسجد الأقصى) وكتاب (الجهاد) وكان يتعصب لمذه الأشعري ويبالغ من غير أن يحققه وقد خلف أباه في إسماع الحديث بالجامع ووُلي بعده دار الحديث النورية ولم يتناول من معلومه شيئاً بل جعله مرصداً لمن يرد عليه من الطلبة. وسمع منه خلق كثير وحدّث بمصر والشام[٧]. وروي عنه أبو المواهب بن صصري[٨]، وأبو الحسن بن الفضل ويوسف بن خليل[٩]. ثم وليها أخوه من بعده (زمن الأمناء بن عساكر).

٢ ـ ثم قال النعيمي في سنة سبع وعشرين وستمائة: «زين الأمناء الشيخ الصالح أبو البركات الحسن بن محمد بن عساكر الدمشقي الشافعي وكان صالحاً خيراً حسن

---

(١) المصدر نفسه ص٧٣.
(٢) المصدر نفسه ص٧٤.
(٣) المصدر نفسه ص٧٤.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٢٣.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٢٩.
(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٢٠٥.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٧٦.
(٨) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣١٦.
(٩) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٤٣.

السمت تفقه على جمال الأئمة محمد بن الماسح وولي نظر الخزانة والأوقاف ثم تزهد، عاش ثلاثاً وثمانين سنة[١]. وروي بذلك عن ابن العشائر محمد بن خليل[٢] وعبد الرحمن الداراني والملكي وطائفة[٣]. ولقد ولي دار الحديث النورية لإسماع الحديث وأنتفع الناس به مدة طويلة. ثم درّس بعده ابنه...

٣ ـ ثم قال النعيمي في سنة ستين وستمائة: «التاج عبد الوهاب بن زين الأمناء بن عساكر سمع الكثير من الخشوعي وطبقته وولي مشيخة النورية بعد والده أمين الدين ثم توفي في جمادي اوول بملكه[٤].

٤ ـ ثم قال النعيمي في سنة ست وثمانين وستمائة: «وابن عساكر الإمام الأوحد أمين الدين أبو اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب بن زين الأمناء الدمشقي وكان صالحاً خيراً قوي المشاركةفي العلم صاحب توجه وصدق ولد سنة أربع عشرين وستمائة وجاور أربعين سنة[٥]. ثم درّس بها.

٥ ـ بهاء الدين النابلسي الذي توفي سنة ثلاث وستين وستمائة. وهو شيخ دار الحديث النورية بدمشق وكان عالماً بصناعة الحديث حافظاً لأسماء الرجال ثم تولى مشيخة المدرسة بعده تاج الدين الفزازي وكان قد رحل إلى بغداد وأشتغل بها وسمع الحديث وكان فيه خير وصلاح وعبادة.

٦ ـ وتاج الدين الفزازي هذا المصري الأصل الدمشقي ولد سنة أربع وعشرين وستمائة وسمع البخاري من ابن الزبيدي وسمع من ابن الصلاح وابن السخاوي[٦]. وكان فقيه الشام درّس وناظر وصنف وأنتهت إليه رئاسة المذهب الشافعي توفي سنة تسعين وستمائة[٧] ثم وليها.

٧ ـ قال الذهبي في تاريخه العبر في سنة إحدى وسبعين وستمائة: «الشرف بن النابلسي الحافظ بن بدر الدمشقي ولد بعد الستمائة[٨] وسمع من ابن الللتي[٩] وطبقته وكتب الحديث الكثير. وكان فهماً يقظاً حسن الخلق، ولي مدرسة دار الحديث النورية.

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٧٧.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص١٥٤.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص١٨٨.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٧٨.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٢٢٢.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٨٠.
(٨) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٨١.
(٩) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٢٧.

٨ ـ تولى بعده المحدث جمال الدين ابن الصابوني. . . ابن الشيخ علم الدين المحمودي. شيخ دار الحديث النورية ولد سنة أربع وستمائة وتوفي سنة ثمانين وستمائة[١]. سمع الحديث من ابن الحرستاني وابن ملاعب وابن البنا[٢] وعني بالحديث وكتب وقرأ وصار له فهم ومعرفة وسمع من ابن اللتي وهو من رفاق ابن الحاجب[٣].

٩ ـ وقال النعيمي بالدارس في سنة خمس وثمانين وستمائة: الشيخ مجد الدين يوسف ابن محمد المصري ثم الدمشقي المعروف بابن المهتار كان فاضلاً في الحديث والأدب وتولي مشيخة دار الحديث وقد سمع منه وأنتفع الناس به وبكتابته».

ـ ثم قال في سنة ثمان وثمانين وستمائة الشيخ فخر الدين الحنبلي شيخ دار الحديث النورية.

ـ ثم قال فيه في سنة أربع وتسعين وستمائة شرف الدين أحمد بن نعمة ولي درس دار الحديث النورية والشامية البرانية[٤]. وقال في هذه السنة وفي شوال باشر مشيخة دار الحديث النورية الشيخ علاء الدين بن العطار ثم وليها بعده الإمام الحافظ المؤرخ علم الدين أبو محمد البرازلي الذي ولد سنة خمس وستين وستمائة وولي مشيخة داو الحديث النورية توفي رحمه الله سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ووقف كتبه وكتب ابن حبيب[٥] على معجمه هذه الأبيات:

يا طالباً نعت الشيوخ وماروا فيه على التفصيل والإجمال
دار الحديث أنزل تجد ما تبتغيه بارزاً في معجم البرزالي

ثم ولي بعده الحافظ أبو الحجاج المزي، ثم وليها بعده الحافظ تقي الدين بن رافع وهذا ما وقفنا عليه ممن ولي مشيختها[٦] ثم آخر من ولي مشيختها صدر الدين البصراوي الحنفي سنة ٧٠١هـ[٧].

١٣ ـ مدرسو (دار الحديث النفيسة):

١ ـ قال النعيمي في سنة ست عشرة وسبعمائة: «صاحب التذكرة الإمام المقرىء

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٨٢.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٥٣.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٣٤.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٨٣.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٢٦٢.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٨٤.
(٧) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١٧٠.

المحدث النحوي الأديب علاء الدين علي بن المظفر . . . الكندي الإسكندراني ثم الدمشقي سمع الحديث على أكثر من مائتي شيخ وقرأ القراءات السبع، ونظم الشعر، وجمع كتاباً في نحو خمسين مجلداً فيه علوم جمّة أكثرها أدبيات سمّاه (التذكرة الكندية) وولي دار الحديث النفيسية فترة عشر سنين. وقرأ صحيح البخاري مرات عديدة، وأسمع الحديث، وكان يلوذ بشيخ الإسلام ابن تيمية.

٢ ـ وولي مشيختها بعده الإمام علم الدين البرزالي وقد تقدمت ترجمته في دار الحديث النورية.

١٤ ـ مدرسو (دار الحديث الناصرية):

١ ـ وباشر مشيخة الرباط الناصري هذا أكثر من خمسة عشرة سنة الشيخ كمال الدين بن الشريشي. وقد تقدمت ترجمته في دار الحديث الأشرفية بدمشق[(١)] ثم درّس بها بعده ولده . . .

٢ ـ الإمام العلامة بقية السلف جمال الدين محمد المكنى بأبي بكر، ميلاده سنة أربع أو خمس وتسعين وستمائة[(٢)]. وسمع على الحافظان العراقي والهيثمي[(٣)]. وكان حسن المحاضرة دمث الأخلاق، ودرّس في حياة والده ببعض المدارس ثم بعد وفاة والده درّس بالرباط الناصري، ثم درّس بعدة مدارس وأفتى ثم تولى تدريس البادرائية ثم ترك البادرائية لوالده شرف الدين[(٤)]. وفي سنة خمسين عندما وُلي تدريس الأقبالية ثم ترك هذه لمدرسة الأخيرة لولده الثاني بدر الدين[(٥)] ثم توجه إلى القاهرة وعاد إلى دمشق وباشر التدريس والحكم في النيابة ثم مرض ومات. ثم درّس بعده.

٣ ـ حسام الدين القرمي الذي كان قاضي طرابلس قايضه بها الكمال الشريشي إلى تدرس المسرورية والرباط الناصري فدرس في هذا الرباط وحضر عنده الناس توفي رحمه الله تعالى بطرابلس سنة ست وأربعين وسبعمائة[(٦)] ثم جاء بعده.

٤ ـ الحافظ شرف الدين أبو العباس أحمد الغزاري ولد بدمشق سنة ثلاثين وستمائة وقرأ بثلاث روايات على السخاوي. ودرّس بالرباط الناصري وولي خطابة جامع جراح وجامع دمشق ـ تفقه للشافعي وبرع في علم الحديث وصنّف وأفاد وكان أحد الأئمة[(٧)].

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٨٧.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٧٠.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٣٤٢.
(٥)دابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٢١٨.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٨٨.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ٨٨.

٥ ـ ودرّس بعده بالناصرية نجم الدين بن قوام ميلاده في ذي القعدة سنة تسعين وستمائة سمع وتفقه وحدّث، ودرّس بالرباط الناصري. وتوفي سنة ست أربعين وسبعمائة ثم درس فيها الشيخ زين الدين الفارقي سنة ٧٠٠هـ[١].

١٥ ـ مدرسو (دار الحديث والقرآن التنكزية):

قال السيد الحسيني في ذيل العبر في سنة تسع وأربعين وسبعمائة: الإمام صدر الدين سليمان بن عبد الحكيم المالكي شيخهم ومدرس الشرابيشية وشيخ التنكزية بعد الذهبي وقد تقدمت ترجمة الذهب في دار الحديث السكرية[٢].

١٦ ـ مدرسو (دار الحديث والقرآن الصبابية):

قال النعيمي: «لم أقف على أحد ممن ولي مشيختها»[٣].

١٧ ـ مدرسو (دار القرآن والحديث المعبدية):

إنها دار قرآن ولم أقف على أحد ممن ولي مشيختها[٤] (هؤلاء مدرسو دار الحديث في دمشق).

٢ ـ مدرسو المدارس الصوفية (الخوانق والربط والزوايا):

عندما عددنا المدارس ومدرسو دار الحديث في دمشق كان لا بد من ذكر مدرسو المدارس الصوفية الذين لعبوا دوراً مهماً في العصر المملوكي ولا يقلوا أهمية عن مدرسي دار الحديث ولا يزيدوا عن مدرسي المدارس الفقهية في كامل بلاد الشام.

١ ـ مدرسو (الخانقاه الأسدية):

١ ـ قال الذهبي في العبر وفي سنة أربعين وسبعمائة: مات بدمشق الشيخ المعمر نجم الدين بن بركات أبو الفضل بن القرشية أحد أعيان الصوفية وأكابر الفقراء القادرية ولي مشيخة الشبلية والأسدية وولي العقود ومشيخة الأسدية[٥].

٢ ـ ثم ولي مشيختها السيد ناصر الدين بن نقيب الإشراف وقد مرت ترجمته في المدارس الأمجدية.

٣ ـ ثم ولي مشيختها بدر الدين بن البرهان وقد مرت ترجمته بالمدرسة الأكزية[٦].

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص١٦.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٩٤.
(٣) المصدر نفسه ص٩٥. (٤) المصدر نفسه ص٩٥.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٠٩.
(٦) المصدر نفسه.

٢ ـ مدرسو (الخانقاه الأندلسية):

قال النعيمي في سنة إحدى وثمانين وستمائة: «القاضي أمين الدين الأشتري سمع الكثير وحصّل، توفي بالخانقاه الأندلسية وعن ست وستين سنة وكان الشيخ محيي الدين النواوي رحمه الله يثني عليه ويرسل له الصبيان ليقرأوا عليه في بيته لأمانة عنده وصيانته وديانته»[١].

٣ ـ مدرسو (الخانقاه الباسطية):

من ولي مشيخة هذه الخانقاه قاضي القضاة الباعوني[٢] رحمه الله.

٤ ـ مدرسو (الخانقاه الحسامية):

ولي مشيختها الشيخ شرف الدين نعمان، وسكنها وقد مرت ترجمته بالمدرسة الجوهرية[٣].

٥ ـ مدرسو (الخانقاه الخاتونية):

١ ـ عبد الواحد بن عبد الوهاب المعروف بابن سكينة، قرأ القرآن وبرع وتفقه، وقرأ الأدب، وتولى مشيخة رباط القدس، ثم بخانقاه خاتون[٤] ثم توفي سنة ثمان وستمائة.

٢ ـ قال النعيمي في سنة سبع عشرة وسبعمائة: «الشيخ شهاب الدين الرومي أحمد بن محمد المراغي، تولى مشيخة الخاتونية توفي في محرم منها ودفن بالصوفية»[٥].

٣ ـ قال الأسدي في صفر سنة ثمان وعشرين وثمانمائة من ذيله: سراج الدين عمر بن الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد السلاوي أشتغل في الفقه يسيراً وفي الفرائض وأقام بطرابلس وأنتقل إلى دمشق حيث أستقر فيها، ثم ولي مشيخة خانقاه خاتون ونظرها بعد وفاة الشيخ عبد المالك[٦].

٤ ـ ثم تولى بعده مشيختها ونظرها الشهاب الدلجي[٧] المصري ولبها منه، وقدم دمشق وباشر ذلك مباشرة مذمومة. وبعد مدة وجيزة أشهد عليه برهان الدين أن

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١٠.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٣٠٩.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١٣.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ص١١٤.
(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٣٢٢.

الوظيفة المذكورة يختص بها أخوه ولي الدين دونه ثم تلقاها عنه شيخ الشافعية نجم الدين ثم تلقاها عنه أخوه زين الدين عبد الرحمن ثم تلقاها عنه أخوه تقي الدين أبو بكر ثم نزل عنها للقاضي شهاب الدين أحمد البقاعي ثم تلقاها عنه ولده انتهى والله أعلم[(١)].

٥ ـ مدرسو (الخانقاه الدويرية):

١ ـ وقال الحافظ السيد شمس الدين الحسيني في ذيل العبر لشيخه الذهبي في سنة خمس وأربعين وسبعمائة. ومات بطرابلس شيخنا مجد الدين محمد بن عيسى.. الدمشقي عن أثنتين وسبعين سنة، وحدث بجامع الترفوي، وولي مشيخة دويرة حمد بباب البريد أنتهى[(٢)].

٢ ـ وقال ابن كثير في سنة ست وعشرين وسبعمائة: «العز حسن بن أحمد الأربلي كان يعرف طرفاً صالحاً من النحو والحديث والتاريخ وكان مقيماً بدوير حمد صوفياً وكان حسن المجالة»[(٣)].

٣ ـ وقال البرزالي في تاريخه في سنة أربع وثلاثين وسبعمائة توفي الشمس محمد بن الشيخ بدر الدين المقدسي بدويرة حمد ومولده في سنة ثمانين وستمائة وكان جابياً بدويرة حمد وبجامع القبيات وبجامع القابون يعني الجامعين اللذين أنشأهما كرم الدين[(٤)] المستشرف بالإسلام وكيل الخاطر السلطاني.

٦ ـ المدرسون (بالخانقاه السميساطية):

١ ـ أول من تولاها سعيد بن سهل... النيسابوري توفي رحمه الله تعالى سنة ثمان وسبعين وأربعمائة[(٥)] «فأنزله نور الدين الشهيد الخانقاه السميساطية وجعله شيخاً... وعمّر بها الأيوان الذي في الخانقاه وأقام فيها إلى حين وفاته».

٢ ـ وقال النعيمي في سنة ثلاث وستين وخمسمائة: «فيها فرض نور الدين أمر الربط والزوايا والأوقاف بدمشق وحمص وحماه وحلب إلى الشيخ أبي الفتح عمر بن علي بن حموية... وكان السلطان صلاح الدين يحترمه ويعظمه وفوض صلاح الدين المشيخة إلى ولده صدر الدين من بعده[(٦)].

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١٤.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١٧.
(٣) ابن كثير: تاريخه البداية والنهاية ج١٤ ص١٠٩.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص١٨٨.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٢٠.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٢١.

٣ ـ وقال النعيمي في سنة أثنتين وأربعين وستمائة: «تاج الدين بن حموية شيخ الشيوخ وشيخ السميساطية[١]. وكتب الكثير وعني بها أتم عناية وجمع وصنف وشرع، وأبتلى أخيراً بالفالج.

٤ ـ وفي سنة أربع وسبعين وستمائة: سعدالله بن شيخ الشيوخ ...بن حموية الجويني لزم الخانقاه وله تاريخ مفيد وشعر متوسط توفي وقد نيف على الثمانين[٢].

٥ ـ وفي سنة ثمان وسبعين وستمائة تولاها شيخ الشيوخ شرف الدين أبو بكر عبدالله بن حموية الجويني ولد سنة ثمان وستمائة أنتهى[٣].

٦ ـ وقال الصفدي: «أبو بكر جمال الدين البزوري البغدادي فولاه ناظر الجامع الأموي والخوانق والبيمارستان النوري وجعله شيخ الشيوخ ورفع من قدره وتوفي سنة سبع وسبعين وستمائة بدمشق»[٤]. وقال ابن كثير[٥]: «في سنة إحدى وسبعمائة جلس قاضي القضاة وخطيب الخطباء بدر الدين ابن جماعة بالخانقاه السميساطية عن طلب الصوفية له ورغبتهم فيه بعد وفاة الشيخ يوسف بن حموية الحموي وفرحت الصوفية به وجلسوا حوله ولم تجتمع هذه المناصب قبله لغيره ولا بلغنا أنها أجتمعت لأحد بعده إلى زماننا هذا القضاء والخطابة ومشيخة الشيوخ. وفي سنة أثنتين وسبعمائة باشر مشيخة الشيوخ القاضي ناصر الدين بن عبد السلام وفي سنة اثنتين وسبعمائة في ثالث شوال طلب الصوفية من نائب دمشق الأفرم أن يولي عليهم مشيخة الشيوخ للشيخ صفي الدين الهندي وترك الشيخ صفي الدين الهندي المشيخة فوليها القاضي عبد الكريم وحضر الخانقاه وحضر عنده ابن صصري وعز الدين القلانسي».

٧ ـ وفي سنة إحدى عشرة وسبعمائة وفي آخر ذي الحجة وصل الشيخ شهاب الدين محمد بن جعفر الصادق من القاهرة ومعه توقيع بمشيخة الشيوخ منزل الخانقاه وباشرها بحضرة القضاة والأعيان. وفي سنة ست عشر وسبعمائة باشر ابن صصري مشيخة الشيوخ بالسميساطية عوضاً عن الشيخ شهاب الدين... ابن جعفر[٦].

وفي سنة ثمان وعشرين وسبعمائة حضر قاضي القضاة علاء الدين القونوي[٧] مشيخة الشيوخ بالسميساطية عوضاً عن القاضي المالكي شرف الدين وحضر عنده

(١) المصدر نفسه.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٢٢.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) ابن كثير: تاريخه البداية والنهاية ج١٤ ص١٩.
(٦) ابن كثير: تاريخه البداية والنهاية ج١٤ ص٧٨.
(٧) ابن كثير: تاريخه البداية والنهاية ج١٤ ص٢٣٣.

الفقهاء والصوفية. وفي سنة ثمان أربعين وسبعمائة مات قاضي القضاة شرف الدين أبو عبدالله وولي بعده قاضي القضاة المالكية نائبه الإمام جمال الدين محمد بن عبد الرحيم المسلاتي[1].

٨ ـ وفي سنة سبع وأربعين وسبعمائة مات بدمشق مشيخنا تقي الدين أبو محمد عبد الكريم. . . العثماني المصري، قدم دمشق وتفقه بها وولي مشيخة الشيوخ ودرس بأماكن وكان رجلاً نبيهاً[2].

٩ ـ وقال ابن كثير[3] في تاريخه في سنة اثنتين وستين وسبعمائة: «استقر في كتابه السر بدمشق ومشيخة الشيوخ بها القاضي ناصر الدين محمد بن شرف الدين عوضاً عن القاضي أمين الدين بن القلانسي ثم ولي مشيختها ولم أعرف متى محمد بن أبي بكر شمس الدين الأيكي كان فاضلاً في فنون المعقولات».

وفي صوفيتها الشيخ الإمام شرف الدين المراغي ثم الدمشقي كان فاضلاً في العلوم العقلية، ويعرف العربية، وكان بارعاً في الطب، وكان معتزلياً وينسب إلى التشيع والرفض وكان أولاً صوفياً بالخانقاه السميساطية وأخذ عنه تقي الدين بن مفلح والقاضي نجم الدين بن حجي توفي سنة ثمان وثمانين وسبعمائة بخانقاه خاتون ودفن بالصوفية[4].

٧ ـ مدرسو (الخانقاه الشهابية):

قال المعتمدي: «وممن ولي مشيختها الشيخ شمس الدين السلسيلي المصري الذي حفظ التنبيه والألفية، وولي مشيخة الخانقاه الشهابية بدمشق وكان رجلاً فاضلاً بالعربية، وكان الفقهاء من أصحابه ورفقائه والطلبة يترددون إليه ويحبونه وينشرحون لحديثه وكان عزباً، وكان كثير المطالبة والمذاكرة والإشتغال بمنزله والجامع توفي في ثالث عشر من شهر ربيع الأول سنة سبعين وسبعمائة بالخانقاه الشهابية من مرض طال به ودفن بباب الصغير وقد جاوز الخميس[5].

٨ ـ مدرسو (الخانقاه الشبلية):

١ ـ قال الذهبي في العبر سنة أربعين وسبعمائة: «مات بدمشق الشيخ نجم الدين إبراهيم البعلبكي أحد أعيان الصوفية عن تسعين سنة وولي مشيخة الشبلية والأسدية»[6].

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٢٤.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١٥٠.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٢٦.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٢٧.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٢٨.

٢ ـ وقال السيد الحسيني في ذيله: «في سنة خمس وخمسين وسبعمائة مات شيخنا سابق الدين عثمان... الشبلي الحنفي عن ثلاث وثمانين سنة وولي نظر خانقاه الشبلية»[١].

٩ ـ مدرسو (الخانقاه الشريفية):

ويشير الدارس: أول من درس بها رشيد الدين الدين الفارقي وهو مستمر فيها ولها أوقاف كثيرة[٢].

١٠ ـ مدرسو (خانقاه الطاحون):

الشيخ سعيد الكاساني القونماني شيخ خانقاه الطاحون وتلميذ الصدر القونوي كان أحد من يقول بالوحدة شرح تائية ابن الفارض[٣] في مجلدين ومات عن سبعين سنة.

١١ ـ مدرسو (خانقاه الطواويسية):

وممن توفي فيه محب الدين الصيدلاني اشتغل في مذهب الإمام الشافعي، وكان شكلاً حسنة، وعنده دين ومرؤة، وبيده وظائف يباشرها، ويؤم بالخانقاه الطواويسية. توفي رحمه الله بعد مرض طويل سنة خمس وأربعين وثمانمائة من يوم الخميس[٤].

١٢ ـ مدرسو الخانقاه القصاعية:

قال السيد شمس الدين في ذيل العبر في سنة تسع وأربعين وسبعمائة: «العدل بهاء الدين محمد بن أبي الفتح البعلي ولي العقود ومشيخة الأسدية وولي مشيخة خانقاه القصاعين»[٥].

١٣ ـ مدرسو (الخانقاه المجاهدية):

١ ـ قال ابن كثير في تاريخه سنة ست وسبعين وسبعمائة: «علي بن علي نجم الدين اسفنديار كان شيخ الخانقاه المجاهدية وكان فاضلاً بارعاً»[٦].

٢ ـ وفي سنة ست وثلاثين وسبعمائة توفي الشيخ المحدث شهاب الدين محمد بن تاج الدين المعروف بابن القدسية وكان شيخ الخانقاه المجاهدية وكان فيه تعبد وانقطاع وكرم وسخاء وسمع على عمر بن القواس ويوسف الغسولي[٧].

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص١٤٩.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٣٠.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٣٢.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص٢٧٩.
(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٤٥٨.

١٤ ـ مدرسو (الخانقاه النجيبية):

وقال النعيمي في الدارس في سنة سبع وسبعين وستمائة: «فتحت المدرسة النجيبية وفتحت الخانقاه النجيبية وممن ولي مشيختها علي بن مجاهد علاء الدين المجدلي»[١].

اشتغل علاء الدين ببلده، ثم قدم القدس الشريف فلازم التقي وهو القلقشندي وقدم مصر سنة ثمانين فأخذ عن الضياء القرمي[٢] ثم عاد إلى دمشق وولي مشيخة النجيبية وسكنها وكان فهمه جيداً متوسطاً في الفقه توفي سنة أربع وسبعين وسبعمائة أنتهى.

١٥ ـ مدرسو (الخانقاه النهرية):

١ ـ أول من ولي مشيختها والنظر عليها الشيخ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن الحسيني الحنبلي الدمشقي سنة خمس وعشرين وثمانمائة، كان يقرأ المواعيد قراءة صحيحة وولي إقامة البراقية وبها يسكن وولي مشيخة خانقاه عمر شاه والنظر إليها[٣].

٢ ـ وولي مشيختها أيضاً القاضي ناصر الدين محمد الحموي المعروف بابن الليودي وذكر أنه كان يقرأ ما يكتبه على مشايخه وكان له تصدير في الجامع وكان فقيراً جداً وقد دفن بباب الفراديس وقد جاوز السبعين[٤].

١٦ ـ مدرسو (الخانقاه اليونسية):

ويقول النعيمي: «ولي مشيخة اليونسية الشيخ شمس الدين بن عوض الحنفي أمام جامع يلبغا ـ وفي سنة ثلاثين وثمانمائة اشتغل في الفقه على الشيخ شرف الدين بن منصور وغيره، واشتغل في غير الفقه على جماعات، وكان يستحضر من الحاوي الصغير وتوفي عن نحو سبعين سنة[٥].

ج ـ مدرسو الرباطات في دمشق في العصر المملوكي

١ ـ مدرسو (الرباط البياني):

في سنة خمس وثلاثين وستمائة شرف الدين ابن أخي الشيخ أبي البيان أديب وشاعر زاهد ولي مشيخة رباط أبي البيان[٦].

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٣٥.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٢٦٦.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٤٧.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٤٨.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥٠.

٢ ـ مدرسو (رباط صفية):

«إنها كانت شيخة رباط صفية القلعية»(١).

د ـ مدرسو الزوايا في دمشق في العصر المملوكي

١ ـ مدرسو (الزاوية الحريرية):

قال الصفدي في المحمدين من كتابه الوافي: «محمد بن علي الحريري، رجل صالح دين ومن محاسنه أنه ينكر على أصحاب والده، ويأمرهم بإتباع الشريعة، ولما مات أبوه طلبوا منه الجلوس في المشيخة فطلب منهم شروطاً لم يقدر أصحابه على إشتراطها فتركهم وأنعزل عنهم توفي بدمشق في سنة إحدى وخمسين وستمائة»(٢).

٢ ـ مدرسو (الزاوية الفونشية):

الكمال أبو الحسن علي بن علي الفونشي مات سنة خمس وثمانين وستمائة، وكان الشيخ لزاويتهم بعد أبيه. وقال الشيخ الحسيني في ذيل العبر في سنة ست وأربعين وسبعمائة: «مات الشيخ الصالح أبو عبدالله الفونشي أحد مشايخها الزهاد وسمع الحديث على الشيخ شمس الدين وابن البخاري»(٣).

٣ ـ مدرسو (الزاوية القوامية البالسية):

في سنة ثمان عشرة وسبعمائة مات في صفر بزاوية الإمام الشيخ محمد بن عمر بن قوام البالسي، وكان محمود الطريقة متين الديانة(٤). ولده الشيخ الأصيل الفقيه نور الدين أبا عبدالله محمد ميلاده في شهر رمضان سنة سبع عشرة وسبعمائة، وقد تفقه، ودرّس، وحدّث وكان من العلماء الفضلاء، درّس بالناصرية البرانية مدة سنتين بعد أبيه وبالرباط الدواداري وكان يحب السنّة ويفهمها جيداً وتوفي سنة خمس وستين وسبعمائة ودفن بزاويتهم(٥).

٤ ـ مدرسو (الزاوية القلندرية الدركزينية):

محمد بن يونس الشيخ جمال الدين الساوجي شيخ الطائفة القلندرية، قدم دمشق وقرأ القرآن والعلم ثم حصل له زهد وفراغ من الدنيا، ثم أن الساوجي حلق رأسه ووجهه ثم سافر إلى دمياط وتوفي فيها. ثم جلس بعده في المشيخة خلال

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥١.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥٤.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٦١.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٦٢.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٦٣.

الدركزيني. وبعده الشيخ محمد البلخي الذي أقام الزاوية وأنشأها وكثر أصحابه وكان للملك الظاهر فيه أعتقاد وذكر ابن اسرائيل الشاعر إن هذه الطائفة ظهرت بدمشق سنة ست عشرة وستمائة ثم أخذ يصف حالهم الملعون وطريقتهم الخارجة عن الدين[١].

٥ ـ مدرسو (الزاوية اليونسية):

قال ابن العماد عن أبو يزيد البسطامي[٢]: لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتفع في الهواء فلا:

١ ـ تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وآداب الشريعة. وقال النعيمي في سنة ست وسبعمائة: الشيخ الجليل سيف الدين الرجيحي شيخ اليونسية[٣].

٢ ـ ثم ولي مشيختها القاضي محيي الدين عبد القادر بن محمد بن الشيخ يونس اليونسي[٤] الشيباني الحنبلي ميلاده سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة ثم أنتقل إلى الصالحية وبنى بها زاوية بحارة الجوبان ووقف عليها وقفاً.

٣ ـ عبدالله بن أبي الحسن علي بن أبي الفرج[٥] الطرابلسي الفقيه الزاهد قرأ القرآت بحلقة الحنابلة. وأنه أشتغل بالعبادة بالزاوية اليونسية.

٦ ـ مدرسو (الزاوية العمرية):

١ ـ أنشأ هذه الزاوية رجل يقال له الشيخ عمر الأسكاف الحموي وترك ولديه محمد وعلي ثم من بعده إنحلت غالب أتباعه عن طريقته وصار ولده محمد المذكور مكانه بالزاوية المذكورة يجتمع عليه أناس قلائل يكلمهم عن طريقة والده[٦].

ـ هذه الزاوية التي كانت قائمة بالعهد المملوكي، وهناك أكثر من ثمانين تربة في دمشق وحدها لها مشايخ ومنشئين وأوقاف.

ـ وننتقل إلى مدرسي المدارس الفقهية (الشافعية والحنفية والمالكية والحنبلية) وإلى مدرسي الطب والحربية.

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٤٣.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص١٤٣.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٦٨.
(٤) ابن العماد: شذرت الذهب ج٨ ص٤٦.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص١٥.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٧٠.

و ـ مدرسو المدارس الشافعية في دمشق بالعصر المملوكي

١ ـ مدرسو (المدرسة الأسدية):

وقد وجدنا في كتاب منادمة الأطلال[١]: «أن هذه المدرسة قد أندرست وأندرس وقفها. وممن درّس بها أيام عزها: العز القرشي أبو الخطاب، والركن البجلي، وصلاح الدين العلائي، وشرف الدين الأذرعي وغيرهم».

١ ـ أما الدارس فيقول: «درّس بها جماعة منهم العز القرشي[٢]، قال الأسدي في تاريخه سنة خمس وعشرة وستمائة: عمر بن عبد العزيز بن حسن القرشي الدمشقي الفقيه ولي قضاء حمص مدة ثم أستعفى ورد إلى دمشق ودرس بالمدرسة الأسدية على الميدان ومات قبل الكهولة، وهو والد المعين المحدث[٣] ومنهم الركن البجلي».

٢ ـ شرف الدين موسى بن شهاب الدين أحمد الرمثاوي الشافعي. قد أشتغل علي الشيخ شرف الدين الغزي[٤] وأخذ يسيراً من الطب عن الرئيس جمال الدين وأخذ بمكة من ابن ظهيرة[٥]. وقد درّس بالأسدية وهو من صغار الطلبة اشتغل في الغرائض وأستنزل عن تدريس الأسدية في أمام الباعوني[٦] ثم ناب في القضاء عن القاضي علاء الدين بن أبي البقاء في سنة ثلاث وثمانمائة قبل الفتنة.

٣ ـ قال النعيمي في الدارس في سنة اثنين وعشرين وسبعمائة: ركن الدين أبو يحيى زكريا بن حماد البجلي نائب الخطابة ومدرس الأسدية[٧].

ثم جاء تاج الدين عبد الوهاب المشهور بالحباب المصري قدم دمشق وأعاد بالأسدية هذه والرواحية ـ ثم توجه بعد الخمسين والسبعمائة إلى قضاء الشوبك فتوفي بها سنة ست وستين وسبعمائة[٨].

٤ ـ ثم جاء ولده العالم المفتي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن الحباب ودخل بين الفقهاء وتنزل بالمدارس ثم صحب القونوي[٩] وكان يرسل معه الرسائل

---

(١) عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٧٩.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١١٥.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣١٢.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٣٦٠.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص١٨.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١١٦.
(٧) المصدر نفسه. (٨) المصدر نفسه.
(٩) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٣٥.

وكان فيه إحسان إلى الطلبة ويساعدهم بالمدرسة الأسدية[١].

٢ ـ مدرسو (المدرسة الأصفهانية):

١ ـ أول من درس بها جمال عبد الكافي الذي توفي سنة تسع وثمانين وستمائة وكان ديناً حسن السمت[٢]، ثم جاء بعده الفقيه جمال الدين أحمد المعروف بالمحقق[٣].

٣ ـ مدرسو (المدرسة الأكزية):

ويقول في منادمة الأطلال[٤]: «لقد درس بالمدرسة الأكزية جماعة منهم: شرف الدين الحاكي، والبرهان المراغبي، والمجد الشهرزوري، والكمال ابن الحرستاني، والصدر محمد بن إبراهيم بن وهيب، ويقال هبة الله بن عبد الرحمن الجزري الشهير بالنابلسي الذي ولي قضاء نابلس والتدريس بعدة مدارس وكان جيد السيرة والأحكام توفي سنة ست وسبعمائة وكان يحفظ المناهج».

١ ـ قال البرزالي في تاريخه في سنة ست وثلاثين وسبعمائة توفي الشيخ الفقيه شرف الدين الحاكي الشافعي بسكنه بالمدرسة الأكزية بدمشق، وكان فقيهاً في المدارس ولم يزل يواظب على الجلوس مع الشهود والتردد إلى المدارس على دابته إلى آخر وقت وكان متواضعاً حسن الخلق[٥]. ثم درس بها تاج الدين بن جهبل، ثم من بعده المجد بن الروذرواري عبد المجيد[٦] وكان عالماً أديباً في شتى أنواع العلوم، ثم من بعده برهان الدين المراغبي[٧] ثم من بعده مجد الدين محمود الشهرزوري.

٢ ـ ثم درس بها الكمال بن الحرستاني. قال الأسدي في تاريخه في سنة أربع وعشرين وستمائة كمال الدين أبو محمد بن الحرستاني الفقيه الذي درس بالكلاسة والأكزية[٨].

٣ ـ ثم درس بها الشيخ بدر الدين محمد بن وهيب ويقال هبة الله ولي قضاء

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المشدارس ج١ ص١١٧.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ لمدارس ج١ ص١١٨.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٤٢٦.
(٤) عبدالقادر بدران: منادمة الاطلال ص٨٣.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ١٢٤.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٨٤.
(٨) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٢٥.

نابلس ثم بعلبك ثم ولي قضاء طرابلس وولي خطابتها وأستمر فيها نحو عشرين سنة، ثم ولي بدمشق تدريس الأكزية ومشيخة الأسدية، ودرس بطرابلس بمدارسها[(١)] وسمع من زينب بنت شكر[(٢)] وأبي العباس بن جبارة[(٣)] وكان مولده سنة ست وسبعمائة وسمع منه الأنفي وابن سعد[(٤)] سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.

٤ ـ مدرسو (المدرسة الأمينية):

١ ـ أول من درس بتعيين الواقف جمال الإسلام أبو الحسن علي السلمي الدمشقي الفقيه الفرضي تفقه على الفقيه نصر المقدسي[(٥)] وسمع عليه وأعاد الدرس له ولازم الغزالي[(٦)] ودرس بحلقة الغزالي إضافة إلى الأمينية. ثم بعده أبو بكر بن جمال الإسلام السلمي لقد كتب وحصل ودرّس ووعظ في حياة أبيه وولي تدريس الأمينية[(٧)].

ـ ثم درّس بها بعده ولده شرف الدين علي بن أبي بكر السلمي.

٢ ـ ثم ممن درّس بها الشيخ العلامة قطب الدين أبو المعالي محمد النيسابوري وتفقه على ابن يحيى[(٨)] فدرّس بالمجاهدية ثم بالزاوية الغزالية ثم خرج إلى حلب ودرّس بالنورية ثم عاد إلى دمشق فدرس بالأمينية وبالغزالية والجاروخية[(٩)].

٣ ـ قال الأسدي في تاريخه في سنة إحدى وستمائة ضياء الدين أبو الحسن الثعلبي الدمشقي والذي حدث عن ابن هلال وأبي المظفر الفلكي[(١٠)] وكان كثير الفضل ظريف الشكل قد درس بالأمينية وأمّ بمشهد علي رضي الله تعالى عنه.

٤ ـ ثم درس بها الإمام صائن الدين أبو محمد عبد الواحد الدمياطي نزل بدمشق ودرس بالأمينية وأفاد الطلاب وسمع من السلفي أحمد ومحمد ابني عبد الرحمن الحضرمي وعبدالله بن بري النحوي[(١١)] ثم درس بها التقي عيسى بن يوسف الواقي الضرير[(١٢)].

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٥٦.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٨٧.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٢٩٢.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٣٩٥.
(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص١٠.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٣٥.
(٨) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص١٥١.
(٩) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٣٦.
(١٠) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص١٨٨.
(١١) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٢٧٣.
(١٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٣٧.

٥ ـ ثم درس بها بعده جمال الدين أبو الوليد بن عساكر الذين ولي قاضي القضاة بدمشق الذي درس بالأمينية هذه وولاها أياها الوزير صفي الدين أبو بكر بعد الضرير التقي ثم أول من درس بالعادلية[١].

٦ ـ ثم درس بها رفيع الدين الجيلي. قال الذهبي: «كان فقيهاً فاضلاً مناظراً متكلماً متفلسفاً رديء العقيدة»[٢] وقال ابن العماد[٣]: «أنه كان فاسد العقيدة دهرياً مستهزئاً بأمور الشريعة يجيء إلى صلاة الجمعة سكران» ثم أعدم سنة اثنتين وأربعين وستمائة.

٧ ـ ثم درس بها القاضي أبو عبدالله المحمد بن عبدالله الكافي الذي حدث عنه ابن الحلوانية[٤] وابن العديم، والحافظ الدمياطي[٥]. وقال ابن العماد في سنة ثمان وخمسين وستمائة في أيام استيلاء التتار على دمشق: «إن القاضي محيي الدين بن الزكي لما ولي قضاء دمشق انتزع تدريس الأمينية من علم الدين القاسم[٦] وولاها لولده عماد الدين عيسى مع مشيخة الشيوخ ثم درس بها القاضي قطب الدين أبو المعالي بن أبي عصرون وأكثر عليه الطلبة. ثم وليها بهاء الدين بن إمام المشهد سنة ٧٣٦هـ[٧].

٨ ـ ثم درس بها قاضي القضاة نجم الدين أبو بكر الملقب بـني الدولة في سنة تسع وستين وستمائة وتوفي سنة ثمانين وستمائة ثم وليها الشيخ علاء الدين أبو الحسن الزملكاني الأنصاري[٨] ودرس بها في العشرين من محرم سنة ثمانين وستمائة.

ثم أخذها منه قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان فدرس بها في صفر سنة إحدى وثمانين وستمائة[٩].

٩ ـ ثم عاد إليها علاء الدين الزملكاني مدرس الأمينية هذه[١٠].

١٠ ـ ثم درس بها العلامة كمال الدين أبو المعالي محمد مولده سنة سبع وستين

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٣٩.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٤٠.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٦٦.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٢٢.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٥٨.
(٦) ابن العماد: شذرت الذهب ج٥ ص٣٠٧.
(٧) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١٧٣.
(٨) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٤١٧.
(٩) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٤٣.
(١٠) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٤٤.

وستمائة وتفقه على الشيخ تاج الدين الغزاري، وقد درس بعد أبيه بالمدرسة الأمينية ثم درس بها قاضي القضاة نجم الدين بن صصري[(١)].

١١ ـ ثم درّس بها الشيخ الإمام أمام الدين أبي حفص عمر بن خلف التميمي القزويني كما درّس بالقيمرية[(٢)]. ثم درّس بها بعده الشيخ الإمام العالم جمال الدين أبو العباس أحمد بن محمد الصدر الميمي الدمشقي ميلاده سنة تسع وستين وستمائة وأشتغل على الشيخ تاج الدين الغزاري، والأدب على الرشيد الفارقي[(٣)].

١٢ ـ ثم درّس بها وبالظاهرية علاء الدين بن القلانسي سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة عوضاً عن أخيه جمال الدين المتوفي، وذكر ابن أخيه محمد بن جمال الدين[(٤)] المتوفي الدرس في العصرونية تركها له عمه المذكور[(٥)].

١٣ ـ ثم درّس بها في رمضان سنة ست وثلاثين وسبعمائة الإمام البارع في فنون العلم، بهاء الدين أبو المعالي محمد بن سالم الأنصاري الدمشقي ولد سنة ست وتسعين وستمائة وقد أخذ النحو عن الشيخين محمد الدين التونسي ونجم الدين القحفازي[(٦)] ثم توجه إلى طرابلس وأقام بها مدة يقرىء الناس ويشتغلون عليه ثم عاد إلى دمشق وولاه السلطان مدرسة الأمينية بدمشق[(٧)].

١٤ ـ قال السيد الحسيني في ذيله في سنة ثلاث وستين وسبعمائة توفي الإمام علاء الدين علي بن سعيد الأنصاري محتسب دمشق ومدرّس الأمينية، ثم درّس بعده بالأمينية شيخ الإسلام تاج الدين السبكي. ثم درّس بها العلامة عماد الدين أبو الفدا مولده سنة ثماني عشر وسبعمائة. وأخذ بالقدس عن الشيخ تقي الدين القرقشندي، وكان ممن قام على تاج الدين السبكي وأخذ منه تدريس الأمينية[(٨)].

١٥ ـ ثم درّس بها الإمام العالم تاج الدين محمد ابن الشيخ شهاب الدين[(٩)]. كان مولده سنة أربع وثمانين وسبعمائة قرأ القراآت ونزل له والده عن تدريس الأقبالية فدرس بها.

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٤٦.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ابن العماد: شذرت الذهب ج٥ ص٤٠٩.
(٤) ابن كثير: تاريخ البداية والنهاية ج١٤ ص٣٠٦.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٤٨.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٤٩.
(٧) المصدر نفسه.
(٨) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٥٠.
(٩) المصدر نفسه.

١٦ ـ ثم درّس بها شمس الدين محمد بن موسى العسقلاني التميمي ميلاده سنة ثلاث وستين وسبعمائة أخذ عن سراج الدين قبن الملقن[(١)] ثم درس بها ولده بعده العلامة كمال الدين محمد، وقد تقدمت ترجمتها في المدرس الأمجدية، وقد ولي الإعادة بهذه المدرسة جماعات منهم عبد الكريم الحرستاني، بعد سنة ثمان وعشرين وثمانمائة[(٢)].

٥ ـ مدرسو (المدرسة الجاروخية):

١ ـ أول من درّس بها العلامة الإمام محمود المعروف بالمجير الواسطي أحد العلماء الذي تفقه بالنظامية على أبي منصور بن الرزاز[(٣)]، ثم سار إلى دمشق ودرّس بالمدرسة الجاروخية، ثم وليها الشيخ كمال الدين محمد بن رضي الدين أحمد إلى سنة تسع وستين وستمائة ثم وليها عز الدين الأردبيلي ثم وليها نجم الدين الفاروثي فولي بها إلى سنة إحدى وسبعين وستمائة[(٤)].

٢ ـ وممن درّس بها الفقيه الإمام العالم شرف الدين أبو عبدالله الحسين ابن سلام ولد سنة ثلاث وسبعين وستمائة وقد برع وحصل وناظر وأفتى ودرس بالجاروخية[(٥)]. وفي سنة ثلاثين وسبعمائة توفي الشيخ نجم الدين عبد الرحيم المعروف بابن الشحام قدم دمشق في سنة أربع وعشرين، فدرس بالظاهرية البرانية ثم بالجاروخية[(٦)]. ثم نزل بها لزوج ابنته نور الدين الأردبيلي الذي قرأ المعقولات، وتخرج بالشيخ فخر الدين الجاربردي[(٧)]، ثم قدم دمشق وأشتغل في الفقه ودرّس بالظاهرية البرانية والجاروخية[(٨)]، ثم وليها العلامة عماد الدين الحسباني وهذا آخر ما وقفنا عليه من مدرسيها[(٩)].

٦ ـ مدرسو (المدرسة الحمصية):

وقد درّس بها الشيخ العلامة محيي الدين الطرابلسي وكان رحمه الله قاضي حصن عكار ويلقب بأبي رياح وحضر عنده الشيخ العالم القاضي جلال الدين القزويني[(١٠)].

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٤٤.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٥٢.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص١٢٢.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٧١.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٧٢.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص١٤٨.
(٨) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٧٢.
(٩) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٧٣.
(١٠) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١٢٤.

٧ ـ مدرسو (المدرسة الخبيصية):

قال الأسدي في سنة أربع عشرة وثمانمائة: «أقضى القضاة بدر الدين حسين المعروف بابن قاضي أذرعات أشتغل في النحو على شرف الدين الأنطاكي وأخذ الفقه عن نجم الدين بن الجابي[١] وتولى مشيخة مدرسة الخبيصية ولم يكن بيده تدريس»[٢].

٨ ـ مدرسو (المدرسة الدماغية):

١ ـ أول من درّس بها للشافعية قاضي القضاة شمس الدين الخويي ثم موفق الدين الخويي ثم شهاب الدين بن قاضي القضاة شمس الدين الخويي ثم عماد الدين بن يونس وأستمر فيها إلى أن توفي سنة أربع وسبعين وستمائة. ثم درّس بها وهو شاب قاضي القضاة شهاب الدين أبو عبدالله محمد الخويي ولد سنة ست وعشرين وستمائة وله ترجمة طويلة[٣].

٢ ـ ثم درّس بها الشيخ الإمام بدر الدين أبو اليسر المعروف بابن الصائغ ميلاده سنة ست وسبعين وستمائة وفي سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ولي خطابة القدس الشريف وخطب بها، ودرّس بالعمادية وبالدماغية هذه[٤]. ثم درّس بها نور الدين محمد في سنة أربع وأربعين وسبعمائة. وفي سنة تسع وأربعين وسبعمائة درس بها القاضي جمال الدين السبكي ولد بمصر سنة اثنين وعشرين وسبعمائة[٥].

٣ ـ ثم درّس بها الإمام العلامة صدر المدرسين وأوحد المناظرين شمس الدين أبو عبدالله محمد خطيب يبرود ومدرس الشامية البرانية، ميلاده سنة إحدى وسبعمائة وبرع في الأصول وشارك في العلوم ودرّس وأفتى إلى أن توفي في سنة سبع وسبعين وسبعمائة ودفن بباب الصغير عند الشيخ حماد[٦].

٤ ـ ثم درّس بها العلامة نجم الدين أبو العباس أحمد المعروف بابن الجابي. ميلاده سنة ست وثلاثين وسبعمائة، ودرّس وأفتى وأشتغل كان أولاً فقيراً ثم درس بالدماغية، ثم تحول من الفقر فورث هو وأبنه مالاً كثيراً من جهة زوجته ثم ولي تدريس الظاهرية وتوفي سنة سبع وثمانين وسبعمائة[٧]. ثم درّس بها مفتي المسلمين

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٢٩٦.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٧٦.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٧٨.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٧٩.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٧٢.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٨١.

شهاب الدين أبو العباس أحمد بن طرخان أحد الأئمة العلماء أشتغل في الفقه والحديث والنحو والأصول ودرجس بالدماغية هذه[(١)]. وكان يميل إلى ابن تيمية فمات في سنة ثلاث وثمانمائة ودفن في مقبرة باب الفراديس. ثم درس بها شيخنا شيخ الإسلام بدر الدين الأسدي ثم نزل عنها لمفتي المسلمين بهاء الدين أحمد الحواري ثم نزل عنها للقاضي ابن القاضي ولي الدين الشهير بابن قاضي عجلون[(٢)].

٩ ـ مدرسو (المدرسة الخضرية):

وقال النعيمي: «لم أقف على شيء من مدرسيها»[(٣)]. بينما ابن كثير قال: «والذي حقق من مدرسيها: الشيخ عماد الدين ثم بعده جمال الدين الحموي، وكان يذكر هناك الدرس أيضاً عماد الدين عبد العزيز بن محمد بن الصائغ»[(٤)].

١٠ ـ مدرسو (المدرسة الشاهينية):

١ ـ أول من درّس بها الشيخ العالم شمس الدين أبو عبدالله محمد العجلوني ميلاده سنة سبع وخمسين وسبعمائة وحفظ التنبيه، وأدرك الشيخ شمس الدين ابن قاضي شهبه وغيره من المشايخ وأخذ عنهم، وأشتهر بحفظ الفروع، ونزل له القاضي شمس الدين الأخنائي عن حصته من تدريس العزيزية[(٥)]. وقال الشيخ تقي الدين الأسدي: لم ينجب عليه أحد من الطلبة، وكان لا يعرف شيئاً من العلوم سوى الفقه ولا يعرف العروض، وعنده صبر وأحتمال ورياضة توفي سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة ونزل عن غالب وظائفه للسيد شهاب الدين ابن نقيب الأشراف[(٦)].

٢ ـ ودرّس بها بعده العلامة بدر الدين أبو الفضل محمد ابن شيخ الشافعية ابن قاضي شهبه في يوم الثلاثاء رابع شهر ربيع الأول سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة وحضر جماعة من الفقهاء والطلبة ودرّس في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ الآية[(٧)].

١١ ـ مدرسو (المدرسة الشريفية):

قال النعيمي: «لم أعرف من درّس بها غير الشيخ نجم الدين الدمشقي»[(٨)].

---

(١) المصدر نفسه.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٨٢.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٠٧.
(٤) ابن كثير: تاريخه البداية والنهاية ج١٣ ص٢٨٦.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٣٧.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) الآية الكريمة: القرآن.
(٨) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٣٨.

١٢ ـ مدرسو (المدرسة الطبرية):

درس بها الشيخ العالم شرف الدين أبو عبدالله الحسين بن هبة الله بن أُله سنة سبع وخمسين وستمائة وأشتغل وأفتى وكتب بخطه الحسن كثيراً من الكتب.

ويقول الذهبي في العبر: «شيخنا المعمر الصالح درس بالعمادية وخرّج له جزءاً من حديثه بالسماع وجزءاً بالإجازة وحدث بهما ودرّس بالطبرية بباب البريد توفي سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ودفن بقاسيون»[(١)].

١٣ ـ مدرسو (المدرسة الطيبة):

١ ـ أول من درّس بها الخطيب أبو العباس الغزاري[(٢)]. وقال النعيمي في سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة: «شيخنا العلامة الزاهد الورع ركن الدين أبو يحيى زكريا نائب الخطابة ومدرس الطيبة والأسدية». ثم درّس بها الشيخ بهاء الدين ابن أمام المشهد[(٣)].

٢ ـ ثم درّس بها القاضي تاج الدين أحمد ابن القاضي فتح الدين ابن الشهيد درس بالطيبة سنة أربع وسبعين وسبعمائة ثم ولي قضاء العسكر. ثم وليها الشيخ شمس الدين ابن الكفتي الشافعي سنة ثمان عشرة وثمانمائة وكان ذهنه جيداً وله فهم بالنحو، ثم عاشر الناس فدخل في الترك والدوارين تغير حاله وساءت طريقته[(٤)].

٣ ـ ثم درّس بها شيخنا مفتي المسلمين شمس الدين أبو عبدالله محمد العجلوني سنة سبع وثلاثين وثمانمائة وحضر معه الجماعة الذين حضروا بالعذراوية[(٥)].

١٤ ـ مدرسو (المدرسة الظبانية):

درّس بها في ذي القعدة سنة أربع وسبعين وسبعمائة الحافظ شهاب الدين ابن حجي[(٦)].

١٥ ـ مدرسو (المدرسة الظاهرية الجوانية):

١ ـ أول من درّس فيها الشيخ رشيد الدين الفارقي ولد سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وسمع الحديث في جماعة فدرس بالناصرية الجوانية. وكانت له اليد

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٥٤.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٥٥.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٥٦.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٥٧.

الطولى في التفسير والمعاني والبيان والبديع واللغة وأنتهت إليه رياسة الأدب، وقد وجد مخنوقاً في مسكنه بمدرسة الظاهرية وقد أخذ ماله سنة تسع وثمانين وستمائة[١].

٢ ـ ودرّس بعده بها علاء الدين بن بنت الأعز[٢]، وفي يوم الأربعاء ذكر الدرس بالأمينية والظاهرية علاء الدين بن القلانسي عوضاً عن أخيه جمال الدين[٣].

٣ ـ ثم درّس بها القاضي العالم الأديب فتح الدين أبو بكر المعروف بابن الشهير، ميلاده سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، وأشتغل في العلوم وتفنن، وفاق أقرانه في النظم والنثر، وقد درس بها عوضاً عن ابن قاضي الزبداني[٤]، ثم درّس بها الشيخ شهاب الدين الأذرعي مدة، ثم درس بها قاضي القضاة شمس الدين الأخنائي ثم نزل عن هذه المدرسة لتاج الدين بن الشهير[٥].

٤ ـ وقال الأسدي في سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة درس قاضي القضاة نجم الدين بن حجي بالمدرسة الجوانية ثم درس بالظاهرية والركنية والناصرية[٦].

٥ ـ في سنة سبع وثمانين وستمائة ولد أبو إسحاق اللوري إبراهيم بن يحيى الرعيني، وحجّ فسمع من ابن رواح[٧] وسكن دمشق وقرأ الفقه ثم ولي مشيخة دار الحديث الظاهرية، ثم وليها بعده الشيخ الإمام المقرىء المفسر عزّ الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم الفاروثي قد ولي مشيخة الظاهرية والتدريس بالنجيبية ثم عزل من الخطابة بالخطيب الموفق[٨] فتألم لذلك وترك الجهات وأودع بعض كتبه وكانت كثيرة جدًا حتى قال ابن العماد: خلف الفي ومائتي مجلد سمع منه البرزالي كثيراً (صحيح البخاري)[٩] و(جامع الترمذي)[١٠]، وكان فقيهاً شافعياً مدرساً مفتياً له محبة بالقلوب وتوفي سنة أربع وتسعين وستمائة[١١].

٦ ـ وفي سنة اثنتين وتسعين وستمائة ولي مشيخة دار الحديث بالظاهرية الشيخ

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٦٥.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٤٤٤.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١١٣.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٦٧.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٤٢.
(٨) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٤٥٣.
(٩) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص١٣٤.
(١٠) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص١٧٤.
(١١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٦٩.

تقي الدين الواسطي أنفرد بعلوّ الرواية وقد تفقه ببغداد ثم رحل إلى الشام ودرّس بالصاحبية عشرين سنة وفي آخر عمره ولي مشيخة دار الحديث الظاهرية وكان داعية إلى مذهب السلف[(١)].

٧ ـ وفي سنة خمس وعشرين وسبعمائة شيخنا المتوفي عفيف الدين إسحاق بن يحيى الآمدي سمع الحديث عن جماعة كثيرين وكان شيخاً حسناً يحب الرواية ولديه فضيلة وتولى مشيخة الظاهرية[(٢)]. وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة باشر مشيخة دار الحديث الظاهرية الشيخ شهاب الدين بن جهبل وترك تدريس الصلاحية بالقدس الشريف وأختار دمشق وحضر عنده القضاة والأعيان[(٣)].

١٦ ـ مدرسو (المدرسة العذراوية):

١ ـ فيمن توفي سنة أربع وسبعين وستمائة: الشيخ عماد الدين عبد العزيز محمد بن عبد القادر بن عبدالله[(٤)]، وكان مدرساً بالعذراوية وشاهداً بالخزانة يعرف الحساب جيداً ثم درّس بها بعده العلامة صدر الدين المعروف بابن الوكيل[(٥)] وفي سنة عشر وسبعمائة: درّس بالعذراوية الصدر سليمان الكردي[(٦)] وبالشامية الجرانية الأمين سالم[(٧)] انتزعاهما من ابن الوكيل. وفي سنة إحدى عشرة وسبعمائة ولي العذراوية شرف الدين حسين بن سلام[(٨)].

٢ ـ قال الحسيني في الذيل في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة: «مات القاضي تقي الدين عبدالله بن العلامة زين الدين بن المرحل الشافعي. درس بالعذراوية وخطب بالشامية. ثم درّس بها القاضي جمال الدين السبكي[(٩)] الذي توفي سنة سبع وثمانين وسبعمائة. ثم درّس بها الإمام الحافظ شهاب الدين بن نشوان[(١٠)] وحضر عنده جماعة من الفقهاء ودرّس في قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ﴾ الآية. وبقي شهاب الدين الناظر على المدرسة المذكورة.

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٧٠.
(٢) ابن حجر: الدررالكامنة ج١ ص٣٥٨.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٧١.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٨٣.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٨٥.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) ابن كثير: تاريخه البداية والنهاية ج١٤ ص١٣٠.
(٨) النعيمي: الدارس في تارخي المدارس ج١ ص٢٨٦.
(٩) المصدر نفسه.
(١٠) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٨٧.

٣ ـ وقال ابن قاضي شهبة في سنة إحدى وعشرين حضر الشيخ علاء الدين بن سلام تدريس العذراوية وتكلم على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الآية. وفي سنة تسع عشرة وثمانمائة درس القاضي تاج الدين بن الزهري بالمدرسة العذراوية عوضاً عن الشيخ شهاب الدين بن نشوان ودرس درساً عجيباً وعجز عن الكلام وتلعثم في الدرس[١].

٤ ـ وفي ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وثمانمائة درّس الولد أبو الفضل في المدرسة العذراوية وحضر عنده القضاة والفقهاء في المدرسة ويومئذ درس شمس الدين بن سعد العجلوني وحضر معه الجماعة وهذا أول تدريسها وفي سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة حضر الناس الدروس وحضرت العذراوية والعزيزية والمسرورية[٢]. ثم نزل عنها للعلامة برهان الدين إبراهيم ابن القاضي شمس الدين محمد، ودرس بها يوم الأحد رابع عشر ذي القعدة سنة ثمانين وثمانمائة في قوله: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾الآية[٣].

١٧ ـ مدرسو (المدرسة العمادية):

١ ـ فيمن مات سنة تسع وثلاثين وسبعمائة شيخنا المعمر الصالح شرف الدين الحسين بن علي بن العماد عن ثمانين سنة ودرس بالعمادية[٤] وحدّث عن ابن أبي اليسر، وابن الأوحدي[٥]. وقال ابن كثير في تاريخه في سنة ثلاث وثمانين وستمائة في ترجمة عز الدين بن الصائغ: ودرّس بعده ابنة محيي الدين أحمد بالعمادية وزاوية الكلاسة من جامع دمشق ثم توفي ابنه أحمد فدرّس بعده بالعمادية والدماغية الشيخ زين الدين الفارقي شيخ دار الحديث نيابة عن أولاد القاضي عز الدين بن الصائغ بدر الدين وعلاء الدين[٦].

ـ وقال العلامة بدران عن الذهبي: «أن المدرسة بناء نور الدين ودرّس بها جماعة منهم: الحارثي وولداه عز الدين وتاج الدين، وعماد الدين الكاتب»[٧].

١٨ ـ مدرسو (المدرسة الغزالية):

١ ـ قال النعيمي في موضع آخر من الدارس في سنة سبع وعشرين وستمائة:

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٨٨.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ٢٨٩.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٩٠.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣١٢.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٦١.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص٣٠٤.
(٧) بدران: منادمة الاطلال ص١٣٤.

«الشيخ بيرم الماريني كان محباً صالحاً منقطعاً عن الناس وكان مقيماً بالزاوية الغربية وهي التي يقال لها الغزالية، وتعرف بزاوية الدولعي وبزاوية القطب النيسابوري، وبزاوية الشيخ نصر المقدسي قاله أيضاً شهاب الدين أبو شامة»[1].

٢ ـ قال ابن العماد: «أول من درس بها الشيخ نصر المقدسي. ثم من بعده ابن عبد خطيب الجامع بدمشق. ثم من بعده جمال الدين الدولعي ثم من بعده أخوه شرف الدين ثم من بعده أصل الدين الأسعردي[2]، ثم من بعده عماد الدين أبن شيخ الشيوخ[3]، ثم من بعده عز الدين بن عبد السلام، ثم من بعده كمال الدين محمد بن طلحة[4]، ثم عماد الدين داود خطيب بيت الآبار[5]، ثم ولده محيي الدين.

٣ ـ درس بها الخطيب محيي الدين بن الحرستاني الشافعي خطيب دمشق وابن خطيبها ولد سنة أربع عشر وستمائة وأجاز له جده المؤيد الطوسي وأبو روح الهروي[6] ودرّس بالغزالية والمجاهدية وأفتى وأجاد[7]، وتوفي سنة اثنتين وثمانين وستمائة.

وكان ينوب عنه في الغزالية والخطابة ولده تاج الدين أبو القاسم عبد الصمد[8].

٤ ـ وقال النعيمي في سنة اثنتين وثمانين وستمائة درس الخطيب جمال الدين عبد الكافي بن عبد الملك بالغزالية عوضاً عن الخطيب بن الحرستاني وأخذ منه الدولعية لكمال الدين بن النجار ثم أخذ شمس الدين الأيكي تدريس الغزالية من ابن عبد الكافي والأيكي هذا كان من الفضلاء والمفسرين للمفصلات ولا سيما في علم الأصلين والمنطق وعلم الأوائل[9]. ثم درس بها أبو المعالي محمد بن أبي الفضل النهرواني[10].

٥ ـ قال أيضاً في سنة ثلاث وتسعين وستمائة: «وفي يوم الأربعاء ثامن ذي القعدة درّس بالغزالية شرف الدين المقدسي عوضاً عن قاضي القضاة شهاب الدين

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣١٤.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٠٤.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٥٩.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٧٥.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٧٥.
(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٨١.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣١٩.
(٨) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٤٢٦.
(٩) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٢٠.
(١٠) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٢١.

الخويي»[١] ثم درس بها ابن صصري عوضاً عن الخطيب القدسي. وفي سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة: «قدم على القضاء ومشيخة الشيوخ وقضاء العساكر وتدريس العادلية والغزالية والأتابكية»[٢] ثم درس بها قاضي القضاة تقي الدين السبكي ثم درس بها ولده قاضي القضاة بهاء الدين ثم درس بها أخوه تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب ثم علم الدين السبكي سنة سبعمائة وثلاثين[٣]، ثم درس بها ابن حملة الشافعي سنة ٧٣٣[٤].

٦ ـ وفي سنة ست عشرة وثمانمائة حضر قاضي القضاة شمس الدين الأخنائي المدرس بالغزالية ودرّس في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ الآية. وفي شوال سنة سبع عشرة وثمانمائة وفي يوم الأحد حضر قاضي القضاة نجم الدين ابن حجي الدرس بالحلقة الغزالية[٥]. وفي سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة حضر سراج الدين الحمصي الدرس بالغزالية ودرس في قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وذكر درساً لا بأس به أخذه من مسودات القاضي جلال الدين البلقيني[٦].

وفي منادمة الأطلال عن ابن كثير يقول بدران: «وقد درّس بها جماعة منهم: الشيخ نصر المقدسي والغزالي، وابن خطيب الجامع، والدولقي، وأخوه، والأسعردي، وعماد الدين شيخ الشيوخ، والعز بن عبد السلام. ثم بعدهم عشرون مدرساً منهم الأيكي، ومحمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدران في سنة ثلاثين وسبعمائة. ثم تغيرت أحوالها. قال الأسدي ومن تيمورلنك إلى الآن يعني إلى زمنه لم يدرس بها أحد. قلت: وفي زمننا فقدان التدريس بها من باب أولى»[٧].

١٩ ـ مدرسو (المدرسة الفارسية):

قال الأسدي في تاريخه سنة ثلاثين وثمانمائة حضرت الدرس بتربة الأمير فارس وقد تقرر فيها عشرة من الفقهاء وعشرة مقرية وذلك في الوقف الجديد. ثم وقف قرية صحنايا في سنة ثمان وثمانمائة على مدرسين وفقهاء ومقرية ودرّس بها الشيخان شهاب الدين ابن حجي وجمال الدين الطيماني سنة إحدى عشرة وثمانمائة ولما توفي حضرت الدرس بها نيابة عن ولده جمال الدين، ولم يقرر بها أحد من الفقهاء وإنما

(١) المصدر نفسه.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١٤٨.
(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١٦١.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٢١.
(٧) بدران: منادمة الاطلال ص١٣٥.

يحضر عندي من يقرأ عليّ وكان يصرف للمدرس معلوم يسير، وفي شرط الواقف في الشهر لكل مدرس بثمانون درهماً ولكل مقرىء خمسة عشر درهماً وأستقر فيها فقهاء نواب القاضي وأعيان الطلبة وصرّف لهم معلوم سنة عند تقريرهم في السنة الماضية[(١)].

وقال بدران عن الأسدي: «درجس في هذه المدرسة ابن حجي والطيماني. ومن مدرسيها أيضاً جمال الدين المصري ثم ولده ثم ابن قاضي شهبة ثم ولده ثم تقي الدين ابن قاضي عجلون ثم بدأ أمرها بالتقهقهر»[(٢)].

٢٠ ـ مدرسو (المدرسة الفتحية):

درّس بها الشيخ جمال الدين الباجربقي، ثم درّس بها القاضي شهاب الدين الحسباني الذي نزل عن هذه المدرسة الفتحية للقاضي شرف الدين ابن محمد قاسم الحسباني.

قال ابن قاضي شهبة في شعبان سنة تسع وأربعين وثمانمائة مولده قرأ التنبيه وأشتغل في الفقه وجلس لتحمل الشهادة بباب الشامية وبسويقة صاروجا ثم صار موقعاً بالعادلية وقد درس بالفتحية سنة ٨٣٤. ثم درّس في الشيخ عماد الدين بن خليفة الشافعي سنة ٧٦٥ بقوله: «أن عدة الشهور عند الله اثني عشر شهراً»[(٣)]، وقال بدران في منادمة الأطلال عن ابن شداد: «درّس بها الباجربقي ثم الحسباني ثم جماعات لم يحصر التاريخ أسماءهم»[(٤)].

٢١ ـ مدرسو (المدرسة الفخرية):

١ ـ في سنة إحدى وعشرين وثمانمائة تكاملت عمارة الفخرية وقررت فيها الصوفية وفوضت مشيختها للشيخ شمس الدين البرماوي ودرّس الحنفية للقاضي شمس الدين الديري[(٥)] ودرس المالكية للقاضي جمال الدين المالكي ودرس الحنابلة للقاضي عزالدين البغدادي ثم المقدسي ولم يستطع فخر الدين الأستاذ الحضور عند المدرسين لشدة مرضه[(٦)].

٢ ـ ولنا مدرستان فخريتان إحداهما بالقدس الشريف يقول ابن كثير في

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٢٥.
(٢) بدران: منادمة الاطلال ص١٣٦.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص٢٩٦.
(٤) بدران: منادمة الاطلال ص١٣٧.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص١٨٢.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٢٦.

تاريخه[1] في سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة القاضي فخر الدين كاتب المماليك وهو محمد بن فضل الله ناظر الجيوش بمصر وكان له أوقاف كثيرة وبرّ وإحسان إلى أهل علم وكان صدراً معظماً، وإليه تنسب الفخرية بالقدس الشريف. وثانيتهما بمصر قال الصفدي: عثمان بن قزل الأمير فخر الدين العاملين ولد بمدينة حلب وقف المدرسة المشهورة بالقاهرة والجوز المقابل لها والرباط بمكة والرباط بسفح المعظم[2]، وكان مبسوط اليد معروف بالصدقات في حياته. ثم قال ابن حجي: «لما فتحت ابواب المدرسة بدمشق للقراءة والكتابة بعد أن تم بناؤها لم يستطع بانيها فخر الدين الحضور عن المدرسين لشدة مرضه إذ ذاك وتمادى به المرض إلى أن مات في سنة إحدى وعشرين وثمانمائة»[3].

٢٢ ـ مدرسو (المدرسة القليجية):

١ ـ أول من درس بها زكي الدين بن اللتي، ثم ولده. ثم من بعده عماد الدين بن العربي. ثم جمال الدين بن عبد الكافي وهو مستمر بها إلى الآن، يعني إلى سنة أربع وسبعين وستمائة[4].

ودرّس بها الإمام علاء الدين بن العطار ثم درّس بها بعده أخوه أبو سليمان داود ابن إبراهيم ثم قال الحسيني في ذلك العبر في سنة اثنتين وخمسين وسبعمائة. لقد حدث أبو سليمان داود عن الشيخ شمس الدين، وابن عبد الدائم وولي مشيخة القليجة ثم درّس بها بعده شهاب الدين بن النقيب، ثم شهاب الدين الزهري ثم وليها بعده ولده جمال الدين ثم نزل عنها لأخيه قاضي القضاة تاج الدين في أول سنة إحدى وثمانمائة[5].

٢ ـ ثم درّس بها بدر الدين بن الغالب وكان متشدداً لا يكتب شيئاً إلا ما يوافق الشرع وكان قليل الكلام ملازم الصمت وكان يدرّس بالقليجية الشافعية وكان يحب الكتب ويجمعها، وخلف الفي مجلد لما مات، وكان فيه عدة وظائف يباشرها بما يقارب الألف درهم في كل شهر توفي جمادي الأولى سنة أربعين وسبعمائة[6].

٣ ـ ثم درّس بها زين الدين الدمشقي المعروف بابن الحريري المتوفي في سنة

---

(١) ابن كثير: في تاريخه البداية والنهاية ج١٤ ص١٦٧.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٢٧.
(٣) العلامة بدران: منادمة الاطلال ص١٣٧.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٣٠.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٣١.

ست وعشرين وسبعمائة وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة، كان الشمس الكاتب محمد بن اسد الحراني المعروف بالنجار، يجلس ليكتب الناس عليه بالمدرسة القليجية[١].

ويقول بدران عن الصفدي الوافي بالوفيات: «أنها كانت للشافعية درس بها: زكي الدين ابن الكتبي، ومحمد علي الشهير بابن غانم وثمانية مدرسين سواهما»[٢].

٢٣ ـ مدرسو (المدرسة القواصية):

١ ـ وجعل الواقف والمؤسس ابن القراس تدريسها للشيخ عماد الدين الكردي الذي توفي في ذي الحجة سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة[٣].

ويقول النعيمي[٤]: «رأيت بخط البرزالي: لقد درّس بها الشيخ بهاء الدين بن إمام المشهر ثم نزل عنها للشيخ شمس الدين الكفتي ثم أستقر فيها بحكم وفاته سنة ثمان عشرة وثمانمائة الشيخ تقي الدين اللوبياني وقد مات آخر من درّس بها. وكان قد أستولى من ذرية الواقف جماعة ثم أنتقلت إليه بالوفاة إلى قريبه جمال الدين يوسف اللوبياني ثم من بعده لقريبه الشيخ خليل الكناوي ثم لأخيه الشيخ موسى ثم من بعده أنتقلت إلى القاضي محيي الدين الناصري. ثم قال البرزالي وفي سنة خمس وثلاثين وثمانمائة في وفاة شمس الدين محمد بن قاضي شهبة في رجب سنة ست وعشرين وثمانمائة شمس الدين محمد بن الطباخ قد أذن له الشيه برهان الدين في الإفتاء وكان ذكياً يفهم جيداً توفي مطعوناً بأعلى المدرسة القواسية».

٢٤ ـ مدرسو (المدرسة القوصية):

١ ـ درس بالمدرسة القوصية الشيخ علاء الدين بن العطار. وفي سنة أربع وسبعمائة تكلم الشيخ شمس الدين بن النقيب وجماعة من الفقهاء في الفتاوى الصادرة من الشيخ علاء الدين بن العطار شيخ دار الحديث النورية والقوصية ـ ثم درّس بالقوصية البرهان الأسكندري[٥].

٢ ـ قال ابن حجر في سنة ثلاثين وسبعمائة: «قاضي طرابلس شمس الدين محمد بن عيسى المعروف بابن المجد الشافعي أشتغل مدة وبرع في فنون كثيرة وأقام بدمشق مدة يدرس بالقوصية ويؤم في مدرسة أم الصالح ثم أنتقل إلى قضاء

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) العلامة بدران: منادمة الاطلال ص١٢٩.

(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٣١.

(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٣٢.

(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٣٤.

طرابلس[١]، وقرأ على ابن مشرف والموازيني[٢]، ثم درس بها الإمام بهاء الدين ابن امام مشهد»[٣].

٣ ـ وقال الشيخ تقي الدين الأسدي في صفر سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة: «وفي يوم الأربعاء تاسع عشرية حضرت الدرس بالحلقة القوصية بالجامع الأموي وكان المرحوم بدر الدين ابن الشيخ شمس الدين المغربي قد نزل في مرض موته عن نصف تدريس التقوية ونصف تدريس القوصية ولولده عن النصف الآخر، وفي سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة درّس القاضي تقي الدين بن الأذرعي بالحلقة القوصية وحضرت أنا عنده وجماعة من الفقهاء، ثم درّس بهاابن القاضي شهبة، ثم درّس بها القاضي محب الدين أبو الفضل محمد بن قاضي عجلون، ثم درس بها صهره السيد كمال الدين ابن السيد عز الدين في كتاب البيع»[٤].

٢٥ ـ مدرسو (المدرسة القيمرية):

١ ـ شمس الدين الأذرعي مدرس المرشدية وهو أول من درّس بالقيمرية وأول من ولي قضاء الحنفية توفي في شوال في سنة خمس وسبعين وستمائة[٥]. ثم درّس بهذه المدرسة في سنة إحدى وثمانين وستمائة صلاح الدين محمد بن علي الشهرزوري وابن مدرسها أيضاً. كان شاباً نبيهاً حسن الشكل كريم الأخلاق طيب الكلام ولي تدريسها بعد والده شمس الدين علي توفي في إحدى وثمانين وستمائة، ثم درّس بها بعده في هذه السنة القاضي بدر الدين ابن جماعة ثم قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان وهو أول من جدد في إباحة قاضي القضاة من سائر المذاهب فاستقلوا بالأحكام بعدما كانوا نواباً له[٦].

٢ ـ وقال ابن كثير في سنة سبع وثمانين وستمائة توجه الشيخ بدر الدين ابن جماعة إلى خطابة القدس الشريف بعد موت خطيبه قطب الدين، فباشر بعده تدريس القيمرية علاء الدين أحمد بن القاضي تاج الدين. وفي سنة إحدى وتسعين وستمائة ولي السلطان الأشرف خليل بن قلاوون نيابة دمشق لعز الدين ايبك الحموي[٧] عوضاً عن الشجاعي علم الدين سنجر ثم تولى الأخير القيمرية ثم درّس القاضي أمام الدين

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص١٣١ (دار الجيل ـ بيروت).
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص١٨.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٣٤.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٣٥.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٤٠.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٣٧.
(٧) ابن كثير: تاريخه البداية والنهاية ج١٤ ص٣٢.

بالقيمرية عوضاً عن صدر الدين ابن رزين في سنة خمس وتسعين وستمائة[١].

٣ ـ وقال الذهبي في العبر في سنة سبع وأربعين وسبعمائة: «وفيها توفي الشيخ شمس الدين محمد بن الصلاح مدرس القيمرية. وفي ذيله لتلميذه السيد شمس الدين الحسيني في هذه السنة: وفيها توفي شيخنا شمس محمد بن الصلاح الشهرزوري مدرس القيمرية[٢].

ثم درّس بها قاضي القضاة بهاء الدين السبكي[٣]. ثم ولده قاضي القضاة ولي الدين أبو ذر ثم درس بها شرف الدين يونس ابن القاضي علاء الدين بن ابي البقاء[٤] إلى أن توفي سنة أربع عشرة وثمانمائة، قال الأسدي في تاريخه وولي وظائفه وحضر في تدريس العزيزية والقيمرية الشيخ شهاب الدين بن حجي والصدر قاضي القضاة نجم الدين بن حجي[٥].

٤ ـ وقال ابن كثير في سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة: «وفي يوم الأحد رابع عشرين شهر ربيع الأول حضر ابن أخي قاضي القضاة جمال الدين بن جملة أعادة القيمرية نزل له عنها»[٦].

ثم قال بدران عن ابن السبكي: «السهروردي هو مدرس القيمرية بدمشق توفي سنة خمس وسبعين وستمائة»[٧].

٢٦ ـ مدرسو (المدرسة الكروسية):

محمد بن عمر ابن الشيخ نجم الدين وكيل بيت المال بدمشق كان يقوم بالتدريس بالمدرسة الكروسية كما وجدنا بترجمة والده عمر بن أبي القاسم[٨]، ثم وليها نجم الدين عمر شافعي المذهب وكانت وفاته سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة وكان من أحفظ الأخبار في أهل عصره وتواريخهم ووقائعهم لا يدانيه أحد في ذلك وأعترف له بذلك القاضي شهاب الدين بن فضل الله[٩]. كما درّس بها محمد بن نجم الدين ابن أبي الطيب[١٠].

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٣٨.
(٢) المصدر نفسه. (٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٣٩.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١٦١.
(٧) العلامة بدران: منادمة الاطلال ص١٤٢.
(٨) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص٣٧.
(٩) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص١٦٠.
(١٠) العلامة بدران: منادمة الاطلال ص١٤٤.

٢٧ ـ مدرسو (مدرسة الكلاسة):

١ ـ وعن النعيمي قال: «درّس بها الكمال بن الحرستاني، ثم درّس بها قاضي القضاة بهاء الدين ابن الزكي، ثم محمد بن إبراهيم الصفدي الفقيه العالم الذين نزل فقيهاً بالمدرسة وحفظ كتاب الشيخ زين الدين الذي ألفه في الأصول وأشتغل وحصّل. ثم أذن له بالفتوى مدرس الشامية ابن خطيب يبرود، ورتب مدرساً بالكلاسة ثم توفي سنة تسع وثمانين وسبعمائة»[١].

٢ ـ ثم درّس بها مدة قاضي القضاة عز الدين أبو المفاخر محمد... ابن خليل الأنصاري ثم ولي القضاء بدمشق مرتين إلى أن توفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وكان له عقل وتدبير، وقد سمع الحديث وخرّج له ابن بلبان مشيخة قرأها ابن جعوان[٢]. ثم درّس بهذه المدرسة بعده ابنه محيي الدين أحمد، ثم درّس بها الإمام جمال الدين بن الرهاوي[٣]. ثم درّس بها العلامة شمس الدين الصرخدي. ثم قال الأسدي في سنة خمسين وثلاثين وثمانمائة: «يومئذ حضر رضي الدين محمد بن شهاب الدين محمد بن شهاب الدين الغزي مدرس الكلاسة وقد درس جيداً وله فضل ونشأ على طريقة حسنة غير أنه يلثغ في حروف يبدلها بغيرها ثم سافر إلى مصر فولاه القاضي كاتب السر بمصر كمال الدين البارزي تصديراً جدده له بالكلاسة ورتب له كل شهر مائة وخمسين درهماً»[٤].

٢٨ ـ مدرسو (المدرسة المجاهدية الجوانية):

١ ـ أول من درّس بها قاضي القضاة منتجب الدين أبو المعالي محمد... القرشي. ودرّس بها بعده زكي الدين أبو الحسن علي[٥]. ثم درّس بها قطب الدين النيسابوري، ثم درّس بها جمال الأئمة أبو القاسم ابن المانح ـ ثم درّس بها أبو الفضائل بن رستم[٦]. ثم درّس بها الخطيب بن الحرستاني، ثم درّس بها قاضي القضاة بهاء الدين بن الزكي ثم درّس بها العلامة علاء الدين الحبكي، ثم درّس بها جمال الدين بن قاضي شهبة[٧].

٢ ـ وقال ابن قاضي شهبة في ذيله سنة ست وعشرين وثمانمائة ومن خطه

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٤٢.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٤٤٤.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٤٢.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ لمدارس ج١ ص٣٤٣.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٢١٣.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٤٦.
(٧) المصدر نفسه.

نقلت: وفي يوم الأحد سادس عشر درست بالمدرسة المجاهدية وحضر عندي فقهاء الشافعية وكنت قد وليت التدريس من سنين وكانت المدرسة خراب. وفي سنة تسع وأربعين درّس الولد بدر الدين أبو الفضل بالمدرس المجاهدية نزلت له عنه. وكان التدريس المذكور بيدي أكثر من ثلاثين سنة، ثم تولاها ولده الزيني عبد القادر ثن نزل عنها لشيخنا قطب الدين الخيضري ولزين الدين الطرابلسي ثم نزل عنه للشريف الحلبي وقد أخبرني عن ميلاده أنه سنة إحدى وخمسين وثمانمائة»[١].

٢٩ ـ مدرسو (المدرسة المجاهدية البرانية):

قال ابن شداد: «والذي تحقق ممن وليها من المدرسين شمس الدين عبد الكافي. ومن بعده تاج الدين أبو بكر الشحروري ثم من بعده تاج الدين المراغي[٢].

وهذا آخر ما توصلنا إليه من مدرسي المدارس الشافعية في دمشق ثم المدارس الحنفية. وننتقل إلى مدرسي المدارس المالكية ومن بعدها مدرسي المدارس الحنبلية من دمشق وحدها. ومن ثم ننتقل إلى باقي المدرسين في بقية بلاد الشام.

هـ ـ مدرسو المدارس الحنفية في العصر المملوكي بدمشق

١ ـ مدرسو المدرسة البلخية:

١ ـ أول من تولى التدريس فيها بالعصر المملوكي. كمال الدين أبو الفضائل، ولم يزل بها مدرساً إلى أن خرج من دمشق ناجعاً بسبب استيلاء التتار عليها في سنة ثمان وخمسين وستمائة. ثم وليها بعده صدر الدين إبراهيم الهندي ثم عاد كمال الدين إليها في أواخر السنة المذكورة[٣].

وبقي مستمراً فيها إلى أن توجه صحبة الخليفة المستنصر[٤] المعروف بالأسود وقتل بالفلوجة، ومولد كمال الدين سنة ثمان عشرة وستمائة. وأستخلف بها المولى الشيخ الإمام عبد القادر وأقام بها سنة واحدة.

٢ ـ وتولاها بعده رشيد الدين اسماعيل المعروف بابن المعلم وأستمر بها إلى سنة أربع وسبعين وستمائة ـ وفي سنة أربع عشرة وسبعمائة مات بمصر العلامة شيخ الحنفية رشيد الدين اسماعيل عن إحدى وتسعين سنة وسمع من السخاوي وأفتى ودرس فيها ومات قبله أبنه تقي الدين ببعلبك تغيّر قبل موته بسنة أو أكثر وأنهزم[٥].

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ لمدارس ج١ ص٣٤٦ ـ ٣٤٧.
(٢) المصدر نفسه ص٣٤٧.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٦٩.
(٤) ابن كثير: تارخي البداية والنهاية ج١٣ ص٢٤٨.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٦٩.

٢ ـ مدرسو (المدرسة التاجية):

وقال النعيمي في سنة إحدى عشرة وسبعمائة: «الشيخ شعبان بن أبي بكر بن عمر الأربلي شيخ الحلبية بجامع بني أمية كان صالحاً مباركاً فيه خير كثير، وكان كثير العبادة، وروى شيئاً من الحديث، وخُرجت له مشيخة حضرها الأكابر[(١)].

٣ ـ مدرسو (المدرسة الناشية):

وقال الحافظ البرزالي ومن خطّه نقلت في تاريخه في سنة خمس وثلاثين وسبعمائة توفي الإمام الفاضل المفتي بدر الدين محمد بن الصدر جمال الدين... ابن الفويرة الحنفي بداره ظاهر دمشق...» ومولده سنة ثلاث وتسعين وستمائة، لقد درّس بالخاتونية البدائية وبمسجد الناشي وأفتى وأشتغل عليه الطلبة وكان له حلقة بجامع دمشق[(٢)].

٤ ـ مدرسو (المدرسة الجقمقية):

١ ـ قال ابن حجر رحمه الله تعالى. وولي مشيخة هذه المدرسة والتدريس بها السيد عماد الدين أبو بكر بن السيد علاء الدين علي بن سيد ابن عدنان الحسيني. وأشتغل على مذهب أبي حنيفة، وفي النحو ثم ولي الحسبة ثم عزل وأستمر بطالاً وبيده مشيخة الجقمقية وتدريس الريحانية والقذراوية والمقومية[(٣)].

٢ ـ محي الدين العلوي الحسيني. وولي ابناه زين الدين حسين[(٤)] وأمين الدين جعفر[(٥)] نقابة الأشراف فماتا وأحتسبهما عند الله.

٣ ـ ثم زين الدين الحسين حضر إلى دمشق ثم أنتقل إلى نظر حلب ثم إلى نقابة الأشراف بدمشق والديوان إلى أن أستولى قازان على دمشق[(٦)].

٤ ـ في سنة تسع وأربعين وسبعمائة مات الشريف النقيب علاء الدين علي بن زين الدين الحسيني نقيب العلويين بدمشق سمع من ابن البخاري، وباشر المواريث، ثم نقابة السادة الأشراف وولي بعده زين الدين الحسيني ابن عمه وقد تقدم في الأمجدية والأسدية شيء من تراجم بني عدنان[(٧)].

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٧٢.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٧٣.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٧٧.
(٤) ابن كثير: تاريخ البداية والنهاية ج١٣ ص٥١.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٣٣.
(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٩.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٧٩.

٥ ـ مدرسو (المدرسة الجوهرية):

لقد ولي تدريسها الشيخ شرف الدين أبو محمد نعمان... ابن جمال الدين يوسف الحنفي ولد سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة وكان والده من أهل العلم وقدم دمشق وسكن المدرسة النورية ثم ولي مشيخة الخانقاه الحسامية وسكنها، ودرّس بالمدرسة العزية، وكان له مشاركة في النحو والأصول وبعض العلوم العقلية. وكان قاصر في الفقه والفتاوى وولي عوضه تدريس الجوهرية ومشيخة الحسامية، ابن عوض وليس باهل للتدريس بوجه من الوجوه ثم ولي التدريس فيها القاضي الحنفي حسام الدين الرازي سنة ٦٦٩هـ[1].

٦ ـ مدرسو (المدرسة الحاجبية):

قال النعيمي: «لم نقف على من درس بها»[2].

٧ ـ مدرسو (الخاتونية البرانية):

١ ـ قال النعيمي في الدارس سنة إحدى وتسعين وستمائة: (الإمام العلامة جلال الدين أبو محمد عمر الخجندي كان فقيهاً بارعاً زاهداً ودرّس بالعزية ثم حج ورجع إلى دمشق ودرّس بالخاتونية إلى أن توفي عن اثنين وستين سنة ودفن بالصوفية)[3].

٢ ـ ثم ولي تدريسها في سنة ثمان وتسعين وستمائة شمس الدين الحريري قاضي القضاة. وفي سنة خمس عشرة وسبعمائة: «قدم قاضي ملطية إلى دمشق فاعطي تدريس الخاتونية البرانية وشيخ الصوفية وهو الشريف شمس الدين عوضاً عن قاضي القضاة الحنفي البصروي[4] وحضر عنده الأعيان».

٣ ـ وقال الأسدي في سنة ست عشرة وثمان مائة: «بلغني وفاة قاضي القضاة صدر الدين ابن الآدمي بالقاهرة، وكان له بدمشق جهات كثيرة وكان بيده تدريس الخاتونية البرانية والقصاعين، والشبلية، وخزانة كتب الأشرفية بالجامع، وترك ابناً صغيراً انتهى»[5].

٨ ـ مدرسو (المدرسة الريحانية):

١ ـ في سنة خمس وتسعين وستمائة: ابن النحاس الصاحب العلامة محي الدين

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص٢٩٦.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٨٤.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٨٦.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٧٨.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٨٧ ـ ٣٨٨.

الأسدي الحلبي روى عن الكاشغري وابن الخازن[١] وكان من أساطين المذهب[٢].

٢ ـ وفي سنة خمس وخمسين وسبعمائة: مات الإمام العلامة فخر الدين أبو طالب أحمد ابن علي الهمزاني المعروف بابن الفصيح. ولد بالكوفة سنة ثمانين وستمائة وقدم دمشق ودرّس بالريحانية وأفتى وناظر، وله النظم والنثر والمصنفات المفيدة وقد مرت ترجمته بالمدرسة الجقمقية[٣].

٩ ـ مدرسو (المدرسة الزنجارية):

١ ـ في سنة ثمان وتسعين وستمائة: القاضي شهاب الدين يوسف بن محي الدين بن النحاس أحد رؤساء الحنفية ومدرس الزنجارية والظاهرية[٤] ودرّس بعده بالزنجلية قاضي القضاة شمس الدين الأذرعي[٥].

٢ ـ قال الأسدي سنة ست عشرة وثمانمائة من ذيله لتاريخ شيخه: ممن توفي فيه الشيخ شمس الدين محمد الحجيني الحنفي أخذ عن جماعة من مشايخ الحنفية وحفظ كتباً حتى صار في آخر عمره أحفظ الحنفية وقد درس بالمدرسة الزنجيلية[٦].

وهناك فائدتان:

الأولى: أقرأ بالزنجيلية القاضي شهاب الدين الكفري وقد تلا بالسبع على علم الدين القاسم[٧] ودرّس وأفتى وكان ديناً عالماً. وقد توفي سنة تسع عشرة وسبعمائة.

الثانية: قال ابن قاضي شهبة سنة تسع عشرة وثمانمائة الشيخ شمس الدين أبو عبدالله محمد المعروف بابن مؤذن الزنجيلية الحنفي أشتغل بالعلم وحفظ مجمع البحرين. وجلس للشهادة على باب المدرسة المذكورة[٨].

١٠ ـ مدرسو (المدرسة الطرخانية):

١ ـ في سنة ثلاثين وستمائة: القاضي شرف الدين اسماعيل بن إبراهيم[٩] أحد مشايخ الحنفية وله مصنفات في الفرائض وكان يدرّس بالترخانية وبها مسكنه[١٠].

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٢٦.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٠٢.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٠٣.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٠٥.
(٥) ابن كثير: تاريخ البداية والنهاية ج١٤ ص٧٠.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٠٥.
(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٠٧.
(٨) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٠٦.
(٩) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص١٢٩.
(١٠) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤١٥.

وفي سنة تسع وعشرين وستمائة: اسماعيل بن إبراهيم بن... أبو الفضل سمع الحديث بدمشق من يوسف البزار[١] وهيبة الله بن الشيرازي[٢] ودرّس المدرسة الطرخانية.

ثم درّس بها أبو المظفر العراقي[٣].

٢ ـ وقال النعيمي في سنة تسع عشرة وسبعمائة: «وممن توفي فيها من الأعيان الشيخ المقرىء شهاب الدين أبو عبدالله الحسين... ابن بدر الكفري الحنفي ولد سنة سبع وثلاثين وستمائة وسمع الحديث وقرأ كتاب الترمزي وقرأ القرآن بالقراءات، وتفرد بها مدة يشتغل الناس عليه، وجمع عليه السبع أكثر من عشرين طالباً، وكان يعرف النحو والآداب وفنوناً كثيرة ودرّس الطرخانية أكثر من أربعين سنة»[٤].

١١ ــ مدرسو (المدرسة الظاهرية الجوانية):

١ ـ في سنة إحدى وسبعمائة: في صفر خنق شيخ الحنفية العلامة ركن الدين السمرقندي مدرس الظاهرية، والقي في بركتها وأخذ ماله ثم ظهر قاتله أنه قيم الظاهرية فشنق على حائطها[٥].

٢ ـ ثم درّس بها العلامة شمس الدين الحريري الذي توفي بالقاهرة سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. ثم درّس بها عوضاً عن الحريري شمس الدين بن أبي العز وحضر عنده خاله قاضي القضاة وبقية القضاة والأعيان، ثم درّس بها بدر الدين الأردبيلي سنة ٧٣٦هـ[٦].

٣ ـ وممن توفي فيها ودرّس شمس الدين الأذرعي أحد مشايخ الحنفية واحد أعيانهم حكم نيابة نحواً من عشرين سنة كان محمود السيرة، كريم الأخلاق ودرّس بالمعظمية واليغمورية والقليجية والظاهرية وكان ناظراً أوقافها ودرّس بعده في الظاهرية نجم الدين القجغازي[٧]. وفي يوم الأربعاء سنة خمس وأربعين وسبعمائة مات بدمشق شيخ الأدب نجم الدين الذي سمع من البرهان ابن الدرجي[٨].

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٣١١.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٢٦٣.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤١٦.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤١٧.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤١٩.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١٧٣.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٢٠ ــ ٤٢١.
(٨) ابن العماد: شذرت الذهب ج٥ ص٣٧٣.

٤ ـ وفي سنة خمس وعشرين وسبعمائة: مات بدمشق شيخ الظاهرية عفيف الدين إسحاق بن يحيى الأمدي الحنفي في رمضان عن ثلاث وثمانين سنة[١]. وروى هذا الشيخ عن ابن خليل وعن عيسى الخياط والضياء صقر[٢].

٥ ـ وفي سنة ثمان وخمسين وسبعمائة مات بالقاهرة الشيخ قوام الدين لطف الله الحنفي أحد الزهاد، وقد وُلي مشيخة الظاهرية بدمشق إياها[٣] أنتهى.

١٢ ـ مدرسو (المدرسة العزية الحنفية):

١ ـ قال عز الدين الحلبي: أن من درّس بها، حين تعطل القدس، القاضي مجد الدين قاضي الطور وكان رجلاً فاضلاً يلبس الطرحة وذكر بها الدرس[٤]. ثم ذكر بعده.

٢ ـ القاضي شرف الدين عبد الوهاب بن الحوراني وبقي مدة. وذكر بعده رضي الدين عمر بن الموصلي، ثم ذكر بعده شمس الدين بن الجوزي[٥].

١٣ ـ مدرسو (المدرسة القجماسية):

ويقول النعيمي: «وأول من ولي مشيخة هذه المدرسة العلامة شمس الدين أبو تراب محمد بن رمضان الإمامي الدمشقي الحنفي الصوفي انتهى»[٦].

١٤ ـ مدرسو (المدرسة القصاعية):

١ ـ وفيمن مات سنة خمس وسبعين وستمائة: بدر الدين محمد بن عبد الرحمن الدمشقي الحنفي أحد الأدباء الموصوفين المعروف بإبن الغويره لقد تولى هذه المدرسة وأستمر فيها إلى سنة أربع وسبعين وستمائة، لقد درس وأفتى وبرع في الفقه والأصول والعربية ونظم الشعر الرقيق، ودرّس في القصاعين والشبلية[٧].

٢ ـ ثم وليها بعده عماد الدين بن الشماع وكان من فقهاء الحنفية قد درس بمدرسة القصاعين بدمشق وغيرها. ثم وليها بعده قاضي القضاة جلال الدين أحمد الرازي الحنفي ميلاده سنة إحدى وخمسين وستمائة. وقد درس بالزنجارية، والعذراوية والمقومية توفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة[٨].

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٢١.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٢٦١.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٢١.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ٤٢٨.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٢٨ ـ ٤٢٩.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٣٤.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٣٥.
(٨) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٣٦.

٣ ـ وممن توفي فيها الشيخ العالم شريف الدين يعقوب بن التباني الحنفي المصري الذي تولاها ودرّس بها وبعدة مدارس وأفتى وولي ولايات عديدة. ثم درّس بها قاضي القضاة عماد الدين بن العز الصالحي. ثم أولاده من بعده. ثم قاضي القضاة شمس الدين محمد بن عمر الصفدي، ثم قاضي القضاة حسام الدين محمد بن العماد الكاتب الحنفي. ثم قاضي القضاة حميد الدين النعماني، ثم أعيد إليها القاضي حسام الدين أشتغل فيها حتى توفي سنة أربع وسبعين وثمانمائة فأستقر فيها ولده جلال الدين محمد... ثم أستقر بها قاضي القضاة محب الدين بن علاء الدين بن القصيف ودرّس بها وأعاد لهذه المدرسة الفقيه شهاب الدين أحمد... ابن الوزان وكان فقيهاً وحفظ عدة كتب ـ ثم روى الشهاب القوصي فقال: «شيخ الإسلام بدر الدين كان مبرزاً في جميع الفنون قرأت عليه بمدرسة القصاعين»[١].

ثم يقول عبد القادر بدران: «لقد درس بها شهاب الدين الكاني ثم درّس بها سبعة آخرهم حسام الدين الرازي ثم بعد السبعة أثنا عشر مدرساً أيضاً آخرهم محب الدين بن القصيف»[٢].

١٥ ـ مدرسو (المدرسة المعينية):

١ ـ قال الذهبي في العبر في سنة سبع وثلاثين وستمائة: الرشيد النيسابوري محمد بن أبي بكر الحنفي الفقيه[٣]. سمع بمصر من أبي الجيوش العساكر والتاج المسعودي[٤]. وقد درس، وناظر، وولي قضاء الكرك والشوبك، ثم درس بالمعينية.

٢ ـ وقال النعيمي في سنة سبع عشرة وسبعمائة: شهاب الدين الرومي أحمد ابن محمد المراغي درس بالمعينية وأم بمحراب الحنفية بمقصورتهم الغربية وتولى مشيخة الخاتونية، وكان يؤم بنائب السلطنة الأفرم وكان يقرأ بصوت مليح، وكان له مكانة عنده ولما توفي قام ولداه شرف الدين وعماد الدين في وظائفه[٥].

٣ ـ وقال أيضاً في سنة خمسين وثمانمائة: «وولي نظرها وتدريسها القاضي نجم الدين النعماني البغدادي ثم الدمشقي الحنفي من ولد الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه. قدم دمشق من بغداد وتولى التدريس بالمدرسة المعينية وكانت بيده نظرها وتدريسها وكان قد عمرها بعد حريقها وجعلها مدرسة حكمة، ثم ولي وكالة بيت المال بعد وفاة

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٣٧.
(٢) العلامة بدران: منادمة الاطلال ص١٩٥.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٥٣.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٢٨٠.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٥٣.

أبي شامة، ثم ولي القضاء عوضاً عن شمس الدين الصفدي[١].

١٦ ــ مدرسو (المقدمية البرانية):

أول من درس بها نجم الدين بن الفخر القاري، ثم تغلب عليها أولاد الواقف فخر الدين ابن الأمير وتعطلت عن ذكر الدرس بسبب ذلك، ثم ذكر الدرس بعده صفي الدين البصراوي، ثم بعده نجم الدين الصرخدي، ثم من بعده محيي الدين بن عقبة، ثم بعده نجم الدين الكاشي، ثم من بعده فخر الدين بن أبي الوليد انتهى[٢].

١٧ ــ مدرسو (المدرسة المنجكية الحنفية):

١ ـ قال الأسدي في تاريخه في سنة أربع عشرة وثمانمائة: «قاضي القضاة جمال الدين ابن القطب الحنفي، كان عارياً من سائر العلوم، ولي الحسبة قبل الفتنة، ثم ولي ولاية الحنفي فأستعجب الناس من ذلك كل العجب ثم عزل ثم ولي وكانت سيرته من أقبح السير، وكان بيده تدريس المنجكية وبعض العذراوية ودفن بالمقدمية البرانية»[٣].

٢ ـ ثم درّس فيها الشيخ شرف الدين الأنطاكي النحوي ثم تركها لأبنه الصغير والأوسط. وجاء ولده الكبير وجعل ينازع الشيخ شرف الدين لأخيه الصغير فجعل النصف لليتيم والنصف لشرف الدين[٤].

١٨ ــ مدرسو (المدرسة المقصورة الحنفية):

ودرّس بها الشيخ شهاب الدين بن قاضي الحصن أخو قاضي القضاة برهان الدين وحضر عنده القضاة والأعيان. وأنصرفوا من عنده إلى عند ابن أخيه صلاح الدين بالجوهرية، فدرس بها عوضاً عن حميه شمس الدين بن الزكي نزله له عنها[٥].

١٩ ــ مدرسو (المدرسة النورية الكبرى):

١ ـ لقد وليها شيخ الإسلام جمال الدين محمود الحصيري المشهور بالدين والعلم سنة ثلاث وعشرين وستمائة، وإنتماء العلماء إليه وتلمذتهم له وأستمر بها متولياً إلى أن توفي بها في رابع صفر سنة ست وثلاثين وستمائة. وبقيت على ولده من بعده قوام الدين محمد، وكان ينوب عنه بها صدر الدين إبراهيم إلى أن كبر وذكر بها

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٥٤.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٦١.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٦٢ ــ ٤٦٣.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٦٣.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٦٦.

الدرس واستمر بها متولياً إلى حين توفي سنة خمس وستين وستمائة[(١)].

٢ ـ وولي أخوه الشيخ نظام الدين أحمد ابن الشيخ جمال الدين المذكور[(٢)]. واستمر بها حتى سنة أربع وسبعين وستمائة.

٣ ـ ثم درّس بها بعده الشيخ شمس بن الصدر سليمان، وفي سنة إحدى وسبعمائة ولي تدريس النورية الشيخ صدر الدين علي البصراوي الحنفي عوضاً عن الشيخ ولي الدين السمرقندي وإنما كان قد وليها ستة أيام درّس بها أربعة دروس بعد بني الصدر سليمان وكان من كبار الصالحين[(٣)].

٤ ـ قال ابن حجر بالدرر الكامنة: «ولد في المنية سنة ٦٦٩هـ قاضي القضاة عماد الدين أبو الحسن علي بن أحمد الطرسوسي الحنفي وولي قضاء الحنفية ودرس بالنورية بدمشق»[(٤)].

٥ ـ وولي بعده أبنه القاضي عماد الدين أبو الحسن... الطرسوسي الحنفي ميلاده تسعين وستمائة تفقه بدمشق على شمس الدين الحريري وعلى الشيخ أحمد الرومي... ودرّس أولاً بجامع قلعة دمشق سنة عشرين وسبعمائة وفي سنة سبع وعشرين وسبعمائة درّس بالنورية والمقدمية والريحانية والقيمازية إلى أن توفي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة[(٥)].

٦ ـ وقال الحسيني في ذيله في سنة ثمان وخمسين وسبعمائة: «تولى ولده نجم الدين إبراهيم ابن قاضي القضاة عماد الدين الطرسوسي الحنفي. وتفقه على والده وبرع في الأصول والفقه. ودرّس بالنورية وأفتى وناظر، وأفاد أناس كثيرين».

٧ ـ وولي بعده نائبه القاضي شرف الدين الكفري[(٦)] سنة تسع وخمسين وسبعمائة.

٨ ـ وفي رمضان سنة ثمان عشرة وثمانمائة توفي قاضي القضاة شمس الدين أبو عبدالله محمد ابن الشيخ جلال الدين الحنفي الشهير بابن التباني كان فاضلاً له مشاركة في العلوم ويعرف باللغة التركية جيداً وقد تولى نظر الجامع وقضاء الحنفية وولي التدريس في القصاعين والنورية[(٧)].

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٧٦.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٤٤٠.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١٧.
(٤) ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص١٨.
(٥) ابن حجر: الدرر الكامنة ج٣ ص١٩.
(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٢٣٩.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٨٣.

٩ ـ وممن توفي بالمدرسة النورية قاضي القضاة شهاب الدين أبو العباس أحمد الأذرعي المعروف بابن المزوبا بن الكشك أشتغل بالعلم ودرّس بالمدرسة الظاهرية ثم ولي نظر الجيش سنة ثمان عشرة وثمانمائة[1].

١٠ ـ وفي سنة تسع وثلاثين وثمانمائة توفي الإمام العالم الشيخ الحنفية قاضي القضاة ركن الدين أبو هريرة عبد الرحمن . . . الحسيني. وقد ولي دار العدل ودرّس بالنورية والركنية وكان بيده حصة من التدريس بالزنجيلية. وكان لا يحسن تعليم الطلبة ولا يتصرف في البحث وغيره، وإنما ينقل ما يحفظه ويستحضر فوائد غريبة ومن أقواله (أنتم تنقلون وتتصرفون ونحن ننقل ولا نتصرف)[2].

١١ ـ وفي سنة اثنتين وستين وثمانمائة وصل علاء الدين علي بن شهاب الدين أحمد الزرعي وقد أستقر في قضاء الحنفية عوضاً عن حسام الدين بن العماد. وفي سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة توفي علاء الدين قبل دخول السلطان قايتباي إلى دمشق[3]. ثم تناولها مدرسون كثر إلى سنة تسعمائة حيث توفي بصالحية دمشق.

١٢ ـ قاضي قضاة الحنفية الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الشهاب. ودرّس بالنورية وفي سنة إحدى وتسعمائة عزل قاضي الحنفية بدمشق المحب بن القصيف وتوليتها لنور الدين بن منعة[4]. وفي سنة اثنتين وتسعمائة ورد التوقيع بعزل المحب وتوليه البدري محمد بن الفرفور[5]. وفي سنة ثلاث عشرة وتسعمائة دخل من حلب المحروسة إلى دمشق محيي الدين عبد القادر بن يونس[6]. ودخل الجامع وجلس بمحراب الحنفية وبقية القضاة الأربعة، وقرأ توقيعه أحد العدول وهو المحب بركات بن سقط[7]. ثم أعيد البدري على ثلاثة آلاف دينار وخصمه ابن يونس يومئذ بمصر ثم دخل بعد عزل البدري[8]. ثم في سنة خمس عشر وتسعمائة رجع ابن يونس إلى دمشق بخلعه من يوم الخميس في الخامس والعشرن من ذي القعدة وفي يوم الجمعة سابع ذي الحجة ورد مرسوم شريف إلى نقيب القلعة بإعتقاله فوضع في جامع القلعة قبل الإسلام[9].

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٨٥.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٨٨.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٩٦.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج١ ص١٤٧.
(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج١ ص١٧٤.
(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ج١ ص٩١.
(٨) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٩٨.
(٩) المصدر نفسه.

هؤلاء مدرسو المدارس الحنفية في دمشق بالعصر المملوكي.

ز ـ مدرسو المدارس المالكية في دمشق بالعصر المملوكي

١ ـ مدرسو (الزاوية المالكية):

١ ـ درّس بهذه الزاوية الشيخ جمال الدين أبو عمر وعثمان، ثم بعده الشيخ زين الدين الزواوي، ثم بعده جمال الدين أبو يعقوب يوسف الزواوي(١).

قال ابن كثير في سنة ست وأربعين وستمائة: «الشيخ أبو عمر وعثمان ثم المصري العلامة أبو عمر وبن الحاجب كان أبوه حاجب الأمير عز الدين الصلاحي، أشتغل هو بالعلم فقرأ القرآت وحرر النحو تحريراً بليغاً وكان رأساً في علوم كثيرة، فيها الأصول والفروع والعربية والنحو والتصريف والتفسير وكان قد استوطن دمشق ودرّس بها للمالكية بالجامع»(٢). وقال ابن العماد: «وكان الشيخ ابا عمرو عثمان متواضعاً كثير الحياء منصفاً محباً للعلم وأهله قدم دمشق فأقام بها مدرساً للمالكية وشيخاً للمستفيدين عليه له مختصر في الفقه من أحسن المختصرات أنتظم فيه جواهر بن شاس»(٣).

٢ ـ وفي سنة أربع وأربعين وستمائة: «الضياء عبد الرحمن بن عبدالله العمادي المالكي الذي ولي وظائف الشيخ أبي عمرو ابن الحاجب حين خرج من دمشق سنة ثمان وثلاثين وجلس في حلقته ودرّس مكانه بزاوية المالكية»(٤). وفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة: القاضي جمال الدين أبو يعقوب بن عمر الزواوي قاضي المالكية ومدرسهم بعد القاضي زين الدين الزواوي وكان عالماً فاضلاً وقد شغر المنصب بعده ثلاث سنين ودرّس بعده للمالكية الشيخ جمال الدين الشريشي(٥). وبعده أبو إسحق اللوري، وبعده مجد الدين أبو بكر التونسي، ثم لما وصل القاضي جمال الدين سليمان(٦) حاكماً درّس بالمدارس، وأما محراب المالكية بالجامع أمّ به جماعات.

٣ ـ وقال النعيمي في سنة اثنتين وسبعمائة: «باشر الشيخ أبو الوليد بن الحاج الأشبيلي المالكي أمامة محراب المالكية بجامع دمشق بعد وفاة الشيخ شمس الدين

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٣

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص١٧٦.

(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٩٦.

(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٤.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص١٠٧.

الصنهاجي»[١]. وقال الذهبي في العبر[٢] سنة ثمان عشر وسبعمائة: مات بدمشق الإمام أبو الوليد محمد التجيبي القرطبي إمام محرب المالكية وولي إمامته.

٤ ـ وقال السيد الحسيني في سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة مات بظاهر دمشق الإمام الزاهد المفتي عبدالله بن أبي الوليد المالكي إمام محراب المالكية بالجامع الأموي[٣]. وفي سنة خمس وأربعين وسبعمائة مات الإمام الكبير الزاهد أبو عمرو أحمد... الأشبيلي الدمشقي المالكي الذي أمّ محراب المالكية بالجامع وكان يخطب[٤]. وقال تقي الدين الأسدي في الذيل في سنة سبع وعشرين وثمانمائة: «الشيخ شمس الدين محمد بن شهاب المعروف بالشاذلي. قد ولي إمامة المالكية بالجامع ولم يكن يعرف شيئاً من العلم وإنما كان مباشراً»[٥]. ودرّس بها جمال الدين بن الحاجب وجماعة كثيرون[٦].

٢ ـ مدرسو (المدرسة الشرابيشية):

أول من ذكر بها المدرس تاج الدين عبد الرحمن المعروف بالزواوي وهو مستمر بها، ثم درّس بها الإمام صدر الدين البارزي شيخ الدنكزية بعد الذهبي[٧]. ويقول بدران: «درّس بها تاج الدين الزواوي ثم صدر الدين البارزي»[٨].

٣ ـ مدرسو (المدرسة الصمصامية):

أول من درّس بها شمس الدين غربال، وعين تدريسها لنائب الحكم نور الدين علي بن عبد النصير المالكي وحضر عنده القضاة والأعيان وممن حضر عنده الشيخ تقي الدين بن تيمية[٩].

ويقول بدران: «ووقف درساً عليها الصاحب شمس الدين غربال سنة سبع عشرة وسبعمائة وتوفي سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ولم يذكر النعيمي ولا العلموي اسم بانيها»[١٠]. وهذا آخر الكلام عن المدارس المالكية.

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٦.
(٦) بدران: منادمة الاطلال ص٢٢٤.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٦.
(٨) العلامة بدران: منادمة الاطلال ص٢٢٥.
(٩) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٧.
(١٠) بدران: منادمة الاطلال ص٢٢٦.

ح ـ مدرسو المدارس الحنبلية في دمشق بالعصر المملوكي

١ ـ مدرسو (المدرسة الجوزية):

١ ـ في سنة تسع وثمانين وستمائة وفيما باشر الشرف حسن قضاء الحنابلة عوضاً عن ابن عمه نجم الدين ابن شيخ الجبل[١]. ثم تولى تقي الدين سليمان المقدسي سمع الصحيح حضوراً في الثانية من ابن الزبيدي[٢] وأجاز له محمد بن عمار[٣] وابن باقا[٤] والمسلم المازين[٥] ودرّس بعده مدارس وكان جيد الإدراك والأيراد لدرسه يحفظه من ثلاث مرات. ومن تلاميذه ولده قاضي القضاة عز الدين ٧٣١[٦] والإمام شرف الدين أحمد القاضي[٧]. وسمع منه المزي وابن تيمية والعلائي صلاح الدين[٨]. وفي سنة سبع وتسعين وستمائة وفي شهر ربيع الأول درّس بالجوزية عز الدين ولده[٩].

٢ ـ وفي سنة تسع وتسعين وستمائة تولى الشيخ شهاب الدين أحمد بن شرف الدين حسن المقدسي عوضاً عن التقي سليمان بن حمزه. وقد درّس بالصالحية، وبحلقة الحنابلة بالجامع الأموي[١٠]. ثم عاد تقي الدين سليمان ومضى إلى الجوزية فحكم بها ثلاثة أشهر، ثم تولى بعد تقي الدين القاضي ابن مسلم وهو شمس الدين أبو عبدالله محمد بن مسلم لبس الخلعة وتوجه إلى الجامع الأموي ماشياً ومعه الأعيان سنة ست عشرة وسبعمائة ثم نزل من الفر إلى الجوزية فحكم بها على عادة من تقدمه[١١] ثم تولى بعد ابن مسلم القاضي عز الدين محمد ابن قاضي القضاة سليمان وناب عن والده في شهر ربيع الأول سنة سبع وتسعين وستمائة ودرّس بالجوزية، ثم تولى شرف الدين حسن بن الحافظ بن عبد الواحد المقدسي الذي درّس بالصالحية وولي مشيخة دار الحديث بالصدرية[١٢]. ودرّس بالجوزية. ثم تولى بعده القاضي

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٢٧.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص١٤٤.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص١٥٥.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص١٣٥.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص١٤٧.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١٥٤.
(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص١٥٧.
(٨) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص١٩٠.
(٩) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٢٩.
(١٠) ابن حجر: الدرر الكامنة ج١ ص١٢٠.
(١١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٣٠.
(١٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٣١.

علاء الدين علي التنوخي الدمشقي ولد سنة سبع وسبعين وستمائة وسمع أباه وابن بخاري وأحمد بن شيبان[١] وأفتى ودرّس وولي قضاء الحنابلة ثم تولى بعده شرف الدين ابن قاضي الجبل وولد سنة ثلاث وتسعين وستمائة وكان عالماً بالحديث والنحو واللغة والأصلين. وأجازه والده والمنجا التنوخي وابن عساكر ودرّس بعدة مدارس وأقام بالجوزية مدة يدرس ويشتغل ويفتي[٢].

٣ ـ ثم تولى علاء الدين أبو الحسن التنوخي الدمشقي مولده سنة خمسين وسبعمائة بعد وفاة عمه علاء الدين بسبعة أيام، قرأ القرآن وأشتغل ودرّس بالمسمارية وغيرها وكان رئيساً نبيلاً لم يبقى في الحنابلة انبل منه[٣]. ثم تولى عنه القضاء شيخ الحنابلة برهان الدين وتقي الدين أبو إسحاق مولده سنة تسع وأربعين وسبعمائة ودرّس بدار الحديث الأشرفية وبالصالحية وأنتهت إليه في آخر عمره مشيخة الحنابلة[٤]. ثم ولي القضاء تقي الدين أبو العباس أحمد... ابن المنجا التنوخي[٥] ثم ولي القضاء القاضي عز الدين الخطيب ثم أستقل بالوظيفة بعد موت القاضي شمس الدين النابلسي وأستناب شمس الدين بن عبادة[٦] ثم صارت الوظيفة بينهما دولاً.

٤ ـ ثم ولي القاضي شهاب الدين من الحبال ولي قضاء دمشق مدة بعد قضاء طرابلس. قال الأسدي في سنة ثلاث وعشرين وثمانمائة: «لبس شهاب الدين قضاء الحنابلة وجاء إلى الجوزية بالجامع وليس معه من القضاة أحد. وكان أهل طرابلس يعتقدون فيه الكمال. وكان قد كبر وزال بصره. وعزل قبل وفاته بنحو سنة وتوجه إلى طرابلس وبها مات في شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة»[٧].

٥ ـ عمر بن إبراهيم بن مفلح المقدسي الواعظ الأستاذ مولده سنة ثمانين وسبعمائة. فكان له حضوراً على الصامت[٨] وكان رجلاً ديناً ثم ولي الوظيفة بعد عزل الشيخ شهاب الدين بن الحبال بعد سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة. قال الأسدي يوم الثلاثاء سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة دخل إلى دمشق نظام الدين عمر بن مفلح متولياً

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٤١.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٣٤.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٣٦.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٣٧.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٣٨.
(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص١٤٨.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٤٣.
(٨) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٣٠٩.

قضاء الحنابلة ولاقاه القضاة إلى عند تربة العجمي[١]. وبنى مدرسة شرقي الصالحية وزت فيها مشيخة للحديث وتوفي سنة سبعين وثمانمائة. وابن عمه برهان الدين المذكور وهو القاضي العلامة أبو إسحاق إبراهيم بن مفلح المقدسي مولده سنة ست عشرة وثمانمائة. وذكره الأسدي في تاريخه في سنة خمس وأربعين وعمره حينئذ نحو تسع وعشرين فقال: فهو شاب له همه في الطلب وحفظ قوي وهو أفضل أهل مذهبه. قرأ على جماعة منهم عز الدين البغدادي وشمس الدين بن المحب[٢]. ودرّس بمدرسة ابن عمر بالصالحية ودار الحديث الأشرفية والحنبلية والمسمارية والجوزية[٣].

يقول بدران: «ومن مدرسي الجوزية: يوسف بن محمد المرداوي إمام في المذهب وله إعتناء بالمتن والإسناد توفي سنة تسع وستين وسبعمائة. ثم ابن قاضي الجبل من مدرسي الجوزية مولده سنة ثلاث وتسعين وستمائة وله اختيارات في مذهب أحمد بن حنبل. ثم شمس الدين النابلسي وهو من مدرسيه الجوزية درّس بدار الحديث الأشرفية والحنبلية ولما جاء تيمورلنك دخل مع أعوانه في أمور منكرة. ثم عز الدين الخطيب فهو من مدرسيها كان خطيباً بليغاً وله مؤلفات وبرع في الفقه والحديث. ثم القاضي عز الدين المقدسي أعتنى بالوعظ أشتغل ودرّس وكتب على الفتاوى يسيراً ثم برهان الدين ابن مفلح هو من مدرسي الجوزية باشر قضاء دمشق مراراً وصنف كتاباً في الأصول توفي سنة أربع وثمانين وثمانمائة»[٤].

٢ ـ مدرسو (المدرسة الجاموسية):

قال النعيمي: «لم أعرف واقفها، أخبر الصدر ابن القاضي علاء الدين علي بن مفلح أن والده أخذ من ابن ناظر الصاحبة ورقة فيها أن والده ناظر الصاحبة»[٥].

٣ ـ مدرسو (المدرسة الحنبلية الشريفية):

١ ـ في سنة أربع وثلاثين وستمائة: الناصح بن الحنبلي أبو الفرج الشيرازي الأنصاري وصل وسمع من شهدة[٦] وسمع بأصبهان أنتهت إليه رئاسة المذهب. ودرّس بالمسمارية دولاً مع أسعد بن المنجا[٧]. وفي سنة سبع وستين وسمائة: التاج

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص٢٣٩.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص١٨٦.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٤٦.
(٤) بدران: منادمة الاطلال ص٢٣٣.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٥٠.
(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٢٤٨.
(٧) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص١٨.

مظفر بن عبد الكريم بن نجم الحنبلي[١] مدرس مدرسة جدهم شرف الإسلام وكان مفتياً عارفاً بالمذهب. وقال الذهبي في مختصره في سنة اثنتين وسبعين وستمائة ويحيى بن الناصح عبدالرحمن بن نجم ابن الحنبلي سمع حضوراً من الخشوع ودرّس بالشريفية[٢].

٢ ـ قال السيد الحسيني في ذيل العبر في سنة خمس وتسعين فيمن توفي فيها من الأعيان الشيخ زين الدين بن المنجا التنوخي شيخ الحنابلة الذي برع في فنون من العلم كثيرة من الأصول والفروع والعربية والتفسير وأنتهت إليه رئاسة المذهب وصنف في الأصول وشرح المقنع ولم يزل يواظب على الجامع للإشتغال متبرعاً حتى توفي[٣]. ثم وليها بعده شرف الدين ولده وعلاء الدين علي وكأن شيخ الحنبلية فدرّس بها بعده تقي الدين بن تيمية[٤].

وقال ابن كثير في سنة خمس وتسعين وستمائة: درّس الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية الحراني بالمدرسة الحنبلية عوضاً عن الشيخ زين ابن المنجا[٥]. وفي سنة ست وعشرين وسبعمائة درس بالحنبلية القاضي برهان الدين إبراهيم بن أحمد الذرعي[٦] عوضاً عن شيخ الإسلام ابن تيمية. وفي سنة ست وأربعين وسبعمائة مات شيخنا الرئيس الإمام عز الدين محمد ابن المنجا التنوخي الحنبلي ناظر الجامع ودرّس بعده بالحنبلية عز الدين حمزة[٧]. وقال النعيمي في سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة: «قطب الدين موسى ابن شيخ السلامية ناظر الجيوش الشامية وهو والد العلامة عز الدين حمزة مدرس الحنبلية»[٨]. وقال ابن مفلح حمزة بن موسى المعروف بابن شيخ السلامية سمع في الحجاز وتفقه على جماعة ودرّس بالحنبلية وبمدرسة السلطان حسن بالقاهرة. وأعتنى جيداً بنصوص الإمام أحمد رضي الله عنه وعلى فتاوى الشيخ تقي الدين أحمد بن تيمية[٩].

٣ ـ وقال ابن قاضي شهبة في ذيله سنة خمس عشرة وثمانمائة: «تقي الدين

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٢٢.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٥٦.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٥٧.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣ ص٣٤٥.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١٢٤.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٥٨.
(٨) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٥٨ ـ ٥٩.
(٩) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٥٩.

عبدالله ابن التقي الحنبلي درّس بالحنبلية وأفتى ثم ولي بعد الفتنة قضاء نابلس مدة طويلة»[١]. وقال في سنة أربع وعشرين وثمانمائة: «ممن توفي في هذا الشهر جلال الدين محمد بن . . . تقي الدين عبدالله المعروف والده بابن التقي الحنبلي فكتب بإسمه وأسم أخيه الكبير تدريس الحنبلية ثم أخرج عنهما تدريس الحنبلية وأشتغل هذا يسيراً وناب عن أخيه في قضاء طرابلس مدة[٢] ثم ولي تدريسها ونظرها قاضي القضاة برهان بن مفلح وقد مرت ترجمته في المدرسة الجوزية»[٣].

وهنا فائدة: قال الأسدي عبد القادر الرهاوي في سنة اثنتي عشرة وستمائة كتب بخطه الكثير من الكتب والأجزاء وأقام بدمشق بمدرسة ابن الحنبلي مدة حتى نسخ تاريخ ابن عساكر بخطه[٤].

وجاء في كتاب منادمة الأطلال: «وأن مدرسي المدرسة الحنبيلة الشريفية: عثمان ابن المنجا التنوخي، وابن شيخ السلامية درّس بالحنبلية وبمدرسة السلطان حسن توفي سنة تسع وستين وسبعمائة. ومن مدرسيها أيضاً الحافظ ابن رجب العلامة الحافظ الزاهد شيخ الحنابلة. وقال ابن حجي: «اتقن المترجم فن الحديث وصار أعرف عصره بالعلل وتتبع الطرق تخرج به غالب الحنابلة بدمشق»[٥][٦].

٤ ـ مدرسو (المدرسة العالمية):

١ ـ قال الصفدي في المحمدين من تاريخه: «ابن هامل المحدث محمد بن عبد المنعم بن عمار الحراني توفي سنة إحدى وسبعين وسبعمائة وكان شيخ الحديث بالمدرسة العالمية»[٧].

وقال ابن قاضي شهبة: «الشيخ الأصيل المدرس المعتبر شمس الدين أبو المحاسن. حضر على والده وسمع من ابن أبيعمر، وابن البخاري وولي مشيخة العالمة والنظر عليها وعلى الصاحبة ودرّس بهما. توفي سنة إحدى وخمسين وسبعمائة بالصالحية»[٨].

وأنها محصورة في عشرين من أعيان الطلبة[٩] والله أعلم. قال ابن حجر[١٠]:

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٦٠.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٦١.
(٣) المصدر نفسه. (٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) بدران: منادمة الاطلال ص٢٣٥ ـ ٢٣٦.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٨٨.
(٨) المصدر نفسه.
(٩) المصدر نفسه.
(١٠) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٢٤٤.

«محمد بن علي اليمني توفي سنة خمسين وسبعين وسبعمائة[١] بمنزل شهاب الدين ابن المحب بالمدرسة العالمة المذكورة»[٢].

٥ ـ مدرسو (المدرسة المسمارية):

١ ـ وفي تاريخ ابن عساكر في سنة ست وستمائة: الوجيه بن المنجا اسعد أبو المعالي وقد سمع في بغداد على القاضي أبا الفضل الأرموي[٣] وأبا جعفر العباسي[٤] وسمع بدمشق من نصر بن أحمد بن مقاتل[٥] وقد تفقه عليهم وبرع بالمذهب، ومن أجله بنى الشيخ مسمار المدرسة ووقفها عليه[٦].

٢ ـ وقال الأسدي: ودرّس بها ناصح الدين أبو الفرج عبد الرحمن الأنصاري درّس بها مع وجيه الدين أسعد، ثم أشتغل بها الناصح بعد وفاة ابن منجا، ثم درّس بها القاضي شمس الدين أبو الفتوح وجيه الدين أسعد بن المنجا[٧].

ثم درّس بها الشيخ وجيه الدين أبو المعالي بن وجيه الدين أسعد بن المنجا، وأخوه زين الدين أبو البركات المنجا بعد وفاة عمهما شمس الدين[٨]. ثم قال الذهبي في ذيل العبر وفي سنة إحدى وسبعمائة: «مات الشيخ وجيه الدين بن المنجا التنوخي رئيس الدماشقة عن إحدى وسبعين سنة وهو واقف دار القرآن»[٩].

٣ ـ وقد درّس بها فخر الدين عبد الرحمن بن يوسف البعلي نيابة عن بني المنجا وتوفي فخر الدين سنة ثمان وثمان وستمائة. ودرّس بها بعد وفاة زين الدين سنة خمس وتسعين وستمائة ولداه شرف الدين أبو عبدالله محمد[١٠] وعلاء الدين أبو الحسن علي. قال الذهبي: وفي سنة تسع وتسعين وستمائة: المفتي شمس الدين محمد بن يوسف البعلي الحنبلي لقد درّس بالمسمارية وحلقة الجامع[١١].

٤ ـ قال ابن مفلح بالأحمدية: أحمد بن أحمد بن محمد بن المنجا درّس

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٢٤٣.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٨٨.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج١٤ ص١٤٥.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج١٤ ص١٧٠.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج١٤ ص١٥١.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٩٠.
(٧) المصدر نفسه.
(٨) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٩١.
(٩) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ٩٢.
(١٠) ابن العماد: شذرات الذهب ج٦ ص٦٥.
(١١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٩٢.

بالمسمارية وكان فاضلاً ديناً عاقلاً مات سنة اثنتين تسعين وستمائة. ثم قال ابن مفلح في طبقاته: محمد ابن المنجا بن عثمان بن أسعد المنجا التنوخي سمع المسند والكتب الكبار وتفقه وأفتى ودرّس بالمسمارية وكان من أصحاب تقي الدين بن تيمية[١]. ثم درّس فيها حفيده القاضي عز الدين إلى أن توفي سنة ست وأربعين وسبعمائة[٢]. وقد درس ابن المنجا بالمسمارية وكان له اتصال بالدولة[٣].

٦ ـ مدرسو (المدرسة المنجائية):

١ ـ وقال ابن مفلح في طبقاته: محمد بن أحمد بن الحسن بن شهاب الدين المقدسي كان إماماً بمحراب الحنابلة بجامع دمشق وتوفي سنة تسع وخمسين وسبعمائة[٤]. وقال أيضاً الحسن بن أحمد بن الحسن بن الإمام بدر الدين المقدسي سمع من تقي الدين سليمان بن حمزة، وتفقه وبرع وأفتى وأمّ بمحراب الحنابلة بدمشق توفي بالصالحية سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة[٥].

٢ ـ قال النعيمي في الدارس في سنة عشر وثمانمائة: «وضع الكرسي بجامع بني أمية ليجلس عليه شاب حنبلي يقال له عبد الرحمن ممن أخذ على الشيخ علاء الدين ابن اللحام، وصار داعية إلى إعتقاد ظاهر بأحاديث الصفات»[٦].

والشيخ علاء الدين المشار إليه قال ابن مفلح في طبقاته: «علي بن عباس العلامة الأصولي علاء الدين الشهير بابن اللحام وشيخ الحنابلة في وقته وأخذ الأصول عن الشيخ شهاب الدين الزهري ودرّس وناظر وأجتمع عليه الطلبة وأنتفعوا به وصنف في الفقه والأصول. وظل يعمل إلى أن توفي سنة ثلاث وثمانمائة»[٧].

٣ ـ قد قدمنا في المدرسة الجوزية أول حنبلي حكم بدمشق وأول حنبلي حكم بمصر هو شمس الدين أبو عبدالله محمد الحراني الفقيه الأصولي المناظر باشر نيابة القضاء عن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز[٨] فدرّس الفقه في حلقة له بالجامع وتوفي سنة خمس وسبعين وستمائة.

ورأيت في ترجمة موسى بن فياض بن عبد العزيز النابلسي أنه أجاز لجماعة

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٩٣.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ص٢٥٠.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٩٦.
(٥) نفس المصدر.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٩٧.
(٨) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣١٩.

منهم الشيخ شهاب الدين ابن حجي وأنه ولي قضاء حلب المحروسة في سنة ثمان وأربعين وسبعمائة[١].

٤ ـ محمد بن عبدالله بن مفلح المفتي الأصولي سمع من والده والشيخ تاج بن بردس[٢] أفتى ودرس في حياة والده وبعد وفاته وعيّن لقضاء الشام. وتوفي سنة ست وخمسين وثمانمائة[٣].

هؤلاء أسماء المدرسين الذين درسوا بفروع الدين على المذاهب السني الأربعة الحنفية ـ الشافعية ـ المالكية والحنبلية في مدارس دمشق.

وتحليلي لهذه الدراسة لم أجد فرقاً بالتدريس بين مدرسة وأخرى من حيث طرائق التدريس والمواضيع المطروحة التي لا تخرج عن علم الأصول (قرآن ـ حديث) وكان علم الفقه تركّز الدولة المملوكية على فهمه والتخصص به لأنه يدخل في الحياة السياسية لها ويخدم مصالحها إن كان في مجال الإقتصاد، والأرث، والمال، والحياة الإجتماعية.

وإن باب الإجتهاد في هذا العلم مقفل ونذكر عندما أراد أحمد بن تيمية فتح باب الإجتهاد ليطور المفهوم الديني بتطور العصر كان مصيره الموت.

وكان التعليم الديني في المدارس وكل المدارس في تلك العصر يسير بطريقة روتينية يقوم على الحفظ والتفسير والنقل وليس على التحليل العلمي الخلاق. وإن كنا قد رأينا كيف يختار المسؤولون للتعليم في هذه المدارس: من كبار العلماء، وأعلام الأئمة؛ من المقرئين والفقهاء والمحدثين والمتطببين. ونحن اليوم مدينون للكثيرين منهم على ما قدموه من مؤلفات ودوائر معارف لحفظ التراث.

وكان التركيز السائد بالمدارس المملوكية على التعليم الديني أكثر بكثير منه على التعليم الدنيوي الذي لا يخلو هذا التعليم، (إذا أستثنينا العلوم الطبية والعسكرية) من العناية به بصورة شخصية كعلم الفلسفة والتاريخ والأدب والرياضيات والطبيعيات والفلك لا تدرس هذه المواد في المدارس بصورة رئيسية.

وأنني أثق إذا فتحت معاهد أو مدارس لتعليم هذه المواد لأغنينا مكتبات العالم بهذه العلوم لأنه كان لدينا مفكرون برعوا في هذا المجال، وأخذت عن هذه الكوكبة معاهد وجامعات أوروبا في العصر الحديث والوسيط.

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٩٨.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص١٩٤.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٩٨ ـ ٩٩.

أهم مدارس حلب ومدرسوها بالعصر المملوكي

مقدمة

أهم هذه المعالم التاريخية هي المدارس القديمة اتي نجدها منذ العهد النوري تظهر في مدينة حلب وتكثر في العهود الأيوبية والمملوكية. فقد رأى فيها الأيوبيون والمماليك مراكز دعوة للجهاد ضد الخطر الصليبي والمغولي ثم مراكز لتعليم الناس وتثقيفهم بأمور دينهم وبعض العلوم الأخرى المتوفرة. لقد كانت حلب في تلك العهود مركزاً علمياً من أهم المراكز العلمية في الشرق العربي وإن أصابه الإضمحلال في بعض الأحيان. وكانت حلب بوابة الشمال للدولة المملوكية التي تطل منها إلى العالم الأوروبي المتعطش إلى المنطقة بكاملها. فكان على المماليك أن يحصنوها بالثقافة، والقوة العسكرية فنجد بأن كل الجيوش التي غزت السلطنة من صليبيين ـ ومغول وعثمانيين (بإسم الدين) أتت عن هذه الطريق.

ـ فكان التشديد على فتح المدارس الدينية وتعبئة الجماهير بهذا المفهوم ما هو إلا لجمع الكلمة ووقوف الناس مع دولتهم ضد الأخطار المحدقة بها.

ـ إن شعور المماليك بهجمتهم، ورغبتهم في تدارك هذا النقص جعلهم يشجعون العربية بإعتبارها لغة القرآن الكريم. ففتحوا المدارس وكثر المؤلفون والمحدثون. وكانت مدارسهم نوراً، يهدي إلى فهم معاني الدين، وناراً تأكل الجهل والتخلف في تلك العصر.

ولن نستطيع الحديث عن كل المدارس التي قامت بحلب في مختلف العهود بل سنقتصر (بالإضافة إلى ما ذكرناه في الباب الثاني) عن أهم المدارس والمدرسين في حلب بالعصر المملوكي مع وصف هذه المدارس:

١ ـ المدرسة الحلوية ومدرسوها:

وكما وصفها الغزي[1] في كتابه نهر الذهب وصف حالتها في عصره بقوله: «هي الآن عمارة واسعة بابها موجه شرقاً كان مكتوباً فوقه (بسم الله الرحمن الرحيم من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)، جدد هذه المدرسة البنية السعيدة المباركة وأنشأها مدرسة للفقهاء على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه مولانا الأمير الإسفهلار الأجل السيد الكبير الملك العالم العارف العادل المجاهد... صفي الأنام قسيم الدولة وعماد ما أختاره الأنام رضي الخلافة تاج الملوك والسلاطين... شمس

(١) الغزي: نهر الذهب ج٢ ص٢٢٠.

المعالي وقلكها أبو القاسم محمود بن زنكي. . . على يد عبد الصمد الطرسوسي الفقير لرحمة ربه في شوال سنة ٥٤٣هـ.

ويوجد في الطرف الشمالي من المدرسة أيوان به محراب خشبي أحيط بشريط كتابي أيام مولانا السلطان الملك الغازي المجاهد المرابط الملك الناصر صلاح الدين منصف المظلومين من الظالمين، وأعلاه رايته وأنار برهانه بولاية العالم الفقير إلى رحمته تعالى عمر بن أحمد بن هبة بن أبي جرادة سنة ٦٤٣هـ. ثم تولاها محمد بن الحراني. وإلى جانب قبلية الصلاة توجد غرف يشغلها بعض الطلاب. ودرّس فيها الشيخ القاضي كمال الدين الزملكاني سنة ٧٢٤[١].

٢ ـ المدرسة الظاهرية (الجوانية) السلطانية ومدرسوا:

تقع هذه المدرسة أمام القلعة الحلبية وتضم تربة بانيها سلطان حلب الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي، وسميت بالظاهرية نسبة إليه توفي قبل أن يتمها، حتى قام أتابك الملك العزيز بن الملك الظاهر بإتمام عمارتها عام ٦٣٠هـ، وجعلها مدرسة للفريقين ومقراً للمشتغلين بعلوم الشريعة من الطائفتين الحنفية والشافعية والمجتهدين من الإشتغال السالكين طريقة الأخيار الأمثال الذين يعنيهم المدرس بها من الفريقين.

ويقول الطباخ في أعلام النبلاء[٢] عن حالتها الحاضرة «لم يزل باب المدرسة قائماً على حاله وعليه الكتابة المتقدمة وفوق الباب منارة صخمة. . . وكان عن يمين المدرسة ويسارها حجر للطلبة علوية ومفلية وهي مشرفة على الخراب. . . وكان في وسط المدرسة حوض مركب من ثمانية أحجار بديع الشكل وقد خُرّب. . . وأما القبلية فقد كان جدارها المشرف على صحن المدرسة أصابه الوهن والتصدع».

ويورد الشيخ كامل الغزي وصفاً للمدرسة السلطانية وكتاباتها ومشايخها في كتابه نهر الذهب[٣] يتطابق مع ما ذكره الطباخ إلا أنه يضيف: «كانت لها شهرة عظيمة في القرن السابع وما بعده إلى العاشر الهجري من علم وعلماء ثم أضمحل حالها وضاعت أوقافها. . . وظهر من كتاب وقف إن دار المرحوم السلطان صلاح الدين الأيوبي كانت في محلة ساحة بزّة قرب جامع السلطانية وقد ذكر أن دور بني الشحنة كانت تحت القلعة قرب السلطانية» رمّمت المدرسة مؤخراً وجعلت الحدائق حولها وهي اليوم مسجد تقام فيها الصلاة.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية: ج١٤ ص١١٢.

(٢) الطباخ: اعلام النبلاء ج٢ ص٢٢٣.

(٣) الغزي: نهر الذهب ج٢ ص١٢٤.

٣ ـ المدرسة الظاهرية البرانية:

تقع هذه المدرسة في محلة الفردوسي بناها الملك الظاهر غازي نحو عام ٦١٠هـ/ ١٢١٧م، لها مدخل جميل يفضي إلى صحن مستطيل الشكل في صدر المدرسة ورواق يقوم على أعمدة أمام القبلية التي تقوم فوقها قبة ذات متدليات أرضية، وفي المدرسة غرف للطلاب وهناك طابق علوي بالمدرسة ومحراب متقن[١].

يصفها الغزي: «وفي الجهة الجنوبية في المحلة (أي الفردوس) مدرسة تعرف بالظاهرية ذكرها ابن شداد في باب المدارس الشافعية وقال أنشأها وشرطها للشافعية معلمين وطلاب، وفيها نحو عشرين حجرة ـ والتربة التي في جانبها قد دثرت لم يبق سوى المحراب»[٢].

٤ ـ المدرسة الكاملية ومدرسوها:

تقع بالقرب من المدرسة الظاهرية البرانية وهي تشابهها ومعاصره لها لا يعرف بانيها ولا تاريخ بنائها ويرجع الريحاوي[٣] «يعود نسبتها إلى الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب. . . ويرجع عهدها إلى منتصف القرن الثالث عشر الميلادي. ولها مدرسون على المذهب الشافعي.

٥ ـ المدرسة الأتابكية (جامع الكلتاوية الصغرى) ومدرسوها:

تقع هذه المدرسة في باب الحديد[٤]. ويذكر طلس: «إنها تربة الأتابك طغريل ١٢٢٣م، وتكمن قيمتها في واجهتها التي تمتاز بشكل عمراني خاص. وتسمى في بعض الأحيان بالكلتاوية نسبة إلى حي الكلتاوية وجاءت تسمية الحي بإسم الكلتاوية نسبة إلى مدرسة الأمير طقتمر الكلتاوي المتوفي سنة ٧٨٧هـ»[٥].

ويتفق الغزي[٦]، والطباخ[٧] على القول: «الكلتاوية الصغرى كان يعرف بالأتابكية نسبة إلى عبدالله طغريل شهاب الدين، بنيت بالحجارة الهرقلية ولها باب متجه جنوباً وعلى نجفته كتابة هذا نصها: (بسملة هذا ما تقدم بإنشائه العبد الفقير إلى رحمة الله وكرمه أبو سعيد طغريل تقبل الله فيه وأثابه مشهد لله تعالى تقام فيه الصلوات

(١) شوقي شعث: حلب ـ تاريخها ومعالمها لتاريخية ص٧٣.
(٢) الغزي: نهر الذهب ج٢ ص٢٩٩.
(٣) عبد القادر الريحاوي: العمارة العربية الإسلامية ص١٤٠.
(٤) شعث: تاريخ حلب ص٧٥.
(٥) طلس: الآثار الإسلامية ص٧٧.
(٦) الغزي: نهر الذهب ج٢ ص٣٩١.
(٧) الطباخ: اعلام النبلاء ج٢ ص٢٥١.

الخمس في أوقاتها ويسكنه المدرس والفقهاء الحنفية على مما شرطه في كتاب الوقف وإن قدّر الله وفاتخ خارج مدينة حلب». وتوفي الأتابك شهاب الدين طفريل سنة إحدى وثلاثين وستمائة بحلب ودفن بمدرسة الحنفية. تحدث عن هذه المدرسة أرنست هرزفيلد (١٩٠٥م/١٢٨٦ ـ ١٢٨٨هـ) وسوفاجية في قوائمه التي نشرها عام ١٩٣١ تحت رقم ٢٤ وهي اليوم تعرف بإسم جامع الكلتاوية.

٦ ـ المدرسة الطرنطائية ومدرسوها:

تقع في محلة محمد بك في حي باب النيرب، مسيت بالطرنطائية نسبة للأمير المملوكي سيف الدين طرنطاي الذي قام بترميمها سنة ٧٨٥هـ[1]، ويذكر سوفاجية قائلاً: إن المدرسة مجهولة فإسمها وتاريخ بنائها في سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٩٢م، هما من مزاعم شيخها الشيخ محيي الدين الذي كان يقيم فيها عام ١٩٣٠ ولكن هي عظيمة الريازة وبحالة جيدة ولها زخارف هندسية وصحن واسع ولها أيوان ضخم متوجه إلى جهتين.

ويتحدث الغزي قائلاً: «جامع الطرنطائية ومدرسته محلهما غربي قسطل علي بك، وهي مدرسة حافلة عامرة متقنة البناء كأنها حصن تشتمل في شرقيها وغربيها على أربعين حجرة عليا وسفلى وفي جنوبيها قبلية تقام فيها الصلوات وفي شماليها محل واسع كأنه كان محلاً للتدريس وفي وسط صحنها حوض تحت الأرض. ويقول أن المدفون فيها رجل كان يحب الجهاد يقال له الشيخ أديس أبو طاسة وكان يدرّس فيها ـ والمدرسة منسوبة إلى طرنطاي وهو الذي جدد بها الخطبة ووقف عليها وقفاً وأما الذين أنشأها وأنشأ الجامع فهو السيد عفيف الدين بن محمد شمس الدين وذلك في سنة ٧٨٥هـ وقد أتخذها العالم الفاضل الشيخ محيي الدين البادنجكي وخلفاؤه من بعده زاوية»[2].

ويتحدث الطباخ عن المدرسة قائلاً: «طرنطاي مجدد المدرسة الطرنطائية المتوفي سنة ٧٩٢هـ وهو الذي تولى نيابة دمشق سنة ٧٩١هـ قتل سنة ٧٩٢هـ، جدد بحلب المدرسة الواقعة خارج باب النيرب وعمل لها خطبة وهي مدرسة شاهقة تضاهي القلاع في أحكام البناء: (أوقف هذين الجامع والمدرسة عفيف بن محمد شمس الدين سنة ٧٨٥هـ)... وشمالي المدرس أيوان أتخذ مكاناً للتدريس»[3].

٧ ـ المدرسة الشرقية ومدرسوها:

تقع هذه المدرسة في سويقة حاتم سنة ١٢٤٢م ولم يبق من بنائها القديم على

---

(١) الريحاني: العمارة العربية ص١٤٠.

(٢) الغزي: نهر الذهب ج٢ ص٣٥٠.

(٣) الطباخ: اعلام النبلاء ج٥ ص١٠٧.

حد قول سوفاجية سوى الباب المزخرف والقبلية بقبتها ذات المتدليات ومحرابها. تنسب هذه المدرسة إلى شرف الدين أبي طالب ابن الحسن الحلبي العجمي (٤٨٠ ـ ٥٦١هـ) وكان من أئمة الشافعية.

ويذكر الغزي[١] نقلاً عن ابن شداد أن الذي أنشأ هذه المدرسة هو شرف الدين بن العجمي وصرف على عمارتها ما يزيد عن أربعمائة الف درهم هي حسنة مليحة، وبوابتها لم ينسج على مثالها ومحرابها في غاية الجودة وبركتها من أعاجيب الدنيا، عشرة أحجار مركبة في بعضها تركيباً غريباً ولم نحصل على أسماء مدرسيها...

٨ ـ المدرسة السفاحية ومدرسوها:

بناها القاضي ابن السفاح ٨٢٨هـ حسبما يذكر (سوفاجية).

ويذكر أن لها واجهتان وباب له متدليات ومئذنة.

ينقل الغزي[٢] عن ابن الخطيب قوله: «إن هذه المدرسة قد أنشأها أحمد بن صالح بن السفاح ورتب بها مدرساً وخطيباً على مذهب الشافعي توجد كتابة على باب المدرسة (أنشأ هذا المكان المبارك، ووقفه جامعاً ومدرسة، وشرط أن يكون إمامها وخطيبها ومدرسها شافعي المذهب، الفقير إلى رحمة الله تعالى أحمد بن السفاح الشافعي سنة ٨٢٨هـ في أيام الملك الأشرف أبي النصر الدقماقي».

إلى جانب بعض المدارس التي أتينا على ذكرها في حلب هناك مدارس كثيرة في بلاد الشام يتعذر الحصول على مدرسين لها وهناك عدد من المؤسسات العلمية في حلب المتصلة بالمدارس كدور تحفيظ القرآن الكريم ومدارس للأطفال وغيرهما من مدارس دور الحديث الشريف قد لعبت تلك المدارس دوراً أساسياً في إعداد الطلاب وتخرج منها رهط كبير من العلماء والمفكرين الذين أمدوا الأمة بينما بيع المعرفة التي نستقي منها اليوم.

مدرسو مدارس طرابلس

ومن أشهر المحدثين والمدرسين الذين وصلتنا أسماؤهم في مدارس طرابلس وجامعها المنصوري الكبير بالعصر المملوكي هم:

١ ـ محمد بن مشرّف (٦١٩ ـ ٧٠٧هـ):

هو الشيخ شهاب الدين أبو عبدالله محمد بن أبي العز بن مشرف بن بيان

---

(١) الغزي: نهر الذهب ج٢ ص٢٦٨.

(٢) الغزي: نهر الذهب ج٢ ص١١٠.

الأنصاري شيخ الرواية بالدار الأشرفية بدمشق. وكان حسن الخط أخذوا عنه في بعلبك ودمشق وطرابلس وغيرها[١]. وإذا كانت المراجع التاريخية التي بين أيدينا لا تنص على أن ابن مشرف حدّث في الجامع المنصوري الكبير، ولكن استنتاجاً بما أن ابن مشرف توفي سنة ٧٠٧هـ وحتى هذا التاريخ لا يوجد سوى الجامع المنصوري الكبير في طرابلس والمدرسة الشمسية والمدرسة الزويقية يجعلنا نرجح بأنه قد علم بتلك المدارس:

٢ ـ بهادر القرمي (بعد ٧٢٣هـ):

وفي النصف الأول من القرن الثامن الهجري كان بطرابلس محدثها سيف الدين بهادر القرمي المتوفي سنة ٧٤٦هـ[٢].

وكان من موالي الحسن بن رمضان القرمي المتوفي سنة ٧٤٦هـ صاحب حمام القاضي بطرابلس[٣] وأنه كان يدرس في الجامع الكبير من سنة ٧١٦هـ إلى سنة ٧٢٣هـ. وذكره السخاوي بأنه «مسند طرابلس»[٤].

٣ ـ مسعود بن شعبان (٧٠٩هـ):

هو شرف الدين مسعود بن شعبان... الحساني الطائي الحلبي الشافعي[٥].

قال ابن حجر في «أبنائه» أصله من دير حنّا ثم ولي قضاء حلب... ثم ولي قضاء حمص وأشتهر بأخذ المال من الخصوم... ولما أستقرت قدمه بالملك تولى قضاء دمشق وتنقل بالولايات إلى أن أستقر بطرابلس وكان رئيساً كريماً حسن الأخلاق يحب أهل العلم ويكرمهم[٦]. ثم وُلي قضاء طرابلس قبل سنة ٨٠٢هـ وكتب عنه من شعر غيره[٧].

٤ ـ البرهان السويني (قبيل ٨٠٠ ـ ٨٥٨هـ):

من مشاهير محدثي طرابلس وعلمائة في القرن التاسع الهجري القاضي الشافعي «إبراهيم بن عمر بن إبراهيم البرهان الحموي الأصل السويني الطرابلسي».

---

(١) تدمري: آثار طرابلس الإسلامية ص١٠٨.
(٢) تدمري: آثار طرابلس الإسلامية ص١١٠.
(٣) ابن قاضي شهبة: تاريخه ج١ ص٧٦.
(٤) السخاوي: الضوء اللامع ج١ ص٢٤٧.
(٥) تدمري: آثار طرابلس الإسلامية ص١١١.
(٦) ابن حجر: أنباء الغمر ج١ ص٧٤٣. ـ الطباخ الحلبي: اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ج٥ ص٥١٦.
(٧) السخاوي: الضوء اللامع ج٥ ص٣٠٢ ـ ٣٠٧.

ويعرف بالسويبني نسبة إلى سويبن من قرى حماة[١]. فقد ولي قضاء الشافعية بطرابلس وأشتغل في فقه الشافعية والحنفية حتى بات عالمها[٢].

قال السخاوي في ترجمته: «وكان كثير الإستحضار للفقه مع معرفة بالفرائض والحساب... وله تصانيف كثيرة، منها ما كتبته جزئين في مسائل تكون مستثناة من قاعدة: لا يُنسب لساكت قول قرضه شيخنا وغيره من الأئمة ثم قال: إنه شافعي المذهب كثير المعارف في عدة علوم، رأس في الفرائض، وهو اليوم عالم طرابلس يشتغل في فقه الشافعية والحنفية، وذكر لي أن جده لأمه الشيخ عمر السويبني كان صالحاً له كرامات، ثم قال كان من أوعية العلم، مطرح التكلف على طريقة السكن، له عدة تصانيف»[٣].

ومن تلاميذه الذين حضروا دروسه بطرابلس: أبو بكر بن اسماعيل بن عمر الطرابلسي، المتوفي سنة ٨٦٠هـ[٤]، وعلي بن بكر بن أحمد بن شاور البلطيمي المتوفي سنة ٨٧٤هـ، وقد أخذ عنه الفرائض، وعلي بن أيوب بن إبراهيم بن نور الدين البرماوي المعروف بابن الشيخة المتوفي سنة ٨٧٨هـ وقرأ عليه صحيح البخاري[٥]. وخليل بن عبدالله بن محمد بن داوود ... بن عبد الدائم العسقلاني المتوفي سنة ٨٩٨هـ[٦].

وللسويبني نص مرسوم بإبطال ما كان يأخذه القضاة من البيدرية بالمسجد الجامع بجبلة تاريخه سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م «ملعون من يأخذها»[٧].

وكان إصداره لهذا المرسوم وهو قاضٍ على طرابلس[٨].

ثم ظهر في عصر المماليك الذي خضعت له طرابلس طوال مائتين وسبعة وعشرين عاماً ميلادياً (٢٣٤ عاماً هجرياً) عدد كبير من الأعلام الذين برزوا في مجالات العلوم المختلفة دينية كانت أم دنيوية. وكانت طرابلس في هذا العصر تشهد حركة تنقل وترحال واسعتين كان يقوم بها الشيوخ والعلماء وطلبة العلم لبث العلم أو سماعه، فأستقبلت المدينة المئات من رجال العلم والأدب، ومنهم عدد كبير من

---

(١) ابن طولون: قضاة دمشق ص٢٧٥.
(٢) تدمري: آثار طرابلس ص١١٣.
(٣) السخاوي: الضوء اللامع ج١ ص١٠٠ ـ ١٠١.
(٤) السخاوي: الضوء اللامع ج١١ ص٢٧.
(٥) السخاوي: الضوء اللامع ج٥ ص١٩٥ ـ ١٩٦.
(٦) السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص١٩٨ ـ ١٩٩.
(٧) Sauvaget: decrets Mamlouks, Beo, XII. p. 03 N. 60.
(٨) تدمري: آثار طرابلس ص١١٦.

مشاهير الأعلام في التاريخ الإسلامي، «ولم تكن مجالس العلم والحديث تقتصر على العلماء من الرجال فحسب بل كانت العالمات من النساء الطرابلسيات يتخذن مجالس للتعليم والتحديث فقصدهن مشاهير الأعلام وأخذوا عنهن أيضاً»[١].

ومن هذه الأعلام الطرابلسيين الذين تركوا مصنفات لنا هم:

١ ـ لاجي ن عبدالله الذهبي الملقب بـ «حسام الدين الطرابلسي (٦٥٩ ـ ٧٣٨هـ)

نشأ بدمشق وأولع بالأدب وصنف كتاباً في الفروسية سماه «تحفة المجاهدين في العمل بالميادين»[٢].

٢ ـ محمد بن لاجني بن عبدالله الحسامي الطرابلسي (نحو ٧٨٠هـ/نحو ١٣٧٩م):

أحد العارفين بفنون الفروسية ينسب إليه كتاب «بغية القاصدين في العمل بالميادين» وله كتاب «غاية المقصود من العلم والعمل بالبنود» وله كتاب «الرماح»[٣].

٣ ـ حسام الدين أبو محمد الحسن بن رمضان القرمي (٦٨٠ ـ ٧٤٦هـ/ ١٢٨١ ـ ١٣٤٥م):

قاضي طرابلس وصاحب الحمام والزاوية ولي تدريس (الرباط الناصري) بالصالحية بدمشق وأفتى ودرّس وناظر وتفقه على مذهب الأقسام الشافعي توفي بطرابلس ودفن بزاويته التي كان درس بها[٤].

٤ ـ شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر التركماني (نيف و٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م):

كان فقيهاً ومدرّساً تفقه على ابن السراج وعلاء الدين القنوي[٥].

وقتل بطرابلس في سنة نيف و٧٥٠هـ له: «شرح المغني» وله كتاب «الوتر» وكتاب «المناسك»[٦].

٥ ـ أبو عبدالله محمد بن عبدالله الشبلي الدمشقي (٧١٢ ـ ٧٦٩هـ/ ١٣١٢ ـ ١٣٦٧م):

قاضي قضاة طرابلس بين ٧٥٥ و ٧٦٩هـ. كان قد طلب العلم بنفسه وكان من نبهاء الطلبة وفضلاء الشباب وقال عنه «أبو البقاء» أن الشبلي سمع منه الكثير وعني

(١) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي ص٤٢٧.
(٢) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي ص٤٢٨.
(٣) الطباخ: اعلام النبلاء ج٧ ص٢٣٧.
(٤) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ص٤٣٧.
(٥) المصدر نفسه.
(٦) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ص٤٣٨.

بالرواية... وكان إماماً فقيهاً بارعاً متجراً في مذهبه وأفتى ودرّس سنين وسمع الكثير من الحديث»[١]. وله مصنفات منها: كتاب «آكام المرجان في أحكام الجان». وله «محاسن الوسائل إلى معرفة الأوائل»[٢].

أصله من طرابلس ولد وتوفي بحلب وارتحل إلى مصر وسمع على الكثير من القاهرة وبيت المقدس والخليل وغزة والرملة ونابلس وحماة وحمص وطرابلس وبعلبك ودمشق ـ وكان إماماً علامة حافظاً وكريماً وافر العقل حافظاً لكتاب الله، كثير التلاوة له، وأشتغل بالتصنيف فكتب تعليقاً لطيفاً على سنن «ابن ماجة» وشرحاً مختصراً على صحيح البخاري سماه «التلقيح لفهم قارىء الصحيح» وله «نقد النقصان في معيار الزمان»[٣].

٦ ـ أبو الحسن علي بن خليل علاء الدين الطرابلسي (ـ ٨٤٤هـ/ ـ ١٤٤٠م):

عالم وفقيه طرابلس كان قاضياً بالقدس توفي سنة ٨٤٤هـ. له كتاب في الفقه بعنوان «معين الحكام في ما يتردد بين الخصمين من الأحكام».

٧ ـ الشمس محمد بن يحيى بن أحمد بن زهرة الحبراضي الدمشقي الطرابلسي (٧٥٨ ـ ٨٤٨هـ/ ١٣٥٧ ـ ١٤٤٤م):

أشهر خطباء الجامع المنصوري الكبير في عصر المماليك بل هو من أشهر علماء طرابلس في ذلك العصر، ولد بحبراض وأنتقل منها وهو صغير السن إلى طرابلس فنشأ بها وقرأ القرآن وحفظ عدة كتب. فأقام بها يقرىء ويحدّث ويفتي ويدرّس ويخطب وصار شيخ تلك البلاد وعالمها، وأنتفع به الناس طبقة بعد طبقة، وأعتقده أهل طرابلس وتبركوا بدعائه وقصد بالفتاوى من الجهات البعيدة، وتعصّب له أهل طرابلس عندما خالفه قاضيها السراج الحمصي بسبب «ابن تيمية» حيث وقفوا إلى جانب عالمهم حبّابه مما اضطر القاضي الحمصي إلى الفرار عن المدينة ولم يرجع إليها إلا بعد صدور مرسوم سلطاني بإعادته إلى منصبه[٤].

وأفرد له تلميذه أبو عبدالله محمد بن يوسف السويني قاضي طرابلس ترجمة في كراسة سماها «روض الحضرة في ترجمة الشيخ ابن زهرة» وقال: «كان شيخ الإسلام يترجمه بشيخ الروضة» وله كتاب «المطلب المزيزي في شرح التبريزي» في ثلاث مجلدات وله مجلد مشتمل على تفسير وحديث وفقه وعربية ووعظ وله

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص١٠٧. ـ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج١١ ص١٠٠.

(٣) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ص٤٤٠.

(٤) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ص٤٤١.

حاشية على روضة الطالبين للنووي، وشرح التنبيه في أربع مجلدات[(١)].

٨ ـ أبو الفضل محمد بن محمد بن بهادر المؤمني الطرابلسي (؟ ـ ٨٧٧هـ/ ؟ ـ ١٤٧٣م):

عالم طرابلسي ولد ونشأ بها. قال السخاوي عنه: «أنه كتب بخطه الكثير وقيد وجمع وأظنه كان يعاني الوفيات والنظر في التواريخ، وقرأ عليه جلال الدين بن النصيبي كرّاسة جمعها في ترجمة شيخه المحلي في ربيع الأول سنة ٨٧٢هـ. ومات سنة ٨٧٧هـ»[(٢)].

٩ ـ البرهان أبو ذر أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي الحلبي (٨١٨ ـ ٨٨٤هـ/ ١٤١٥ ـ ١٤٧٩م):

أديب طرابلسي الأصل، أشتغل في الأدب وشارك في بعض العلوم. جمع في الأدب مصنفات كتبها نظماً ونثراً[(٣)] ومن ذلك: «عروس الأفراح فيما يقال في الراح» وشرح «مصابيح السنة» للإمام الفرّا ولم يكمله وله: ذيل على بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم سمّاه «كنوز الذهب في تاريخ حلب».

١٠ ـ تاج الدين عبد الوهاب بن محمد بن زهرة (٨٠٦ ـ ٨٩٥هـ/ ١٤٠٣ ـ ١٤٩٠م):

عالم طرابلس وخطيبها ومدرّسها بعد أبيه ولد بطرابلس سنة ٨٠٦هـ ونشأ بها فقرأ القرآن وحفظ المنهاج وجمع الجوامع والفية النحو وأشتغل على أبيه في الفقه وقرأ على العربية وأصول الدين، وأقام بطرابلس متصدراً للتدريس في الجامع المنصوري الكبير، والإفتاء، والخطابة، وتتلمذ عليه المؤرخ عبد الباسط بن خليل بن شاهين وذكره في تاريخه المسمى «الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم» وأنتهت إليه رياسة مذهبه بطرابلس بعد أبيه وولي خطابة الجامع بها عوضاً عنه، وأفتى ودرّس، وعلى ذهنه بعض من أنواع الفروسية من الرمي بالنشاب وصنّف والفّ، ولف تفسير القرآن أختصر فيه تفسير والده وضمّ إليه أشياء من غيره فسمّاه «التطريز في تفسير القرآن العزيز»[(٤)]. «وانتشر فضله فيما ظهر له من التصنيف ومحا التحريف فصار نفعه عاماً للحاضر والوارد ومجلسه كله فوايد، وله مصنفات منها «المعتمد في شرح الزبد» في مجلدين ومنها «تذكرة المحتاج في شرح المنهاج» خمس مجلدات ومنها «درة المطلب في معرفة المذهب» ومنها «النكت على البيضاوي» ومنها «مختصر الرعاية في التصوف» وله أيضاً «المختار في فقه الأبرار»[(٥)].

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع ج١٠ ص٧٠ ـ ٧١.
(٢) السخاوي: الضوء اللامع ج٩ ص٢٠٩.
(٣) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ص٤٤٤.
(٤) تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري ص٤٤٥.
(٥) السخاوي: الضوء اللامع ج٥ ص١١٣.

١١ ـ تاج الدين محمد بن الناسخ الطرابلسي (؟ ـ ٩١٤هـ/ ؟ ـ ١٥٠٨م):

الإمام العلامة قاضي المالكية بطرابلس، وكان يذكر أنه يحفظ من كتاب سيبويه الف شاهد، وكان يعرف مذهب مالك والشافعي ومن مؤلفاته «الجواهر الثمينات في الفرائض وقسمة التركات» وكتاب «الدرر في توضيح المختصر» وكتاب «الدرر الثمين على السمين» في إعراب القرآن[١].

١٢ ـ برهان الدين إبراهيم بن موسى بن أبي بكر الطرابلسي (٨٥٣ ـ ٩٢٤هـ/ ١٤٤٩ ـ ١٥٦٢م):

العلامة الفاضل ولد بطرابلس سنة ٨٥٣هـ وأخذ بدمشق والقاهرة خليل وتولى بها مشيخة المدرسة القجماسية[٢].

وقال فيه العيدروسي: «الفّ عدة مؤلفات منها «الإسعاف في حكم الأوقاف وهو مختصر جمع فيه وقفي الهلال والخصصاف»[٣].

هذا ما توصلنا إليه من مدرسين ومؤلفين في مدارس طرابلس وجامعها وزواياها بالعصر المملوكي.

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع ج١٠ ص١٠٩.
(٢) تدمري: تارخ طرابلس السياسي والحضاري ص٤٤٦.
(٣) العيدروسي: تاريخ النور السافر عن اخبار القرن العاشر ص١١١.

الفصل الثاني

مدرسو المدارس الدنيوية

١ ـ مدرسو المدارس الحربية:
ـ المدربون الطواشية:
ـ الطريقة التي يدرس بها المدرسون
ـ نقابة المعلمين
ـ كفاءة الأستاذ وإحالته على المعاش
١ ـ مدرسو المدارس الدنيوية:
التمهيد للمدارس الحربية:

لقي النظام الحربي عند المسلمين شيئاً من الإهتمام عند مؤرخي الغرب من مستشرقين وغير مستشرقين، فظفرت الدولة المملوكية بقسط من هذا الإهتمام دون أن تنال الفروسية المملوكية حظها من الدراسة مع العلم بأنها محور النظام المملوكي كله.

وليس هذا الموضوع سوى محاولة لتكوين صورة واضحة للأسس التي قام عليها نظام الفروسية المملوكية وما طرأ عليها خلال عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ ـ ١٥١٧م) من تغيير وتعديل.

وقد قمنا بشرح العناصر التي تألف منها الجيش المملوكي ووصف حياة المملوك منذ أن جلبه تاجره إلى مصر حتى تحرر بعد أن فرغ من دراسته بالطباق وغدا فارساً. يضاف إلى ذلك عن العوامل التي تحكمت في مستقبل الفارس وموارده والعلاقات التي تربطه بأستاذه وزملائه في الرق والعتق والتربية والخدمة وأهمية ذلك كله في قوة نظام الفروسية وضعفه.

وعلى الرغم من أن المصادر المملوكية زخرت بأخبار السلاطين وأعمالهم دون أن تتعرض في وضوح لموضوع الفروسية، فهذه المصادر هي الوسيلة الوحيدة لدراسة نظام الفروسية المملوكية. وأمتاز هذا العصر بوفرة ما صنف فيه من كتب التاريخ والجغرافيا والخطط والتراجم والموسوعات مما ييسر للباحث العكوف على دراسته. غير أن هذه المؤلفات على وفرة مادتها، وتنوع موضوعاتها لم يتم تصنيفها في زمن واحد، حتى يستطيع الباحث المقارنة بين ما ورد فيها من نصوص وروايات كي يصل

إلى ما يريده من حقائق ومعلومات، فضلاً عن إقتصارها على معالجة الأحداث الجارية من زاوية واحدة، وإغفالها أشياء كثيرة يحتاج الباحث إلى إستجلائها.

ومعظم هذه المصادر وضعها المؤلفون عاشوا في العصر المملوكي الثاني أي في القرن التاسع الهجري، ولهذه الحقيقة أهمية خاصة تتمثل في أن هؤلاء المؤرخين أعتبروا عصر المماليك البحرية رمزاً للإزدهار والكمال والتفوق الحربي، على أنهم رأوا في العصر المملوكي الثاني الذي يعيشون فيه مثلاً للإضمحلال والفساد. والواقع أن هؤلاء المؤرخين يمثلون مدرسة للتفكير التارخي في القرن التاسع الهجري، أستاذها المقريزي وعنه أخذ معاصروه، ويتلوهم أبو المحاسن تغري بردي ومعاصروه ثم ابن أياس ومعاصروه. أكتفى هؤلاء المؤرخون في كتاباتهم بذكر الحقائق المجردة عن أسبابها. فإذا أنتهوا إلى حكم من الأحكام فإنما يكون ذلك من باب التعقيب على الحوادث للعظة والإعتبار، ولا يجري ذلك إلا في الحوادث المماصرة لهم، ومثال ذلك تعليق المقريزي على تعليم المماليك في الطباق وما طرأ على هذا التعليم من تغيير بعد عودة السلطان برقوق للسلطنة للمرة الثانية إذ سمح للمماليك في سكنى القاهرة. وعلى الرغم من هذه العيوب فإن ما خلّفه هؤلاء المؤرخون من كتب، أقتضى من دارس النظم المملوكية وعلى الأخص نظام الفروسية الحرص على إستقصاء ما ورد بها من نصوص ومقابلتها وتقرير ما يجوز الإعتماد عليه منها وما لا يجوز حتى يتسنى الوصول إلى أحكام صحيحة.

ومن المؤلفات الوثيقة الصلة بموضوع الفروسية ما وضع من الكتب في نظم الدولة المملوكية، والموسوعات التي أشتملت على قدر كبير من المعلومات التي ترتبط بالفروسية. ومن هذه الكتب:

١ ـ كتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار وهي موسوعة تقع في عشرين مجلداً، كتبه ابن فضل الله العمري سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤١م، تناول الدراسات التارخية والجغرافية والأدبية.

٢ ـ «صبح الأعشى في صناعة الأنشاء» للقلقشندي الذي توفي سنة (٨٢١هـ/ ١٤١٨م) أي بعد وفاة العمري بأكثر من ستين عاماً. وقد جمع في هذا المؤلف الخبرة الفنية بالمداد والقلم والخط والإلمام بالتاريخ والأدب والتقويم وعُني القلقشندي بوصف أقاليم مصر ونيابات الشام والبلاد المجاورة وأهتم بشرح النظام الإداري والسياسي في هذه الجهات. ويختلف القلقشندي عن غيره في أنه لم يورد في كتابه إلا الوثائق التي يعتمد في صحتها والتي نقلها من المحفوظات التي تقع تحت يده في الوظيفة (رئيس دار الإنشاء).

٣ ـ أما كتاب خليل بن شاهين الظاهري المسمى «زبدة كشف الممالك...» فإنه حوى الوظائف الحربية والإدارية في دولة المماليك الثانية حتى وفاته سنة (٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)

ولهذه الكتب أهمية فيما أوردته من نظم إدارية وحربية وإقتصادية.

٤ ـ وثمة نوع آخر من المصادر المعاصرة تمثل في الرسائل الصغيرة التي وضعها معلمو الفروسية، لإرشاد المعلم والمتعلم إلى ما ينبغي معرفته من أصول الفروسية من حيث ركوب الخيل، ورياضتها، والتدرب على إستعمال الأسلحة المختلفة: من الطعن بالرمح، والضرب بالسيف، والرمي بالنبل، ومزاولة ألعاب الفروسية.

ومعظم الرسائل ترجع إلى العصر المملوكي الأول، إذ أهتم السلاطين لتعليم المماليك في الطباق، وأقتضت الأحوال بوضع رسائل لشرح التدريبات الحربية وموضوعات الفروسية. وأكثر هؤلاء المؤلفين شغل مناصب حربية في الدولة المملوكية، وحرصوا على تضمين هذه الرسائل مذاهب أساتذة الفروسية ومعلميها في فنونها المختلفة مثال ذلك: ١ ـ نجم الدين الرماح المعروف بالأحدب المتوفي سنة (٦٩٥هـ/ ١٢٩٨م) جمع مذهبه في الفروسية في اثنين وسبعين بنداً ونقل عنها كثير من المعلمين منهم ابن بكتوت الرماح ضمن كتابه «الفروسية وعلاج الخيل».

وتدل وفرة المخطوطات في هذه الرسائل في المكتبات في الشرق والغرب على كثرة تداولها وإستعمالها[١]. لعلني أرى بعد هذا أن هذا النوع من المدارس يستحق الدراسة.

٢ ـ معلمو المدارس الحربية:

١ ـ أما معلمو الطباق الكتابية فلم تذكر المصادر التاريخية وكتب التراجم والطبقات منهم إلا القليلين، الذين أقترنت أسمائهم بأسماء بعض الأمراء الذين تعلموا على أيديهم، ومن أولئك تقي الدين القلقشندي الذي وصف الأمير تغري برمش نائب القلعة بأنه لم يكن يفهم من العربي كلمة[٢]. ويرجع سبب إهمال المصادر وكتب الطبقات لأولئك المعلمين، أنهم لم يكونوا من المتصرفين إلى العلم، وأن ثقافة بعضهم لم تتعد أقراء القرآن، بل أن بعضهم أشتغل ببيع الليمون مثل الشيخ عبد الجبار ابن علي الأخطابي، أو نسخ الكتب، مثل محمد بن أحمد العسقلاني، أو بيع الكتب مثل محمد ابن حسن الحنفي[٣].

---

(١) Mercier, La paure des Cavaliers pp. 433-459.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع ج٢ ص٢٧٠.

(٣) ابن تغري بردي: منتخبات من حوادث الدهور ص١٤٠، السخاوي: الضوء اللامع ج٤ ص٣٥ ـ ٣٦.

ومن الواضح أن المماليك الكتابية كانوا أحسن ثقافة ومكانة من غيرهم من المماليك الذين جلبوا كباراً، فلم تتغير طباعهم ولم يهتموا بشيء من التعليم المضارع لما نشأ عليه الكتابية من الأدب والتفقه بالدين في سن الصغر[١]. ومع هذا ترقي معظم هؤلاء المماليك حتى بلغوا الوظائف الكبرى، وحصلوا على الإقطاعات الثقيلة، دون أن يحسنوا الكلام في العربية، فضلاً عن لغتهم التركية الأصلية، ودون دراية بأعمال وظائفهم، ومثال ذلك أركماس الظاهري صاحب الداوادارية الكبرى في عهد برسباي[٢] وشارك في ذلك الأمير أنص بن عبدالله الجركس والد السلطان برقوق الذي وجد الفقيه صعوبة شديدة في تحفيظه الفاتحة من القرآن، ولم يعرف من التركية سوى اللهجة الجركسية[٣].

ثم أن اولئك المماليك ضربوا مثلاً في الفساد والمعاصي، ولعل الأمير طوخ بن عبدالله الجكني أسوأ مثال لهذه الطائفة من المماليك في هذا العصر، إذ عرف بالتجاهر بالمعاصي وأدمان الخمر، فضلاً عما أشتهر به من الكبر والجبن والبخل وعدم معرفته أنواع الفروسية[٤].

١ ـ الفروسية وفنونها:

أما التعليم الحربي للمملوكي في الطباق، فليس في المراجع التارخية وصف تفصيلي قائم بذاته سوى ما أورده المقريزي في الخطط من حيث إنتقال المملوك من التعليم الديني إلى هذا النوع الثاني من التعليم عند سن البلوغ، حين يأخذ في المران على أنواع القتال من رمي السهام ولعب الرمح[٥]. غير أن المؤلفين في الفروسية، ومعظمهم أساتذة في فنونها المختلفة، وكذلك مؤلفي كتب التراجم والتاريخ، وعلى الأخص في العصر المملوكي الأول، القوا ضوءاً جديداً على هذا النوع من التعليم عند المماليك.

وأول ذلك أن الفروسية شملت المهارة في ركوب الخيل، واللعب بالرمح، الحذق في الرمي والضرب بالسيف، وسوق البرجاس والمحمل، ولعب الصولجان، وأستعمال الدبوس، والمران على المصارعة، وسباق الخيل[٦].

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٢٣٥.
(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص١٨٩.
(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٢٦٩.
(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٢٤٢.
(٥) المقريزي: الخطط ج٣ ص٣٤٧ ـ ٣٤٨.
(٦) السخاوي: الضوء اللامع ج٦ ص٣٤ ـ ٤١. ـ ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٢٣٤ ـ ٢٦٦.

على أن المملوك من المماليك لم يتعلم جميع فنونها وفروعها في الطباق، بل أقتصر تعليمه على أستعمال الرمح، والقوس، والسيف وركوب الخيل فقط على معلمين أخصائيين.

ثم يتعلم المملوك ما عد ذلك من فنون الفروسية، بعد عتقه وتخرجه من الطباق جندياً، حين يخرج السلطان لمملوكيه خيلاً وقماشاً على قول المصطلح. وفي كتب التراجم إشارات مبعثرة عن المعلمين الذين تولوا القيام بمهمة تعليم المماليك سواء في الطباق أو غيرها، إذ أقترن لفظ الفروسية بألفاظ معلم وأستاذ ورأس، ومثال ذلك الطنبغا ابن عبدالله الظاهري الذي عرف بالمعلم لأنه تولى تعليم اللعب بالرمح في عهد برسباي[١]. وكذلك تمراز بن عبدالله الناصري الظاهري الذي تولى وظيفة معلم الرمح زمن السلطان برقوق. وأشتهر تمراز كذلك بأنه رأس في فنون الفروسية فضلاً عن وظيفة التعليم وهو أستاذ آقبغا التمرازي وغيره من التمرازية[٢].

أما كزل بن عبدالله السودوني أحد أمراء العشرات ومعلم الرمح في عهد المؤيد شيخ فهو أستاذ المتأخرين في تعليم الرمح زمن برسباي، وتخرج عليه معظم المماليك والأمراء وقتذاك[٣]. وأشتهر الأمير آقبغا بن عبدالله التمرازي الأتابكي بدوره بأنه أستاذ زمانه في مختلف أنواع الفروسية، وأنتهت إليه الرياسة في ركوب الخيل وتخرج به جماعة من أمراء الدولة وأعيانها في عهد برسباي وجقمق[٤].

هذا ما أوجزناه عن تعليم المماليك في هذا المضمار وسنأتي على ذكر معلمي الفروسية وتعليم الطعن بالرمح والرماية والضرب بالسيف وركوب الخيل على الصفحات التالية:

١ ـ معلمو الفروسية:

إن الأستاذ في الفروسية هو الذي بلغ الغاية في فنونها في العصر المملوكي حتى ليصبح مرجعاً فيها جميعاً فضلاً عن أشتغاله بالتعليم. أما المعلم فهو الذي يختص بتعليم الرمح ومثال ذلك الأمير أينال ضضع الذي تولى تعليم الرمح للمماليك عدة سنين زمن السلطان[٥] وأصطلح أهل الفروسية على هذه الألقاب. فإذا أصبح المعلم ملماً بأصول تعليمه، وغدا مرجعاً فيه، أعترف له المعلمون الآخرون بالرياسة، ومثال

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٢٦٣.
(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٤٣١ ـ ٤٣٢.
(٣) السخاوي: الضوء اللامع ج٦ ص٢٢٧. ـ ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج٣ ص٥٤.
(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٢٣٤.
(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج٣ ص٥٤.

ذلك الأمير جوبان الظاهري الذي أشتغل بتعليم الرمح زمن السلطان برقوق، وعرف أولاً بالمعلم ثم أنتهت إليه الرياسة في عصره حتى أضحى حكماً في هذا الفن زمن السلطان شيخ والسلطان برسباي[١].

وأشتهر الأمير سودون طاز الذي جعله برقوق معلماً للرمح بأنه رأس في هذا الفن لما أكتمل فيه من قوة الطعن وشدة مقابلة الخصم، وسرعة الحركة، وحسن تسريح الفرس أثناء اللعب[٢]. وتمتع بلخجا بلقب الرياسة لمهارته في لعب الرمح. ومن الذين أنتهت إليهم الرياسة في الضرب بالسيف الأمير أينال الناصري زمن السلطان جقمق. كما أنتهت رياسة الرمي بالنشاب إلى السلطان الظاهر تمربغا توليه السلطنة، وبلغ من مهارة تمربغا في ذلك أنه صنع لنفسه **القوس والنشاب**[*] أو رما بهما رمياً لم يشاركه فيه أحد شرقاً ولا غرباً في عصره فضلاً عن إجادته لسائر فنون الفروسية من اللعب بالرمح وتعليمه، **والبرجاس**[**] وسوق المحمل وتعبئة العساكر، والضرب بالسيف **والدبوس**[***] وركوب الخيل.

ومع هذا ظل أغلب هؤلاء المعلمين من أمراء العشرات **والطبلخاناه**[****]، ورؤساء نوب. وأقتصرت حياتهم على تعليم المماليك السلطانية في الطباق، ولم يصل منهم إلى أمرة مائة سوى واحد هو الأمير أينال الساقي **رأس نوبة النوب**[*****] زمن السلطان فرج[٣][٤]. ولما يؤثر عن هؤلاء الأساتذة والمعلمين والرؤساء في فنون الفروسية أنهم الفوا فيها مؤلفات معروفة حتى الآن ولكن توجد مؤلفات عن غيرهم، ويشار إليهم بأنهم أصحاب مذاهب مختلفة في هذه الفنون، وأعتبارهم قدوة فيما أختصوا به من أنواع الفروسية.

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج٢ ص١١.

(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج٢ ص٢٤٩.

(٣) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٢٩٩.

(*) القوس والنشاب: قوس من خشب في رأسه نبلة لرمي الأعداء.

(**) الدبوس: عصا من خشب أو حديد في رأسها كرة غليظة لضرب الأعداء.

(***) البرجاس: هو هدف خشبي مكون من سبع قطع تركب بعضها فوق بعض حتى يوازي ارتفاعه رأس الفرس وينتهي هذا الهدف بحلقة من المعدن فيسوق المملوك في البرجاس ثم يرمي نحو الحلقة المعدنية فإذا اصاب سقطت الحلقة عن قاعدتها الخشبية.

(****) رأس نوبة النوب: رتبة عسكرية يصل صاحبها الى أمير مائة.

(*****) طبلخاناه: رتبة عسكرية أمير مائة وتقدم الف (على أن لا يقل عن اربعين فارساً) لقد انعم برسباي على أخيه بأمرة طبلخاناه.

(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٢٩٦. ـ السخاوي: الضوء اللامع ج٢ ص٣٢٩.

٢ ـ تعليم الطعن بالرمح:

وأنفرد ابن تغري بردي من المؤرخين المشهورين بالإشارة إلى أهمية تعليم الرمح، وسوق المحمل منذ بداية عصر المماليك، والسر في ذلك ما عرف به هذا المؤرخ من الحذق في لعب الرمح وتدوين أخبار معلميه السابقين والدأب على مشاهدة رؤساء هذا الفن في عصره وملاحظة ما طرأ عليه من تطور[١] إذ يذكر في حوادث شعبان سنة ٦٨١هـ لعب مماليك السلطان قلاوون في سوق المحمل بالرماح والسلاح، وفضل عليهم مماليك السلطان برقوق في هذا الفن لأنهم أحدثوا فيه أشياء جديدة[٢]. وكذلك لعب المعلمون أمام السلطان شيخ سنة ٨٢٣هـ، وبلغ من ارتياحه أنه أمر بإقامة حفل للعب الرمح في كل أسبوع، فيلعب معلمان هما وصبيانهما مخاصمة رياضي فيقف المعلم يميناً وإلى جانبه يقف صبيانه صفاً واحداً ويقف تجاهه معلم آخر وصبيانه معه ويبلغ عدد كل فريق خمسة أفراد فيخرج المعلم للمعلم للمباراة ثم يخرج نائب المعلم لنائب المعلم الذي يقابله... وأهم ميادين اللعب بالرمح هي ساحة بولاق والرميلة تحت القلعة بحضور أساتذتهم أيام تعليمهم[٣].

وعالجت كتب الفروسية طرق تعليم الرمح، فأشارت إلى شروط الرمح الجيد، وهي أن يكون بين الدقيق والغليظ حتى لا ينبو عن الكف، خفيفاً حتى يمكن حمله، طوله عشرة أذرع أو أقل قليلاً. ومن هذه الشروط أنه ينبغي على المتعلم أن يتخذ في تعليمه فرساً شديد القوائم مطواعاً ساكناً لين المعاطف، وعلى المتعلم أن يتولى بنفسه أحكام سرج فرسه والاطمئنان على شد حزامه. وأن يعلق الرمح في منتصفه في مؤخر السرج خلف الفخذ اليمين، بحيث يكون رأس الرمح مرتفعاً إلى الأمام بالقرب من أذن الفرس اليمنى على أن يكون بين أسفله وبين الأرض أقل من ذراع[٤]. وعند الخروج للتعليم يسير المملوك فرسه راكباً في الناورد أي الدوائر المرسومة بالميدان، وإذا خرج المملوك لمطاردة فارس أتخذ رمحاً من نوع آخر غير رمح المتعلم. وإذا رأى خصمه يكسر عليه بفرسه ويحبس جريه ويمد يده إلى رمحه، أسرع هو إلى طعنه قبل أن يستوي هجومه[٥]. فضلاً عن ضرورة إجادته لتدريبات المطاردة، والمصارعة والمقابلة والعناق وتبطيل طعنات الخصم. ووضع المعلمون لذلك كتباً أصبحت مراجع في تعليم الرمح، وأشهرها كتاب البنود في معرفة الفروسية على طريقة نجم

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧ ص٣١١.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٦ ص٤١٧.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٦ ص٤٠٣.
(٤) كتاب علم الفروسية ص٨٩ بـ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥ م فنون حربية).
(٥) كتاب الجهاد والفروسية ص١٧ بـ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣ م فنون حربية).

الدين الأحدب، والكتاب الذي وضعه عن تدريبات المطاردة بكتوت الرمّاح الخازندار الظاهري أحد رجال الحلقة[١].

٣ ـ تعليم الرماية بالقوس والنشاب:

وتطلب تعليم الرماية بالقوس والنشاب معرفة أنواع القسي وأسماء أجزائها والدراية بالنشاب وأنواعه وأدواته. والقسي نوعان: إحداهما العربية المصنوعة من عود واحد من الخشب بغير غراء[٢]، والثانية الفارسية وهي التي تتركب من الخشب والقرن والعقب بواسطة الغراء[٣]. ولأجزاء القوس أسماء فموضع إمساك الرامي يسمى المقبض، ومجرى السهم فوق قبض الرامي يسمى كبد القوس، وما يعطف من خشب القوس يسمى السية، وما فوق المقبض من جهة يمين الرامي يسمى الرأس، وما هو أسفله على يساره يسمى الرجل.

أما النشاب فهو ما يرمى به عن القسي الفارسية، وما يرمى عن القسي العربية فهو النبل. ومجرى السهم من الوتر يسمى الفوق وحديده يسمى النصل، والريش يسمى القذذ والسهم قبل تركيبه يسمى القدح. والكنانة ويقال لها الجعبة وهي ظرف السهام، وتكون تارة من جلد وتارة من خشب[٤] وأطلق عليها زمن سلاطين المماليك اسم التركاش[٥] ويبدأ الأستاذ في تعليم الرمي لتلاميذه من المماليك بإتخاذ قوسين لينتين، فيطرح إحداهما بين يدي المتعلم والأخرى بين يديه، فيبدأ أولاً بتعليمه كيف يقبض، وكيف يمدّ بالأصابع الثلاثة حتى يصح قبضه، ويتطلب ذلك وحده أياماً ومراناً.

ثم يعقد الأستاذ على الوتر من غير سهم ويشد أصابعه عليه حتى يستقيم عقده، ويبعه المتعلم في ذلك من غير رمي فيطلق الوتر فارغاً أياماً حتى يصح إطلاقه. فلا يزال الأستاذ يعلمه التفويق والإحكام في الرمي وذلك بالتدرج رويداً رويداً من قوس التعليم اللينة، إلى قوس أقل ليونة حتى يبلغ خمس أقواس متفاوتة في القوة وتكون الخامسة هي الصالحة للعمل في الميدان. فإذا تمكن المتعلم من الرمي عليها أخذ في شد القسي الشديدة ونزعها جهد طاقته وتمرس في استخدامها ليلاً ونهاراً[٦].

---

(١) كتاب علم الفروسية ص٢ بـ (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥ م فنون حربية).
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج٢ ص١٣٤.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج٢ ص١٣٥.
(٤) السخاوي: كتاب القول التام في الرمي بالسهام.
(٥) طيبغا الأشرقي: كتاب بغية المرام ص٢٧ ـ ٢٨.
(٦) طيبغا الأشرقي: كتاب بغية المرام ص٢٨.

وعلى المتعلم أن يسمي عند الإبتداء ويكبر عند الإطلاق. وعلى الأستاذ أن يشكر تلاميذه ويشجعهم ليزدادوا رغبة، فيروض تلامذته ويؤلف بينهم. ويحرضهم على العمل ولا يوبخهم إلا خلوة، ليجتهدوا في الطلب ويكثروا في إحترام الموضع الذي خص بالرمي، ولا يرضى لأحد أن يتكلم فيه بفاحشة لأنه مسجد[(١)]. فإذا صح رمي المتعلم ورمي الأماج أياماً على غير علاقته أو هدف ـ والأماج هو رقبة السهم قاب قوس واحد[(٢)] ـ خرج إلى الصحراء ورمى في الفضاء على غير علاقة كذلك. فإذا رأى سهامه في الهواء صحيحة غير مضطربة رجع إلى الأستاذ ليعلمه الرمي إلى العلامة[(٣)]. فإذا عرف ذلك صار رامياً أو دخل في حملة الرماة[(٤)].

أما تعليم الرمي للفرسان فعلى نوعين: أولهما الرمي نحو الأرض وهو ما يسمى بالقيقج والرمي إلى أعلا ويطلق عليه القبق ويشترط في رمي الفارس أن يعرف التنقيل وهو سوق الفرس قليلاً قليلاً، والسوق هو المجري الشديد، والرمي أثناء الجريان والجولان ولا سيما عند إشتداد جري الفرس إلى آخر الشوط بالميدان[(٥)]. والأصل في رمي القيقج والقبق، إتقان علم ركوب الخيل وحبس رؤسها بالملجم، والتدريب عليها في الكر والفر حتى يتعودها الفارس ويصير له ذلك عادة[(٦)].

وينبغي أن تتم العملية بعد ذلك حيث يجري سوق الفرس، وتفويق السهم، وجرّ القوس بالسهم، وإفلات العنان من أصابع اليد اليسرى جملة واحدة[(٧)].

ولا يختلف رمي القبق عن رمي القيقج إلا في الإتجاه إلى أسفل أو أعلى وأحسن ما يكون الرمي في القبق حين يلتفت الفارس من أعلا كفل الفرس إلى فوق ويرمي بعد أن يتجاوز الخشبة قدر باع. والأحسن بالرامي أن يتبع السهم بنظره إلى أن يتعدى السهم العلامة. أما رامي القيقج فيتطلب أن يلتفت الرامي إلى خلفه ويرى العلامة من أنحاء عند الفخذ الأيسر من الفرس ويتبع السهم بنظره إلى العلامة. وأطول الميادين للقيقج والقبق مائة وثلاثون ذراعاً[(٨)]. أما أرض الميدان ينبغي أن تكون مستوية صالحة لأن يثبت عليها حافر الفرس، فإذا كان أحد طرفي الميدان عالياً وجب

---

(١) طيبغا الأشرقي: كتاب بغية المرام ص٢٨.
(٢) ابن القيم: الفروسية ص١٠٧.
(٣) ابن القيم: الفروسية ص١٠٨.
(٤) طيبغا الأشرقي: كتاب بغية المرام ص٢٧.
(٥) طيبغا الأشرقي: كتاب بغية المرام ص١٨أ.
(٦) طيبغا الأشرقي: كتاب بغية المرام ص١٨ب.
(٧) طيبغا الأشرقي: كتاب بغية المرام ص١٩ب.
(٨) طيبغا الأشرقي: كتاب بغية المرام ص٢١ب.

أن يكون سوق الرماة إلى العلو، كما ينبغي معرفة إتجاه الرياح، وأن يختبر الفرس قبل الرمي عليها بترويضها على الجري والدخول نحو الخشبة والعلامة مرات، حتى يرى الفرس ذلك ويعرفه، وأن يسوق من غير رمي حتى يتعود الفرس الجري، بعد ترك اللجام على الغارب. وجرت العادة في القبق أن تجعل في الميدان، حبل معترض مرتفع على خشبتين، ويجعل القبق في موضع متوسط بين الخشبتين. ويكون سوق الرماة عند الرمي من تحت الحبل وأحياناً أستعاض اللاعبون عن الحبل برسم دائرة إتساعها عشر باعات يكون القبق في مركزها ويرمون إلى السماء لأصابة القبق، ويجوز أن ينصب حلقة معدنية على رمح مثل البرجاس، ويرمي عليها[١].

٤ ـ التعليم على السيوف:

ومن فنون الفروسية إستعمال أنواع السيوف، إذ أن ما يستخدم منها في وجه من وجوه القتال لا يستخدم في وجه آخر. والسيوف التي يستعملها المتعلم في التدريب غير السيوف التي يقاتل بها، فضلاً عن ضرورة معرفة أنواع السيوف التي عند الأعداء. والسيوف عامة نوعا: **العتق** وهي الجيدة الصناعة[٢]، **والحديثة** وهي أقل جودة. ويختلف النوع الأول عن الثاني في الجوهر والسقاية والقدّ. ومن السيوف العتق ـ **اليمانية والقلعية والهندية**، وهي تختلف من اللون والقد والصناعة، فاليمانية أكثرها، عرض ثلاثة أصابع، وأقل ما يكون منها، عرض أصبعين ونصف أصبع، ويتراوح طولها من ثلاثة أشبار إلى أربعة أشبار، ووزنها من رطلين ونصف رطل إلى ثلاثة أرطال. وأكثرها مستوية القدود يتساوى عرض أعاليها وأسافلها[٣]. أما القلعية فليس فيها ما يكون عرضه أربعة أصابع ولا ثلاثة تامة، وطولها من أربعة أشبار إلى خمسة وقدودها مستوية يتساوى أعلاها وأسفلها في العرض، والهندية تماثل اليمانية تقريباً[٤].

ومن السيوف الحديثة السليمانية، والسرنديبية، والفارسية. وهناك أنواع أخرى من السيوف الحديثة أولها الدمشقية طولها أربعة أشبار وعرضها أربعة أصابع وهي أقطع المحدثة كلها. أما الثانية فهي المصرية فهي طويلة مستوية غليظة الأشغار، أما الثالثة وهي الأفرنجية تمتاز بعرض أسافلها وبما في صدرها من أهلة أو صليب ذهب محشو، وهي أخرط رؤساً من اليمانية[٥].

---

(١) طيبغا الأشرفي: كتاب بغية المرام ص٢١ب.

(٢) ابن القيم: الفروسية ص٩٨ب.

(٣) ابن القيم: الفروسية ص٩٩أ.

(٤) ابن القيم: الفروسية ص١٠٠أ.

(٥) ابن القيم: الفروسية ص١٠١ب.

ويتعلم المبتدىء ضرب السيوف على مراحل، فيستعمل أولاً، سيفاً ذا مقبض دقيق خفيف الوزن، ويضرب به في حائط من الطين بعد عجنه[1]. فينتصب المتعلم على يمين الطين ويمد رجله اليسرى إلى الأمام واليمين إلى وراء. ثم يرفع يده حتى يصير مرفقه مسامتاً لأذنه وسيفه مقابلاً فخذه ورأسه أعلى من قمة الحائط. ثم يمسك المبتدىء السيف بين السبابة والإبهام، ويشد خنصره على بنصره، ويكون ضربه قواماً مستقيماً لا منحرفاً. ويضرب المبتدىء في اليوم الأول خمسة وعشرين ضربة وفي اليوم الثاني خمسين ويستمر على ذلك حتى يستوي له الألف ضربة في يوم واحد، ووقوف واحد، وذلك هو الإدمان، ويتبع ذلك التمرين على المضرب بالسيف في قطع اللباد فوق حائط من الطين المعجون، فيقطع المبتدىء اللباد طبقة بعد طبقة[2].

فإذا إنتهى من ذلك أنتقل إلى قطع الورقة على اللباد، وذلك بإستعمال سيف رقيق الحد مسلوب الوسط إلى ذبابته، مستقيم ليس عريضاً ولا طويلاً[3].

أما تعليم السيف للراكب وهو الفارس، معنىً ولفظاً، فتطلب مراناً طويلاً، ينصب الفارس في الأرض أعواداً من قصب رطب، طول الواحدة منها في طول قامة الفارس، ثم يبتعد الفارس فيجري فرسه ملء فروجه فإذا حاذى الأعواد عن يمينه سل سيفه ونفح منها ما حاذى منكبه بضربة. ويعمل ذلك مراراً حتى يقصر القصب إلى مقدار ذراع من الأرض.

وبعد ذلك يتعلم الفارس ضرب السيف أماماً وخلفاً وفي كل جانب[4].

وطريقة حمل السيف، أن يشدّ الفارس إلى وسطه في منطقته بسير وثيق، حتى لا يعلق الغمد ويضطرب عند المناوشة والركوب والنزول. ويكون سيف الفارس قصيراً ليأمن التلف والإنقلاب، على عكس سيف الرجل الذي يكون طويلاً معلقاً تحت الأبط[5].

ومما تتطلبه الحذق بضرب السيف أن يواصل الفارس الضرب بالصوالجة ليصبح ماهراً في الجري السريع في الحروب، وأن يكون عارفاً بأهمية تطريف قدميه في ركاب الفرس حتى لا يظهر شيء من حديد الركاب، فإذا ضرب استطاع أن يجعل ضربه نفحاً وشزراً وأن يعمل على وقاية نفسه ودابته ورأسه[6].

---

(١) ابن القيم: الفروسية ص١٢٢.
(٢) ابن القيم: علم الفروسية ص١٦.
(٣) ابن القيم: علم الفروسية ص١٢٧.
(٤) ابن القيم: علم الفروسية ص١٠٤.
(٥) ابن القيم: علم الفروسية ص٢٨.
(٦) ابن القيم: علم الفروسية ص١٠٣.

٥ ـ التعلم على ركوب الخيل:

على أن أساس فن الفروسية في كل زمان ومكان هو ركوب الخيل والتفرس عليها. ولما كان اقتناء الخيل وتربيتها والإنفاق عليها أمراً غير ميسور لأفراد المماليك، عني السلاطين والأمراء بإعداد الأصطبلات السلطانية والأميرية الحافلة بأنواع الخيول وأهمها هنا أصطبل الجوق الذي خصوصية السلاطين لخيول الخرج للمماليك الكتابية[١]، إذ جرت عادة السلاطين عند إنتهاء الكتابية من تعليمهم الديني والحربي أن يعتقوهم، وأن ينعموا عليهم بالخيل والقماش.

ويعتبر أصل الفروسية الثبات على الفرس العرى وهو الفرس المجرد من السرج. فإن من لم يتفرس على جرائد الخيل لم يصح ركوبه ولا ثباته، ولا يؤمن عليه من السقوط إن أضطرب فرسه أو أصابته هنة. ويبدأ الفارس يتعلم الركوب بالجل أولاً، فيلجم فرسه ويشدّ عليه الجل من الصوف أو الشعر، ثم يقف على يسار الفرس عند منكبه ويضع إبهام يده اليسرى في مقدم الجل من فوق ويجعل راحته على منكبه، ثم يثب وضرب يده اليمنى عند الوثب على عنق الفرس من الجانب الأيمن. فإذا أحسن الفارس ركوب الفرس على هذا النحو أستغنى عن الجلّ، وركب على العرى بغير سرج. وعليه حينئذ أن يجمع يديه في العنان، وينصب ظهره، ويلزم بفخذيه موضع دفتي السرج ويتقدم من ظهر الفرس قليلاً ثم يمد ركبتيه وساقيه وقدميه إلى كتفي الفرس ولا يكون أعتماده على اللزوم بفخذيه[٢].

ثم يبدأ الفارس في تسيير الفرس على مهل وهو المعروف بتسيير العنق ويستمر على ذلك أياماً ثم يبدأ بالجري المتوسط وهو المعروف بالجنب اللين، ولا يزال يريد في جنبه حتى يتدرج من سرعة التقريب إلى سرعة ملء الفروج وهي أقصى ما يبلغ الفارس في جريانه[٣]. فإذا أحكم الفارس الركوب على العرى، عاد بعد ذلك إلى الركوب بالسرج، وعليه أن يعرف عدة الفرس وأدواتها، فيتخذ لجاماً «نازكياً» لوثاقته وسهولة إستعماله، لأنه قلعة واحدة. وعليه أن يتخذ حكمة في رأس فرسه يعلفه منها الشعير، ويسقيه الماء في سهولة أثناء السفر، ويستخدم مقوداً يستعيض به عن الرسن وهو المرشحة وتلك من باب الإحتياط[٤].

أما السرج فينبغي أن يكون وثيق الخشب، واسع المجلس، واطيء القربوس والموخرة. وعليه أن يتخذ حزاماً وثيقاً، ليس خفيفاً ولا ثقيلاً، ثم يستوثق من سيرى الركاب والأبازيم، ويجعلها أقرب إلى الطول منها إلى القصر، لأن الركاب القصير

---

(١) الظاهر: زبدة كشف الممالك ص١٢٥.

(٢) ابن القيم: علم الفروسية ص٢.

(٣) ابن القيم: علم الفروسية ص٢أ.

(٤) ابن القيم: علم الفروسية ص٣أ.

ربما تسبب في قلع الفارس عند وثوب الفرس أو حبسه عن الجري فجأة[١].

وأكتمل تعليم الفارس في الركوب في دوائر الناورد[٢]. بحيث يلوي فرسه ويفلته يمنة ويسرة في سرعة وسهولة فليس أنفع العامل بالرمح والسيف من اللين وسرعة العطف. وحفلت كتب الفروسية بالإرشادات الموجهة للفرسان بشأن الكرّ والفرّ والمطاردة والمبارزة والتخلص من المآزق، والتغلب على الخصم من نواح متعددة وتجريده من سلاحه[٣].

المدربون الطواشية

وفي أثناء المراحل المختلفة لتعليم المماليك في الطباق، أشرف على هذه المراحل كلها جماعة الطواشية لأنهم المسؤلون عن سلوك المماليك وتربيتهم، ومراقبة عدم إختلاط الكبار بالصغار منهم. وتكونت هذه الجماعة على شكل هرمي، وقاعدته طواشية الطباق وقمتها مقدم المماليك ونائبه، وبين القاعدة والقمة طوائف ودرجات من أولئك الطواشية، فمنهم مقدمو الطباق وهم يلون مقدم المماليك ونائبه في الترتيب الهرمي ثم طواشية المماليك الكتابية المكلفون بالسهر على شؤون صغار المماليك ثم السواقون المكلفون بحفظ النظام، والبوابون برسم الأبواب. وبلغت عدة أولئك الطواشي في وقت من الأوقات ستمائة طوتش من جميع المراتب والدرجات. وتولى مقدم المماليك شؤون الإدارة كلها من تنظيم وضبط وفصل الخصومات ويرتب مقدمي الطباق ودرجاتهم حسب مكانتهم في الوظائف السلطانية ويفرق الكساوي في المماليك، ويأمرهم بالركوب في الأيام المعتادة في الخدمة ويعين مواقفهم في أوقات البيكار والحرب وفي الأسفار حول الدهليز السلطاني ولا يستخدم منهم إلا من هو معروف بالخير ويقيم عليه الضمان[٤].

ومن المعروف أنه لم يكن يلي تقدمة المماليك إلا الطواشي الذي يبدأ بعض الأحيان خادماً صغيراً في البيوت السلطانية ثم مربياً لأبناء السلطان أو زماماً أو جمداراً في الحريم السلطاني. ثم ينتقل بعد ذلك في الوظائف الطباقية المختلفة حتى يصل وظيفة مقدم المماليك[٥] وغالبية هؤلاء الطواشية من الأحباش والروم جلبوا إلى مصر مع المماليك[٦].

وعرف الطواشية في الدولة المملوكية الأولى بالحزم والشدة وأعمال البر

---

(١) ابن القيم: علم الفروسية ص٣ب.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الظاهري: زبدة كشف الممالك ص١٢٢.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج١١ ص١٧٣.

(٥) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٥ ص١٥٠ ـ ١٥١. السخاوي: الضوء اللامع ج٦ ص١٧٦ ـ ٢٢٦.

(٦) ابن اياس: بدائع الزهور ج٣ ص٤. السخاوي: الضوء اللامع ج٤ ص٣٤٠. ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٣٠٤ ـ ٣٣٣.

والصدقة فضلاً عما أشتهروا به من التقوى والميل إلى سماع الحديث[١]. فالطواشي شرف الدين قميص مقدم المماليك زمن السلطان بيبرس وأولاده كان مهيباً صارماً على المماليك السلطانية مبسوط اليد فيهم[٢]. وأشتهر فاخر بن عبدالله مقدم المماليك السلطانية في عهد السلطان قلاوون بأنه ذو حرمة ومهابة وسطوة وكلمة نافذة لا يجرؤ الواحد من المماليك أن يمرّ أمامه بغير دستور[٣].

على أن السلاطين لم يغفلوا مراقبة مقدمي المماليك وغيرهم من الطواشية، وعاقبوا المقصرين منهم في واجباتهم، فأمر السلطان بيبرس سنة ٦٦٣هـ بقطع أيدي جماعة منهم بسبب إهمالهم في مراقبة المماليك وإشتراكهم مع نواب الولاة والخفراء في التغاضي عمّا أرتكبه بعض المماليك من المفاسد[٤] وأمر بيبرس بشنق الطواشي شجاع الدين عنبر بسبب شرب الخمرة[٥].

وفي سنة ٧٢١هـ ثار المماليك على كريم الدين الكبير ناظر الخاص لتأخره جوامكهم شهرين فغضب السلطان الناصر على مقدم المماليك ونائبه ومقدمي الطباق، وطرد جماعة منهم وقطع جوامكهم وأنزلهم من القلعة[٦].

وظلت وظيفة مقدم المماليك في أيدي الطواشية. ولم تخرج عن هذه القاعدة طوال عصر المماليك حتى تولاها أمير من أمراء المماليك وظل يشغلها مدة طويلة سنة (٧٣٢ ـ ٧٤١هـ) وهو الأستادار آقبغا عبد الواحد إذ عينه السلطان الناصر في تقدمة المماليكة السلطانية مضافاً على الأستادارية سنة ٧٣٢هـ، لأنه وجد أن بعض المماليك نزل من القلعة إلى القاهرة، فضرب كثيراً من طواشية الطباق وطرد جماعة منهم، وأنكر على الطواشي شجاع الدين عنبر تهاونه في وظيفة تقدمة المماليك. وقام آقبغا على ضبط الطباق، فضرب عدة من المماليك والطواشية ضرباً مبرحاً وبالغ في إهانتهم فلم يجسر أحد منهم أن يتجاوز طبقته[٧].

غير أن الطواشية لم يظلوا على سيرتهم التي أشتهروا بها من الصرامة في تربية المماليك بالطباق، ومن الورع والتقوى في حياتهم الخاصة، بل تطرق اليهم الفساد

---

(١) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٣٠٤.
(٢) ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك ج٨ ص٥.
(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٨ص، المنهل الصافي ج، ص٥٠٣أ.
(٤) المقريزي: السلوك ج١ ص٥٤٠.
(٥) المقريزي: السلوك ج١ ص٦٢٣.
(٦) المقريزي: السلوك ج٢ ص٢٢٩.
(٧) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٩ ص٩٨ ـ ١٠٩. المقريزي: السلوك ج٢ ص٣٤١ ـ ٣٤٢. ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٢٠٣.

في العصر الثاني للدولة المملوكية، ولم يكترث بتأدية واجباته منهم إلا القليل. وسلك المماليك الجلبان مسلك مقدميهم، فلم يعودوا يحفلون بما للسلطان من هيبة، وهاجموا دكاكين التجار، وحصل للناس منهم غاية الضرر[١].

ومن الطواشية القليلين المهتمين بتربية المماليك في ذلك العصر الثاني، بهادر ابن عبدالله الشهابي المتوفي سنة ٨٠٢هـ الذي وُلي وظيفة التقدمة زمن السلطان برقوق[٢]. وباشر مرجان بن عبدالله العادلي تقدمة المماليك السلطانية زمن جقمق[٣]. وللمؤرخ ابن تغري بردي مقابلة بين تقوى الطواشي صندل المنجكي صاحب طبقة الصندلية في عهد برقوق وبين طواشية زمانه الذين عرفوا «بالحرفشة وقلة الحرمة والحرص على جميع الأموال»[٤].

أما نظام الأنفاق على المملوك الكتابي أثناء مراحل تعليمه المختلفة بالطباق، فقاعدته إن المملوك الصغير لا يحصل على راتب أو أجر ولا يملك سلاحاً ولا حصاناً، ولا يحصل على إقطاع إلا عند عتقه. ومع هذا حدث في بعض الأحوال الإستثنائية مثل الخروج على السلطان أو إندلاع الوباء أن أفاد المماليك الكتابية من الرواتب والإقطاعات قبل الأوان. ففي سنة ٧٩١هـ، تزعزع مركز السلطان برقوق بسبب خروج كثير من الأمراء على طاعته ومحاربتهم له في الشام ومصر، فعرض السلطان جميع المماليك الصغار والكبار بالقلعة ليتوجهوا إلى دمشق بصحبة الأمير سودون الطرقطاوي، فأنفق في المماليك الكتابية لكل واحد مائتا درهم فضة، وأنفق في المعتقين من أولئك المماليك لكل واحد الف درهم فضة[٥]. وفي سنة ٩١٩هـ أمر السلطان قانوصه الغوري بتفريق الأموال على المماليك جميعاً إشباعاً لمطامعهم في النفقة المتكررة، فأصاب المملوك المعتق مائة دينار، والمملوك الكتابي تسعة دنانير، وأخذ المرضى والعجزة والأيتام من المماليك مقادير تراوحت بين عشرين دينار وعشرة دنانير وديناربن[٦].

وفي سنة ٩٢٠هـ حصل الكتابية على جامكية، وهو غير ما جرى به العرف،

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧ ص٤٦٢. ـ العيني: عقد الجمان م٧٠ ص٧٢٧. ابن اياس: بدائع الزهور ج٢ ص١٣٧ و ٢١٥ و ٢٢٨.
(٢) السخاوي: الضوء اللامع ج٣ ص١٩. ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٣٥٨.
(٣) السخاوي: الضوء اللامع ج١٠ ص١٥٣.
(٤) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج٢ ص٢١٧أ.
(٥) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج٢ ص٣٢١. ـ النجوم الزاهرة ج٥ ص٤٠٢.
(٦) ابن اياس: بدائع الزهور ج٤ ص٣٩٣.

وسبب ذلك غضب السلطان الغوري على الجلبان المعتقين وتهديده بترقية الكتابية على أكتافهم[١].

هذه صورة عن المدارس الحربية ومدربوها في الطباق على إمتداد العصر ولم نحصل في بحثنا على مدارس أستقلت في باقي العلوم بإستثناء التعليم الديني ـ والتعليم الطبي والتعليم الحربي على مدى العصر المملوكي.

الطريقة التي يدرس بها المدرسون بالعصر المملوكي

تمهيد:

قلت بأن العلوم الدينية كانت هي الشغل الشاغل لمدارس المسلمين، وبتقادم الزمن وتمشياً مع متطلبات التطور الحضاري ازدهرت الحياة العلمية في أيام الدولة المملوكية وصارت العلوم الدنيوية تماشي العلوم الدينية في مختلف معاهد العلم ومدارسه وإن كانت الأفضلية آنذاك تعطي لكل علم له صلة بالدين، وأهم العلوم التي أشتغل بها المسلمون منذ الدعوة حتى أيام العهد المملوكي كانت كالتالي:

١ ـ علوم القرآن والحديث والفقه واللغة والتاريخ والجغرافيا، كانت تسمى العلوم والآداب الإسلامية.

٢ ـ علوم نقلت عن اللغات الأجنبية إلى العربية أو أشتغل بها العرب أنفسهم كعلم الطب، والرياضيات والطبيعيات.

٣ ـ علوم كانت في الجاهلية وتطورت في الإسلام كالخطابة والشعر[٢].

أما بالنسبة لطرق التدريس في مدارس المماليك ومراحل الدراسة فيها وإذا ما قارناها بمراحل التعليم بمدارسنا وجامعاتنا اليوم هي[٣]:

(ابتدائي ـ ثانوي ـ جامعي ـ دراسات عليا) كانت هي المتبعة في العصور الوسطى وفي زمن المماليك بالذات مع فارق أنهم لم يضعوا حداً بين كل مرحلة وأخرى:

فالإبتدائي: كان يجري في كتاتيب الأطفال التي تعني القرآن وبعض مبادىء القراءة والكتابة كما رأينا من قبل.

والمتوسط والثانوي والجامعي: فإذا كان الإبتدائي وجد بالكتاتيب فإن المرحلة

---

(١) ابن اياس: بدائع الزهور ج٤ ص٤٣٠.

(٢) جرجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي ج٣ ص٤٢.

(٣) احمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٣٨٢.

المتوسطة والثانوية قد وجدتا في حلقات المسجد وفي المدرسة على السواء ـ فحلقات المسجد كانت تختلف في مستواها فمنها ما هو إلى الأحمال والوضوح أميل وهو أقرب إلى التعليم المتوسط والثانوي.

ومنها ما هو أرفع مستوى (الحلقة والمدرسة) وأكثر عمقاً وتلك بالتعليم الجامعي أشبه فإذا تركت المدرسة للمعيدين أو عُيّن فيها مدرسون غير أكفاء وغير متبحرين بالعلوم فهي تكوّن بمستوى التعليم المتوسط والثانوي، أمّا إذا أتيح لها معلمون معروفون بالتعمق وسعة الإطلاع فإن المستوى يرتفع ويصبح بالتعليم الجامعي أشبه.

أما المرحلة التي نسميها اليوم مرحلة الدراسات العليا فقد وجدت في منازل العلماء ودكاكين الوراقين وفي الصالونات الأدبية وبعض المدارس الكبيرة، حيث العمل فيها يقوم على المناظرة وأستملاء الأحاديث والتأليف، والرحلة في طلب العلم[1].

وأعتمد التدريس عادة في مدارس المماليك على الإلقاء والتلقين والإملاء فإذا ألقى المدرس أو الشيخ من محفوظاته أو من مذكرات كتبها لأول مرة ليقرأ منها فالدرس يسمى إملاء ويكون الإلقاء عندئذ بطيئاً، فإذا أنتهى الإملاء عرج المدرس إلى الشرح والإيضاح والتفسير لغوامض الكلام ويدون الطلاب هذه الشروح على هوامش أوراقهم ثم تعاد قراءة ما كتب للتصحيح مع مراعاة الدقة في النقل والتصحيح.

ـ ميزانية المدرس وأوضاع المدرسين:

ولما كانت المنشآت التعليمية في كتاتيب وحلقات ومساجد ومدارس وغيرها في حاجة إلى ميزانيات ثابتة تضمن للمدرسين والمتعلمين فيها مستوى كريم من العيش وتجعلهم ينصرفون إلى طلب العلم والعطاء بنفوس راضية مطمئنة، مما حدا بالمماليك أمام هذا الأمر إلى تدعيم مدارسهم بالأوقاف التي أوقفوها عليها من مال وضياع وطواحين وغيرها من أبواب الرزق. فكل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه يعين لها أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين بها، وإلى جانب الأوقاف كانت هناك الأموال التي تدفع من خزانة الدولة كرواتب للمدرسين وإعانات للطلاب.

وكان يقوم بالتدريس في المدرسة معلم أو أكثر يختار من علماء ومشايخ عصره ويكون أوسعهم علماً وأبعدهم صيتاً لأنه على أساس سمعته وشهرته تتوقف سمعة المدرسة وأهميتها؛ كما كان يطلب من المدرس أن يكون منزهاً عن أخذ مال الوقف

---

(١) ظلس: التربية والتعليم في الإسلام ص١٤٥.

المنوط به أحياناً، وأن يتقيد بشروط الواقف وأن ينفذ رغباته، وأن يحافظ على محتويات الوقف، وأن لا يتعاطى التدريس في غير المكان أو المدرسة التي كلف بها إلى غير ذلك من الشروط التي كان يضعها أصحاب الأوقاف أو الدولة في بعض الأحيان والتي أشترطت فوق ذلك شروطاً دينية وغير دينية تتناسب وإتجاهاتها، فحرمت مثلاً من ممارسة التعليم كل من لم يتمذهب بمذهبها بل دعت إلى معاداته وملاحقته وإضطهاده.

وإلى جانب المدرس في المدرسة كان هناك المعيد ووظيفته هي أن يعيد على الطلبة ما القاه عليهم المدرس. أما عن المستوى المعيشي للمدرسين فقد أختلف من فئة إلى فئة.

ـ وقد ذكر أن المدرسين في العصر المملوكي والمعينين من قبل الدولة كانوا يتناولون مرتبات. شهرية منتظمة من الخزانة العامة للدولة.

ـ أما المدرسون الذين كانوا يعينون من قبل أصحاب الأوقاف بنص مكتوب فقد كانوا يأخذون مرتباتهم من إيرادات الأوقاف.

ـ أما المدرسون الذين كانوا يجرون عقوداً مع الطلاب أو مع أوليائهم فإن مرتباتهم كانت تتأثر بمستوى هؤلاء المادي والخلقي.

هذه صورة موجزة عن النظام التعليمي بما فيه من طرق تدريس في الصفوف الإبتدائية حتى التخرج، مع ميزانية المدرس وأوضاع المدرسين والطلاب. وهذا أشبه ما ينطبق على مدارسنا اليوم مع تعديل طفيف يتناسب مع ظروف العصر.

ومما يفسح المجال بأن نتكلم بإسهاب عن المدرسين وطرق تدريسهم وملابسهم ونقابتهم.

طرائق التدريس ـ المدرسون:

ـ طرائق التدريس:

تعتبر طريقة التدريس إحدى الموضوعات الهامة في مهنة التعليم، وتظهر أهميتها وتأثيرها في توجيه المعلم إلى عملية تعليمية فعالة، هي نتاج بحث وخبرات وتجارب مربين أثبتوا نجاحها، إنها نتاج وعي وإدراك وإنتباه ونقد موضوعي، فالطريقة الناجحة هي التي تؤكد على ضرورة مشاركة المتعلمين في النشاط في الصف وهي أحد قطبي العملية التعليمية وبالمقابل مهمة المعلم وهي تتذكر على إستجابات المتعلمين وتشجيعهم على أن يكونوا إيجابيين نشطين فعالين، إنها الطريقة التي يتبعها المعلم والتي تتمشى مع أهداف التربية التي إرتضاها المجتمع، ومع أهداف المادة التدريسية

التي يقوم المعلم بتدريسها، والمعلم الناجح هو الذي يضع نصب عينيه مستوى نمو التلاميذ، وأنواع الخبرات التعليمية السابقة التي مروا بها، والفروق الفردية بينهم وكل هذا يدفعه للإبتعاد عن التكرار، ولإستخدام طرائق الحوار أو إلى طريقة الأسئلة، ليستطيع إفادة تلاميذه وإيصال المعلومات إليهم بشكل جيد.

أما الأختيار الناجح لطريقة التدريس المحققة للأهداف المرجوة منها فتتم في ضوء ثلاثة أبعاد أساسية:

البعد الأول: يتعلق بالمدرّس ذاته وبإمكانياته من حيث إستطاعته تطبيق وتنفيذ الطريقة التي يختارها.

البعد الثاني: يتعلق بالطلاب الذين يدرسهم وهل تناسبهم هذه الطريقة أم لا.

البعد الثالث: يتعلق بالمادة الدراسية التي يقوم المعلم بتدريسها، فما يصلح كدرس في الأدب العربي، قد لا يصلح في درس الرياضيات وهكذا[١].

وهذا يتطلب منا أن نتساءل عن الهدف، أو الغرض من التدريس لأن معرفة الهدف ووضوحه في ذهن المعلم ليكون معلماً مربياً في آن واحد ما تتطلبه عملية التربية والتعليم.

«يقصد بالتدريس الصحيح تزويد التلميذ بالمعلومات التي يمكن أن تؤثر في شخصيته تأثيراً عملياً، غير أن المعرفة لا يمكن أن يكون لها مثل هذا التأثير ما لم تكن المواد التي تتكون منها مرتبة بشكل يتفق مع الهدف الذي ترمي إليه، فالمعلومات الكثيرة التي لا ترتبط بعضها ببعض لا تفيد كثيراً، فالعبرة إذاً ليست كمية المعلومات التي يتلقاها بل بالفائدة التي يحصل عليها من تلك المعلومات»[٢].

وعليه فإننا نستطيع أن نعرف الطريقة في التدريس بأنها ذلك النشاط الموجه الذي يقوم به المدرس في إطار متطلبات المادة التدريسية، وذات المدرس وإمكاناته وخصائص نمو التلاميذ والظروف البيئية التي يعيشون فيها، كل ذلك بهدف تحقيق التعليم المرغوب والتغيير المنشود في سلوكهم، وبالتالي مساعدتهم على تحقيق ميولهم، وإكتسابهم للمعلومات والمعارف والمهارات والعادات والقيم المرغوبة.

ولا يخفى أن الطرائق المتنوعة عند المسلمين «ترجع إلى أسلوبين أساسيين وهما التعليم والتعلم، فالشرح والإلقاء والإملاء والمحاضرة كلها وسائط تمكن المعلم من إعطاء معلوماته وإيصال أفكاره للتلميذ فهي إذاً طعام مهضوم يوضع في فم الطالب

---

(١) محمد عبد العليم مرسي: المعلم والمناهج وطرق التدريس ص١٨٠.

(٢) صالح عبد العزيز: التربية وطرق التدريس ج١.

كأنه طفل. وأما الإسلوب الثاني ـ أسلوب المناظرة والمناقشة والمطارحة والسؤال والجواب والأخذ والرد فهو واسطة تمكن الطالب من التعلم والتفكير والإستنتاج والنمو. ويظهر أن العرب أستعملوا كلتا الطريقتين في التعليم، فمنهم من أستعمل الإثنين ومنهم من أكتفى بالأول[١].

وتنسحب هذه الطرق على العصرين الأيوبي والمملوكي.

ومما لا ريب فيه أن هناك علاقة وثيقة بين طرائق التدريس وعملية التعلم، فلو استطلعنا الأهداف من طرق التدريس لرأينا من أهمها تحقيق التعلم الجيد ونجاح الطريقة يقاس بمدى النجاح الذي حققته في مسار عملية التعلم. ولذلك نرى من واجبات المعلم الناجح المعاصر أن يكون على إلمام بمفهوم عملية التعلم، والطريقة التي تتم بها هذه العملية، والشروط الواجب توفرها للتعلم الجيد ومن ثم المبادىء والقوانين التي تقوم عليها نظريات التعلم والتي يجب على المعلم مراعاتها من خلال ممارسة مهنية التعليم. ومن هنا وفي عصرنا الحديث كانت التوجه لأعداد المعلم مهنياً وفنياً إعداداً تكون إحدى ركائزه التزود بدراسة حول علم النفس التربوي وما يدخل في مضماره حول شؤون التعليم والتعلم.

طرائق التدريس في المرحلة العالية:

إن الطرائق والأساليب التي أستعملتها التربية الإسلامية «في عمليات التدريس والدعوة والإقناع والإرشاد والتوجيه متعددة ومتنوعة تختلف بإختلاف أغراض التعليم وبإختلاف العلوم والمواد الدراسية، وبإختلاف الدروس والموضوعات وبإختلاف مرحلة النمو والدراسة للمتعلم وبإختلاف غرض المعلم من تدريسه ومقدار معلوماته وخبراته السابقة فالتدريس للحفظ غير التدريس لتحقيق الفهم أو لتنمية المثل والإتجاهات والأذواق والإهتمامات وطرائق التدريس للعلوم النقلية واللغوية غير تدريس العلوم الطبيعية والفنون العملية»[٢].

وعليه فقد تنوعت وتعددت طرائق التدريس، فالمرحلة الأولية سادتها طرائق التلقين، والحفظ والإستظهار، والقراءة والكتابة. أما في المرحلة العالية فقد أنتشرت فيها طرائق المحاضرة، والسماع والإملاء، والقراءة والعرض، والمناظرة والحوار، والمراسلة، والرحلة.

ولما كنا بصدد دراسة الناحية المهنية للمعلم وهو معلم المرحلة العالية من

(١) خليل طوطح: التربية عند العرب ص٨٧.

(٢) عمر محمد الشيباني: فلسفة التربية الإسلامية ص ٤٠٧.

التدريس سواء كان في المسجد أو المدرسة أو غيرها فإننا سنعرض لأهم طرائق التدريس في المرحلة العالية التي عددناها.

١ ـ طريقة المحاضرة:

تسمى هذه الطريقة الإلقائية «والتي يكون فيها صوت المدرس هو المسموع أكثر من غيرها عندما يلقي الحقائق أو يسردها... وإن المدرس كالمحامي لا يمكنه أن يستغني عن لسانه فهو أول الوسائل التي يمكن بها توضيح ما غمض، وهو الطريق السهل للإتصال الشخصي بالتلميذ. ويمتاز الإلقاء الجيد بتأثير المدرس نفسه من حيث حركاته وصوته وهذا يسترعي إنتباه الصغار وكذلك الكبار، ثم تساعد هذه الطريقة على أن يتناول المدرس المادة بما يتراءى له فلا يتقيد بحرفية كتاب ما فيمكنه أن يطيل أو يختصر أو يصف... ثم هي تمكنه من أن يتناول أجزاء كثيرة، لكن استخدامها وحدها يدعو إلى الملل وعدم أستعمال التفكير»[1].

ثم إن المعلم طور هذه الطريقة بحيث «كان يقوم مقام السائل فيلقي على طلابه بضعة أسئلة ليختبر فهمهم ثم يجيب بنفسه على ما تعسر أن يجيبوا عليه، وهو بهذه يعطي فرصة للطلاب محدودي المواهب أن ينتفعوا بما تستدعيه هذه الأسئلة من إعادة للموضوع وزيادة بسط لمسائله»[2].

٢ ـ طريقة السماع:

كان التركيز في القرن الأول للدعوة على السماع وحده في رواية العلم، ويعود ذلك لعدم إنتشار الكتابة والتدوين في المجتمع الإسلامي آنذاك وكراهية الناس كتابة ما يروونه خوفاً من أن يشتبه ذلك مع ما يكتبونه بالقرآن والنقص في الخط العربي، وصعوبة الحصول على الورق اللازم للكتابة.

ولكن حتى بعد زوال هذه العقبات وإنتشار الكتابة إستمر السماع كوسيلة من وسائل تحصيل العلم، فكانت المؤلفات العلمية تروى عن صاحبها بالسماع منه، ولم يكن التقيد ضرورة من ضرورات السماع وإن كان عملاً مستحسناً لصيانة العلم من آفات الذاكرة[3].

أما ابن عساكر (ت: ٦٠٠هـ ـ ١٢٠٣م) «فقد خلف أباه في إسماع الحديث بالجامع، وولي بعده دار الحديث النورية»[4].

---

(١) صالح عبد العزيز: التربية وطرق التدريس ج١ ص٢٤٥.

(٢) احمد شلبي: التربية الإسلامية ص٣٧٧.

(٣) عمر محمد الشيباني: فلسفة التربية الإسلامية ص٤٢١.

(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٠٣.

والسماع كثيراً ما يؤدي إلى الملل أو التشبث الذهني لذلك قال بعض العلماء: «كل علم كثر على المستمع ولم يطاوله الفهم إزداد بها القلب عمى»[١].

٣ ـ طريقة الإملاء:

وقد أنتشرت طريقة الإملاء في ميدان التربية وإزداد الإهتمام بها عندما تطورت الحركة العلمية وأستخدم الورق، فأصبح الإملاء من أعلى مراتب التعليم. ونتيجة لطريقة الإملاء أشتهرت كتب الأمالي والتي هي عبارة عن محاضرة يمليها الشيخ أو المدرس على تلاميذه في مسجد أو مدرسة أو مجلس وكان المستملي يكتب أول القائمة: «مجلس أملاء شيخنا فلان بجامع كذا في يوم كذا»[٢].

وأستحب المستملي أن يقعد على موضع مرتفع مثل دكه أو كرسي فإن لم يجد استملى قائماً لأن المقصود من الإستملاء أن يبلغ جميع الحاضرين[٣]. ويختار المستملي من أفصح الحاضرين لساناً وأوضحهم بياناً وأحسنهم عبارة وأجودهم آداء.

٤ ـ طريقة القراءة على الشيخ والعرض:

ويبدو أن التعليم بطريقة القراءة على الشيخ أو العرض «ويكون فردياً على الأغلب، ويكون الطالب حرّاً في إختيار الموضوع الذي يريد قراءته على الشيخ، ويعرض عند دراسته للموضوع المذكور الذي يحتوي ذلك الموضوع ويقرأ الطالب أو غيره الكتاب الذي يراد درسه بحضور الشيخ وحينئذ يتحقق إطلاع الشيخ على المعلومات التي إحتواها الكتاب أو الكتب التي تدرس بإشرافه وبحضرته، وبعد أن تتم عملية التعلم يصح للتلميذ أن يروي الكتاب أو الكتب التي يدرسها على شيخه»[٤].

٥ ـ التعليم عن طريق الكتب:

أنزل المسلمون العرب الكتب منزلة عظيمة وسعى المماليك للإستفادة منها وبيان أهميتها، إلا أنه كان هناك إصرار عند بعض الفقهاء على إفهام المتعلم ضرورة أخذ العلم عن المشايخ الحذاق لا من بطون الأوراق فعلى المتعلم «أن يجتهد ليكون شيخه ممن له على العلوم الشرعية تمام الإطلاع وله مع من يوثق به من مشايخ عصره كثرة بحث وطول إجتماع لا ممن أخذ عن بطون الأوراق ولم يعرف بصحته المشايخ الحذاق»[٥]. ويرى برنارد لويس «أن الكتاب في الغالب لا يقدم كإبداع شخصي

(١) الماوردي: ادب الدنيا والدين ص٩٠.
(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية ج١ ص٢٩٧.
(٣) السمعاني: أدب الاملاء والاستملاء ص٨٨.
(٤) عبدالله فياض: تاريخ التربية عند الامامية واسلافهم من الشيعة ص٢٣١.
(٥) ابن جماعة الكناني: تذكرة السامع ص٨٧.

مستقل للمؤلف، بل كحلقة ضمن سلسلة من السند ويخفي المؤلف شخصيته الحقيقية خلف الثقاة وطبقات الرواة السابقين»[١].

٦ ـ طريقة المناظرة والحوار:

تقوم طريقة المناظرة والحوار على أساس النقاش بطرح الأسئلة وتلقي الأجوبة للوصول إلى حقيقة من الحقائق لا تحتمل الشك ولا النقد ولا الجدل، ومن خلال المناظرة والمحاورة نرى المناظر المحاور يمر بثلاث مراحل متتابعة:

أولها: مرحلة اليقين الذي لا أساس لها من الصحة وهي مرحلة يراد بها إظهار جهل الخصم وغروره وإدعائه العلم.

وثانيها: مرحلة الشك وهنا تتوالى الأسئلة والإجابة عنها حتى يتروى المتكلم ويقع في حيرة لا مخلص منه، ويبدو التناقض في عبراته فيأخذه الغضب وهنا يقابل المحاور كل كلام من هذا النوع بالصبر الجميل.

وثالثها: مرحلة اليقين بعد الشك وهي مرحلة يقصد بها البحث من جديد في الموضوع ومعرفة الأمثلة التي توضح الحقيقة وتميزها عن غيرها وملاحظة ما بينها من أوجه الشبه وأوجه الخلاف والوصول إلى تعريف منطقي جامع لا يجد الشك إليه سبيلاً. هي مرحلة تقوم على أساس الإدراك العقلي لا على أساس التصديق[٢].

وإذا عدنا إلى كتب التراجم نرى إهتماماً خاصاً بأولئك العلماء المناظرين حيث أطلقت عليهم مواصفات معينة تشير إلى طول باع لهم في هذا الميدان «فقد جالس محي الدين بن النحاس (ت: ٦٩٥هـ ـ ١٢٩٥م) العلماء وناظر وبان فضله... وكان صدراً معظماً متبحراً في المذاهب وغوامضها موصوفاً بالذكاء وحسن المناظرة»[٣].

ويقول السبكي عن الفيروزابادي (ت: ٨١٧هـ ـ ١٤١٤م) صاحب القاموس المحيط «كان ملك الجدل الآخذ بزمامه وإيمانه إذا أتى كل واحد بإمامه وبدر سمائه الذي لا يغتاله النقصان عند تمامه»[٤]. ولعل طريقة المناظرة والجدل لها في الأصول الإسلامية مكانها البارز حيث نرى الأمثلة الكثيرة حولها في القرآن والسنة النبوية:

(ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً)[٥].

---

(١) Benerad Lewis: The Arabs in History, p.142.
(٢) الصالح عبد العزيز: التربية وطرق التدريس ج١ ص٢٥١.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٢٢٥.
(٤) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص٨٩.
(٥) سورة الكهف: آية ٥٤.

٧ ـ التعليم بطريقة المراسلة:

وقد يكون أحياناً بأن التعليم يتم عن طريقة المراسلة، فإذا أشتهر عالم من العلماء بعلم من العلوم في بعض بلدان الدولة الإسلامية، فتأتيه الرسائل من جميع البلدان يسألون أصحابها عن مسائل هامة في التفسير والنحو والفقه وغيرها من العلوم فيجيب العالم المعلم بأجوبة مختلفة.

«وكما أن كثرة الكتب التي تحمل عنوان (المسائل) يدل على أن الشيخ بعد أن يجيب على تلك المسائل بجمع أجوبته أو يجمعها أحد طلبته عند صدورها عن الأئمة في كتاب يطلق عليه أسم المسائل مقروناً أحياناً بإسم المكان الذي أرسلت منه والإمام الذي أجاب عنها»[1].

٧ ـ التعليم بطريقة الأسئلة:

إن طريقة القاء الأسئلة على المتعلمين طريقة قديمة قدم التربية ولا تزال هذه الطريقة منتشرة بين صفوف المتعلمين حتى وقتنا الحاضر، وتعتبر هذه الطريقة آداة إنعاش لذاكرة المتعلم ولجعله أكثر فهماً ولرفعه إلى مستوى عال من التعليم. وفي التربية الإسلامية ظواهر متعددة لإثارة التساؤلات سواء كانت من جهة المعلم أو المتعلم وحتى على شكل أسئلة بين العلماء أنفسهم، تعطي الدرس حيويةً ونشاطاً وفاعليةً، وبخاصة إذا صيغت الأسئلة بشكل تربوي وضمن أهداف محددة واضحة.

هذه الطرائق في التدريس والتي أستخدمها العلماء المربون المسلمون في العصور الإسلامية وخاصة بالعصر المملوكي، ما هي إلا نتاج عصرها تتلائم مع طبيعة العلوم التي كانت تدرس آنذاك، وإذا نظرنا إليها بمنظار عصرها نرى مدى إيجابيتها وتلبيتها لحاجات المتعلم آنذاك، أنها طرائق أعطت ثمارها علماء كان لهم الباع الطويل كل في ميدان إختصاصه سواء كان في العلوم الشرعية النقلية أو في العلوم المسماة بعلوم الأوائل على إختلافها، مما يحقق الأهداف المرجوة ومما تخدم الطالب والمدرس والمادة التي تعلم. كيف لا وقد بدت آثار كل هذا على الأجيال الماضية تفوقاً وتقدماً، ونحن في عصرنا الحاضر مدينون لهم بالكثير الكثير...

ـ المدرسون:

وقد برزت هذه الأخلاقيات للمدرسين وتجسدت في مواصفات خاصة تحلى بها العالم المعلم المسلم، ومن أهم هذه المواصفات:

---

(١) عبدالله فياض: تاريخ التربية عند الإمامية واسلافهم من الشيعة ص٢٣٣.

أولاً: المعلم ذو ثقافة عامة:

تعرف الثقافة العامة بأنها «الثقافة الإنسانية الواسعة التي تهيىء للمرء أسباب مؤالفة الطبيعة، ومؤالفة الحياة الإجتماعية، ومؤالفة القيم الروحية، والمعلم لا يكون صالحاً حتى يكون مزوداً بثقافة عامة تعينه على فهم الطبيعة والمجتمع وتمكنه من إدراك من يترتب على عمله من خير وشر وتساعده على إدراك القيم الخلقية والمبادىء العلمية...»[١]. وفي إطار هذه الثقافة كان المتعلم المسلم كان يهتم بدراسة القرآن الكريم حفظاً وتفسيراً ودراسة علم الحديث وأصول العقيدة وعلم الفقه وأصوله ودراسة اللغة العربية وآدابها ودراسة الطب ودراسة القدر الضروري من علم الرياضيات والفلك...

ثانياً: المعلم واسع الإطلاع في مادته العلمية:

يدرك المربون أن غزارة المادة العلمية هي أحد عناصر الكفاية الخاصة للمعلم، وتظهر أهمية ذلك من خلال ميل المتعلمين وحبهم وإعجابهم وإقبالهم على معلمهم لما يجدونه عنده من حسن تصرف في أطراف البحث وغزارة في المادة التي يدرسها، وعليه إذا كنا كمعلمين نرغب بأن نوصف بالنجاح فعلينا أن نملأ عقولنا من الموضوع الذي نعلمه.

«وإذا أراد المعلم أن يحقق ذاته ويحترم تلاميذه فإن عليه أن يطالب نفسه في كل يوم باستفادة علم جديد ويحاسبها على ما حصله»[٢].

ثالثاً: المعلم عارف بطبيعة المتعلم:

إن كل متعلم له طبيعة خاصة مما يتطلب من المعلم «أن يجرب ذهنه ويعلم حاله»[٣] لأن من الناس من يحفظ عشر ورقات في ساعة ومنهم من لا يحفظ نصف صفحة في أيام يدركه الضجر ونسي ما حفظ ولم ينتفع بما سمع. ولذلك فإن المعلم حين يعرف طبيعة المتعلم ويعرف إستعداده وقدراته فإنه يطالبه أن يثبت «في الآخذ ولا يكثر بل يأخذ قليلاً قليلاً حسب ما يحتمله حفظه أو يقرب من فهمه»[٤].

رابعاً: المعلم ملتزم بآداب وأخلاقيات:

أدرك المربون أن هناك صفات ومزايا لا بدّ أن يتمتع بها المعلم كي ينجح في تعليم تلاميذه، هذه المزايا والمسؤوليات أطلق عليها أسم آداب المعلم وهي التي

(١) جميل صليبا: مستقبل التربية في العالم العربي ص٣٧٠.
(٢) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٢٢٠.
(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٥٦.
(٤) الخطيب البغدادي: الفقيه والمتفقه ص١٠١.

ينبغي أن يلتزم بها المعلم لإنتاج تعليم هادف وفعّال ومنظم، وألفت الكتب المتعلقة بذلك أمثال تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ومنية المريد في أدب المفيد والمستفيد، وتضمنت الكثير من الكتب فصولاً في العلم وأدب العالم والمتعلم فكانت كلها لطائف من الآداب وضعت للمعلمين الذين يرغبون في أن يكونوا ناجحين في عملهم التعليمي في تلك العصر (العصر المملوكي) وما سبق.

خامساً: **المعلم صائن لعلمه عن المفاسد، وبان للمجتمع:**

ـ إن صيانة النفس أصل الفضائل، وصيانة العلم أيضاً بأن يتزهه في «جعله سلم يتوصل به إلى الأغراض الدنيوية من جاه أو مال أو سمعة أو شهرة أو تقدم على أقرانه»[1].

ـ وينبغي الاعتراف بأن المعلم عضو في مجتمع له نفس الحقوق التي يتمتع بها سائر أفراد المجتمع وهو مسؤول أكثر من غيره عن بناء مجتمعه وليس هذا بالعمل السهل، فإذا علم فينبغي أن يكون لعلمه تأثير في المجتمع على أحسن وجه ممكن، وأن يدرك أنه معلم الناس كل الناس مهما أختلفت أجناسهم ومعتقداتهم، لغته لغة واحدة هي لغة التعاون والبناء، يعمل كل ما في وسعه لتحقيق مطالب المجتمع الذي يعيش فيه وعليه أن يشارك في كثير من الأعمال الإجتماعية والمشاريع الثقافية والخيرية، حتى أن المدارس المملوكية منذ نشأتها لم تعد لتكون مركز إشعاع فكري فقط بل مركزاً لخدمات إجتماعية مختلفة يساهم فيها المعلمون والمتعلمون على حد سواء.

سادساً: **المعلم عادل في تعامله ونصوح للمتعلمين:**

ـ تظهر عدالة المعلم وتتأكد حين ينال كل طالب نفس الفرصة التي ينالها زميله في التعبير عن رأيه، وفي تصحيح المعلم لمعلوماته. وفي مجال الثواب والعقاب، ذلك أن المتعلمين يتميزون بالحساسية الشديدة تجاه عدالة معلميهم وربما تترك آثاراً في نفسيات المتعلمين وقد تؤثر على تحصيلهم العلمي في المادة التي يعلمها هذا المعلم خاصة بمجرد شعورهم بتميزه وعدم عدالته، ومحابته لمتعلم على حساب آخر.

ولذلك تحرص التربية الإسلامية في العصر المملوكي على تأمين العدل والمساواة والحرية وتكافؤ الفرص في التعليم لا تفرقة ولا تميز بين غني وفقير وبين فرد وآخر.

---

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع ص١٩.

- لا يسع المعلم على أي مستوى وفي أي مرحلة قام فيها بعملية التعلم إلا وأنه يكون مستشاراً نصوحاً للمتعلمين. قال رسول الله ﷺ تعلموا العلم وتعلموا له السكينة والوقار وتواضعوا لمن تتعلمون منه، ولا تكونوا جبابرة العلماء[١].

سابعاً: المعلم حسن المظهر، ومعتدل في صوته وتعبراته:

- لذلك رأينا المعلم في تلك العصر أن يظهر بمظهر عام مقبول لأنه محط أنظار الطلبة الذين تبقى عيونهم شاخصة إليه باحثة عن أشياء تستطيع أخذها عنه كمثل وقدوة وأسوة حسنة.

- ويمارس المعلم العملية التعليمية في حلقة مسجد أو في غرفة مدرسة، وقد يقل عدد المتعلمين أو يزداد مما يتطلب منه «أن يرفع صوته زائداً على قدر الحاجة ولا يخفضه خفضاً لا يحصل معه كمال الفائدة[٢].

ثامناً: المعلم مرشد، وباحث وناقد موضوعي:

- يظهر دور المعلم التوجيهي الإرشادي من خلال مجموعة من الخدمات تهدف إلى مساعدة المتعلم في فهم نفسه وفهم مشاكله، وتدفعه ليشتغل الإمكانات الذاتية لديه من قدرات ومهارات وميول، والإمكانات في البيئة التي يعيش فيها فيختار الطرق المناسبة ليحلّ مشاكله بشكل عملي يؤدي إلى تكيف المتعلم مع نفسه ومع مجتمعه وبالتالي إلى بناء الشخصية المتكاملة جسمياً وعقلياً وروحياً وإجتماعياً وكل هذا من خلال سلوكيات معينة يقوم بها المعلم. وينبغي على المتعلم «أن يتبع الطريقة التي يرتضيها له شيخه»[٣].

- يلجأ الكثير من العلماء المعلمين المسلمين في تلك العصر إلى الدقة والموضوعية في أبحاثهم وفي ردودهم على الآخرين، وعليه فالمعلم يعرف الكثير فإذا سئل وقال لا أدري فإن ذلك «لا يضع من قدره كما يظن بعض الجهلة بل يرفعه لأنه دليل على عظم محله وقوة دينه وتقوى ربه وطهارة قلبه، وإنما يأنف من قول لا أدري من ضعفت ديانته وقلت معرفته لأنه يخاف من سقوطه من أعين الحاضرين فهذه جهالة ورقة دين»[٤].

والمعلم الناجح الباحث هو الذي يثير تساؤلات المتعلمين وما يدفعهم إلى توجيه الأسئلة له لأنه لا يتعلم العلم مستحي ولا متكبر. وينبغي للمتعلم في الأساس

---

(١) القرطبي: جامع بيان العلم وفضله ج١ ص١٢٤.
(٢) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٣٩.
(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع ص١١٦.
(٤) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٤٢ - ٤٣.

«أن يكون هو السائل للفقيه عن الأمور التي تصلح دينه ويكون السؤال بتلطف وحسن خطاب»[١].

ونريد تربية مدى الحياة كما أرادها الإسلام وعلماؤه ومربوه بحيث أن العملية التربوية أعتبرت مسؤولية المجتمع كله بكل طاقاته وبكل أجهزته وبكل أفراده وأعتبر كل فرد معلماً ومتعلماً في الوقت نفسه.

وظائف المدرسين:

شهد العصر المملوكي تخصصاً دقيقاً في وظائف التدريس بحيث أصبح الصعوبة بمكان التميز بين بعض الوظائف التدريسية كوظيفة المعيد والمفيد، والمنتهي كما سنرى. ولا شك أن هذا التخصص الدقيق كان يخفي في طياته، فوائد جمة للمدرسين الذين يستطيعون أن يجمعوا بين عدة وظائف هي في جوهرها وظيفة واحدة. وقد كان العارفون بالأحوال يبينون نوع الوظيفة، ونوع الغش الذي يمكن أن يلجأ إليه مدرسها وطرق مراقبته ليقوم بوظيفته على الوجه الأكمل.

ومن أهم هذه الوظائف كما وردها ابن طولون[٢]:

١ ـ المحدث: وهو المختص بمعرفة شيوخ الحديث في بلده وما جاورها، والضابط لولادتهم ووفياتهم والمراقب لأحوالهم والعارف بأقدارهم ومراتبهم.

٢ ـ شيخ الرواية: ومهمته تدقيق الفاظ المحدثين بحيث يصح سماعهم.

٣ ـ الحافظ: هو الحافظ لكتاب الله الكريم والعامل على تحفيظه.

٤ ـ المفسر: ووظيفته تفسير كتاب الله تعالى.

٥ ـ المدرس: وهو الذي يلقي الدرس على الطلبة، وعليه أن يفهمهم.

٦ ـ المعيد: وهو الذي يعيد الدرس لهم.

٧ ـ المفيد: وهو الذي يجمع الفوائد المستخلصة من الدرس والتي ربما غابت عن ذهن الطالب.

٨ ـ المنتهي: وهو المختص بالبحث والمناظرة.

٩ ـ الفقيه: وهو المختص بمسائل الفقه وهو دون المنتهى في المرتبة.

وقد كان يغلب على الفقهاء ـ في أواخر عصر الدولة المملوكية ـ الإنشغال أثناء الدرس وعدم الإنتباه لما يقوله المدرس.

---

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع ص١٥٧.

(٢) ابن طولون: نقد الطالب لزغل المناصب ص٣٥ ـ ٤٥.

١٠ ـ كاتب الغيبة: هو الذي يسجل أسماء الطلاب المتغيبين فيحرم من لم يقتنع بعذره من جزء من راتبه، ويعفو عم جاء بعذر مقبول، إلّا أن بعض كتاب الغيبة كانوا يغضون النظر عن تغيب بعض الطلبة في مقابل شيء معلوم. . .

١١ ـ ضابط الأسماء: يضبط أسماء الحاضرين ويتأمل من سمع منهم ومن لم يسمع. . .

١٢ ـ معلم الكتاب: وهو الذي يعلم الصبيان العقيدة الإسلامية.

١٣ ـ القاص: وهو الذي يعلم الناس في المحلات العامة، ويروي لهم ما يحفظه من العبر والأحاديث.

١٤ ـ قارىء الكراسي: هو كالقاص، لكنه يقرأ من كتاب ولا يحدّث خارج المسجد، ويجلس على كرسي فيه بخلاف القاص الذي ربما كان واقفاً[1].

١٥ ـ الواعظ: هو الذي يعظ الناس ولكن بالأشعار والألحان، وغالب رواده من النساء اللائي يبكيهن وعظه. ومن الوعاظ من يضيع وقته في إيراد الأحوال الدقيقة من الزهد والتوكل والكرامات والخوارق. . . فيحضر المجلس جماعة في أنفسهم أسئلة لا يطيقون السؤال عنها لما يرون من الثياب والهيئة على الواعظ. . . وهو يسرد المسائل الفقهية سرداً ويخلطها بالمسائل النحوية والغرائب اللغوية والتصريفية، فينطلي الأمر على الحاضرين ومعظمهم من العامة، ويثنون على علم الواعظ، رغم أنهم لم يفهموا شيئاً. . .[2].

أما الأحوال المادية للمدرسين فلم تكن سيئة بوجه الإجمال، لما بيناه من أن المدرس كان يجمع بين عدة وظائف تدريسية. وكان القضاة أنفسهم يجمعون في أيديهم أكثر من وظيفة، فقد أشترى ـ مثلاً ـ زين الدين الحسباني نائب القاضي الحنفي عدة وظائف، منها تدريس السبكية، والجامع الجديد، والجوهرية، والنورية، بمبلغ دفعه[3].

أما ذوو الضمائر والدين من المدرسين الذين كانوا يأنفون من مخالفة شرط الواقف، ويتفرغون للتدريس في مدرسة واحدة، فقد كانوا يعيشون عيشة متواضعة جداً يقترب من الزهد. وكان بعض المدرسين لا يهتم إلا أن يتعلم ما يجادل فيه، ويكبر عمامته، ويسرح لحيته، ويتقلب على وظائف التدريس، ويأكل الأوقاف[4].

(١) ابن طولون: نقد الطالب لزغل المناصب ص٣٥ ـ ٤٥.

(٢) علوان الحموي: نسمات الاسحار ص٢٠١ ـ ٢٠٣. والورقة ٢٠٩ التي يتحدث عنها الواعظ عن سوء طريقة الوعظ. وافتتانه بنفسه.

(٣) ابن طولون: مفاكهة الخلان ج١ ص٢١.

(٤) ابن المبرد: صب الخمول على من بلغ اذاه للرسول ص٣٦ ـ ٣٧.

وإذا ما شعر العالم بدنو أجله كان من حقه توريث ما بيده من الوظائف لأبنه الذي يكون قد أعدّه مسبقاً لذلك، أو لمن يشاء، وكانت الموافقة النهائية على هذا التنازل لا تتم إلا إذا أمضاها قاضي القضاة، وغالباً ما كان يفعل، إلا أن تكون ثمة عداوة بينه وبين العالم، كما حدث عندما رفض قاضي القضاة الشافعي إمضاء تنازل لأحد علماء الشافعية سنة ٨٧٤هـ، وسنة ٩٠٣هـ/ سنة ١٤٦٩م وسنة ١٤٩٧م[1].

أما عن طريق التدريس فقد أورد العلموي[2] في القرن العاشر ما يمكن تسميته بالطريق المثلى للتعليم، كما كانوا يرونها آنذاك:

إذا عزم المدرّس على التدريس أن يتطهر من الحدث والخبث فلا يلقي الدرس إلا على الطهارة، وأن ينظف ويطيب بدنه وثوبه، ويختار لبس البياض ولا يعتني بفاخر الثياب، وأن يطيب ويسرح لحيته ويزيل كل ما يشينه. وكان الإمام مالك رضي الله عنه إذا جاءه الناس لطلب الحديث أغتسل وتطيب ولبس ثياباً جدداً ووضع رداءه على رأسه، ثم يجلس على منصةٍ ولا يزال يبخر بالعود حتى يفرغ وقال: أحبّ أن أعظم حديث رسول الله ﷺ. ومنها قال ابن جماعة: يصلي ركعتي الإستخارة وينوي نشر العلم وتعليمه وبثّ الفوائد الشرعية وإذا أخرج من بيته للدرس فيدعو بما ورد في الصحيح عن النبي ﷺ فيقول: (اللهم إني أعوذ بك أن أضِلَّ أو أُضَلّ أو أزِلّ أو أُزَلّ أو أظلِم أو أُظلَمْ أو أجْهل أو أجهل أو يُجهَلَ عليّ، عزّ جارُك وجلّ ثناؤكَ ولا إله غيرك...).

ويديم ذكر الله تعالى إلى أن يصل إلى المجلس، فإذا وصل يسلم على من حضر ويصلي ركعتين... ثم يجلس بوقار وسكينة وتواضع وخشوع، والأولى أن يكون مستقبل القبلة كيف أتفق لا مقعياً الأقعاء المكروه في الصلاة، ولا مستوفزاً، ولا رافعاً إحدى رجليه على الأخرى، ولا ماداً رجليه أو إحداهما من غير عذر، وأن يصون بدنه عن الزحف، ويتقي المزاح وكثرة الضحك فإنه يقلل الهيبة ويسقط الحشمة. ومنها أن يحسّن خُلقه مع جلسائه ويوقّر فاضلهم بعلم أو سن أو صلاح أو شرف أو نحو ذلك، ويرفعهم في المجلس على حسب تقديمهم في الإمامة، ويكرمهم بحسن السلام وطلاقة الوجه، والبشاشة والإبتسام وبالقيام لهم على سبيل الإحترام.

ومنها أن يقوم تلاوة القرآن العظيم في البحث والتدريس، ثم إن كان في مدرسة أتبع شرطها، ويدعو عقيب القراءة لنفسه وللحاضرين وسائر المسلمين بعد أن يدعو للعلماء الماضين، ومشايخه ووالديه والحاضرين ولواقف المكان.

---

(١) كتاب في التاريخ ص١٦٣ و ٢١٦.

(٢) العلموي: المعيد في ادب المفيد والمستفيد ص٥٣، ٥٤، ٥٥.

ويستحب لهم إذ أجتمعوا للعلم قراءة سورة. وكان الحافظ الشهاب بن حجر يستفتح مجلس املائه بسورة الأعلى وسئل عن الحكمة في قراءتها فقال: «تبعث في ذلك شيخنا العراقي ومناسبتها» (سنقرئك فلا تنسى). وإذا رأى ما يحب أن يقول: (الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات). أو إذا رأى ما يكره فيقول: (الحمد لله على كل حال) وإذا أعجبه شيء فيقول: (ما شاء الله لا قوة إلا بالله). وإذا غضب: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم...).

ومنها إذا تعددت الدروس أن يقدم أشرف العلوم وأهمها، فيقدم التفسير ثم الحديث ثم الفقه، ثم الأصول أصول الدين ثم أصول الفقه، ثم المذهب ثم الخلاف أو النحو أو الجدل وبعضهم أخر الجدل على الخلاف. وكان بعضهم يختم دروسه بدقائق تفيد تطهير الباطن، فإن كان في مدرسة لواقفها في الدروس شرط أتبعه ولا يخل بما هو أهم ما بنيت له تلك البنية ووقفت لأجله.

ومنها أن لا يطيل مجلسه تطويلاً يُملهم أو يمنعهم فهم الدرس وضبطه لأن المقصود إفادتهم وضبطهم، فإذا صاروا إلى هذه الحالة فات المقصود، ولا يقصره تقصيراً يخلّ، فيراعي المصلحة في التطويل والتقصير.

ومنها أن لا يدرس وبه ما يزعجه ويذهب إستحضاره كمرض أو جوع أو عطش أو مرافقة حدث أو شدة فرح أو غمّ أو غضب أو نعاس أو قلق، ولا في حال برده المؤلم وحره المزعج، فربما أجاب أو أفتى بغير الصواب، ولأنه لا يتمكن مع ذلك من استيفاء النظر، ولا يكون في مجلسه ما يؤذي الحاضرين بل يكون واسعاً مصوناً من الحر والبرد والريح والغبار والدخان ونحو ذلك.

ومنها ينبغي مراعاة مصلحة الجماعة في تقديم وقت الحضور وتأخيره في النهار، وأفتى بعض أكابر العلماء إن المدرس إذا درّس قبل طلوع الشمس أو أخرّه إلى بعد الظهر لم يستحق معلوم التدرس إلا أن يقتضيه شرط الواقف لمخالفته العرف المعتاد ولا يرفع صوته زيادة على الحاجة، ولا يخفضه خفضاً يمنعهم من كمال الفهم.

ومنها أن يصون مجلسه من اللفظ، وعن رفع الأصوات، وسوء الأدب في المباحثة وأختلاف جهات البحث، والقصد من البحث ظهور الحق وحصول الفائدة، وإستفادة البعض من البعض لا القيام مع النفوس والجدل والممارات، فإن ذلك مذموم شرعاً فلا يليق بأهل العلم تعاطي المناقشة بالمنافسة والشحناء، لأن ذلك يورث العداوة والبغضاء. وعليه أن يزجر من تعدى في بحثه وظهر منه سوء أدب أو أكثر الصياح بغير فائدة أو أساء أدبه على غيره من الحاضرين أو الغائبين، أو ترفع في

المجلس على من هو أولى منه أو نام أو تحدث مع غيره أو ضحك أو استهزأ بأحد، وينبغي أن يكون له نقيب فطن كيس دربٌ يرتب الحاضرين ومن يدخل عليه على قدر منازلهم ويوقظ النائم، وينبه العاقل، ويأمر بسماع الدروس والإنصات لها.

ومنها أن يلازم الإنصاف في بحثه وخطابه، ويسمع السؤال من مورده على وجهه، وإذا عجز السائل عن تقرير ما أورده لحياء ونحوه، عبر الشيخ عن مراده وبيّن وجه إيراده، ثم يجيبه عن ذلك السؤال ويفهمه أياه على أحسن منوال. وينبغي أن يتودد لغريب حضر عنده لينشرح صدره[1]، ومنها إذا أقبل بعض الفضلاء وقد شرع في مسألة أمسك عنها حتى يجلس وإن جاء في أثناء بحثها أعادها له.

ومنها إذ سئل عن شيء لا يعرفه أو عرض في الدرس ما لا يعرفه فليقل لا أعرفه أو لا أتحققه أو لا أدري. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «يا أيها الناس من علم شيئاً فليقل به ومن لا يعلم فليقل (الله أعلم)، فإن من العلم أن تقول لما لا تعلم (الله أعلم)». وجرت العادة أن يقول المدرس عند ختم كل درس والله أعلم. ومنها ينبغي للمدرس أن يمكث قليلاً بعد قيام الجماعة لئلا يزدحموا عند خروجهم، ولأنه إن كان في نفس أحد بقايا سؤالٍ تأخر وسأله.

وقد جرت العادة أن أول ما يتعلمه الصبيان،تلاوة القرآن الكريم وحفظه. وهم لا يسمحون للطلبة بكتابته على الألواح تنزيهاً لكتاب الله تعالى. وبعد أن يقطع الصبي شوطاً في حفظ القرآن الكريم يأتي معلم الخط فيعلمهم بكتب الأشعار وسواها حتى يستقيم خطهم[2].

وبعد ذلك ينتقلون إلى تعلم الحديث الشريف وبعده علوم العقيدة، ويقول ابن طولون: «إن المعلم إن أمسك عن تعليمهم هذه العلوم فهو أحوط»[3].

وينبغي على المعلم أن يعتني بمصالح الطالب ويعامله بما يعامل أعزّ أولاده من الحنو والشفقة عليه والإحسان إليه[4]. وأن يسمح له بسهولة الإلقاء في تعليمه وحسن التلطف في تفهيمه لا سيما إذا كان أهلاً لذلك لحسن أدبه وجودة طلبه ويحرضه على طلب الفوائد[5].

إذا فرغ الشيخ من شرح درس فلا بأس من طرح مسائل تتعلق به على الطلبة

(١) العلموي: المفيد في ادب المفيد والمستفيد ص٥٣، ٥٤، ٥٥.
(٢) ابن بطوطة: تحفة النظار ج١ ص٥٦.
(٣) ابن طولون: رسائله ص٤٩. والفلك المشحون ص٧.
(٤) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٤٩.
(٥) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٥١.

يمتحن بها فهمهم وضبطهم لما شرح لهم، فمن ظهر استحكام فهمه له بتكرار الإصابة في جوابه شكره ومن لم يفهمه تلطف في إعادته له[١]. فمن رآه مصيباً في الجواب ولم يخف عليه شدة الإعجاب شكره وأثنى عليه بين أصحابه ليبعثه وأياهم على الاجتهاد في طلب الازدياد، ومن رآه مقصراً ولم يخف نفوره وعنفه على مقصوره، وحرضه على علوّ الهمة ونيل المنزلة في طلب العلم لا سيما إن كان ممن يزيده التعنيف نشاطاً والشكر انبساطاً ويعيد ما يقتضي الحال إعادته ليفهمه الطالب فهماً راسخاً[٢].

وأن لا يظهر للطلبة تفضيل بعضهم على بعض عنده في مودة أو إعتناء مع تساويهم في الصفات من سن أو فضيلة أو تحصيل أو ديانة فإن ذلك ربما يوحش منه الصدر وينفر القلب، فإن بعضهم أكثر تحصيلاً وأشد إجتهاداً أو أبلغ إجتهاداً أو أحسن أدباً فأظهر إكرامه وتفضيله وبين أن زيادة إكرامه لتلك الأسباب فلا بأس بذلك لأنه ينشط ويبعث على الإتصاف بتلك الصفات، وينبغي أن يتودد لحاضرهم ويذكر غائبهم بخير وحسن ثناء وينبغي أن يستعلم أسماءهم وأنسابهم ومواطنهم وأحوالهم ويكثر الدعاء لهم بالصلاح[٣].

وكان المدرس أو الشيخ يستفسر عن أحوال الغائبين ويزور المرضى ويتلطف بالمسافرين، ويقول ابن جماعة في هذا الموضوع: «إذا غاب بعض الطلبة أو ملازمي الحلقة زائداً عن العادة سأل عنه وعن أحواله وعن من يتعلق به فإن لم يخبر عنه بشيء أرسل إليه أو قصد منزله بنفسه وهو أفضل. وإن كان مريضاً عادة وإن كان في غم خفض عليه وإن كان مسافراً تفقد أهله ومن يتعلق به وسأل عنهم وتعرض لحوائجهم ووصلهم بما أمكن وإن كان فيما يحتاج إليه فيه إعانة وإن لم يكن شيء من ذلك تودد عليه ودعا له»[٤].

وكذلك ينبغي عليه أن يترحب بالطلبة إذا لقيهم وعند إقبالهم عليه، ويكرمهم إذا جلسوا إليه ويؤنسهم بسؤاله عن أحوالهم وأحوال من يتعلق بهم بعد رد سلامهم وليعاملهم بطلاقة الوجه وظهور البشر وحسن المودة وإعلام المحبة وإضمار الشفقة لأن ذلك أشرح لصدره وأطلق لوجهه وأبسط لسؤاله ويزيد في ذلك لمن يرجى فلاحه ويظهر صلاحه[٥].

---

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٥٣.
(٢) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٥٤ ـ ٥٥.
(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٥٩ ـ ٦٠.
(٤) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٦٢ ـ ٦٣.
(٥) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٦٥.

ويحدثنا الشيخ الإمام قاضي القضاة عبد الوهاب السبكي[١] عن واجبات المدرس: «وحقّ عليه أن يحسن القاء الدرس، وتفهيمه للحاضرين، ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناسبهم من المشكلات، بل يدر بهم ويأخذهم بالأهون فالأهون إلى أن ينتبهوا إلى درجة التحقيق. وإن كانوا منتبهين فلا يلقي عليهم الواضحات بل يدخل بهم في مشكلات الفقه، ويخوض بهم عبابه الزاخر. ومن أقبح المنكرات مدرس يحفظ سطرين أو ثلاثة من كتاب، ويجلس يلقيها ثم ينهض، فهذا إن كان لا يقدر إلا على هذا القدر فهو غير صالح للتدريس، ولا يحلُّ له تناول معلومه وقد عطل الجهة لأنه لا معلوم لها. وينبغي ألا يستحق الفقهاء المنزلون معلوماً لأن مدرستهم شاغرة عن مدرس. وإن كان يقدر على أكثر منه ولكنه يسهل ويتأول فهو أيضاً تقبيح، فإن هذا يطرّق العوام إلى روم هذه المناصب، فقلّ أن يوجد عامي لا يقدر على حفظ سطرين. ولو أن أهل العلم صانوه وأعطى المدرس منهم التدريس حقه: فجلس، وألقى جملة صالحة من العلم، وتكلّم عليها كلام محقق عارف، وسأل وسُئل وأعترض وأجاب وأطال وأطاب. بحيث إذا حضره أحد العوام أو المبتدئين أو المتوسطين فهم من نفسه القصور عن الأتيان بمثل ما أتى به، وعرف أن العادة أنه لا يكون مدرساً إلا هكذا والشراع كذلك لم تطمح نفسه في هذه المرتبة، ولم تطمح العوام بأخذ وظائف العلماء. فإذا رأينا العلماء يتوسعون في الدروس ولا يعطونها حقها ويبطلون كثيراً من أيام العمالة، وإذا حضروا إقتصروا على مسألة أو مسألتين من غير تحقيق ولا تفهيم، ثم رأيناهم يقلقون من تسلط من لا يصلح على التدريس، ويعيبون الزمان وأولياء الأمور، فالرأي أن يقال لهم: أنتم السبب في ذلك بما صنعتم، فالجناية منكم عليكم ومن المهمات مدارس وقفها واقفوها على الفقهاء والمتفقهة، والمدرس من الشافعية أو الحنفية أو المالكية أو الحنابلة، فيلقي المدرس في هذه المدرسة تفسيراً أو حديثاً أو نحواً أو أصولاً أو غير ذلك إمّا لقصوره عن الفقه أو لغرض آخر.

وعندي أن الذّمة لا تبرأ في المدرسة الموقوفة على الفقهاء إلا بإلقاء الفقه. فإن كان هذا المدرس لا يلقي الفقه رأساً فهو آكل حرام. وكذلك نقول في مدرسة التفسير إذا ألقى مدرسيها غير تفسير، ومدرسة النحو إذا ألقى مدرسها غير النحو. والأحوط في هذا كله الإلقاء من الفن الذي بنيت له المدرسة، فإن الواقف لو أراد غير ذلك لسمي ذلك الفن، وإن كان يلقي الفقه مثلاً في مدرسة الفقهاء غالباً، ولكنه ينّوع في بعض الأيام: فيذكر تفسيراً أو حديثاً أو غيره من العلوم الشرعية لقصد التنويع على

(١) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ص٨٣ ـ ٨٤.

الطلبة وبعث عزائمهم فلا بأس غير أن الأحوط خلافه. وهكذا كله بشرط أن يكون المسمى بالمدرسة أهل نوع خاص، كما مثلنا في مدرسة وقفت على مدرس شافعي أو حنفي مثلاً وفقهاء ومتفقهة من أهل ذلك المذهب، وألا يكون شرط في المدرس معرفة غير ذلك الفن. فإن شرط فيه فنوناً كما في مدارس كثيرة في بلاد الشام يقفها الواقف على طائفة مذهبي معين، ويشترط في المدرس أن يعرف مثلاً في العلوم كذا وكذا، كالتفسير والحديث وغيرهما، وما هذا شأنه أنه ينوع المدرس فيذكر من تلك العلوم التي اشترط فيه معرفتها، فإنه لولا إرادة ذكرها لما اشترطت فيه. وكان يمكن أن يقال «أنها اشترطت فيه ليكون أكمل في إستعداده للأجوبة عن الإعتراضات التي لعلها تعترضه».

ووظيفة المعيد التي سبق ذكرها يفسرها السبكي[1]: «المعيد عليه قدر زائد على سماع الدرس، من تفهيم بعض الطلبة، ونفعهم، وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة. وإلا فهو والفقيه سواء، فما يكون قد شكر الله تعالى على وظيفة الإعادة».

وقد حددت المراجع العربية مكانة المعيد وعمله، فهو دون الشيخ وأعظم درجة من الطلبة، وهو الذي يعيد الدرس بعد القاء الشيخ الخطبة على الطلبة (يعني المحاضرة) وكأنه معين الشيخ على نشر العلم[2].

وذكر السبكي: «أن المعيد يجلس مع الطلاب لسماع المحاضرة ولكن عليه قدراً زائداً على السماع من تفهيم بعض الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الإعادة بعد إنتهاء الشيخ من الدرس»[3]، فعمل المعيد إذاً يبدأ عندما ينتهي عمل المدرس، ويشمل عمل المعيد شرح النقاط الصعبة من الدرس، أو مساعدة محدودي الزكاء من الطلاب لفهم ما صعب عليهم فهمه في الجولة الأولى.

وهذه الوظيفة قد ظهرت في القرن الخامس الهجري مع المدرسة النظامية في بغداد ولم يرد لها ذكر قبل هذا التاريخ[4] لأنها إرتبطت إرتباطاً وثيقاً بالمدارس، أما لماذا إرتبطت وظيفة المعيد بالمدارس فالسبب في ذلك أن المدرسة جمعت طلاباً تتفاوت مقدرتهم العلمية فأحتيج إلى المعيد ليساعد المتخلفين حتى يتمكنوا من اللحاق بالآخرين، وهناك بعض الطلاب إذا أحسوا بتخلفهم العلمي عن الطلاب حلقة ما رغبوا بالإبتعاد عنها إلى سواها من الحلقات التي تناسب مستواهم العقلي. وهناك

---

(١) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ص٨٥.

(٢) ابن جماعة: تذكرة السامع ص١٥٠.

(٣) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ص١٥٤ ـ ١٥٥.

(٤) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٢٥٥.

طلاب نابغون برزوا في الحلقات وزاد إرتباطهم بمدرسهم، ففضلوا أن يعملوا مساعدين لهم أو معيدين لدروسهم عن أن يستقلوا عنهم ويكوّنوا لأنفسهم حلقات خاصة[١].

وفي العهد الأيوبي أصبح منصب المعيد منصباً مرموقاً، وعلى سبيل المثال في المدرسة الصلاحية التي أنشأها الملك الصالح أيوب كان يشتغل أربعة من المدرسين وقد عُيّن لكل واحد معيدان يساعدانه[٢].

ومن المعروف أن المستوى العلمي للمدارس كان مختلفاً، ومن أجل هذا كان من الممكن أن يختار معيد في مدرسة ليكون مدرساً في مدرسة أخرى، لأن المدرسة الأولى أرقى من الثانية في مستواها الثقافي، فلا تقل وظيفة المعيد فيها عن وظيفة المدرس في المدرسة الأخرى، وربما شغل شخص واحد الوظيفتين معاً في وقت واحد[٣]. وقد روي السيوطي[٤] أن النصير بن الطباخ كان إماماً متبحراً في الفروع درس بالقطبية وأعاد بالصالحية عند ابن عبد السلام.

وكان من الممكن أن يقوم المعيدون بالتدريس في مدرسة ما دون أن يكون معهم مدرس. وفي هذه الحالة يقومون بعمل المدرس بدون أن تكون لهم أجرة[٥] وأن المدرسة الصلاحية خلت من مدرس ثلاثين سنة وأكتفى فيها بالمعيدين ثم عين فيها مدرس[٦].

أما وظيفة المفيد: عليه أن يعتمد ما يحصل به في الدرس فائدة: من بحث زائد على بحث الجماعة ونحو ذلك. وإلا ضاع لفظ الإفادة وخصوصيتها. وكان أخذه العوض في مقابلتها حراماً[٧].

أما وظيفة المنتهي من الفقه: «عليه من البحث والمناظرة فوق ما على من دونه. فإن هو سكت وتناول معلوم المنتهي لكونه في نفسه أعلم من الحاضرين فما يكون شكر نعمة الله تعالى حق شكرها»[٨].

---

(١) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٢٥٥ ـ ٢٥٦.
(٢) المقريزي: الخطط ج٢ ص٣٧٤.
(٣) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٢٥٦.
(٤) السيوطي: حسن المحاضرة ج١ ص١٩٤.
(٥) السيوطي: حسن المحاضرة ج٢ ص١٥٧.
(٦) المقريزي: الخطط ج٢ ص٤٠٠.
(٧) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ص٨٥.
(٨) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ص٨٥.

ملابس المدرسين

في العهد الفاطمي:

لقد أوجد الفاطميون خزانة الكسوة التي كان يخرج منها أكسية لجميع الأمراء وكبار الدولة، وقد تنوعت هذه الأكسيات بتنوع طبقات الناس، وكانت كسوة رجال التعليم مذهبه، تتكون من ست قطع أهمها القلنسوة والطيلسان[(١)]. وأصبحت الخضرة شعار الفاطميين بدل السواد الذي كان رمز العباسيين، ومن هنا لبس رجال العلم في هذا العهد عمامة خضراء[(٢)].

في العهد الأيوبي والمملوكي:

ويذكر القلقشندي تفاصيل عن زي القضاة والعلماء منذ عهد الأيوبيين فيقول: «أنهم يلبسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق سرجه إذا ركب، ومنهم من يجعل فوق الزؤابة الطيلسان الفائق ويلبس فوق ثيابه دلقاً (جبة) متسع الأكمام طويلها مفتوحاً من الأمام سابلاً على قدميه، أو يلبس بدل الدلق فرجية مفرجية من أعلاها إلى أسفلها مزررة بالأزرار، وليس فيهم من يلبس الحرير ولا ما غلب فيهم الحرير، ولباسهم أبيض اللون، ولا يلبسون الملون إلا في بيوته»[(٣)].

وكان الإهتمام زائداً بتوحيد الزي للمدرسين لأن المدرس (كما اليوم) قدوة ولأن أنظار التلاميذ تتجه له وترنو إليه، فيجب أن تقع على شيء مستحسن ومحمود ونتيجة لذلك فقد أشتهر بعض العلماء بالأناقة وحسن المظهر في تلك العصر[(٤)].

نقابة المعلمين:

تدل النصوص الصريحة التي سجلتها المصادر العربية على أن المسلمين في العصور الوسطى عرفوا النقابات، وأن هذه النقابات شملت عندهم كثيراً من المنظمات. فياقوت الحموي[(٥)] يتحدث عن المرتضى أبي القاسم نقيب الطالبيين الذي أسندت إليه مراعاة دار العلم التي أنشأها سابور بن أردشير. ويتحدث المقريزي[(٦)] عن

---

(١) شلبي تاريخ التربية الإسلامية ص٢٥٦.
(٢) السيوطي: حسن المحاضرة ج١ ص١٩٤.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص٤١ ـ ٤٢.
(٤) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٤٧٩.
(٥) ياقوت الحموي: معجم الادباء ج٦ ص٣٥٩.
(٦) المقريزي: الخطط ج١ ص٤١١.

الزي الذي كان يضع بخزانة الكسوات في العهد الفاطمي يرتديه نقيب الأشراف.

وهكذا وجدت النقابات وانتشرت حتى أصبح للكناسين نقابة ترعى شؤونهم وتدافع عن حقوقهم. ونريد الآن أن نصل إلى المعلمين فهم الذين يهموننا هنا وأن نتساءل هل كان لهم نقابة؟ الإجابة عندي ليست كما اليوم فما كانت طائفة المعلمين بأقل من هذه الطوائف وبخاصة أن المعلمين كانوا يكونون طبقة العلماء والفضلاء وكان لهؤلاء من النفوذ في الدولة مكان كبير فلا بدّ أن منظمة قامت تضم جماعتهم وتنظم مهمتهم[١] وتتحدث عن نفوذ هؤلاء النقباء نصوص ترينا كيف يكون رأيهم غالباً عند الخلفاء والسلاطين[٢].

ويتحدث المقريزي[٣] عن داعي الدعاة في العهد الفاطمي فيقول: «أنه يلي قاضي القضاة في الرتبة ويتزيا بزيه في اللباس وغيره، وهو عالم بجميع مذاهب أهل البيت، يأخذ العهد من ينتقل من مذهبه إلى مذهبهم وبين يديه من نقباء المعلمين أثناء عشر نقيباً.

في العهد المملوكي:

ويروي أبو شامة[٤] ما يفيد أن جماعة المدرسين هم الذين كانوا يختارون النقيب وأن السلطان ما كان يتدخل إلا إذا وقع خلاف بين الأعضاء على أن تدخله كان بالتوفيق والاصلاح لا للأمر واستعمال النفوذ.

تلك هي أهم النصوص التي تتحدث عن نقابة المعلمين، وهي تعطي فكرة عن أن هذه المنظمة وجدت عند المسلمين في ذلك العهد الباكر. وإن كنا نعترف بأنها بطبيعة الحال لم تكن من النضج والنظام في الدرجة الفائقة ولكن يكفي إن كان للمعلمين نقابة لها هذا السلطان وذلك النفوذ، وقد اطراها وأعجب بها Barst Dies في مقاله القيم بدائرة المعارف الإسلامية تحت عنوان (مسجد)[٥].

ورأيي أن النقابة لم يكن لها من القوة والمنعة والنضج والروابط لصون مصالح المعلمين والمتعلمين في المدارس وباقي القطاعات في العصر المملوكي كما هو الأمر في العصر الحديث في بعض المدن (الاوروبية ـ والعربية).

ونستطيع القول نتيجة للتعاريف السابقة أن النقابة هي عبارة عن اتحاد أو هيئة

(١) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٢٨٠.
(٢) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٢٨٠.
(٣) المقريزي: الخطط ج١ ص٣٩١.
(٤) ابو شامة: الروضتين ج١ ص١٣.
(٥) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٢٨٢.

تضم أعضاء تجمعهم مهنة واحدة وتعمل لصالحهم بالنسبة للقضايا التي لا يمكن قيام كل عضو بها على انفراد، لم تكن النقابة موجودة بالعصر المملوكي بالمعنى الصحيح بالنسبة لهذا التعريف. ويقول الماوردي: «النقابة على ضربين: خاصة وعامة».

ـ **فالخاصة**: هو أن يقتصر بنظره على مجرد النقابة من غير تجاوز لها إلى حكم وإقامة حد فلا يكون العلم معتبراً في شروطها[١] ويعرض لمهام النقابة الخاصة، حيث تكون عوناً للأعضاء المنتسبين إليها في استيفاء الحقوق تارةً، والنيابة عنهم في المطالبة بحقوقهم تارةً أخرى.

ـ **أما النقابة العامة**: فعمومها أن يرد اليه في النقابة عليهم مع ما قدمنا من حقوق النظر خمسة اشياء: أحدها الحكم بينهم فيما تنازعوا فيه، والثاني الولاية على ايتامهم فيما ملكوه، والثالث إقامة الحدود عليهم فيما ارتكبوه، والرابع تزوغ الأيامي اللواتي لا يتعين أولياؤهن أو تعينوا ففضلوهن والخامس إيقاع الحجر على من عته منهم أو سفه أو فكه إذا افاق ورشد، فيصير بهذه الخمسة عامةً النقابة فيعتبر حينئذ في صحة نقابته وعقد ولايته أن يكون عالماً من أهل الإجتهاد وليصح حكمه وينفذ قضاؤه[٢].

النقابة وتخطيط المدن ومراكز العلم فيها:

كانت النقابة مهمة في الحياة الإسلامية وبخاصة الفترة المتأخرة من العصر المملوكي بدرجة أن تخطيط المدينة التي كانت على سوق تجارية. كان يقرر في كثير من الأحيان حسب حاجات اصحاب الحرف فنرى جميع المدن ظهرت بتماثل عجيب متمركزة حول ثلاث نقط رئيسية[٣]:

ـ فأول نقطة ثابتة هي **سوق الصرافين**، وهو مركز هام دائماً في النظام الاقتصادي كدوره الأساسي بالنسبة للعملة، ثم **دار الضرب** ثم **سوق المزايلة**، ثم المحتسب. . .

ـ والمركز الثاني هو القيصرية، وهي بناية محكمة تخزن فيها البضائع والنفائس الأجنبية (الاسم بيزنطي).

ـ والمركز الثالث هو سوق الغزل حيث تأتي النساء لبيع انتاجهن اليدوي وهنا نرى المتعاملين بالحاجات التي تشتريها النساء كالقصابين والخبازين وبائعي الخضر. . .

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٩٦.
(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية ص٦٧.
(٣) برنارد لويس: النقابات الإسلامية ص٦٩٦.

ـ والمركز الرابع هو الجامعة أو المدرسة وهي ملحقة عادة بالمسجد وفيها يكون الطلبة والأساتذة نظام ونقابة...

ويشتغل أهل الحرف حول هذه المراكز الاربعة كل صنف في سوقه الخاص. ومما عزّز التركز في الأسواق، التركز أيضاً في السكن حيث كان معظم اصحاب الحرف الواحدة يسكنون في احياء وخاصة تسمى باسمائهم. وطبيعي أن يكون لهذا التركيز سواء كان ذلك في مجال العمل أو في مجال السكن، نشوء رابطة قوية تظهر على شكل تنظيم أو هيئة لها نظمها وأساليبها وأهدافها.

ولقد تكونت مع مرور الزمن لكل صنف عاداته وتقاليده التي تنظم اموره وقد عرفت هذه الطريقة بالعرف والعادة أو السنة، وأصبح العرف أشبه بالدستور الذي يربط أهل الصنائع ببعضهم.

ويبدو أنه في العصر الفاطمي «تمتعت الأصناف برخاء عظيم، فكانت معترفاً بها من قبل الدولة، ويظهر أنها كانت تتمتع بامتيازات كثيرة، وأنها لعبت دوراً هاماً في النشاط التجاري الذي حصل في العهد الفاطمي، ففي هذا العصر نشأت نقابة الأساتذة والطلاب التي تؤلف الجامعة العظيمة أي الازهر»(١).

وقد اشار المقريزي إلى نقباء المعلمين خلال حديثه عن الدولة الفاطمية فقال: «قاضي القضاة يلي داعي الدعاة بالرتبة ويتزيا بزيه في اللباس وغيره وصنفه بأنه يكون عالماً بجميع مذاهب أهل البيت يقرأ عليه ويأخذ العهد على من ينتقل من مذهبه إلى مذهبهم وبين يديه نقباء من المعلمين اثنتا عشر نقيباً وله نواب كنواب الحكم في سائر البلاد ويحضر اليه فقهاء الدولة ولهم مكان يقال له دار العلم والجماعة ولهم على التصدير بها ارزاقاً واسعة»(٢).

ولذلك جرت العادة أن تكون المهن العلمية والتعليم محصورة في عائلات خاصة كما كانت أي صناعة أو حرفة من الحرف، فينشأ الابن وقد لقّن اسرار المهنة عن والده فيحتفظ بها ليسلمها من بعده لاولاده ولذا سمعنا عن اسر علمية كثيرة ترددت اسماؤها في مجال التعليم أمثال: آل عصرون، والجوزي، والسبكي، والسمعاني، وابن عساكر، وابن تيمية. وغيرهما ممن احتكروا الوظائف المتعددة. أما بالنسبة للطلبة «فقد كان لهم نقيب يختار من جملة الطلبة في كل درس من الدروس لحفظ النظام، وكتابة غيبة من يغيب من التلاميذ عن الحضور، وفي بعض المدارس كان المدرس هو الذي يختار النقيب أو يقوم الناظر باختياره فبنفسه»(٣).

---

(١) برنارد لويس: النقابات الإسلامية ص٧٣٥.

(٢) المقريزي: الخطط ج١ ص٢٨٩.

(٣) عبد الغني محمود: التعليم زمن الايوبيين والمماليك ص٢٨٩.

ومن خلال هذا العرض بالنسبة للنقابات نستخلص حتى القرن الثامن الهجري ما يلي:

١ ـ أن العالم الإسلامي قد عرف النقابات لكنها لم تكن تنظيمات عمالية بالمعنى المفهوم حالياً، وإنما كانت اطارات وتنظيمات مهنية وإجتماعية تجمع طوائف من الناس ذات مصالح مشتركة ويتجلى الطابع الإجتماعي للنقابة من تسميتها بالعشيرة ولفظ عشيرة يدل على رابطة اجتماعية بين افرادها. وكان رئيس النقابة يلقب بشيخ العشيرة.

٢ ـ كانت تربط اعضاء النقابات بعضهم ببعض تقاليد واعراف وقواعد وسلوك. وكانت نقابات المهن مسؤولة عن مستوى المهنة بحيث يستطيع العميل أن يتقدم بالشكوى إلى النقيب في حالة محاولة العامل خداعه أو قيامه بالعمل بصورة ظاهرة النقص والعيب.

٣ ـ تقبل المجتمع المملوكي وجود هيئات ومنظمات تتجمع على اساس الحرفة والمهنة ولم يجد في الأصول الإسلامية الوقوف في وجهها أو منع قيامها بل اعترفت الدولة بهذه المنظمات واسندت إليها بعض الاختصاصات وأوجدت علاقة وثيقة ما بينها وبين المحتسب الذي يمثل السلطة المدنية.

وأما عن المكافآت والجوائز المالية فقد كانت منتشرة جداً، وكثيراً ما كان مؤسسو المدارس يجعلون لها حصيلة خاصة في اوقافهم على المدارس، فقد جاء في كتاب وقف الملك الاشرف على مدرسته بدمشق ما يلي: «ويجعل لكل من المشتغلين ثمانية دراهم ومن زاد اشتغاله زاده، ومن نقص نقصه. ويجعل لكل من السامعين أربعة أو ثلاثة، ومن ترجع منهم زاده ومن كان فيه نباهة جاز الحاقه بالثمانية، ومن حفظا منهم كتاباً من كتب الحديث فللشيخ أن يخصه بجائزة»[1].

ويذكر المقريزي: «أن الملك الظاهر بيبرس أمر الدعاة أن يحفظ الناس كتاب دعائم الإسلام ومختصر الوزير، وجعل لمن حفظ ذلك مالاً»[2].

كفاءة الأستاذ وكيفية تعيينه:

اهتمت السلطات العليا في الدولة باختيار العناصر ذات الكفاءة العالية للتدريس في المؤسسات التعليمية على اختلافها، وبلغ الأمر باستدعاء بعضهم من اقاصي البلاد موفرين لهم كل الوسائل المشجعة المرغبة وربما كان هذا التصرف من رجال السلطة

(١) كتاب وقف الملك الاشرف مخطط ملك الاستاذ صلاح الدين المنجد (دمشق).

(٢) المقريزي: الخطط ج١ ص٣٥٥.

انطلاقاً من دوافع شخصية فردية كحب الحياة والرفعة على حساب مدارسهم ومدرسيها الأعلام، أو قد يكون ذلك احتساباً لوجه الله تعالى فيأتون بمدرسين يعملون على نشر العلم بين الناس آنذاك، أو قد يكون نتيجة حب هؤلاء المسؤولين للعلم والثقافة وخاصة وأنه كان من بينهم علماء افاضل. ولذلك كنا نرى بعض المدارس الشامية تكثر كتب الفقه والتاريخ والأدب والحديث والتراجم والخطط والمدن من ذكر اخبارها، واخبار المدرسين والمعيدين والفقهاء والوعاظ وخزان الكتب، ومتولي الأوقاف فيها وهذا الأخير له وقفة وشرح مستفيض لاحقاً.

«وكان يتقدم في بعض الأحيان لوظيفة التدريس الواحدة عدد من الأساتذة غير معروفين سابقاً من اصحاب السلطة مما يؤكد مدى اهليتهم لتولي الوظيفة الشاغرة وعندئذ يلجأ هؤلاء إلى انواع استعراضية (حسب التخصص) تكشف عن مواهب وكفاءات المتقدمين»[1].

وليس من الضروري أن يتم التعيين نتيجة مقابلة شخصية مع اصحاب انفسهم فقد تمر حالات ينيب هؤلاء عنهم اصحاب كفاءات علمية ومناصب وظيفية عالية لإختيار المتقدمين لتولي مناصب التدريس. ففي نسخة ٨١٨هـ ـ ١٤١٥م «لما أنشأ السلطان الجامع المؤيدي لتدريس الشافعية والمالكية والحنابلة، والحديث النبوي، والقراءات السبع، استعرض الفقهاء فقرر من وقع اختياره عليه في الدروس»[2]. وهذا يشير إلى دور السلطان في بعض الأحيان في اختيار المدرسين والفقهاء. . .

وقد تكون هناك عناصر علمية لكنها غير مشهورة بكفاءتها، أو لم تحظ بتزكية احد العلماء المشهورين لم يتسنى لها أن تجتاز مباراة تعيين اصبح شغلها الشاغل البحث عن وظائف شاغرة ملحة في طلبها، وتنوعت اساليب هؤلاء في سعيهم لتحقيق مطالبهم فهذا أحمد السبكي (ت: ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م) «كان إذا مات من له تدريس أو نحوه سعى فيها لنفسه»[3] وهناك شروط معينة للتعين في منصب التدريس:

١ ـ مراعاة الإنتساب للمذهب الفقهي.

٢ ـ مراعاة السن: وقد تتطلب بعض المدارس أو بعض الواقفين حدوداً معينة للسن وللنضج ومع هذا رأينا من يدرس وهو صغير السن (وإن كانوا قلة) ولكن الأكثرية هم من الناجحين سناً وعلماً، لأن التدريس ليس بالأمر السهل ليتصدى له من ليس اهلاً لذلك، فهو يتطلب معرفة في المادة التي يدرسها، وخبرات هي نتيجة

(١) محمود قمبر: دراسات في التربية الإسلامية ص١٥٨.
(٢) المقريزي: الخطط ج٢ ص٣٣٠.
(٣) محمود قمبر: دراسات في التربية الإسلامية ص١٠٣.

ممارسته للعملية التربوية لفترة طويلة من الزمن لتكسب المهارة في التعليم، ولذلك لجأ بعضهم إلى وظيفة الإعادة قبل أن ينتقل للتدريس، فهي اشبه بفترة تدريب أو حالة من حالات الإنتظار لشغور وظيفة التدرس.

٣ ـ مراعاة التخصص في مادة التعليم: اشترط فيمن يتولى التدريس مواصفات ينبغي أن تتوفر فيه وفي مقدمتها الديانة والورع والتقوى والتخصص في المادة التي يدرس «فعندما بنى الأمير سيف الدين شيخوا العمري خانقاه شيخو (سنة ٧٥٧هـ ـ ١٣٥٦م) اشترط في شيخها أن يكون عارفاً بالتفسير والأصول»[١]. وكان بعض المدرسين يلجأون إلى الحيلة احياناً في التدريس، فعندما يضع الواقف في كتابه أو فيما نسميه اللائحة الداخلية للمدرسة شروطاً معينة، فيتحايل امثال هؤلاء المدرسين في تنفيذها حيث هناك «مدارس وقفها واقفوها على الفقهاء والمتفقهين والمدرس من الشافعية والحنفية أو المالكية أو الحنابلة أو لغرض آخر، وعندي أن الذمة لا تبرأ في المدرسة إلا بإلقاء الفقه»[٢].

٤ ـ العزوبية:

اشترط على المدرس أن يكون عازباً غير متزوج، حتى لا تزداد مشاغله عن التدريس «فقد شرط على المقيم بالمدرسة البادرائية بدمشق العزوبية وأن لا يكون الفقيه في غيرها من المدارس، وإنما أراد بذلك توفير خاطر الفقيه، وجمعه في طلب العلم»[٣].

٥ ـ العروبة:

اشترط بدر الدين الخروبي في المدرسة الخروبية أن لا يلي فيها أحد من العجم وظيفة من الوظائف فقال في كل وظيفة فيها يكون العرب دون العجم[٤].

٦ ـ عدم الجمع في التعليم بين أكثر من مدرسة:

«سئل ابن تيمية[٥] رحمه الله عن رجل وقف مدرسة شرط من يكون له بها وظيفته أن لا يشتغل بوظيفة أخرى بغير مدرسته»[٦] وربما كان هذا مؤشراً على أن هذا الشرط قد يكون وارداً في لوائح المدرسة الداخلية.

---

(١) السيوطي: حسن المحاضرة ج٢ ص٢٦٦.
(٢) تاج الدين السبكي: معيد النعم ومبيد النقم ص١٠٧.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٠٦.
(٤) المقريزي: الخطط ج٢ ص٣٦٩ ـ ٣٧٠.
(٥) ابن تيمية: (ت: ٧٢٨هـ ـ ١٣٢٩م) اعتمد القرآن وما تيسر من السنة/ اعتنق المذهب الحنبلي ايام المماليك.
(٦) ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج٣١ ص١٥.

٧ ـ أسلوب الإستنابة:

الإستنابة أحد اساليب الوصول إلى منصب التدريس والتي اتاحت لكثير من الشيوخ المعلمين فرصة الحصول على وظيفة تدريسية دون أن يدخلوا في منازعات وانتزاعات ودون مزيد انتظار لتصور بشأنهم قرارات تعيين في وظائف مستقلة، ودون أن يتعرضوا لتحمل أعباء التصدر بشكل شخصي وقد لا يحصلون منه على أجور مادية مجزية.

والإستنابة قرار حرّ للمدرس يتخذه بإسناد وظيفة التدريس التي يشغلها إلى من يراه كفئاً للقيام بها سواء كان من ذريته أم أقاربه أم من معارفه وقد تطول فترة الإستنابة قائمة، ولم يصدر المستناب ما يدل على قصور أو تقصير من جهته[١].

وقد تكون استنابة جزئية للمعاونة في وظيفة واحدة:

وقد تكون الإستنابة لأكثر من واحد في الوظيفة الواحدة فالقاضي جمال الدين الحرستاني (ت: ٦١٤هـ ـ ١٢١٧م) كان يدرس بدمشق وعمره ٩٢ سنة ويقوم بالقضاء فأناب بالمدرسة المجاهدية ابنه ثم عزل واستناب شمس الدين الشيرازي (ت: ٦٣٥هـ/ ١٢٣٣م) وشمس الدين بن سنو الدولة (ت: ٦٣٥هـ/ ١٢٣٣م) وشرف الدين الحنفي وتعين لكل واحد منهم مكان في المدرسة[٢].

وهناك الإستنابة المستمرة لبعض الشيوخ:

قد تعلو المكانة العلمية لبعض الشيوخ ويكون من أصحاب الكفاءات ومع هذا فإنهم لا يتمكنون من الحصول على الوظيفة إلا بالإستنابة فهذا «محمد بن عبدالله الصرخدي (ت: ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م) تفنن حتى صار أجمع أهل دمشق للعلوم. . . وكان متقللاً، لم يتفق له شيء من المناصب إلا أنه تصدر بالجامع وناب في عدة مدارس وكان شديد التعصب للأشعرية كثير المعاداة للحنابلة[٣].

٨ ـ أسلوب الإحتكار للوظيفة:

يعني اسلوب الإحتكار هو حبس الوظيفة في اطار خاص لا ينتفع به إلا فرد أو أفراد يستأثرون بالوظيفة دون غيرهم. وهذا يعني قد يُحتكر التدريس في ذرية الواقف أو المدرس بشكل مطلق «فلقد بنى عبدالله بن أبي عصرون (ت: ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م) لنفسه مدرستين بدمشق وبحلب»[٤] فواقف المدرسة العصرونية بدمشق كان قد شرط

(١) محمود قمبر: دراسات في التربية الإسلامية ص١٦٨.
(٢) المصدر نفسه ص١٧٢.
(٣) السيوطي: بغية الوعاة ج١ ص١٥١.
(٤) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٤ ص٢٣٨.

أن يكون المدرس من «ذريته فإن لم يكن أهلاً استناب وهكذا درس بها ولداه نجم الدين ومحيي الدين فابنه شهاب الدين ثم سبعة عشر مدرساً جاءوا من بعده كلهم من ذرية الواقف أو من أقربائه»[١] «وهذا بهاء الدين السبكي (ت: ٧٧٧هـ/ ١٣٧٢م) يخل بالوظائف على مستحقيها ويخص بها أولاده»[٢].

ومع ذلك وجدت حالات أخرى لأصحاب مدارس واقفين لها اشترطوا احتكار الوظائف في ذريتهم أو ذرية مدرسين مختارين على أن يليها منهم أولو الأهلية وإلا خرجت عنهم، فاشتراط الكفاءة والأهلية اساسي وحافز لتولي الوظيفة «فواقف المدرسة القيمرية بدمشق الأمير ناصر بن الحسين علي القيمري فوض تدريسها إلى علي بن محمد السهروردي (ت: ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م) وإلى أولي الأهلية من ذريته وهو أبو مدرسها الصلاح»[٣].

وقد وجد من الواقفين من يشترط عدم اشتراك ذريتهم في العمل في المدرسة حيث نرى في المدرسة الأقبغاوية التي أنشأها علاء الدين اقبغا عبد الواحد الذي قتل سنة (٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م) «واشترط في كتاب وقفه أن لا يلي النظر أحد من ذريته»[٤].

وهناك اسلوب الجمع بين عدة مدارس: مثل تقي الدين بن الصلاح (٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م) «فقد انتقل إلى دمشق وتولى تدريس المدرسة الرواحية ودار الحديث بدمشق فوض تدريسها إليه ثم تولي تدريس مدرسة ست الشام خاتون بنت أيوب فكان يقوم بوظائف الجهات الثلاث من غير اخلال منها إلا لقدر ضروري لا بد منه»[٥].

وقد أضيفت إلى شمس الدين ابن خلكان (ت: ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م) «مع القضاء نظر الأوقاف والجامع، والمرستان وتدريس سبع مدارس: العادلية، الناصرية(بالقدس) والعذراوية، والفلكية، والركنية، والأقبالية، والبهنيسية (بدمشق)»[٦].

وتفادياً للمشاكل والأعذار والتي تحدث نتيجة تدريس الشيوخ العلماء في عدة مدارس، وبخاصة انعكاساتها على العملية التعليمية في المدارس رأينا بعض الواقفين يشترطون أن تتجاور المدارس كالمعظمية والعزيزية في دمشق كما ظهر في كتاب وقفها أن مدرسها يكون مدرس المعظمية[٧].

---

(١) محمود قمبر: دراسات في التربية الإسلامية ص١٨٤.
(٢) السيوطي: بغية الوعاة ج١ ص١٥٣.
(٣) عبد القادر بدران: منادمة الاطلال ومسامرة الخيال ص١٤١ ـ ١٤٢.
(٤) المقريزي: الخطط ج٢ ص٣٨٤.
(٥)دابن خلكان: وفيات الأعيان ج٣ ص٢٤٤.
(٦) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس.
(٧) العلموي: مختصر تنبيه الطالب وارشاد الدارس ص٩٦.

ومثل هذا الأمر يسهل على الشيخ المدرس عمله إذا جمع بين مدرستين متجاورتين.

وهناك أسلوب الشراكة في التدريس: يشارك بعض المشايخ زملاءهم في التدريس في مدرسة واحدة، فهذا محمد ابن عبد القادر بن مقله ابن الصايغ (ت: ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م) «ولي تدريس الشامية البرانية بدمشق مشاركاً للقاضي شمس الدين ابن المقدسي ثم اشتغل بها ابن المقدسي وانفصل ابن الصايغ»[١].

التقاعد والإحالة على المعاش:

تعد الإمتيازات التي تمنح اليوم لعضو هيئة التدريس في أية مؤسسة تعليمية عند بلوغه سن التقاعد من بين العوامل الهامة التي تجذبه للعمل فيها، وهي بالتالي تعمل على استقراره وشعوره بالطمأنينة.

أما المعلم بالعصر المملوكي فقد كان بإمكانه أن يعلم الناس دون سن محددة ولدينا بعض الأخبار والمعلومات عن شبان بدأوا التدريس ولم يتجاوزوا سن العشرين إلا أنه يمكن القول بأن معدل السن للمدرسين أحياناً هو سن الخمسة وثلاثون. أما ما يتعلق بسن التقاعد للمعلمين، فلم يكن هناك ما يمنع المعلمين من استمرارهم في التعليم ما داموا يشعرون بأن لديهم القدرة على ممارسة العملية التعليمية وقد استمر كثير منهم حتى يوم وفاتهم، وقد رأى بعضهم إن من تقدم به العمر ولم يعد يتمتع بذاكرة قوية عليه أن يتوقف عن التدريس. وكثيراً ما كان الطلبة هم الحكم في هذه الأمور فهم يراقبون المعلم فإذا تقدم سنه، وساءت صحته، توقفوا عن حضور حلقته والدراسة عليه والسماع منه.

والواقع أن أغلبية الأساتذة العلماء في مرحلة التعليم العالي لم يكونوا يقدمون على إقتحام عبابه إلا بعد أن يتقدم بهم السن، وحتى بعد أن تدركهم الشيخوخة وبعضهم ينتهي بهم المطاف كأستاذ بعد تنقله بعدد من الوظائف العامة.

ومما لا شك فيه أن تدريس بعض المواد مكان يتطلب خبرة وإلى جانبها الوقار الزائد والذي يبدو بالشيب في الرأس واللحية وبخاصة بالنسبة لمواد الفقه والتوحيد. «ولم يكن لقب شيخ يطلق على المدرسين إلا عندما يبلغون الخمسين من عمرهم وحتى مع تقدم السن لم يكونوا شيوخاً يلف ذكاءهم ضباب معتم لأن التقاعد يصيبهم في اللحظة المناسبة التي لا تخطئه ابداً، فهو لا يصدر به قرار وزاري ولا يتم بناء

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٥ ص٣١.

على طلب صاحبه إنما يحدد الطلاب ساعته حتى يلحظون تراجع الصفاء العقلي لأستاذهم أمام الشيخوخة الزاحفة. . .»[١].

وكان لسياسة العزل والتعيين عند الدولة لها آثارها الإيجابية والسلبية، فمن ايجابياتها شعور الأساتذة أن هناك ثواباً وعقاباً مما دفعهم إلى إجادة عملهم وإخلاصهم وتفانيهم فيه، وساعد أيضاً على حشد مجموعة كبيرة من العلماء الأعلام الذين علموا بهذه المدارس قبول التحدي واعطوا مردوداً ايجابياً من العلماء والفقهاء الأفذاذ.

إلا أن سلبيات هذه السياسة جعلت الطلاب يعيشون بقلق لأنهم لا يعلمون إن كان الحظ سيساعدهم في بقاء الأستاذ الذي يدرسهم في منصبه، لأن شغور المكان تتعطل فيها الدراسة مدة طويلة، ثم أن تغيير الأساتذة لها انعكاساتها السلبية على العملية التعليمية، وبخاصة أن هناك فروقاً بين الأساتذة في طريقه ايصالهم المعلومات للتلاميذ والتعامل معهم.

أما بالنسبة لإنهاء الخدمة والإحالة على المعاش، فإن الحوافز التي تمنح للمعلم عند بلوغه سن التقاعد تعتبر من العوامل الهامة التي تجذبه للعمل وتعمل على استقراره وطمأنينته، فإذا كانت تلك الإجراءات عادلة ومرضية فإنها ستكون مصدر راحة للمدرس، أما إذا كان الأمر بالعكس فإنه سيشعر بأن طمأنينته مهددة في الفترة التي يصل فيها إلى سن التقاعد لأن فرص العمل والكسب المتوفرة أمامه قد انتهت وإن عليه أن يعيش على مدخراته إن توفرت وإلا فإنه سيعيش حياة مربكة لدرجة كبيرة.

ولذلك ربما كان هذا ما دفع العالم لمتابعة مهنة التعليم لفترة طويلة من عمره. لأن بعض المؤسسات التعليمية في تلك العصر لم تعمد إلى وضع نظم مالية وادارية تؤمن الطمأنينة والظروف المعيشية لعضو هيئة التدريس في هذه الفترة الحرجة من عمره.

---

(١) خوليان ريبرا: التربية الإسلامية ص١١٩.

الباب الثالث

الفصل الأول:

١ ـ دور الأوقاف في التعليم بالعصر المملوكي.
٢ ـ الطالب في المدرسة المملوكية.

مقدمة..

٣ ـ من آثار الحكماء ـ وتكافؤ الفرص ـ سن التعليم.
٤ ـ عدد التلاميذ في الفصل.
٥ ـ أخلاق التلاميذ وتعليم المرأة.
٦ ـ وصف المدارس.

الفصل الثاني:

١ ـ الداخلية في المدارس الشامية.
٢ ـ المستوى العلمي.
٣ ـ الإجازات والشهادات العلمية.
٤ ـ مصير الحركة العلمية في أوائل الحكم العثماني.
٥ ـ الخاتمة.
٦ ـ المراجع والمصادر.
٧ ـ أشكال ورسوم للمدارس الدينية والدنيوية.

الفصل الأول

دور الأوقاف في التعليم بالعصر المملوكي

قبل بيت الحكمة كان التعليم يجري في أمكنة غير مخصصة له كان يلتقي العلماء بالطلاب في المساجد كما كان الراغبون في العلم يسعون إلى دور الشيوخ للسماع منهم فيها وهكذا، ومن أجل هذا لم تكن هناك نفقات معينة تبذل في نشر العلم.

فلما ظهرت الحاجة إلى تأسيس مكان يخصص لرعاية العلم ونشر الثقافة ظهرت في الوقت نفسه فكرة أن يوقف على هذا المعهد وقفاً ينتج ايراداً يكفي للإنفاق على شؤونه وشؤون القائمين بالعمل فيه.

وكان المأمون أول من أبرز هذه الفكرة للوجود، فإنه لم يشأ أن يكون نشاط بيت الحكمة متوقفاً على سخاء الخلفاء والأمراء، فهيأ للعلماء رزقاً سخياً يتقاضونه من وقف ثابت يفيض ريعه عن التكاليف المطلوبة لهذه المؤسسة الثانية[(١)].

وانتشرت فكرة المأمون هذه بين خلفه من الخلفاء والعظماء، فأصبح من ضروريات انشاء معهد ثقافي أو مدرسة أن يعين لها وقف ثابت تتلقى منه ما يفي بنفقاتها وما يمدها بما تحتاجه من مصروفات ثم تطور هذا الإتجاه فظهرت الأوقاف أيضاً على الذين يشغلون انفسهم بخدمة العلم في المساجد، بل إن بعض الأركان أو الأعمدة بالمساجد كان يوقف عليها أوقافاً سخية يصرف ريعها إلى من يجلس بها للتدريس والتعليم وفيما يلي عرض سريع لنماذج من هذه الأوقاف:

نظامية بغداد:

إن المدارس النظامية قد اختفت في ظروف غامضة وإن مكانها اغتصب منذ عهد سحيق، فقد كان مما ضاع على الباحثين هذه الوثيقة التي كتبت فيها وقفية نظام الملك على مدارسه، لقد ورد ذكر هذه الوثيقة في عدة مراجع ولكن الباحثين قديماً وحديثاً لم يستطيعوا أن يحصلوا على ذاتها أو نصها إلا ببعض المعلومات وإن لم تكن كاملة: قال سبط بن الجوزي[(٢)]: «وفيها (أي في سنة ٤٦٢هـ) أوقف نظام الملك الأوقاف

---

(١) Sayed Ameer Ali: A.short history of the saraceus p.274.

(٢) سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ١٢١ ـ ٢ مخطوط باريس.

على النظامية وحضر الوزير والقضاة والعدول ببيت النوبة وكتبوا الكتب واثبتت ومما وقف سوق المدرسة وضياع وأماكن وشرط نظام الملك الشروط المعروفة».

وقد رأى ابن جبير ببغداد نحواً من ثلاثين مدرسة وهو يقول إنه ما فيها مدرسة إلا وهي يقصر القصر البديع عنها وأعظمها وأشهرها النظامية التي بناها نظام الملك ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات واسعة للإنفاق على الفقهاء والمدرسين بها وللإجراء على الطلبة[1]. وإن ما كان ينفقه نظام الملك في السنة على التعليم قد بلغ ٦٠٠ الف دينار أما الريع الذي كانت تنتجه الأوقاف المخصصة لنظامية بغداد فقد ورد أنه كان ١٥ الف دينار في العام وقد كان الريع كافياً لمرتبات الشيوخ ولما يدفع للطلبة[2].

النورية الكبرى في دمشق:

فيما يختص بنور الدين سبق أن أوردنا وثيقة تتبين بوضوح الأوقاف التي عينها للمدرسة النورية الكبرى وقد ظهر منها أن ريعها الكبير الوفير كان يكفي للإنفاق على الطلاب والمدرسين إنفاقاً متواصلاً سخياً ومن الممكن أن نعطي مثالاً آخر لنؤكد هذه الحقيقة، فقد ذكر أبو شامة[3] «أن نور الدين وقف على المدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنبلية وعلى ألمتها ومدرسيها وفقهائها أوقافاً كافية، ومن مناقبه أنه عيّن للمغاربة الذين كانوا يلحقون بزاوية المالكية بالمسجد الجامع (الأموي) أوقافاً كثيرة منها طاحونتان، وسبعة بساتين، وارض بياض وحمام، ودكانان بالعطارين، وجعل أحد هؤلاء المغاربة مشرفاً على هذه الأوقاف».

فلما جاء الأيوبيون إلى مصر نقلوا معهم حماسة نظام الملك ونور الدين وحمايتهما للعلم، ثم وجدوا أنفسهم في مصر امام تراث الفاطميين العريق ومدينتهم العريضة التي كان الفن والعلم من أنضر فروعها على امتداد مصر وبلاد الشام، فحافظ الأيوبيون على هذا التراث المزدوج ورعوا العلم وما بخلوا في الإنفاق عليه وأنشأوا كثيراً من المدارس وأوقفوا عليها الأوقاف السخية، وظهرت موجة من التنافس في هذا السبيل أخذ فيها الأمراء والوزراء والعلماء والعامة بنصيب ملحوظ وفيما يلي أمثلة موجزة لهذه الأوقاف:

يقول ابن جبير[4]: «إن كل مسجد يستحدث بناؤه أو مدرسة أو خانقاه يعين لها

(١) ابن جبير: رحلته ص٢٢٩.
(٢) محمد عبده: الإسلام والنصرانية ص٩٨.
(٣) ابو شامة: الروضتين ج١ ص١٦.
(٤) ابن جبير: الرحلة ص٢٧٥.

السلطان أوقافاً تقوم بها وبساكنيها والملتزمين بها».

ويضيف المقريزي: «إن صلاح الدين عندما بنى المدرسة الناصرية بالقرافة وقف عليها حماماً بجوارها، وفرناً تجاهها، وحوانيت بظاهرها»[1].

واقتدى بصلاح الدين غيره ممن انشأوا المدارس ورعوا العلم في العهد الأيوبي ومن هؤلاء تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب الذي اشترى منازل العز التي كانت تشرف على النيل ومعدة لنزهة الخلفاء الفاطميين ثم جعلها مدرسة للفقه الشافعي ووقف عليها الحمام وما حولها وبنى فندقاً عرف بفندق النخلة ووقفه عليها...»[2].

وتورد وقفية هامة في دمشق هي التي وقفتها ست الشام اخت السلطان صلاح الدين على المدرسة الشامية الجوانية وقد خُربت هذه المدرسة واتخذت داراً ولكن بقي بابها القديم وقد كتب على عتبته العليا نص الوقفية: (بسم الله الرحمن الرحيم هذه مدرسة الخاتون الكبيرة الأجلة عصمة الدين ست الشام أم حسام الدين بنت أيوب رحمها الله وقفتها على الفقهاء والمتفقهة من اصحاب الإمام الشافعي رضي الله عنه والموقوف عليها وعليهم وعلى ما يتبع ذلك جميع القرية المعروفة بزينة وجميع الحصة وهي أحد عشر سهماً ونصف من اربعة وعشرين سهماً من جميع المزرعة المعروفة بجرمانا وجميع الحصة وهي اربعة عشر سهماً... ونصف القرية المعروفة بمجيدل السويدا وجميع القرية المعروفة بمجيدل القرية وذلك في سنة ثمان وعشرين وستمائة. أما الإنفاق على هذه المدرسة فقد وضع على النسق الآتي:

أولاً ـ يبدأ في الإنفاق بعمارة المدرسة، وثمن مصابيح، وزيت، وحصر، وبسط، وقناديل، وشمع وما تدعو الحاجة إليه.

ثانياً ـ يدفع للمدرس غرارة من الحنطة، وغرارة من الشعير، ومائة وثلاثون درهماً فضة ناصرية.

ثالثاً ـ عشر الباقي يصرف إلى الناظر عن تعبه وخدمته ومشارفته للأملاك الموقوفة وتردده عليها.

رابعاً ـ اخراج ثلثمائة درهم فضة ناصرية في كل سنة تصرف في ثمن بطيخ ومشمش وحلوى في ليلة النصف من شعبان على ما يراه الناظر.

خامساً ـ الباقي يصرف إلى الفقهاء والمتفقهة والمؤذن والقيّم المعد لكنس المدرسة ورشها وفرشها وتنظيفها وإيقاد مصابيحها ويعطى هؤلاء على قدر استحقاقهم على ما يراه الناظر في أمر هذا.

---

(١) المقريزي: الخطط ج٢ ص٤٠٠.

(٢) المقريزي: الخطط ج٣ ص٣٦٤.

وقد ذكرت الواقفة أن من شرط الفقهاء والمتفقهة والمدرس والمؤذن والقيم أن يكونوا من أهل الخير والدين والصلاح وحسن الطريقة وسلامة الإعتقاد والسنة والجماعة كما شرطت رغبة منها في أن يظل الملتحقون بالمدرسة في مستوى مالي لائق ألا يزيد عدد الفقهاء والمتفقهة المشتغلين بهذه المدرسة عن عشرين رجلاً، من جملتهم المعيد بها والإمام وذلك بخلاف المدرس والمؤذن والقيم إلا أن يوجد في ارتفاع الوقف نماء وزيادة وسعة فللناظر أن يقيم بقدر ما زاد ونما[1].

وهكذا كانت الأوقاف في الغالب هي المورد الذي ينفق منه على التعليم ولكن في بعض الحالات كانت نفقات التعليم تدفع من الخزانة العامة للدولة.

المماليك في بلاد الشام والوقف:

ومن المدارس التي حظيت بوقف سخي المدرسة الدماغية بدمشق وكانت داراً لشجاع الدين بن الدماغ فلما مات جعلته زوجته مدرسة للشافعية والحنفية ووقفت عليها ثمانية أسهم من اربعة وعشرين سهماً من المزرعة الدماغية والحصة من رجم الحيات والحصة من حمام اسرائيل خارج دمشق والحصة بدير سليمان من المرج، ومزرعة شرخوب عند قصر أم حكيم، ومحاكرات، وغير ذلك[2].

١ ـ المدرسة البادرائية:

يقول الإمام برهان الدين أبو اسحق ابن الشيخ تاج الدين الفزاري أنه عندما حضر الواقف في أول يوم درّس بالمدرسة البادرائية وحضر عنده السلطان في دمشق قرىء كتاب الوقف وفيه: «لا يدخلها امرأة. فقال السلطان: «ولا صبي» فقال الواقف: «يا مولانا وربنا ما يضرب بعصاتين»، وكان هو أول من درّس بها ثم ولده كمال الدين من بعده وجعل نظرها إلى وجيه الدين بن سويد[3]، ثم صار في ذريته إلى الآن وقد نظر فيها بعض الأوقات القاضي شمس الدين بن الصايغ ثم انتزع منه حين اثبت لهم النظر وقد وقف البادرائي على هذه المدرسة أوقافاً حسنة دارة، وجعل بها خزانة كتب نافعة[4].

٢ ـ المدرسة الحلبية:

ـ وفي سنة ثلاث عشر وثمانمائة للهجري قال ابن قاضي شهبة: «وممن توفي فيها شهاب الدين أحمد بن عبد الخالق كان في أول أمره مغنياً ثم تاب وكان ملازماً

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٢٧ ـ ٢٢٨.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٧٧ ـ ١٧٨.
(٣) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٣٣.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٥٥.

للصلاة، ووقف إلى جانب المدرسة الحلبية مسجداً واضافه إلى المدرسة المذكورة، ووقف عليها وقفاً، ولم يخلف ولداً، ووقف ثلث قاعة على الزيت الذي يوقد في الحجرة النبوية والثلث على زوجته والثلث الثالث على ابن اخيه ووقف على قراءة البخاري بالحلبية ومال ذلك إلى الزيت على الحجرة المذكورة»[١].

ـ وهناك المدرسة الركنية الجوانية للشافعية بدمشق واقفها ركن الدين منكورس وهو الذي بنى الركنية الحنفية البرانية وجعل عليها اوقافا[٢].

والمدرسة الرواحية قال الذهبي في تاريخه العبر في من مات اثنتين وعشرين وستمائة الزكي بن رواحة التاجر المعدل واقف المدرسة الرواحية بدمشق وأخرى بحلب. وقال ابن كثير[٣] في تاريخه: «في سنة تسع وثمانين وستمائة جاء البريد بالكشف على ناصر الدين محمد بن المقدسي وكيل بيت المال وناظر الخاص والأوقاف، فظهر عليه مخاز من أكل الأوقاف وغيرها، مرسم عليه بالعذراوية وطرلب بتلك الأموال وضيق عليه... ثم جاء البريد يطلبه إلى الديار المصرية فرفض فأصبح يوم الجمعة ثالث شعبان وهو مشنوق بالمدرسة العذراوية».

ـ ومن وقف المدرسة الظبيانية التي تقع غربي المدرسة الصالحية بدمشق «المزرعة بقرية يعقوبا والمحاكرات حول الخندق قبلي سور دمشق درس بها سنة أربع وسبعين وسبعمائة الحافظ شهاب الدين بن حجي»[٤].

قال ابن كثير: «في سنة ست وسبعين وستمائة وفي يوم السبت تاسع جمادي الأول شرع الظاهر بيبرس في بناء الدار لتجعل مدرسة وتربة له ومن وقف هذه المدرس الحصص بالقنيظرة، ثم كفر عاقب والعرمان بكمالها والأشرفية قبلي دمشق ونصف قرية الأصطبل بالبقاع، ونصف الطرة والبستان بالصالحية»[٥].

وقال النعيمي: «لقد وقفت على قائمة بخط تقي الدين ابن شهلا صورتها(الحمد لله محاسبة مباركة إن شاء الله تعالى). وبما تحصل عليه المدرسة العمادية من ربع وقف داخل باب الفرج. وبما صرف في العمائر بالمدرسة المشمول ذلك بنظر كاتبه، وذلك في سنة خمس وستين وثمانمائة، من الدراهم الف واثنين وسبعين من الحانوت جوار المدرسة سكن الآدمي في السنة أربع وثمانين طبقة علو ذلك عطل المزرعة

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص١٧٥.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص١٤٧.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية في سنة ٦٨٩.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٢٥٦ ـ ٢٥٧.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية سنة ٦٧٦هـ.

المعروفة بالعمادية بقصر اللباد بالقرب من حارة السليماني ثمانمائة محاكرة، نصف المزرعة بالوادي التحتاني وتعرف بالدماغية بيد ابن عصفور، خمساً وعشرين محاكرة الجنينة وبيت الأجرود القرادي، ثلاثمائة محاكرة الجنينة وبيت قرملك، عشرين محاكرة بيت قرابقا الأطرش مسلم، محاكرة أرض الحوانيت الحاملة لعمارة ابن عصفور، خمساً وثلاثين محاكرة ارض الحوانيت والمطلع الحاملة لعمارة شاهين مسيلم المصري المعروف تفصيله في اجرة فاعلين وتعزيل حول البحرة وغيرهما بما فيه مؤنة أربعة عشر وما هو معتد به بما كان صرف على جهة الوقف في عمارة الوقف في عماوة المدرسة في شهور أربع وستين.

قال: «له سبعين وخراج وفريضة لسنة خمس وستين، ونقيب الوقف عشرة، بعد ذلك سبعمائة وستة سلم للنظر، مائة وستين للتدريس، ثلاثمائة للبواري، ثمن زيت أربع وعشرين، العمالة مائة، الإمام اربعين، الفقهاء وهم عشرة انفار. الشيخ شهاب الدين العنبري عشرين، الشيخ شمس الدين محمد بن حجي الخيري عشرين، الشيخ شمس الدين محمد الهريري عشرين، الشيخ شهاب الدين الحمصي عشرين، الشيخ شهاب الدين أحمد الحواري عشرين، الشيخ شهاب الدين أحمد الإريحي أيضاً عشرين، الشيخ عمر الطيبي الضرير عشرين، الشيخ جمال الدين عبدالله بن عبد السلام العدوي عشرين، الشيخ علي العصياني عشرين، الشيخ شمس الدين محمد بن الفراش البواب عشرين والخير يكون إن شاء الله تعالى انتهت بحروفها»[1].

ـ أما بالنسبة للمدرسة الفارسية واقفها الأمير سيف الدين فارس الدوادار في سنة ثمان وثمانمائة في وقفه الجديد، واقف قرية صحنايا وغيرها على مدرسين وعشرة فقهاء وعشرة مقرية، ويقرىء خمسة عشر يتيماً، إذا حفظ احدهم القرآن يخرج ويقرر غيره، وتفرقة خبز في كل جمعة زنة ربع قنطار، ومقرئين آخرين فيها أيضاً غير العشرة المذكورة يحضران عقب الظهر والعصر[2].

ـ أما بالنسبة للمدرسة الفخرية فيقول ابن كثير[3] بتاريخه: «له مدرستان فخريتان كاتب بالقدس الشريف والثانية في دمشق، في سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة: القاضي فخر الدين كاتب المماليك وهو محمد بن فضل الله ناظر الجيوش بمصر، أصله قبطي فأسلم وكان له اوقاف كثيرة وبر وإحسان إلى أهل العلم وكان صدراً معظماً، حصل له من السلطان حظ وافر وقد جاوز السبعين، وإليه تنسب الفخرية بالقدس الشريف».

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣١٢ ـ ٣١٣.

(٢) المصدر نفسه ج١ ص٣٢٤.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص١٦٧.

ـ أما بالنسبة للمدرسة القواسية في دمشق فقال النعيمي: «في سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة. الأمير عز الدين ابراهيم بن القواسي كان مباشراً للسر في الجهات السلطانية وله دار حسنة بالعقبة الصغرى، فلما حضرته الوفاة اوصى أن تجعل مدرسة، ووقف عليها أوقافاً دارة وجعل تدريسها للشيخ عماد الدين الكردي الشافعي»(١).

وقال الذهبي في العبر في سنة أربع وتسعين وستمائة: «الجوهري هو الصدر نجم الدين أبو بكر بن محمد بن عياش التميمي صاحب المدرسة الجوهرية الحنفية بدمشق توفي في شوال ودفن بمدرسته عن سن عالية، ورأيت قد رسم على عتبة بابها بعد البسملة: (هذه المدرسة المباركة وقف العبد الفقير إلى الله تعالى أبو بكر محمد بن أبي طاهر بن عياش بن أبي المكارم التميمي الجوهري على مذهب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه وكان الفراغ من عمارتها والتدريس بها في سنة ست وسبعين وستمائة»(٢)

ـ قال القاضي عز الدين: «انشئت المدرسة الزنجاري سنة ست وعشرين وستمائة أنشأها الأمير عز الدين أبو عمرو عثمان بن علي الزنجيلي، وكان صاحب اليمن وانتقل إلى الشام في زمن الملك العادل سيف الدين أبي بكر وبها دفن والذي وجد من وقفها في سنة عشرين وثمانمائة: حانوت جوارها، ولها طاحون بالقرب منها، وبجوار الطاحون حانوت، كذا رأيته في كشف مشد الأوقاف سيد محمد بن منجك الناصري في السنة المذكورة»(٣).

ـ أما المدرسة القجماسية أنشأها نائب الشام قجماس الاسحاقي الشركسي كفل دمشق سبع سنين وثمانية شهور، ورتب فيها اربعين مقرئاً بعد العصر كل يوم يقرأ كل منهم جزءاً من الربعة وشيخاً ومجاورين وشيخاً لهم، وأوقافاً دارة، وفي يوم الاربعاء وهو حاوي عشرين ايلول كان يوم عيد الفطر من سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة...»(٤).

ـ المدرسة الماردانية أنشأها عزيزة الدين اخشا خاتون بنت الملك قطب الدين صاحب ماردين ووقفتها سنة أربع وعشرين وستمائة. واظن أن قطب الدين مودود(٥) هو والدها، والذي وجد من وقفها، في سنة عشرين وثمانمائة بكشف سيدي محمد بن منجك الناصري. بستان جوار الجسر الأبيض وبستان آخر جوار المدرسة

(١) عبد القادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٣٣١.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ٣٨٢.
(٣) المصدر نفسه ج١ ص٤٠٤.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٣٤.
(٥) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٢١٦

المذكورة، وعدة ثلاث حوانيت بالجسر المذكور والأحكار جوارها ومن شرط الواقف مدرسها أن لا يكون مدرساً بغيرها[1].

جملته: العشر من البقاع، والمرتب على داريا من القمح ستون غرارة ومن الدراهم خمسة آلاف للغنم في شهر رمضان، ومما رأيناه وسمعنا به من مصالحها الخبز لكل واحد من المنزلين فيها رغيفان، وللشيخ الذي يقرىء أو يدرس ثلاثة، وهو مستمر طول السنة، والقمصان في كل سنة لكل منزل فيها قميص وقد رأيناه، والسراويل لكل واحد سروال سمعنا به ولم نره، وطعام شهر رمضان بلحم، وكان الشيخ عبد الرحمن ينوع لهم ذلك ويوم الجمعة العدس ثم انقطع التنوع واستمرت القمحية وزبيب وقضامة، ليلة الجمعة يفرق عليهم بعد قراءة ما تيسر رأيناه، ووقفه دكاكين تحت القلعة، وكل سنة مرة زبيب وقفها تحت يد ابن عبد الرزاق خارج عن وقف المدرسة وفرا وبشوت في كل سنة ووقفها أيضاً، وحلاوة دهنية من وقفها سمعنا به ولم نرها وخضر لبيوت المجاورين مستمرة، وصابون سمعنا به ولم نره، وختان من لم يكن مختوناً في كل سنة من الفقراء والأيتام النازلين فيها رأيناه ثم انقطع، وسخانة يسخن فيها الماء في الشتاء لغسل من احتلم، وكعك سمعنا به ولم نره، ومشبك بعسل في ليلة العشرين من رمضان مستمر، وكنافة ليلة العشر الأول من رمضان ثم نقلت إلى النصف مستمرة، وقنديل يشعل طول الليل في المقصورة للمدرسة مستمر، وحلاوة في الموسم في شهر رجب، لوزية وجوزية وغيرها مستمر في نصف شعبان، وأضحية في عيد الأضحى مستمرة، وطعام في عيد الفطر حامض ولحم وهريسة ورز وحلو مستمر إلى الآن»[2].

أما المدرسة المسمارية في دمشق واقفها الشيخ مسمار وهو على المذهب الحنبلي أيضاً، وفي سنة سبعين وسبعمائة عرف بأن الوقف عليها الحكر المعروف بها، وحده من طريق جامع دنكز إلى مقابر الصوفية إلى الطريق الذي به القنوات إلى الطريق الآخذ على مدرسة شاذ والمدرسة الصاحبة الحنبلية في دمشق يقول النعيمي: «علم الآن من وقفها غالب قرية جبة عسال، والبستان الذي تحت المدرسة، والطاحون وحاكورة، غالب تلك الحارة تقع جوارها»[3].

ـ والمدرسة الصدرية الجبلية واقفها صدر الدين بن المنجا[4] أحد المعدلي

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج١ ص٤٥٧.
(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٨٦ ـ ٨٧.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٦٧.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٨٨.

ذوي الأموال والمروآت والصدقات الدارة، وقبره بها، وقد استجدّ أشياء كثيرة منها سوق النحاسين قبلي الجامع ونقل الصاغة إلى مكانها الآن...

ـ المدرسة الضيائية بانيها الفقيه ضياء الدين محمد بجبل الصالحية، والوقف عليها غالب ودكاكين السوق الفوقاني، وحوانيت وجنينة في النيرب وأرض بسقبا، ويؤخذ لأهلها ثلث قمح ضياع وقف دار الحديث الأشرفية بالجبل الدير والدوير والمنصورة والتليل والشرفية[1].

ـ والمدرسة الضيائية المحاسنية بانيها ضياء الدين محاسن[2]. وجعلها موقوفة على من يكون أمير الحنابلة يذكر فيها الدرس.

ـ والمدرسة العمرية واقفها وبانيها الشيخ أبو عمر الكبير والد قاضي القضاة شمس الدين الحنبلي[3]، وفي سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وبها درس ابن الحبال فقيل هي وقف عليه وفرقت على أهل الدير مدة وقيل على أهل الدين من الحنابلة، وهي بيد شهاب الدين ابن زريق من بعد والمصنع المذكور وهو المشهور الآن ببير الشيخ قبلي الدير يفصل بينهما النهر، والفرن ليس الآن بموجود ويقول ابن كثير[4]: «في سنة أربع وعشرين وسبعمائة: القاضي سيف الدين بكتمر والي الولاة صاحب الأوقاف في بلدان شتى، ومن ذلك مدرسة بالصلت وله درس بمدرسة أبي عمر.

وقال الشيخ جمال الدين بن عبد الهادي: «هذه المدرسة عظيمة لم يكن في بلاد الإسلام أعظم منها، والشيخ بنى فيها المسجد وعشر خلاوي فقط، وقد زاد الناس فيها ولم يزالوا يوقفون عليها من زمنه إلى اليوم، كلّ سنة من السنين تمضي إلا ويصير إليها فيها وقف، فوقفها لا يمكن حصره، ومن بك ويعرف قديماً بستانها، وحكر الزقاق وهو المعروف بالساقية بأرض مسجد القصب»[5].

ـ وهناك أوقاف تحمل مقاصد عديدة مثلاً: **وقف التزويج** يعطى منه كل من تزوج من فقراء الحنابلة وهو بيد القاضي علاء الدين المرداوي **ووقف الإعراض** يعطى منه كل من أعرض كتاباً على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، وهو بيد ابن عبادة، **وقف المرادوة** من أولاد العجوز وفقراء الجماعليين من الحنابلة، وهو قرية كتيبة من بلاد حوران فرقت زماناً ثم تغلب عليها بنو عبد الملك، ثم حكم بانتزاعها

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٧٦.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٢٢٣.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٨١.
(٤) ابن كثير: حوادث سنة ٧٢٤.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٩٣ ـ ٩٤.

منهم القاضي محب الدين، وإن النظر منها لخطباء الجامع المظفري، وفرقت سنة ثمان وسبعين وثمانمائة[١].

ومن مدارس الطب المدرسة الدخوارية في دمشق القد وقفها الطبيب مهذب الدين عبد الرحيم بن علي بن حامد المعروف بالدخوار شيخ الأطباء بدمشق، وقد وقف داره بدرب العجل بالقرب من الصاغة العتيقة على الأطباء بدمشق مدرسة لهم»[٢].

ووجدت قائمة فيه وقف المدارس، ومنها أيضاً في سنة عشرين وثمانمائة قال: «الدخوارية عمّر بعضها الناظر برسم رئيس الأطباء العمالة له، كذا وجد[٣].

ـ المدرسة اللبودية أنشأها نجم الدين محمد اللبودي سنة أربع وستين وستمائة وواقفها عند حمام الفلك وقد ولي نظر الدواوين بدمشق»[٤].

أما بالنسبة للخانقاه الباسطية أنشأها القاضي زين الدين عبد الباسط ابن خليل ناظر الجيوش الإسلامية والخوانق كانت هذه الخانقاه داراً له، فلما نزل السلطان الأشرف برسباي إلى آمد سنة ست وثلاثين وثمانمائة خاف من نزول العسكر بها فجدد لها محراباً وأوقفها، فعظم شأنه عند السلطان وصار الحل والعقد بيده، فشرع في عمارة بلاد السلطان فزاد متحصلها بذلك فعمّر المدارس بالحرمين والقدس، وبمصر على باب داره، وبدمشق بالصالحية، ووقف على ذلك كله أوقافاً حسنة جيدة.

ورتب في الركبين الموفدين المصري والشامي سحابتين وما يحتاجان إليه من الجمال والرجال وغير ذلك، وهما خيمتان كبيرتان على صفة الجمّلون برسم الفقراء والمساكين، ورتب أيضاً لكل سحابة خمسة وعشرين قنطاراً من البقسماط وما يكفيها من احمال المال جزاه الله خيراً[٥].

ـ أما الخانقاه الدويرية فلها أوقاف كثيرة وهي تعرف بدويرة حمد بباب البريد في دمشق وحكى عنه محمد بن عوف الترسي[٦] ومن وقفها كما عدده النعيمي هو الآتي: الحصة وهي النصف شائعاً من جنينة بني وهبان بالطريق الوسطاني الآخذ إلى المزة، ومنه أيضاً النصف كذلك من البستان المعروف بالصوفية من ارض اللون بالمزة

(١) المصدر نفسه ج٢ ص٩٩.
(٢) ابن كثير: تاريخه حوادث سنة ٦٢٨.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٠٤.
(٤) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٠٧.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١١.
(٦) ابن العماد: شذرات الذهب ج٣ ص٢٤٩.

أيضاً، ومنه أيضاً نظير الحصة المذكورة وهي النصف شائعاً كذلك من البستان المعروف بدفوف الأصابع بالمزة أيضاً، ومنه أيضاً ارض البستان المعروف بحسين الآمدي بالمزة أيضاً، ومنه أيضاً جميع الحصة وهي احد عشر سهماً ونصف سهم من اربعة وعشرين سهماً وهي الربع والسدس ونصف الثمن شائعاً من المزرعة المعروفة بالعصامية بزقاق الماء بالمزة، ومنه سهم واحد من اربعة وعشرين سهماً شائعاً من البستان المعروف بالقاطوع بالمزة أيضاً ومنه نظير الحصة المذكورة من الجنينة قرب القاطوع المذكور، وتعرف بجنينة فاطمة يفصل بينهما نهر داريا والمَزة جوار طاحون الصيفي فخاص ومنه أيضاً نظير الحصة المذكورة شائعاً من الجنينة الملاصقة لحمام العوافي بالمزة أيضاً، ومنه الحصة الشائعة وهي سهم واحد من أربع وعشرين سهماً من قرار ارض الجنينة المعروفة باللحام بحارة صلاح بالمزة أيضاً، ومنه الحصة الشائعة وقدرها ثلاثة أسهم من اربعة وعشرين سهماً من قرار ارض البستان وهو المعروف بالخزان بزقاق الماء بالمزة أيضاً عليها حكر في كل سنة مبلغ ستين درهماً، ومنه الحصة الشائعة ومبلغها نصف سهم من أربع وعشرين سهماً من الدار الرحى الخراب المعروف بالشهابية من جملة اراضي قرية كفرسوسيا، ومنه الحصة من قرار الأرض الشائعة ومبلغها اثنا عشر سهماً من اربعة وعشرين سهماً وهي النصف من القطعتين من الأرض المذكورة الخراجيتين المعروفة إحداهما بالدورة والأخرى بالطويلة من ارض الشاغور، ومنه الحصة الشائعة وهي النصف من الأرض الخراجية المعروفة بجنينة الوتار وشربها من نهر الأنباط، ومنه الحصة الشائعة وهي ستة اسهم من اربعة وعشرين سهماً وهي الربع من قطعة الأرض الليخة الخراجية المعروفة بحقل الفرس، ومنه أيضاً الحصة الشائعة وقدرها ستة اسهم من اربعة وعشرين سهماً من المكان المعروف بالمطبخ شمالي الوقف على المدرسة الشامية البرانية، ومنه أيضاً الحصة الشائعة وقدرها نصف سهم من اربعة وعشرين سهماً منالمزرعة المعروفة بالصفوانية شمالي نهر بردى وطاحون الشيخ، ومنه الحصة المقسومة المفروزة سهمين من اربعة وعشرين وهي نصف السدس من القرية المعروفة بالبويضة من وادي العجم قرب البريج، ومنه أيضاً الحصة الشائعة وقدرها اربعة اسهم من اربعة وعشرين سهماً وهي السدس من القطعة المعروفة بحقلة قافية من أراضي قرية داعية، ومنه نظير الحصة المذكورة وهي السدس شائعاً من الحقل الخراجي المعروف بحقل محفوظ من أراضي داعية المذكورة ومنه نظير الحصة المذكورة أيضاً وهي السدس شائعاً من الحقل المعروفة عبيد من أراضي داعية أيضاً، ومنه الحصة الشائعة وقدرها سهم واحد من اربعة وعشرين سهماً وهي ثلث الثمن من جميع قطع الأراضي السبع الخراجيات المعروفة بوقف القاطوع من أراضي بيت رانس، تعرف الأولى منها بالكرم الصغير،

والثانية بحقل الزيتونة، والثالثة والرابعة بالماحل، والخامسة بالتبوكية، والسادسة بالقطبية، والسابعة بالبرانس ومنه الحصة الشائعة وقدرها سهمان من اربعة وعشرين من الدار المعروفة بطاحون باب توما العامرة، ومنه الحصة الشائعة وقدرها من اربعة وعشرين سهماً من الحوانيت الأربعة، والمقعد داخل دمشق بسوق البزورية قبلي الدخلة، وبرأس المقعد الدخلة المذكورة، ومنه جميع قرار أرض الاسطبل بدرب السلسلة بجوار الخانقاه المذكورة والطبقات التي كانت علو الاسطبل المذكور، ومنه قرار الأرض المحاكرة بمحلة سوق ساروجة المعروفة بحكر الأقرع، وبحارة السودان قديماً بالقرب من تربة يونس، ثبت أن ذلك جميعه وقف على مصالح الخانقاه المذكورة، وعلى الصوفيين المقررين وعلى سائر جهاتها ومصارفها الشرعية ثبوتاً شرعياً، وحكم بموجب ذلك أقضى القضاة شرف الدين أبو محمد عبدالله بن مفلح الحنبلي، لكن أخذ الطباق المذكورة السيد تاج الدين وأدخلها في عمارته لضيقها، ثم وقف عوضها الربع على الخانقاه المذكورة، وقال الحافظ شمس الدين الحسيني ذلك في ذيل العبر لشيخه الذهبي في سنة خمس واربعين وسبعمائة(١).

وقال ابن كثير: «ايدكين بن عبدالله الأمير الكبير علاء الدين الشهابي، واقف الخانقاه الشهابية داخل باب الفرج وقد ولاه الظاهر بيبرس نيابة حلب المحروسة مدة، وكان من خيار الأمراء وشجعانهم، وله حسن ظن بالفقراء والإحسان اليهم»(٢).

والمدرسة الخانقاه الشريفية، واقفها السيد الحسيني شهاب الدين أحمد ابن السيد شمس الدين محمد المعروف بابن الفقاعي وكان يتردد إليها الفقراء والأفاقية... وقفها بمدينة حمص عدة حوانيت تجار ومزرعة ناب بحوران، ووقف عليها أيضاً احد اولاده الثلاثة السيد محمد ثلث قرية عربيل وغير ذلك ووقف عليها أيضاً ولده الثاني أحمد والثالث ابراهيم، وقف عليها قراءة بخارى لمن له اهمية بذلك(٣).

والخانقاه العزّية تقع على نهر تورا بدمشق أنشأها الأمير عز الدين ايدمر الظاهري ونائب السلطنة بالشام ووقفها مع التربة والمسجد في الصالحية هو الآتي: الحصة وقدرها إحدى وعشرون قيراطاً من قرية دُميّا وهي من وادي بردى، وجميع الخان بمحلة باب الجابية المعروف بخان العميان الذي حده من القبلة خان ابن حجي ومن الشرق البايكة من جملة اوقاف التوريزي(٤) وعامه الدخلة وفيه الباب قبلي تربة الجيهان ومن الشام املاك الحمصاني ومن شرق، ومن الغرب الخان المعروف قديماً

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١١٥ ـ ١١٦.
(٢) ابن كثير: تارخه (البداية والنهاية) حوادث سنة ٦٧٧هـ.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٢٨.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٧ ص٩٠.

بابن الحارة ويومئذ بخان المراءة وجميع الفرن المعروف بوقف التربة المذكورة[١].

ـ وفي سنة إحدى وستين وسبعمائة: «أنشئت الخانقاه الكجحانية ظاهر دمشق وكانت دار الأمير بلاط وقد تهدمت وخربت وقد رأيت بخطه على ظهر سنة ست وعشرين وثمانمائة الكجحانية البرانية وقف ابراهيم الكجحاني»[٢].

ـ الخانقاه اليونسية أنشأها الأمير الشرفي يونس داودار الظاهر برقوق في سنة أربع وثماني وسبعمائة كما هو مكتوب على بابها... وشرط في كتاب وقفها الأصلي أن يكون الشيخ بها والصوفية حنفية افاقية، ولم يشرط في المختصر بكونهم افاقية، وشرط فيها أن يكون الإمام بها حنفياً وعشرة من القراء. ووقف عليها الدكاكين خارج باب الفرج، ثم احترقت في ايام الملك المؤيد شيخ فعمرها وأدخلها في وقفة، وعوض الخانقاه بحمام العلاني خارج باب الفرج والفراديس، والحمام بكفر عامر، والآن آل اليها من وقف ذريته قطعة الأرض بسكة الحمام والقاعة لصيق الخانقاه[٣].

الزاوية الحصنية أنشأها الشيخ تقي الدين الحصني بالشاغور، وقف عليها وعلى ابن اخيه وقفاً كثيراً[٤].

الزاوية الوطية وقفها الرئيس علاء الدين المشهور بابن وطية بالجامع الأموي سنة اثنين وثمانمائة ووقف عليها حوانيت وطباقاً حولها، وشرط على شيخها أن لا يكون بأبواب القضاة والحكام، كما وقفت على كتاب وقفها سنة إحدى وتسعمائة وتعرف الآن بزاوية المغاربة[٥].

قال الذهبي: «في سنة عشر وسبعمائة مات الشيخ السيوفي بزاويته بسفح قاسيون وهو نجم الدين عيسى بن شاه ارمن الرومي، واوقف عليها وعلى ذرية الشيخ نجم الدين الملك الناصر قريتي عين الفيجة ودير مقرن بوادي بردى الثلث للزاوية والثلثان للذرية وبنى له ولجماعته بيوتاً حولها، رحمهما الله كما ولي التربة المذكورة[٦]»

الجامع المنصوري بطرابلس وبعض مدارسها:

وكان من الطبيعي فور بناء الجامع أن توقف له الأوقاف التي ينفق من ريعها على

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٣١.
(٢) المصدر نفسه ص١٣٢.
(٣) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٤٨.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٥ ص٣٩٣.
(٥) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص١٥٩.
(٦) الذهبي: ذيل العبر حوادث سنة ٧١٠.

مصالحه من فرش وانارة وتنظيف فضلاً عن تأمين رواتب لأصحاب المهام الدينية من تدريس واقامة الشعائرالإسلامية فيه.

ولا شك أن سلاطين المماليك وقفوا للجامع عدة أوقاف في طرابلس وخارجها وكذلك فعل نواب السلطنة من امرائها، وتنوعت الأوقاف بين عقارات سكنية ومحال تجارية، وبساتين، ومزارع، وقرى بأكملها[1] منها:

١) نصف قرية (عروات) بناحية الزاوية، حصة الجامع الكبير ١٢ قيراطاً ٢٩٤٥ قرشاً.

٢) كامل محصول (صافيتا) بجبال العلويين نقداً وغلة في أواخر عصر المماليك واوائل عصر العثماني ٥٦٣٠ قرشاً.

٣) كامل قرية (غلسطو) من أعمال حلب وكان فوراً عليها مبلغ ٦٠٠٠ قرش مقابل رفع الظلم عنها (للجامع المنصوري الكبير وجامع التوبة).

٤) كامل قرية (سلفيوا) بناحية صهيون في جبال العلويين قرر عليها مبلغ ٢٥٠٠ قرش موقوفة للجامعين (المنصوري والناصري)[2].

٥) ربع قرية (عورا) ببلاد البترون حصة الجامع المنصوري ٦ قراريط ٢٥٠ قرشاً في السنة.

٦) مزرعة (حصرايل) في بلاد جبيل وكان وقفاً ذرياً ومغله ٦٠٠ قرش في السنة.

٧) مزرعة بأرض سقي طرابلس موقوفة على الجامع الكبير وطينال ومغله ١٠٦٧٧ قرشاً بالسنة.

٨) قطعة ارض بيد ابن التركماني ١٠ فدادين مغلها في السنة ٣٥٠ قرشاً.

٩) قطعة أرض في قرية (بكفتين) الكورة حصة الجامع ١٨٠ سهماً.

١٠) بستان القواليح في كفرحلدة محصلة في السنة ٥٠٠ قرشاً بالسنة.

١١) مزرعة عامرة بجبال العلويين ٢٠٠ حصة.

١٢) مزرعة في نيذو ومجدلية منها ١٠٠ حصة للجامع الكبير.

١٣) قرية عزقي في الضنية كانت كلها وقفاً حصة الجامع ٦ قراريط مغلها في السنة ١٢٢٥ قرشاً.

١٤) حمام القاضي بطرابلس كان موقوفاً للجامع الكبير وجامع العطار ومدرسة القاضي القرمي[3].

---

(١) تدمري: آثار طرابلس الإسلامية ص١٧٣.

(٢) دفتر مالية طرابلس ص١٣٦و٢٣٠و٣٤٢.

(٣) تدمري: تاريخ وآثار طرابلس ص٣٣٦.

وكان يتولى وظيفة التولية الحسبية على الوقف (عيسى ابن محمد)[١].

ـ والذي عُلم من وقف المدرسة الجوزية بدمشق نصف دير عصرون وقرية عند القصر وفدانان بقرية بالا وارض بقرية بلدا[٢]. بعد هذا العرض والدراسة فيُعتبر الوقف حاجة مهمة بالعصر المملوكي ويستأثر بالمدارس بوجه عام، يقوم به السلاطين والوزراء ونواب الأقاليم والأمراء والميسورون من طبقات المجتمع، ولولا الوقف لما قامت هذه النهضة العلمية التي ظهرت فيها المؤلفات والموسوعات على يد مفكرين كبار وأعلام الأئمة. وكانت الأموال التي توزع على المدارس من خلال الوقف كانت تشمل المدرسين والطلاب والخدم وبما يلزم للمدرسة من تجهيز وعناية وانارة... وكان لا يقتصر الوقف على منطقة معينة ولا بولاية معينة ولا نيابة محددة من ولايات ونيابات السلطنة ولكن الوقف ظاهرة كان ماضياً في الدولة الفاطمية والزنكية واستمر في الدولة الأيوبية وعصر المماليك وشمل بعض الأراضي التي خضعت للدولة المملوكية في مصر والجزيرة وخاصة في بلاد الشام، ولا تخلو مدينة أو بلدة دون أن يهتم أمراؤها واثرياؤها ويتشجيع من الدولة بإقامة صروح العلم ومعاهد الدراسة وكفالة الأيتام ومساعدة الفقراء، ولا يتم ذلك إلا بجعل وقف ثابت يوزع على هذه المؤسسة وتلك لتنهض الدولة وتلعب دوراً حضارياً تنافس غيرها من الدول التي تعيش في عصر مظلم. ولا ننسى بأن العناية بالأوقاف يعتبر السمة الأساسية للعصر المملوكي لتثبيت ركائز الدولة وتدعيم اركانها ويعطيها روح الإستمرارية لأنها الصحت في مجال التعليم للجميع مما لا يكون حكراً على فئة أو عائلة أو طبقة معينة.

وكان ديوان الأحباس في الدولة المملوكية يشبه وزارة الأوقاف في وقتنا الحاضر. فكان يشرف على المساجد والربط والزوايا والعقارات المحبوسة، وكان يلعب دوراً هاماً في تنشيط عمل المؤسسات ويفعل دورها على صعيد التقديمات الإجتماعية والمادية، وبخاصة المدارس التي شهدت نهضة علمية وأدبية وعمرانية يعود الفضل لهذه النهضة هو دور الأوقاف والواقفين.

أما على صعيد آخر وعلى سبيل الإفتراض وبحسب تحليلي فأجد بأن الاستكثار من الأوقاف قد أخرّ مسيرة الشرق في تلك العصر، إلى حد ما، وكم في هذه الأقطار من آثار ودور وقصور ومحال عامة هُجّرت وتعطلت بضياع اوقافها وكثرة المتنازعين عليها، وكان من الأوقاف أن أضرت بالجباية التي تصرف في مصالح الدولة، لأن العقار الموقوف على الأعمال الخيرية لا يعفى من الضرائب فقط بل إنه لا يباع،

(١) سجل المحكمة الشرعية رقم ٦٠ لسنتي ١١٣٦و١١٣٧هـ ص٥٤.

(٢) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس ج٢ ص٤٩.

ولذلك كثرت الأوقاف كثرة زائدة فأخرت كل الضرر بالمصلحة العامة، وذلك أن اعفاء الأحباس من الخراج يسلب الحكومة جزءاً مهماً من ريعها وارتفاعها. وحظر بيع الوقف يعبث بريعه على وجه الإجمال لأن اموال الأوقاف وعقاراته لا تستثمر جيداً.

ولقد شدد الواقفون في شروط اوقافهم خصوصاً إذا كان عليها مسحة الأوقاف المسبلة على المصالح العامة، ومع هذا انتهبتها ايدي الضياع وسطت على ريعها واعيانها مخالب السارقين والمزورين، وهذه مدينة دمشق كان في واديها في القرن التاسع الهجري زهاء الف وخمسمائة مسجد وجامع وليس فيها اليوم مائتان وخمسون مسجداً وكان فيها أوائل القرن العاشر ثلاثمائة وعشرون مدرسة ورباط وخانقاه وتكية وليس فيها اليوم من كل ذلك الأرث القديم خمس مدارس وربط يصح أن يطلق عليه اسم مدرسة أو رباط اللهم إلا من باب التجوز.

وقد بدلت اعيانها كلها واختلست احباسه، ومنها ما لا تزال قائمة أوقافه مزبورة على احجار ابوابها حتى الساعة تقرأ بلسان عربي مبين، على كثرة ما بدل المبدلون وتلاعب المتولون والمستحقون، وهكذا كل عن مدارس حلب وحمص وطرابلس والقدس وهي تعد بالعشرات كمدارس العاصمة ورباطاتها وزواياها وجوامعها فإنها اصبحت وأوقافها أثراً بعد عين ولم يكتب البقاء إلا لبضع منها.

وأن من وقفوا الأوقاف وحبسوا الأحباس لأبنائهم ومن يجيىء بعدهم قد أضرّوا بهم أكثر مما نفعوهم، والرزق كالحياة لا طاقة لصغير أو كبير أن يضمنه لنفسه فكيف به لغيره.

كانت الأوقاف نافعة في الصدر الأول للإسلام لقلتها ولأنها محبوسة على وجوه البر وعلى البائسين خاصة، ومن اجل هذا الحبس على هذه الغاية الشريفة مما لا يدعو مجالاً للشك إنكار نفعه، ولكن الملوك ومن بعدهم من رجال الدولة، أنشأوا يجعلون من اموال المغارم أوقافاً، وقلما تشاهد المخلص فيما حبس ووقف.

الطلاب في المدرسة المملوكية

مقدمة

برهن الطالب المملوكي، كما سيبدو من هذا الفصل، على حماسة منقطعة النظير في طلب العلم، وكان في هذا حديد العزم قوي الإرادة فذلّل العقبات التي قامت في سبيله، وتغلب على الصعوبات التي اعترضته، ولم يكن الطريق إلى طلب العلم ممهّداً، ولا كانت الحياة ميسرة سهلة، ولكن الطالب لم يكترث بالأشواك ولم يبال بالمخاطر، وألقى بنفسه ليصل إلى هدفه دون تردد أو فتور.

- فتساءل ما هو الدافع القوي الذي كان يدفعه؟

- وما هذه القوة الجبارة التي كانت تعمل عملها من وراء الستار فتحيل الصعب سهلاً والعسير يسراً؟

إنها فيما يبدو لي آيات القرآن الكريم، وأحاديث الرسول عليه السلام، ثم الأمثال والأقوال التي تنسب إلى حكماء المسلمين وقادتهم.

لقد سمع الطالب المسلم هذه وتلك تحثه على طلب العلم، فوطّد العز على أن ينفر ليتفقه في الدين لينذر قومه إذا رجع اليهم، وليرفع الله درجته مع الذين أوتوا العلم، وكانت الآيات والأحاديث تتردد على لسان الطالب وتغمر قلبه، فيتغلب على ما قد يعتوره من تردد، أو يطوف به من خور، فتجدد عزمه، وتزكي همته.

من اجل هذا كان لا بد أن يفتتح هذا الفصل بطائفة من هذه الآيات والأحاديث والأمثال، تلك التي اعتقد أنها لعبت دوراً هاماً في حياة التعليم في العالم الإسلامي.

ومن آيات القرآن الكريم:

- ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ، وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾(١).
- ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢).
- ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾(٣).

---

(١) سورة المجادلة الآية ١١.

(٢) سورة الزمر الآية ٩.

(٣) سورة طه الآية ١١٤.

ـ ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[(١)].

ومن احاديث الرسول ﷺ:

ـ غدوة في طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة[(٢)].

ـ من يرد الله به خيراً يفقهه بالدين[(٣)].

ـ العلماء ورثة الأنبياء.

ـ أقرب الناس من درجة النبوة اهل العلم والجهاد.

ـ يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء.

ـ أفضل الناس المؤمن العالم.

ـ لموت قبيل ايسر من موت عالم.

ـ اطلبوا العلم ولو بالصين[(٤)].

ـ لا خير فيمن كان من امتي ليس بعالم ولا متعلم.

ـ الناس عالم ومتعلم والباقي همج[(٥)].

ومن آثار الحكماء والأولياء:

ـ قال علي بن أبي طالب، كرم الله وجهه، لكميل: «يا كميل، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقه، والعلم يزكو الأنفاق»[(٦)].

ـ قال الأحنف: كل عزٍّ لم يؤيد بعلم فإلى ذلّ يصير[(٧)].

ـ وقيل لبعض الحكماء: اي شيء تقتني؟ قال: الأشياء التي إذا غرقت سفينتك سبحت معك، يعني العلم[(٨)].

ـ وقال ابن المقفع: العلم زين لصاحبه في الرخاء ومنجاة له في الشدة[(٩)].

ـ وسُئل عبدالله بن المبارك: لو أن الله اوصى إليك: تموت العشية، فماذا تصنع اليوم؟ فقال: أقوم وأطلب العلم[(١٠)].

---

(١) سورة النحل الآية ٤٢.

(٢) اساس الاقتباس ظهر الورقة رقم ١١ مخطوط.

(٣) البخاري: ج١ ص٢٨.

(٤) الغزالي: احياء علوم الدين ج١ ص٥.

(٥) الاصفهاني: محاضرات الادباء ج١ ص٢٦.

(٦) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج١ ص٢٦٥. ابن قتيبة: عيون الاخبار ج٢ ص١٢٠.

(٧) الاصفهاني: محاضرات الادباء ج١ ص١٦.

(٨) الغزالي: احياء علوم الدين ج١ ص٦ ـ ٧.

(٩) ابن المقفع: الادب الصغير من رسائل البلغاء ص٢٢.

(١٠) منهاج المتعلم ص٥.

تكافؤ الفرص في التعليم:

يستطيع الإنسان أن يقرر دون تردد ولا هوى أن فرص التعليم في المدارس المملوكية كانت مكفولة للغني والفقير على حدّ سواء، وأن الفقر لم يقف عائقاً امام الراغب في العلم أو الساعي لارتشاف المعرفة(١).

لقد بدأ التعليم في المسجد، والمسجد كان مفتوحاً للناس جميعاً، وكانت حلقاته معدّة لإستقبال الطلاب لتعليمهم بالمجان دون قيد أو شرط، وكان من نظام حلقة الدراسة أن يترك بها مكان ليجلس فيه اولئك الذين يحبون أن ينضموا حديثاً للحلقة للإستماع والإستفادة.

وكان على المدرس ألا يكون في مجلسه مكان مميز لاحد الناس، بل أن يكون الجميع عنده سواء ومن سبق من الطلاب إلى موضع من المكان المخصص لهم جلس فيه(٢). وليست المسألة مسألة الجلوس فحسب، وإنما كان على المدرس أن يعامل الفقير معاملة الغني فقد ورد في الحديث الشريف ما يحتم أن يكون المتعلمون امام المعلم على حدّ واحد لا فرق بين غني وفقير(٣). ولقد اتجه كثير من المدرسين برعايتهم للطلاب الفقراء، والأكثر من ذلك قد حظي هؤلاء الطلاب بنصيب موفور من اوقاف الأغنياء، وكان لهذا اثر بيّن في حالة التعليم في العصر المملوكي. وكان نظام الملك قد أعلن أن التعليم بمدارسه حق للجميع وأنه يعطي الناس جميعاً دون مقابل، ثم زاد على المجانية أن عيّن مرتباً منتظماً للطلاب المعوزين(٤). وفي نظامية بغداد مثلاً كان الذين يغذون بالمعارف ٦٠٠٠ تلميذ فيهم ابن اعظم العظماء وابن افقر الصناع، وكلهم يتعلمون بالمجان والطالب الفقير فوق ذلك معلوم يتقاضاه من الريع المخصص لذلك(٥).

وكان حنين بن اسحق الطبيب البحاثة كثير السفر لجمع الكتب وللتزويد من العلم، وقد وصل في رحلاته إلى اقصى بلاد الروم كما طاف بمدن العراق والشام ومصر(٦). وقد ظل الطلاب على كل حال يرحلون لمقابلة الشيوخ والأخذ عنهم ولكن في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري هو نشأة المدارس وتزويدها بالعتاد والأساتذة الممتازين، ومن

---

(١)شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٢٩١.
(٢) العبوري: المدخل ج١ ص١٩٩.
(٣) حسين الاصفهاني: محاضرات الادباء ج١ ص٢٠.
(٤) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٣٧.
(٥) محمد عبده: الإسلام والنظرية ص٩١.
(٦) ابن ابي اصيبعة: عيون الاخبار ج١ ص١٨٧.
انظر القفطي: تاريخ الحكماء ص١٧٣ز أنظر أيضاً. Khuda Bukhsh islamic civilisation pp.277.

ثمّ تحولت رحلات الطلاب فأتجهت إلى هذه المدارس للإستماع إلى شيوخها والإنتفاع بما فيها من ميزات وتسهيلات وهناك نوع آخر من الرحالة المسلمين لا يمكن اغفاله هنا، هؤلاء الرحالة ليسوا طلاباً يسعون ليجلسوا امام الأساتذة والشيوخ أو يتلقوا بعض الأحاديث وإنما هم علماء باحثون لهم ميول مختلفة في دراساتهم، فمنهم من يميل إلى الدراسات الدينية ومنهم من يهوى الدراسات الاجتماعية أو التربوية أو الجغرافية أو نحوها وقد عمد هؤلاء إلى جمع المادة التي تغذي ميولهم لا من الكتب أو النقلة بل من ابحاثهم وملحوظاتهم الخاصة فزاروا البلاد، وجابوا البقاع، يدونون ما يرون ويسجلون ما يلاحظون. وقد ترك هؤلاء زاداً كبيراً للباحثين في الدراسات الإسلامية، ويعتبر نتاجهم المصدر الغني الموثوق به بطلاب هذه الدراسات حتى العهد الحاضر ومن هؤلاء اليعقوبي والاصطخري والمقدسي وابن حوقل وناصر خسرو وابن جبير وياقوت وابن بطوطة والمقريزي والقلقشندي.

تعليم المرأة:

قرأت في موضوع المرأة عدة كتب ويمكن أن يقال أن المرأة في الشرق أو في الغرب كان حظها في التعليم ضئيلاً خلال العصور الوسطى وأن الفرص التي اتيحت لها كانت اقل بكثير من الفرص التي اتيحت للرجل المعاصر لها.

وقبل أن نسترسل في الحديث عن تعليم المرأة بالشرق يجدر بنا أن نقتبس من المراجع الأوروبية بعض الاقتباسات التي تصور المستوى العلمي للمرأة الغربية في اثناء هذه العصور «خلال العصور الوسطى كانت العناية بالمرأة الأوروبية محدودة جداً تبعاً لاتجاه المذهب الكاثوليكي الذي كان يُعدّ المرأة مخلوقاً في المرتبة الثانية، وقد حرصت القرون الوسطى أن تحدّ من سلطة المرأة الأوروبية وألا تمنحها اي لون من الوان النفوذ، فيما عدا المجال الضيق الذي كانت تعيش فيه وهو البيت[(١)].

كان Francesco Barberico يسمح لطبقة النبلاء من الفتيات أن يتعلمن القراءة والكتابة ليتمكن فيما بعد من ادارة شؤونهن، وأما فيما يتعلق ببنات السادة من رجال البلاط وكذلك بنات القضاة والأطباء ومن على شاكلتهم قرر أنه من الخير لهن ألا يتعلمن القراءة والكتابة، وبالنسبة لبنات التجار والصناع فقد كان الحكم حازماً بالإيتاح لهن أي لون من الوان التعليم[(٢)].

ثم ويواصل Abram كلامه بقوله: وظاهر أنه لم يطلب أن تنال المرأة اي مستوى

---

(١) Feminism by K.A. Wieth-Kundsen, translated from the Danish of arthur G.Chter, p.209.

(٢) The Encyclopaedia of Bduction IV p.1790.

ثقافي ارقى من ذلك، ومن اجل هذا كانت الأوقاف على التعليم مقصورة على تعليم الصبيان، وليس فيها نصيب لتعليم الفتيات، وكان أغلب الآباء يكتفون بقسط ضئيل من التعليم الأولي لبناتهم، ثم يعملون على تزويدهم بالجانب العملي في الحياة المنزلية ليعدوهن ليكنّ زوجات(١).

هذا وصف موجز بثقافة المرأة الأوروبية في العصور الوسطى مقتبس من مراجع اوروبية. فإذا تركنا المرأة الاوروبية وعدنا إلى المرأة العربية في تلك العصر كان من الأوفق أن اعترف بحقيقة لم يشأ كثير من الكتاب المسلمين أن يعترفوا بها، هي أن التعليم بين النساء لم يكن منتشراً انتشاره بين الرجال وكانت نسبة المتعلمات بين النساء أقل بكثير جداً من نسبة المتعلمين بين الرجال، ويسأل المرء نفسه ما الذي دعا إلى هذه النتيجة مع أن الدين الإسلامي لم يرجع للجنس عائقاً للمرأة دون تلقي العلم؟ واعتقد أن الذي اعاق النساء المسلمات عن مجارات الرجال في التعلم إنما هو الصعوبات التي كان يستهدف لها طلاب العلم، فقد كانت الرحلات والحرمان والتقشف شارات الطالب المسلم. وكان العرب يضعون المرأة في مكانة اسمى ومنزلة أعلى فلا يسمحون أن تتعرض لنصب العيش وشظف الحياة، وعلى هذا اهبطت نسبة المتعلمات من النساء، غير أنه يجدر بنا أن نسجل أن كثيرات من هذا العصر تغلبن على هذه العصوبات فحصلن على جانب من الثقافة التي يمكن أن توصف بأنها عميقة ومتنوعة. يقول الدكتور محمد فؤاد الأهواني(٢): أن البنات كن يتعلمن في الكتاتيب. ولكن الدكتور الأهواني يرجع عن رأيه ويقول: أن العادة قد جرت على تعليم البنات داخل الدور(٣).

وعندنا من النصوص الصريحة ما يؤكد لنا أن البنت لم تلتحق بالكتاب صبية ولم تجلس في حلقة الرجال شابة، وكان الغالب أن تتعلم في المنزل عن طريق احد اقاربها أو بمؤدب يدعى لها: وكان عيسى بن مسكين يجلس للطلبة إلى العصر فإذا كان بعض العصر دعا بنتيه وبنات اخيه وحفيداته ليعلمهن القرآن والعلم(٤)، وكذلك علم اسد بن الفرات ابنته اسماء والإمام سحنون ابنته خديجة، كما كان يدعى مؤدبون خاصون لتعليم البنات في بيوت اهل الثراء وقصور الأمراء(٥).

وعلى كل حال فقد انتج التعليم الخاص مجموعة من النساء اللاتي كانت

(١) English life et manne is in the later middle ages. p. 218*

(٢) الاهواني: التعليم عند القادسي ص٨٧.

(٣) الاهواني: التعليم عند القادسي ص١٦٣.

(٤) ابن سحنون: اداب المعلمين ص٢٢.

(٥) ابن سحنون: اداب المعلمين ص٢٣.

ثقافتهن لا تقل عن ثقافة الرجال بل ربما بزتها في كثير من الأحوال. وقد تصدت المرأة المسلمة لموضوعات ثقافية متعددة، فبرزت في جميعها. وكانت في كل منها تضارع الرجال وتدل على مقدرة ممتازة وكفاءة طيبة.

وصف المدرسة المملوكية:

فإذا ما أمعنا النظر في بناء المدرسة المملوكية من حيث الشكل الخارجي والداخلي فنجدها متشابهة تقريباً في كل بلاد الشام ومصر من حيث البوابات الرئيسية للمدرسة وعلى عتبتها الآيات القرآنية والنقوش والزخارف مما يدل دلالة واضحة على الأيدي الفنية الرائعة التي يتميز بها العصر المملوكي. ومن الداخل يوجد اماكن للوضوء والمحراب الذي يمتاز بالزخرفة الهندسية والنوافذ، واماكن الدراسة التي تمتاز ببهو واسع والغرف المختصة للتدريس، وغرف المبيت للغرباء، من طلاب العلم والداخلية...

وهذا وصف المدرسة القرطائية بطرابلس التي هي انموذج للمدارس المملوكية في بلاد الشام.

والمدرسة القرطائية تعود إلى «قرطاي» هو الأمير شهاب الدين قرطاي بن عبدالله الناصري نائب السلطنة بطرابلس تولها مرتين سنة (٧١٦ ـ ٧٢٦هـ/ ١٣١٦ ـ ١٣٢٦م) و (٧٣٣ ـ ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣ ـ ١٣٣٤م) وهو الذي بنى منبر الجامع الكبير سنة (٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م) وأنشأ المدرسة المعروفة بإسمه ودفن فيها.

وتعتبر هذه المدرسة من اجمل مدارس طرابلس وافخمها جميعاً[١]. بل هي اكثرها غنى وثروة بما تحمله واجهتها من نقوش تاريخية لا تقدر بثمن. وهي اكبر مدارس طرابلس المملوكية وتلاصق الجامع المنصوري من الجهة الشرقية له، ولها ثلاث ابواب أهمها الباب الشمالي وهو الباب الرئيسي، والباب الثاني في الجهة القبلية أما الباب الثالث فيقع في الركن الجنوبي الغربي من بيت الصلاة حيث يوصل إلى حرم الجامع المنصوري، وهي تمتاز عن بقية مدارس طرابلس الخالية من المنابر بإحياء صلاة الجمعة والأعياد فيها[٢].

ولا غرابة إذاً أن يطلق عليها المؤرخ «ابن ايبك» اسم «جامع الأمير قرطاي»[٣].

كذلك فإن للمدرسة جدارين شرقيين وجدارين شماليين أحدهما داخلي والآخر

(١) عبد العزيز سالم: طرابلس الشام ص٤١٨.
(٢) تدمري: آثار طرابلس الإسلامية ص١٨٤.
(٣) ابن ايبك: الدر الفاخر ص١٩١.

خارجي، وبين كل من الجدارين في الجهتين فراغ بحيث يتسع لمرور شخص بينهما، كما أن المدرسة تقوم فوق قاعة يبلغ عمقها إلى مستوى ارض الجامع المنصوري أي نحو المترين، وكانت القاعة وهي تساوي مساحة المدرسة تستخدم مخزناً للسلاح في عصر المماليك ولها درج سري تحت بلاط مدخل الباب الجنوبي للمدرسة[١]. (ولقد شاهدت المدرسة بنفسي واطلعت على كل تفاصيلها ونقوشها). أما بوابة المدرسة الرئيسية فتعتبر من اروع البوابات المملوكية المماثلة[٢] إذ تمتاز بالتناسق والتناغم مع دقة التصميم.

فالبوابة قطاع مستطيل مجوف ينزل اليها بدرجتين وعلى جانبيها مصطبتان من الحجارة والمصطبتين عند باب جامع العطار الشرقي، ومصطبتي جامع البرطاسة، وغيره[٣].

وواجهة جدار المدرسة والبوابة مبنية بالحجارة الرمادية والسوداء، وتنقسم واجهة الجدار قسمين. علوي وسفلي، وتنفتح في هذه الواجهة نافذتان حولهما نقشت زخرفة لطيفة. أما عتبة باب المدرسة فهي قطعة ضخمة من الرخام يعلوها مثلث متسع الأضلاع يشبه المثلث الموجود فوق الباب الواقع داخل «جامع طينال» بين الحرمين ونقش داخل هذا المثلث[٤] «بسم الله الرحمن الرحيم» وفي وسط عتبة الباب المذكورة توجد لوحة رخامية بشكل عامودي نقشت عليها آيات من القرآن الكريم في خمسة اسطر هي:

س١ ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى﴾.

س٢ ﴿جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ٱدْخُلُوهَا﴾.

س٣ ﴿بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ. وَنَزَعْنَا مَا فِى﴾.

س٤ ﴿صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا﴾.

س٥ ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾[٥].

وفوق مثلث البسملة عقد مقوس من الرخام الأبيض والأسود، ونلاحظ نفس الشيء على بوابة جامع طينال الداخلية، مما يجعلنا نميل إلى احتمال أن مهندس البوابتان واحد إذ بنى جامع طينال بعد سنوات قليلة من بناء المدرسة القرطاوية[٦].

---

(١) تدمري: آثار طرابلس الإسلامية ص١٨٤.

(٢) الدكتور سالم: طرابلس الشام ص٤٢٠.

(٣) تدمري: آثار طرابلس الإسلامية ص١٨٥.

(٤) المصدر نفسه ص١٨٦.

(٥) قرآن كريم: سورة الحجر، الآيات ٤٥، ٤٦، ٤٧.

(٦) تدمري: آثار طرابلس الإسلامية ص١٨٧.

وصف المدرسة من الداخل:

يواجه الداخل إلى المدرسة حوض رخامي للوضوء مربع الشكل يقوم وسط بلاط المدرسة الشمالي المتوسط بين الرواقين: الغربي والشرقي وتتوسط الحوض نافورة رخامية. ويتألف حرم المدرسة من ثلاث اروقة: اكبرها الرواق القبلي (الجنوبي) ويبلغ طوله من الشرق إلى الغرب ١٩،٥م وعرضه ٦،٨٠امتار. ثم رواقان: شرقي وغربي يفصلهما عن الرواق القبلي عضاضتان، احدهما (١،٢٠ ف ٢،٠٠سم) والأخرى (٠،٨٠ ف ٢،٠٠سم) ويبلغ طول كل من الرواقين المذكورين، من الشمال إلى الجنوب ٦،٧٠ امتار وعرض كل منهما ٥،٤٠ امتار[١].

وفوق حوض الوضوء ترتفع قبة بها اربع نوافذ، وتعلو مدخل المدرسة الشمالي سدة خشبية مرتفعة، وفوق السدة تنفتح في الجدار الشمالي نافذة دائرية شبيهة بالنوافذ الدائرية الموجودة في الجامع البرطاسي[٢].

وهناك قبة اخرى فوق المحراب والرواق القبلي تقوم على مقرنصات مثلثة تنفتح فيها ١٢ نافذة. أما رواقات المدرسة فترتفع على البلاط الذي يضم حوض الوضوء بأكثر من نصف متر. ويزدان جدار المدرسة القبلي وقسم من الجدار الغربي الرخام الملون. ويمتاز المحراب بالزخرفة الهندسية المتناسقة[٣]، والفسيفساء التي تعلوه والعامودين الرخاميين على جانبيه. وفي نهاية الرواق الغربي إلى الشمال يوجد حجرة ضريح تعلوه قبة صغيرة، وبها تربة لا تحمل اية كتابة، تضم رفاة الأمير قرطاي باني المدرسة إذ انه توفي بطرابلس، ودفن في مدرسته التي أنشأها كما جاء في مصادر ترجمته[٤].

---

(١) المصدر نفسه ص١٨٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) Les monuments de tripoli, p.27.

(٤) تدمري: آثار طرابلس الإسلامية ص١٨٩.

الفصل الثاني

الداخلية في المدارس الشامية المملوكية

مقدمة :

عرف المسلمون النظام الداخلي في دور العلم منذ عهد مبكر. فمنذ شيد الأزهر منذ اكثر من الف عام، استقبل هذا المعهد العظيم افواج الطلاب من بلدان العالم الإسلامي كله[١]. وكان كثير من هؤلاء يلازمون الإقامة فيه، ولكل طائفة رواق يعرف بهم، وتحمل الأطعمة اليهم والخبز والحلوى بانتظام.

ويذكر المقريزي: «أن عدتهم في سنة ثمان عشرة وثمانمائة للهجري بلغت سبعمائة وخمسين رجلاً ما بين عجم وزيالعة ومن ريف مصر ومن مشارقه ومغاربه»[٢].

وفي العراق كانت الداخلية بالمدارس النظامية شيئاً اساسياً ولقد ذكر الأصفهاني ما نصه «وسكن المدرسة النظامية ببغداد من جملة الشريعة رجالها»[٣]. وكانت المدرسة المستنصرية غاية في الفخامة، وكان الملتحقون بها من طلاب ومدرسين ينعمون بسخاء الخليفة وكرمه في الإنفاق عليهم.

أما عن بلاد الشام وهو موضوعنا فقد اجمعت كل المراجع على أن الداخلية كانت تُعدّ مرفقاً هاماً من مرافق مدارسها[٤]. وقد زرت هذه البلاد ورأيت عدة من مدارسها الأثرية في دمشق وحلب، وكان في كل منها أمكنة مخصصة لمبيت الطلاب.

وتعتبر المدرسة النورية الكبرى التي أوردنا عنها دراسة مفصلة نموذجاً صادقاً لمدارس الشام وللنظام الداخلي بها.

وللطالب في القسم الداخلي آداب فصّلها ابن جماعة في كتابه «تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم» نورد طرفاً منها:

---

(١) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٣٨٢.

(٢) المقريزي: الخطط ج٢ ص٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٣) الاصفهاني: زبدة البصرة ص٦٢.

(٤) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٣٨٢.

يهتم ابن جماعة بهذا المجتمع الذي سيقوم في المدرسة، ولهذا يرى أن تُخَصّص الداخلية إلى الطلاب الذين عرفوا بحسن اخلاقهم وسماحتها حتى يكونوا في الداخلية متوادين متحابين، كما يرى أن تكون الداخلية المخصصة للفتيات في أمكنة منعزلة لا يكثر أن يمر بها الرجال على أبوابها اولها كوى تشرف على ساحة المدرسة[١].

وإذا سكن الطالب في البيوت العليا خفف المشي والإستلقاء عليها، وخفف وضع ما يثقل كي لا يؤذي من تحته[٢] ولا يجلس أو يقف على باب المدرسة أو في صحنها، ويقلل الدخول والخروج بما أمكنه، وألا يعمل ما يؤذي زملاءه الساكنين ويتجنب على العموم كل العادات القبيحة، وأن يكرم أهل المدرسة التي يسكنها بإفشاء السلام وإظهار المودة والإحترام ويرعى لهم حق الجيرة والصحبة والأخوة في الدين والحرفة لأنهم أهل العلم وحملته وطلابه[٣].

وإذا حصر الواقف سكنى المدرسة على المرتبين بها دون غيرهم لم يسكن فيها غيرهم[٤]. وسكنى الطلبة في منازل المدارس ورباطها (هم الذين يجري عليهم ادرار من اوقاف المدرسة). من أهم الأمور التعليمية لاحظها الحاذقون في المهات التدريسية والمتكافلون بأمور التربية لكن إقامة الطلبة في بيوت المساجد وغرفات الجرامع ودور الخوانك في أيام التحصيل والتعلم كانت جارية قبل بناء المدارس وتعميرها في البلدان بتأسيس الوزراء وتشييد السلاطين لأن العلماء القدماء كرهوا استعانة الأمراء في نشر العلوم وجميع الفنون قبل ذلك الزمان[٥].

وإذا سكن في المدرسة غير مرتب بها فليكرم أهلها ويقدمهم على نفسه فيما يحتاجون إليه منها ويحضر درسها لأنه اعظم الشعائر المقصودة ببنائها ووقفها لما فيه من القراءة والدعاء للواقف والإجتماع على مجلس الذكر وتذاكر العلم فإذا ترك الساكن فيها ذلك فقد ترك المقصود ببناء مسكنه الذي هو فيه وذلك يخالف مقصود الواقف ظاهراً[٦].

فإن لم يحضر غاب عنها وقت الدرس لأن عدم مجالستهم مع حضوره من غير عذر إساءة أدب وترفع عليهم واستغناء عن فوائدهم. وإن حضر فيها فلا يخرج في حال اجتماعهم من بيته إلا لضرورة ولا يتردد إليه مع حضورهم ولا يدعو إليه احداً أو يخرج منه احداً ولا يتمشى في المدرسة أو يرفع صوته بقراءة أو تكوار أو بحث رفعاً

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٢٢٩.
(٢) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٢٣٠.
(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٢٢١.
(٤) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٢١٠.
(٥) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٢١١.
(٦) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٢١٦.

منكراً أو يغلق بابه أو يفتحه بصوت ونحو ذلك لما في ذلك كله من اساءة الأدب على الحاضرين والحمق عليهم[١].

أن لا يشتغل فيها بالمعاشرة والصحبة ويرضي من سكنها بالسكة والخطبة بل يقبل على شأنه وتحصيله وما بنيت المدرسة له يقطع العشيرة منها جملة لأنها تفسد الحال وتضيع المال[٢]. ويتابع ابن جماعة يقول: «فإن المدارس وأوقافها لم تجعل لمجرد المقام والعشرة ولا لمجرد التعبد بالصلاة والصيام كالخوانك بل لتكون معينة على تحصيل العلم والتفرغ له والتجرد عن الشواغل في أوطان الأهل والأقارب، والعاقل يعلم أن ابرك الأيام عليه يوم يزداد فيه فضيلة وعلماً ويكسب عدوه من الجن والأنس كرباً وغماً»[٣].

وأن يلزم اهل المدرسة التي يسكنها بإفشاء السلام واظهار المودة والإحترام ويرعى لهم حق الجيرة والصحبة والأخوة في الدين والحرفة لأنهم اهل العلم وحملته وطلابه. وأن يختار الطالب لجواره إن امكن اصلحهم حالاً واكثرهم اشتغالاً واجودهم طبعاً واصونهم عرضاً ليكون معيناً له على ما هو بصدده ومن الأمثال (الجار قبل الدار) والمساكن العالية لمن لا يضعف عن الصعود اليها أولى بالمشتغل واجمع لخاطره إذا كان الجيران صالحين وقد تقدم قول الخطيب أن الغرف أولى بالحفظ[٤].

ويقول ابن بطوطة: «ومن عوائدهم بالطعام أنه يأتي خديم الزاوية إلى الفقراء صباحاً فيعين لكل واحد ما يشتهيه من الطعام فإذا اجتمعوا للأكل جعلوا لكل انسان خبزه ومرقه في اناء على حدة لا يشاركه فيه احد، وطعامهم مرتان في اليوم ولهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف ومرتب شهري من ثلاثين درهماً للواحد في الشهر إلى العشرين ولهم الحلاوة من السكر في كل ليلة جمعة والصابون لغسل اثوابهم والأجرة لدخول الحمام، والزيت للإستصباح وهؤلاء هم اعزاب، أما المتزوجين لهم زوايا خاصة بهم ومن المشترط عليهم حضور الصلوات الخمس والمبيت بالزوايا...»[٥].

المستوى العلمي لطلاب المماليك:

كان لهذا التعليم نتائج يمكن اعتبارها حسنة، فلقد كان الطلاب يقدمون نتائج باهرة في السنوات الأولى من حياتهم وذلك في الحفظيات، فابن طولون مثلاً يقول: «أنه حَفّظَ القرآن الكريم، وصلى به في الجامع الأموي في رمضان سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م، وكان الختم ليلة ٢١ منه، وحضر خلفه في الصلاة شيخ الإسلام زين الدين

(١) المصدر نفسه.

(٢) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٢١٦ ـ ٢١٧.

(٣) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٤) ابن جماعة: تذكرة السامع ص٢٢٣.

(٥) ابن بطوطة: رحلة... ج١ ص٢٣ ـ ٢٤.

العيني بمحل تدريسه بالجامع الأموي[١]. وقد كانت سنه آنذاك حوالي سبع سنوات أو ثمان، وقرائن الحال تنفي ذلك، فإن الطالب كان يجمع حتى الثانية عشرة من عمره كمية لا بأس بها من المحفظيات والعلوم». ويذكر غيره أن صبياً ختم القرآن سنة ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م، ثم يقول: «ولم يصلِّ القرآن في هذه السنة من الصغار غيره». مما يقطع بأنه جرت العادة أن يصلي الصغار بالقرآن الكريم في رمضان[٢].

والحافظ ابن كثير يذكر أنه ختم القرآن الكريم مع الشيخ نور الدين الشويكي وعمره عشر سنوات[٣].

ويتحدث ابن طولون عن صبي في الثامنة اسمه زين العابدين المصري، خطب على مقصورة الجامع الأموي، وأكرمه جماعة ثم داروا به حول السور، ثم يقول: «ولم يصلِّ الولد بجميع القرآن وإنما صلّى بربعه، وعادة الشاميين أن يصلوا بالقرآن كله»[٤].

ونحن لا نستطيع الإدعاء بأن هذه كانت حال جميع الطلبة، كما أنها ليست حوادث نادرة أو غير مألوفة، فهي تعطي فكرة حسنة عن المردود العلمي الحسن الذي كان يقدمه الطلبة في مراحل حياتهم، في العصر الذي يسميه بعضهم «عصر الإنحطاط». ولقد كان نظام التعليم الداخلي، الذي كان سائداً، يعطي مردوداً مضاعفاً يزيد منه مبدأ المثوبات والعقوبات الذي كان مطبقاً على الطلبة، فقد كانوا يختصون بعضهم بزيادة راتبه، أو يعطونه «عيدية» أو يقدمون الحلوى للطلبة[٥].

ولنتساءل كيف كان المستوى العام للحركة العلمية في أواخر عصر المماليك؟

لقد كانت طريقة التعليم تلك، تخرج حفظة العلوم وهذا عيبها، لأنه لا يمكن للحفظ وحده أن يجعل الإنسان عالماً، لقد كان تلك الطريقة تخرج مُرددين لما في الكتب أكثر من تخريجها عُلماء يُبدون آراءهم فيما يحفظونه.

لذلك كانت تسيطر عليهم جميعاً فكرة لا تزال تتردد إلي اليوم، وهي أن باب الإجتهاد قد اقفل منذ قرون، ولا مجال للإجتهاد أو الرأي في العلوم الدينية بل والأدبية.

وكانت المدارس الفقهية لا تقدس رأي إمامها فحسب، بل وتقدس كل تلك الإضافات التي اضافها المتأخرون على المذاهب الأربعة، على شكل حواشٍ وهوامش، وحواشي على الحواشي السابقة وهكذا، فبدت هذه الكتب وقد ناءت

(١) ابن طولون: الفلك المشحون ص٧.
(٢) ابن طولون: مفاكهة الخلان ج١ ص٥٧.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤ ص٣١٢.
(٤) ابن طولون: مفاكهة الخلان ج١ ص٢٤٨.
(٥) احمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ص٢٣٠.

بالزيادات التي حملوها اياها، واصبح يكاد يكون من المتعذر على الإنسان الساذج أن يتعرف، من خلال هذه الكتب، على حكم الشرع في مسألة مألوفة من مسائل العبادات أو المعاملات، ويضطر للذهاب إلى «رجال الدين» الذين احتكروا لأنفسهم حق التفسير والتأويل، واصبحت العلوم الدينية عسيرة على الفهم لكثير من الناس، واصبحت كتب المذاهب تحوي آراء المتأخرين أكثر من حملها لآراء الأئمة الأربعة الذين لم يعد لهم من مذاهبهم إلا الاسم تقريباً.

يضاف إلى ذلك أن انتشار الأحقاد والمنافسات بين المشتغلين بالعلوم الدينية، اتاح لعامة الناس الحصول على فتاوى كثيرة للمسألة الواحدة يختار السائل منها ما يعجبه. وقد قاد التعصب المذهبي اتباع المذاهب إلى مخالفة اوضح قواعد الشرع في سبيل التمسك بمذاهبهم، مثلاً على ذلك أن الناس كانوا يصلون التراويح في الجامع الأموي بإمامين منفصلين في آن واحد اولهما حنفي، والآخر شافعي، وكان يحصل للمصلين التباس في صلاتهم نتيجة ذلك، وقد اشتكى بعضهم إلى نائب دمشق ـ جان بروي الغزالي ـ من ذلك فرأى كل إمام يوماً بالتناوب بينهما، وقد علق ابن طولون على ذلك بقوله: «ولم يسهل ذلك على متعصبي الشافعية»[1].

وهكذا خرج التعصب بالناس عن روح الشرع وجعل مهمة تعلم الأمور الدينية مهمة جافة وعسيرة مع ما هي عليه ـ في الواقع ـ من وضوح ويسر وسهولة ومن هنا كانت المحنة التي تعرض لها فقيه الشام ابن تيمية من «رجال الدين» لأنه حاول كسر تلك الاطواق، ذلك انهم رأوا في دعوته لإبقاء باب الإجتهاد مفتوحاً، أمراً خطيراً ومرفوضاً من جميع الوجوه، فحاربوه بشتى الصور، وانتهت حياته بالموت في سجن القلعة، وقد كان عامة أهل دمشق يحبونه[2] ويتفهمون نظريته الدايمة إلى العودة بالدين إلى الكتاب والسنة، ونبذ الجمود والقيود التي اثقلت كاهل الحركة العلمية.

ولذلك يمكن القول: إن ابن تيمية، وقلة معه، هم الذين شذوا عن القواعد الجامدة في التعليم الذي كان سائداً في عصر المماليك وخرقوها، ليخرجوا بآراء جديدة تحترم القديم ولكنها لا تصل به إلى دوجة التقديس. وقد اعتمدت هذه الفئة على نظرية مفادها: «أنه يجب العودة إلى القرآن الكريم، وما صحّ من السنة، وفهم الإسلام وعلومه من خلالهما، بغضّ النظر عن الآراء والإجتهادات والفتاوى التي

---

(١) ابن طولون: مفاكهة ج٢ ص١١٨.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة ج١ ص٥٧ ـ والذي حضر له درساً في الجامع الأموي نعارضه فقيه مالكي، فقامت العامة الى هذا الفقيه، وضربوه بالايدي والنعال... لكن العلماء تمكنوا فيما بعد من ادخال ابن تيمية السجن.

اضيفت إلى الشريعة، على مر السنين، عن طريق عشرات من اتباع المذاهب الأربعة. وهذه هي نظرية محمد بن عبد الوهاب التي اجتاحت الشرق الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر.

والخلاصة أن طريقة التعليم في عصر المماليك كانت تهتم بالحفظيات وتقدم فيها نتائج حسنة في الوقت الذي تهمل فيه المناقشة والتفكير والتساؤل والتي هي روح العلوم.

أما عن المستوى العلمي لعامة الشعب، فإننا نعتقد أن وجود مئات المساجد وأماكن العلم الأخرى في مدن الشام وتردد الناس والطلاب على حضور الدروس فيها، كان يساعد على وصول العلم لجميع فئات الشعب، لكننا لا ندري إلى أي حدٍّ كانوا يستفيدون من ذلك؟.

الاجازات والشهادات العلمية في العصر المملوكي:

كان المشتغلون بالعلوم في العصر المملوكي يحرصون ـ في بدايات عمرهم ـ على الحصول على ما يمكن تسميته اليوم بالشهادات التي تثبت كفاءتهم، وهذه الشهادات تتفاوت بين «**السماعات**» و «**الاجازة بعراضة الكتب**» واخيراً «**الاجازة العامة**» التي تؤهل صاحبها للإفتاء والتدريس.

١ ـ **فأما السماعات**: (ومفردها سماع)، فهي أن يكتب الشيخ في آخر كتاب اسماء الذين سمعوا عليه الكتاب، والمواضع التي فاتت على الطالب، يعبر عنها بقوله «مع فوت»[١].

وتكتب هذه السماعات عادة على كتاب الشيخ، أو كتاب الطالب نفسه، وهو الأرجح وهي ابسط الشهادات العلمية، ولا تعني شيئاً للطالب، كما أنها لا ترفع من منزلته العلمية... فهي تبني حضور الطالب لا اكثر... وقد حصل ابن بطوطة على سماعات من عشرات العلماء بدمشق لكتب سمعها عليهم[٢].

٢ ـ **وأما «الاجازة بعراضة الكتب»**: فهي أن يحفظ الطالب كتاباً ويقدم نفسه طواعية لشيخه أو أي شيخ، وطلب منه إجراء امتحان له في هذا الكتاب، فيفتح الشيخ صفحات من مواضع شتى من الكتاب ويستقرئه إياها، فإن مضى الطالب من غير تلعثم ولا توقف، استدل بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب، وكتب بذلك اجازة على ورقة صغيرة. من ذلك أنه لما عرض ابن طولون ـ وهو في الرابعة عشرة ـ

(١) اكرم العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص١٩٠.
(٢) ابن بطوطة: رحلته ج١ ص٦٦.

على شيخ الشافعية تقي الدين ابن قاضي عجلون كتبه التي تعلمها، كتب له القاضي المذكور:

«عرض عليّ الولد المبارك اللبيب الأديب... عرضاً حسناً محرراً متقناً ذلك على حفظه لجميع الكتب المذكورة، أعانه الله على درايتها كما وفقه لروايتها»[(١)].

ومن ذلك أيضاً عرض ابن طولون الكتاب المختار في الفقه على شيخه الشمسي رمضان في مجالس آخرها نهار الاثنين ٧ ربيع الأول سنة ٨٨٩هـ/ ديسمبر سنة ١٤٩٣م، وقد اجيز ابن طولون أن يذاكر فيه من شاء[(٢)].

٣ ـ **وأما الاجازات العامة فصورتها**: اذن لفلان... أن يدرس مذهب الإمام... وأن يقرأ ما يشاء من الكتب المصنفة فيه، وأن يفيد ذلك لطالبيه، حيث حلّ وأقام، وكيف شاء، ومتى شاء، واين شاء، وأن يفتي من قصد استفتاءه خطأ ولفظاً على مقتضى مذهبه الشريف... لعلم بديانته وامانته.

فليتقّ الله، ولا يستنكف أن يقول فيما لا يعلم: «لا اعلم... فذلك قول سعد قائله، وحسبنا الله ونعم الوكيل...»[(٣)].

وإن كان الشيخ بعيداً عن محل إقامة الطالب، فإن هذا يرسل له طالباً منه الإجازة «بالمراسلة» وصورتها مختصرة:

«... ولما كان الشيخ الإمام... ممن نظم وكتب... فأراد أن يشرف قدري، ويعرف شكري... فطلب الإجازة مني وانا أحق بالأخذ عنه... فنعم، فقد استخرت الله تعالى، واجزت له ما يجوز لي تسميعه»[(٤)].

وقد جرت العادة أن كل عالم يزور دمشق أو القاهرة، أو غيرها، يأخذ من علمائها ما يسمى بالإجازة العامة. وواضح أن في هذه الإجازات شيئاً غير قليل من المجاملات لأنه غالباً ما يستوي مقام الشيخ مع طالب الإجازة، فيعتبره زميلاً له تلميذاً بعكس النوع الأول من الإجازات العامة الذي يعطيه الشيخ لتلميذه، فقد كان هذا النوع خالياً من المجاملات، بل أن فيه نصائح لا تقال إلا لطالب، وهي قول الشيخ: «ولا يستنكف أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم...».

وقد كان يجاز ـ احياناً ـ اولاد دون العاشرة، مجاملةً لآبائهم، ولذلك كله لم يكن الناس يعولون كثيراً على هذه الدرجات العلمية وإنما كانوا يحكمون على الإنسان

---

(١) ابن طولون: الفلك المشحون ص٧. القلقشندي: صبح الأعشى ج١٤ ص٣٢٧.
(٢) ابن طولون: الفلك المشحون ص١٩.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج١٤ ص٣٢٢ ـ ٣٢٥.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج١٤ ص٣٢٨.

بقدر ما يتقن من علوم، لا بمقدار ما يحمله من شهادات[١]. فالإجازة إذاً هي شهادة يمنحها الشيخ أو الأستاذ لطالب العلم لتفتح المجال امامه لينال حقه في التدريس ورواية ما درسه عليه واتقنه على يديه، والإجازة قد تكون عامة ينالهاالطالب نتيجة السماع المباشر، أو تكون خاصة من غير سماع، وقد تكون مستقلة أو مسطرة على الكتاب الذي اتم دراسته على الشيخ.

وقد ينال الطالب الإجازة نتيجة اتصال مباشر بالشيخ أو عدم اتصال به فقد جمع بعض الناس الإجازات لهم ولأبنائهم من الشيوخ، ووصل الأمر أن تعطى للمعدوم والصغير، واجاز بعض العلماء قبل وفاتهم علماء عصرهم رواية الحديث التي كانوا يعرفونها، وكانت الإجازة نظماً وشعراً. «وإذا اجاز الشيخ أو المدرس انساناً ومنحه الشهادة بعد الدراسة عليه حضوراً فهو شيخه بالإجازة».

وإذا اجاز الشيخ أو المدرس انساناً ومنحه الشهادة بعد الدراسة عليه حضوراً فهو شيخه بالسماع[٢]. فالتصريح بنشر ما يقرأ ويسمع يعتبر دليلاً على كفاية الطالب والذي يحصل على الإجازة كما تقول سيجريد هونكه: «يحصل في نفس الوقت على حق التدريس علانية أي اجازة التدريس، وهكذا نجد حق التأليف والإختراع العربي الذي كان يلازم انشاء المدارس العليا العربية ينتقل إلى الجامعات الأوروبية... والتي ما زلنا نجدها حتى اليوم في الدرجة اللاهوتية ليسانس اللاهوت وربما أيضاً البكالوريا وهي تقابل في العربية (الحق في تفويض رخص بالتدريس اعني بحق الرواية)»[٣].
ولقد جرت العادة أن تكتب الإجازات «في قطع عريض، أما في فرجة الشامي أو نحوها من البلدي، وتكون الكتابة بقلم الرقاع اسطراً متوالية بين كل سطرين نحو أصبع عريض»[٤]. ولهذه الكتابة اساليبها الخاصة، يذكر فيها بعض صفات وفضائل الطالب الصادرة إليه ومقدرته العلمية، والكتب التي قرأها على شيخه وقد تتنوع هذه الكتب فإما أن تكون من مصنفات الشيخ نفسه، أو من مصنفات غيره، وقد تقتصر الإجازة على إذن بتدريس مادة معينة أو مذهب فقهي معين والإفتاء به. وتحتوي الإجازة على البسملة والحمد لله ومقدمة في فضل العلماء ومكانتهم ومنزلة علم الشريعة، ومدح وتقريظ طالب الإجازة، مع مدح وتبيان مكانة الشيخ المجيز وسرد الغاية.

ولقد استطعنا عن طريق الإجازات أن نحصل على معلومات جغرافية وتاريخية

---

(١) اكرم العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص١٩٢.
(٢) ناجي معروف: تاريخ علماء امستنصريه ج٢ ص٤٧٨.
(٣) سيجريد هونكه: شمس العرب على الغرب فضل العرب على اوروبا ص٢٧٦.
(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج١٤ ص٣٢٢.

عن امكنة التعليم في العالم الإسلامي وعن تلك الرحلات التي كان يقوم بها العلماء والمتعلمون في انحاء العالم الإسلامي.

وكانت «الإجازة التحريرية المفصلة، خاصة تلك التي لا تكتب على ظهور الكتب بل تكون مستقلة وثائق صحيحة يمكن أن تتخذ بمثابة دليل على ثقافة العلماء الماضيين وما قرأوه أو سمعوه، أو اجيز لهم، دون قراءة أو سماع، من كتب أو معلومات شفهية[١].

إجازة أثير الدين أبو حيان الاندلسي[٢]، لصلاح الدين الصفدي (ت: ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م) قد اجزت لك ايدك الله تعالى لجميع ما رويته عن اشياخي في الاندلس وبلاد افريقيا وديار مصر والشام والحجاز وغير ذلك بقراءة أو سماع أو مناولة أو إجازة مشافهة... وجميع ما اخبرني أن ارويه بالشام والعراق وغير ذلك وجميع ما صنفته واختصرته وجمعته وأنشأته نظماً ونثراً وجميع ما سألت في هذا الاستدعاء[٣].

الإجازة الفخرية:

كانت تتخذ الإجازة في بعض الأحيان صفة فخرية، فتصدر من عالم كبير إلى زميله على سبيل الفخر والاعتزاز ويمثل ذلك «بالاستدعاء الذي قدمه العلامة ابن حجر العسقلاني وجماعة من زملائه المصريين إلى العلامة الفيلسوف ابن خلدون ليصدر لهم اجازة جماعية»[٤].

الإجازة في الطب:

وكانت الإجازة للطبيب «تتم في فن من فنون الطب أو كتاب معين فيه، فيتقدم إلى رئيس الأطباء ويطلب منه اجازته للإشتغال بالطب وكانت هذه الإجازة بنفس الطريقة السابقة ولكنها كانت تنقسم إلى قسمين: إجازة نظرية أو إجازة ممارسة أي أنه يمكن أن يجاز الطالب في كتاب معين أو فن معين لاقرائه أو لتدريسه فقط، ثم كانت تصدر إجازة أخرى للتصريح لصاحبها بالاشتغال[٥] بالطب وممارسته وربما تشمل الإجازة الواحدة على الاقراء والممارسة معاً» وفي الختام وفي ضوء ما عرضناه عن نظام الإجازات فهي من التقاليد التعلمية التي يمنحها الشيخ أو الأستاذ لطالبه دون

---

(١) عبدالله فياض: الاجازات العلمية عند المسلمين ص٤٢.

(٢) اثير الدين أبو حيان الاندلسي (ت: ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م) الإمام المفسر النحوي الغرناطي حصل الإجازات من الشام والعراق (الكتبي: فوات الوفيات ج٣ ص٧١ ـ ٧٢).

(٣) المقري: نفح الطيب ج٩ ص٣٧٣.

(٤) عبد الغني محمود عبد القاضي: التعليم زمن الايوبيين والمماليك ص٣١٧ ـ ٣١٨.

(٥) عبد الغني محمود عبد القاضي: التعليم زمن الايوبيين والمماليك ص٣١٧.

تدخل الدولة واعتبرت في منظار علماء الحديث من بين الوسائل السليمة التي يتم عن طريقها نقل مختلف العلوم وخاصة العلوم الدينية من جيل إلى جيل. هذا رغم ما وجه اليها من انتقادات وتجريح واستغلال وفوضى، وتذكرنا بتكرار هذه الظاهرة في عصرنا وفي ايامنا هذه حيث اخذت الإجازات تنهار وتنحدر في بعض البلدان ويحملها الكثيرون ممن لا يستحقونها.

مصير الحركة العلمية في اوائل الحكم العثماني:

لم تكد تمضي فترة وجيزة على دخول العثمانيين الشام حتى تدنت الحركة العلمية فيها تدنياً ظاهراً بسبب تعصب العثمانيين من جهة، ونضوب الموارد المادية للتعليم من جهة أخرى.

ذلك أنه منذ الأيام الأولى للفتح العثماني لدمشق طلب العثمانيون مستندات الوقف جميعها، ونقولها إلى التركية تمهيداً للسيطرة عليها وابتلاعها[١].

وفي جمادي الآخرة سنة ٩٢٦/مايو ١٥١٩م، امتنع حسين المشرفي العثماني مدرس الماردانية عن الحضور لجهله وكان غرضه الإستيلاء على اموال المدرسة ومنع ابناء العرب منها، وحضر بدلاً عنه حسن بن الشيخ عيسى، الأمر الذي يدل على تعصب العثمانيين ضد العرب منذ أيام الفتح الأولى[٢].

وأمّا المدرسة المرشدية، فلقد غاب ناظرها الشمس بن المنعة... ويقول ابن طولون بالحرف الواحد: «ولم يحضروا في هذا العام سوى المدارس المذكورة، وباقيها معطل، إما لخراب وقفها كالركنية، وإما لاستيلاء الحكام عليه كالظاهرية الجوانية، وإما لكون مدرسها صار من الأغراب كالمقدمية الجوانية فإن مدرسها ملّا عبد الرحيم المشرفي الرومي (العثماني) قد استوعب متحصلها - وكالخاتونية العصمتية، والشبلية الرانية، فإن مدرسها حمزة المشرقي الرومي، قد استوعب متحصل الأولى، وأما الثانية فاستوعبها ناظرها قاضي البلد، وكالريحانية فإن مدرسها أحمد المشرقي الرومي قد استوعب متحصلها وفرّ هارباً إلى غير ذلك عن الأسباب»[٣].

وفي رجب سنة ٩٢٦هـ/يونيو حزيران ١٥١٩، شكا جيران المدرسة المنكلائية على شهاب الدين الخيضري الناظر على المدرسة لأنها خراب تأوي اليها الكلاب...

(١) محمد بن كنان: حدائق الياسمين ص٨٥.
(٢) اكرم العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص١٩٣.
(٣) ابن طولون: مفاكهة ج٢ ص٢٠٩.

وهو متكلم عليها يأكل وقفها[1]. وأما أكبر مدارس دمشق وهي المدرسة العمرية بالصالحية فقد اضمحل امرها أيضاً، وبيع كثير من اوقافها، ولم تعد تجيز إلّا مرتين أو ثلاثاً في الشهر، وصارت خلاء، بها مخازن للآكلين من تكية السلطان سليم[2]، ولم يعد يجاور بها إلا بعض قراء القرآن وأدعياء العلم من العوام، أمّا ما ذكر عن الستين غرارة، وخمسة الآلاف درهم في رمضان، فكله بطل، ولم يبق إلا حلاوة ليلة النصف، وطعام رمضان بلحم، وبعض القماش، ولم يتجدد لها أوقاف إلى سنة ١١٢٣هـ/ ١٧١١[3].

ولم يقف الحال عند نهب الأوقاف، وإقفال معظم المدارس، بل تراجع أمر اللغة العربية، وحلت التركية محلها، فصارت لغة الدواوين والمحاكم، فقلّ عدد الذين يلمون بالعربية إلى حد كبير، واعتبرت لغتهم عجمية بادية، ولحن واضح، نلحظ ذلك كله في كتابات ذلك العصر[4].

ثم سيطرت روح الجمود المطلق على الفكر العربي، ذلك أنه إن كان ثمة أربع مذاهب فقهية رسمية في العصر المملوكي فقد أصبحت مذهباً واحداً في العصر العثماني هو المذهب الحنفي، وقد تعصب العثمانيون لهذا المذهب، ولم يقبلوا أي حجة أو مناقشة فيه، فتحول بذلك الجمود المذهبي السائد في العصر المملوكي إلى تحجر مطلق في العصر العثماني، لا تزال آثارة ماثلة إلى اليوم، ولا سيما في صفوف المشتغلين بالعلوم الدينية وهكذا تحول العلماء إلى وسيلة من وسائل التحذير الكثيرة التي سادت في العصر العثماني وصاروا يدعون إلى الإستسلام التام للأمر الواقع.

ولذلك فإننا لا نكاد نجد في العصر العثماني كله، مؤلفات تتمتع بشيء من الأصالة العلمية، وبالتالي لا نجد علماء يضاهون علماء العصر المملوكي... فقد انكب العلماء في العصر العثماني على تأليف الشعر البارد، وتخيل غرائب المسائل الفقهية والنحوية، ومحاولة وضع الحلول لها، وتأليف الملخصات، ووضع الحواشي على الحواشي... فاستهلكوا بذلك وقتهم ووقت الطالب الذي كان يضيعه في تعلم مصنفاتهم، والذي كان يخرج أشد تعنتاً وتحجراً من اساتذته[5].

وسيطرت البدع والخرافات في مجال الدين، وعندما وجه «السلفيون» من

(١) ابن طولون: مفاكهة ج٢ ص١١٣.
(٢) ابن طولون: مفاكهة ج٢ ص١١٨.
(٣) ابن كنان: المروج السندسية ص١٥٢.
(٤) اكرم العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص١٩٣.
(٥) اكرم العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ص١٩٥.

ضواحي دمشق رسالتهم إلى علماء المدينة ليناظروهم في شؤون الدين لم يجرؤ عالم واحد في دمشق على التصدي لهم ومجادلتهم، كما تقتضي روح الدين، واكتفوا بشتمهم وبالتهرب من اسئلتهم. . .[1].

وعلى هذا فإنه يمكنني القول: إن مرحلة الإنحطاط العربي قد سيطرت منذ دخول العثمانيين للوطن العربي وليس قبل ذلك. . .

(١) أنظر: رسالة عليان الضبي الى علماء دمشق في عهد الوالي يوسف باشا سنة ١٢٢٥هـ. وردود علماء دمشق عليه، في مخطوط بدار الكتب الظاهرية بدمشق رقمه ٢٤٠ عام «الاوراق من الورقة ١٥٧ لغاية الورقة ١٦٣».

الخاتمة

وخلاصة القول: «إن المدرسة في تلك العصر تقابل الجامعة في عصورنا الحديثة ولم يستخدم المسلمون طوال العصور الوسطى ـ وحتى العصور الحديثة ـ مصطلح الجامعة وإنما اطلقوا اسم المدارس على معاهد التعليم العالي. وإذا رأينا بعض الكتاب المحدثين يطلقون لقب جامعات على المدارس التي عرفها المسلمون في العصور الوسطى فإن هذا القول فيه تجاوز للحقيقة وعدم دقة في التعبير، وربما قصدوا بهذا الجهاز تقريب فكرة المدرسة في العصور الوسطى إلى فهم القارىء في العصور الحديثة.

وإن جمهرة الباحثين الذين تعرضوا لتاريخ التعليم في الإسلام، بالغوا في الربط بين العامل المذهبي (السني) من ناحية ونشأة المدرسة من ناحية أخرى. ولكن هذا الرأي الذي ردده في صورة أو أخرى بعض الكتّاب القدامى[1] والتقطه الباحثون المحدثون لا يمكن أن نسلم به تسليماً مطلقاً. ولنا كلمة نوجزها بعدة نقاط:

أولاً: إن المدرسة كمؤسسة لم تنشأ فكرتها فجأة وإنما جاءت هذه النشأة تدريجية وتطورت حتى اكتملت معالمها على ايام نظام الملك في بداية النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي.

ثانياً: إن من يدرس تاريخ الإسلام دراسة واعية يلمس في كثير من الحالات أن التيار الفكري العلمي كان أقوى من التيار المذهبي، بمعنى أن الرغبة في تحصيل العلم والمعرفة كثيراً ما كانت تجرف في طريقها النزعات والإتجاهات المذهبية ومثال على ذلك عندما تأسس الجامع الأزهر في القاهرة على ايام الدولة الفاطمية سنة ٣٥٩هـ/ ٩٧٥م، أراد به أن يكون مركز لعلوم الشيعة ولتدريس الفقه الشيعي، وإن تيار الفكر في الإسلام كان أقوى من الهدف المحدد، فلم تمض سنوات على إنشائه حتى جلس فيه بعض علماء السنة خلال حكم الدولة الفاطمية نفسها لتدريس الفلسفة والمنطق والطب والرياضيات وغيرها[2].

(١) الزركشي: اعلام المساجد ص٣٣، المقريزي ج٢ ص٣٦٢.

(٢) محمد عنان: تاريخ الجامع الأزهر ص٥٦.

ومثل هذا يقال عن دار الحكمة في طرابلس الشام التي افتتحها الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة (٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م) فإذا كان مقصوداً بهذه المؤسسة أن تكون مركزاً لعلوم الشيعة وإعداد المتخصصين ليصبحوا دعاة لهذا المذهب إلا أنها لم تلبث أن تحولت إلى اكاديمية علمية بكل معنى الكلمة «فجلس فيها القراء والفقهاء والمنجمون والنحاة واصحاب اللغة والأطباء وحصل فيها من الكتب في سائر العلوم ما لم ير مثله مجتمعاً. . . وإن الخليفة الحاكم الفاطمي نقل إليها كثيراً من الكتب التي تتعلق بالسنة»[(١)].

فالعلم إذن في الإسلام لم يعرف حدوداً مذهبية ضيقة وحسبنا أن نشير إلى أن رسائل أخوان الصفا التي تعبّر عن مرحلة من أرقى مراحل الفكر الإسلامي في شتى العلوم من فلسفة وطب وفيزياء وكيمياء وغيرها يبدو لنا أنها من وضع مجموعة من علماء الشيعة[(٢)].

وادرك الإمام الغزالي خطورة النظرة المذهبية الضيقة في الإسلام وأهله وتراثه فأوصى «بإمساك اللسان عن تمزيق اعراض أهل القبلة».

ومهما يقال لغوياً من أن الأصل في المدرسة: أن تكون مكاناً لدراسة العلوم الدينية فإن الذي يجب أن نؤكده هو أن المدارس المملوكية غدت جامعات بالمعنى الصحيح والحديث الذي نعرفه، سواء من ناحية تنوع الدراسات التخصصية ورقي مستواها فيها، أو قدرتها على استيعاب طلاب العلم الوافدين اليها من شتى الأمصار. هذا مع ملاحظة أن المدرسة ظلت مكاناً تقام فيه الشعائر الدينية وإنها استعملت أيضاً كمسجد تقام فيه الصلوات الخمس، فضلاً عن صلاة الجمعة والعيدين[(٣)]. وفي نفس الوقت فإن قيام المدرسة في تلك العصر لم يضع حداً للرسالة التي ظلت تنهض بها المساجد والجوامع كأماكن للتدريس، وإن كانت قد خففت من دورها في هذا الشأن. ومع ذلك ما نسمعه من أن بعض الحكام رتبوا دروساً بالجوامع زمن ازدهار حركة المدارس (زمن السلطان لاجين) المملوكي وبعبارة أخرى فإن المدارس كانت مكان عبادة ودرس، مثلما ظل المسجد مكان عبادة ودرس.

وكل ما في الأمر هو أن المدرسة غلبت عليها صفة الدراسة، والمسجد غلبت عليه صفة العبادة[(٤)]، هذا فضلاً عن أن المسجد استخدم في اغراض أخرى غير العبادة

---

(١) العيني: عقد الجمان حوادث سنة ٤٠٠هـ.

(٢) رسائل اخوان الصفا ـ طبعة القاهرة ١٩٢٨.

(٣) المقريزي: المواعظ ج٢ ص٣٧١ ـ ٣٧٤ ـ ٣٩٤.

(٤) سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى ص٤٤٦.

والدرس مما لا نظير له في المدرسة. ويضاف إلى ذلك أن المدرسة تميزت غالباً بمساكن لطلاب العلم والمدرسين، مما لا نظير له في المسجد أو الجامع، وربما الحق بها مدفن لمؤسسها وسبيل للشرب يعلوه مكتب لتعليم الأيتام[١].

وبسبب هذا التشابه بين المدرسة والجامع في الوظيفة نجد أنهما متقاربان إلى حد بعيد في التصميم الداخلي وفي الشكل الخارجي، فكان للمدرسة من الخارج مئذنة أو أكثر يؤذن عليها المؤذنون في وقت الصلاة واشترط في هؤلاء المؤذنين أن يكونوا «عارفين بالأوقات، يعلنون بالآذان الشرعي في المئذنة التي تنشأ على الباب ليلاً ونهاراً، وإقامة الصلوات، والتسبيح والتذكار في الاسحار، على ما يراه الناضر[٢]، متناوبين أو مجتمعين وعلى ما يراه من ترتيبهم في القبة والمدرسة»[٣].

وقد أدى هذا التشابه الكبير في الشكل والتصميم بين المدرسة والجامع إلى خلط الناس والكتاب بينهما، وما زال العوام ومتوسطو الثقافة يطلقون على المدرسة أحياناً اسم جامع.

وكان إنشاء مدرسة جديدة في العهد المملوكي كما في العهود الماضية الإسلامية يعتبر حدثاً فخماً «فيحتفل بإفتتاحها احتفالاً جليلاً يحضره الحاكم وأمراؤه حيث يحيط بهم في صحن المدرسة الفقهاء والقضاة والأعيان، ويُمدّ سماط زاخر بمختلف الوان الأطعمة والحلوى والفاكهة، وفي نهاية الحفل ينعم السلطان بالخلع على كل من اسهم في بناء المدرسة من المعلمين والبنائين والمهندسين[٤] كما يعين للمدرسة موظفيها من المدرسين والفقهاء والمؤذنين والقراء والخدم وغيرهم[٥].

ولكي تجد المدرسة مورداً ثابتاً من المال يمكنها من مواصلة رسالتها في هدوء واطمئنان، وخاصة في عصور لم تكن الدولة سياسة تعليمية ثابتة المعالم واضحة الأركان، فإن مؤسسي المدارس ـ وخاصة في أواخر العصور الوسطى عندما ازدهرت تلك المؤسسات التعليمية وانتصرت ـ حرصوا على وقف الأوقاف والأحباس عليها، مثلها مثل غيرها من المنشآت الخيرية والدينية كالمساجد والزوايا والخانقاوات والبيمارستانات وغيرها[٦] وقد بلغت الأراضي المحبوسة على المدارس والمساجد

(١) المقريزي: المواعظ ج٢ ص٣٩٩. حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الاثرية ج١ ص١٦٨.
(٢) أي ناظر الوقف الذي ينفق من ريعه على المدرسة.
(٣) النويري: نهاية الارب ج٣٠ ورقة ٣٤١ب.
(٤) ابن المحاسن: النجوم الزاهرة ج٥ ص٣٨١.
(٥) ابن حجر: أنباء الغمر ج١ ص٧٧٢.
(٦) سعيد عاشور: تاريخ العصور الوسطى ص٤٤٨.

والزوايا في الشام ومصر قرابة منتصف القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي) مائة وثلاثين الف فدان من اجود الأراضي الزراعية[١]، لم تقتصر الأوقاف على الأراضي بل شملت كثيراً من البيوت والأسواق والمعاصر وغيرها[٢] من الطواحين والدكاكين. . .

وهكذا جرت العادة أن ينشأ الحاكم أو الأمير أو فاعل الخير المدرسة، ويقف عليها الأوقاف الواسعة لينفق من ريعها على المدرسة وعلى موظفيها من مدرسين وشيوخ فضلاً عن طلاب العلم المسجلين فيها، حتى ينصرف الجميع إلى آداء رسالتهم في جو من الإطمئنان وراحة الفكر.

أما بالنسبة لطلاب العلم، فإن التعليم في المدارس المملوكية لم يكن مجانياً فحسب، بل كفل لهم أيضاً المسكن والكساء والغذاء، فضلاً عما تقرر لهم من مقررات نقدية وعينية تصرف «في كل شهر من شروط الأهلة» وفق شروط الواقف.

والواقع أن أهم ما امتازت به المدرسة في العصر المملوكي، هو ذلك المناخ العلمي السليم الذي تهيأ لها في ظل مجموعة من القيم والمثل الكريمة. وقد وصف المقريزي إحدى مدارس عصره بأنها كانت «محترمة للغاية يجلس بدهليزها عدة من الطواشية ولا يمكن غريب أن يصعد إليها. . .»[٣].

هذا إلى أن وظيفة التدريس بالمدرسة كانت جليلة القدر، ينعم السلطان على صاحبها بخلعة تقديراً له[٤]، ويصدر له توقيعاً ـ أي مرسوماً ـ في ديوان الإنشاء يختلف باختلاف المادة التي يدرسها المدرس. وفي هذا التوقيع أو المرسوم يقدم السلطان النصح للمدرس بأن يظهر «مكنون علمه» للطلاب، ويقبل على الدرس وهو طلق الوجه منشرح الصدر، ليستميل إليه طلبته «ويربيهم كما يربي الوالد ولده»[٥]، كذلك طلب من المدرس «أن ينظر في طلبته ويحثهم كل وقت على الإشتغال»[٦]. وللمدرس مكانة مرموقة بالمجتمع المملوكي على أن بعض المدرسين كانوا يتوسطون في فضّ الخلافات بين الحكام وكبار الأمراء، وعندئذ تستجيب الأطراف المتنازعة لوساطتهم[٧]. بل أن بعضهم كان يجالس السلاطين ويقدم لهم النصح ويغلظ عليهم

---

(١) المقريزي: السلوك ج٤ ص٨٤ ـ ٨٥.

(٢) Ibrahim Salama: L'enseignement islamique, p.67.

(٣) المقريزي: المواعظ ج٢ ص٣٨١.

(٤) السخاوي: التبر المسبوك ص٢٠٤.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى ج١١ ص٢٤٦.

(٦) النويري: نهاية الارب ج٣٠ ورقة ٣٤١.

(٧) المقريزي: السلوك ج٣ ص١ ـ ٣٧٩.

في القول إذا جانبوا الصواب[1] وكان كبار الحكام والسلاطين يتطلعون لإحضار العلماء وائمة المدرسين من الأمصار البعيدة للتدريس في مدارسهم حيث يحظون بكل إجلال واحترام[2].

وهذا الإحترام الذي حظي به العلماء والمدرسون في تلك العصر لم يقتصر على الحكام وإنما شمل عامة الناس، حتى أنه عندما توفي جلال الدين السيوطي في مصر صلي عليه صلاة الغائب في الجامع الأموي بدمشق[3].

وبقدر ما توافر للحضارة العربية الإسلامية من قدرة على التطور والتجديد والإبتكار وعدم الجمود في مجال النظم، شهد قيام المدارس وظيفة جديدة عرفتها الجامعات الأوروبية الحديثة هي وظيفة المعيد. لأن الوضع جرى في المدارس المملوكية على تعيين معيد أو أكثر لكل مدرس، وسمي معيداً لأن مهمته الأساسية أن يعيد للطلبة ما ألقاه عليهم المدرس ليفهموه ويحسنوه كما يشرح لهم ما يحتاج إلى الشرح[4].

ـ **أما الطلبة**: فقد تمتعوا بحرية اختيار المواد التي يدرسونها بحيث «لا يمنع فقيه أو مستفيد من الطلبة بما يختاره من أنواع العلوم الشرعية»[5].

وكثيراً ما اعتمد هذا الإختيار على مكانة المدرس وشهرته العلمية، فابن حجر مثلاً وهو من كبار فقهاء القرن التاسع الهجري، اعتاد أن يجتمع حوله بعضة آلاف من المستمعين والمستملين. ويظل الطالب يحضر دروس أحد المدرسين أو الشيوخ حتى يأخذ منه كفايته، فينتقل إلى آخر. وهكذا حتى قال السيوطي عن نفسه «اخذت العلم عن ستمائة شخص» كذلك أخذ السخاوي العلم عن أكثر من أربعمائة نفس[6]. وتطلبت هذه الطريقة من طالب العلم أن يجول في مختلف البلاد والأمصار الإسلامية ليسمع من مشاهير العلماء فيها. وكان من الأمور المألوفة في تلك العصور أن يجوب طالب العلم مختلف المدن الإسلامية ليتتلمذ على شيخ معروف أو عالم ذائع الصيت[7].

وجدير بالذكر أن هذا النشاط العلمي في مجال التعليم لم يقتصر على الرجال فقط وإنما شمل النساء أيضاً في تلك العصور.

---

(١) ابن اياس: بدائع الزهور ج٢ ص١٥٨.
(٢) ابن تغري بردي: المنهل الصافي ج١ ص٣٤١.
(٣) مكررة: ابن طولون: مفاكهة الخلان ص٢٩٥.
(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٣٣ ص١٦٤. المقريزي: السلوك ج١ ص٧٠٠.
(٥) النويري: السلوك ج٣٠ ص١٥.
(٦) العيد روسي: النور السافر ص١٦ ـ ١٧.
(٧) القلقشندي: صبح الأعشى ج١ ص٤٦٧.

ويسجل التاريخ اسماء كثيرات ممن اشتغلن بالنحو وحفظن فيه الشيء الكثير، كما نظمن الشعر(١) وفي علم الطب اشتهر من النساء عدد غير قليل. أما من اشتغلن بالفقه والحديث فعددهن لا يحصى، ودأبت الكثيرات منهن على التنقل بين مختلف الأمصار الإسلامية ـ شأن فقهاء ذلك العصر ـ للسماع من كبار المحدثين والفقهاء(٢). بل إن كثيراً من كبار فقهاء المماليك تتلمذوا على ايدي الشهيرات وسمعوا من بعض المسندات الراسخات في العلم اللائي أجزن لهم(٣) ولم يأنف هؤلاء الفقهاء ـ مع عظم مكانتهم ـ من ذكر ذلك، بل على العكس ـ افتخروا بأنهم سمعوا عن فلانة وفلانة من المحدثات، وأن البعض أجزن لهم.

فابن حجر يذكر أنه حصل على اجازتين الأولى من شمس بنت ناصر الدين محمد، والثانية من خديجة بنت العماد الصالحية(٤). والسخاوي يصف كيف تزاحم طلبة العلم في عصره على إحدى المحدثات، ويفخر بأنه ممن حملوا عنها، كما أخذ عن غيرها(٥). كذلك يذكر السخاوي اسماء كثيرات ممن أجزن له مثل آمنة ابنة الشمس المتوفاة سنة ٨٣٣هـ، ورجب ابنة الشهاب أحمد المتوفاة سنة ٨٦٩هـ، وأم هانيء ابنة التقي محمد المتوفاة سنة ٨٨٥هـ(٦).

وهكذا اثبت تلك العصر أنه أوسع افقاً وارحب صدراً ممن ظن الكثيرون، فأسهمت المرأة بسهم وافر في التعلم والتعليم، وأقبلت عامة النساء على مجالس العلم والدين حيث كنّ يجلسن في مكان منفرد عن الرجال للسماع أو للإلقاء(٧).

ـ **أما بالنسبة للمكتبات:** فقد أدرك المماليك أهمية المكتبات بالنسبة للمدارس فقد عنوا بالكتاب والمكتبة عناية فائقة، والحقوا بكل مدرسة خزانة كتب يرجع إليها المدرسون والطلاب في البحث والإستقصاء(٨). وقام بالإشراف على خزانة الكتب بالمدرسة «خازن الكتب» الذي عهد إليه بترتيب الكتب وتنظيمها وحفظها وحبكها وترميمها بين حين وآخر، فضلاً عن إرشاد القراء إلى ما يلزمهم من مراجع. لذلك كان يختار لخزانة الكتب في المدرسة فقيهاً أو عالماً يشترط فيه سعة العلم والأمانة.

---

(١) ابن حجر: الدرر الكامنة ج٤ ص٣٩٥. السخاوي: الضوء اللامع ج١٢ ص٩.
(٢) سعيد عاشور: بحوث في تاريخ العصور الوسطى ص٤٥١.
(٣) السخاوي: الضوء اللامع ج١٢ ص١١٩.
(٤) ابن حجر: أنباء الغمر ج١ ص٥٥.
(٥) السخاوي: الضوء اللامع ج١٢ ص١٠ ـ ١١.
(٦) السخاوي: الضوء اللامع ج١٢ ص٤، ٩، ١٣٤.
(٧) ابن الحاج: المدخل ج٢ ص٢١٩.
(٨) القلقشندي: صبح الأعشى ج١ ص٤٦٧.

وقد نصت حجة وقف السلطان الغوري على أن يقوم الخازن بفتح الخزانة «المكتبة» يومين في الاسبوع لطلبة العلم «ومن طلب منه كتاباً في علم من العلوم أو فن من الفنون يدفع له ليتفع به في المدرسة، ولا يمكنه من الخروج به من المدرسة ولو دفع إليه شيئاً يساوي أضعاف قيمته»[١].

على أنه يستفاد من بعض الوثائق الأخرى المعاصرة أنه سمع بإعارة الكتب خارج المدرسة لطلبتها أو لمن يوثق بهم «بعد أخذ خطه منه. ولم يكن يسمح إلا بإعارة كتاب واحد، فإذا اعاده يسمح اسمه، وألا تتأخر الكتب عند المستعير حتى لا يحصل النسيان، بل يتعهدها الخازن بالسؤال»[٢].

ـ **أما بالنسبة للإجازات**: فإذا أتمّ طالب العلم دراسته وتأهل للفتيا والتدريس أجاز له شيخه ذلك، وكتب له إجازة ـ أي شهادة ـ يذكر فيها اسم الطالب وشيخه ومذهبه ونوع الإجازة وتاريخها... وغير ذلك[٣]. (كما فصلنا من قبل).

وأخيراً، فإن الحياة المدرسية ـ أو الجامعية ـ في العصر المملوكي لم تكن جافة، ولم تخلُ من ضروب الترويح عن النفس، فأقيمت بالمدارس بين حين وآخر حفلات في مختلف المناسبات العلمية، كختم البخاري أو الفراغ من تصنيف كتاب[٤]. وفي مثل هذه الحفلات المدرسية يقوم الراعي بإحضار «الحلوى والمخبوز والتفاح والفاكهة والبخور» حتى تصل نفقات الحفل أحياناً إلى خمسمائة دينار، ويجلس أهل المدرسة ومعهم الأعيان والقضاة وغيرهم حيث يمضون بعض الوقت في أحاديث ومناقشات علمية مفيدة.

ـ **الجامعات الغربية**: على أننا لا نريد أن نبالغ فنقول أن كل ما عرفه الغرب الاوروبي من نظم وتقاليد جامعية في العصور الوسطى أخذه عن العرب المسلمين، لأن الحياة العلمية نفسها لها خصائصها التلقائية المشتركة في جميع العصور وكافة البلاد. وعلى ذلك فإنه من العسف القول مثلاً بأن الطلاب الاوروبيين عندما دأبوا على الرحيل من بلد إلى آخر للتتلمذ على يد استاذ مشهور إنما حاكوا في ذلك طلاب العلم في الشرق، حيث كان طلب العلم هدفاً من الأهداف الرئيسية التي يشد من أجلها الرحال. ذلك أن روح العصر نفسها وصعوبة نقل الأفكار وندرة الكتب المنسوخة، فرضت على طلاب العلم ـ سواء في العالم الإسلامي أو المسيحي ـ أن يسلكوا هذا

(١) حجة وقف السلطان الغوري سنة ٩١١ (رقم ٨٨٣ ارشيف وزارة الاوقاف بالقاهرة).
(٢) عبد اللطيف ابراهيم: دراسات تاريخية واثرية ج١ تحقيق ٦٢٨.
(٣) القلقشندي: صبح الأعشى ج١٤ ص٣٢٢ ـ ٣٢٦.
(٤) السخاوي: التبر المسبوك ص٢١٦.

المسلك دون حاجة إلى توافر عنصر المحاكاة. وإذا سمعنا أن الطلبة المغتربين في بولونيا أو باريس قد نظموا أنفسهم في العصور الوسطى على هيئة جاليات أو اروقة، فإنه من المبالغة القول انهم أخذوا هذا التقليد عن المؤسسات الإسلامية، لأن طبيعة البشر تملي على المغتربين أن يتكاتفوا جميعاً، ليجد كل منهم من ابناء بلده سلوى تعينه على تخفيف آلام الغربة والحد من متاعبها وخاصة في تلك العصور.

وهذا قد تأثرت الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى بالجامعات ـ أو المدارس ـ الإسلامية ولكن إلى حد معين غير بعيد. أما إذا أدخلنا في اعتبارنا الأثر الذي تركه تدفق العلوم والمعارف الإسلامية على الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى، فلا بدّ من الإعتراف عندئذ بأن هذه المعارف أحدثت ثورة في الفكر الاوروبي منذ القرن الثاني عشر للميلاد، وهي الثورة التي تمخضت عن مولد الجامعات الاوروبية نفسها، ثم اعتماد هذه الجامعات ـ لعدة قرون تالية ـ في مناهجها ومواد دراستها والكتب التي كان يدرس منها المعلمون ويتعلم فيها المتعلمون، على الغذاء الفكري الذي قدمه لها علماء العرب المسلمين[١].

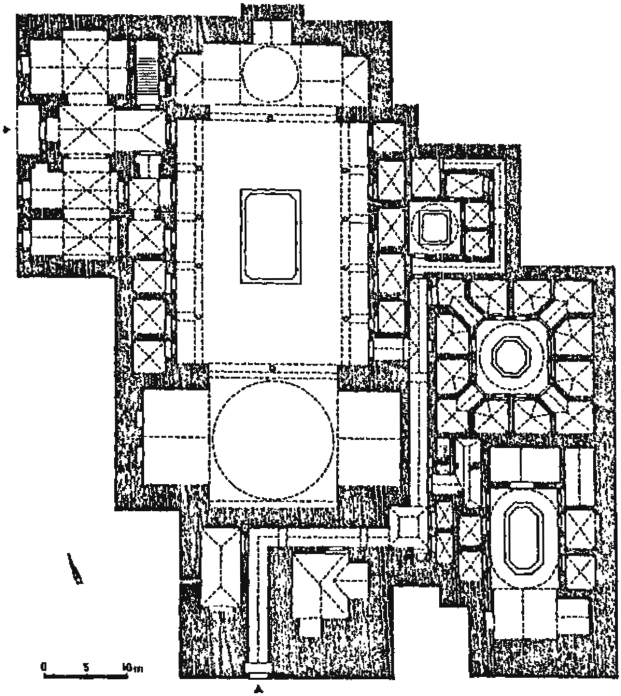
وحسبنا ما يقوله أحد علماء الغرب في هذا الموضوع من أن «روجر بيكون» درس اللغة العربية والعلم العربي في جامعة اكسفورد على تلاميذ اساتذته العرب في الأندلس. وليس لروجر بيكون ولا لسميه الذي جاء بعده (فرانسيس بيكون) الحق في أن ينسب إليهما الفضل في ابتكار المنهج التجريبي، إذ لم يكن روجر بيكون إلا رسولاً من رسل العلم والمنهج الإسلاميين إلى اوروبا المسيحية، وهو لم يمل قط من التصريح بأن تعلم معاصريه للغة العربية وعلوم العرب هو الطريق الوحيد للمعرفة الحقة...!!»[٢].

---

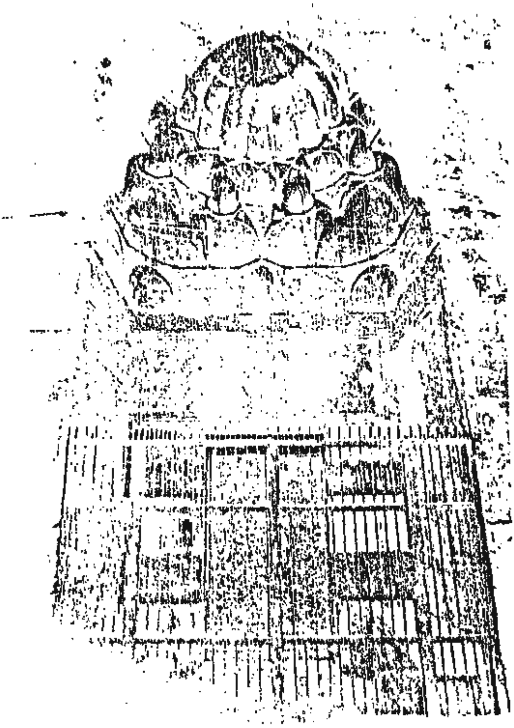
(١) سعيد عاشور: بحوث دراسات في تاريخ العصور الوسطى ص٤٨٢ ـ ٤٨٣.

(٢) Briffault: making of Humanity, pp. 201-202.

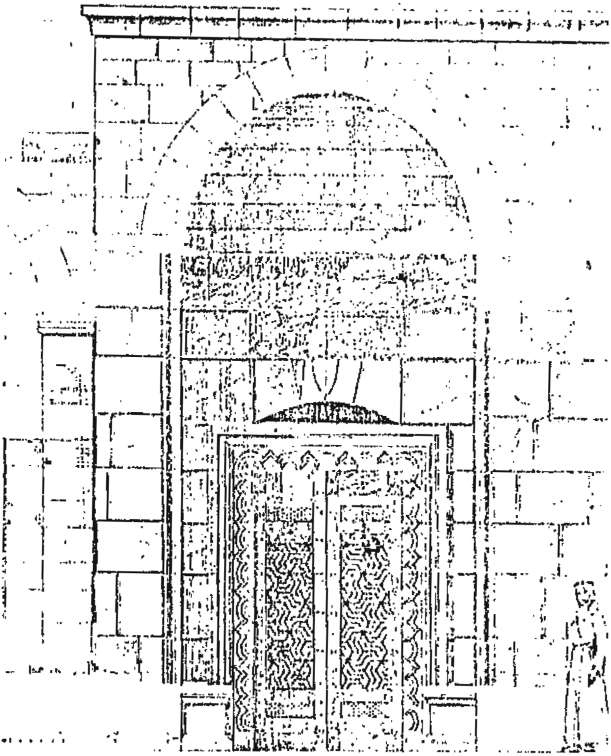
الملاحق



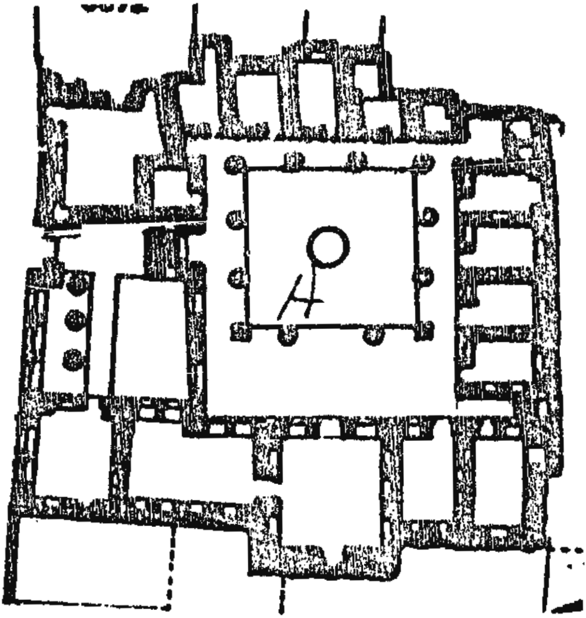
البيمارستان الأرغواني - مسقط حلب



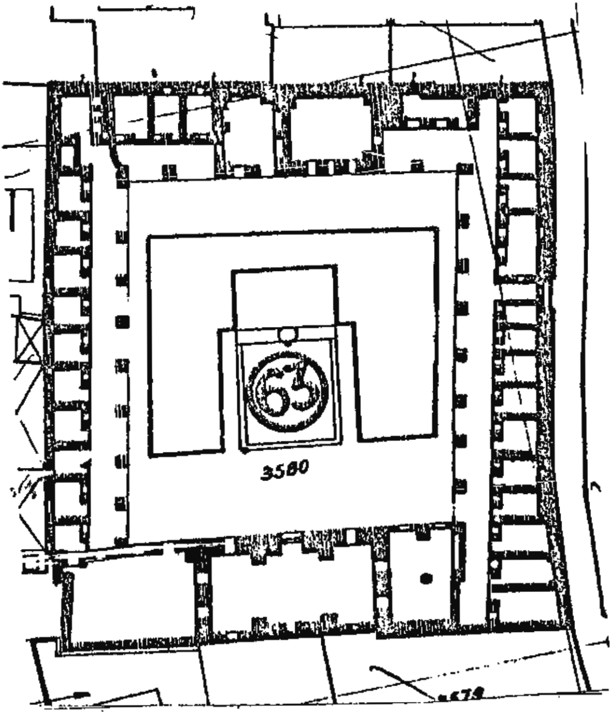
البيمارستان الأرغوني ـ الواجهة حلب



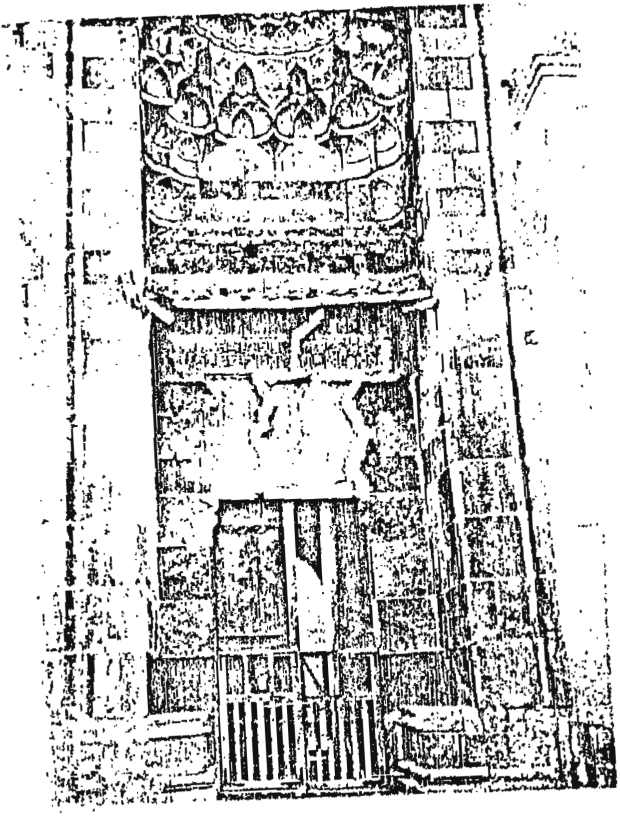
البيمارستان النوري ـ الواجهة (هرزفيلد)



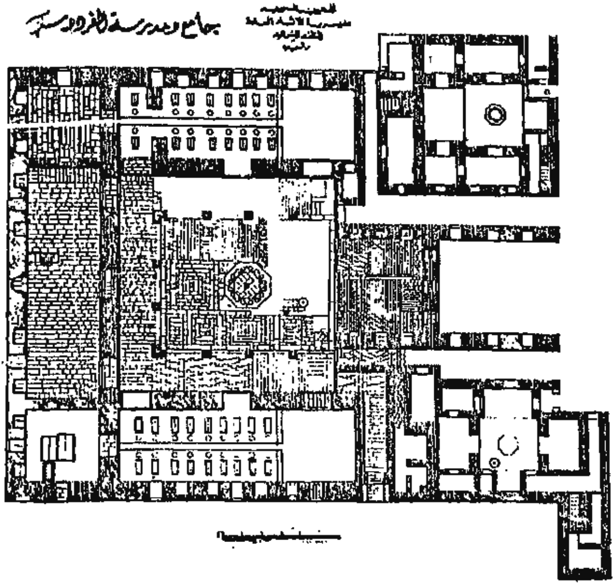
المدرسة الأحمدية ـ مسقط حلب



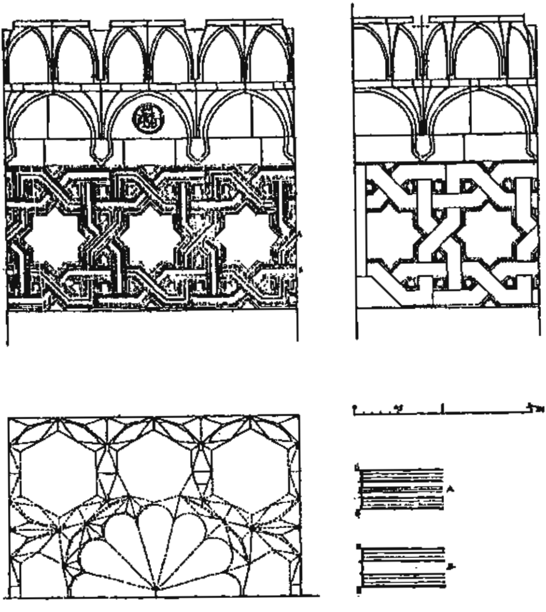
المدرسة الشعبانية ـ مسقط حلب



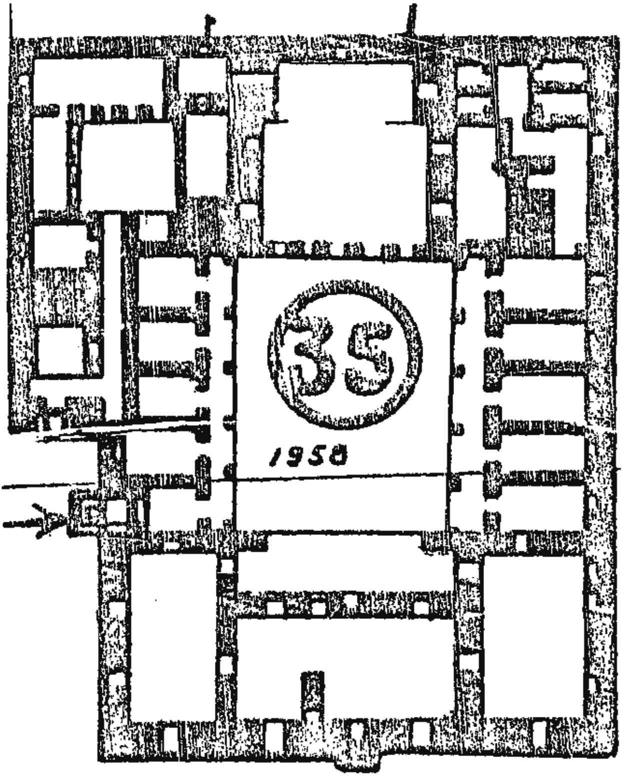
المدرسة السفاحية ـ صورة (عن هرتزفيلد)



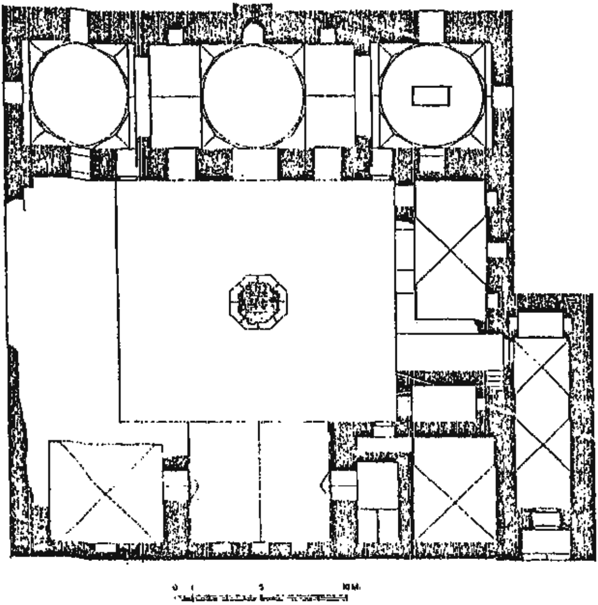
مدرسة الفردوس ـ مسقط (وهي جامع أيضاً)



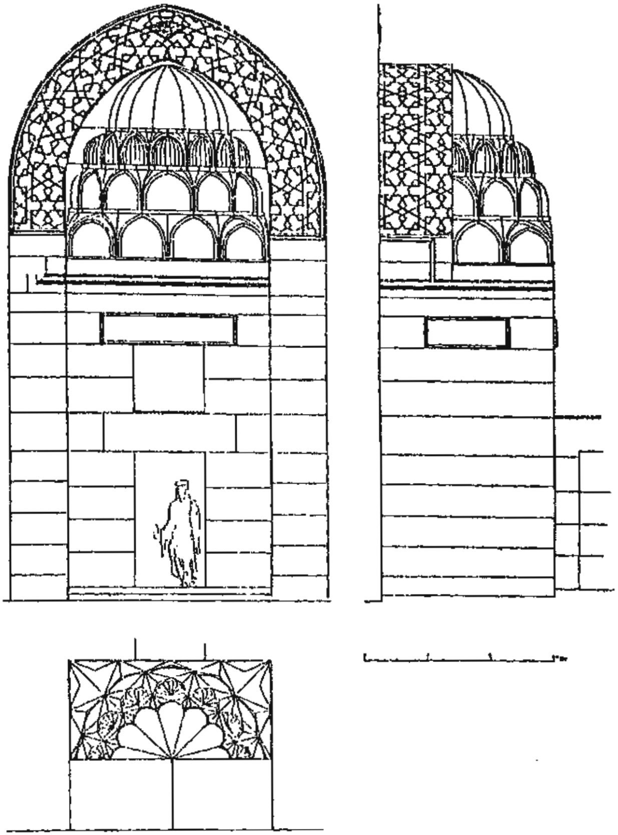
المدرسة الشرفية ـ حليات المدخل



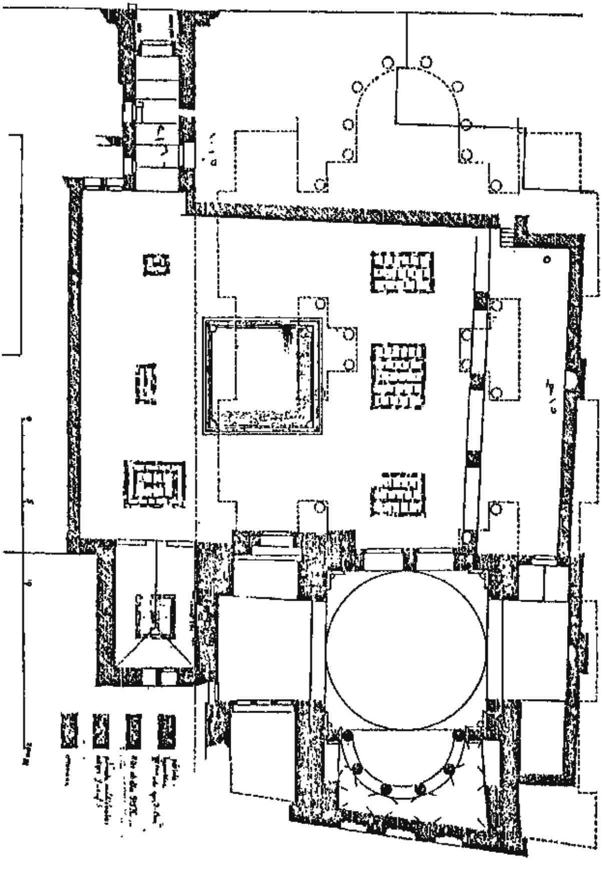
المدرسة الطرنطائية ـ مسقط حلب



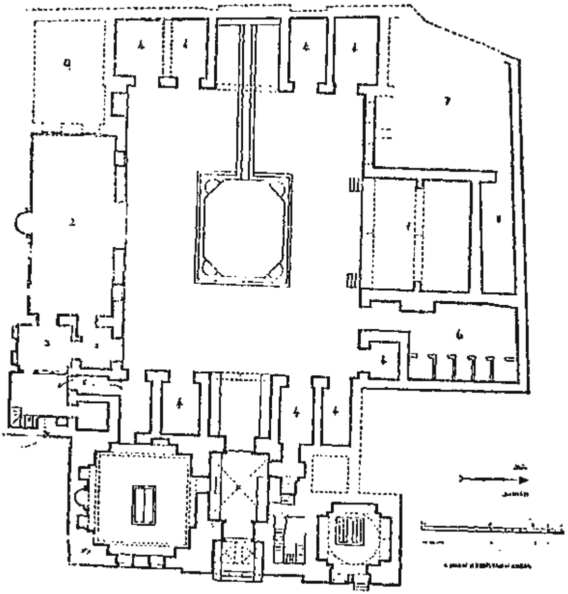
المدرسة الكاملية ـ مسقط



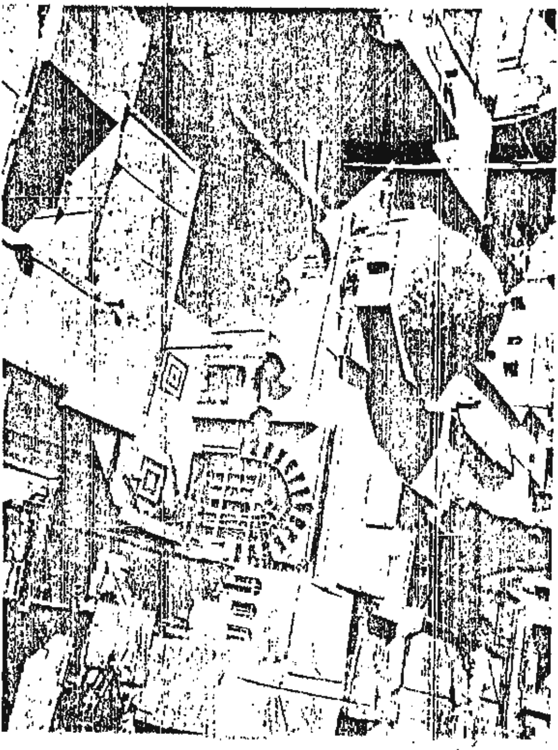
المدرسة الظاهرية البرانية ـ المدخل دمشق



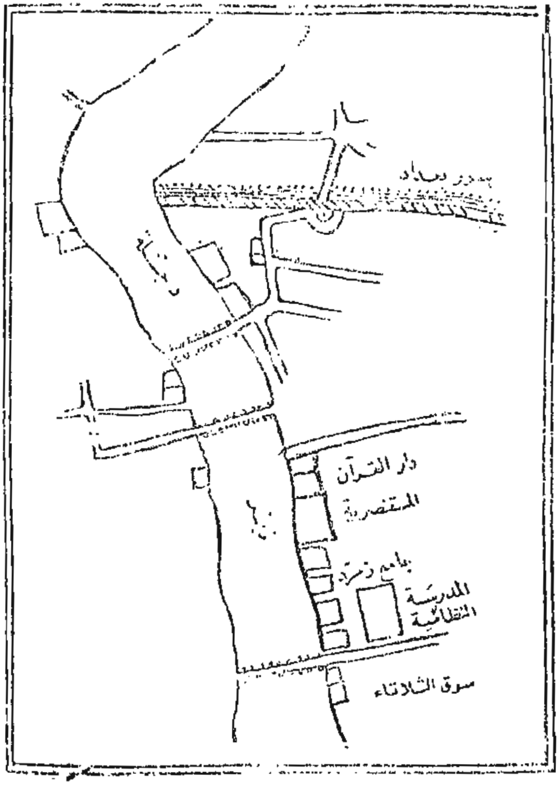
المدرسة الحلوية ـ مسقط (عن هرتزفيلد)



مخطط للمدرسة النورية الكبرى في دمشق



المدرسة الحلوية



خريطة تقريبية لبغداد في القرن السابع الهجري ويظهر بها موقع المدرسة النظامية

المصادر والمراجع

١ ـ مصادر عربية:

١ ـ الأبشيهي، شهاب الدين بن أحمد: المستطرف في كل فنّ مستظرف القاهرة سنة ١٣٠٨هـ، د.

٢ ـ ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم سنة ٦٦٨هـ: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الثقافة بيروت سنة ١٩٨١.

٣ ـ ابن الأثير، عز الدين بن محمد سنة ٦٣٠هـ: الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي سنة ١٩٩٧ تحقيق، د. عمر تدمري.

٤ ـ ابن إياس، محمد بن أحمد سنة ٩٣٠هـ: بدائع الزهور في وقائع الدهور، الهيئة المصرية العامة للطباعة سنة ١٩٨٤.

٥ ـ ابن الشحنة:

ـ المعارف العثمانية حيدر أباد سنة ١٣٥٩هـ.

ـ الدرّ المنتخب في تاريخ حلب، بيروت سنة ١٣٥٩هـ.

٦ ـ ابن العبري، غريغوريوس بن أهارون سنة ١٢٨٦، تاريخ مختصر الدول، بيروت سنة ١٨٩٠م تحقيق انطوان صالحاني اليسوعي.

٧ ـ ابن العماد، عبد الحي أحمد سنة ١٠٨٩هـ/١٦٧٩م: شذرات الذهب في أخبار من ذهب القاهرة سنة ١٣٥١هـ (١٨ جزءاً).

٨ ـ ابن بطوطة، محمد بن عبدالله بن إبراهيم سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٧م: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، القاهرة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م.

٩ ـ ابن تغري بردي، جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي سنة ٨٧٤هـ/ ١٤٧٠م: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ـ دار الكتب العلمية سنة ١٩٩٢.

١٠ ـ ابن جبير، محمد بن أحمد ت ٦١٤هـ: الرحلة ليدن سنة ١٩٠٧.

١١ ـ ابن جماعة، بدر الدين ت ٧٣٣هـ: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم دار الكتب العلمية ـ بيروت تحقيق محمد هاشم.

١٢ ـ ابن الجوزي، عبد الرحمان ت ٥٩٧هـ: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم (الهند ١٣٥٨هـ).

١٣ ـ ابن حجر، أحمد بن حجر، ٨٥٢هـ: الدرر الكامنة في المائة الثامنة حيدر أباد سنة ١٣٤٩هـ.

١٤ ـ ابن خلدون، عبد الرحمن ت ٨٠٨هـ:

١ ـ مقدمة ابن خلدون بيروت سنة ١٩٠٠ د.ت.

٢ ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر القاهرة سنة ١٢٧٤هـ، بيروت ١٩٦٥م.

١٥ ـ ابن خلكان، شمس الدين أحمد بن محمد ت ٦٨١هـ/ ١٢٨١م: وفيات الأعيان ١٢٧٥ القاهرة سنة ١٩٣٨م، تحقيق إحسان عباس، ت.

١٦ ـ ابن سينا، الحسين بن عبدالله ت سنة ٤٢٨هـ: القانون روما سنة ١٥٩٧م.

١٧ ـ ابن سحنون، محمد بن عبد السلام ت ٢٦٧هـ: آداب المعلمين تونس سنة ١٣٤٨هـ تحقيق حسن حسين عبد الوهاب، ت.

١٨ ـ ابن شداد، يوسف بن رافع ت٦٣٢هـ: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية المجلد الثالث (القاهرة ١٣١٧هـ)، د.

١٩ ـ ابن صصري: الدرّة المضيّة في الدولة الظاهرية لوس انجلوس سنة ١٩٦٣، حققه وليم بريمار، ت.

٢٠ ـ ابن طولون، محمد بن علي سنة ٩٥٣هـ:

١ ـ مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، دمشق سنة ١٩٤٩، تحقيق محمد أحمد دهمان، ت.

٢ ـ القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، دمشق سنة ١٩٤٩، تحقيق محمد أحمد دهمان.

٢١ ـ ابن عبد ربه، أحمد بن محمد ٣٢٧هـ: العقد الفريد القاهرة سنة ١٩١٣، د.

٢٢ ـ ابن فضل الله العمري، أحمد بن يحيى ٧٤٩هـ: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، القاهرة سنة ١٩٢٤.

٢٣ ـ ابن قتيبة، عبدالله بن مسلم ت ٢٧٦هـ: عيون الأخبار القاهرة سنة ١٩٢٨م.

٢٤ ـ القابسي، علي بن محمد بن خلف ت ٤٠٣ هـ: الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين والمتعلمين دار المعارف مصر سنة ١٩٨٠ تحقيق أحمد فؤاد الأهواني.

٢٥ ـ ابن كثير، عماد الدين أبي الفدا اسماعيل القرشي الدمشقي ت: ٧٧٤هـ/

١٣٧٢م: البداية والنهاية ـ مطبعة السعادة القاهرة سنة ١٣٥٨ مكتبة المعارف بيروت «ط» أ (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

٢٦ ـ ابن المبرد، يوسف بن عبد الهادي: ثمار المقاصد في دار المساجد ـ بيروت سنة ١٩٤٣ تحقيق أسعد طلس، ت.

٢٧ ـ ابن النديم، محمد بن إسحق سنة ٣٨٥هـ: الفهرست سنة ١٣٤٨ القاهرة.

٢٨ ـ ابن واصل، محمد بن سالم الحموي ٦٩٧هـ: مفرج الكروب ج٢ تحقيق جمال الدين الشيال القاهرة، ت.

٢٩ ـ ابو شامة، عبد الرحمن بن اسماعيل سنة ٦٦٥هـ: الروضتين القاهرة سنة ١٢٨٧هـ د.ت.

٣٠ ـ أبو الفدا، عماد الدين بن أيوب سنة ٧٣٢هـ: المختصر في أخبار البشر القسطنطينية سنة ١٢٥٦هـ.

٣١ ـ أبو الفرج الأصفهاني، ت ٣٥٦هـ: الأغاني ـ دار الكتاب العلمية، بيروت ـ الطبعة الثانية (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م) شرحه علي مهنا.

٣٢ ـ البلاذري، أحمد بن يحيى سنة ٢٧٩هـ: فتوح البلدان القاهرة سنة ١٣٥٠هـ، تحقيق رضوان محمد رضوان.ت.

٣٣ ـ الحنبلي، عبد الرحمن بن محمد ٩٢٧هـ: الأنس الجيلي القاهرة سنة ١٢٨٣هـ.

٣٤ ـ الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان سنة ٧٤٨هـ:

١ ـ تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، دار الكتاب العربي سنة ٩٧ تحقيق الدكتور عمر تدمري.

٢ ـ سير أعلام النبلاء مؤسسة الرسالة ـ بيروت سنة ١٩٨٥ تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون. ت.

٣٥ ـ الزرنوجي: من علماء القرن السابع الهجري: تعليم المتعلم اسطنبول سنة ١١٩٢هـ.

٣٦ ـ السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين سنة ٧٧١هـ:

١ ـ طبقات الشافعية الكبرى القاهرة سنة ١٣٢٤هـ.

معيد النعم ومبيد النقم ليدن سنة ١٩٠٨ ط أ القاهرة سنة ١٣٠٨ هـ.

٣٧ ـ السخاوي، محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ/ ١٤٩٧): الضوء اللامع دار الجيل ـ بيروت (١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م).

٣٨ ـ السيوطي، الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م):

١ ـ تاريخ الخلفاء دمشق سنة ١٣٥١ تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. ت.

٢ ـ حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة جزءان ـ تحقيق م ـ أ ـ إبراهيم القاهرة ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨.

٣٩ ـ الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم ٥٤٨هـ: الملل والنحل ليبمك سنة ١٩٢٣م.

٤٠ ـ الطبري، أبي جعفر محمد بن جرير سنة ٣١٠هـ: تاريخ الأمم والملوك دار العلم بيروت لبنان. د.ت.

٤١ ـ الظاهري، خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك ـ باريس سنة ١٩٩٤.

٤٢ ـ العلموي، عبد الباسط:

١ ـ مختصر تنبيه الطالب ـ دمشق سنة ١٩٤٧، تحقيق صلاح الدين المنج. ت.

٢ ـ المعيد في أدب المفيد والمستفيد دمشق سنة ١٣٤٩هـ، تحقيق أحمد عبيد. ت.

٤٣ ـ العمري، ابن فضل الله ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م: التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة سنة ١٨٩٤م.

٤٤ ـ الغزالي، محمد بن محمد سنة ٥٠٥هـ: أحياء علوم الدين القاهرة سنة ١٣٠٦هـ.

٤٥ ـ القزويني، زكريا بن محمد سنة ٦٨٢هـ: أثار البلاد وأخبار العباد كوتنجن سنة ١٨٤٧م.

٤٦ ـ القفطي، علي بن يوسف سنة ٦٤٦هـ: أخبار العلماء بأخبار الحكماء ليبسك سنة ١٣٢٠هـ. ودار الأثار بيروت د.ت.

٤٧ ـ القلقشندي، أحمد بن علي ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء (الجزء الخامس) القاهرة ١٩١٣ ـ ١٩٢٢م.

٤٨ ـ المقريزي، أحمد بن علي ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤٢م:

١ ـ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، ج١ و ٢ تحقيق محمد مصطفى زيادة، ج ٣ و ٤ تحقيق سعيد عاشور القاهرة ١٩٣٩ ـ ١٩٧١.

٢ ـ الخطط المقريزية: جزءان القاهرة ١٨٥٥م.

٤٩ ـ المقري، أحمد بن محمد سنة ١٠٤١هـ: نفح الطيب القاهرة ١٢٨٩هـ.
٥٠ ـ النعيمي، عبد القادر محمد سنة ٩٢٧هـ: الدارس في تاريخ المدارس دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٩٠.
٥١ ـ النويري، أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م: نهاية الأرب في فنون الأدب (١٨ج) القاهرة ١٩٢٣ ـ ١٩٣١.
٥٢ ـ اليونبيني، موسى بن محمد سنة ٧٢٦هـ: ذيل مرآة الزمان حيدر أباد سنة ١٩٥٥.

٢ ـ المراجع بالعربية

١ ـ أحمد شلبي: تاريخ التربية الإسلامية ـ القاهرة، مكتبة دار النهضة سنة ١٩٦٠.
٢ ـ أحمد عزت عبد الكريم: التقسيم الإداري لسوريا في عهد المماليك القاهرة سنة ١٩٥١.
٣ ـ أحمد عيسى: تاريخ البيمارستانات في الإسلام ـ دار الرائد العربي بيروت سنة ١٩٨١.
٤ ـ أكرم العلبي: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ـ الطبعة الأولى سنة ١٩٨٢.
٥ ـ جرجي زيدان:
١ ـ تاريخ أدب اللغة العربية ج ٢ و ٣ دار الهلال سنة ١٩٥٧.
٢ ـ تاريخ التمدن الإسلامي ـ القاهرة.
٦ ـ حاجي خليفة: كشف الظنون ـ ليبسك سنة ١٨٢٥.
٧ ـ حسن إبراهيم حسن:
١ ـ الفاطميون في مصر القاهرة سنة ١٩٣٢.
٢ ـ تاريخ الإسلام ـ مكتبة النهضة المصرية القاهرة ط١، سنة ١٩٦٧.
٨ ـ حسن شميساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت سنة ١٩٨٣.
٩ ـ حياة ناصر الحجي: أحوال العامة في حكم المماليك ـ شركة كاظمة للنشر والترجمة الكويت سنة ١٩٨٤.
١٠ ـ خليل طواطح: التربية عند العرب ـ المطبعة التجارية القدس.
١١ ـ خير الدين الزركلي: الأعلام (٨ أجزاء) دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٧٩.
١٢ ـ السيد الباز العريني: المماليك ـ دار النهضة العربية.

١٣ ـ ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية بيروت ـ دار الثقافة طبعة ثانية سنة ١٩٨٠.

١٤ ـ سعيد عاشور:

١ ـ الحركة الصليبية بيروت ـ دار النهضة العربية.

٢ ـ مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، بيروت دار النهضة العربية سنة ١٩٧٢.

١٥ ـ سهيل زكّار: مدن الشام في العصر المملوكي ـ دار حسان سنة ١٩٨٥.

١٦ ـ سيجريد هونكيه: شمس العرب تسطع على الغرب دار المعارف مصر ١٩٦٩.

١٧ ـ شوقي شعث: حلب ـ تاريخها ومعالمها ـ منشورات جامعة حلب سنة ١٩٩١.

١٨ ـ شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي الثاني دار المعارف مصر سنة ١٩٧٥.

١٩ ـ شيخ أمين بكري: المعاهد التعليمية ومناهجها في الدول الإسلامية مطبعة اليافي دمشق سنة ١٩٥٥.

٢٠ ـ صادق جودة: المدارس العصرونية ـ مؤسسة الرسالة.

٢١ ـ علي إبراهيم حسن: تاريخ المماليك البحرية ـ مكتبة النهضة المصرية (طبعة ثالثة) سنة ١٩٦٧.

٢٢ ـ عبد الفتاح جلال: من الأصول التربوية في الإسلام المنوفية مصر سنة ١٩٧٧.

٢٣ ـ عبد الفتاح قلعجي: حلب القديمة والحديثة ـ مؤسسة الرسالة سنة ١٩٨٩.

٢٤ ـ عبد القادر بدران: منادمة الأطلال دمشق سنة ١٩٦٠.

٢٥ ـ عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ـ مكتبة الانجلو ـ مصرية سنة ١٩٧٣.

٢٦ ـ عمر عبد السلام تدمري:

١ ـ الحياة الثقافية في طرابلس الشام دار فلسطين بيروت سنة ١٩٧٢.

٢ ـ آثار طرابلس الإسلامية ـ دار الإيمان طرابلس سنة ١٩٩٤.

٣ ـ تاريخ طرابلس السياسي والحضاري مؤسسة الرسالة الأيمان سنة ١٩٧٨ ـ ١٩٨١.

٢٧ ـ فيليب حتي:

١ ـ تاريخ لبنان ـ دار الثقافة بيروت.

٢ ـ تاريخ العرب ـ دار الكشاف بيروت سنة ١٩٦٥.

٢٨ ـ كامل الغزي: نهر الذهب في تاريخ حلب ـ المطبعة المارونية حلب (لا ـ ت).
٢٩ ـ محمد أسعد طلس: التربية والتعليم في الإسلام ـ دار العلم للملايين بيروت سنة ١٩٥٧.
٣٠ ـ محمد كرد علي: خطط الشام ـ مكتبة النوري دمشق سنة ١٩٨٣.
٣١ ـ محمد مصطفى الزحيلي: طرق تدريس التربية الإسلامية ـ المطبعة الجديدة، دمشق سنة ١٩٨١ ـ ١٩٨٢.
٣٢ ـ نادية جمال الدين: المعلم ومهنة التعليم ـ القاهرة سنة ١٩٨٦.
٣٣ ـ نقولا زيادة: دمشق في عصر المماليك مؤسسة فرنكلين ـ بيروت سنة ١٩٦٦.
٣٤ ـ وليم موير: تاريخ دولة المماليك في مصر القاهرة سنة ١٩٢٤.
٣٥ ـ ياسين الأيوبي: آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي مطبعة جروس برس سنة ١٩٩٥.

٣ ـ المراجع بالفرنسية والانكليزية

1 - Ashtor, Eliahu.
a - Les métaux précieux et la balance des payments du Proche-Orient à la basse époque, Paris: 1971.
b - Histoire des prix et des salaires dans l'Orient Médiéval, Paris: 1969.
2 - Ashtor - Straussi Prix et salaire à l'époque Mamlouk R-E-L-XV 1949.
3 - Esclavage du Mamlouk - Jérusalem. 1951 (Oriental Motes and studies).
4 - Adamson: The legacy of the Middle Ages. p. 256.
5 - Briffault: making of humanity: pp, 201 - 202.
6 - Colin: Contribution à l'étude des relations diplomatiqes entre les Musulmans d'Occident et l'Egypte au XVe S, le Caire 1935.
7 - Combe: Les Sultans Mamlouk Ashraf Chaaban et Ghoury à Alexandrie, Bull de la Soc d'Archéol, d'Alex - 1036.
8 - Catteenoz. H.G.
ÏTable de concordance des ères chrétiennes et hégiriennesÏ 2 Edition, Rabat & 954.
9 - Cahen Claude Jerusalem: 1968.
ÏThe Muslin city and heers Jacques the Mamlouk aristocracyÏ.
10 - Demombynes - G.
A - ÏLe Pélerinage de la MeddeÏ, Paris 1923.
b - La Syrie à l'époque des Memlouks, Paris 1923.

11 - Darrag: L'Egypte sous le règne de Barsbay, Damas 1961.
12 - Elisée ff (Nokitar), Nûr Adé Dîm, tome 3 Damas: Institut Français de Damas, 1967.
13 - GiBB H; Islamic Society and the West. Oxford university, New York, 1950.
14 - Heyd, W, Histoire du commerce du levant, 2T, Paris 1923.
15 - Hinz: W, Islamishe masse and Gewichte. Leiden. J, Brill. 1955.
a - Astdor.
b - Kammerer.A
ÏLa mer rougeÏ 6V le Caire 1935.
16 - Haskins: The Renaissance of the Twelfth Century, P,P. 380 - 382.
17 - Hasluk: Christianity and l'islam under the Sultans, 2 Vols. Oxfor 1929.
18 - Laoust. H-ÏLes gouverneurs de Damas sous Les Memlouks, et les premiers Ottomans (1200 - 1744)Ï, Damas, 289,p.
- Les révoltes populaires en Egypte à l'époque des Mamlouks et leurs causes économiquesÏ.
- Revue des études islamiques: 1934.
- La caractère colonial de l'état Mamlouk dans ses rapports avec la Horte d'or, Revue des études islamiques (1935,237248).
19 - Lam: some Mamlouk embroideries in ars islamica vol N. 1937 p.p. 65-76.
20 - Louis Pouzet: Damas au VIIe / XIIIe S
Vie et structures religieuses dans une métripole islamique.
Le 30 juin 1991. A RAYa - Linban.
21 - Mamlouk: Encyclopédie de l'Islam.
- La Syrie à l'époque des Mámlouks d'après les auteurs arabes: Paris 1923.
22 - Marino Sanute: Diarri (Journaux des consultats à l'époque des Mamlouks venise 1897 - 1903.
23 - Painter: A history of the Middle Ages.
24 - Powicke: Some problema in the history of the Mediavel University (Transactions of the Royal Historical society-Fouth Series, Vol XVII, 1943).
25 - Rashdall: The universities of Europe in the Middle Ages, vol 1.
26 - Sauvaget, Jean, les mouvements historiques de Damas Beyrouth Imprimerie Catholique, 1932.

27 - Thompson: The Middle Ages, Vol, 2p, 743.
28 - Taylor: The Med, Mind Vol.7.
29 - Wiet: (G) une inspiration du Sultan D Jakmak-B-KEL XXI 1938 - 1939.

فهرس المحتويات

٢٠٠١/٥/٦٦٣